تأملات فى سورة آل عمران

بقلم :
الدكتور حسن محمد باجودة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

المقدمـــة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فهذه الدّراسة المتأمّلة لسورة آل عمران المدنيّة وعنوانها : «تأمّلات فى سورة آل عمران » هى الدّراسة المتأمّلة الرّابعة عشرة فى سلسلة هذه التّأمّلات التى شملت السّور التّالية : على التّوالى ؛ سورة يوسف ، سورة مريم ، سورة يس ، سورة الإسراء ، سورة الفرقان ، سورة العاديات ، سورة النّازعات ، سورة الحاقّة ، سورة الرّعد ، سورة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، سورة الفاتحة ، سورة الأحزاب ، سورة البقرة (المخطوط فى ألفين وثلاثمائة صفحة) وها نحن أولاء نستعين الله تعالى على دراسة سورة آل عمران المدنيّة .

إنّ سورة آل عمران التى تشتمل على مائتى آية ، تتحدّث فى صدرها عن أهل الكتاب ، وتبيّن لهم وجه الحقّ فى عدد من المسائل ، وتأخذ بأيديهم إلى طريق الصّواب وبخاصّةٍ فيما يتعلّق بعيسى ابن مريم عليه السّلام وكونه عبدالله تعالى ورسوله وليس كما يزعم الغالون فيه بأنه ابن الله ـ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا ـ وفى حال إصرارهم على غلوّهم وإشراكهم مع الله تعالى سواه فالفيصل هو المباهلة ودعاء الله تعالى بحرارة أن يجعل لعنته على الكاذبين . والمعروف أنّ وفد نصارى نجران نكص عن المباهلة وَقَبِلَ أن يدفع الجزية .

وتتحدّث الآيات الكريمات بعد ذلك حول محورٍ واحد هو أنّ الدّين عند الله تعالى الإسلام﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

ثمَّ تتحدّث السورة الكريمة فى أكبر موضوعاتها وهو غزوة أُحد الّتى كان الحديث فيها وفى دروسها العظيمة فى ستّين آية كريمة ، ثمّ تتحدّث فى تعنّت أهل الكتاب وأخيراً تأتى خواتيم السّورة الكريمة .

وإنّ من أعظم دروس غزوة أُحد التّطبيق العملىّ لدرس الشّورى . فمع أنّ المصطفى ﷺ يأتيه الوحى من السّماء فإنّه يستشير فى المسجد النّبوىّ الشّريف أصحابه ويبيّن لهم فى الوقت ذاته رأيه وخطّته العسكريّة الّتى نجحت فى غزوة الأحزاب وينزل عليه الصّلاة والسّلام على رأى الجماعة بالخروج إلى المشركين ويأبى عليه الصّلاة والسّلام رأى الجماعة بعد ذلك بالرّجوع إلى رأيه عليه الصّلاة والسّلام فقد تمخّضت الشّورى عن رأى يجب تنفيذه وانتهى دور الشّورى وجاء دور العزم المتوكلّ علىٰ الله تعالى ويقول ﷺ بطل الأبطال وسيّد الرّجال وقد لبس عليه الصّلاة والسّلام كامل سلاحه ، قولته المشهورة : ما ينبغى لنبىّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يقاتل . ووضع المصطفى ﷺ خطّة عسكريّة أخرى ناجحة فقد كان النّصر حليف المسلمين حتّى خالف الرّماةُ أمر المصطفى ﷺ بعدم مغادرة الجبل بحالٍ من الأحوال وعدم كشف ظهور المسلمين للكافرين فتحوّل النّصر بإذن الله تعالى إلى هزيمة .

وفى دراستنا المتأمّلة للسّورة الكريمة حاولنا تبيين مظاهر إعجازها مع العناية بتبيين الرّوابط الظّاهرة والخفيّة بين موضوعات السّورة الكريمة وآياتها وأجزاء الآية الواحدة مع العناية بتبيين الدّروس المستفادة من آى الذّكر الحكيم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم .

ومن مظاهر إعجاز السّورة الكريمة البلاغة بالحذف ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى فى الآية الكريمة الثّالثة عشرة :﴿ فئةٌ تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة» وكأنّ أصل الكلام والله تعالى أعلم فئةٌ أولى مؤمنةٌ تقاتل فى سبيل الله وفئةٌ أخرى كافرةٌ تقاتل فى سبيل الشّيطان .

لقد عبّرت الجزئيّة الكريمة عن كامل المعنى بنصف الألفاظ .

ومن مظاهر إعجاز السّورة الكريمة كذلك التّرتيب المعجز لعددٍ من حبّات عقد المعانى ثمّ البناء المعجز لعددٍ من حبّات عقد المعانى مساوٍ لها فى العدد بحيث تكمل الحبّة من البناء الحبّة من الأساس وفق ترتيبٍ نضيد ونظمٍ فريد ومعنًى جديد . يكون ذلك أحياناً فى آيةٍ واحدة ، فقد وُصفِ المصطفى ﷺ بلين الجانب ولطف المعاملة ورقّة القلب . وقد بُنى على كلّ صفةٍ من هذه الصّفات الثّلاث الصّفة المترتّبة عليها من عفو واستغفار ومَشُورة . قال تعالى : ﴿فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكلّ على الله . إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾ ويكون ذلك أحياناً فى أكثر من آية . لقد طلب الكافرون من المؤمنين بعد غزوة أحد أن يخشوا أبا سفيان والمشركين فزادهم إيماناً واستعانوا بالله تعالى وتوكّلوا عليه جلّ وعلا . وقد نصّت على هذه المعانى الأربعة الآية الكريمة الثّالثة والسّبعون بعد المائة . قال تعالى : ﴿الّذين قال لهم النّاسُ إنّ النّاسَ قد جمَعُوا لكم فاخشوْهم فزادَهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ وقد بُنِى على كلّ معنى معنًى يترتّب عليه وتوّج كلّ ذلك بالفضل العظيم من الله تعالى وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتّبعُوا رِضْوَان الله . والله ذو فضلٍ عظيم ﴾ .

وأنتهز هذه المناسبة المباركة كى أُعْلِن ما أعلنته فى كلّ تأمّلاتى الّتى تَدْلِف اليوم فى الألف السّابع من الصّفحات بفضل الله تعالى ومَنّه بِأَنِّى أُشهد

اللّه الّذى لا إله إلّا هو أنىّ لم أشأ لحظةً من اللّحظات أن أحمّل حرفاً واحداً من كتاب الله تعالى فوق ما يحتمل ومن كان له على هذا العمل وكلّ عمل أدنى ملاحظة فلا يتردّد فى إعلانها فالحقّ أحقّ أن يُتَّبع . .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يوفّقنا لصالح الأعمال وأن يتقبّلها مِنّا فَضلاً منه جلّ وعلا ومِنّه وأن يأخذ بأيدينا إلى أقـوم‌سبيل وأن يعفوَ عمّا بدر منّا من تقصير ، وألّا يحرمنا من الأجر إنّه جلّ وعلا أكرم مسئول وأعظم مأمول .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حَمَلْته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . ﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة . . صبيحة يوم الخميس ١٤١٠/٥/٢٣هـ
الموافق ١٩٨٩/١٢/٢١م

كتبه
الفقير إلى عفو ربّه
الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

تمهيد

ثمّة مجموعةٌ من المسائل الّتى نودّ تدوينها بين يدى دراستنا المتأمّلة لسُورة آل عمران الكريمة .

١ ـ هذه السُورة مدنيّةٌ بإجماع[١] فقد أنزل بالمدينة المنوّرة سّورة البقرة ثمّ الأنفال ثمّ آل عمران[٢] وآياتها مائتان ، وكلماتها أربعمائة وخمسٌ وثمانون وحروفها أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وعشرون[٣] .

٢ ـ هذه السّورة ورد فى فضلها آثارٌ وأخبار ، فمن ذلك أنّها تُحاجُّ عن قارئها فى الآخرة ، ويُكْتَبُ لمن قرأ آخرها فى ليلةٍ كقيام ليلة ، فقد أُسْنِد عن عثمان بن عفّان أنّه قال : من قرأ آخر سورة آل عمران فى ليلة كتب له قيام ليلة . وخرّج مسلم عن النَّوّاس بن سَمْعان الكِلابىّ قال : سمعت النّبىّ ﷺ يقول : يُؤْتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الّذين كانوا يعملون به تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران . وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بَعْدُ ، قال : كأنّهما غمامتان أو ظُلّتان سوداوان بينهما شَرْق[٤] أو كأنّهما فِرْقان[٥] مِنْ طير صوافّ تحاجّان عن صاحبهما . وخرّج أيضاً عن

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٤٣

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسّيوطىّ ٤٣/١

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابورىّ مطبوع بهامش الطّبرىّ ١٢٨/٣ . وقد احصيتُ كلمات السّورة فى صفحةٍ واحدة من الاثنتين والعشرين فوجدتها اكثر من مائة كلمة .

(٤) الشّرق : الضّوء . وسكون الرّاء فيه اشهر من فتحها وانظر تفسير القرطبىّ ١٢٤٥

(٥) الفِرق : القطعة . ورواية مسلم حِزْقان . والحِزْق الجماعة .

أبى أمامة الباهلىّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اقرأوا القرآن فإنّه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزّهراويْنِ البقرة وسورة آل عمران فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّهما غمامتان أو كأنّهما غيايتان أو كأنّهما فِرْقان من طيرٍ صوافٍّ تحاجّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة . قال معاوية (بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث) بلغنى أنّ البطلة السّحرة [1] والغمام : السّحاب الملتفّ ، وهو الغياية إذا كانت قريباً من الرّأس ، وهى الظُّلّة أيضاً . والمعنى أنّ قارئهما فى ظلّ ثوابهما كما جاء : إنّ المؤمن فى ظلّ صدقته . وقوله : تحاجّان ، أى يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ملائكةً[2] .

٣ ـ ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قرأ بالبقرة وآل عمران فى ركعةٍ واحدة[3] .

٤ ـ روى الكِسائىّ أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه صلّى العشاء فاستفتح آل عمران فقرأ : الم . الله لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم ، فقرأ فى الرّكعة الأولى بمائة آية وفى الثانية بالمائة الباقية[4] .

٥ ـ للعلماء فى تسمية البقرة وآل عمران بالزّهراوين ثلاثة أقوال : الأوّل أنّهما النّيّرتان مأخوذ من الزّهَر والزُّهْرة فإمّا لهدايتهما قارئهما بما يَزْهَر له من أنوارهما أى من معانيهما . وإمّا لما يترتّب على قراءتهما من النّور التّامّ يوم القيامة وهو القول الثانى .

الثّالث : سمّيتا بذلك لأنّهما اشتركتا فيما تضمّنه اسم الله الأعظم ، كما

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٤٤ وتفسير ابن كثير ٣٤/١

(٢) تفسير القرطبىّ ١٢٤٥

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤/١

(٤) انظر تفسير القرطبىّ ١٢٤٤

ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أنّ رسول الله ﷺ قال : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : وإلٰهكم إلهٌ واحدٌ لا إلٰه إلّا هو الرّحمن الرّحيم . والّتى فى آل عمران : الله لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم . أخرجه ابن ماجه أيضاً(١) .

٦ ـ روى البخارىّ فى صحيحه(٢) أنّ عبدالله بن عبّاس بات عند ميمونة زوج النّبىّ ﷺ وهى خالته قال : فاضطجعت فى عَرْض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله فى طُولها ، فنام رسول الله ﷺ حتّى انتصف اللّيل أو قَبْله بقليل أو بعده بقليل ، ثمّ استيقظ رسول الله ﷺ فجعل يمسح النّوم عن وجهه بيديه ثمّ قرأ العشر الخواتمِ من سورة آل عمران ، ثمّ قام إلى شنّ(٣) معلّقة فتوضّأ منها فأحسن وضوءه ، ثمّ قام يصلّى فصنعت مثل ما صنع . ثمّ ذهبت فقمت إلى جنبه . فوضع رسول الله ﷺ يده اليُمْنى على رأسى ، وأخذ بأذنى بيده اليُمْنى يُفْتِلُها ، فصلّى ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ، ثمّ ركعتين ، ثمّ ركعتين ، ثمّ ركعتين ، ثمّ أوتر ، ثمّ اضطجع حتّى جاءه المؤذّن ، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثمّ خرج فصلّى الصّبح .

٧ ـ عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : ياعبيد ، ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشّاعر :

زر غبّاً تزدد حبّاً

فقال ابن عمر : ذرنا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كلّ أمره كان عجباً ، أتانى فى ليلةٍ حتّى مسّ جلده جلدى ثمّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٢٤٥
(٢) ٦/٥٢
(٣) القربة الخَلَق

قال : ذرينى أتعبّد لربىّ عزّ وجلّ . قالت : فقلت والله إنىّ لأحبّ قربك وإنّى أحبّ أن تعبد ربّك ، فقام إلى القربة فتوضّأ ولم يكثر صَبّ الماء ، ثمّ قام يصلّى ، فبكى حتّى بلّ لحيته ، ثمّ سجد فبكى حتّى بلّ الأرض ، ثمّ اضطجع على جنبه فبكى حتّى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصّبح قالت : فقال : يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال : ويحك يابلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله عليّ فى هذه اللّيلة : إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآيات لأولى الألباب . ثمّ قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها[1] .

٨ ـ ذُكر أنّ هذه السّورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالّذى ابتدأ به من نفى الألوهيّة أن يكون لغيره ووصفه نفسه بالّذى وصفها به في ابتدائها احتجاجًا منه بذلك على طائفةٍ من النّصارى قدموا على رسول ﷺ من نجران فحاجّوه فى عيسى صلوات الله عليه وألحدوا فى الله فأنزل الله عزّ وجلّ فى أمرهم وأمر عيسى من هذه السّورة نيّفاً وثلاثين آيةً من أوّلها احتجاجاً عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيّه محمّد ﷺ فأبوا إلاّ المقام على ضلالتهم وكفرهم فدعاهم إلى المباهلة فأبوا ذلك وسألوا قبول الجزية منهم فقبلها ﷺ منهم وانصرفوا إلى بلادهم[2] .

٩ ـ من موضوعات سورة آل عمران الرّئيسيّة غزوة أحد «عن محمّد بن إسحاق المطّلبى قال : فكان ممّا أنزل الله تبارك وتعالى فى يوم أحد من القرآن ستّون آيةً من آل عمران ، فيها صفة ما كان فى يومهم ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ **وإذ غدوت من أَهْلِك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميعٌ عليم** ﴾[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٤٠

(٢) تفسير الطّبرىّ ١٠٧/٣

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٢/٣

١٠ ـ تتحدّث السّورة الكريمة في أوّلها عن مسألة التّوحيد وعن الكتب السّماوية وترشد المؤمنين وتهديهم إلى الصرّاط المستقيم وتقرّر أنّ الدّين عند الله الإسلام وتحذّر من اتّخاذ الكافرين أولياء وتأمر بحبّ الله تعالى وطاعة المصطفى ﷺ ، ويستمرّ ذلك حتّى نهاية الآية الكريمة الثّانية والثّلاثين ، ثمّ يتحوّل الحديث إلى الرّدّ على نصارى نجران وتبيين وجه الحقّ فى عيسى عليه السّلام ودعوة أهل الكتاب إلى اتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ لأنّه هو الّذى جاء بالحنيفيّة السّمحة الّتى بعث الله تعالى بها إبراهيم عليه السّلام السّابق زمناً كلاًّ من موسى وعيسى عليهما السّلام ثمّ يعرّج السّياق على أوصاف أهل الكتاب الكثير سيّئها القليل حسنها ومن ذلك إعراضهم عن المصطفى ﷺ رغم أَخذ الميثاق من النبيّين بوجوب اتباع المصطفى ﷺ حينما يبعث ورغم أخذ النّبيّين الميثاق من أتباعهم . وابتداءً من الآية الكريمة الثّالثة والثّمانين ، قال تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السّماوات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وإليه يُرْجعون** ﴾ يتحوّل السّياق إلى الدّعوة بالدّخول فى دين الإسلام وتبيين نعوت المسلمين وتقرير أنّهم خير أمّةٍ أُخرجت للنّاس وتبيين مقوّمات هذه الخيريّة وتبيين نعوت أهل الكتاب الّذين اتّبعوا الرّسول النّبىّ الأمّىّ وتحذير المؤمنين من اتّخاذ غير المؤمنين بطانة . وابتداءً من الآية الكريمة الحادية والعشرين بعد المائة قال تعالى : ﴿ **وإذ غَدَوْتَ مِنْ أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميعٌ عليم** ﴾ يكون الحديث عن غزوة أحد فى ستّين آيةً كريمة ، ثمّ يتحوّل الحديث ابتداءً بالآية الكريمة الحادية والثّمانين بعد المائة إلى تعنّت أهل الكتاب وخيانتهم للأمانة ثمّ تأتى الإحدى عشرة آيةً الأخيرة وخواتيم سورة آل عمران وهى تجمع بين تبيين نعوت أولى الألباب ودعائهم والحديث عن المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى

وتسلية المؤمنين والتّسرية عنهم والثّناء على أهل الكتاب الّذين تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين فآمنوا بالقرآن الكريم واتّبعوا محمّد بن عبدالله ﷺ فلهم أجرهم الجزيل عند ربهم وثواب ايمانهم بمحمد ﷺ ورسول الله تعالى إليهم وتختم السّورة بأمر المؤمنين بالصّبر وبمصابرة أعداء الله تعالى وبالمرابطة فى الثّغور وعلى الحدود وبتقوى الله تعالى وذلك بأن تكون كلّ تلك الأعمال خالصةً لوجه الله تعالى لعلّهم يفلحون يوم القيامة بدخول الجنّة .

* * *

الدراسة المتأملة لسورة آل عمران

(١)
القرآن الكريم والمؤمنون به والكافرون
الآيات (١ـ ١٣)

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ
شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ

ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ
لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة «الم» الّتى يعتقد أنّها مظهرٌ من مظاهر التحدّى بالقرآن الكريم عن طريق التّنبيه إلى أنّ هذه الحروف هى الّتى يستعملها العرب وإلى أنّ كلمات القرآن الكريم تتألّف من هذه الحروف الّتى تتألّف منها بدورها الكلمات الّتى يستعملها العرب ولكنّ نظم القرآن الكريم نسيج وحده وفريد بابه . وبعد تقرير حقيقة الإلٰه الواحد الحىّ القيّوم يتمّ التّحوّل ، كعادة السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف ، إلى الحديث عن القرآن الكريم ، ويتّجه الحديث إلى الوراء فيكون الحديث عن التّوراة وعن الإنجيل المتمّم للتّوراة وعن سائر الكتب السماويّة السّابقة الّتى تفرق بين الحقّ والباطل . ويُنْذَر الكافرون بالعذاب الشّديد من الله تعالى العزيز ذى الانتقام . وبعد الحديث عن صفتى الحياة والقدرة للذّات العليّة يتمّ التّحوّل إلى صفة العلم فالله تعالى لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، وإلى صفة القدرة الّتى تتمثّل فى التّصوير فى الأرحام كيف يشاء جلّ وعلا وهى قدرةٌ تنبىء عن عزّةٍ وحكمة . وتتجلّى صفة المثانى الّتى يمتاز بها القرآن الكريم فى العودة إلى الحديث عن القرآن الكريم الّذى منه آياتٌ محكمات هنّ المعتمد فى الأحكام والحلال والحرام ، وأخر متشابهات . ويتّبع الّذين فى قلوبهم زيغٌ الآيات القليلة المتشابهات ابتغاء فتنة المسلمين عن دينهم وابتغاء تأويل القرآن الكريم وفق أهوائهم على حين لا يعلم تأويله إلّا الله تعالى : أمّا الراسخون فى العلم فيقولون آمنّا بالقرآن الكريم ويقولون إنّ المحكم والمتشابه من ربّنا جلّ وعلا . إنّ قلوب هؤلاء المؤمنين تنفعها الذّكرى فقد جمع الله تعالى لهم بين الألباب الرّاجحة والبصائر النّيّرة ، وهؤلاء يسألون الله

تعالى ألاّ يزيغ قلوبهم عن الهدى وأن يهب لهم من لدنه رحمة فإنّه جلّ وعلا الوهّاب الّذى لا تنفد خزائنه والّذى يزداد بالسّؤال إعطاءً . إنّ الّذين يّتبعون ما تشابه من القرآن الكريم لغاياتهم الخسيسة ضربٌ من الكافرين الّذين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً يوم القيامة وهم وراء ذلك وقود النّار والمادّة الّتى تشتعل بها . وإنّ دأب هؤلاء الكافرين كدأب آل فرعون والذين من قبلهم من المكذّبين الّذين أخذهم الله الشّديد العقاب بذنوبهم . ويؤمر المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين بأنّهم سيُغْلَبون وسيحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد . وهذا الفريق الأخير من الكافرين هم يهود بنى قينقاع فى المقام الأوّل وسائر الكافرين بعد ذلك . ويبيّن فى آخر آيات القسم وفى أسلوب القرآن الكريم المعجز العبرة الّتى ينبغى أن يأخذها الكافرون من نصر الله تعالى فى بدرٍ الفئة المؤمنة القليلة العدد والعدّة على الفئة الكافرة الكثيرة العدد والعدّة . والآية الكريمة تشير إلى مرحلةٍ واحدة من المراحل الكثيرة لتأييد الله تعالى الفئة المؤمنة فى غزوة بدر ، وهذه المرحلة هى الّتى أرى الله سبحانه وتعالى المشركين المسلمين مثلى عدد الكافرين حينما التحم الجيشان تمشّياً مع قوله تعالى فى الآية الكريمة الثّانية عشرة من سورة الأنفال : ﴿ **سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب** ﴾ والمعروف أنّ من الخصال الّتى خصّ الله تعالى بها خاتم النّبيّين النّصر بالرّعب الّذى يقذفه الله تعالى فى قلوب أعداء الله تعالى . إنّ الله سبحانه وتعالى يؤيّد بنصره من يشاء وإنّ فى ذلك النّصر رغم القلّة والذّلة لعبرة لأولى البصائر النّيّرة .

الآية رقم (١)

﴿ الم ﴾(١)

هذه الحروف الثّلاثة الّتى ابتدأت بها سورة آل عمران هى ذات الحروف الّتى ابتدأت بها سورة البقرة . وما قيل هنالك يقال هنا . وممّا يصحّ التّذكير به فى إيجاز أنّ هذه الحروف المقطّعة فى أوائل السّور امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم الّذى يَعْجَزُ الثّقلان ، الإنس والجنّ ، عن الإتيان بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . ففى هذه الحروف الإيماء إلى أنّ كلمات الكتاب العزيز مؤلّفة من الحروف الّتى تتألّف منها الكلمات الّتى يتفوّه بها العرب ، وإلى أنّ آى الذّكر الحكيم مؤلّفةٌ بدورها من الكلمات الّتى يحبّر بها العرب شعرهم ونثرهم ، ولكنّ نظم القرآن الكريم فريد بابه ونسيج وحده . وهذه الحقيقة زادها سواد اللّيل وبياض النّهار رسوخاً ووضوحاً . وممّا لوحظ كذلك بشأن السّور الكريمة الّتى ابتدأت بهذه الحروف المقطّعة وعددها تسعٌ وعشرون سورة أنّها تتضمّن دائماً وأبداً الحديث عن القرآن الكريم بطريقةٍ أو بأخرى . وإنّ سورة آل عمران هذه تُؤَكّد هذه الحقيقة فهى تتحدّث عن هذا الكتاب العزيز فى بدايتها وكذلك فى نهايتها ، فثمّة عودٌ على بدء ، وثمّة شدٌّ لآخر السّورة الكريمة بأوّلها وذلك فى الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين بعد المائة . قال تعالى : ﴿ **وإنّ مِنْ أهل الكتاب لمَنْ يؤمن بالله وما أُنْزِل إليكم وما أُنزِل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً . أولئك لهم أجرهم عند ربّهم . إنّ الله سريع الحساب** ﴾ . ونتحوّل إلى .

الآية رقم (٢)

قال تعالى : ﴿ الله لا إلهَ إلاّ هو الحىّ القيّوم ﴾(٢)

تبيّنا أنّ هذه الآية الكريمة جزءٌ من آية الكرسىّ وهى الآية الكريمة

الخامسة والخمسون بعد المائة من سورة البقرة ، وما قيل هنالك عن الجزئيّة الكريمة يقال هنا عن الآية الكريمة ، فالمستحقّ للعبادة وحده دون سواه هو الله الّذى لا إلهٰ إلّا هو الحىّ القيّوم . والملاحظ أنّ لفظ الجلالة «الله» وهو عظيم أسماء الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، إنّما يستعمل فى موقف العموم والشّمول ، فالله سبحانه وتعالى هو الّذى ينبغى أن يفرده كلّ الخلائق بالعبادة دون سواه فلا إلهٰ غيره ، ولا معبود بحقّ سواه ، وهذا الّذى فُهِم من ذكر لفظ الجلالة «الله» صرّح به القول : «لا إلهٰ إلّا هو» وتنصّ الآية الكريمة بعد ذلك على صفتين لهذا الإلهٰ الواحد ، هما صفة الحياة «الحىّ» وصفة القيّوميّة «القيّوم» . إنّ صفة الحياة تعنى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الحىّ الّذى لا يموت ، وقد جاء فى صفة المخلوقين قوله تعالى[1] : ﴿ **كلّ من عليها فان . ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام** ﴾ وقوله تعالى[2] ﴿ **ونُفِخ فى الصّور فَصَعِقَ من فى السّماوات ومن فى الأرض إلّا من شاء الله ثمّ نُفِخَ فيه أخرى فإذاهم قيامٌ ينظرون** ﴾ وإنّ صفة القيّوميّة ومعناها القيام على كلّ شىءٍ بما يجب له[3] ترتبط بها مجموعةٌ من الصّفات فى مقدّمتها الإحاطة بكل شىءٍ علماً والقدرة المطلقة .

وحينما نتبيّن أنّ صدراً من سورة آل عمران يردّ على وفد نصارى نجران الّذى جادل المصطفى ﷺ فى طبيعة السّيّد المسيح وقد غالوا فيه عليه الصّلاة والسّلام يكون معنى النّصّ على الحياة والقيّوميّة التّنبيه إلى النّصيب الّذى قسمه الله تعالى لعبده المصطفى عيسى عليه السّلام من الحياة ومن القدرة فى أثناء تلك الحياة ، وقد جاء فى سورة آل عمران[4] عن عيسى عليه السّلام قوله

---

(١) سورة الرّحمن ٢٦ ، ٢٧

(٢) سورة الزّمر ٦٨

(٣) البحر المحيط ٢٧٧/٢ . وانظر تفسير الطّبرىّ ٥/٣

(٤) الآية ٥٥

عزّ من قائل : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنّى متوفّيك ورافعك إليّ ومطهرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثمّ إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ وجاء فى سورة النّساء[1] قوله تعالى : ﴿ **وإن مِنْ أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الحيّ وهو حده لا شريك له القيّوم . وعلى عادة السّور الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة تتحدّث السّورة الكريمة عن الكتاب العزيز وهاتان هما :

الآيتان رقم (٣و ٤)

قال تعالى : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التّوارة والإنجيل من قبل هدىً للنّاس وأنزل الفرقان . إنّ الّذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديدٌ والله عزيزٌ ذو انتقام** ﴾ .

والآية الكريمة الأولى تنصّ على الثّلاثة الكتب السّماوية الأخيرة ، القرآن الكريم ، الّذى نزّله الله تعالى على محمّد بن عبدالله ﷺ وقد عبّر عنه بالكتاب باتّفاقٍ من المفسّرين[2] والتّوراة ، الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام . والإنجيل ، الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام . وممّا يلفت الانتباه فى الآية الكريمة استعمال جملة نزّل فى حقّ القرآن الكريم واستعمال جملة أنزل فى حقّ كلٍّ من التّوراة والإنجيل . وفى ضوء نزول القرآن الكريم منجّماً على المصطفى ﷺ بحسب الوقائع ومقتضيات الأحوال فى ثلاث وعشرين سنة نستطيع أن نجد دليلاً على ذلك فى جملة

---

(١) الآية ١٥٩

(٢) تفسير ابن عطية ٧/٣

نزّل ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **وقال الّذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة . كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا** ﴾ وفى ضوء نزول كلٍّ من التّوراة والإنجيل جملةً واحدةً نستطيع أن نجد دليلاً على ذلك أيضاً فى جملة أنزل . وبهذا نحن نرى رأي الزّمخشريّ الّذى ذهب إلى ذلك فى الكشّاف[2] كما نتبين ما تبيّنه أبو حيّان فى البحر المحيط[3] من كون التّضعيف فى نزّل والهمزة فى أَنزل للتّعدية .

ويُفْهَمُ من القول : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه** ﴾ أنّ القرآن الكريم كتابٌ موحى به من الله تعالى على المصطفى ﷺ الّذى نشعر برفيع منزلته عليه الصّلاة من مجىء اسم الضّمير الّذى خوطب به عليه الصّلاة والسّلام بالقول : «عليك» وهذا القرآن نزّله الله تعالى على النّبىّ ﷺ بالحقّ . وفى ضوء فهم قوله تعالى مِن سورة الإسراء[4] : ﴿ **وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل** ﴾ بأنّ المقصود بالحقّ فى المرّة الأولى كون الحقّ هدفاً لنزول القرآن الكريم وغاية ، وبأنّ المقصود بالحقّ فى المرّة الثّانية كون القرآن الكريم نزل متضمّناً للحقّ مشتملاً عليه[5] فى ضوء هذا الفهم نستطيع أن ننظر إلى لفظ الحقّ فى القول : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحقّ** ﴾ وأن نذهب إلى أنّ المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ الله سبحانه وتعالى نزّل على حبيبه المصطفى ﷺ الكتاب العزيز المتضمّن للحقّ المشتمل عليه ، وهذا المعنى يحفّ به بين يديه حقيقة كونه وحياً من الله تعالى حقّاً وصدقاً ، ويحفّ به من خلفه حقيقة كون الهدف من نزوله هو الحقّ الّذى يريد القرآن الكريم إحقاقه

---

(١) سورة الفرقان ٣٢

(٢) ٣٠٩/١ «فإن قلت : لم قيل نزّل الكتاب وانزل التّوراة والإنجيل قلت : لان القران نزل منجّماً ونزل الكتابان جملة» .

(٣) ٣٧٨/٢

(٤) الآية ١٠٥

(٥) درسنا الآية الكريمة فى كتابنا : «تاملات فى سورة الإسراء ص ٣١٥»

والصّدق الّذى يريد القرآن الكريم تثبيته .

ويُفْهَم من القول : «مصدقاً لما بين يديه» أن القرآن الكريم الّذى نزّله الله تعالى بالحقّ مصدّقٌ لما بين يديه ، أى لما تقدّم عليه فى الزّمن[1] من الكتاب وَمُهيْمنٌ عليه ، فبالإضافة إلى كون كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً فإنّ الكتب السّابقة على القرآن الكريم قد نالها التّحريف ، لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يتكفّل بحفظها ، أمّا القرآن الكريم فقد تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون** ﴾ ومن هنا كان القرآن الكريم مهيمناً على الكتاب قبله ، شهيداً على أنّ الكتب السّماويّة السّابقة حقٌّ من عند الله تعالى ، أميناً عليها حافظاً لها . قال عزّ من قائل[3] : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾ .

ويدخل فى الكتب السّابقة الّتى يصدّقها القرآن الكريم التّوراة والإنجيل وكان فى الآية الكريمة ذكرٌ لهذين الكتابين خصوصاً بعد عموم وذلك فى القول : ﴿ **وأنزل التّوراة والإنجيل** ﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ الحكمة من هذا التّخصيص أنّ أتباع هذين الكتابين هم الموجودون فعلاً بل إنّ مِنْ أتباع الكتابين الكريمين والرّسولين العظيمين من كان يسكن جزيرة العرب ، بل إنّ من اليهود من كان يسكن منطقة المدينة المنوّرة آنذاك وإنّ وفد نصارى نجران الّذى نزل فيه وفى عيسى عليه السّلام نيِّفٌ وثلاثون آيةً من أوّل السّورة كان قد وفد على المصطفى ﷺ فى المدينة المنوّرة وجادله فى المسجد النّبوىّ الشّريف[4]

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٩/٣

(٢) سورة الحجر ٩

(٣) سورة المائدة ٤٨

(٤) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ١٠٧/٣ وتفسير ابن عطيّة ٤/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٤٦

وكان تقديم التّوراة فى الذّكر على الإنجيل لكون التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى تسبق الإنجيل الذى أنزله الله تعالى على عيسى عليهما وعلى نبيِّنا صلوات الله تعالى وسلامه . ثمّ إنّ الإنجيل متمّمٌ للتّوراة مبنيٌّ عليها .

والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ إنزال التّوراة والإنجيل قبل القرآن الكريم ، كى يكونا هدى للناس يستنير كلٌّ من اليهود والنّصارى بنورهما . وصفة الهدى مشتركةٌ بين كلّ كتب الله تعالى ، وقد جاء فى حقّ القرآن الكريم قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **إنّ هذا القرآن يهدى لّلتى هى أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً** ﴾ .

وإذا كانت صفة الهداية مشتركةً بين كلّ الكتب السّماوية فإنّها تشترك كذلك فى صفة الفرقان أى الفَرْق بين الحقّ والباطل ، الفصل بين الطيّب والخبيث ، قال عزّ من قائل : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ .

إنّ من أسماء القرآن الكريم الفرقان ، وهى أساساً صفةٌ لهذا الكتاب العزيز ، وهى كذلك صفةٌ لكل الكتب السّماويّة . وبما أنّ القرآن الكريم قد جاء ذكره ابتداءً لشرفه ، وجاء بعد ذلك ذكرٌ لسائر الكتب السّماويّة السّابقة ، تلا ذلك تخصيصٌ للتّوراة والإنجيل بالذّكر ، فقد كان فى السّياق استمرارٌ فى السّير إلى الوراء ، إلى ما قبل التّوراة والإنجيل من الكتب السّماويّة عن طريق ذكر الصّفة الّتى تشملها كلّها وتضيف إلى السّياق معنىً جديداً هو صفة الفرق بين الحقّ والباطل إثر الحديث عن الصّفات الأخر للكتب السّماويّة من كونها حقّاً وعدلاً ، ويصدّق بعضها بعضاً ، وكونها هدًى للنّاس .

إنّه يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ فهم الفرقان بهذا المعنى أولى من فهمه

---

(١) سورة الإسراء ٩

بكونه عائداً إلى القرآن الكريم لأنّ اتّجاه الحديث إلى الماضى ولأنّ القرآن الكريم نال حظّه الموفور ابتداءً .

ولّما كان الهدف من إنزال القرآن الكريم المهيمن على الكتب السّابقة أن يؤمن النّاس به ويتبعوا محمّد بن عبدالله ﷺ الرّسول النّبىّ الأمّىّ ولكنّ كثيراً من النّاس أعرضوا عن الرّسول الكريم وكفروا بآيات الله تعالى ، يستوى فى ذلك مشركو العرب وكافرو اليهود والنّصارى ، فقد كان فى الآية الكريمة تهديدٌ لأولئك الكافرين : ﴿ **إنّ الّذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد والله عزيزٌ ذو انتقام** ﴾ إنّ الّذين كفروا بآيات الذّكر الحكيم ولم يؤمنوا بالرّسول الكريم لهم عذابٌ شديدٌ فى الآخرة فمأواهم النّار وبئس المصير ، وفى الدّنيا كذلك بالهزائم المتتابعة فى كلّ الميادين . وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة قوله تعالى[1] : ﴿ **قل لّلذين كفروا ستُغْلبون وتُحْشرون إلى جهنّم وبئس المهاد** ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى العزيز فى ملكه شديد العذاب ذو انتقامٍ ممّن عصاه .

وإذا كان السّياق من ذى قبل قد تحدّث عن الذّات العليّة من زاويتى الحياة والقدرة ، وكان الحديث عن القرآن الكريم وعن الكتب السّماوية السّابقة يومىء إلى صفة العلم فإنّ الآية الكريمة التّالية تصرّح بصفة العلم هذه فإلى . .

الآية رقم (٥)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الله لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء** ﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ كبر أو صغر جلّ أو حقر في السّماوات ولا في الأرض ، ولا يخرج شيءٌ في هذا الكون عن كونه في السّماء أو في الأرض .

---

(١) سورة آل عمران ١٢

وإنّ هذه الآية الكريمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى في سورة الأنعام[1]) :

﴿ **وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلاّ هو . ويعلم ما فى البرّ والبحر . وما تسقط من ورقةٍ إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ فى كتابٍ مبين** ﴾ . وبمثل قوله تعالى فى سورة الفرقان [2] : ﴿ **وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهى تُمْلى عليه بكرةً وأصيلا . قل أنزله الّذى يعلم السّرّ فى السّماوات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ وبمثل قوله تعالى فى سورة طه[3] : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السّرّ وأخفى . الله لا إلٰه إلاّ هو له الأسماء الحسنى** ﴾ .

ويلاحظ أنّه يتقدّم فى الآية ذكر الأرض على السّماء ، ووراء تأخّر لفظ السّماء فاصلةً فى الآية الكريمة متمشّيةً صوتيّاً مع الفواصل السّابقة واللاّحقة يصحّ أن يقال إنّ الأرض حينما تتقدّم فى مثل هذه المناسبة يراد التّنبيه إلى الشّىء الّذى يرتبط به المخاطب بأكثر من الشّىء الآخر . ومن البديهىّ أنّ علاقة الإنسان بتراب الأرض هو الأقوى وأنّ علمه بما يتّصل بالأرض هو السّابق . وإنّ هذه الحكمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى[4] : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون . وفى السّماء رزقكم وما توعدون** ﴾ أمّا حينما تتقدّم السّماء فى الذّكر فلأنّ السّماء أكبر من الأرض وأبعد تناولاً . وإنّ هذه الحكمة تذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة الذّاريات أيضاً[5] : ﴿ **والسّماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ .

والآية الكريمة التّالية تجمع بين العلم والقدرة فإلى :

---

(١) الآية ٥٩

(٢) الآية ٥ ، ٦

(٣) الآية ٧ ، ٨

(٤) سورة الذاريات ٢٠ ـ ٢٢

(٥) الآية ٤٧ ، ٤٨

الآية رقم (٦)

قال تعالى : ﴿ **هو الّذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إلٰه إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى يصوّرنا فى الأرحام كيف يشاء جلّ وعلا من حيث الجمال والقبح ، الطّول والقصر ، التّمام والنّقصان ، إلى غير ذلك من الصّفات . إنّ القادر على فعل ذلك هو الله الّذى لا إلٰه إلاّ هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه . ومع أنّ صفة العزّة جاءت فى هذه الآية الكريمة وفى الآية الكريمة الرّابعة كذلك فإنّها اقترنت فى الآية الكريمة الرّابعة بالانتقام ، لأنّ السّياق اقتضى ذلك فالله تعالى عزيزٌ منتقمٌ ممّن كفر بآياته جلّ وعلا ، على حين اقترنت هنا بالحكمة ، فالله سبحانه وتعالى الخالق البارىء المصوّر هو العزيز القادر على كلّ شىء الحكيم فيما يصنع ومن ذلك التّصوير فى الأرحام .

ولّما كان الوجه أشرف أجزاء الجسم وكان صغير الحجم بطبعه فإنّا نودّ أن ننظر إلى هذا الوجه الصّغير الحجم الجليل الخطر الّذى صوّره الله تعالى فى الرّحم كسائر الجسد والّذى شقّ فيه جلّ وعلا السّمع والبصر وأوجد فيه جلّ الحواس ، نودّ أن ننظر إلى هذا الوجه من جهة العزّة والحكمة .

لنأخذ على سبيل المثال واحداً من شعوب الأرض كبيراً عدده وتتشابه فيه قسمات وجوه أفراده تشابهاً كبيراً وليكن الشّعب الصّينىّ . إنّه على الرّغم من شدّة شبه الأوجه فإنّه من المستحيل أن تجد وجهين اثنين يتشابهان تماماً ، بل إنّه من المستحيل أن تجد أحد شقّى الوجه الواحد يشابه الشّقّ الآخر تماماً . إنّ هذا الاختلاف الحتمىّ بين الوجه والآخر بل بين الشّق من الوجه والشّقّ الآخر صنع الخالق البارىء المصوّر الّذى أتقن كلّ شىءٍ خلقه والّذى بدأ خلق الإنسان من طين .

وكى نتمثّل شيئاً من عظمة الاختلاف فى قسمات الوجه والوجه الآخر بل شقّ الوجه والشّقّ الآخر رغم صغر مساحة الوجه فى الإمكان أن نتخيّل طلباً يقدّم إلى أشهر الرّسّامين العالميين كى يرسم لنا من خياله العدد الّذى يستطيع من الوجوه المختلفة الّتى يتحقّق فيها الحدّ المسموح به من حرّيّة التّصرّف . باختصار إنّ العدد محدودٌ جدّا . قارن هذا العدد المحدود جدّاً باختلاف أوجه سكّان هذه الكرة الأرضيّة بحيث إنّه يستحيل وجود وجهين اثنين متماثلين .

وما لنا نذهب إلى الأوجه وإنّ إختلاف بصمتى الإبهامين للشّخص الواحد لأقرب تناولاً وأشدّ وضوحاً رغم ما يَسْبِق إليه الرُّوع للوهلة الأولى من اعتقاد تشابه كلّ البصمات !

جاء فى الحديث الّذى رواه ابن مسعود وغيره عن النّبىّ ﷺ أنّ النّطفة إذا وقعت فى الرّحم مكثت نطفةً أربعين يوماً ثمّ تكون علقةً أربعين يوماً ثمّ مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليها ملكا فيقول : ياربّ ، أذكرٌ أم أنثى ، أشقىّ أم سعيد . الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه[1]

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم من غير أبٍ وأمّ ، وخلق حوّاء من ضلع آدم ، وخلق عيسى عليه السّلام من أمّ ومن غير أب ، وخلق سائر النّاس من أمّ وأب . وهذه الحقائق معناها أنّ كل النّاس باستثناء آدم وحوّاء عليهما السّلام قد اشتملت عليهم أرحام الأمّهات وصوّرهم الله تعالى كيف يشاء ، ومن هؤلاء بل فى مقدّمة هؤلاء عيسى عليه السّلام الّذى يزعم الغالون من أتباعه عليه السّلام أنّه إلهٰ : ﴿ **كبرت كلمةً تخرج من أفواهم إن يقولون إلاّ كذبا** ﴾[2] مع أنّ أوّل ما جرى على لسانه عليه الصّلاة والسّلام وهو فى المهد

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٥/٣ وانظر تفسير الطبرىّ ١١٢/٣

(٢) سورة الكهف ٥

قوله عزّ من قائل كما جاء على لسانه عليه الصّلاة والسّلام فى سورة مريم[1] : ﴿ **قال إنّى عبد الله آتانِى الكتابَ وجعلنى نبيّا** ﴾ .

وهكذا نتبيّن أنّنا ننعم بالتقلّب فى أجواء التوحيد ونعوت الله تعالى من حياةٍ وقدرةٍ وعلمٍ وعزّةٍ مع انتقام وعزّةٍ مع حكمة ، كما نتبيّن أنّ المعانى تتتابع تتابع الموجات ، وفى كلّ موجةٍ ، سواء كانت جديدة أو مستأنفة ، الجديد من المعانى أو المزيد من المعانى ، أو أنّ المعانى تتتابع تتابع قطرات الماء المنهمر من السّماء حينما تنزل القطرات المتتابعة ، وتترك بين القطرات المسافات المتفاوتة ، وحينما تتتابع القطرات ، وتضيق المسافات حتّى تنعدم ، وفى سبيل ذلك ربّما وقعت القطرة على القطرة فجاءت بالمزيد ، أو أن تكون القطرة قد وقعت بجوار القطرة فأتت بالجديد . وفى كلّ الأحوال تطرب الأذن ، وتلذّ العين ، وتبتهج النّفس ، ويرتاح الفؤاد . وفى مجال المحسوسات تنبت الأرض إن كانت خصبة من كلّ زوجٍ بهيج . وفى مجال المعنويّات تهتدى النّفس للطّريقة الّتى هى أقوم . إنّ فى مثل هذه الطّريقة اللّطيفة البهيجة العجيبة تتتابع قطرات غيث القرآن الكريم ، ويتدفّق ماؤه الثّرّ العذب النّمير ، وتتوالى موجات معانيه الجديدة القديمة ، المستأنفة وغير المستأنفة ، ومن هذه القطرات أو الموجات الآية الكريمة التّالية ذات المعنى الجديد القديم المستأنف وغير المستأنف ، فهى تتحدّث عن الكتاب العزيز الّذى سبق أن تحدّثت السّورة الكريمة عنه فالموضوع غير جديد وغير مستأنف ، وهى تتحدّث عن الكتاب العزيز من زاويةٍ جديدة ففى المعانى طرافةٌ وجِدّة ، فإلى :

الآية رقم (٧)

قال تعالى : ﴿ **هو الّذى أنزل عليك الكتاب مِنْهُ آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ**

---

(١) الآية ٣٠

الكتاب وأُخَرُ متشابهات ، فأمّا الّذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويلَه إلاّ الله . والرّاسخون فى العلم يَقُولُونَ آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلاّ أُولو الألباب ﴾

والآية الكريمة تبدأ على غرار الآية الكريمة السّابقة باسم الضّمير «هو» واسم الموصول «الّذى» العائدين على الذّات العليّة ، وبهذا تؤكّد الآية الكريمة ذات المعنى الّذى قرّرته الآية الكريمةالثّالثة فى القول : ﴿ **نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه** ﴾ ووراء ذلك تقرّر الآية الكريمة أنّ مِنَ الكتاب العزيز آياتٍ محكمات واضحات المعنى قريبات التّناول محدّدات الدّلالة لا مجال فيها لتأويل مؤوّل ذى هوى ، ولا فرصة معها لتحريف مبطل ذى غرض . وهذه الآيات الكريمات هنّ أمّ الكتاب ومعتمده فى الأحكام ومستنده فى الحلال والحرام ، وهنّ جُلّ الكتاب ومعظمه و«أصل الكتاب الّذى فيه عماد الدّين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم وما كلّفوا من الفرائض فى عاجلهم وآجلهم . وإنّما سمّاهنّ أمّ الكتاب لأنّهنّ معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه . وكذلك تفعل العرب تسمّى الجامع معظم الشّىء أمّاً له ، فتسمّى راية القوم الّتى تجمعهم فى العساكر أمّهم والمدبّر معظم أمر القرية والبلدة أمّها»(١)

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من الكتاب العزيز آياتٍ أخر متشابهات ، بعيدات المعنى عميقات الغور قصيّات المغزى . وهذا النّوع من آى الكتاب العزيز قليلٌ عدده وهو بحاجةٍ إلى أن ينظر إليه فى ضوء الآيات المحكمات وليس بالعكس .

وعلى غرار اتّجاه الحديث من ذى قبل بدرجة أقوى إلى الكافرين بآيات الله تعالى وتهديدهم بالعذاب الشّديد الّذى ينتظرهم وانتقام العزيز المنتقم من

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١١٣/٣

القوم الكافرين يتّجه الحديث هنا إلى فريقٍ من جنس هذا الفريق الكافر وذلك فى القول : ﴿ **فأمّا الّذين فى قلوبهم زيْغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويلَهُ إلاّ الله** ﴾ .

والزّيغ يدلّ على ميل الشّىء . يقال : زاغت الشّمس وذلك إذا مالت وفاء الفىْءُ[1] هذا هو المعنى الأوّلىّ . ثمّ أصبح بمعنى الميل عن الاستقامة[2] والخروج عن الحقّ إلى الباطل[3] والمعنى هنا : فأمّا الّذين فى قلوبهم ميلٌ عن الحقّ وانحرافٌ عنه[4] وفسّر الزّيغ بالميل عن الهدى ابن مسعود وجماعة من الصّحابة ومجاهد ومحمّد بن جعفر بن الزّبير وغيرهم[5] إنّ الّذين فى قلوبهم زيغٌ وفى نفوسهم مرضٌ وشكوكٌ ووساوس يتّبعون ما تشابه من القرآن الكريم ويهجرون محكمه . وإنّما كان منهم هجرٌ لمحكم القرآن الكريم لأنّهم لن يستطيعوا تأويله وفق أهوائهم المنحرفة ونفوسهم المريضة ، لذا هم يتّبعون ما تشابه منه . وانظر إلى جملة يتّبعون الّتى تدلّ على الاتّباع المطلق لهذا المتشابه للسّببين اللّذين نصّت عليهما الآية الكريمة : ﴿ **ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ والمراد بالفتنة فتنة المسلمين عن دينهم عن طريق إثارة الشّكوك والرّيَب واللّبس . والمراد بالتّأويل ليّ أعناق النّصوص القرآنيّة كى توافق «ما فى قلوبهم من الزّيغ وما ركبوه من الضّلالة»[6] .

وينبغى أن يكون لتكرار لفظ «ابتغاء» معناه ومغزاه فهم يبتغون الفتنة تارةً إذا سوّلت لهم أنفسهم الأمّارة بالسّوء ذلك وهم يبتغون تأويله تارةً أخرى ، لأنّ الموجّة للنّصوص القرآنيّة تلك النّفوس الخبيثة الّتى استزلّها الشّيطان

---

(١) معجم مقاييس اللّغة «زيغ» ٤٠/٣

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى «زيغ» ص ٢١٧

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٥/٢

(٤) تفسير الطّبرىّ ١١٧/٣

(٥) البحر المحيط ٣٨٣/٢

(٦) تفسير الطّبرىّ ١٢١/٣

الرّجيم . جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النّبىّ ﷺ فى رواية البخارى ومسلم وأبى داود وأحمد وابن ماجة وابن حبّان والتّرمذىّ[1] واللّفظ للبخارىّ[2] «فإذا رأيت الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين سمّى الله فاحذروهم» وذلك حينما سئل عليه الصّلاة والسّلام عن هذه الآية[3] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ معنى ذلك المتشابه لا يعلمه إلاّ الله تعالى : « وما يعلم تأويله إلاّ الله» .

وحينما يتّبع الّذين فى قلوبهم زيغٌ ما تشابه من القرآن الكريم يتّبع الّذين فى قلوبهم إيمانٌ وتقوى الآيات المحكمات . وهذا أمرٌ مفهوم بداهة . والآية الكريمة تتجاوز هذا المفهوم وتتجاوز صفة الإيمان بل صفة العلم إلى تقرير صفة القوم المثاليّة الّتى تشتمل على كلّ الصّفات الحسنة المذكورة . وهذه الصّفة هى الرّسوخ فى العلم الّذى لهم قدمٌ ثابتةٌ فيه . إنّ هذه الصّفة تتحقّق فى «العلماء الّذين قد أَتْقَنُوا علمهم ووعوه فحفظوه حفظاً لا يدخلهم فى معرفتهم وعلمهم بما علموه شكّ ولا لبس . وأصل ذلك من رسوخ الشّىء فى الشّىء وهو ثبوته وولوجه فيه . يقال منه : رسخ الإيمان فى قلب فلان فهو يرسخ رسخاً ورسوخاً»[4] .

إنّ هؤلاء الرّاسخين فى العلم الّذين يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما آتاهم من فضله القليل من العلم والّذين يعلمون أنّهم إنّما يعلمون ما علّمهم الله تعالى إيّاه يقولون من أعماق قلوبهم آمنّا بالقرآن الكريم الّذى أوْحى جلّ وعلا به إلى خاتم أنبيائه وأشرف رسله محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، ويقولون إنّ كلاًّ من المحكم والمتشابه من عند ربّهم جلّ وعلا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٤٥/٢ ، ٣٤٦
(٢) صحيح البخارىّ ٤٢/٦
(٣) وانظر تفسير الطّبرىّ ١٢٠/٣ وتفسير ابن عطيّة ٢٣/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٥١
(٤) تفسير الطّبرىّ ١٢٣/٣

وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذى يجرى على ألسنة الرّاسخين فى العلم وذلك فى القول : ﴿ كلٌّ من عند ربّنا ﴾ والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يجىء فى القرآن الكريم في مواطن الخصوص والتّنبيه إلى نعم الله تعالى وآلائه المتمثّلة فى تربيته جلّ وعلا عباده وفى مواطن الرّضا والابتهاج والتّعبير عن الامتنان والشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه . إنّ كلّ هذه المعانى يتمثّلها جيّداً الرّاسخون فى العلم . والمعروف أنّ الرّسوخ فى العلم يزيد العالم رسوخ إيمانٍ ويقين ، وذلك دليلٌ على أنّ الرّاسخين فى العلم استعملوا عقولهم الّتى منحهم الله تعالى إيّاها استعمالاً صحيحاً فامتلأت قلوبُهم إيماناً ونفوسهم خشية وازدادت بصائرهم نوراً . ما أجمل العقل الصّحيح الّذى يتوصّل به إلى العلم الصّحيح الّذى يقود بدوره إلى الاستنتاج الصّحيح والاستدلال المليح فيمتلىء القلب خشية وينتج من ذلك التّعاون والتّكامل بين العقل والقلب الفكر والفؤاد . إنّه بسبب التّعاون والتّكامل بين اللّبّ والقلب والانتهاء إلى الإيمان الصّحيح والخشية العميقة بناءً على العلم الصّحيح كان فضل العلم على العبادة وكان فضل العالم على العابد ، وقد تجلّى ذلك فى أمر الله تعالى الملائكة الّذين يمثّلون العبّاد والعبادة أن يسجدوا لآدم عليه السّلام الّذى يمثل العالِم والعلم سجود تحيّة وتكرمة .

إنّ هذه المعانى العميقة والمرامى القصيّة الّتى يتمّ الوصول إليها والحصول عليها عن طريق التّعاون بين العقل والقلب تنبّه عليها الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ **وما يذّكّر إلاّ أولو الألباب** ﴾ إنّ ذوى العقول السّليمة والفِطَر المستقيمة تنفعهم الذّكرى وتملأ قلوبهم خشيةً الموعظةُ بل تزيدهم خشوعا ، لأنّ العقل السّليم الّذى يتوسّل به إلى العلم إنّما يقود إلى العلم النّافع والفهم السّليم والاستنتاج الصّحيح ، ومن هنا يتذكّر أولو الألباب ويتّعظ أولو العقول ، بل إنّ التّذكّر خاصٌّ بهم والموعظة مقصورةٌ عليهم ، فبهذا صرّحت الآية الكريمة فى القول : ﴿ **وما يذّكر إلاّ أولو الألباب** ﴾ .

إنّ زيغ القلوب حالٌ مرغوبٌ عنها وإنّ الآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بهذه الحال المرغوب عنها فإلى :

الآية رقم (٨)

قال تعالى : ﴿ **ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هَدَيتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب** ﴾ .

إنّ ربّ العزّة البرّ الرّءوف الرّحيم بعباده يلّقنهم الدّعاء الّذى يدعونه به جلّ وعلا وهم الّذين آتاهم العقول السّليمة والبصائر النّيّرة . وهذا الدّعاء ذو علاقة بالحال المرغوب عنها الّتى تورّطت فيها قلوب الّذين يتّبعون ما تشابه من آى الذّكر الحكيم ويهجرون محكمه لغايات خسيسة وأغراض دنيئة . إنّ الدّعاء الّذى يلقّنه الله تعالى عباده يبدأ بالقول : «ربّنا» والمعنى ياربّنا ، وإنّ حذف حرف النّداء يوحى بقرب المنادى وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أُجيب دعوةَ الدّاعِ إذا دَعَان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشدون** ﴾ وانظر إلى لفظ الرّبّ الحبيب الّذى يستعمل فى مواطن السّرور والبهجة والامتنان لتربية البارى جلّ وعلا عباده بنعمه وآلائه دليلاً على نداء العباد ربّهم جلّ وعلا من أعماقهم سائلينه تعالى ألّا يميل قلوبهم عن الحقّ وألّا يصرفها عن الصّراط المستقيم بعد أن هداها لدين الإسلام وأنقذها من الجرف الّذى كاد ينهار بها فى نار جهنّم . إنّ الهدايَةَ إلى الصّراط المستقيم هبةٌ من الله تعالى لعباده الّذين يلقّنون الكيفيّة الّتى يسألون الله تعالى عن طريقها استبقاءها ، وهذه الهبة المعروفة والمفهومة ضمناً تكون فى الآية الكريمة موطّئةً للتّصريح بالهبة من ناحية وبحالٍ مترتّبةٍ على الهداية والدّوام عليها بفضل الله تعالى من ناحية أخرى . وإلى ذلك أشار قوله

(١) سورة البقرة ١٨٦

تعالى : ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ إنّ عباد الرّحمن يلقّنون بأن يسألوا الله تعالى أن يهبهم فضلاً منه تعالى ونعمة رحمةً تشملهم فما أشدّ فقر العباد لرحمة الله تعالى البرّ الرّءوف الرّحيم . إنّ رحمة الله تعالى وسعت كلّ شيء ، وإنّ الآية الكريمة لتنبّه إلى حظ عباد الرّحمن الّذى ينبغى أن يكون موفوراً من الرّحمة ويتمّ ذلك عن طريق سؤال الله تعالى الّذى لا تنفد خزائنه . وانظر إلى صيغة المبالغة وهّاب فى القول : «إنك أنت الوهّاب» الّتى تتمشّى مع العلوّ المطّرد للمعانى فليس الله تعالى واهباً فقط بل هو الله تعالى الوهّاب الّذى يهب عباده ويمنحهم بدون مقابل كلّ مرّة سألوه جلّ وعلا أن يهبهم .

ومن البيّن أَنَّ الجوّ روحىٌّ فى المقام الأوّل لأنّ السّؤال ذوعلاقة بهداية القلب الّذى إذا صلح صلح الجسد كلّه ، وباستمرار البقاء على الهداية ، وبطلب الرّحمة الّتى تشمل العبد . ويدخل فيما يهب الله تعالى عبده النّصيب الّذى كتبه الله تعالى من الدّنيا لذلك العبد .

وبما أنّ الحياة الأخرى لا تنفصل فى يقين المسلم عن الحياة الأولى وبما أنّ الآخرة حياة الحصاد وجنى الثّمار ، وبما أنّ الأولى حياة الحرث والبذر فقد كان فى الآية الكريمة التّالية حديثٌ عن الآخرة فإلى

الآية رقم (٩)

قال تعالى : ﴿ ربّنا إنّك جامع النّاس ليومٍ لا ريب فيه . إنّ الله لا يخلف الميعاد ﴾

إنّ عباد الرّحمن يخاطبون ربّهم جلّ وعلا كما علّمهم قائلين ياربّنا ، يامن ربّيتنا بنعمك وآلائك الّتى نسألك أن توفّقنا للشّكر لك عَلَيْهَا ، إنّك جامع النّاس كلّ النّاس ، مؤمنهم وكافرهم ، برّهم وفاجرهم ، ليوم القيامة

الّذى لا ريب فيه ولا شكّ يعتريه وقد قلت فى كتابك العزيز[1] : ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون** ﴾ وفى هذا اليوم المجموع له النّاس المشهود يثابُ المحسن ويعاقب المسىء .

وإنّ هذه المعاني الّتى تجيش بها نفوس عباد الرّحمن يُعمِّقها القولُ : «إن الله لا يُخلِفَ الميعاد» فثمة التفات ، وثمة تحوّلٌ من اسم الضّمير إلى لفظ الجلالة «الله» والمعروف أنّ لفظ الجلالة «الله» يتمشّى مع العموم ، وفى يوم القيامة يجمع النّاس كلّهم فى صعيدٍ واحد لفصل الحساب .

ومن البيّن أنّنا بصدد حديثٍ عن المؤمنين ينساب فى لطف بعد أن كان الحديث عن الّذين فى قلوبهم زيغٌ يزمجر فى عنف . وبهذا نكون أمام صفة المثانى فى القرآن الكريم الّتى يتمّ فيها الحديث عن الشّىء وضدّه المعنى وخلافه .

وتأكيداً لهذه الحقيقة واستمراراً لتثبيت أفئدة المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، خاصّةً وأنّ السّورة الكريمة ستتحدّث بإسهاب عن درس غزوة أحد القاسى ، يتحول الحديث إلى الفئة المقابلة فى الصفات ، الفئة الكافرة ، وهذه الفئة الكافرة أيّاً كانت فإنّها ذات علاقة بالفئة المناوئة للمسلمين فى غزوة أحد ، فإلى :

الآية رقم (١٠)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النّار** ﴾ .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى جامع النّاس ليوم

(١) سورة المؤمنون ١١٥

القيامة الّذى لاشكّ فيه ، ومن هؤلاء النّاس الّذين كفروا الّذين نصّت عليهم هذه الآية الكريمة التّالية . وصفة الكفر تشمل كلّ المناوئين لدعوة المصطفى ﷺ إلى صراط العزيز الحميد وهم كافرو العرب ومنافقوهم وكافرو أهل الكتاب . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم يوم القيامة ولن تنفعهم ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . وينبغى أن يكون لِلَنْ دورٌ بعيدٌ ومغزىً عميق ، فهؤلاء الكافرون لن تغنى عنهم بحالٍ من الأحوال أموالهم ولا أولادهم . وإنّ تقديم الأموال وتأخير الأولاد ينبّه إلى ما يفعله المضطرّون فى هذه الحياة الدّنيا لإنقاذ أنفسهم . إنّهم يجودون بالمال ابتداءً وبكلّ رخيص وغال . ولكن هل يجودون بأولادهم ؟ من الجائز أن يكون من الآباء إيثارٌ لأنفسهم والافتداء بأولادهم حينما تبلغ الرّوح الحلقوم أو تكاد دليلاً على شدّة الخطب وهول الموقف . إنّ الكافرين فى يوم القيامة بسبب هول الموقف مستعدّون للافتداء بأموالهم كلّها وبأولادهم أجمعين لو كان مبدأ الفداء مقبولاً ولكن هيهات .

ونتبيّن دليلاً أكيداً على نفى مبدأ الفداء أساساً ودليلاً أكيداً على شدّة الهول الّتى يجد الكافرون أنفسهم فيه يوم القيامة وهوعدم الاستغناء عن «لا» فى القول : لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم وكأنّ فى عدم الاستغناء هذا دليلاً على استعداد الكافرين لبذل كلّ ما يملكون من مال فى سبيل إنقاذهم من هول الموقف ، وفى حال الرّفض للمال وبسبب وطأة الألم الّذى ليس عليه من مزيد هم يبدون استعدادهم للتّضحية بأولادهم وليس وراء هذه الخطوة وراء . إنّ كلّ نفس مسئولةٌ عمّا قدّمت من خيرٍ أو شرّ ، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ولا تغنى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً «ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنْصرون» .

إنّ العذاب فى حقّ أولئك الكافرين أكيد وإنّهم بدلاً من أن يفتدوا أنفسهم بأموالهم وأولادهم يكونون هم أنفسهم وقود النّار . «يعنى بذلك

حطبها»[1] «والوقود بفتح الواو : ما يحترق فى النّار من حطبٍ ونحوه»[2] «وجعلهم نفس الوقود مُبالغةً فى الاحتراق كأنّ النّار ليس لها ما يضرمُها إلاّ هم»[3] .

ولّما كان بنو إسرائيل السّاكنون فى المنطقة آنذاك كافرين فى مجموعهم بالمصطفى ﷺ الّذي أوحى الله تعالى إليه القرآن الكريم على حين كان بنو إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام الّذى أوحى الله تعالى إليه التّوراة مؤمنين به عليه الصّلاة والسّلام ، أمّا الكافرون بموسى عليه السّلام ففرعون وآله ، فقد كان ثمّة تحوّل إلى فرعون وآله الّذين أغرقهم الله تعالى فى اليمّ ، وإلى الّذين من قبله من الطّغاة تمشّياً مع اتّجاه السّياق فى حديثه عن الكتب السّماوية إلى الوراء ، إلى الزّمن الماضى ، وكان ثمّة إنذارٌ لكلّ الكافرين بمحمّد بن عبدالله ﷺ أن يحلّ بهم ما حلّ بآل فرعون ومن سبقه من الطّغاة الّذين أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . وفى هذا الإنذار تنبيهٌ لكلّ المنحرفين عن سواء السّبيل بأنّ سنّة الله تعالى لا تتغيّر ولا تتبدّل فحينما كان بنو إسرائيل مؤمنين كانت العناية الإلهٰية معهم وفضّلهم الله تعالى على عالمى زمانهم أمّا حينما يكفرون بمحمّد بن عبدالله ﷺ فإنّ انصرافهم عن صراط العزيز الحميد كفيلٌ بأن يؤخذوا بسببه كسائر الكافرين ، فلا علاقة لحاضر القوم بماضيهم ، وتلك أمّةٌ قد خلت ومضت ، ومن أحسن فله ثواب إحسانه ومن أساء فعليه وزر إساءته ، فإلى :

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٢٧/٣

(٢) تفسير ابن عطيّة ٣٢/٣

(٣) البحر المحيط ٣٨٨/٢ ويقول الثّعالبىّ فى فقه اللّغة ص ٥١ : «ولا يقال وقود إلاّ إذا اتّقدت فيه النّار ، وإلاّ فهو حطب» .

الآية رقم (١١)

قال تعالى : ﴿ **كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم . كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم . والله شديد العقاب** ﴾ .

إن دأب الكافرين وعادتهم فى كلّ زمانٍ ومكان كدأب آل فرعون الّذين كفروا بموسى عليه السّلام ولم يؤمنوا بأيّ آيةٍ من آياته عليه السّلام التّسع الّتى آتاه الله تعالى إيّاها وهى الّتى نصّت عليها سورة الأعراف فى الآيات الكريمات ١٠٧ و١٠٨ و١٣٠ و١٣٣ ، وهذه الآيات هى : العصا واليد . قال تعالى : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين** ﴾ والسّنون ونقصٌ من الثّمرات . قال تعالى : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون** ﴾ والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم . قال تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾ . وكان موقفهم من هذه الآيات على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان من سورة النّمل[1] : ﴿ **فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ إنّ مصير فرعون وآله الهلاك غرقاً وإنّ مصير الكافرين من قبلهم الهلاك بالكيفيّة الّتى أرادها الله تعالى ، وقد جاءت الإشارة إلى بعض وسائل الهلاك إضافةً إلى الغرق فى هذه الآية الكريمة من سورة العنكبوت[2] : ﴿ **فكلّاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصّيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أَغْرَقْنَا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤

(٢) الآية ٤٠

وتنصّ الآية الكريمة على السّبب فى هلاك الأقوام وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى ، ويستوى فى ذلك الآيات المحسوسة والمعنويّة ، وبهذا تتعلّق الآية الكريمة بالآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن آيات الله تعالى البيّنات الموحاة إلى موكب الرّسل الكرام ، كما تنصّ الآية الكريمة فى القول : ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ على شدّة عقاب الله تعالى للقوم الكافرين ، وشدّة العقاب تعنى القدرة المترتّبة على العلم ، وسبق أن تقلّبت الآيات الكريمات فى هاتين الصّفتين العلم والقدرة ، وهذا رباطٌ آخر للآية الكريمة بالآيات الكريمات السّابقات .

ولّما كان كافرو بنى إسرائيل من بين كافرى سكّان المنطقة بالمصطفى ﷺ وكان ثمّة النّصّ على فرعون وآله من بين الكافرين ، ولبنى إسرائيل بخاصّة علاقةٌ بفرعون وآله ، فقد كان كلّ ذلك موطّئاً لتحوّل الحديث إلى بنى إسرائيل على جهة الخصوص فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٢)

قال تعالى : ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ .

كان يسكن منطقة المدينة المنوّرة آنذاك جماعاتٌ من اليهود منهم يهود بنى قينقاع ويهود بنى النّضير ويهود بنى قريظة ، والآية الكريمة ذات علاقةٍ بالكافرين عموماً وببنى قينقاع خصوصاً على نحو ما يتبيّن من سبب النّزول . جاء فى تفسير الطّبرىّ(١) : «عن ابن عبّاس قال : لّما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال : يامعشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصابَ قريشاً . فقالوا يامحمّد لا تغرّنك

---

(١) ١٢٨/٣ وانظر اسباب النّزول للواحدىّ ١٢٩

نفسك أنّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال . إنّك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس وأنّك لم تأت مثلنا . فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : ﴿ **قل للّذين كفروا ستُغْلبون وتحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد** ﴾ **إلى قوله** :﴿**لِأولى الأبصار**﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : قل يامحمّد للّذين كفروا ، وفى مقدّمة هؤلاء يهود بنى قينقاع ستُغْلبون فى هذه الحياة الدّنيا وستُهْزمون شرّ هزيمة وسيكون مصيركم الذّلّ والهوان والضّياع ويوم القيامة تحشرون إلى جهنم وتجمعون إلى النّار وستساقون بعنفٍ إلى الجحيم ، وبئس نار جهنّم المهاد والفراش .

والآية الكريمة مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى الإنباء بالغيب إذ المعروف أنّ الله سبحانه وتعالى نصر حبيبه المصطفى ﷺ وجنده على الجماعات اليهوديّة الثّلاث المناوئة تباعاً ، بنى قينقاع ، النّضير ، بنى قريظة .وقد تحدثت سورة الحشر أو سورة بنى النّضير عن مصير يهود بنى النّضير ، كما تحدّثت سورة الأحزاب عن مصير يهود بنى قريظة .

لقد كتب الله تعالى ذلّ الدّنيا وخزي الآخرة على كلّ الكافرين بمحمّد ابن عبدالله ﷺ وإذا كانت سورة آل عمران نزلت بعد غزوة بدر وغزوة أحد فالمعروف أنّ الدّولة الإسلاميّة بقيادة المصطفى ﷺ قد شملت أكثر شبه جزيرة العرب حينما لحق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى . والمعروف أنّ شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرةٍ فى الدّنيا فهى مثلاً أكبر من شبه القارّة الهنديّة .

إنّ على كافرى يهود والعرب ألاّ تخدعهم قلّة المسلمين آنذاك عدداً وعدّةً عن معرفة حقيقة أقدارهم وعن معرفة نصر الله تعالى للمصطفى ﷺ وإنّ عليهم أن يعرفوا كلّ ذلك جيّداً وأن يتصرّفوا فى ضوء ذلك فمنذ وقتٍ قريب نصر الله تعالى فى بدرٍ جنده وهم قلّة أذلة وعن هذه الحقيقة تحدّثت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٣)

قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آيةٌ فى فئتين التقتا فئةٌ تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأى العين . والله يؤيّد بنصره من يشاء . إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة ابتداءً : قد كان لكم أيّها الكافرون آيةٌ وعبرةٌ فى فئتين مؤمنة وكافرة التقتا ، فئةٌ مؤمنةٌ تقاتل فى سبيل الله تعالى وفئةٌ أخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطّاغوت وفى سبيل الشّيطان الرّجيم . وهذه الفئة الكافرة يرون الفئة المؤمنة مثليهم رأى العين وضعفيهم وجهاً لوجه ، والمعروف أنّ عدد المسلمين فى بدرٍ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً وقيل : وثلاثة عشر . وأنّ عدد الكافرين نحو الألف فوق التسعمائة[1] وقد نصر الله سبحانه وتعالى الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة.والله سبحانه وتعالى يؤيّد بنصره من يشاء من عباده . إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار وعظةً لأولى العقول الرّاجحة والبصائر النّيّرة .

والحقيقة أنّ ثمّة أكثر من مسألةٍ نحن بحاجةٍ إلى أن نقف عندها . وأوّل ما يلفت انتباهنا الحديث الموجز عن الفئتين بحيث إنّا نفهم من السّياق أنّ الفئة الأولى مؤمنةٌ قليلةُ العدد تقاتل فى سبيل الله تعالى فأيّدها جلّ وعلا بنصره وتأييده ، وأنّ الفئة الأخرى كافرةٌ كثيرةُ العدد تقاتل فى سبيل الشّيطان فخذلها الله تعالى وأهانها . والعجيب فى نظم الجزئيّة الكريمة أنّ المحذوف فى أحد الشّقّين دلّ عليه الموجود فى الشّق الآخر[2] ولو أنّا ذكرنا المحذوفين فى الشّقّين وأتممنا الكلام ودوّنّا الحديث بطوله وعيّنّا الألفاظ القرآنية لتبيّن العدد الكبير من الألفاظ الّذى استغنى عنه السّياق مظهراً من مظاهر إعجاز

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٣٨/٣ وتفسير الطبرى ١٣١/٣ ، ١٣٢

(٢) انظر هنا البحر المحيط ٣٩٣/٢

القرآن الكريم فى مجال البلاغَةِ بالحذف . وإليك الكلام بتمامه . وقد وضعنا خطوطاً تحت الألفاظ القرآنية

فئة أولى مؤمنةٌ تقاتل فى سبيل الله

وفئة أخرى كافرة تقاتل فى سبيل الشيطان

إنّ لفظة فئة فى حقّ المؤمنين حذف الّذى يقابلها فى حقّ الكافرين . وإنّ لفظة أخرى فى حقّ الكافرين حذف الّذى يقابلها فى حقّ المؤمنين . وإنّ لفظة كافرة فى حق الكافرين حذف الذى يُقابلها فى حق المؤمنين . وإنّ القول فى حقّ المؤمنين : «تقاتل فى سبيل الله» حذف الّذى يقابله فى حقّ الكافرين . إنّا حينما نستبعد حرف العطف «الواو» من الجملة الثّانية لخروجه بطبعه عن الكلام المباشر عن أىٍّ من الفريقين نتبيّن أنّ لفظتين اثنتين حذفتا فى حقّ المؤمنين وفى المقابل هنالك لفظتان اثنتان ذكرتا فى حقّ الكافرين ، كما نتبيّن وضوح المعنى لأنّ ما حذف فى أىٍّ من الجملتين عليه الدّليل فى الجملة الأخرى وبخاصّةٍ الجزء الكبير المحذوف فى حقّ الكافرين .

وإنّ الحديث عن الفئتين المؤمنة والكافرة هنا يذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل فى سورة النّساء[1] : ﴿ **الّذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والّذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطّاغوت فقاتلوا أولياء الشّيطان إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفا** ﴾ .

أمّا كون الفئة المؤمنة قليلة العدد وكون الفئة الكافرة كثيرة العدد فإنّا نستطيع أن نفهمه من قوله تعالى : ﴿ **يَرَوْنهم مِثْلَيْهم رأيَ العيْن** ﴾ **والمعنى أنّ الكافرين الكثيرى العدد يرون المؤمنين القليلى العدد مثليهم فى العدد رأى العين المبصرة وليس رأى العين الزّائغة أو المتخيِّلة الّتى إذا رأى صاحبها الخائف الوجل غير شىءٍ ظنّه رجلا . ويذكّرنا هذا التّأييد السّماوىّ**

---

(١) الآية ٧٦

بمثل قوله تعالى فى سورة البقرة[1] : ﴿ كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَت فئةً كثيرةً بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ .

والحقيقة أنّ هذ القول : «يرونهم مثليهم رأى العين» والّذى يمثّل مرحلةً من مراحلِ التّأييد المختلفة المتنامية فى حقّ الفئة المؤمنة من الكبير المتعال بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عنده وقفةً متأنّيةً بقصد معرفة طبيعة المرحلة من التّأييد السّماوىّ الّتى يمثّلها وذلك فى ضوء كون المعنى ـ والله تعالى أعلم ـ يرى الكافرون المؤمنين ساعة اللّقاء فى المعركة مِثْلَيْهِمْ رأى العين والبصر .

ونستطيع أن نذهب إلى كون كلٍّ من الآيتين الكريمتين من سورة الأنفال تمثّل على التّوالى مرحلةً من التّأييد السّماوىّ للفئة المؤمنة المجاهدة فى سبيل الله تعالى . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكنّ الله سلّم . إنّه عليمٌ بذات الصّدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقلّلكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

إنّ مرحلة التّأييد السّماوىّ الأولى تتمثّل فى كون المصطفى ﷺ يرى فى منامه المشركين قليلاً كى يقوى قلبه عليه الصّلاة والسّلام على القتال . وتبدو هذه النّعمة السّماويّة من تبيين الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لو أرى المصطفى ﷺ المشركين فى منامه كثيراً لفشل المؤمنون ولجبُنوا ولضَعُفُوا ولاختلفت كلمتهم ولكنّ الله تعالى سلّم .

وإنّ مرحلة التّأييد السّماوىّ الأخرى تتمثل فى كون المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة معه ترى المشركين فى المعركة وجهاً لوجهٍ قليلاً كى يتشجّع

---

(١) الآية ٢٤٩

(٢) سورة الأنفال ٤٣ ، ٤٤

المؤمنون وكى يقوُوا على القتال ، فقد وعدهم الله تعالى ووعده الحقّ ، إحدى الطّائفتين أنّها لهم ، العير أو النّفير ، وقد نجا أبو سفيان قائد العير بالقافلة وبذلك فاتت القافلة المسلمين وخسروا العير فبقى إذن وعد الله تعالى لهم بالنّفير ، بمعنى أن يكسبوا المعركة وينتصروا على الأعداء . وإنّ ربّ العزّة ليهيّىء للمؤمنين أسباب النّصر ومن ذلك أن يرى المؤمنون ساعة اللّقاء الكافرين قلّة كى يتشجعّوا على القتال وأن يرى الكافرون المؤمنين قلّة كذلك كى يَسْتهينُوا بالمؤمنين وكيْلاَ يأخذُوا الأمْر مأخَذ الجدّ . فإذا كان المؤمنون بالقياس إلى المشركين قلة فقد زادوا إلى قِلّتهم قلة حينما أرى الله تعالى المشركين فى هيئة ذلك العدد القليل ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . وإلى وعد الله تعالى المؤمنين إحدى الطّائفتين أشارت الآية الكريمة من سورة الأنفال[1] : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطّائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ المرحلة التالية من التّأييد السّماوىّ للفئة المؤمنة فى بدر تمثّلها الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة آل عمران . فحينما التحم الفريقان وحمى الوطيس أرى الله سبحانه وتعالى المشركين المؤمنين مثليهم رأى العين ، فإذا كان المشركون بين التّسعمائة والألف أساساً فإنّ الله سبحانه وتعالى جعل المشركين يرون المؤمنين فى أثناء القتال مِثْلَيْهِمْ أى بين الألف والثّمانمائة والألفين ، أى أكثر من خمسة أمثال العدد الفعلىّ للمؤمنين .

أمّا المرحلة التّالية من مراحل التّأييد السّماوىّ فهى ذات مراحل وتتمثّل فى تأييد الملائكة المتنامى للمؤمنين ؛ وقد تمثّل ذلك ابتداءً فى تأييد

---

(١) الآية ٧ ، ٨

الملائكة للمؤمنين معنوياً بأمر الله تعالى وتمثّل بعد ذلك فى قتال الملائكة مع المؤمنين جنباً إلى جنب فى ثلاث مراحل . المرحلة الأولى حينما أيدّ الله تعالى المؤمنين بألفٍ من الملائكة مردفين . والمرحلة الثّانية حينما أيدّ الله تعالى المؤمنين بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين . والمرحلة الثّالثة والأخيرة حينما أيّد الله تعالى المؤمنين بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين . وإنّ هذا القول الموجز عن تأييد الملائكة المؤمنين معنويًا وقتاليّاً بحاجةٍ إلى شىءٍ من بسط القول والأدلّة عليه من آى الذّكر الحكيم .

أمّا تأييد الملائكة المعنوىّ للمؤمنين فى بدرٍ فقد أشار إليه وإلى القتال فى صفّ المؤمنين على جهة الإجمال قوله تعالى فى سورة الأنفال[1] : ﴿ **إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سأُلْقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان** ﴾

أمّا المراحل الثّلاث التّالية من مراحل قتال الملائكة مع المؤمنين جنباً إلى جنب وارتفاع عدد الملائكة باضطراد فإن المرحلة الأولى تتمثّل فى مدّ الله تعالى المؤمنين الّذين استغاثوا ربّهم جلّ وعلا بألفٍ من الملائكة مردفين ، أى متتابعين يردف بعضهم بعضاً[2] وإلى هذه المرحلة أشار قوله تعالى فى سورة الأنفال[3] : ﴿ **إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين** ﴾ .

وأمّا المرحلة الثّانية فإنّها تتمثّل فى مدّ الله تعالى المؤمنين بثلاثة آلافٍ من الملائكة ، وأمّا المرحلة الثّالثة فإنّها تتمثّل فى مدّ الله تعالى المؤمنين بخمسة آلافٍ من الملائكة ، بمعنى أنّ العدد فى المرّة الثّانية ارتفع إلى ثلاثة آلاف وفى المرّة الثّالثة ارتفع إلى خمسة آلاف ، وقد أشار إلى ذلك قوله

---

(١) الآية ١٢

(٢) الجلالين

(٣) الآية ٩

تعالى فى سورة آل عمران[1] : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتّقوا الله لعلّكم تشكرُون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين** ﴾ .

مسوِّمين معلمين[2] والسّيما العلامة[3] عن هشام بن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدرٍ على خيلٍ بلق عليهم عمائم صفر ، وكان على الزّبير يومئذٍ عمامةٌ صفراء[4] .

وحينما نتبيّن أنّ سورة آل عمران فى شقّها الآخر قد تحدّثت باستفاضة عن درس أحد ووطّأت لذلك الحديث عن أحد ودرس أُحد القاسى بالحديث العابر عن بدر ونصر الله تعالى المؤزّر فى تلك الغزوة للمؤمنين وهم قلّةٌ أذلّة يكون معنى ذلك أنّ حديث السّورة الكريمة فى صدرها عن غزوة بدر توطئةٌ سابقة للتّوطئة اللاحقة بين يدى الحديث عن درس أُحد العظيم الأليم.إنّ هذه التّوْطِئة السّابقة من مظاهر التّرابط بين أجزاء السّورة الكريمة وإن تباعدت الأجزاء واختلفت الموضوعات وتنوّعت المواقف .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجىء فيها القول : والله ينصر من يشاء . ولكن يجىء فيها القول : «والله يؤيّد بنصره من يشاء» ويؤيّد معناه يقوّى من الأَيْد وهو القوّة[5] والمعنى ـ والله تعالى أعلم ـ والله يقوّى بنصره من يشاء ويؤيّد بنصره المؤمنين . وبذلك نكون أمام نعمتين لله تعالى . نعمة النّصر من الله تعالى للمؤمنين . ونعمة القوّة الّتى يمدّ الله تعالى بها المؤمنين . وهذه

---

(١) الآيات ٢٣ ـ ١٢٥

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٩/٣ (عبدالحميد)

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٥٩/٣ وتفسير الطّبرىّ ٥٥/٤

(٤) وتفسير الطّبرىّ ٥٤/٤

(٥) تفسير ابن عطيّة ٣٩/٣ وتفسير الطّبرىّ ١٣٣/٣

القوّة سابقةٌ لنصر الله تعالى عبده وجنده ، وملازمةٌ للنّصر ، ولاحقةٌ به ، فلا حول ولا قوّة للمؤمنين قبل المعركة وفى أثنائها وبعدها إلاّ بالله العليّ العظيم . ولعلّ هذه هى معانى هذا التّعبير الفريد : «والله يؤيّد بنصره من يشاء» الّذى يدلّ على أنّ البركة فى السّعى والحركة . إنّ هذا هو الدّرس الّذى ينبغى أن يعيه كلّ ذى بصيرةٍ نيّرة وعقلٍ صحيح وفكرٍ سليم «إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار» وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم»[1] «وما النّصر إلاّ من عند الله . إنّ الله عزيزٌ حكيم»[2] «إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكلّ المؤمنون»[3]

* * *

(١) سورة ال عمران ١٢٦

(٢) سورة الانفال ١٠

(٣) سورة ال عمران ١٦٠

(٢)
متاع الدنيا زائل ونعيم الآخرة مقيم
الآيات (١٤ ـ ١٧)

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

كان الحديث فى نهاية القسم السّابق متّجهاً إلى اليهود فى المقام الأوّل ، وهؤلاء جعلوا الحياة الدّنيا غاية سعيهم ، فقد تحوّلوا بدين موسى عليه السّلام إلى ماديّةٍ جامحة . وآيات القسم التّالى هذا الأربع تتحدّث عن متاع الحياة الدّنيا وترشد إلى الآخرة الّتى هى خيرٌ من الأولى وتحثّ على الارتقاء إلى مرتبة التّقوى الوجه الآخر للإحسان وتبيّن بعض صفات عباد الله تعالى القوليّة والفعليّة .

إنّ الآية الكريمة الأولى ترتّب حبّات عقد الشّهوات الّتى زينّها الله تعالى لعباده فى أسلوب القرآن الكريم المعجز بحيث يراعى حظّ الحبّة الموفور من الزّينة وحبّ النّاس لها كما يراعى إمكان تحقّق هذه الحبّة من الشّهوة أو تلك . بل إنّ صفتى المجتمع العربّى آنذاك من الرّحلة والاستقرار يصح أن تفهما من تقديم الأنعام فى الذّكر على الحرث بمعنى الزّرع . إنّ كلّ هذه الشّهوات متاع الحياة الدّنيا وإنّ الأفضل من ذلك تقوى الله تعالى الّتى تقود فى الآخرة إلى الجنّات وفيها طيب المكان ، وإلى الزّوجات المطهرّات الممثّلات لقمّة المتاع المقيم ، وإلى رضوان الله تعالى الأكبر من كلّ نعيم . وهؤلاء العباد المتّقون غايةٌ فى الحيطة والحذر قولاً وفعلاً . إنّهم يسألون الله تعالى من أعماقهم أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النّار . وإنّهم يصبرون فى حال العسر واليسر ، ويصدقون القول والفعل ، ويقومون لله تعالى قانتين . وهذه الصّفات أقرب إلى اللّزوم . وإنّهم ينفقون فى كلّ وجوه البرّ من المال الّذى آتاهم الله تعالى ويستغفرون الله تعالى بالأسحار فى

الصّلوات وفى غير الصّلوات . وإنّ أكبر مظاهر يقظة هؤلاء العباد الاستغفار الّذى تبدأ به صفاتهم القوليّة وتختم به صفاتهم الفعليّة لأنّهم[1] : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون** ﴾ .

***

(١) سورة السّجدة ١٦

الآية رقم (١٤)

قال تعالى : **﴿ زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عندهُ حُسْنُ المآب ﴾** .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى زَيَّن للنّاس كلّ النّاس حبّ الشّهوات والميل إلى ما تشتهيه النّفس وتأنس به وتنجذب إليه وترتاح ، وتعدّد الآية الكريمة الملامح البارزة لهذه الشّهوات فى ترتيبٍ عجيبٍ لهذه الشّهوات ، ووضع معجزٍ لكلّ شهوةٍ فى موضعها بحيث إنّه يصحّ القول إنّ هذه الشّهوات رتّبت وفق أهمّيّتها من ناحية وإمكان تحقّقها من ناحيةٍ أخرى ، وتبيّن الآية الكريمة أنّ كلّ هذه الشّهوات المذكورة ، ويلحق بها ما لم يذكر ممّا يقلّ أهمّيّةً وإقبالاً عليه ، متاع الحياة الدّنيا الزّائلة الفانية هى ذاتها ومن باب أولى متاعها وأنّ عند الله سبحانه وتعالى حسن المآب والمرجع.وإنّ هذا القول الموجز بحاجةٍ إلى شىءٍ من البسط .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى[١] قد زيّن لكلّ النّاس حبّ الشّهوات والميل الفطرىّ إليها والانجذاب العفوىّ نحوها . وممّا هو دليلٌ على تزيين الله تعالى هذه الشّهوات قوله تعالى[٢] **﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً ﴾** وإنّ لفظ النّاس يشمل البشريّة كلّها مؤمنها وكافرها برّها وفاجرها . إنّ هذا هو الأصل العامّ والقاعدة الأوّليّة . ووراء ذلك يتفاوت بمقدار درجات الإيمان والفسوق البرّ والفجور مدى التّجاوب مع هذا الميل والانجذاب نحو الشّهوات . وإنّ هذا المدى يضبطه

---

(١) انظر مثلاً الكشّاف ٣١٣/١ وتفسير القرطبىّ ١٢٧٠

(٢) سورة الكهف ٧

مثل قوله تعالى[1] : ﴿ **زُيِّنَ للّذين كفروا الحياةُ الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا . والّذين اتّقوْا فوقهم يوم القيمة . والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ ومثلُ قوله تعالى[2] : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا وأحْسِنْ كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض . إنّ الله لا يحبّ المفسدين** ﴾ .

ولنا بإذن الله تعالى عودةٌ إلى هذا الضّابط بعد الحديث عن نظم الآية الكريمة وترتيبها المعجز لمفردات الشّهوات .

تبدأ الآية الكريمة بذكر النّساء : ﴿ **زيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء** ﴾ وذلك دليلٌ على أنّ ميل الرّجل إلى المرأة وكذلك ميل المرأة إلى الرّجل فطرىّ . هكذا شاء الله تعالى ، بل إنّ هذا النّوع من الميل أقوى وأسبق من كلّ ميلٍ إلى أىّ شهوةٍ أخرى ، فهذا هو الّذى يُفْهم من تقديم النّساء فى الذّكر . ولا مجال للمقارنة بين الطّريقة الكريمة العفيفة الّتى يترجم فيها المؤمنون المتّقون هذا الميل والّذى يصوّره مثل قوله تعالى[3] : ﴿ **هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ** ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون** ﴾ . لا مجال للمقارنة بين هذه الطّريقة الكريمة العفيفة وبين الطّريقة الأخرى الفاجرة النّتنة الّتى يترجم بها الكافرون والفاسقون هذا الميل والّتى انتهت بهم إلى دَرْكِ الحيوان بل هم أضلّ سبيلاً . وبما أنّى أكتب هذه السّطور مع مطلع عامٍ جديدٍ لميلاد عيسى عليه الصّلاة والسّلام فقد تذكّرت تجربةً لي فى مثل هذه المناسبة من سنوات حينما كنت أستاذاً زائراً بجامعة

---

(١) سورة البقرة ٢١٢

(٢) سورة القصص ٧٧

(٣) سورة البقرة ١٨٧

(٤) سورة الرّوم ٢١

سدنى فى أستراليا . لقد نصحنى إخوانى المسلمون هنالك بأنّى فى أمثال هذه المناسبات عليّ ألاّ أقترب مع أهلى من أىّ بقعةٍ فى قلب المدينة فإنّ عادة الرّجال حينما يرون فى تلك المناسبة أىّ امرأة أن ينهالوا عليها تقبيلاً وعناقاً وضمّاً وما إلى ذلك ، لأنّ المعروف أنّ أىّ امرأةٍ ترتاد تلك الأماكن العامّة فى تلك المناسبات إنّما تريد كلّ ذلك فهى تتعرّضُ له بل تحرص عليه ! وقد نقلوا لي تجربةً أليمةً مريرة تعرّض لها أحد الأخوة مع أهله ، وما أجدى مع المسعورين غيرة الأخ على عرضه وغضبه وقتاله المستميت ، فإنّ هذه المعانى السّامية النّبيلة لا يكاد يعقلها الصّاحون من القوم فكيف بالسّكارى المعربدين . وأكتفى هنا بهذه الإيماءة .

ونحن على علم بالدّواء النّاجِع الّذى استعمله الإسلام فى مجال العلاقة بين الرّجلِ والأنثى[١] وفى علاج أىّ شهوة . فى صحيح مسلم : حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفّت النار بالشّهوات . رواه أنس عن النّبىّ ﷺ . وفائدة هذا التّمثيل أنّ الجنّة لا تُنال إلاّ بقطع مفاوز المكاره وبالصّبر عليها ، وأنّ النّار لا يُنْجِي منها ألاّ بترك الشّهوات وفِطام النّفسِ عنها[٢] وقال رسول الله ﷺ : ما تركتُ بعدى فتنةً أشدَّ على الرّجال من النّساء . أخرجه البخارى ومسلم . ففتنة النّساء أشدّ من جميع الأشياء[٣] وفى سنن ابن ماجه عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزوّجوا النّساء لحسنهنّ فعسى حُسْنُهنّ أن يرديهنّ ، ولا تزوّجوهنّ لأموالهنّ فعسى أموالهنّ أن تطغيهنّ ، ولكن تزوّجوهنّ على الدّين . ولأمةٌ سوداء خَرْماء[٤] ذات دينٍ أفضل[٥] .

---

(١) عالجنا هذه المسألة بإسهاب فى كتابنا : «تأمّلات فى سورة الأحزاب» فى الفصل الملحق بالكتاب وعنوانه : «بين الحقيقة والجمال» ص ٥٤٩ فما بعدها .

(٢) تفسير القرطبىّ ١٢٧٠

(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٧١

(٤) خرماء : مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن .

(٥) تفسير القرطبىّ ١٢٧١

وتذكر الآية الكريمة البنين بعد النّساء لأنّ البنين ثمرة سكن كلّ من الزّوجين للآخر ، ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الشّهوات بمعنى الميل الّذى يصل أحياناً إلى عجز المشتهى عن مقاومة اندفاعه . وإنّه بالمقارنة بين النّساء والبنين من زاوية الشّهوة تتقدّم الأولى الثّانية حقّا ، وقد يقترن بتلك الشّهوة حبٌّ مساوٍ لها بمعنى أن تكون منزلة الزّوجة متقدّمةً على البنين ، وقد يحدث تبادل فى مجال الحبّ بين النّساء والبنين . ولكنّ هذا التّبادل أو استئثار البنين عن بعضهم بكلّ الحبّ أو جلّه خارجٌ عن مجال الشهوة على النّحو الّذى تبيّن .

وانطلاقاً من جوّ الشّهوات كذلك يأتى ذكر المال بعد البنين . وإنّ المقارنة بين النّساء والبنين فى مجال الشّهوة وفى مجال الحبّ مغرٍ لنا بالمقارنة بين البنين والمال . والملاحظ أنّ الآية الكريمة تذّكر البنين بعد النّساء وقد عرفنا الحكمة من ذلك وهى أنّ البنين ثمرة النّساء . وأوّل ما يصادفنا فى مجال المقارنة بين ترتيب البنين والمال فى السّياق تقديم المال على البنين فى قوله تعالى من سورة الكهف(1) : «المال والبنون زينة الحياة الدّنيا» . والملاحظ أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الزّينة وليس عن الشّهوة . إنّه فى مجال الزّينة والتّفاخر والتّكاثر يتقدّم المال على البنين وما أكثر الّذين شغلهم المال وذهلهم الحرص عليه والشّغف به عن بنيهم . وإنّ المنزلة المتقدّمة للمال على البنين من هذه الزّاوية يعمّقها مثل قوله تعالى من سورة الحديد(2) : ﴿ **اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد** ﴾ .

---

(1) الآية ٤٦
(2) الآية ٢٠

والّذى يلفت الانتباه فى تقديم آية سورة آل عمران البنين على الأموال فى ترتيب الشّهوات التّعبير عن المال من زاويةكونه كثيراً كثرةً مفرطة : ﴿ **والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة** ﴾ والقنطار العقدة الكبيرة من المال[1] والمقنطرة : المال الكثير بعضه على بعض[2] إنّ الآية الكريمة لا تتحدّث عن مطلق المال وإنّما عن كمّيّاته الهائلة المتراكم بعضها على بعض ، وعن أَنْفَس أنواع المال أعْنى النّقدين ، الذّهب والفضّة . والملاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم فى الذّكر الذّهب على الفضّة دليلاً على قيمة الذّهب المرتفعة وعلى شدّة شغف النّفس به بأكثر من الفضّة . والمعروف أنه عن طريق الذّهب والفضة يتمّ تحقيق المرء ما تشتهيه نفسه من ضروب المال . وإنّ النّصّ على القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة يعنى أنّ المراد بالبنين التّكاثر بالبنين على غرار التّكاثر بالأموال ، وقد ألمحت إلى ذلك آية سورة الحديد السّابقة . قال تعالى : ﴿ **زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة** ﴾ .

ويأتى بعد ذكر النّقدين ، الذّهب والفضّة ، الشّهوات الأخر المرتبطة كلّها بالمال فى ترتيب القرآن الكريم المعجز لحبّات عقده فمع الحبّة التّالية للذّهب والفضّة من عقد المال وهو الخيل المسوّمة .

إنّا حينما نتبيّن أنّ الخيل ومفردها خائل مثل طير وطائر إنّما سمّيت بذلك لأنّ الفرس يختال في مشيته[3] . فإنّ من خصائص اللّفظة العربيّة المشتقّة أنّها تعطى المعنى وأهمّ صفة لفتَتَ الانتباه فى المسمى ففى الخيل الخيلاء ، وفى السّماء السموّ ، وفى الدّار الاستدارة ، وفى القارورة استقرار

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/٤١ وتفسير القرطبىّ ١٢٧٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/١٣٥

(٣) تفسير ابن عطيّة ٣/٤٤ وتفسير القرطبىّ ١٢٧٤

السّائل في قرارها ، وفي المُصْران مصير الطعام إليه ، وما إلى ذلك من ألفاظٍ لا يأتي عليها الحصر ، حينما نتبيّن ذلك ندرك قدرة لفظ الخيل على إثارة شهوة تملكها وتلبية نداء هذه الشّهوة ، ويقوّى من الإثارة والتّلبية نَعْت تلك الخيل بأنّها مسوّمة ، بمعنى أنّها راعية في المروج والمسارح ، تقول : سامت الدّابّة والشّاة . . إذا سرحت وأخذت سَوْمها من الرّعى ، أي غاية جهدها ولم تقصّر عن حالٍ دون حال[1] إنّ منظر الخيل وهى تسرح في المروج وتمرح يبهج النّفس ويثلج الصدر فكيف بالمالك لها ، ولا تقلّ البهجة والانشراح لو فسّرنا المسّومة بأنّها المطهّمة الحسان[2] قال عكرمة : سوَّمها الحُسْن . واختاره النّحّاس من قولهم رجلٌ وسيم . وروى عن ابن عبّاس أنّه قال : المسوَّمة المعلَمة بشيات الخيل في وجوهها ، من السّيما وهى العلامة[3] إنّ الخيل جميلة وإنّ هذه الشّيات في وجوهها ممّا يزيدها جمالاً إلى جمال ويزيد صاحبها شهوةً بها إلى شهوة .

وإنّ قوله تعالى في سورة النّحل[4] : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بَلَدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشقّ الأنفس ، إنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة . ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ .

نتبيّن منه أنّ الحديث عن الأنعام من زاويتى النّفع والجمال ، وبما أنّ حديث آية آل عمران عن الشّهوات أى جانب الزّينة فإنّا في الإمكان أن ننظر إلى الصّفة مسوّمة في حقّ الخيل بأنّ المقصود ـ والله تعالى أعلم ـ لفت

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/٤٤ وتفسير القرطبيّ ١٢٧٥ ومعجم مقاييس اللّغة «سوم» ٣/١١٨
(٢) تفسير ابن عطيّة ٣/٤٥ وتفسير القرطبيّ ١٢٧٦
(٣) تفسير القرطبيّ ١٢٧٦ وانظر تفسير ابن عطيّة ٣/٤٥ ومعجم مقاييس اللّغة «سوم» ٣/١١٨
(٤) الآيات ٥ ـ ٨

الانتباه إلى جمال الخيل بكامل هيئاتها أوّلاً وبشياتها ثانياً حينما تسرح الخيل فى الحقول وترعى فى المروج ، وإلى جمال شيات الخيل وعلاماتها ، سوادها فى بياضها وبياضها فى سوادها وما إلى ذلك من ألوان تخالف معظم لون الفرس حينما يكون الفرس قائماً بعين صاحبه وغير مرسل على حدّ تعبير الشّاعر امرىء القيس ، ومتّى ما ترقّ العين منه تسفّل على حدّ تعبير امرىء القيس أيضا[1] إنّ الفرس حينما يكون بعيداً يملأ العين رواءً بكامل أجزائه وحينما يكون قريباً يملأ العين رواءً بجمال أجزائه وبكامله تبعاً لذلك . وبهذا يتبيّن أنّ تفسير المسوّمة بكلّ من المعنيين جائزٌ ومقبول . والله أعلم .

وبعد الحديث عن الخيل المسوّمة الّتى تتّخذ رَكوباً وزينة يتمّ التّحوّل إلى نوعٍ آخر من الحيوان هو الأنعام ، وهى الأزواج الثّمانية الّتى ذكرها الله تعالى فى كتابه[2] من الضّأن والمعز والبقر والإبل[3] والأنعام جمع نَعَم[4] وقال ابن كيسان : إذا قلت نَعَم لم تكن إلاّ للإبل ، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكلّ ما يرعى[5] .

إنّ تقديم الآية الكريمة للخيل الّتى توصف بأنّها مسوَّمة على الأنعام يعنى تقدّم الخيل على الأنعام فى الجمال وفى شدّ النّفس إليها وجذب العين نحوها ، وهذه الحقيقة شديدة الوضوح خاصةً حينما تكون الخيل مسوّمة أكسبها خصب المرعى حسناً إلى حسنها .

---

(١) يقول امرؤ القيس من المعلّقة فى وصف فرسه (مختار الشّعر الجاهلىّ ١/٣١و٣٢)

وبـات عليه سـرجه ولجـامه ∴ وبات بعينى قائماً غير مرسل

ورحنا وراح الطِّرف ينفض راسه ∴ متى ما ترقَّ العين فيه تسفَّل

والطِّرف بكسر الطّاء : الكريم الابوين . يصف اعلى فرسه واسفله بالحسن الّذى يجذب النّظر إليه .

(٢) سورة الانعام ١٤٣ ، ١٤٤

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/١٣٦ وتفسير ابن عطيّة ٣/٤٦ وتفسير القرطبىّ ١٢٧٦

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/١٣٦

(٥) تفسير القرطبىّ ١٢٧٦

وإنّ ثمّة ملاحظةً أخرى تؤكّد حسن الخيل هنا على الأنعام . إنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الجانب النّاعم من الحياة وليس عن الجانب الخشن ، وكأنّ المراد بالخيل هنا ليس الخيل المعدّة للقتال أساساً أو كأنّ النّظرة إلى الخيل فى السّياق ركّزت على الجانب النّاعم من الخيل وهو الجانب الّذى يتّخذ من الخيل زينةً ومتعةً وتسلية . ولّما كان الجانب الخشن من الأنعام الضّأن والمعز والبقر والإبل معناهُ الجانب العمليّ بالانتفاع منها طعاماً وشراباً وكساءً وسكناً وتزيد الإبل باتّخاذها ركوباً ، وقد عرفنا أنّ هذا الجانب تجاوزته الآية إلى اتّخاذ هذه الأنعام زينةً ، فذلك معناه التّفوّق الواضح للخيل على الأنعام خاصّةً حينما تكون الخيل مسوّمة . إنّه بالنّظر إلى الآيات الكريمات من سورة النّحل يتبيّن أنّ للأنعام ثلاث وظائف رئيسيّة ، أشارت إلى كلٍّ منها إحدى الآيات الكريمات الثلاث . قال تعالى[1] : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس ، إنّ ربّكم لرءوفٌ رحيم** ﴾ وهذه الوظائف يعمّقها قوله تعالى[2] : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين** ﴾ . ويمكن التّعبير عن هذه الوظائف بأنّها حصول النّفع المباشر ، اتّخاذها رَكوباً ، اتّخاذها زينة .

فإذا تحوّلنا إلى حديث آية سورة النّحل عن الخيل والبغال والحمير فى قوله تعالى[3] : ﴿ **والخيل والبِغال والحمير لتركبوها وزينة . ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ . تبيّنّا أنّ للخيل وظيفتين اثنتين فقط ؛ أن تتّخذ ركوباً فى السّلم

---

(١) سورة النّحل ٥ ـ ٦

(٢) سورة النّحل ٨٠

(٣) سورة النّحل ٨

وفى الحرب وأن تتّخذ زينة ، وقد عَرفنا أنّ حديث آية سورة آل عمران عن الخيل من زاوية كونها زينة ، أى أنّ السّياق يتحدّث عن شطرٍ كاملٍ أو نصفٍ كامل من صفة الخيل بينما الزّينة فى حقّ الأنعام تشكّل زهاء الثّلث . وحينما تكون الخيل بطبعها أجمل من الأنعام فإنّ هذا الجمال ممّا يجعل النّصف فى حقّ الخيل كبيراً والثّلث فى حقّ الأنعام صغيراً ، إنّ كلّ هذه المعانى أوْحَى بها تقديم الآية الكريمة للخيل فى الذّكر على الأنعام . والله أعلم .

وإنّ الحبّة الّتى يختم السّياق بها عقد الشّهوات الحرث بمعنى الزّرع[1] وهو هنا اسمٌ لكلّ ما يحرث ، وهو مصدرٌ سمّى به تقول : حرث الرّجل حرثاً إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة ، فيقع اسم الحرث على زرع الحبوب وعلى الجنّات وغير ذلك من أنواع الفلاحة[2] .

إنّ المروج والمراعى الّتى ترتادها الخيل والأنعام من جنس الحرث وبذلك تكون العلاقة متينةً بين الخيل المسوّمة أى الّتى تَرْعى والأنعام وبين الحرث . ووراء ذلك يتجاوز لفظ الحرث المروج والمسارح إلى كلّ ما يزرعه الإنسان ويحرث من أجله الأرض . وإذا كنّا يصحّ أن نفهم من الخيل والأنعام الحركة والمجتمع العربىّ المتنقلّ ، فإنّا يصحّ أن نفهم من الحرث الاستقرار والمجتمع العربىّ المتحضّر المستقرّ فى المناطق الخصبة الزّراعيّة . وإنّ ما يزرعه الإنسان ويحرث من أجله الأرض متاعٌ لنفسه ولأنعامه . إنّ للزّراعة نفعها وإنّ للخضرة حظّها الموفور من الحسن والجمال وإنّ الآية الكريمة لتعطى الزّرع حظّه الموفور من الجمال .

وإنّ الآية الكريمة حينما ترتّب عناصر الشّهوة هذا التّرتيب البديع المعجز ، وحينما نتبيّن تقديم السّياق العناصر المشتركة بين عنصري

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٣٧/٣

(٢) تفسير ابن عطيّة ٤٦/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٧٧

المجتمع العربىّ ، البدوىّ والحضرىّ ، أعنى الخيل والأنعام، وتأخير السّياق العنصر الأكثر ارتباطاً بالعنصر الحضرىّ المستقرّ ، أعنى الحرث ، كأنّا نتبيّن فى هذا التّقديم والتّأخير تقريراً لعنصرى المجتمع العربىّ البدوىّ والحضرىّ وتقريراً لكبر حجم العنصر البدوىّ بالقياس إلى الحضرىّ تَبعا للطبيعة الغالبة على جزيرة العرب آنذاك .

إنّ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنّه استعمل اللّغة العربيّة استعمال العرب لها ، وخاطب العرب ، مادّة الإسلام الأولى ، بما يعرفون ويألفون، وإنّ ممّا ألفه العرب آنذاك ترتيب هذه العناصر الجماليّة وفق هذا النّسق «الخيل المسوّمة والأنعام والحرث» .

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة هذه المجموعة من الشّهوات مرتبةً فى نسقٍ بديع ونظمٍ عجيب كان من الآية الكريمة تقريرٌ لحقيقة هذه الشّهوات وإعطاءٌ لها قيمتها الحقيقيّة الّتى لا ينبغى لها أن تتخطّاها ولا أن تنزل عنها وذلك فى القول : ﴿ **ذلك متاع الحياة الدّنيا** ﴾ ومع أنّنا بصدد مجموعةٍ كبيرةٍ من الشّهوات فإنّ الإشارة إليها تتمّ بصيغة المفرد «ذلك» «لأنّه أراد ذلك المذكور أو المتقدّم ذكره ، والمعنى تحقير أمر الدّنيا والإشارة إلى فنائها وفناء ما يستمتع به فيها»[1] والمتاع : ما يستمتع به وينتفع مدّةً ما منحصرة[2] وممّا يقوّى من تهوين الآية الكريمة لمتاع الدّنيا باعتباره زائلاً وإن طال أمده ، وصف هذه الحياة بأنّها الدّنيا وليس بالأولى مثلاً . ولفظة الدّنيا لا تعنى الأدنى زمناً والأكثر قرباً فقط إنّما تعنى كذلك الأدنى مكانةً ومنزلة . إنّ هذه هى طبيعة هذه الحياة وهذه هى منزلتها . وحينما يكون المتاع الانتفاع لمدّة معيّنة من قولهم متع النّهار ومتع النّبات إذا ارتفع فى أوّل النّبات[3] يكون معنى ذلك

---

(١) البحر المحيط ٣٩٨/٢

(٢) تفسير ابن عطيّة ٤٦/٣

(٣) مفردات الرّاغب «متع» ٤٦١

أنّ المتاع ينبغى أن يكون قريب النّهاية لأنّ هذه هى طبيعة الفترة الزّمنية المحدودة . يقال : متع النّهار مُتوعاً ارتفع قبل الزّوال ، والضّحى بلغ آخر غايته وهو عند الضّحى الأكبر أو ترجّل وبلغ الغاية[1] وتتّضح معالم الفترة بترتيب ساعات النّهار وهى[2] : «الشّروق ثمّ البكور ثمّ الغُدُوّ ثمّ الضّحى ثمّ الهاجرة . . .» .

وإذا كانت الدّنيا مصيرها إلى الزّوال فكيف بمتاعها ، إنّ الزّوال به ألصق وإليه أقرب . وهذا المعنى تعمّقه الجزئيّة الكريمة الأخيرة الّتى تتحدّث عن الآخرة دار الخلود والنّعيم المقيم : ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ بمعنى المرجع . والّذى يلفت النّظر أنّ لفظة متاع جاءت فى حقّ الحياة الدّنيا على حين جاءت لفظة حسن فى حقّ الحياة الآخرة . ومن البيّن أنّ القول : «والله عنده حسن المآب» يتعلّق بالمؤمنين المتّقين المحسنين ، ففى حقّ هؤلاء الآخرة خيرٌ من الأولى ولهم عند ربّهم جلّ وعلا حسن المآب والمرجع يوم القيامة .

وإنّ الحديث فى هذه الجزئيّة الأخيرة عن المؤمنين وليس عن الكافرين ، وعن حسن المآب وليس عن سوء المآب ، إثر الحديث عن الشّهوات وعن كونها متاع الدّنيا ، يُفْهَمُ منه عدم تحقير تلك الشّهوات وعدم إهمالها إنّما تؤخذ فى الاعتبار وتنال ضَرْباً من الاهتمام وذلك فى حدود الوسطيّة الّتى تتّسم بها هذه الأمّة الّتى جعلها الله تعالى أمّةً وسطاً فى كلّ شئونها الدّينيّة والدّنيويّة . . وفى ضوء هذه الوسطيّة نحن نودّ أن نفى بوعدنا بالحديث فى هذا الضّابط بعد أنْ تحدّثنا عن نظم الآية الكريمة المعجز .

لقد عُنِى الإسلام بكلٍّ من الحقّ والجمال على التّوالى ، وكانت عنايته

---

(١) القاموس «متع»

(٢) فقه اللغة للثعالبى : ٣١٥

بالحقّ هى الأكبر ، وفى الوقت ذاته هو لم يهمل عنصر الجمال ولكنّه آتاه حقّه المحدود . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة آل عمران من الآيات الكريمات الّتى تُعْنى بالزّينة وهى ضربٌ من الجمال . ومادامت الذّات العليّة هى الّتى زيّنت للإنسان هذه المظاهر من الزّينة والجمال فينبغى أن يكون ذلك لحكمة وينبغى أن تكون هذه الزّينة ذات قيمة حسنة فى ذاتها . ونستطيع أن نفهم أنّ المعيار الّذى تقاس به هذه المظاهر من الزّينة هو الوسطيّة الّتى يعرف بها هذا الدّين ، بألاّ يحرّم المرء على نفسه ما أحلّ له جلّ وعلا من الزّينة ، وألاّ يسرف فى الأخذ ، ونستطيع أن نفهم الضّابط لهذا الأخذ هو ألاّ ينسى الإنسان نصيبه من الدّنيا وألاّ يسرف ولكنّه المذهب الوسط .

وإنّ هذا الضّابط نستطيع أن نتبيّنه من هذه الآيات الكريمات . قال تعالى(١) : ﴿ **يابنى آدم خذوا زينتكم عِنْد كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . قل من حرّم زينة الله الّتى أخرج لعباده والطّيبات من الرّزق . قل هى للّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا خالصةً يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقومٍ يعلمون** ﴾ وقال تعالى(٢) ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض.إنّ الله لا يحبّ المفسدين** ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ **والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ .

فى مجال العلاقة بين الرّجل والمرأة حثّ الإسلام كلًّا منهما على الاستعفاف حتّى يغنى الله تعالى كلًّا منهما من واسع فضله ، وأرشد إلى أحسن السّبل ، وحثّ المجتمع المسلم على أن يُنْكح من لا زوج له من الجنسين ، وكانت عناية الإسلام بالأسرة عنايةً كبيرةً وعجيبة من أجل إيجاد

---

(١) سورة الاعراف ٣١ ، ٣٢

(٢) سورة القصص ٧٧

(٣) سورة الفرقان ٦٧

الإنسان الصّالح من الجنسين . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا عناية عددٍ كبيرٍ من سور القرآن الكريم بالزّوجين وبالمرأة على جهة الخصوص ؛ ومن هذه السّور البقرة والنّساء والنّور والأحزاب والممتحنة والطّلاق والتّحريم . إلى غير ذلك من السّور . وقد حدّد الشارع عدد الزّوجات بأربع مع وضع الضّوابط والقيود الّتى تجعل إباحة التّعدّد محقّقةً أهدافها السّامية . والمعروف أنّ الإسلام نهى عن العزوف الكلّىّ للرّجال عن النّساء فلا رهبانيّة فى الإسلام . وهكذا يتبيّن المنهج الوسط الّذى ارتضاه الشّارع الحكيم لنا . قال ﷺ : الدّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصّالحة ، إنْ نظر إليها سرّته ، وإنْ أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله .وقال ﷺ : حبّب إليّ النّساء والطّيب وجعلت قرّة عينى فى الصّلاة . وقال ﷺ : تزوّجوا الودود الولود فإنّى مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة[1] .

ويقترن فى الإسلام بالحثّ على تسهيل الزّواج وإباحة التّعدّد وضع العقاب الصّارم النّاجع لجريمة الزّنا .

وبشأن البنين هم زينة الحياة الدّنيا مع المال وهم ساعد الأب وعونه ، وهم امتداد الرّجل بعد موته ومدده بصالح الدّعاء وفعل الخيرات . وقد جاء فى الدّعاء الّذى لقنه الله تعالى عباد الرّحمن قوله تعالى[2] ﴿ **والّذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعينٍ واجعلنا للمتّقين إماما** ﴾ . ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث . ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية[3] .

وبشأن المال حينما يُنال من حلال وينفق فى حلال وتؤخذ منه الزّكاة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٥١/١

(٢) سورة الفرقان ٧٤

(٣) تفسير ابن كثير ٣٣٠/٣

وتُعْطى منه الصّدقات فلاشكّ أنّ فى ذلك الخير كلّ الخير . وإنّ المال حينما ينفق فى وجوه الخير وفى سبيل الله تعالى فلاشكّ أنّ ذلك مظهرٌ من مظاهر قوّة المسلم وعزّته وقد جاء فى الحديث الّذى رواه الإمام مسلم وغيره : المؤمن القوىّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف وفى كلٍّ خير[1] وليس ببعيدٍ عن أذهاننا عناية الإسلام بالمال فى مجال الجهاد فى سبيل الله فى مثل قوله عزّ من قائل[2] : ﴿ **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة** ﴾ وليس ببعيدٍ عن أذهاننا دور عثمان رضى الله عنه حينما جيّش بماله جيش العسرة فى غزوة تبوك . وإنّ الخيل ضربٌ من المال وبخاصّةٍ فى مجال الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وتحلّ الوسائل الحديثة محلّ الخيل فى مجال الانتقال والقتال . ويلحق بالخيل الأنعام . وما قيل عن سائر المال يقال عن الحرث بمعنى الزّرع ؛ إنّ الحاجة ماسةٌ للطّعام فى حال اليُسْر والعُسر ، السّلم والحرب . وما أجمل امتثال أحكام الله تعالى فى الغذاء .

وفى مجال إنفاق المال يأمر الإسلام بالاقتصاد فى الانفاق وبالطّريق الوسط بين التّقتير والتّبذير ، وقد قال تعالى[3] : ﴿ **والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ .

وإنّ أسوأ مثالٍ على استعمال المال والطّغيان بسببه قارون الّذى خسف الله تعالى به وبداره الأرض على نحو ما بيّنت سورة القصص[4] .

ومع أنّ لهذه الشّهواتِ جانبين ، سيّئاً مرغوباً عنه وحسناً مرغوباً فيه ، حينما يُراد بإتيان ما أحلّ الله تعالى وجهُهُ جلّ وعلا وحسنُ المآب ، ولّما كانت تقوى الله تعالى خير ما يفوز به مَنْ أكرمه الله تعالى بكلّ ذلك أو ببعض

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة واحمد بن حنبل وانظر كتاب الامثال فى الحديث النّبوىّ ص ١٢٦
(٢) سورة التّوبة ١١١
(٣) سورة الفرقان ٦٧
(٤) الآية ٨١

ذلك ومن قُدِر عليه رزقه فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحوّل إلى الحديث عن هذه التّقوى فإلى :

الآية رقم (١٥)

قال تعالى : ﴿ **قل أؤنبّئكم بخيرٍ من ذلكم . للّذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطّهّرةٌ ورضوانٌ من الله . والله بصيرٌ بالعباد** ﴾ .

بعد أن ذكرت الآية الكريمة السّابقة مجموعةً من الشّهوات الّتى زيّنها الله تعالى لعباده يتمّ التّحوّل فى هذه الآية الكريمة التّالية إلى الدّار الآخرة الّتى هى خيرٌ من الأولى فيؤمر المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس ، المؤمنين منهم بخاصّة لأنّهم المستفيدون حقيقةً من هذه الدّروس القرآنيّة القيّمة : أَؤُنبِّئكم أيّها النّاس بعامّة وهل أخبركم أيّها المؤمنون بخاصّة ، بخيرٍ من ذلكم وأفضل من كلّ هذه الشّهوات العابرة والنّعيم الدّنيوىّ الزّائل ؟ ومن هو العاقل الّذى يُرْشد إلى الأحسن والأفضل ولا تهشّ له نفسه وترتاح . والآية الكريمة تقرّر ثواب المتّقين المقيم فى جنّات النّعيم الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وفى تخصيص الحديث عن الّذين اتّقوا ، والمعروف أنّ التّقوى تعتبر بمنزلة الإحسان أو الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، حثٌّ للمؤمنين على الاجتهاد فى العبادة وفى مرضاة الله تعالى كى يصلوا بفضل الله تعالى إلى مرتبة التقوى ، وهى الحجاز المعنوىّ بين المؤمن وبين النّار بفعل الخيرات والحسنات الّتى تقي المؤمن بفضل الله تعالى من النّار والّتى تقوم بدور الوقاية فى مجال المحسوسات .

وإذا اعتبرنا القول : «لّلذين اتّقوا» مستأنفاً وكان خبراً للمبتدأ المؤخّر جنّات تبيّنّا أنّه يفصل بين المبتدأ وخبره القول : «عند ربهم» الّذي يبيّن منزلة

هؤلاء المتّقين الرّفيعةَ عند ربهم . وانظر إلى لفظ الرّب الّذى لحق به الضّمير العائد إلى جماعة المؤمنين المتّقين . إنّ لفظ الرّبّ حبيبٌ إلى كلّ نفسٍ مؤمنة ، لطيف الدّلالة على تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ورحمته جلّ وعلا الّتى وسعتهم وإحسان هؤلاء العباد تمشّياً مع قوله تعالى[1] : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان** ﴾ وإنّ إحسان الله تعالى إلى هؤلاء المتّقين فى الأولى والآخرة هو الأكبر ، وها هو ذا الجزاء يتنوّع وها هو ذا الثّواب يتنامى ، فثمّة نعمة المكان والسّكن فيه والطّمأنينة والأمان : ﴿ **للّذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وفى النّصّ على وجود هذه الأنهار المتدفّقة ابتداءً بأنهار الماء فاللّبن فالخمر فالعسل تنبيهٌ على وجود سائر أنواع النّعيم المقيم ، خاصّةً وأنّه لا ينصّ على أنهار الماء ، بل على جنس الأنهار فشملت الماء وهو ضرورىّ ، واللّبن وهو ضربٌ من الغذاء ، والخمر وهى ضربٌ من ضروب التّلذذ والنّعيم فى الجنّة ، والعسل وفيه شفاء وهو علاج . وبذلك غطّت الأنهار كلّ الأنواع ابتداءً بالشّرب ، وانتهاءً بالعلاج .

ولّما كان نعيم المكان فى الأولى والآخرة لا يتمّ ألّا بالزّوجات اللّاتى جعلهنّ الله تعالى سكناً للأزواج فإنّ الآية الكريمة تنصّ من ناحيةٍ على الزّوجات وتنفى من ناحيةٍ أخرى كلّ صنوف الأذى الّتى تعلق بالزّوجات فى دنيا التّعب والنّصب : «وأزواجٌ مطهّرة» وانظر إلى لفظة مطهّرة الّتى لا ترضى الآية الكريمة بأى لفظةٍ أخرى قد تكون فى موضعها ولكنّها لا تغنى غناءها ولا تشهد مشهدها لأنّ هذه اللّفظة قادرةٌ وحدها على نفي كل قبيح وإثبات كلّ جميل .

ويتوّج ذلك النّعيم المقيم بقمّته الّتى ليس وراءها وراء ، والّتى تتمثّل فى رضا الله تعالى البصير بالعباد عن هؤلاء المؤمنين المتّقين فلا سخط بعده

---

(١) سورة الرّحمن ٦٠

أبدا . وقد بيّنت هذه الآية الكريمة من سورة التّوبة[1] أنّ رضوان الله تعالى عن المؤمنين أكبر من كلّ نعمةٍ ونعيم . قال تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمناتِ جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبةً فى جنّات عدن . ورضوانٌ من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ جاء فى الحديث أنّه تعالى يسأل أهل الجنّة هل رضيتم فيقولون : ما لنا لا نرضى ياربّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون : ياربّ ، وأىّ شىءٍ أفضل من ذلك قال : أحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً[2] خرّجه مسلم[3] .

والآية الكريمة التّالية تبيّن نعوت هؤلاء العباد الّذين يرضى الله تعالى عنهم . فإلى :

الآية رقم (١٦)

قال تعالى : ﴿ **الّذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عَذَاب النّار** ﴾ .

هذه الآية الكريمة تتعلّق بالقول الّذى يجرى على ألسنة الّذين اتّقوا ربّهم ، وهو قولٌ ينمّ عن حذر المتّقين وعدم اغترارهم بأعمالهم الصّالحة لأنّهم على علمٍ بأنّ المهمّ بشأن هذه الأعمال الصّالحة أن يتقبّلها الله تعالى . والله سبحانه وتعالى إنّما يتقبّل من الأعمال الصّالحة ما أريد به وجهه الكريم جلّ وعلا . وإنّ المتّقين مشفقون ألاّ يتقبّل الله تعالى تلك الأعمال . وإلى هذا الفريق اليقظ الحذر الّذى يعلم أنّ كلّ أعماله الصّالحة لا قيمة لها ما لم

---

(١) الآية ٧٢

(٢) البحر المحيط ٣٩٩/٢ وانظر تفسير ابن عطيّة ٤٨/٣ وتفسير القرطبى ١٢٨٠

(٣) تفسير القرطبىّ ١٢٨٠

يتفضّل الله تعالى البرّ الرّحيم بقبولها أشار قوله تعالى فى سورة المؤمنون[1] : ﴿ إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون .والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون. والّذين هم بربّهم لا يشركون . والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارِعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ .

وهؤلاء المؤمنون المتّقون يقولون ياربّنا إنّنا آمنّا بما أنزلت من قرآنٍ مجيد وأرسلت من رسولٍ كريم . اللّهمّ إنّا نتّخذ من الإيمان بِكَ وبمن أرسلت وبما أنزلت وسيلةً نتوسّل بها إليك أن تغفر لنا ذنوبنا وتكفّر عنا سيّئاتنا وتستر عيوبنا وأن تقينا بفضلك وكرمك عذاب النّار الّذى كنّا سننتهى إليه لو لم تهدنا إلى الإيمان وترشدنا إلى الاستغفار وتقبل أعمالنا الصّالحة الّتى أمرتنا بالقيام بها وَأَنْ نقصد بها وجهك الكريم .

ومن البيّن التّدرّج فى الآية الكريمة على غرار التّدرّج الّذى يصبغ آيات هذا القسم . إنّ وقاية المؤمنين من عذاب النّار يعنى غفران الذّنب بفضل الله ومنّه . وإذا كان حديث الآية الكريمةيتعلّق بقول عباد الرّحمن فإنّ الآية الكريمة التّالية تتعلّق بفعل هؤلاء العباد فإلى :

الآية رقم (١٧)

قال تعالى : **﴿ الصّابرين والصّادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾** .

إنّه بالنّظر إلى هذه المجموعة من النّعوت الّتى يتحلّى بها عباد الرّحمن وهى خمسة ، يتبين أنّها يصحّ أن تكون فى مجموعتين اثنتين . الصّفات اللاّزمة أو الّتى يغلب عليها هذه الصّفة وتشمل صفات الصّبر والصّدق والقنوت . والمتعدّيَة وتشمل صفتى الانفاق والاستغفار . وإنّ كلا

---

(١) الآيات ٥٧ ـ ٦١

من المجموعتين تخضع للتّدرّج المتنامى أو الاتجاه إلى أعلى الّذى يصبغ آيات القسم . وتفسير ذلك بشأن المجموعة الأولى أنّ الصّبر ذاتىّ وأنّ الصّدق ذاتىّ وشركةٌ بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان وبين بارئه جلّ وعلا . أمّا القنوتُ فإنّه اتّجاه إلى أعلى مباشرة إلى الذّات العليّة.وبشأن المجموعة الثانية الانفاق يتجه من الانسان إلى الذات العليّة مروراً بالإنسان أمّا الاستغفار فإنّه يتّجه مباشرةً إلى الذات العليّة . وإنّ هذا القول الموجز بحاجةٍ إلى شيءٍ من بسط القول .

إنّ الصّبر يصحّ أن يقال عنه إنّه عماد كلّ الأعمال الصّالحة الّتى يقوم بها الإنسان ويريد بها وجه ربّه الأعلى . ومن هنا كان الثّناء فى القرآن الكريم كبيراً على الصّابرين ، ومن هنا كان ثواب الصّابرين دون حساب . قال تعالى[1] : ﴿ **إنّما يوفىّ الصّابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ . والصّبر يكون على البلاء وعن الحرام وعلى الطّاعات . وإنّه بالنّظر إلى أنواع الطّاعات الّتى تنصّ الآية الكريمة عليها بعد ذلك يتبيّن أنّ الصّبر هو القاسم المشترك بينها .

أمّا الصّدق فالمراد بذلك أن يكون الإنسان صادقاً غير كاذبٍ مع نفسه ومع الآخرين . والمعروف أنّ المصطفى صلى الله عليه وسلّم كانً يلقّب قبل البعثة بالصّادق الأمين[2] وقد قال تعالى[3] : ﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين** ﴾ وينبغى أن يكون الإنسان صادقاً فى المقام الأوّل مع بارئه جلّ وعلا بعبادته تعالى وحده لا شريك له .

وإنّ النّظرة إلى الصّدق من زاوية القمّة بمعنى الصّدق مع الله تعالى تسلمنا إلى الصّفة الثّالثة الخالصة لله تعالى وهى صفة القنوت . والقنوت لزوم الطّاعة

---

(١) سورة الزّمر ١٠

(٢) انظر مثلاً السّيرة النّبويّة لابن هشام ١/٢١٤ ونور اليقين للشّيخ محمّد الخضرى ٢٠ والسّيرة النّبويّة لأبي الحسن النّدوى ١٠٦

(٣) سورة التّوبة ١١٩

مع الخضوع[1] والدّعاء أيضا وبكلّ ذلك يتّصف المتّقى[2] وإنّ مثل هذه الآية الكريمة تبيّن العلاقة الوثيقة بين القنوت والصّلاة . قال تعالى[3] : ﴿ **أمّن هو قانتٌ آناء اللّيل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه . قل هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون . إنّما يتذكّر أولو الألباب** ﴾ وجاء خطاباً لمريم ابنة عمران قوله تعالى[4] : ﴿ **يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الرّاكعين** ﴾ .

فإذا تحوّلنا بعد ذلك إلى إحدى الصّفتين المتعدّيتين : «والمنفقين» تبيّنّا أنّها مرتبطةٌ بالإنسان فى المقام الأوّل وبالمحسوسات كذلك . إنّ المقصود بالمنفقين الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى سرّاً وعلانيةً باللّيل وبالنّهار . ونستطيع أن نفهم الإنفاق بمعناه الواسع ، فهو بمعنى الإنفاق على الذّات وعلى من يلزمه الإنفاق عليه ، وبمعنى إيتاء الزّكاة باعتبارها ركناً من أركان الإسلام ولها شروطها ، ومن شروط النّقدين الذّهب والفضّة وهما عماد المال بلوغ النّصاب وهذا معناه أنّ بلوغ النّصاب يفترض المرور بمرحلة الإنفاق عل الذّات ومن فى حكمها . والإنفاق أخيراً بمعنى الصدّقة وبذل المال فى كلّ وجوه البّر ابتداءً بالجهاد فى سبيل الله تعالى .

فإذا تحوّلنا إلى أخرى الصّفتين المتعدّيتين وآخر الصّفات عموماً : «والمستغفرين بالأسحار» تبيّنّا أنّها صفة معنويّة ، كما تبيّنّا أنّها تؤكد صفة اليقظة والحذر وعدم الغفلة وهضم النّفس ، وهى الصّفة الّتى أكّدتها الآية الكريمة السّابقة الّتى قرّرت دعاء عباد الرّحمن الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النّار . وإنّ استغفار العباد الله تعالى معناه أنّهم يسألون الله

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانى ٤١٣

(٢) تفسير ابن عطيّة ٣/٥٠

(٣) سورة الزّمر ٩

(٤) سورة آل عمران ٤٣

سبحانه وتعالى أن يتفضّل بغفران الذّنب المؤدّى بالعبد إلى النّار لولا فضل الله تعالى ، وكأنّهم بسؤال المغفرة يسألون الله تعالى أن يقيهم عذاب النّار وذلك هو الثّمرة النّكدة لارتكاب الذّنوب الّتى لا يغفرها الله تعالى .

وهؤلاء العباد يستغفرون اللهِ تعالى فى كلّ الأوقات وبخاصّة فى الأسحار ، وهو جمع السّحر بتحريك الحاء قبيل الصّبح[1] وآخر اللّيل[2] والعادة جرت أن يكون قلب المؤمن فى ذلك الوقت أكثر تعلقاً بالله تعالى ونفسه أكثر إقبالاً عليه جلّ وعلا . قيل إنّ يعقوب عليه السّلام لما قال لِبَنيهِ : سوف أستغفر لكم ربّى ، أنّه أخّرهم إلى وقت السّحر . وثبت فى الصّحيحين وغيرهما من المسانيد والسّنن من غير وجه عن جماعةٍ من الصّحابة أنّ رسول الله ﷺ قال : ينزل الله تبارك وتعالى فى كلّ ليلةٍ إلى السّماء الدّنيا حين يبقى ثلث اللّيل الأخير فيقول : هل من سائلٍ فأعطيه ، هل من داعٍ فأستجيب له ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ؟ الحديث[3] والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخارىّ عن النّبىّ ﷺ قال : سيّد الاستغفار أن تقول : اللّهم أنت ربّى لا إلهَ إلاّ أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوءُ بذنبى ، فاغفر لى فإنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت . قال : ومن قالها من النّهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يُمْسى فهو من أهل الجنّة . ومن قالها من اللّيل وهو موقنٌ بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنّة[4] .

---

(١) القاموس المحيط : «سحر» وانظر تفسير ابن عطيّة ٥١/٣ والبحر المحيط ٣٩٨/٢

(٢) تفسير ابن عطيّة ٥١/٣

(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٣/١ وتفسير القرطبىّ ١٢٨١

(٤) تفسير القرطبىّ ١٢٨٢

(٣)
مسلمون لله تعالى مالك الملك وكافرون وجزاؤهم
الآيات (١٨ ـ ٢٧)

شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ
ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ
ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ
فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى البصير بالعباد يشهد ، وكفى بالله شهيدا ، بلسان الحال والمقال ، أنّه لا إلهٰ إلاّ هو ، وكذلك يشهد بلسان المقال الملائكة وأولو العلم ، قائماً جلّ وعلا بالقسط أى قائماً بالعدل قائلاً بالحقّ لاإلهٰ إلاّ هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه . وإنّ الدّين الحقّ عند الله تعالى هو دين الإسلام الّذى بعث به كلّ رسله ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم . والعجيب فى أمر أهل الكتاب أنّهم ما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح بواسطة الوحى ؛ فكان الكتابُ الّذى جاء لتوحيد صفوفهم سبَبَ تمزيق شملهم بسبب البغى فيما بينهم ، وهؤلاء كفروا بكل آيات الله تعالى الحسّيّة والمعنويّة وفيها القرآن الكريم ، وجادلوا المصطفى ﷺ الّذى يؤمر بأن يقول لهم بأنّه أسلم وجهه وهو أشرف أجزاء جسده لله تعالى وكذلك من اتّبعه عليه الصّلاة والسّلام ، وبأن يقول لأهل الكتاب والأمّيّين من العرب وسواهم أأسلمتم ، بمعنى أسلموا ، فإن أسلموا فقد اهتدوْا وإن كفروا وتولّوْا فإنّما على الرّسول ﷺ البلاغ والله بصيرٌ بالعباد . وإنّ الّذين يكفرون بآيات الله تعالى ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ويقتلون الّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لهم عذابٌ أليم وأولئك الّذين بطلت أعمالهم الصّالحة فى الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . ويقترن ببنى إسرائيل بخاصّة قتلُ النّبيّين ، وهم وراء ذلك يُدْعَوْن إلى كتاب الله ليحكمَ بينهم فى مجال الأحكام والحلال والحرام وشئون الدّين ولكنّهم يتولّون فى مجموعهم وهم معرضون ، والسّبب فى ذلك افتراؤهم على الله تعالى الكذب فيزعمون مثلاً أنّهم لن يمكثوا فى النّار إلاّ أربعين يوماً وهى الأيّام الّتى عبد فيها آباؤهم

العجل حينما ذهب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه . وما أسوأ حال القوم ومآلهم حينما يُجْمعون يوم القيامة لفصل الحساب فلا يظلمون بنقص حسنة أو زيادة سيِّئة . ويؤمر عليه الصّلاة أن يدعوَ الله مالك الملك وأن يلجأ إليه فهو تعالى الّذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كلّ شيءٍ قدير ، ومن ذلك إيلاج الّليل فى النّهار والنّهار فى الّليل وإخراج الحىّ من الميت والميّت من الحىّ ورزق من يشاء جلّ وعلا بغير حساب .

***

الآية رقم (١٨)

قال تعالى : ﴿ شَهد الله أنّه لا إلهٰ إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط . لا إلهٰ إلاّ هو العزيز الحكيم ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى شهد ، وكفى بالله شهيدا ، أنّه لا إلهٰ إلاّ هو . وهذه الشّهادة من الله تعالى تكون قولا ، وذلك بما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه من كتب سماوية خُتمت بكلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية ، القرآن الكريم المهيمن على الكتب السّماويّة قبله ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبما يوحيه الله تعالى من وحى غير الكتب السمَاويّة، وبما يبعثه الله تعالى إلى البشر من رسل مصطفين كرام خُتموا بأشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ﷺ.وهذه الشهادة من الله تعالى تكون كذلك دلالة ، فإنّ هذا الكون العظيم والملكوت المهيب ، الّذى يخضع لنظام عجيبٍ من فرط الدّقّة بحيث إنّ أدقّ المراصد مثلاً الّتى تقسّم الثّانية إلى آلافٍ الأجزاء دليلاً على مدى الإتقان والاقتدار والدّقّة بحاجةٍ إلى أن يعاد ضبطها وفقاً للشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب . وقد قال عزّ من قائل[1] : «الشّمس والقمر بِحُسْبان» وقال تعالى[2] : «ما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت» وذلك كلّه دليلٌ على الإلهٰ الواحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال تعالى[3] : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾ .

وكما شهد الله تعالى أنّه لا إلهٰ إلاّ هو شهد الملائكة الّذين لا يعصون

(١) سورة الرّحمن ٥

(٢) سورة الملك ٣

(٣) سورة الانبياء ٢٢

الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويلاحظ أنّه فصل بين شهادة الذّات العليّة وشهادة الملائكة القضيّة الّتى كانت الشّهادة من أجلها «أنّه لا إلهٰ إلّا هو» للفصل بين مقام الألوهيّة ومقام العبوديّة . كما يلاحظ أنّ مقام العبوديّة يبدأ بالملائكة الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم والّذين يفعلون ما يؤمرون به من التّدبير[1] ومن هؤلاء الملائكة من هو سفير الذّات العليّة إلى المصطفين الأخيار بحمل الوحى إليهم وهو جبريل عليه السّلام . إنّ هؤلاء الملائكة جميعاً يشهدون بما شهدت به الذّات العليّة من أنّه لا إلهٰ إلّا هو .

ويشهد بعد الملائكة أولو العلم . وأولو العلم هؤلاء من البشر . والآية الكريمة لا تقول إنّ النّاس يشهدون بما شهدت به الملائكة لأنّ النّاس فريقان مؤمنٌ وكافر . والآية الكريمة لا تقول إنّ المؤمنين يشهدون بذلك أو المتّقين وقد عرفنا بعض صفات عباد الله تعالى فى مجالى القول والفعل فى الآيتين الكريمتين السّادسة عشرة والسّابعة عشرة من هذه السّورة الكريمة . إنّ الآية الكريمة تنصّ على شهادة أولى العلم . والمراد به العلم الصّحيح النّافع ، والمراد بالعلماء أولئك الّذين أنعم الله تعالى عليهم بالعقول الرّاجحة ، والبصائر النّيرة ، والعلم اللّدنّى ، الّذين اهتدوا فزادهم الله تعالى هدى ، والّذين اتّقوْا فزادهم الله تعالى تقوى إلى تقواهم .

ولّما كان مفهوم العبادة فى الإسلام واسعاً إلى أبعد درجات الاتّساع بحيث إنّه يشمل كلّ الأعمال الصّالحة الّتى يريد بها المرء وجه ربّه الأعلى بما فى ذلك لقمة الطّعام يضعها الزّوج فى في زوجه ، ولّما كان هؤلاء العلماء الّذين تلك صفاتهم تعتبر كلّ أعمالهم الصّالحة الّتى أرادوا بها وجه الله تعالى داخلةً فى مفهوم العبادة بهذا المعنى الواسع لذلك كلّه كانت منزلة العالِم فى الإسلام رفيعةً حقًّا ، وكانت فوق منزلة العابد . وإلى منزلة العالم الرّفيعة

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٢/٤٠٣

أشارت آيات الذّكر الحكيم الّتى بَيَّنت العلم الّلدنّى الّذى آتاه الله تعالى آدم عليه السّلام من علمٍ بأسماء المسمّيات ذلك العلم الّذى لم يؤته الله تعالى الملائكة . ومن هنا كان فضل آدم عليه السّلام العالِم على العابد ممثّلاً فى الملائكة ومن هنا كان الأمر للملائكة بالسّجود لآدم سجود تحيّة وتكرمة .

إنّ أولى العلم يشهدون أنّه لا إلهٰ إلّا الله.وهذه الشهادة من أولى العلم بأنه لا إله إلا هو كما بّينت الآية الكريمة شهادةٌ من الذّات العليّة بمنزلة العلماء الخليقين بهذه الصّفة ، وشهادةٌ من الذّات العليّة كذلك بأنّ العلم الصّحيح يقود إلى النّتائج الصّحيحة وفى مقدّمتها شهادة ألا إلهٰ إلّا الله . وبمقدار إدلاء الآية الكريمة بهذه الشّهادة لأولى العلم الّذين يقودهم العلم الصّحيح دائماً إلى الإيمان ، إدلاء الآية الكريمة بعمى بصيرة الفريق الآخر المنتسب إلى العلم الّذى قاده فكره السّقيم ، وعقله المريض ، وقلبه الأعمى إلى مهاوى الرّدى .

ومن البيّن أنّ هذه الإشادة بأولى العلم بشأن أخطر قضيّة ألا وهى قضية التوحيد قد وُطّىء لها بالإشادة بأولى العلم بشأن قضية خطيرة أخرى متعلقةٍ بالكتاب العزيز الّذى فيه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات . إنّ أولى العلم يقولون إنّ كلاًّ من المحكم.والمتشابه من عند ربّهم جلّ وعلا . إنّ الهداية فى المرّة الأولى قادت إلى الهداية فى المرّة الأخرى وفى كلّ مرّة .

والقسط بمعنى العدل[1] وانتصاب : قائماً بالقسط ، على أنّه حالٌ مِنْ لفظ الجلالة «الله» أو من قوله : «إلّا هو»[2] بمعنى قائماً بالعدل ، قائلاً بالحقّ ، شاهداً بالقسط .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٤٠/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٨٥ وتفسير ابن عطيّة ٥٤/٣ والكشاف ٣١٥/١

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٥٤/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٨٥

وتؤكد الآية الكريمة قضيّة التّوحيد فى القول : «لا إلٰه إلّا هو العزيز الحكيم» وكأنّ المقصود أن يقول كلّ عباد الله تعالى وقد جاء دورهم : لا إلٰه إلّا الله العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه . وإلى هذا المعنى نبّه الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن الزّبير بن العوّام قال : سمعت النّبىّ ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : شهد الله أنّه لا إلٰه إلّا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إلٰه إلّا هو العزيز الحكيم ، وأنَا على ذلك من الشّاهدين ياربّ . وفى رواية من وجهٍ آخر ، قال : وأنا أشهد أى ربّ(1) .

وتأسّياً بالمصطفى ﷺ بعد تلاوة الآية الكريمة نحن نقول جميعاً : ونحن على ذلك من الشّاهدين ياربّ . إنّه لا إلٰه إلّا الله . وإنّ هذا الإلٰه الواحد الّذى لا إلٰه إلّا هو يبيّن أنّ الدّين عنده جلّ وعلا هو الإسلام فإلى :

الآية رقم (١٩)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الدّين عند الله الإسلام . وما اختلف الّذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب** ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الدّين المقبول أو النّافع أو المقرّر(2) والملّة(3) المعتبرة والعقيدة المتقبّلة والشّرع المعتمد والمنهاج المتّبع هو دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ أنبيائه ورسله ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٣/١

(٢) تفسير ابن عطيّة ٥٤/٣ وانظر البحر المحيط ٤٠٧/٢

(٣) تفسير ابن عطيّة ٥٤/٣ وتفسير القرطبىّ ١٢٨٥ والبحر المحيط ٤٠٧/٢

وإنّه بالنّظر إلى هذه الآية الكريمة فى ضوء الآية الكريمة السابقة نستطيع أن نتبين فى الآية الكريمة السّابقة الحديث عن الذّات العليّة وعن الملائكة وأولى العلم ، ويأتى على رأس أولى العلم الأنبياء والمرسلون ، وعليه يكون الّذى بقى الحديث عنه مادّة هؤلاء العلماء وبضاعتهم ، ومن البيّن أنّها العلم وعماد هذه المادّة دين الإسلام الّذى تتحدّث عنه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها .

ونستطيع أن نفهم الإسلام الّذى بعث الله تعالى به رسله بأنّه الاستسلام لله تعالى بالخضوع والانقياد له جلّ وعلا بالطّاعة والخلوص من الشّرك . والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى بعث كلّ أنبيائه ورسله بهذا الدّين ، أى بتوحيد الله تعالى . ونستطيع أن نفهم أنّ هذا هو الدّين الّذى ترك عليه آدم عليه السّلام ذرّيّته إلى أن تفرّقت بهم السّبل عن سبيل الحقّ الواحدة وظهرت الحاجة لإرسال رسول فكان نوحٌ عليه السّلام وبعد فترةٍ طالت أو قصرت تفرّقت بقومه عليه السّلام السّبل فجدّت الحاجة لإرسال رسولٍ آخر وهكذا دواليك حتّى ختم أولئك المرسلون بمحمّد بن عبدالله ﷺ النّاسخ دينه سائر الدّيانات ، والمهيمن كتابه ، وهو القرآن الكريم ، على سائر الكتب .

لقد شاء الله تعالى أن يكون دين كلّ الرّسل الإسلام بمعنى توحيد الله تعالى . كما شاء الله تعالى أن يكون لكلّ شرعةٌ ومنهاج . وإلى ذلك أشار قوله تعالى(١) : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ . لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم**

---

(١) سورة المائدة ٤٨

بما كنتم فيه تختلفون ﴾ . إنّ الشّرعة والشّريعة بمعنى أوّل الطّريق الموصل إلى الماء «كلّ ما شرعت فيه من شيءٍ فهو شريعة»[1] والمنهاج الطّريق البيّن الواضح[2] فالله سبحانه وتعالى جعل رسالة المرسلين والنّبيّين جميعاً واحدة هى رسالة التّوحيد ودين الإسلام ، والله سبحانه وتعالى جعل لكلّ أمّةٍ من أتباع المرسلين والنّبيّين سبيلاً يسلكونه ومنهاجاً يّتبعونه . ومن هنا اختلفت الطّرق الّتى يسلكها أتباع النّبيّين فى تطبيق تعاليم الدّين ، وكلّ هذه الطّرق تؤدّى إلى غايةٍ واحدة هى توحيد الله تعالى لبّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به أنبياءه ورسله وجوهره . وهذا المعنى بيّنه الحديث النّبوىّ الشّريف فقد ثبت فى صحيح البخارىّ عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء إخوة لِعَلَّات ديننا واحد[3] وعلّات جمع عَلّة بفتح العين وهى الضّرّة بفتح الضّاد[4] إنّ الشّرائع والمناهج بمثابة أبناء الزّوجات لزوجٍ واحد ، أو إنّ أبناء هؤلاء الزّوجات يمثّلون تلك الشّرائع والمناهج . وفى الوقت ذاته يعود أولئك الأبناء إلى أبٍ واحد ، وكذلك تلك الشّرائع والمناهج تعود إلى دينٍ واحد هو دين الإسلام وتقود إلى عقيدة التّوحيد الصّافية النّقيّة .

بقى علينا أن نقرّر أنّ دين الإسلام الّذى جاء به محمّد بن عبدالله ﷺ ناسخٌ لكلّ دينٍ سواه وأنّ القرآن الكريم مهيمنٌ على الكتب السّماوية السّابقة حافظٌ لها أمينٌ عليها شهيدٌ على أنّها حقٌّ من عند الله تعالى . وبنصّ القرآن الكريم حرّف أهل الكتاب كلّاً من التّوراة والإنجيل ، وبنصّ القرآن الكريم تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدّين . قال تعالى[5] : **﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾** .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٧٤/٦ وتفسير ابن كثير ٦٦/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٦٦/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٦٦/٢

(٤) انظر الاشتقاق لابن دريد : ٥٥

(٥) سورة الحجر ٩

وبما أنّ تفرّق أتباع النّبيّين والمرسلين شيعاً وأحزاباً وتفرّق السّبل بهم عن سبيل الحقّ الواحدة السّبب فى إرسال الله تعالى رسولاً يعيد النّاس إلى الصرّاط المستقيم الواحد فإنّ الآية الكريمة تبيّن جزءاً من السّبب الّذى من أجله أرسل الله سبحانه وتعالى خاتم النّبيّين وهو اختلاف أهل الكتاب أى اليهود والنصارى ، هذا إلى ما خص به خاتم النّبيّين من خصائص ليست لسواه من النّبيّين والمرسلين ، ومن هذه الخصائص كونه عليه الصّلاة والسلام قدأرسله الله تعالى إلى النّاس كافّةً بشيراً ونذيرا ، وإلى العالمين رحمةً وسراجاً منيرا ، ومن هذه الخصائص كونه عليه الصّلاة والسّلام خاتم النّبيّين . وبناءً على ذلك فدين الإسلام الّذى لا يقبل الله تعالى سواه هو الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ . قال تعالى[1] : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبلَ منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ قال تعالى[2] : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إنّ الدّين عند الله الإسلام** ﴾ .

والآية الكريمة تقرّر أنّ أهل الكتاب إنّما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح من الله تعالى عن طريق رسله وكتبه ووحيه ، فليس اختلافهم بسبب قصور البّينة وعدم وضوح الحّجة إنّما كان اختلافهم بسبب بغيهم وطغيان بعضهم على البعض الآخر وتكالبهم على متاع الدّنيا الرّخيص الفانى .

وانظر إلى جملة جاء فى القول : «من بعد ما جاءهم العلم» الّتى تدلّ على الوصول والمجىء الفعلىّ للعلم . وانظر إلى الظّرف بين فى القول : «بغياً بينهم» إنّ مكان البغى هم أهل الكتاب أنفسهم وليس سواهم . ولا يكاد

---

(١) سورة آل عمران ٨٥

(٢) سورة المائدة ٣

العجب من القوم ينتهى حينما يتبيّن أنّ الكتاب السّماوىّ الّذى نزل من أجل جمع صفوفهم جعلوه بسبب اختلافهم سبب تمّزق شملهم .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها : «ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب» أنّ من يكفر بآيات الله تعالى فى كلّ زمانٍ ومكان وبخاصّة آيات القرآن الكريم فإنّ الله سريع الحساب ، فى الدّنيا والآخرة . إنّ جزاء الكافرين فى الدّنيا الحياة السّيّئة من ذلٍّ وهزيمة وأسرٍ وقتل ، وإنّ جزاء الكافرين فى الآخرة النّار وبئس القرار .

ولّما كانت رسالة المصطفى ﷺ إلى الناس كافّةً وفيهم اليهود والنّصارى وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث الشّريفة فى هذا الشّأن ومن تلك الأحاديث ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أنّ النّبىّ ﷺ قال : «والّذى نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمّة يهودىّ ولا نصرانىّ ومات ولم يؤمن بالّذى أرسلت به إلاّ كان من أهل النّار»[1] فإنّ الآية الكريمة التّالية فى مجال الإنباء بالغيب ضمناً تتحدّث عمّا يقوله أهل الكتاب لمن يدعوهم إلى دين الإسلام ابتداءً بالمصطفى ﷺ فإلى :

الآية رقم (٢٠)

قال تعالى : ﴿ **فإن حاجّوك فقل أسلْمتُ وجْهَى لله ومن اتّبعن . وقل لّلذين أوتوا الكتاب والأمّيين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوْا وإن تولّوْا فإنما عليك البلاغ والله بصيرٌ بالعباد** ﴾ .

والآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وتقول له : إن حاجّك أهل الكتاب فى دين الإسلام الّذى تدعوهم إليه ، وخاصمك اليهود والنّصارى فى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١

الدّين الّذى بعثتك به وأمرتك بأن تدعو إليه النّاس كافّةً وفيهم اليهود والنّصارى[1] وجادلوك فى التّوحيد[2] وفى عموم بعثتك أيّها الرّسول الكريم[3] فقل لهم بأنّى أسلمت وجهى لله تعالى ومن اتّبعن من المؤمنين المتّقين ، فله جلّ وعلا عنت وجوهنا وخضعت ، ووجوهنا أشرف أجزاء أجسادنا وأسمى أعضاء أجسامنا فهى تَبعٌ للوجوه ،وله تعالى انقادت نفوسنا وذلّت ، ولانت أعضاؤنا واستكانت ، واتّجهت رغائبنا وقصدت أمانينا . لا معبود لنا سواه جلّ وعلا ، ولا ملجأ لنا سواه تعالى . مجيب الرّغائب ملبّى المطالب كاشف الضّرّ صارف السّوء وحده لا شريك له .

وإذا كان هذا القول متعلّقاً بأهل الكتاب باعتبارهم محور الآية الكريمة السّابقة وكان موقف أهل الكتاب فى مجموعهم من دين الإسلام شبيهاً بموقف الّذين لا يعلمون من مشركى العرب الأمّيّن وغير العرب فإنّ الحديث فى الآية الكريمة يتّجه إلى أهل الكتاب وإلى الموافقين لهم فى الموقف من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنّصارى والأمّيّن وهم مشركو العرب فى المقام الأوّل الّذين لا يقرأون ولا يكتبون فهم على الحال الّتى تركتهم فيها أمّهاتهم اللاّتى وَلَدْنَهم ، ودخل فى الأمّيّين كل من لا كتاب له[4] إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأهل الكتاب وللأمّيّين : «أأسلمتم» والمعنى : أسلموا[5] ويَفْضُلُ الاستفهام فى هذه الحال الأمر لأنّ الاستفهام بالإضافة إلى إفادته الأمر هو يوحى بأنّ أهل الكتاب والأمّيّين إن لم يكونوا قد أسلموا فعلاً

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ١٢٨٧ وتفسير الطّبرىّ ١٤٣/٣ والبحر المحيط ٤١١/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١

(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٤/١

(٤) انظر البحر المحيط ٤١٣/٢ وانظر تفسير ابن عطيّة ٥٨/٣

(٥) انظر البحر المحيط ٤١٣/١ وتفسير ابن عطيّة ٥٨/٣ وتفسير الطّبرى ١٤٣/٣

لأنّ الدّين الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ هو الدّين الحقّ فإنّ الإسلام بالنّسبة للفريقين مسألة وقتٍ فقط وحتّى تزول بعض العوائق فى طريق الدّعوة وحتّى تتّضح الصّورة كاملةً للفريقين . إنّ الجواب على السّؤال : «أأسلمتم» نعم أو لا . وإنّ الجواب بنعم يشمل الّذين أسلموا فعلاً ، وأمّا الجواب بلا فكأنّه يعنى أنّ المسألة مسألة زمن وحسن عرضٍ للإسلام . ومن البيّن أنّ الجواب بلا هنا يعنى المسئوليّة الثّقيلة الملقاة على عاتق المسلمين الّذين حمّلهم الله تعالى ورسوله ﷺ مسئوليّة الدّعوة إلى هذا الدّين الّذى رضيه الله تعالى وأكمله لنا وأتمّ به النّعمة علينا .

إنّ من أسلم فقد اهتدى وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **فإن أسلموا فقد اهتدوا** ﴾ أمّا من لم يسلم فالحقّ أنّه يتألّف من فريقين اثنين . الفريق الأوّل الحريص على الهدى وهو الّذى ستنفع معه الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد ، وقد فهمنا هذا الفريق من القول : «أأسلمتم» ضمناً . والفريق الآخر الحريص على الضّلالة والّذى لا تجدى معه الدّعوة ولا تنفعه الموعظة بل يتولىّ ويعرض وربّما تجاوز ذلك إلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى . وهذا الفريق هو المصرّ على القول : «لا» جواباً على السّؤال فى الآية الكريمة : «أأسلمتم» ولا يكاد العجب ينتهى من هذا الفريق الّذى زاده الله تعالى إلى عمى بصيرته عمى . وبما أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن فترةٍ مبكّرةٍ من عمر الدّعوة والدّولة الإسلامية فى المدينة المنوّرة الّتى مازالت تواصل تقوية أسسها ورفع بنائها فقد كان ثمّة توجيهٌ للمصطفى ﷺ بأنّ عليه البلاغ وحده والله سبحانه وتعالى بصيرٌ بالعباد . وهذا معناه أنّ الأمر بالاكتفاء بالبلاغ هنا قد نسخه الأمر بالقتال بعد ذلك[1] .

---

(١) انظر البحر المحيط ٤١٣/٢

وإذا كان الحديث يتّجه ابتداءً إلى أهل الكتاب وذلك فى القول : «فإن حاجّوك» وهذا الاتّجاه يتمشّى مع عناية الآية الكريمة السّابقة بأهل الكتاب، فإنّ الحديث بعد ذلك يتّجه ابتداءً إلى أهل الكتاب كذلك ثمّ إلى الأمّيّين وذلك فى القول : ﴿ **وقل لّلذين أوتوا الكتاب والأمّيّين أأسلمتم** ﴾ وينبغى أن يكون لتوجيه الحديث إلى أهل الكتاب ابتداءً مغزىً عميق ومرمىً بعيد ، وتفسير ذلك أنّ الّذين أوتوا الكتاب من اليهود والنّصارى قد جاء فى كلٍّ من التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام ، والإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام النّصّ على نبوّة محمّد ﷺ ووراء ذلك يصدّق كتب الله تعالى بعضها بعضاً ، وبناءً على ذلك فالمنتظر عقلاً أن يبادر أهل الكتاب إلى اتّباع كلٍّ من التّوراة والإنجيل وفى كلٍّ منهما الأمر باتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ . إنّه فى ضوء الموقف المتوقّع عقلاً من أهل الكتاب وهم الّذين يعلمون جاء ذكرهم ابتداءً وأمرهم باعتناق دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خاتم النّبيّين . وإنّه فى ضوء تأخّر مشركى العرب فى مجال العلم بعامّة ، وفى مجال العلم ببعثة خاتم النّبيّين بخاصّة جاء ذكرهم آخراً .

ولا يكاد عجب المرء ينتهى حينما يتبيّن إعراض أهل الكتاب فى مجموعهم عن دين الإسلام ، ومخالفتهم تعاليم التّوراة والإنجيل ، وصدّ الآخرين عن الدّخول فى الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده . بل كيف ينتهى العجب من القوم إذا تبيّن أنّ الأمّيّين والّذين لا يعلمون من مشركى العرب كانوا فى مجموعهم أسبق إلى اعتناق دين الإسلام والاستجابة لأمر الله تعالى ودعوة رسوله ﷺ من أهل الكتاب !

إنّ أهل الكتاب فى هذا الصدد ينحطّون عن الدّرك الذى هبطوا إليه حينما تساووا بالّذين لا يعلمون من مشركى العرب الأمّيّين على النّحو الّذى

بيّنته هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[1] قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النّصارى على شىءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شىءٍ وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

إنّ تولّى أهل الكتاب والأمّيّين فى القول : «فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما عليك البلاغ» بمعنى الكفر والضّلال وكأنّ تقدير الكلام : وإن كفروا وتولّوا فقد ضلّوا وعليك البلاغ . وإنّ الكفر المضمر فى السّياق والمفهوم ضمناً مرشّحٌ لحديث الآية الكريمة التّالية عن هؤلاء الكافرين . فإلى :

الآية رقم (٢١)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير حقٍّ ويقتلون الّذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذابٍ أليم** ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن العذاب الأليم الّذى يستحقّه الّذين كفروا . وتذكر الآية الكريمة ثلاثةً من الأسباب الّتى استحقّ من أجلها الكافرون ذلك العذاب مرتّبةً وفق أهمّيّتها ، ولأنّ السّبب الأوّل مفضٍ إلى الثّانى والثّانى مفضٍ إلى الثّالث . إنّ أهمّ الأسباب وأعظمها الكفر بالله تعالى ، وإنّ من كفر بالله تعالى وتجرّأ على الذّات العليّة كانت جراءته على غير الذّات العليّة أشدّ . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل صيغة الزّمن المضارع الدّال على الاستمرار والتّجدّد . فهؤلاء القوم سواءٌ كانوا أمّيّين لا يعلمون أو أهل كتابٍ يعلمون هم يكفرون بآيات الله تعالى المادّيّة والمعنوية . ويأتى على رأس الآيات المعنويّة آى الذّكر الحكيم الّذى تحدّى ربّ العزّة به الثّقلين الإنس

---

(١) الآية ١١٣ .

والجنّ كى يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله إن استطاعوا فما فعلوا وما استطاعوا ولن يستطيعوا . وهؤلاء الكافرون الّذين بلغت بهم الجراءة على الله تعالى على النَّحْو الّذى عرفنا شملت جراءتهم عباد الله تعالى وهذا من باب الأولى والأحرى . ومن الطّبيعىّ أن يأتى على رأس عباد الله تعالى النّبيّون والمرسلون . وهؤلاء الكافرون بلغت بهم الجراءة وانتهى بهم عمى البصيرة إلى قتل النّبيّين . إنّ هؤلاء الكافرين ما اكتفوا بتكذيب النّبيّين وإيذائهم والصّدّ عن سبيل الله تعالى وفى هذه الأعمال من الضّلال الشّىء الكبير والكثير إنّما كانت منهم الجراءة على النّبيّين ، تلك الجراءة الّتى ليس وراءها وراء ، بأن قتلوا النّبيّين . والآية الكريمة تقرّر أنّ هؤلاء الكافرين قتلوا النّبيّين بغير حقّ بمعنى أنّ أولئك القاتلين السّفّاحين لو سئلوا عن السّبب الّذى استحقّ من أجله النّبيّون أن يُقْتلُوا فى نظرهم لما كان منهم جوابٌ على هذا السّؤال . إنّ قتل النّبيّين ينبغى أن يكون بغير حقّ وإنّ السياق حينما ينص على ذلك إنما يريد ذلك المرمى البعيد . وحينما يذكر قتل النّبيّين يتبادر إلى الذهن بنو إسرائيل المعروفون بقتلهم الانبياء بغير حقّ . روى أبوعبيدة بن الجرّاح عن النّبىّ عليه الصّلاة والسّلام أنّهم قتلوا ثلاثةً وأربعين نبيّاً ، فاجتمع من خيارهم وأحبارهم مائة وعشرون ليغيّروا وينكروا فقتلوا أجمعين ، وكلّ ذلك فى يومٍ واحد[1] .

ويلاحظ إنّ الصّيغة الّتى تستعمل هى ذات صيغة الفعل المضارع الذى يدلّ على الاستمرار والتّجدّد : «ويقتلون النّبيّين بغير حقّ» والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى قد عصم حبيبه ﷺ من النّاس . وهذه الصّيغة تذكّرنا بالصّيغة ذاتها فى مثل قوله تعالى فى سورة البقرة[2] : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقاً لما معهم قل**

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/٦٠ وتفسير الطّبرىّ ٣/١٤٤ ، ١٤٥
(٢) الآية ٩١

فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ والملاحظ أنّ القول : «من قبل» يصرف قتل الأنبياء إلى الأسلاف فَلِمَ توجّه الخطاب إلى اليهود المعاصرين للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؟ والجواب على ذلك أنّ من لم يستطع قتل النّبىّ كان حريصاً على ذلك هذا إلى رضا المتأخرين عن فِعْل المتّقدمين . والمعروف أنّ بنى إسرائيل حاولوا فى أكثر من مناسبة قتل النّبىّ ﷺ وخاصّة يهود بنى النّضير ويهود خيبر ويهود بنى قريظة .

أمّا السّبب الثّالث أو العمل السّيّىء الثّالث فهو قتلهم الّذين يأمرون بالقسط من النّاس . قال تعالى : ﴿ **ويقتلون الّذين يأمرون بالقسط من النّاس** ﴾ ويلاحظ استعمال صيغة الزّمن المضارع ذاتها . والقسط بمعنى العدل[1] .

والمراد بالذين يأمرون بالعدل من النّاس هم الأئمّة الأعلام الّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . والمعروف أنّ هؤلاء الائمّة موضع ثناء من الله تعالى وهم إنّما يقومون بالأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر امتثالاً لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ .

ولّما كان قتل النّبيّين بالمعنى الذى عرفنا ولا نبى بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم فذلك معناه أنّ سببين اثنين باقيان من الأسباب الثّلاثة . وهما الكفر بآيات الله تعالى وما أكثر الكفّار بالقياس إلى المؤمنين حتّى يوم النّاس هذا ، وقتل الّذين يأمرون بالقسط من النّاس . وللأسف للمسلمين نصيبٌ سيّىءٌ من قتل الّذين يأمرون بالقسط من النّاس بل إنّ من هؤلاء الّذين يأمرون بالقسط من النّاس من أُحْرِقَ بالنّار حرقاً . ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم . وقد اعتبر الّذين حرقوا العلماء أحياء أنّ هذا العمل نوعٌ من الوسائل السّياسيّة الّتى يستعملها الخصوم ضدّ خصومهم . هكذا قالوا . فالغاية عند هؤلاء تبرّر

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٦١/٣

أىّ وسيلة . لقد نسى القوم قوله عزّ من قائل فى أمثالهم فى سورة البروج[1] :
﴿ قُتِل أصحاب الأخدود . النّارِ ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الّذى له ملك السّماوات والأرض والله على كلّ شيءٍ شهيد . إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمّ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

إنّ أولئك الّذين ارتكبوا تلك الذّنوب كلّها أو بعضها تبشّرهم الآية الكريمة بعذابٍ أليم . وجملة بشّر ذات علاقة بالبشرة ، وبخاصّةٍ بشرة الوجه ، لأنّ آثار الأخبار الحسنة أو السّيّئة تبدو على الوجه وعلى ملامحه . فإن كان الخبر مبهجاً سارّاً تدفّق الدّم فى الجسم وطفح على الوجه فاحمرّ . وإن كان الخبر سيّئاً أليماً غار الدّم وعلت الوجه صفرة . وقد غلب استعمال هذه المادّة فى حقّ الوجه مع الأنباء السّارة ومن هنا قيل إنّ تباشير الوجه وبشره ما يبدو من سروره وتباشير الصّبح ما يبدو من أوائله . واستعيرت البشارة للعذاب الأليم فى حقّ القوم من باب السّخرية والهزء بهم من ناحية وللدّلالة على أنّ أسرّ ما يسمعه القوم يوم القيامة الخبر بعذابهم الأليم لأنّ كلّ الأخبار الأخرى أشدّ سوءاً[2] .

وعليه فالبشارة هنا على نحو قول الشّاعر[3]

تحيّة بينهم ضربٌ وجيع[4]

إنّ بشارة القوم العذاب الأليم فكيف بما سوى البشارة .

---

(١) الأيات ٤ ـ ١٠
(٢) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «بشر» ٤٨
(٣) هو عمرو بن معد يكرب
(٤) مفردات الرّاغب الاصفهانى «بشر» ٤٨

ويلاحظ أنّ الفاء دخلت على القول : «فبشرهم» لأنّ اسم الموصول : «الّذين» ضمّن معنى اسم الشّرط[1] .

وإذا كانت البشارة بالعذاب الأليم بسبب الذّنوب العظام الّتى ارتكبها القوم فما العمل بشأن الأعمال الصّالحة الّتى قام بها القوم من صلة رحم ورعاية جار وإغاثة ملهوف وإكرام ضيف وما إلى ذلك من الأعمال المتّفق على صلاحها نقلاً وعقلاً ؟ الجواب على ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٢٢)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين حبطت أعمالهم فى الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

إنّ أولئك الّذين يكفرون بآيات الله تعالى وفى مقدّمتها القرآن الكريم ويقتلون النّبيّين بغير حقّ ، وما كان لنبىٍّ أن يُقْتَلَ بحقّ ، ويقتلون الّذين يأمرون النّاس بالعدل ، بالأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ، إنّ أولئك هم الّذين بطلت أعمالهم الحسنة فى الدّنيا ببقاء الذمّ واللعنة عليهم[2] وفى الآخرة لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل تلك الأعمال هباء منثورا . وليس لأولئك القوم من ناصرين بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه عليهم أو بإخراجهم من النّار وبئس القرار .

ويجمل بنا الوقوف عند جملة «حبطت أعمالهم» بمعنى : بطلت أعمالهم كى يتبيّن دلالة هذه الجملة على مثل ما يدلّ عليه قوله تعالى فى

---

(١) البحر المحيط ٤١٣/٢ وتفسير ابن عطيّة ٦١/٣

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٦٢/٣

سورة الكهف[1] : ﴿ **قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً . الّذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا** ﴾ ويتبيّن ذلك بمعرفة معنى الحَبَط على وزن العرب والحديث النّبوىّ الشّريف فى معنى الحبط ومعناه . الحَبَط بفتحتين وجعٌ يأخذ البعير فى بطنه من كلأٍ يستوبله ، وقد حبِط حَبَطاً فهو حَبِط[2] روى عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أنّه قال : جلس رسول الله ﷺ على المِنْبر وجلسنا حوله فقال : إنّى أخاف عليكم بعدى ما يُفْتَح عليكم من زهرة الدّنيا وزينتها ، قال : فقال رجلٌ أَوَيأتى الخيرُ بالشّرّ يارسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله ﷺ ورأينا أنّه يُنْزَل عليه فأفاق يمسح عنه الرُّحَضاء[3] وقال : أين هذا السّائل ؟ وكأنّه حمده فقال : إنّه لا يأتى الخير بالشّرّ ، وإنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبَطاً أو يُلِمّ[4] فأمّا قوله ﷺ : وإنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبطاً ، فهو مثل الحريص والمُفْرِط فى الجمع والمنع ، وذلك أنّ الرّبيع يُنْبت أحرار العشب الّتى تَحْلَوْليها الماشية فتستكثر منها حتّى تنتفخ بطونها وتهْلِك ، كذلك الّذى يجمع الدّنيا ويحرص عليها ويشحّ على ما جَمع حتّى يمنع ذا الحقّ حقّه منها يهلك فى الآخرة بدخول النّار واستيجاب العذاب[5] .

إنّ كلًّا من الماشية وجامع المال مانع الخير والكافر بآيات الله تعالى القاتل للنّبيّين القاتل للّذين يأمرون بالقسط من النّاس حبطت أعمالهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً . إنّ الماشية تَنْفُق ، وإنّ المانع للخير الكافر بآيات الله تعالى القاتل قد جعل الله سبحانه وتعالى أعمال كلّ واحدٍ من هؤلاء هباءً منثورا .

---

(١) الآية ١٠٣ ، ١٠٤

(٢) اللّسان «حبط»

(٣) الرُّحضاء : العرق فى اثر الحمّى عند إشرافها على الفترة .

(٤) لسان العرب «حبط» وانظر هنالك تمام الحديث . ويلمّ بمعنى يوشك ويقارب ان يقتل .

(٥) لسان العرب «حبط»

ولّما كان لكافرى بنى إسرائيل أكبر نصيب من الذّنوب الثّلاثة العظام بدليل أنّ قتل النّبيّين لاصقٌ بهم فقد كان بعد ذلك تحوّلٌ إلى القوم من زاوية تبيين بعض مظاهر كفرهم وهاتان هما :

الآيتان رقم (٢٣ و٢٤)

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الّذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يُدْعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثمّ يتولىّ فريقٌ منهم وهم معرضون . ذلك بأنّهم قالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أيّاماً معدوداتٍ وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ .

مازال الخطاب متّجهاً إلى المصطفى ﷺ ، فها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يقال له : ألم تر أيّها الرّسول الكريم وتعلم وتبصر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب وإلى الّذين آتاهم الله حظّاً من الكتاب السّماوىّ الّذى تمثّل فى التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام ، وهؤلاء هم اليهود الّذين كانوا يسكنون منطقة المدينة المنوّرة آنذاك ، ألم تر يامحمد إلى بنى إسرائيل هؤلاء الّذين يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله تعالى وهو التّوراة ابتداءً،القرآن الكريم انتهاءً ليحكم بينهم هذا الكتاب السّماوىّ فى القضايا المختلفة ومنها الحكم فى اليهوديّين المحصنين اللّذين زنيا والحكم هنا الرّجم فى التّوراة وفى الإسلام ، ومنها نعت المصطفى ﷺ ، الموجود فى التوراة ووجوب اتباعهم للمصطفى ﷺ ومنها زعمهم أنّ إبراهيم عليه السّلام الّذى يتّبع محمّد ﷺ ملّته ودينه ، زعمهم أنّه عليه الصّلاة والسّلام كان يهوديّاً مع علمهم أنّه عليه الصّلاة والسّلام سابقٌ موسى زمناً ، إلى غير ذلك من قضايا كان كافرو بنى إسرائيل يرفضون الاحتكام بشأنها إلى التّوراة ابتداءً،القرآن الكريم انتهاءً .

وبقصد التّعجب من القوم يجىء حرف العطف ثم فى القول : «ثمّ يتولّى فريقٌ منهم وهم معرضون» . ويُفْهم من حرف العطف هذا الّذى يدلّ

أساساً على التّرتيب مع التّراخى يفهم من حرف العطف بُعْدُ الشّقّة ما بين الحجج البيّنة فى كتاب الله تعالى وبين موقف كافرى بنى إسرائيل من تلك الحجج البيّنات.إنّ المنتظر من القوم الامتثال التّام والطّاعة المطلقة وقد كان موقفهم بعكس ذلك فاقتضى ذلك التّعجب الّذى ليس له حدود من القوم ، وقد أومأ إلى ذلك حرف العطف ثمّ والنّصّ على تولىّ هذا الفريق الكافر وإعراضه . ويصحّ أن يفهم التّولىّ بأنّه الإدبار بالجسد كاملاً وأن يُفْهَم الإعراض بإنّه الانصراف مع توجيه عَرْض الجسد إلى الشّخص المرغوب عنه دليلاً على عدم قبول ما جاء منه وعدم وقوع ما بدر منه موقع الاستحسان والقبول والرّضا . ويصحّ أن يكون التّولى نهايةً للإعراض . وكأنّ المرحلة الأولى ابتدأت بالإعراض بالمعنى الحسّىّ وبذلك يكون توجيه عَرْضِ الجسد ابتداءً دليلاً على بداية الإعراض . ويستمرّ الإعراض بمعنييه الحسّىّ والمعنوىّ حتّى يصير الإعراض إدباراً وتولّياً تأكيداً للإعراض المعنوىّ والنّفور القلبىّ . والله أعلم . يقول ابن فارس[1] : «العين والرّاء والضّاد بناءٌ تكثر فروعه ، وهى مع كثرتها ترجع إلى أصلٍ واحد ،وهو العَرْض الّذى يخالف الطّول» .

وإنّ ما أومأت إليه الآية الكريمة من إعراض بنى إسرائيل عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى فصّلته الآيات الكريمات من سورة المائدة[2] قال تعالى : **﴿ ياأيّها الرّسول لا يَحْزُنْك الّذين يسارعون فى الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الّذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم . لهم فى الدّنيا خزىٌ ولهم فى**

---

(١) معجم مقاييس اللّغة «عرض» ٢٦٩/٤

(٢) الأيات ٤١ ـ ٤٤

الآخرة عذابٌ عظيم . سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحت . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تُعْرِض عنهم فلن يضرّوك شيئاً. وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط. إنّ الله يحبّ المقسطين . وكيف يحكّمونك وعندهم التّوراة فيها حكم الله ثمّ يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء. فلا تخشوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

والآية الكريمة التّالية تبيّن أنّ إعراض بنى إسرائيل وتولّيهم عن الرّضا بحكم كتاب الله تعالى بسبب أنّهم قالوا لن تمسّنا النّار ولن ندخل نار جهنّم يوم القيامة إلّا أيّاماً معدودات : «وهى أربعون يوماً وهنّ الأيّام الّتى عبدوا فيها العجل ثمّ يخرجنا منها ربّنا اغتراراً منهم بما كانوا يفترون ، يعنى بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل فى ادّعائهم أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه ، وأنّ الله قد وعد أباهم يعقوب ألّا يدخل أحداً من ولده النّار إلّا تحلّة القسم فأكذبهم الله على ذلك كلّه من أقوالهم»[1] وقد عبد بنو إسرائيل العجل مدّة الأربعين يوماً الّتى ذهب فيها موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه . وقد تحدّثت فى هذا الشّأن سورة الأعراف[2] وسورة طه [3] حديثاً مستفيضاً . وممّا افتراه بنو إسرائيل قولهم لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى[4] وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة من سورة البقرة[5] : ﴿ وقالوا لن يدخُل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ يقال : غرّ يَغُرّ

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٤٦/٣ وانظر تفسير ابن عطيّة ٦٤/٣

(٢) الآيات ١٤٢ ـ ١٥٣

(٣) الآيات ٨٣ ـ ٩٨

(٤) البحر المحيط ٤١٧/٢

(٥) الآية ١١١

غروراً خدع ، والغرّ الصّغير ، والغريرة الصّغيرة ، سمّيا بذلك لأنّهما ينخدعان بالعجلة . والغرّة منه ، يقال : أخذه على غرّة أى تغفّلٍ وخداع[1] .

وإنّ بنى إسرائيل الّذين يكذبون على الله تعالى بأنّهم لن تمسّهم النّار إلّا أيّاماً معدودات تهدّدهم الآية الكريمة التّالية بيوم القيامة الّذى لا ريب فيه والّذى تجازى فيه كلّ نفسٍ بماكسبت من خيرٍ أو شرّ فإلى :

الآية رقم (٢٥)

قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لا ريب فيه ووفّيت كلّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظْلمون ﴾ .

بقصد التّعجيب من مصير بنى إسرائيل الّذين يفترون على الله الكذب والتّنبيه إلى العذاب الأليم الّذى ينتظرهم يوم القيامة يأتي الاستفهام عن كيفيّة حالهم إذا جمعهم الله تعالى ليوم القيامة الّذى لا ريب فيه ولاشكّ من أجل فصل الحساب . وفى ذلك اليوم توفّى كلّ نفسٍ ماكسبت من خيرٍ أو شرّ وتجازى عليه وهم لا يظلمون بنقص حسنة أو إضافة سيّئة . وانتصاب فكيف قيل على الحال والتّقدير : كيف يصنعون . وقدره الْحَوْفِيّ كيف حالهم[2] .

إنّ الّذى يجمع يوم القيامة الخلائق لفصل الخطاب مالك الملك رحمن الدّنيا والآخرة ، والآيتان الكريمتان التّاليتان تتحدثان فى هذا الشّأن . ولّما كانت هذه الآية الّتى نحن بصددها تتحدّث عن الآخرة فقد تحدّثت الآيتان التّاليتان عن الدّنيا وبذلك تتحقّق صفة المثانى إحدى صفات القرآن الكريم الّذى يتحدّث عن المعنى وضدّه ، فإلى .

---

(١) البحر المحيط ٢/٤١٦

(٢) البحر المحيط ٢/٤١٨ وانظر تفسير القرطبىّ ١٢٩٣ والكشّاف ١/٣١٧

الآية رقم (٢٦)

قال تعالى : **﴿ قل اللّهم مالكَ المُلْك تؤتى الملك من تشاء وتَنْزِع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيءٍ قدير ﴾** .

مازال الخطاب متّجهاً إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وكلُّ فردٍ من أتباعه عليه الصّلاة والسّلام يتّجه إليه الخطاب تبعاً ، والمعنى : قل يامحمّد وادع ربّك وأسأله قائلا : ياألله يامالك الملك . «إنّ اللّهمّ هو الله زيدت فيه الميم»[(١)] أنت تؤتى الملك وتعطى السّلطان والغلبة من تشاء إيتاءه ، وتنزع الملك وتسلبه من تشاء له الهوان والخذلان ، وتعزّ من تشاء رفعه وتذلّ من تشاء خفضه لا رادّ لقضائك ولا معقّب لحكمك ، بيدك أنت وحدك لا شريك لك الخير والنّفع ، إنّك على كلّ شىءٍ قدير .

ومن المعروف أنّ لفظ الجلالة «الله» عظيم أسماء الله تعالى المتفرّد بالجلال والعظمة ، وإنّ ربّ العزّة يلقّن حبيبه ﷺ وكلّ عبدٍ من عباده بأن يدعوه بعظيم أسمائه جلّ وعلا . وبعد الأمر بدعاء الله تعالى بعظيم الأسماء يأتى الأمـر بدعاء الله تعالى باسمٍ يتضمّن صفةً من صفات ذاته العليّة الواحدة ، وهذه الصّفة هى المحور الّذى تدور حوله الآية الكريمة والآية الكريمة التّالية كذلك والمعنى كما مرّ بنا : ياألله ، يامالك الملك .

ويلاحظ أنّ الصّفة الّتى تجىء هنا تتجاوز صفة المُلك إلى مِلك الله تعالى هذا الملك فيتصرّف فيه جلّ وعلا كيف يشاء من منحٍ ومنع . وكى يحاط الكلام من جانبيه بفضل الله تعالى وبرحمته يبدأ الحديث بمنح الملك وإيتائه ، ويختم الحديث بتقرير الخير المطلق الّذى بيده جلّ وعلا وحده لا

---

(١) البحر المحيط ٤١٩/٢ وانظر تفسير الطّبرىّ ١٤٨/٣ وتفسير ابن عطيّة ٦٦/٣و٦٧ وتفسير القرطبىّ ١٢٩٥

شريك له . ونحن حينما نتعامل مع البشر نتبيّن أنّ الإيتاء أقرب فى مجال الدّلالة على المِلك والقدرة من الحرمان والنّزع . إنّ الأمور فى حقّ الذّات العلّية سواء ولكنّها فى حقّنا نحن البشر غير ذلك ، وإنّ تقديم الإيتاء فى الذّكر على النّزع قوّةٌ إضافيّة تتمشّى مع المُلك بل مع مِلك المُلك .

وإنّ ممّا يقرّب الشّقّة فى الدّلالة على القدرة المطلقة فى ميدانى المنح والمنع قفز الآية الكريمة فى مجال المنع إلى آخر المراحل الأكثر دلالةً على القدرة وعلى مِلك الْملك وهى مرحلة النّزع الّتى يرتبط بها القدرة والقوّة والشّدّة ويبدو ذلك من أصل المادّة ، وهو النّون والزّاي والعين ، الّذى يدلّ على قلع الشىء . يقال : نزعت الشّيء من مكانه نزعاً . وعاد الأمر إلى النَّزَعة ، أى رجع إلى الحقّ ، وأراد بالنَّزَعة جمع نازع ، وهو الّذى يَنْزِع فى القوس : يجذب وتره بالسّهم[1] وبذلك تتمشّى جملة : «تنزع» مع قوله عزّ من قائل[2] : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ وبذلك تتجاوز جملة : «تنزع» عدداً من المراحل السابّقة على هذه النّهاية الأليمةكمرحلة الخذلان والهزيمة إلى مرحلة الخسارة الكلّيّة ، وأىّ خسارة ؟ إنّها خسارة الملك ودرك الذّلّ والهوان .

ولّما كان الملك عزّاً ونزع الملك ذلّاً وكان الابتداء بالإيتاء والانتهاء بالنّزع كان ثمّة حديثٌ عن العزّ أوّلاً وعن الذّلّ آخرا : «وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء» والمعروف أنّ الملك أسمى آيات العزّ . والمعروف أنّ مظاهر العزّ فيما دون الملك لا حصر لها ، وأنّ كلّ تلك المظاهر من العزّ بيد الله تعالى . والمعروف أنّ بقاء كلّ مظاهر العزّ بإذن الله تعالى ، ابتداءً بالملك ،

---

(١) معجم مقاييس اللّغة «نزع» ٥/٤١٥

(٢) سورة هود ١٠٢

إنّما يتمّ بتقوى الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل[1] ﴿ **ذلك بأنّ الله لم يَكُ مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال ﴾ . وقال تعالى[3] : ﴿ **ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكْرِم . إنّ الله يفعل ما يشاء** ﴾ .

وإنّ لفظ اليد هنا يذكّرنا بمثل قوله تعالى[4] : ﴿ **إلّا أن يعفون أو يعفو الّذى بيده عقدة النّكاح** ﴾ فقد استعيرت اليد هنا للحوز والملك . وبمثل قوله تعالى[5] ﴿ **أم لهم أيدٍ يبطشون بها** ﴾ فقد استعيرت اليد هنا للقوّة . وبمثل قوله تعالى[6] : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدّتك بروح القدس** ﴾ والمعنى إذ قوّيتك . وبمثل قوله تعالى[7] : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب** ﴾ أى القوّة فى العبادة كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف اللّيل وينام ثلثه ويقوم سدسه[8] .

وإنّ كلّ ما نصّت عليه الآية الكريمة من معانٍ يفيد القدرة المطلقة للذّات العليّة . وهذه القدرة عمّقتها الجزئيّة الكريمة الأخيرة أو التّذليل : ﴿ **إنّك على كلّ شيءٍ قدير** ﴾ وإنّ صيغة المبالغة فعيل قوّةٌ إضافيةٌ لمعنى القوّة الّتى تفيدها الآية الكريمة تلميحاً وتصريحا .

وإذا كانت الآية الكريمة خاصّةً بجنس الإنسان الّذى كرمّه ربه وحمله فى البرّ والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً ، فإنّ

---

(١) سورة الأنفال ٥٣
(٢) سورة الرّعد ١١
(٣) سورة الحجّ ١٨
(٤) سورة البقرة ٢٣٧
(٥) سورة الأعراف ١٩٥
(٦) سورة المائدة ١١٠
(٧) سورة ص ١٧
(٨) الجلالين

الآية الكريمة التّالية شاملةٌ للكون كلّه سمائه وأرضه ، وإن كان حظّ الأرض هو الأكبر لأنّها موطن الإنسان ، بل إنّ حظّ الإنسان فى الآية الكريمة هو الأكبر لأن حديث الآية الكريمة ذو علاقة بتسخير الله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض لجنس الإنسان فى المقام الأوّل فإلى :

الآية رقم (٢٧)

قال تعالى : ﴿ **تولج الّليل فى النّهار وتولج النّهار فى الّليل وتخرج الحىّ من الميّت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة كما هو واضح عن اختلاف الّليل والنّهار بحسب مطالع الشّمس ومغاربها وعن إخراج الله تعالى الحىّ من الميّت والميّت من الحىّ وعن رزقه جلّ وعلا من يشاء بغير حساب .

فما معنى جملة تولج ؟ الولوج : الدّخول فى مضيق[1] قال تعالى[2] : ﴿ **حتّى يلج الجمل فى سمّ الخياط** ﴾ والمعنى حتّى يدخل الحبل المتين فى ثقب الإبرة وهذا غير ممكن وكذلك دخول الكافرين الجنّة غير ممكن . وقال تعالى[3] : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها وهو الرّحيم الغفور** ﴾ فمعنى «تولج» ببساطة تدخل ، والّذى يقوّى هذا الرّأى جملة «تخرج» الّتى جاءت مرّتين فى العبارة المقابلة لهذه العبارة الموازنة لها . ففى العبارة الأولى جاءت جملة «تولج» مرتين وفى العبارة الثانية جاءت جملة «تخرج» مرتين كذلك،وبذلك يتحقّق توازن العباريتن عن طريق التّساوى فى عدد الجملتين فى الموضعين وعن طريق التّقابل بين الدّخول والخروج فى العبارتين .

---

(١) مفردات الرّاغب «ولج» ٥٣٢

(٢) سورة الاعراف ٤٠

(٣) سورة سبا ٢

وتَفْضُل جملة«تولج» هنا جملة تُدْخل لقدرة جملة «تولج» على التّنبيه على لصوق كلٍّ من الّليل والنّهار ببعضهما بل التحامهما . وهذا المعنى هو الّذى دلّت عليه جملة «نسلخ» فى قوله عزّ من قائل فى سورة يس[1] : ﴿ **وآيةٌ لهم الّليل نسلخ منه النّهار فإذا هم مظلمون** ﴾ .

ولعلّنا نفهم من ولوج الحبل المتين فى ثقب الإبرة ، وفى ذلك التّنبيه إلى الأمر الآخر الممكن وهو دخول الخيط فى ثقب الإبرة ، ومن ولوج الماء فى الأرض وغير الماء ، أنّ النّقص يعترى الوالج وكأنّ معنى القول : ﴿ **تولج الّليل فى النّهار وتولج النّهار فى الّليل** ﴾ تدخل الّليل فى النّهار فينقص الّليل بقدر ما زاد فى النّهار صيفاً وتدخل النّهار فى الّليل فينقص النّهار بقدر ما زاد فى الّليل شتاءً . والله تعالى أعلم . ويصحّ أن يتّخذ دليلاً على هذا الرّأى ما نتبيّنه فى القرآن الكريم من الحديث عن الّليل باعتباره دائماً أصلاً وعن النّهار باعتباره تابعاً لأنّ الأصل الظّلمة والنّور طارىء عليها . وإنّ آى الذّكر الحكيم فى هذا المعنى كثيرةٌ جدّاً . وحينما يكون الّليل هو الأصل بمعنى أنّ الكون كلّه ظلام ثمّ يأتى النّهار بسبب الشّمس يكون معنى ذلك دخول الظّلمة فى النّور وولوج الظّلمة الّتى نقص حجمها فى النّور الّذى زاد حجمه . وكأنّ القول هنا : «تولج الّليل فى النّهار» يتمّم تلك العمليّة الطّارئة فتأتى العمليّة الأخرى للنّهار ، فبعد أن كان النّهار فى العمليّة الأولى قسيماً لّليل أصبح فى العمليّة الثّانية أطول من الّليل بإرادة الله تعالى وذلك فى فصل الصّيف . ثمّ يحدث العكس بعد ذلك فيطول الّليل شتاءً على حساب النّهار . قال عزّ من قائل[2] : ﴿ **إنّ إلٰهكم لواحد . ربُّ السّماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق** ﴾ إنّه يكاد يكون للشّمس فى كلّ يوم مشرقٌ ومغرب ولا يكاد المرء يشعر به بسبب قرب المكان لكلّ مشرقين متتابعين ومغربين .

---

(١) الآية ٣٧

(٢) سورة الصّافّات ٤ ، ٥

ويصحّ كذلك أن نتّخَذَ دليلاً آخر على ما ذهبنا إليه من كون النّقص إنّما يعترى الوالج وهذا الدّليل هو تقابل الصّفات بين العبارتين . إنّ العبارة الأولى تبدأ بالولوج وتكرّره : ﴿ **تولج الّليل فى النّهار وتولج النّهار فى الّليل** ﴾ والمعنى تدخل الّليل فى النّهار فينقص الّليل بقدر مازاد فى النّهار ، وتدخل النّهار فى الّليل فينقص النّهار بقدر مازاد فى الّليل . وإنّ العبارة الثّانية تبدأ بالخروج وتكرّره : ﴿ **وتخرج الحىّ من الميّت وتخرج الميّت من الحىّ** ﴾ إنّ العبارة الأولى تُدْخِلُ الّليل ، وهو بمثابة الميّت ، فى النّهار ، وهو بمثابة الحىّ . وإنّ العبارة الثانية تخرج الحىّ ، وهو بمنزلة النّهار ، من الميّت ، وهو بمنزلة الّليل ، وتخرج الميّت من الحىّ . انظر إلى تنزيل آية سورة الإسراء الكريمة آية الّليل منزلة الشّىء الممحوّ وتنزيل آية النّهار منزلة الحىّ ذى العين المبصرة . قال تعالى[١] : ﴿ **وجعلنا الّليل والنّهار آيتين فمحونا آية الّليل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السّنين والحساب . وكلَّ شىءٍ فصّلناه تفصيلا** ﴾ **وقال تعالى** [٢] : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الّليل والنّهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون** ﴾ .

إنّ التّقابل فى المعانى من الأدلّة الّتى نتوسّل بها فى سبيل الرّأى الّذى ارتأينا فنحن بصدد جملة «تولج» وجملة : «تخرج» وبصدد الّليل والنّهار والحىّ والميّت . إنّ الاختلاف بين العبارتين تجاوز اختلاف اتّجاه السّير لكلٍّ من المعنيين إلى الاختلاف فى ترتيب مفردات العبارتين ففى الأولى ليلٌ ونهار أو موتٌ وحياة وفى الأخرى حياةٌ وموت ولادةٌ ووفاة .

ومعنى القول : ﴿تخرج الحىّ من الميّت﴾ خروج الإنسان من النّطفة والدّجاجة من البيضة والنّخلة من النّواة والسّنبلة من الحبّة وهكذا . ومعنى

---

(١) سورة الإسراء ١٢

(٢) سورة القصص ٧٣

القول : «وتخرج الميّت من الحىّ» خروج النّطفة من الإنسان والبيضة من الدّجاجة والنّواة من النّخلة والحبّة من السّنبلة وهكذا .

إنّ الله سبحانه وتعالى سخّر لجنس الإنسان ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه جلّ وعلا ، ومن ذلك اللّيل والنّهار والشّمس والقمر والنّجوم والحيوان والنّبات . وإنّ حديث الآية الكريمة عن هذه المجموعة من آيات الله تعالى بقصد أن يهتدى الإنسان بإذن الله تعالى إلى صراط العزيز الحميد . ووراء كلّ هذا الحظ الموفور للإنسان فى الآية الكريمة يُخَصّ بالحديث فى الجزئيّة الكريمة : ﴿ **وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى يرزق كلّ مخلوق ، وهو وحده لا شريك له الّذى يرزق من يشاء رزقه من البشر بغير حساب ، بلا عدٍّ ولا عقد . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يبسط للإنسان الرّزق وهو سبحانه وتعالى الّذى يبتلى الإنسان فيقدر عليه رزقه . إنّ الفعّال لهذا وذاك هو الله تعالى وحده لا شريك له وإنّ الآية الكريمة هنا تتحدّث عن بسط الله الرّزق لمن يشاء من عباده لأنّ المناسبة تتعلّق بتعداد النّعم والآلاء وقدمهّد لذلك فى الآية الكريمة بذكر الخير الّذى بيد الله تعالى وحده لا شريك له . إنّ هذه اليد الّتى بيدها الخير ترزق من تشاء بغير حساب .

إنّ على كلّ إنسان أن يتأمّل هذه الآيات . وأن يتملّى هذه النّعم ومنها نعمة الرّزق الواسع وأن يتذكّر جيّداً مثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ **وما من دابّةٍ فى الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلٌّ فى كتاب**

---

(١) سورة هود ٦

مبين ﴾ وقوله تعالى[١] : ﴿ وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ قل إنّ ربّى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدِر له . وما أنفقتم من شىءٍ فهو يُخْلِفُه وهو خير الرّازقين ﴾ .

* * *

---

(١) سورة الحديد ٧

(٢) سورة سبأ ٣٩

(٤)
تحذير المؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء وكيفية حب الله تعالى
الآيات (٢٨ ـ ٣٢)

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لله سبحانه وتعالى ملكوت السّماوات والأرض ، وله جلّ وعلا وحده لا شريك له الخلق والأمر . وكما يخضع لقهره جلّ وعلا وسلطانه الشّمس والقمر واللّيل والنّهار والسّماوات والأرض ومن فيهنّ ، ينبغى على الإنسان الّذى خلقه ربّه جلّ وعلا وكرّمه وسخّر له ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه جلّ وعلا ، ينبغى على الإنسان أن يمتثل لأوامر الله تعالى وبذلك يكون الإنسان منسجماً مع الكون من حوله ومع فطرته وإلّا كان الإنسان مصطدماً مع هذا الكون ومع فطرته . وممّا ينبغى على الإنسان أن يمتثل من الأوامر اتّخاذه المؤمنين أولياء وأصفياء وأصدقاء ، فعليه ألّا يتّخذ الكافرين أولياءه من دون المؤمنين وإلا كان الشّيطان وليّه من دون الله تعالى . ويستثنى من ذلك حينما يُرْغَم المؤمن على أن يقول بلسانه ما لايعتقده بقلبه فإنّ ذلك معفوٌّ عنه بإذن الله تعالى . ويحذّرنا الله سبحانه وتعالى نفسه ، ويبيّن لنا أنّه إليه جلّ وعلا المصير ، وليس يخفى على الله سبحانه وتعالى شىءُ ممّا نُخْفى فكيف بما نبدى ، وليس يخفى عليه جلّ وعلا شىءُ فى السّماوات وفى الأرض ، لأنّه تعالى على كلّ شىءٍ قدير . ويوم القيامة الّذى تصير فيه الخلائق إلى الله تعالى تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً فهى قريرة العين به حريصةٌ على أن ينسب إليها ويلصق بها ، وما عملت من شرٍّ وسوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً وأنّى لها ذلك . وإذا كان تقرير المصير إلى الله تعالى قد اقترن بتحذيرنا الله جلّ وعلا نفسه ، فإنّ تقرير الرّأفة بالعباد يقترن بالتّحذير فى المرّة الأخيرة كيلا يدبّ اليأس من روح الله تعالى إلى العباد ولأنّ رحمة الله تعالى سبقت غضبه .

وكى يعبّر العباد تعبيراً صحيحاً عن حبّهم لله تعالى عليهم أن يتّبعوا المصطفى ﷺ كى يحبّهم الله تعالى ويغفر لهم ذنوبهم أمّا إذا تولّوا وكفروا وصّدوا عن سبيل الله تعالى ولم يطيعوا الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فإنّهم ينالون غضب الله تعالى وسخطه .

الآية رقم (٢٨)

قال تعالى : ﴿ **لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيءٍ إلاّ أن تتّقوا منهم تقاة . ويحذّركم الله نفسه . وإلى الله المصير** ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى بيده ملكوت كلّ شىء والّذى سخّر لنا ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه ، يريد منّا نحن البشر أن نسير وفق المنهج الّذى بيّنه جلّ وعلا لنا فى القرآن الكريم وفى سنّة المصطفى ﷺ . إنّ هذا الملكوت كلّه إذا كان يخضع لإرادة الله تعالى فهل يليق بالإنسان الّذى خلقه ربّه فى أحسن تقويم وسخّر له ما فى السّماوات وما فى الأرض ألاّ يخضع لهذه الإرادة . إنّ الخضوع المطلق من قبل الإنسان لبارئه جلّ وعلا معناه انسجام الإنسان مع هذا الكون وموافقته له وليس اصطدامه به ومخالفته له . وإنّ ممّا يعتبر من صميم الامتثال والخضوع أن يترجم إلى عمل ما تأمر الآية الكريمة به الإنسان المسلم المؤمن بألاّ يتّخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين . إنّ الله سبحانه وتعالى ولىّ الّذين آمنوا فعلى المؤمن أن يتّخذ هؤلاء المؤمنين أولياءه وبطانته وألاّ يتّخذ الكافرين الّذين لا مولى لهم أولياءه وأحبّاءه وأصفياءه .

والآية الكريمة تحذّر المؤمنين الّذين يفعلون ذلك بأنّهم ليسوا من الله

سبحانه وتعالى فى شىء وليسوا منه جلّ وعلا ولا من دينه ولا حزبه ولا أوليائه فى شىء .

وتستثنى الآية الكريمة الحال الّتى يضطرّ معها المؤمنون أن يتّقوا من الكافرين تقاة «ابن الأعرابىّ التّقاة والتّقيّة والتّقوى والاتّقاء كلّه واحد»[1] بمعنى أن يضطرّ المؤمن لأن يقول بلسانه ما ليس يعتقده بقلبه ، وإلى مثل هذه الحال أشار قوله تعالى فى سورة النحل[2] : ﴿ **إنّما يفترى الكذب الّذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أُكْره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ولكن من شَرحَ بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم** ﴾ عن ابن عبّاس قال : التّقاة التّكلّم باللّسان وقلبه مطمئنٌ بالإيمان[3] وقال ابن عبّاس : ليس التّقيّة بالعمل إنّما التّقيّة باللّسان[4].

وبعد أن كان الحديث عن الغائبين فى النّهى والتّهديد تحوّل الحديث إلى المخاطبين وذلك فى القول :﴿إلّا أن تتّقوا منهم تقاة﴾ولأسلوب الالتفات دوره فى شدّ الانتباه ، ووراء ذلك يقترن بأسلوب الخطاب الأقوى من أسلوب الغائب مظهرٌ من مظاهر التّخفيف من ربّنا والرّحمة فى هيئة مخاطبتنا والإذن لنا فى أن نلجأ فى حال الضّرورة إلى التّقيّة . وينبغى أن نبادر إلى القول بأنّ الإذن بالتّقيّة قرين الضّرورة القصوى وإلّا فإنّ المطلوب من المسلم أن يفرّ بدينه وأن يهاجر من ديار الكفر إلى ديار الإسلام وإلّا كان المرء آثماً وكانت التّقيّة ذريعةً للتّعايش مع الباطل واستمراء النّفاق والكفر ، وفى هذه الحال يصدق فى حقّه قوله عزّ من قائل فى الظّالمى أنفسهم الزّاعمين أنّهم مستضعفون فى الأرض فى سورة النّساء[5] : ﴿ **إنّ الّذين توفّاهم الملائكة**

---

(١) لسان العرب «وقى»

(٢) الآية ١٠٥ ، ١٠٦

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٥٣/٣

(٤) تفسير ابن كثير ٣٥٧/١ وانظر البحر المحيط ٤٢٣/٢ وتفسير ابن عطيّة ٧٦/٣

(٥) الآيات ٩٧ ـ ٩٩

ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا . إلاّ المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفورا ﴾ .

ويأتى التّهديد وراء ذلك بأكثر من ذى قبل وذلك فى القول : ﴿ ويحذّركم الله نفسه ﴾ فعلى المؤمن أن يلتزم بأوامر الله تعالى وأن يستفيد من الرّخصة فى حدود الضّرورة وأن يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى محيطٌ بكلّ ما توسوس به نفسه وأنّه ملاقٍ ربّه جلّ وعلا ومحاسبه على عمله إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ ، ومن ذلك التّصرّف فى حدود الضّرورة ، ومن ذلك تجاوز الرّخصة واستمراء الضّرورة إلى درك موالاة الكافرين .

وحينما يتأمل المرء أهمّ الأسباب وراء ما مُنِى به المسلمون من هزائم ونكبات فإنّه يتبيّن أنه هذا الضّرب من النّفاق . إنّ المنافقين من المسلمين هم أكبر الأسباب وراء انتصار الأعداء على المسلمين باعتراف الكافرين أنفسهم . إنّهم السّبب وراء ضياع الأندلس وغيرها من الأجزاء الإسلاميّة العزيزة .

يقول ابن عطيّة[1] : «وذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ معنى الآية : إلاّ أن تخافوا منهم خوفاً ، وهذا هو معنى التّقيّة» .

ولّما كان اتّخاذ بعض المؤمنين الكافرين أولياء إنّما يتمّ عادةً فى الخفاء إلاّ إذا جمع من ينتسب إلى الإسلام بين ضعف الإيمان وقلّة الحياء وقد جاء من كلام النّبيّين والمرسلين : إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت[2] وقال ﷺ : الحياء

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/٧٤

(٢) كتاب الأمثال فى الحديث النّبوىّ ٢٤٥

خيرٌ كلّه"[1] لذا فقدجاء فى الآية الكريمة التّالية الحديث عن علم الله تعالى بما تخفى الصّدور وما تبدى فإلى :

الآية رقم (٢٩)

قال تعالى : ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السّماوات وما فى الأرض . والله على كلّ شىءٍ قدير** ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تبدأ بأمر النّبىّ ﷺ فى جملة : «قل» بأن يقول للنّاس : ﴿إن تخفوا ما فى صدوركم﴾ الآية . وكأنّ الآية الكريمة معترضةٌ بين الآية الكريمة السّابقة والآية الكريمة اللّاحقة حيث إنّ المعنى متّصلٌ فى الآيتين الكريمتين . ولّماكان ثمّة نهىٌ عن إتيان عمل يتمّ عادةً فى الخفاء وهو موالاة بعض المؤمنين الكافرين لذا تقدّم فى الذّكر الإخفاء على الإعلان بينما حدث العكس لحكمةٍ جليلة أخرى فى قوله تعالى من سورة البقرة[2] : ﴿ **لله ما فى السّماوات وما فى الأرض . وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . والله على كلّ شىءٍ قدير** ﴾ لأنّ الحديث هنا عن مطلق ما يأتيه المرء من أفعالٍ وأقوال . وإنّ نسبة ما يبديه المرء منهما أكبر من نسبة ما يخفيه منهما . والله أعلم .

ويلاحظ أنّ الّذى يجىء مقابلاً للإخفاء هو الإبداء بمعنى الإظهار وليس الإعلان . وإنّ مثل قوله تعالى فى سورة إبراهيم[3] : ﴿ **ربّنا إنّك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىءٍ فى الأرض ولا فى السّماء** ﴾ يفهم منه أنّ الّذى يخالف الإخفاء هو الإعلان . فما الحكمة من استعمال

---

(١) كتاب الأمثال فى الحديث النّبوىّ ١١٤
(٢) الآية ٢٨٤
(٣) الآية ٣٨

الإبداء مكان الإعلان ؟ ويصحّ أن يكون الجواب على هذا السّؤال هو أنّ استعمال الإخفاء والإعلان حينما يكون الحديث مطلقاً وشاملاً لكلّ ما يُخْفَى ويُعْلَن ، ويأخذ ما يعلن فى نيل حظّه المتدرّج نزولاً ، ابتداءً من الإعلان الّذى يمثّل أرفع درجات الظّهور مروراً بالإبداء والإظهار والإخراج وما إلى ذلك . إنّ من أوفر الأعمال حظًّا من الإعلان أركان الإسلام بإعلان الشّهادتين والصّلاة والزكاة والصّيام والحجّ . بينما تأخذ الصّدقة مثلاً حظّها من الخفاء وهذا هو الأفضل وقد تأخذ حظّها من الظّهور والإبداء بل الإعلان إذا كان الهدف تشجيع الآخرين على البذل والإنفاق فى سبيل الله تعالى . وهكذا .

ومن البيّن أنّ حديثنا عن صالح الأعمال ، وهنالك سيّىء الأعمال الّتى هى أقرب إلى محاولة صاحبها إخفاءها، وإنّما تأخذ حظّها من الخروج والظّهور والإعلان رغماً عن صاحبها إلاّ إذا كان من المجاهرين بالمعاصى والعياذ بالله تعالى .

إنّ الحديث فى آية سورة البقرة حينما كان عن مطلق الأعمال الحسنة والسّيّئة وكان الغالب على الأعمال الظّهور ، هذا إلى ميل الإنسان الفطرىّ إلى ظهور أعماله الحسنة ، لذا تقدّم الإبداء على الإخفاء . وإنّما كان الحديث عن الإبداء الّذى يمثّل المرحلة الشّبيهة بالوسطى بين الإعلان والخروج مثلاً لاشتمال الإبداء على كلّ ما يبدو فى هيئة الإعلان والإبداء والظّهور والخروج . وإنّ الحديث فى آية سورة آل عمران حينما كان إثر ما يتمّ عمله فى الخفاء عادةً لذا تقدّم الإخفاء على الإبداء ، كما تمّ استعمال الإبداء هنا أيضاً للحكمة السابقة ذاتها . والله أعلم .

ويستعمل فى الآية الكريمة لفظ الصّدور . وهو شاملٌ للقلوب والأفئدة والنّفوس . فمن سمات اللّفظ الشّمول وذلك على غرار الإبداء الّذى يتمثّل فيه الشّمول بدرجةٍ كبيرة .

وإنّ الحديث عن علم الله تعالى ما نخفى وما نعلن ، ما نكتم ومانبدى كان بمثابة التّوطئة لتقرير علم الله تعالى المحيط بكلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض . ولا يخرج شىءٌ فى هذا الوجود عن كونه فى سماءٍ أو فى أرض .

وكما اتخذ العلم بالجزئىّ وهو مانخفى ومانعلن توطئة للحديث عن علم الله تعالى المحيط ، اتخذ الحديث عن علم الله تعالى توطئة للحديث عن قدرته جل وعلا المطلقة : «والله على كلّ شىءٍ قدير» إنّ الحديث عن القدرة حديث فى حقيقة الأمر عن العلم والقدرة معاً . وإنّ صيغة المبالغة فعيل الّتى جاءت فيه «قدير» قوّةٌ للعلم والقوّة معاً محقّقةٌ للتدرّج الدّاخلىّ حيث الأعلى لأنّ ثمّة عدولاً عن قادر إلى «قدير» ولأنّ صيغة «قدير» أبلغ من قادر .

وينبغى أن نقرّر أنّ موالاة المؤمنين للكافرين على حساب المؤمنين إذا كان منهيّاً عنها فإنّ المؤمنين لا ينهاهم الله تعالى عن الّذين لم يقاتلوهم فى الدّين ولم يخرجوهم من ديارهم أن يبرّوهم ويقسطوا إليهم . قال تعالى[1] : **﴿ لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من درياكم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم . إنّ الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم . ومَن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون ﴾** .

ولّما كان الحرث والزّرع فى هذه الحياة الأولى وكان الحصاد والجزاء يوم القيامة وسبق أن كان تحذيرٌ من الذّات العليّة وتقريرٌ للمصير ، والمراد بالمصير يوم القيامة فقد كان حديثٌ عن ذلك اليوم فإلى :

الآية رقم (٣٠)

قال تعالى : **﴿ يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما**

---

(١) سورة الممتحنة ٨ ، ٩

عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذّركم الله نفسه . والله رءوفٌ بالعباد ﴾ .

وأوّل ما نودّ الوقوف عنده العامل فى ظرف الزّمان «يوم» وسبق أن ألمحنا إلى أنّ الآية الكريمة السّابقة الّتى تبدأ بخطاب المصطفى ﷺ «قل» آية معترضة بين الآية الكريمة السّابقة والآية الكريمة اللاّحقة حيث إنّ كلا منهما تشتمل على القول : «ويحذركم الله نفسه» ثم إن الآية التالية يترتب معناها على الآية السّابقة وكأنّ المعنى : وإلى الله المصير يوم القيامة ، يوم تجد كلّ نفس . ومن البيّن تلاحم الآية المعترضة معنويّاً بما سبقها وبما لحق بها من آيات كريمات ، وإنّ هذا التّلاحم هو السّبب وراء اختلاف العلماء ، بشأن العامل فى يوم وقد «قال الطّبرى: العامل فيه قوله : ﴿وإلى الله المصير . وقاله الزّجّاج»[1] ونحن نرى هذا الرّأى .

ووراء ذلك نحن نتبيّن فى الآية الكريمة بلاغةً بالحذف ، ويبدو ذلك من الوقوف عند هذه العبارة : «يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرا» والمعروف أنّ النّفس تجد كذلك ما عملت من شرّ وكأنّ التّقدير : يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وتجد ما عملت من شرٍّ محضراً كذلك . والآية الكريمة إذا كانت بشأن العمل الصّالح وقفت عند صفته بأنّه خير ، فإنّها بشأن العمل غير الصّالح تجاوزت اللّفظ المقابل للخير وهو الشّرّ إلى اللّفظ الّذى يبيّن الأثر السّيّىء على الإنسان العامل للشّرّ وهذا اللّفظ هو السّوء : «وما عملت من سوء» جاء فى لسان العرب[2] : «ساءه . . فعل به ما يكره نقيض سرّه ، والاسم السُّوء بالضّمّ» وبما أنّ لفظ السّوء يقابل لفظ الحسن وقدقال تعالى[3] : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنّ أسأتم فلها ﴾ فكأنّ

(١) تفسير ابن عطيّة ٧٧/٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ١٥٤/٣ والبحر المحيط ٤٢٦/٢ وتفسير القرطبىّ ١٣٠١

(٢) « سوأ »

(٣) سورة الإسراء ٧

الآية الكريمة فى بلاغتها بالحذف تجاوزت الأثر الحسن فى النّفس لفعل الخيرات اكتفاءً بتقرير الأثر السّيّىء لفعل الشّرور والمعاصى والآثام ، وكأنّ الأمد البعيد الّذى تمنّت النّفس أن يكون بينها وبين ما عملت من سوء والّذى ساء وجهها وكدّر خاطرها دليلٌ على ما تمنّت النّفس قربه من أعمالها الخيّرة الحسنة الصّالحة . وسبق أن قرّرت الآية الكريمة أنّ ما عملت النّفس من خيرٍ تجده يوم القيامة حاضراً . وانظر إلى جملة «تجد» الّتى تدلّ على القرب الّذى ليس وراءه قرب لأنّه يدلّ على وجود الشّىء مع واجده ، وهذه الجملة تذكّرنا بما جاء على لسان يعقوب عليه السّلام من وجوده ريح يوسف عليه السّلام الّذى مرّت على غيابه أعوامٌ وأعوام والّذى كان قميصه مازال عنده فى مصر بينما يعقوب عليه السّلام فى الشّام . قال تعالى[1] : ﴿ **ولّما فصلت العير قال أبوهم إنّى لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون** ﴾ إنّ وجود كلّ نفس كلّ ما عملت من خيرٍ محضراً أمام عينيها ملأ عليها جوانبها بهجةً وسروراً، بشراً وحبوراً .

وإنّ الحديث عن السّوء وملابساته رشّح لتكرار جملة التّحذير : «ويحذّركم الله نفسه» والتّحذير هنا من عذاب الله تعالى مقابل الشّرور والآثام الّتى ارتكب المرء فى الحياة الأولى .

ولّما كان الحديث عن الشّرّ قد تلاه ما يجانسه وهو التّحذير من العقاب ، ولّما كان الحديث عن الخير فى الآية الكريمة سابقاً للحديث عن الشّرّ ومساوياً للحديث عن الشّر ، ولّما كان الشّرّ قد تلاه ما جانسه فذلك معناه أنّ الخير بحاجةٍ إلى ما يجانسه وقد تحقّق ذلك فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية الكريمة : ﴿ **والله رءوفٌ بالعباد** ﴾[2] .

---

(١) سورة يوسف ٩٤

(٢) انظر هنا تفسير ابن عطيّة ٧٩/٣ والكشّاف ٣١٨/١ والبحر المحيط ٤٣٠/٢ ، ٤٣١

إنّ هذه الجزئيّة الكريمة من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء والّتى سبقت غضبه ، فكيلا يحدث يأسٌ من روح الله تعالى وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنّه لاييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون** ﴾ وسبق أن جاء فى الآية الكريمة الخامسة عشرة القول : ﴿ **والله بصيرٌ بالعباد** ﴾ وجاء فى الآية الكريمة السّادسة عشرة بعض نعوت هؤلاء العباد فى مجال الأقوال والأفعال ، وكأنّ العباد الّذين يرأف الله تعالى بهم هم الّذين تتحقّق فيهم تلك النّعوت .

إنّ هذا القول : «يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً» وقد تبيّنا أنّ فيه بلاغةً بالحذف يذكّرنا بقوله تعالى[2] : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره** ﴾ وإنّ هذا القول والقول بعده : «يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لَوْ أنّ بينها وبينه أمداً بعيد» يذكّـرانا بقوله تعالى[3] : ﴿ **فأمّا من أُوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . إنّى ظننت أنّى ملاقٍ حسابيه . فهو فى عيشةٍ راضية . فى جنّةٍ عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيّام الخالية . وإمّا من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنّى ماليه . هلك عنّى سلطانيه** ﴾ .

ويصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة بعد ذكر ما نظنّه محذوفاً على نحوٍ شبيهٍ بالآتى : يوم القيامة تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وكذلك تجد ما عملت من شرٍّ محضراً ، فأمّا ما عملت من خيرٍ وحَسَنٍ فإنّها سعيدةٌ وقريرة العين به حريصةٌ على أن ينسب إليها ويلصق بها وأمّا ما عملت من شرٍّ

(١) سورة يوسف ٨٧

(٢) سورة الزّلزلة ٧ ، ٨

(٣) سورة الحاقّة ١٩ ـ ٢٩

وسوء فإنّها مستاءةٌ له متبرّمةٌ به حريصةٌ على طردها له وبعده عنها و«تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيدا» وشقّةً واسعة . والأمد : الغاية المحدودة من المكان أو الزّمان[1] الّتى ينتهى إليها[2] .

أما وقد جمعت الآية الكريمة بين الإنذار والتّبشير ، وختمت بالتّبشير وكان من عباد الله تعالى من يخطىء التّعبير الصّحيح عن حبّه لله تعالى على نحو ما يفعل النّصارى الّذين يغالون فى السّيّد المسيح عليه السّلام زاعمين أنّهم بغلّوهم يعبّرون عن حبّهم الشّديد لله تعالى ، وعلى نحو ما يفعل مشركو العرب الّذين يشركون مع الله تعالى الأصنام والأوثان ويتّخذون من دونه جلّ وعلا أولياء زاعمين : «ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى»[3] لكلّ ذلك كان ثمّة تصحيحٌ لخطأ أولئك الأقوام وتوجيه وتسديد فإلى :

الآية رقم (٣١)

قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفورٌ رحيم ﴾ .

والآية الكريمة تبدأ بجملة «قل» خطاباً للمصطفى ﷺ وذلك على غرار عددٍ من الآيات الكريمات السّابقات جاءت فيها هذه الجملة فى مطلعها أو فى أثنائها ، ومن تلك الآيات الآية الكريمة قبل السّابقة والّتى قلنا إنّها آيةٌ معترضة . وإنّ مجىء هذه الجملة : «قل» بهذه الوفرة دليلٌ على أنّ من وسائل التّلاحم فى بناء المعانى ما أسميناه بالاعتراض فإنّه من جنس التّتميم ومن باب تقليب المعانى على وجوهها المختلفة .

---

(١) تفسير ابن عطية ٣/٧٨

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/١٥٤

(٣) سورة الزّمر ٣

والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك الغالين فى الحبّ الّذين أخطأوا التّعبير الصّحيح عنه وضلّوا الطّريق المستقيم الموصل إليه بأن يّتبعوه عليه الصّلاة والسّلام وأن يطيعوه طاعةً مطلقة . والمعروف أنّ ثمّة شرطين اثنين ينبغى تحقّقهما فى سبيل القبول لأىّ عملٍ صالح . الشّرط الأوّل أن يكون العمل الصّالح موافقاً لما أمر به الشّارع الحكيم . والشّرط الآخر أن يراد بعمله وجه الله تعالى . ولّما كان العمل الّذى يقوم به اولئك الغلاة محقّقاً للذّنب الوحيد الّذى لا يغفره الله تعالى إن لم يقلع عنه مرتكبه وهو الإشراك مع الله تعالى غيره ، فقد كان ثمّة حاجةٌ لأن يبيّن للقوم الطّريق الآخر الصّحيح الّذى ينبغى عليهم أن يسلكوه وهو اتّباع خاتم النّبيّين محمّد ابن عبدالله ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى وذلك معناه هجر الطّريق الخاطىء الّذى يسيرون فيه وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا .

والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك الغالين : إن كنتم تحبّون الله تعالى كى يبادلكم حبّاً بحبّ وتريدون التّعبير الصّحيح عن حبّ الله تعالى فإنّ عليكم أن تتّبعونى فإنّى أنا النّبىّ المصطفى الّذى لا ينطق عن الهوى وأن تتّبعوا ما أوحى الله تعالى به إلىّ من قرآن كريم وسنة مطهرة . إنكم باتباعى واتباع ما أوحى الله تعالى به إليّ وفعل الأوامر واجتناب النّواهى تعبّرون عن حبّكم لله تعالى تعبيراً صحيحاً فيرضى عنكم بل يحبّكم ووراء ذلك يغفر لكم ذنوبكم بما فى ذلك غلوّكم السّابق . والله غفورٌ لمن أذنب واستغفر وتاب توبةً نصوحاً رحيمٌ بعباده إذ يقيل عثراتهم ويأخذ بأيديهم ويقبل توباتهم .

والمعروف أنّ الاتّباع يعنى الطّاعة ضمناً وأنّ حبّ الله تعالى عباده يعنى رضاه عنهم ، ووضع القبول لهم فى الأرض . فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : إنّ الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال : إنّى

أحبّ فلاناً فأحبّه قال : فيحبُّه جبريل ثمّ ينادِي فى السّماء فيقول : إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه فيحُبّه أهل السّماء قال : ثمّ يوضع له القَبول فى الأرض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنّى أبغض فلاناً فأبغضه قال : فيُبْغِضه جبريل ثمّ ينادِى فى السّماء إنّ الله يُبْغِض فلاناً فأبغضوه قال فيبغضونه ثمّ توضَعُ له البغضاء فى الأرض[1] .

وإنّ الطّاعة المطلقة المقترنة بالاتّباع والمفهومة ضمناً تصرّح بها الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٣٢)

قال تعالى : ﴿ **قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين** ﴾ .

تبدأ الآية الكريمة على غرار عددٍ من الآيات الكريمات بجملة : «قل» ممّا هو دليلٌ على كون تعليم المصطفى ﷺ هدفاً مهمّاً لهذه الآيات الكريمات الّتى تبدأ بهذه الجملة . بما فى ذلك الآية الكريمة التّاسعة والعشرون الّتى قلنا إنّها جملةٌ معترضة ، ممّا يعتبر قوّةً للتّلاحم بين الآيات الكريمات . والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس كافّة ، للمؤمنين على جهة الخصوص : أطيعوا الله والرّسول طاعةً مطلقة . إنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له له الخلق والأمر ،فهو الّذى ينبغى أن يطاع فى كلّ أمرٍ ونهى . والمصطفى ﷺ قد أوحى الله تعالى إليه بالقرآن الكريم وبالسّنّة المطهّرة ، فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى فينبغى أن يطاع عليه الصّلاة والسّلام طاعةً

---

(١) تفسير القرطبيّ ١٣٠٣

مطلقة ، وقد أمرنا الله تعالى بذلك ، فقال عزّ من قائل[1] ﴿ **وما آتاكم الرّسول فخذوه ما نهاكم عنه فانتهوا . واتّقوا الله ، إنّ الله شديد العقاب** ﴾ .

وإنّ من أوضح الآيات الكريمات فى هذا الشّأن قوله عزّ من قائل فى سورة النّساء[2] : ﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىءٍ فردّوه إلى الله والرّسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا** ﴾ إنّ جملة أطيعوا تجىء فى حقّ الذّات العليّة وفى حقّ المصطفى ﷺ لأنّ طاعتهما طاعةٌ مطلقة . ولا تجىء الجملة فى حقّ أولى الأمر لأنّ عليهم أن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، فطاعتهم والامتثال لأمرهم طاعةٌ لله تعالى وللرّسول ﷺ . فإذا لم يطع أولو الأمر الله تعالى فلا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق .

وإنّ طاعة العباد لله تعالى ولرسوله ﷺ متفاوتة تبعاً لتفاوت درجات الإيمان . وحينما لا يكون ثمّة إيمان يكون إعراضٌ وتولٍّ دليلاً على الكفر والصّد عن سبيل الله تعالى . إنّ هؤلاء الكافرين لا يحبّهم الله تعالى ولا يرضى عنهم ولا يسدّد خطاهم ولا يأخذ بأيديهم . إنّهم لهم فى الدّنيا خزىٌ وذلٌّ وهوان ولهم فى الآخرة عذاب النّار وبئس المهاد والعياذ بالله .

***

(١) سورة الحشر ٧

(٢) الآية ٥٩

(٥)
آل عمران وزكريا عليه السلام
الآيات (٣٣ ـ ٤١)

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ

ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر
رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ ۞

في الآيتين الكريمتين السّابقتين أُمِرْنا بأن نتّبع الرّسول ﷺ ونطيعه كي يحبّنا الله تعالى لأنّ طاعة المصطفى المختار من طاعة الله تعالى . وهذا القسم يبيّن أنّ الله تعالى اصطفى آدم أباً للبشر ونوحاً عليه السّلام أوّل مرسل وآل إبراهيم أبى الأنبياء وآل عمران على العالمين . إنّ أولئك المصطفين الأخيار ذرّيّةٌ بعضهم من بعض والله سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بنواياهم وأعمالهم ، ومن هؤلاء امرأة عمران الّتى قالت ربّ إنّى نذرت لك الجنين الّذى فى بطنى خالصاً لك فتقبّل منّى إنّك أنت السّميع لدعائى العليم بنيّتى . فلّما وضعت قالت ياربّ إنّى وضعتها أنثى وليست ذكراً كما تمنّيت كى يخدم بيتك الّذى أذنت أن يرفع أحْسن خدمة . وفى جملةٍ معترضَةٍ يبيّن السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بالبنت الّتى وضعت لأنه جلّ وعلا سيصطفيها أمّاً لكلمته تعالى عيسى ابن مريم عليه السّلام . وتستمرّ قائلةً وليس الذّكر الّذى تمنّيت كالأنثى الّتي تفضّلت بها ياربّى عليّ فأعطيت ، وإنّى سميّتها مريم بمعنى العابدة ، وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها منَ الشّيطان المطرود من رحمتك . فتقبّل الله تعالى النّذيرة بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وجعل زكريّا عليه السّلام كافلاً لها ، وكلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً كثيراً عجيباً ويسألها عن مصدر الرّزق فتقرّر أنّه من عند الله تعالى الّذى يرزق من يشاء بغير حساب .

عند ذلك دعا زكريّا ربّه الفعّال لِماَ يريد القادر علىٍ كلّ شىء الّذى جعل للبتول تلك الكرامة قال ربّ هب لى من عندك ذرّيّةً طيّبةً مباركة من صلبى أنا الشّيخ الفانى ومن زوجتى العاقر العجوز إنّك سميع الدّعاء .

«فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلى فى المحراب» وهو موضع الإمام فى المسجد بأنّ الله تعالى يبشّرك بيحيى ، فهو ولدٌ ذكرٌ يكتب الله تعالى له الحياة ويحييه بالإيمان ، مصدّقاً بكلمة الله تعالى عيسى عليه السّلام وسيّداً فى قومه ، وحصوراً لا يقرب النّساء عن قدرة ، ونبيّاً من الصّالحين . ويستبعد زكريّا عليه السّلام من جهة العادة أن يكون له غلامٌ من صلبه وهو الّذى قد بلغه الكبر وأمرأته عاقر منذ أن بلغت مبلغ النّساء . ويجيبه الملك بأن ذلك هيّن على الله تعالى الّذى خلقه من قبل ولم يك شيئاً والّذى يفعل ما يشاء . ويطلب زكريّا العلامة على مجىء الولد الّذى يتمنّى كى يقوم على شئون الدّين كما يتمنّى بعد أن يلحق زكريّا عليه السّلام بالرّفيق الأعلى وتكون الإجابة ألّا يستطيع زكريّا عليه السّلام أن يكلّم النّاس بخلاف ذكر الله تعالى ثلاثة أيّامٍ بلياليهنّ إلّا رمزاً بالعين أو بسواها . إنّ زكريّا عليه السّلام الّذى لا يستطيع أن يكلّم النّاس إلّا بالإيماء والإشارة يستطيع أن يذكر الله تعالى ، بل إنّه يؤمر بأن يذكر الله تعالى ويسبّحه وينزّهه عن كلّ ما لا يليق به جلّ وعلا فى كلّ الأوقات . وهكذا يتبيّن أنّ الأمر بالذّكر والتّسبيح قوّةٌ لحال العبادة الّتى كان فيها فى المحراب ، ثمّ إنّ فى الأمر بالذّكر والتّسبيح دليلاً يضاف إلى الأدلّة الكثيرة على أنّ ذكر الله تعالى هو العبادة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم نهايةً لها لسهولة الذّكر فى كلّ الأحوال .

***

الآيتان رقم (٣٣ و٣٤)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرّيّةً بعضها من بعض . والله سميعٌ عليم** ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر والّذى بيده ملكوت كلّ شىءٍ وإليه نرجع جميعاً يبيّن أنّه اصطفى ونقّى ، اختار واجتبى آدم عليه السّلام أبا البشر ، ونوحاً عليه السّلام الأب الثّانى للبشر وأوّل رسل الله تعالى إلى البشر ، وآل إبراهيم عليه السّلام ، وآل الرّجل أتباعه وقومه ومن هو على دينه[١] والأهل والقرابة وأهل الطّاعة[٢] وإبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء ، فكلّ الأنبياء بعده عليه الصّلاة والسّلام من ذرّيّته . إنّ كلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة ولده إسحاق عليه السّلام وإنّ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ من ذرّيّة ولده إسماعيل عليه السّلام . واصطفى الله تعالى كذلك آل عمران . وعمران هذا هو ابن ماثان من ولد سليمان بن داود ، وهو أبو مريم البتول أمّ عيسى عليه السّلام . قاله الحسن ووهب[٣] .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة ترتّب هذه الأسماء تأريخيّاً ، وتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد اصطفاها واختارها ، صفّاها واجتباها على عالمى زمانهم المعاصرين لهم بسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وحده لا شريك له .

إنّ جملة اصطفى تعنى شيئين اثنين التّصفية والتّنقية ، بمعنى أنّ الله تعالى جعل هؤلاء صفوة ، أى نقاهم من الكدر[٤] وجعلهم مختارين

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٥٦/٣
(٢) تفسير ابن عطيّة ٨٢/٣
(٣) البحر المحيط ٤٣٤/٢
(٤) البحر المحيط ٤٣٤/٢

نقاوة[1]وبقى الكفّار كدرا[2] .

لقد اصطفى الله تعالى آدم عليه السّلام بأن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كلّ شيءٍ وأسكنه الجنّة ثمّ أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة[3] وجعله خليفةً في الأرض[4] ويلاحظ أنّ الاصطفاء مرتبطٌ بشخص آدم عليه السّلام ، وكأنّ في ذلك إيماءً إلى انحراف ذرّيّته الوشيك عن الصّراط المستقيم . وهذا الانحراف هو المبرّر لإرسال رسولٍ إلى البشر كي يعيدهم إلى الصّراط المستقيم ، وكان هذا الرّسول هو نوحاً عليه السّلام .

واصطفى الله تعالى نوحاً عليه السّلام وجعله أوّل رسولٍ بعثه إلى أهل الأرض لمّا عبد النّاس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا[5] وبعثه بتحريم البنات والأخوات والعمّات والخالات وسائر ذوى المحارم[6] ويلاحظ أنّ الاصطفاء مرتبطٌ بشخص نوحٍ عليه السّلام ، وكأنّ في ذلك إيماءً إلى انحراف ذرّيّته الوشيك عن الصّراط المستقيم . والمعروف أنّ سورة هود نصّت على كون ابنٍ لنوحٍ عليه السّلام وقت الطّوفان أبى أن يركب مع أبيه السّفينة ضمن المؤمنين فكان من الكافرين المغرقين[7] .

واصطفى الله سبحانه وتعالى آل إبراهيم عليه السّلام ، فمن ذرّيّته خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ودعوة إبراهيم عليه السّلام محمّد بن عبدالله ﷺ .

---

(١) البحر المحيط ٤٣٤/٢
(٢) تفسير ابن عطيّة ٨٢/٣
(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٨/١
(٤) البحر المحيط ٤٣٤/٢
(٥) تفسير ابن كثير ٣٥٨/١
(٦) البحر المحيط ٤٣٤/٢
(٧) سورة هود ٤٢ ـ ٤٧

جاء عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام قوله تعالى فى سورة البقرة[١] : ﴿ **ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وقد جعل الله سبحانه وتعالى فى ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام النّبوّة والكتاب . قال تعالى[٢] : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذرّيّته النّبوّة والكتاب وآتيناهُ أجره فى الدّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين** ﴾ .

واصطفى الله سبحانه وتعالى آل عمران . والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أمّ عيسى ابن مريم عليه السّلام . وعمران من ذرّيّة سليمان ابن داود عليهما السّلام ، فعيسى عليه السّلام من ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام[٣] وكان زكريّا عليه السّلام قد تزوّج أخت مريم أمشاع ابنة عمران بن ماثان فكان يحيى وعيسى ابنى خالة[٤] .

قال قتادة فى تفسير هذه الآية : ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ، ففضّلهم على العالمين ، فكان محمّد من آل إبراهيم[٥] والظّاهر أنّ الآل مَنْ يئول إلى الشّخص فى قرابةٍ أو مذهب[٦] وإنّما فضّلهم الله سبحانه وتعالى على العالمين بسبب تفانيهم فى خدمة دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين ، وبسبب إخلاصهم العبادة لله تعالى وحده لا شريك له .

---

(١) الآية ١٢٩
(٢) سورة العنكبوت ٢٧
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣٥٨/١
(٤) البحر المحيط ٤٣٤/٢
(٥) تفسير ابن عطيّة ٨٣/٣
(٦) البحر المحيط ٤٣٥/٢

والآية الكريمة الثّانية تُقَرِّر أنّ هؤلاء الذّين اصطفاهم الله تعالى هم ذرّيّةٌ بعضهم من بعض . وأجازوا فى نصب ذرّيّة وجهين أن يكون بدلاً وأن يكون حالاً[1] إنّ هؤلاء المصطفين الأخيار سلسلة نسب ، فالأبناء الصّالحون مستمسكون بالسّير فى طريق آبائهم المستقيم ، وإنّ هؤلاء المصطفين الأخيار وشائج دينٍ وعلائق عقيدة وروابط تقوى وكانوا فى مستوى الأمانة الّتى نيطت بهم حماةً لدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

إنّ الله سبحانه وتعالى السّميع لكلّ صوت العليم بكلّ ما توسوس به أىّ نفس ، سميع ، هكذا فى صيغة المبالغة ، عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، لكلّ ما يقول ويفعل أولئك المصطفون الأخيار . وإنّ من أولئك المصطفين الأخيار من آل عمران امرأة عمران الّتى سمع الله تعالى دعاءها وعلم بنجواها على نحو ما بيّنت الآية الكريمة التّالية .

الآية رقم (٣٥)

قال تعالى : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّى نذرت لك ما فى بطنى محرَّراً فتقبّل منّى . إنّك أنت السّميع العليم** ﴾ .

ختمت الآية الكريم السّابقة بالقول : «والله سميعٌ عليم» والمعنى : والله سميعٌ لأقوال أولئك المصطفين الأخيار عليمٌ بنيّاتهم وأعمالهم ، وهو قولٌ مرتبطٌ بصدر الآية الكريمة الّتى نحن بصددها ، ويصحّ أن يكون المعنى ، والله تعالى أعلم ، والله سميعٌ إذ قالت امرأة عمران . وامرأة عمران هذه حنّة بالحاء المهملة والنّون المشدّدة مفتوحتين وآخرها تاء تأنيث[2] قال ابن

(١) انظر البحر المحيط ٢/٤٣٥

(٢) انظر البحر المحيط ٢/٤٣٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/١٥٧

إسحاق : تزوّج زكريّا وعمران أختين فكانت أمّ يحيى عند زكريّا وكانت أمّ مريم عند عمران فهلك عمران وأمّ مريم حاملٌ بمريم فهي جنينٌ في بطنها . قال : وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتّى أسنّت وكانوا أهل بيتٍ من الله جلّ ثناؤه بمكان . فبينما هي في ظلّ شجرةٍ نظرت إلى طائرٍ يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم وهلك عمران فلّما عرفت أنّ في بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة . والنّذيرة أن تعبّده لله فتجعله حبساً في الكنيسة لا ينتفع به بشيءٍ من أموّر الدّنيا[1] .

إنّ امرأة عمران حنّة بنت فاقوذ[2] وقد أراد الله تعالى لها أن تحمل بعد طول انتظار وبعد أن أوشكت على اليأس تقول في معرض الشّكر لله ربّ العالمين الّذي خلقها وخلق جنيناً في رحمها : «ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرَّراً فتقبّل منّي» وانظر إلى لفظة الرّبّ الّتي تستعمل في القرآن الكريم في مواقف الخصوص والشّكر للمنعم المتفضّل والامتنان للبرّ الرّحيم الودود . إنّ حرف النّداء مستغنًى عنه لأنّ الله سبحانه وتعالى قريبٌ يجيب دعوة الدّاعي إذا دعاه ولأنّ امرأةعمران لا تريد لحرف النّداء أن يؤخّر ذكر لفظ الرّبّ على لسانها وقد امتلأت نفسها بين جنبيها امتناناً للفضل العظيم عليها من هذا الرّب الكريم . إنّ نداء الرّبّ جلّ وعلا دون ذكر حرف النّداء بل إنّ ابتداء القول على لسانها بلفظ الرّبّ منتهى ما تُسْعَفُ به كي يوافق ذكر الرّب على لسانها ذكر الرّبّ في قلبها وبين جوانحها .

إنّ امرأة عمران تقول : ربّ إنّي نذرتُ لك وحدك ياربّي لا شريك لك ما في بطني من جنين محرّراً من كلّ شائبةٍ من شوائب الدّنيا خالصاً لخدمة

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٥٧/٣

(٢) فاقوذ في تفسير الطّبريّ ١٥٧/٣ بولاق ودار المعارف تحقيق محمود محمّد شاكر ٣٣٠/٦ وجاء في تفسير ابن عطيّة ٨٦/٣ فاقوذ نقلاً عن الطّبريّ

بيتك الّذى أذنت أن يرفع فى بيت المقدس وقفاً على خدمة الكنيسة لا يشغله شاغل ولا يصرفه صارف من أمور الدّنيا .

ويصحّ أن نفهم من استعمال اسم الموصول ما بمعنى الّذى وليس مَنْ فى القول : «ما فى بطنى» سرعة مبادرة امرأة عمران إلى الشّكر لله تعالى على نعمته العظيمة فى أوّل لحظةٍ شعرت فيها بالحمل وإنّ هذه الفترة المبكّرة من الحمل وقبل أن يتخلّق الجنين يتمشّى معها اسم الموصول ما الدّالّ على غير العاقل أساساً[1] .

ومن المعروف أنّ الجنين إنّما يكون فى الرّحم وليس فى البطن ، وإنّ فى ذكر البطن درساً من دروس القرآن الكريم فى الآداب باستعمال الكنايات . وإنّ النّذر الّذى ألزمت امرأة عمران نفسها به مظهراً من مظاهر عبادتها لله تعالى وإخلاصها العبادة لله تعالى وحده لاشريك له ، وهو نذرٌ صحيحٌ لموافقته ما أذن به الشّارع الحكيم ، يفتقر إلى أهمّ شرطٍ فى نجاحه وهو أن يتفضّل عالم السّرّ وأخفى بقبوله ، وهذا ما قذفت به توًّا نفس امرأة عمران بين جنبيها وقد امتلأت بالامتنان وألقت به سريعاً على لسانها اللاّهج بالثّناء على الله تعالى بما هو أهله جلّ وعلا وذلك فى القول : «فتقبّل منّى» وينبغى أن يكون لحرف العطف بالفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب كبير فضل فى الدّلالة على كون أجزاء الدّعاء المتتابعة موصولة ، فليس هنالك ما هو أقلّ من حرفٍ فى وصل الكلام ، وليس هنالك الحرف الآخر الّذى يغنى غناء الفاء ويشهد مشهده .

وإذا كان دعاء امرأة عمران قد أحفّ به السّمع والعلم من بين يديه فإنّه أحفّ به كذلك السّمع والعلم من خلفه وذلك فى القول على لسان امرأة عمران : «إنّك أنت السّميع العليم» وينبغى أن يكون للتأكيد بأداة التّوكيد إنّ

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٢/٤٣٧.

وباسم الضّمير المنفصل أنت كبير دورٍ فى تأكيد الكلام وفى إضافة الجديد من المعنى إلى صفتى السّمع والعلم بعد أن كان الكلام غير مؤكّد فى الآية الكريمة السّابقة . إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى يسمع دعاء امرأة عمران وقد نبع من أعماقها وهو الّذى يعلم حقيقة نيّاتها وأعمالها .

ولّما كانت العادة قد جرت بأن يكون المولود الّذى ينذر لخدمة الكنيسة ذكراً وليس أنثى ، فكأنّا نفهم من نذر امرأة عمران ما فى بطنها لله تعالى أنّها كانت تتمنى فى أعماقها أن يكون المولود ذكراً لأنّه هو الصّالح للقيام بخدمة الكنيسة وليس الأنثى الّتى لا تقوى على ذلك بسبب طبيعة تكوينها . والآية الكريمة التّالية أقرب إلى التّصريح بما كانت تتمنّى امرأة عمران فإلى :

الآية رقم (٣٦)

قال تعالى : ﴿ **فلّما وضعتها قالت ربّ إنّى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذّكر كالأنثى وإنّى سمّيتها مريم وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم**﴾ .

إنّ أوّل ما يستوقفنا هو القول : «وضعتها» بمعنى ولدتها ، فالوضع الولادة[1] وإنما يستوقفنا هذا القول لأنّه التّعبير اللّطيف ، الّذى يتمشّى مع لطف امرأة عمران ، الأديب لأنّ الواو والضّاد والعين أصلٌ واحد يدلّ على الخفض للشّىء وحطّه[2] ولأنّ هذا الحال من متعلّقات الولادة أهونها وألصقها بالنّهاية السّعيدة وأقربها إلى استئناف المولود حياةً جديدة منفصلةً عن الوالدة جسداً وحسّاً . إنّه بالمقارنة مثلاً بين جملة ولد وجملة وضع يتبينّ قدرة جملة ولد على شدّ المولود إلى والدته بخيط الولادة إن لم يكن حسّاً فمعنى . أمّا

(١) تفسير ابن عطيّة ٨٧/٣

(٢) معجم مقاييس اللّغة «وضع» ١١٧/٦

جملة وضع فهى أقرب إلى تقرير الانفصال وكأنّ هذه الجملة فى استعمال الآية الكريمة داخلةٌ فى حسن كنايات القرآن الكريم .

والآية الكريمة تستعمل الضّمير العائد إلى المولودة وليس إلى المولود المفهوم من استعمال ما فى الآية الكريمة السّابقة : «إنّى نذرت لك ما فى بطنى محرَّراً» وقد أحسن أبو حيّان التّعبير عن ذلك فى القول[1] : «أنّث الضّمير فى وضعتها حملاً على المعنى فى «ما» لأنّ ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى» .

إنّ امرأة عمران المخلصة فى عبادتها لله تعالى الصّادقة فى نذرها الّتى كانت تتمنّى أن يكون المولود ذكراً لقدرته على خدمة بيت المقدس بل إنّهم لم يكن يجوز عندهم تحرير الإناث لخدمة الكنائس[2] إنّ امرأة عمران حينما وضعت بنتاً وليس ولداً :﴿قالت ربّ إنّى وضعتها أنثى﴾وانظر إلى لفظ الرّبّ الحبيب بمعانيه ومراميه لامرأة عمران ولكلّ مؤمنٍ تقىٍّ نقى . إنّه قريبٌ دائماً أبداً إلى قلب امرأة عمران ولسانها حتى وإن لم يتحقق ما كانت تتمنى لأنّ الخير هو ما اختاره الله تعالى وأكرم به . وها هى ذى امرأة عمران تقرّر أنّها قد وضعت المولودة أنثى وفى أعماقها أنّ الأنثى غير قادرةٍ على خدمة بيت المقدس وفى أعماقها كذلك أنّها إن فاتها الولد القادر على خدمة بيت المقدس فإنّها لم يفتها صحّة النّذر وصدق النّيّة وسلامة القصد . ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

إنّ ربّ العزّة العالِم بكلّ سرٍ ونجوى ، الّذى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا فى السّماء ، الّذى اصطفى مريم البتول لنعوتها الذّاتيّة وفى مقدّمتها إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له ، واصطفاها على نساء العالمين

---

(١) البحر المحيط ٤٣٨/٢

(٢) تفسير ابن عطيّة ٨٨/٣

وانتقاها من بين نساء عالمى زمانها كى تكون والدة الرّحمة المهداة والنّعمة المسداة عيسى ابن مريم عليه السّلام ، إنّ ربّ العزّة يقرّر علمه جلّ وعلا الّذى لم يأذن به لمخلوق وذلك فى الجملة المعترضة فى الآية الكريمة : «والله أعلم بما وضعت» .

إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بالمولودة الّتى وضعتها امرأة عمران . إنّ هذه المولودة هى البتول المنقطعة لعبادة ربّها جلّ وعلا الّتى اصطفاها ربّها جلّ وعلا بولادة عيسى عليه السّلام من غير أب .

ويعود السّياق إلى ذكر ما جرى على لسان امرأة عمران : «وليس الذّكر كالأنثى» إنّ التّعبير المتوقّع أن تقول امرأة عمران : ليس الأنثى كالذّكر ، ولكن بما أنّ نفسها كانت متعلّقةً بالولد الذّكر لذا سبق إلى لسانها ذكر الّلفظ الّذى يرمز إلى ما تحبّ وتتمنّى[1] ومعنى القول : «وليس الذّكر كالأنثى» وليس الذّكر الّذى أنا أحببت وتمنّيت كالأنثى الّتى تفضّلت بها ياربّى فأعطيت .

ولّما كان والد البتول قد توفّاه الله تعالى فإنّ الوالدة هى الّتى تبادر إلى التّسمية[2] ولّما كان الجوّ عابقاً بشذى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له إذن فلتسمّ النّذيرة باسمٍ يعبق بهذا الشّذى وليكن الاسم مريم : «وإنّى سميّتها مريم» ومريم فى لغتهم بمعنى العابدة»[3] .

وفى هذا القول : «وإنّى سميّتها مريم» دليلٌ على جواز التّسمية يوم الولادة كما هو الظّاهر من السّياق لأنّه شرع من قبلنا وقد حكى مقرّراً وبذلك ثبتت السّنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : ولد لى الّليلة ولدٌ سميّته باسم أبى

---

(١) انظر تفسير ابن عطيّة ٨٨/٣

(٢) انظر البحر المحيط ٤٣٩/٢

(٣) الكشّاف ٣٢٠/١ والبحر المحيط ٤٣٩/٢

إبراهيم . أخرجاه . وكذلك ثبت فيهما أنّ أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمّه إلى رسول الله ﷺ فحنّكه وسمّاه عبدالله . وفى صحيح البخاريّ أنّ رجلاً قال : يارسول الله ولد لى اللّيلة ولد فما أسمّيه ؟ قال : سمّ ابنك عبدالرّحمن[١] .

ومريم اسمٌ لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنيثه[٢] .

وسمّى من الأفعال الّتى تتعدّى إلى واحدٍ بنفسها وإلى آخر بحرفِ الجرّ . ويجوز حذفه . وإثباته هو الأصل . يقول : سميّت ابنى بزيد وسميته زيدا[٣].

ويختم ما جاء على لسان امرأة عمران بالقول : «وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم» .

والمعاذ بمعنى الموئل والملجأ والمعقل[٤] والرّجيم بمعنى المطرود[٥] إنّ امرأة عمران تجعل معاذ مريم البتول ومعاذ ذرّيّتها عيسى عليه السّلام وملجأهما ومعقلهما الله تعالى ذا الطّوْل من الشّيطان الرّجيم الطّريد من رحمة الله تعالى . وقد استجاب السّميع العليم دعاء امرأة عمران النّابع من أعماقها . إنّ الله سبحانه وتعالى يتقبّل البتول بقبولٍ حسنٍ ويعيذها ويعيذ ابنها عيسى عليه السّلام كلمة الله تعالى من الشّيطان الرّجيم-روى البخاريّ ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ما من مولودٍ يولد إلاّ مسّه الشّيطان حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّه إيّاه إلاّ مريم وابنها[٦]

إنّ ثمّة نذراً من امرأة عمران تدعو أن يتقبّله الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٩/١
(٢) تفسير ابن عطيّة ٨٩/٣
(٣) البحر المحيط ٤٤٠/٢
(٤) تفسير الطّبرىّ ١٦٠/٣
(٥) الجلالين
(٦) تفسير ابن كثير ٣٥٩/١

وإنّ ثمّة دعاءً بأن يعيذ الله تعالى البتول وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم .

وإنّ السّياق بعد ذلك يتحدّث على التّوالى عن هذين الموضوعين وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن تقبّل الله تعالى النّذيرة فإلى :

الآية رقم (٣٧)

قال تعالى : ﴿ فتقبّلها ربّها بقَبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله . إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

الآية الكريمة تتحدّث عن تقبّل الله تعالى البتول تقبّلاً حسناً وتنشئتها التّنشئة الصّالحة وكفالة زكريّا زوج أختها أو خالتها لها ورزق الله تعالى لها من لدنه رزقاً حسنا .

وأوّل ما نودّ الوقوف عنده الجناس المغاير فى القول : «فتقبّلها ربّها بقبول حسن» إنّ جملة تقبّل تَجيء استجابةً لدعاء امرأة عمران ربّها جلّ وعلا فى الصّيغة ذاتها «فتقبّل منّى» .

لقد كان المتوقّع أن يكون المصدر من جنس الفعل فتكون الصّيغة : فتقبّلها ربّها تقبّلاً حسنا ، أو أن تكون الصّيغة : فقبلها ربّها قبولاً حسناً ، ولكن جاء فى الجزئيّة الكريمة مصدرٌ من غير الفعل وسبق هذا المصدر حرف الجرّ الباء : «فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسن» جاء فى تفسير الطّبرى[1] : والقبول مصدر مِنْ قَبلها ربُّها فأخرج المصدر على غير لفظ الفعل ولو كان على لفظة لكان فتقبّلها ربّها تقبّلاً حسنا . وقد تفعل العرب ذلك كثيراً أن يأتوا بالمصادر

(١) ١٦٢/٣

على أصول الأفعال وإن اختلفت ألفاظها فى الأفعال بالزّيادة وذلك كقولهم تكلّم فلانٌ كلاما ، ولو أخرجَ المصدر علي الفعل لقيل : تكلم فلان تكلّما ومنه قوله : وأنبتها نباتاً حسناً ولم يقل إنباتاً حسنا» وجاء فى اللّسان[1] : «وفى التّنزيل العزيز : فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسن ، ولم يقل بتقبّل» .

إنّا فى سبيل تبيين الحكمة من العدول عن المصدر تقبّل إلى المصدر قبول من الجائز أن نحاول تبيّن معنى تقبّل وقبل . إنّ صيغة تقبّل يصحّ أن يفهم منها التفضّل بالقبول . إنّ امرأة عمران تدعو الله تعالى أن يتفضّل بقبول نذرها ، وها هى ذى الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن الاستجابة تستعمل الصّيغة ذاتها متضمّنةً معنى التفضّل . إنّ جملة تفعّل تفيد القبول مع التّفضّل . فإذا تحوّلنا إلى جملة قبل تبيّنّا أنّها تفيد القبول وتتجاوز إلى الدّلالة على الرّضا : «قال الزّجّاج : الأصل فى العربيّة تقبّلها ربّها بقبولٍ حسن أى بتقبُّلٍ حسنٍ ، ولكنّ قبولاً محمولٌ على قوله قَبِلها قَبولاً حَسَنا ، يقال : قبلت الشّىءَ قبولاً إذا رضيتَه»[2] .

وهكذا يتبيّن أنّ فى العدول عن المصدر تقبّلاً إلى المصدر قبولاً مزيد فضلٍ من الرّبّ الكريم الجواد . فإذا كانت امرأة عمران تطمع فى مجرّد التّفضّل من الله تعالى فى التّقبّل فإنّ الذّات العليّة تتجاوز مرحلة التّقبّل إلى الرّضا . وأعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ مجىء حرف الجرّ الباء بين يدى المصدر المعدول إليه فى القول : «فتقبّلها ربّها بقبول حسن» مهيّىءٌ لإيحاء المصدر بمعنى الرّضا فما أقرب مثل هذا القول من نفوسنا وألسنتنا : قبلت هذا الشّىء برضا .

وبهذا يتبيّن ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ القول : «فتقبّلها ربّها» يفيد التفضّل

---

(١) «قبل» .

(٢) لسان العرب «قبل» وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «قبل» ٣٩٢

بتقبّل النّذر ، وأنّ حرف الجرّ مهيّىء للمصدر الّذى يضيف إلى القبول الرّضا ، والمعروف أنّ الرّضا فى العادة يسبق التّقبّل ، وكأنّ القبول حفّ به الرّضا من بين يديه وحفّ به الحُسْن من خلفه : «فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسن» إنّنا بصدد تقبّل ورضاً وقبولٍ حسن . ما أعظم فضل الله تعالى الشّكور السّميع العليم على عباده ومن هؤلاء العباد آل عمران .

وما قيل عن القول : «فتقبّلها ربّها بقبول حسن» يقال بشأن القول : «وأنبتها نباتاً حسن» من تجنيسٍ مغاير[1] ومجىء مصدر الفعل : «نبت الشّىءُ يَنْبُت نبتاً ونباتاً»[2] وليس مصدر الفعل : «أنبت الله النّبات إنباتا»[3] «اللّيث : كلُّ ما أنبت الله فى الأرض فهو نبت ، والنّبات فعله ، ويجرى مجرى اسمه . . قال الفرّاء : إنّ النّبات اسمٌ يقوم مقام المصدر»[4] .

ونحن نودّ أن نتبيّن الحكمة من العدول عن مصدر فعلٍ إلى مصدر فعلٍ آخر ، وهذا المصدر المعدول إليه يجرى مجرى الاسم . وفى الإمكان أن يقال هنا شىءٌ قريبٌ من القول السّابق وهو أنّ العدول عن مصدرٍ إلى مصدرٍ آخر يجرى مجرى الاسم يفيد استواء النّبتة كاملةً على ساقها فهى بذلك تملأ كلّ عينٍ بهجة ، وكلّ نفسٍ سرورا . فإذا كان المصدر المعدول عنه يوحى بأخذ النّبتة فى مراحل النّموّ فإنّ المصدر الّذى يقوم مقام الاسم يتجاوز هذه المراحل إلى المرحلة الأخيرة الّتى اكتمل فيها نضج النّبتة وأوشكت أن تؤتى أكلها وتطرح ثمرها . إنّ مرحلة الكمال هى المرحلة المناسبة للبتول الّتى أنبتها ربّها جلّ وعلا نباتاً حسنا . ثمّ إنّها ليست أىّ نبتة وإن كانت كاملة ، ولكنّها النّبتة الكاملة النّماء التّامّة الحسن .

---

(١) البحر المحيط ٢/٤٤٤

(٢) لسان العرب «نبت»

(٣) لسان العرب «نبت»

(٤) لسان العرب «نبت»

ووراء ذلك نحن نتبيّن فى القول فى الآية الكريمة : «وأنبتها نباتاً حسناً» تلاؤماً صوتيّاً بأكثر من القول : وأنبتها إنباتا . وإنّ ظاهرة التّلاؤم الصّوتىّ هنا مغريةٌ لنا بالتّنبيه على وجودها فى القول السّابق : ﴿ فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسنٍ﴾ بأكثر من القول : فتقبّلها ربّها تقبّلاً حسناً أو بتقبّلٍ حسن . إنّ فى الجزئيّتين الكريمتين انسياباً صوتيّاً لطيفاً رقيقاً يتمشّى مع لطف البتول ورقّتها والأجواء النّاعمة اللّيّنة الّتى تعيش فيها وتتقلّب ، ترفل فيها وتنعم .

والنّبات الحسن الاستقامة على الطّاعة وإيثار رضا الله فى جميع الأوقات[1] .

إنّ مريم البتول الّتى تقبّلها ربّها بقَبُولٍ حسن وأنبتها نباتاً حسناً فكانت منذ نعومة أظفارها عظيمة الخلق قد كفلّها الله تعالى زكريّا عليه السّلام[2] أى جعله كافلاً لها[3] فقد أتت بها أمّها لأحبار سدنة بيت المقدس فقالت دونكم هذه النّذيرة فتنافسوا فيها لأنّها بنت إمامهم فقال زكريّا أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندى فقالوا لها حتّى نقترع فانطلقوا وهم تسعةٌ وعشرون إلى نهر الأردنّ وألقوا أقلامهم على أنّ من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها فثبت قلم زكريّا فأخذها وبنى لها غرفة فى المسجد بسلّم لا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودُهنها[4] قال ابن إسحاق : إنّ زكريّاء كان زوج خالتها لأنّه وعمران كانا سَلِفَيْن على أختين ، ولدت امرأة زكريّاء يحيى ، وولدت امرأة عمران مريم . وقال السّدّىّ وغيره : إنّ زكريّاء كان زوج ابنةٍ أخرى لعمران ، ويعضد هذا القول قول النّبىّ ﷺ فى يحيى وعيسى : ابنا الخالة[5] وإنّما قدّر الله كون

(١) البحر المحيط ٢/٤٤١

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/١٦٢

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٦٠

(٤) الجلالين

(٥) تفسير ابن عطيّة ٣/٩٠ وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٦٠ وتفسير الطّبرىّ ٣/١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

زكريّا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علماً جمّاً نافعاً وعملاً صالحاً[1]

وإنّ زكريّا عليه السّلام الكافل للبتول الحريص على كلّ ما فيه صلاحها دينيّاً ودنيويّاً ، كلّ مرّةٍ يدخل على البتول المحراب يجد عندها رزقاً . وقد أجمع المفسّرون تقريباً على الرّمز لذلك الرّزق بأنّه فاكهة الشّتاء فى الصّيف وفاكهة الصّيف فى الشّتاء[2] .

ولّما كانت كلّما تقتضى التّكرار فذلك دليلٌ على فرط اهتمام زكريّا عليه السّلام بالبتول ورعايته مصلحتها وتفقّده شئونها . وهذا زكريّا عليه السّلام الّذى يتعهّد البتول كثيراً أين يجدها ؟ يجدها فى المحراب وهو مكان الإمام فى المسجد ، فالمحراب مقدّم كلّ مجلسٍ ومصلًّى وهو سيّد المجالس وأشرفها وأكرمها وكذلك هو من المساجد[3] وهكذا تجمع البتول بين العبادة عملاً فهى المنقطعة لعبادة الله تعالى ، واسماً لأنّ معنى البتول العابدة . وانظر إلى انسياب العبارة القرآنيّة : «كلّما دَخَلَ عليها زكريّا المحراب» إنّ الجارّ والمجرور العائدين إلى البتول وهما فضلةٌ فى الجملة يتقدّمان الفاعل والمفعول لأنّ البتول المحور الّذى تدور حوله الأحداث فهى الّتى تُقْصد ، وهى الّتى يراعى ما يهمّها ، وهى الّتى يُخْتار الزّمان والمكان المناسبان فى حقّها . ويأتّى إثر الجارّ والمجرور الفاعل زكريّا عليه السّلام فى المكان الّذى لا يناسبه سواه فى العبارة معنىً وصوتاً . أمّا المعنى فقد عرفنا . أمّا الصّوت فلو تقدّم زكريّا أو تأخّر ما تحقّق للعبارة التلاؤم الصّوتّى . ويأتى أخيراً المفعول به «المحراب» وإنّ لفظ المحراب يحدّد المكان الّذى يلتقى فيه زكريّا عليه السّلام بالبتول المنقطعة لعبادة الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٠

(٢) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ١/٣٦٠ والكشّاف ١/٣٢١ وتفسير ابن عطيّة ٣/٩٤ والبحر المحيط ٢/٤٤٢ والجلالين

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/١٦٦

وإنّ ما قيل عن الجارّ والمجرور «عليها» يقال عن ظرف المكان المتّصل به الضّمير العائد على البتول في القول : «وجد عندها رزقا» إنّ العنديّة المتقدّمة فى السّياق توقظ فى النّفس الاهتمام للشّىء الموجود . فكيف إذا كان هذا الموجود رزقاً يجهل زكريّا عليه السّلام مصدره : «وفى قوله رزقاً أتى به منكّراً مشيراً إلى أنّه ليس من جنسٍ واحدٍ بل من أجناسٍ كثيرة لأنّ النّكرة تقتضى الشّيوع والكثرة»[1] وإنّ وجود زكريّا عليه السّلام الرّزق عند البتول بعدد مرات دخوله عليها فى المحراب ونستطيع أن نفهم أن لتنوع الرزق نصيباً من عدد مرات وجوده ، وقد عرفنا أنّ المفسّرين رمزوا له بفاكهة الشّتاء والصّيف .

وفى كلّ مرّة يجد زكريّا عليه السّلام عند البتول رزقاً يسألها عن مصدره وتجيب على نفس السّؤال بنفس الجواب دليلاً على أنّ الكرامات موصولةٌ فى حقّ البتول . قال تعالى : ﴿ **كلّما دَخَلَ عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يامريم أَنَّى لَكِ هذا قالت هو من عند الله ، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

وبعدد مرّات وجود الرّزق عند البتول يكون السّؤال من زكريّا عليه السّلام : «يامريم أنّى لك هذا» ولعلّنا تبيّنّا لطف التّوطئة للسّؤال فى نداء البتول باسمها ذى المسمّى «يامريم» دليلاً على المحبّة والإجلال لها . وينبغى أن يكون كلّ ذلك قد تجلّى فى الطّريقة الّتى ينادى بها زكريّا عليه السّلام البتول ، وبذلك يتعاون ذكر الاسم مع الطّريقة اللّطيفة فى تأكيد المودّة والاحترام . ويسأل زكريّا عليه السّلام مريم عن مصدر الرّزق : «أنّى لك هذا» ؟ والمعنى : من أين لك هذا؟[2] ومن أىّ جهةٍ لك هذا الرّزق[3] وينبغى

---

(١) البحر المحيط ٤٤٤/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٠/١ والكشّاف ٣٢١/١ وتفسير ابن عطيّة ٩٤/٣

(٣) البحر المحيط ٤٤٣/٢ وتفسير القرطبىّ ١٣١٤

أن يكون اسم الإشارة هذا يراد به الرّزق الّذى يسأل عنه ، وهو رزقٌ متجدّد .

وتجيب البتول كما جاء فى الآية الكريمة : «قالت هو من عند الله» . ويلاحظ أنّها لا تستعمل اسم الإشارة «هذا» الّذى استعمله زكريّا عليه السّلام إنّما تستعمل اسم الضّمير «هو» الّذى يشمل الرّزق الّذى يسأل عنه زكريّا عليه السّلام تلك المرّة ، كما يشمل الرّزق الّذى يسأل عنه كلّ مرّة . لا ليس ذلك فحسب بل إنّ اسم الضّمير يشمل الرّزق الّذى لم يسأل عنه زكريا عليه السّلام بل الرّزق الّذى لا علم له به .

وانظر إلى لفظ الجلالة «الله» الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن العموم ، وكأنّ البتول تريد أن تقول إنّ هذا النّوع من الكرامة يصحّ أن يشمل الله تعالى به كلّ عبدٍ من عباده جلّ وعلا الصّادقين فى الإيمان المخلصين فى العبادة المتّقين . وكأنّ لسان حالها يستحثّ عباد الله تعالى على سرعة الإقبال على الله تعالى الشّكور الحليم الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويثيب على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . وإنّ هذا الّذى يعتبر لسان حال القول : «هو من عند الله» تصرّح به الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية : «إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب» .

إنّنا بصدد لفظ الجلالة : «الله» المنبّه كلّ العباد إلى وجوب الإقبال عليه جل وعلا وسؤاله من فضله . إنّ الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء ، يستوى فى ذلك مريم البتول وغير مريم البتول ، بغير حساب . لقد نالت البتول فى محرابها من هذا الرّزق الخير الوفير الّذى تفضّل الله تعالى به عليها من خزائنه جلّ وعلا الّتى لا تنفد . وإنّ واجب عباد الله تعالى أن يقبلوا على الله تعالى وأن يخلصوا له العبادة وأن يسألوه من فضله ومن خزائنه التى لا تنفد فانه جل وعلا يرزق من يشاء رزقه بغير حساب ، بغير إحصاءٍ ولا عدّ ولا انقطاع . سبحانه ما أكبر جوده وما أعظم فضله .

وإنّ زكريّا عليه السّلام النبىّ المجتبى يستحوذ عليه هذا الفضل العظيم من الله تعالى على البتول المنقطعة للعبادة فى هيئة الرّزق الحسن المتتابع ، ويوقظ فى نفسه رغبةً كامنةً فى الذّرّيّة من صلبه كى تقوم على شئون الدّين بعد وفاته ، فيتّجه إلى الله تعالى أن يهبه من فضله كما وهب البتول ، فإذاكانت البتول قد آتاها الله تعالى رزقها رغداً دون عناء ، فإنّ زكريّا عليه السّلام الّذى بلغ من الكبر عتيّا والّذى كانت زوجته عاقرا ، يسأل الله تعالى أن يهبه الولد الصّالح من صلبه . أليس رزق البتول قد جاءها من حيث لا تحتسب بإرادة الله تعالى إذن يصحّ بإرادة الله تعالى أن يُرْزَق الولد من صلبه رغم عدم استعداده واستعداد زوجه لذلك ، ولكنّ فضل الله تعالى ليس له حدود وهو القادر على كلّ شىء فليسأل الله تعالى من فضله وكان ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٣٨)

قال تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لى من لدنك ذرّيّةً طيّبة . إنّك سميع الدّعاء** ﴾ .

من المعروف أنّ هناك فى كلام العرب إشارة إلى مكانٍ فيه بُعْدٌ أو زمان ، وهنالك ، باللّام ، أبلغ فى الدّلالة على البعد(١) وأنّ أصل هنالك أن يكون إشارة للمكان وقد يستعمل للزّمان(٢) وأنّ معنى هنالك فى الآية الكريمة عند ذلك(٣) فإلام يشير فى الآية القول : «هنالك دعا زكريّا ربّه» يشير هنالك إلى بعد تلك العجيبة وسموّ تلك المعجزة بأن يجد زكريّا عند البتول ذلك الرّزق الوفير دون بذل أىّ مجهودٍ من قبلها ولكنّه الفضل التّامّ من الله تعالى ،

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٩٥/٣

(٢) البحر المحيط ٤٤٤/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٦٧/٣ و١٦٨ وتفسير القرطبىّ ١٣١٤

وكأنّ هذا الأمر الخارق للعادة حمل زكريّا بعيداً وطوّح به إلى أمنيّته القديمة زمناً بأن يكون له ولدٌ من صلبه يرث عنه الدّين ويقوم على شئون الملّة بعد أن خاف الموالى على هذا الدّين . ولّما كان الأمر المستحيل فى عرف البشر قد تحقّق بإرادة الله تعالى للبتول ، فضلاً من الله ونعمةً وكرامةً للبتول المرأة الصّالحة التّقيّة النّقيّة ، فإنّ فى ذلك التّحقّق إغراءً لزكريّا عليه السّلام وهو المصطفى المختار أن يطلب هو الآخر من الله تعالى الّذى لا يعُجِزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء أمراً مستحيلاً فى عرف البشر وهو أن يهبه الله تعالى فضلاً منه ونعمة ، الولد من صلبه وهو الشّيخ الفانى الّذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً ، ومن زوجته العاقر أصلاً وغير المهيّئة للإنجاب أساساً وقبل أن تبلغ سنّ اليأس فكيف بها الآن وقد بلغت ثمانياً وتسعين سنةً وكيف به هووقد بلغ مائةً وعشرين سنةً فيما يقال[1] .

هنالك دعا زكريّا عليه السّلام ربّه جلّ وعلا مربّيه بنعمه وآلائه بأن يهب له فضلاً منه جلّ وعلا ونعمة ومن صلبه ذرّيّةً طيّبةً مباركة فى هيئة الولد الذّكر الصّالح الّذى يحمل عنه أمانة القيام على شئون الدّين والامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه ، وهى الأمانة الّتى عرضت على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . إنّ الله سبحانه وتعالى سميع الدّعاء ، هكذا فى صيغة المبالغة فعيل ، فالله سبحانه وتعالى يسمع كلّ نجوى ويعلم السّرّ وأخفى .

إنّ كلًّا من زكريّا عليه السّلام وزوجه غير صالحين للإنجاب أصلاً ، وحينما يدعو زكريا عليه السّلام ربّه أن يهب له جلّ وعلا من لدنه ، ويلاحظ أنّ لدن بمعنى عند ولكنّ لدن لما قرب وعند لما قرب وما بعد[2] فذلك دليلٌ

(١) الجلالين وانظر تفسير القرطبىّ ١٣٢١

(٢) البحر المحيط ٤٤٥/٢

على فرط ثقة زكريّا عليه السّلام في بارئه جلّ وعلا القادر على كلّ شيء والّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ، ودليلٌ على المعنى العميق للهبة : «لأنّ الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شيءٌ يكون عوضاً للواهب ، ولّما كان ذلك يكاد يكون على سبيل ما لا تسبّب فيه لا من الولد لكبر سنّه ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد فكان وجوده كالوجود بغير سبب أتى هبةً محضةً منسوبةً إلى الله تعالى بقوله من لدنك أى من جهة محض قدرتك من غير توسّط سبب»[1] وقد أشارت كلٌّ من سورة الأنبياء وسورة مريم إلى أبعاد هذه المسألة . جاء فى سورة مريم[2] قوله تعالى : ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا . إذ نادى ربّه نداءً خفيّا . قال ربّ إنّى وهن العظم منّى واشتعل الرّأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا . وإنّى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليّا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّا . يازكريّا إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا . قال ربّ أنّى يكون لى غلامٌ وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عِتيّا . قال كذلك قال ربّك هو علىّ هيّنٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاث ليالٍ سويّا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرةً وعشيّا ﴾ وجاء فى سورة الأنبياء[3] قوله تعالى : ﴿ وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبناله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه . إنّهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

لقد استجاب الله تعالى دعاء زكريّا عليه السّلام وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

---

(١) البحر المحيط ٢/٤٤٤

(٢) الآيات ١ - ١١

(٣) الآية ٨٩ ، ٩٠

الآية رقم (٣٩)

قال تعالى : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحَصوراً ونبيّاً من الصّالحين** ﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ الكلام على الحذف وكأنّ المعنى فاستجاب الله تعالى دعاء زكريّا عليه السّلام وأمر الملائكة فنادته . وإنّ النّداء يمثل مرحلةً من أرفع مراحل الإفادة والتّبليغ فليس ثمّة الإيحاء أو القول وما إليهما إنّما هنالك النّداء الّذى يعنى رفع الصّوت من ناحية والبعد الضّرورىّ بين المنادِى والمنادَى من ناحيةٍ أخرى . ونستطيع أن نفهم أنّ دعاء زكريّا ربّه جلّ وعلا أن يهبه الذّرّيّة الطّيّبة حدث كرّاتٍ ومرّات ، ولكنّ الّذى كان يحصل دائماً وباستمرار هو عبادة زكريّا عليه السّلام ربّه جلّ وعلا وإقباله على بارئه عزّ وجلّ . والدّليل على ذلك أنّ زكريّا عليه السّلام حينما نادته الملائكة كان قائماً يصلّى فى المحراب . وإنّ الصّلاة فى المحراب صفةٌ مشتركة بين زكريّا عليه السّلام والبتول . وانظر إلى الهيئة فى الصّلاة الّتى كان زكريّا عليه السّلام عليها فى المحراب . إنّها صفة القيام . وهذه الصّفة تذكّرنا بمثل قوله تعالى[1] : ﴿ **فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا** ﴾ وإنّ أكمل الأحوال الّتى كان عليها زكريّا عليه السّلام فى صلاته تعنى الإخلاص فى العبادة وفى الدّعاء ومن ذلك دعاء الله تعالى أن يهبه الذّرّيّة الطّيّبة المباركة من صلبه . ولا يملك زكريّا عليه السّلام النّبىّ المصطفى المختار سوى الإخلاص فى العبادة وفى الدّعاء ويستجيب دعاءه الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويأمر جلّ وعلا الملائكة أن تناديه ، ويصحّ أن تكون الملائكة جمعاً وفى ذلك من شدّة الوقع على زكريّا عليه السّلام ما فيه ،

---

(١) سورة النّساء ١٠٣

ويصحّ أن يكون المراد بالملائكة جبريل عليه السّلام ، ولا تكاد شدّة الوقع تقلّ عن السّابق ، وفى كلتا الحالين تمتزج البهجة بالرّهبة فقد استجاب الله دعاءه وها هى ذى الملائكة تناديه ، وفى هذا النّداء من البشارة ما فيه ، فكيف إذا كان ثمّة نصٌّ على البشارة ، وكيف إذا كان كلّ حبّةٍ من عقد النّعوت والملابسات بشارة تضاف إلى أخواتها وتنضمّ إلى لداتها فمع كلّ فريدة على حدة وكلّ يتيمةٍ منفردة .

إنّ زكريّا عليه السّلام الّذى كان يقف فى المحراب وهو موقف الإمام من المسجد وموضعه وهو قول جمهور المفسّرين[1] تناديه الملائكة أنّ الله يبشره بيحيى عليه السّلام . وأوّل ما يلفت النّظر هو استعمال الملائكة لفظ الجلالة «الله» فى القول : «أنّ الله يُبشّرك» والمعروف أنّ لفظ الجلالة «الله» يرتبط بالعموم وفى ذلك تنبيهٌ إلى أنّ ما تبشّر به الملائكة زكريّا عليه السّلام مسألةٌ عامّة يعود على عباد الله تعالى خيرها لأنّها متعلّقةٌ بدين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به جميع رسله لأنّ يحيى عليه السّلام سيقوم على شئون هذا الدّين على الوجه الّذى يتمنّاه زكريّا عليه السّلام ، وهل كان دعاء زكريّا عليه السّلام ربّه أن يهبه الذّرّيّة الصّالحة إلاّ خوفاً على هذا الدّين ألاّ يقوم أقرباء زكريّا عليه السّلام بعد موته على شئونه كما ينبغى مستدلاًّ على ذلك بانصراف أولئك إلى شئون الدّنيا وليس إلى شئون الدّين . إنّ نعمة البشارة بيحيى عليه السّلام وإن كانت فى ظاهرها خاصّة بزكريّا عليه السّلام فإنّها فى حقيقتها عامّة ، وإنّ لفظ الجلالة «الله» هو الذى نبّه على هذا العموم وأكّده .

وانظر إلى جملة «يبشّرك» ذات العلاقة بالظّهور مع الحسن والجمال . فالبشرة ظاهر جلد الإنسان ، وسمّى البشر بَشَراً لظهورهم ، والبشير الحسن الوجه ، والبشارة بفتح الباء الجمال ، والبشارة بكسر الباء فى الخير يقال :

---

(١) البحر المحيط ٤٤٦/٢ وتفسير ابن عطيّة ٩٨/٣

بشّرت فلاناً أبشّره تبشيراً ، وذلك يكون بالخير ، وربّما حُمِل عليه غيره من الشّرّ ، وكأنّ ذلك جنسٌ من التّبكيت[1] ومعنى : «أنّ الله يبشّرك بيحيى» أنّ هذا الخبر الحسن الصّادق والبشارة الجميلة ممّا تبتهج له نفسك فتستجيب له بشرتك وتتجاوب مع الدّم المتدفّق بسبب السّرور الّذى هجم عليك فتشرق له أسارير وجهك لأنّ ذلك الجزء من البشرة هو الّذى تقع عليه عين النّاظر ولأنّ للوجه الحظّ الموفور من الحواس منافذ الإنسان على العالم الخارجىّ .

وما أقرب المبشَّرَ به من البشارة فلا يفصل بين ذكر اسم المبشّر به وبين جملة يبشّر سوى اسم الضّمير الّذى يخاطب به زكريّا عليه السّلام وباء الجرّ بين يدى يحيى عليه السّلام .

وأوّل ما يلفت الانتباه هو أنّ ربّ العزّة يخلع على هذا المولود قبل أن يولد اسماً هو من مستلزمات البشارة ومتمّماتها إذ يفهم من اسم «يحيى» أنّه ولدٌ ذكر وأنّه بإرادة الله تعالى سوف تكتب له الحياة وإلاّ فما قيمة مجىء الولد الذّكر من الصّلب إذا لم يكتب الله تعالى له الحياة . قال أبو عليّ : وهو اسمٌ بالعبرانيّة صادف هذا البناء والمعنى من العربيّة[2] قال قتادة وغيره : إنّما سمّى يحيى لأنّ الله أحياه بالإيمان[3] .

إنّ البشارة تعنى استجابة الله تعالى للدّعاء وإنّ كلّ ما تلا ذلك من متمّمات البشارة فيحيى ولدٌ ذكرٌ من صلب زكريّا عليه السّلام الّذى بلغ من الكبر عتيّاً ومن امرأته العاقر وهو سيكتب الله تعالى له الحياة بالبقاء وبالإيمان ثمّ إنّه سيكون مصدّقا بكلمةٍ من الله تعالى.والجمهور على أنّ الكلمة هو عيسى عليه السّلام قاله ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة والسّدّى وغيرهم .

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة «بشر» ٢٥١/١

(٢) تفسير ابن عطيّة ١٠٠/٣

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦١/١ وتفسير الطّبرىّ ١٧١/٣

قال الرّبيع وغيره كان يحيى أوّل من صدّق بعيسى وشهد أنّه كلمةٌ من الله . وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر قاله الأكثرون[1] وسمّى عيسى كلمة لأنّه كان بكلمة الله تعالى الّتى هى «كن» فكان من غير أب[2] . وإنّ التّصديق بكلمةٍ من الله تعالى ذو علاقةٍ بالإيمان ، وكأنّ أوّل نعوت يحيى عليه السّلام بعد البشارة بميلاده وبحياته ذو علاقةٍ بأهمّ النّعوت وهو عبادة الله تعالى ، الغاية الّتى خلقنا الله تعالى من أجلها .

ووراء ذلك فيحيى عليه السّلام سيكون سيّداً فى قومه . وهذه الصّفة ذات علاقةٍ بوجاهته وبمكانته الرّفيعة فى قومه ومنزلته العالية فالسّيّد هو الّذى يسود قومه أى يفوقهم فى الشّرف[3] وينتهى إلى قوله[4] ويكون ذلك بسبب العبادة والتّقوى والورع والعلم والحلم والفقه والشّرف والكرامة على الله تعالى[5] .

وممّا له علاقةٌ بإقباله الكلّىّ على الله تعالى وانصرافه عن الدّنيا ومتاعها الزّائل أنّه عليه الصّلاة والسّلام كان حصورا ، بمعنى أنّه كان يكفّ عن النّساء ولا يقربهنّ مع القدرة . وقد روى ذلك عن ابن مسعود وابن عبّاس وابن جبير وقتادة وعطاء وأبى الشّعثاء والحسن والسّدّى وابن زيد[6] وحينما تكون الآية الكريمة الرّابعة عشرة من هذه السّورة الكريمة قال تعالى : ﴿ **زُيِّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسن**

---

(١) البحر المحيط ٢/٤٤٧
(٢) تفسير القرطبىّ ١٣١٨ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٠٠
(٣) الكشّاف ١/٣٢٢
(٤) تفسير القرطبىّ ١٣١٨
(٥) انظر هنا تفسير ابن كثير ١/٣٦١ وتفسير الطّبرىّ ٣/١٧٣ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٠١
(٦) تفسير القرطبىّ ١٣٢٠

المآب ﴾ قد قدّمت فى ترتيب الشّهوات النّساء لشدّة ميل الرّجال إليهنّ بالفطرة بأكثر من الشّهوات الأخرى فإنّ فى ذلك الدّليل على أنّ انصراف يحيى عليه السّلام عن النّساء مع القدرة يعنى الانصراف عمّا يقلّ عن النّساء فى مجال ترتيب الشّهوات الّتى زينّها الله تعالى لنا . ولعلّ الانصراف عن النّساء آنذاك كان شرعه عليه السّلام[1] وإنّ الانصراف عن الدّنيا يعنى الإقبال على الدّين وعلى الآخرة .

وإذا كانت النّعوت السّابقة يصحّ أن يكون له عليه الصّلاة والسّلام بعونٍ من الله تعالى وتوفيق دورٌ فيها فإنّ آخر النّعوت وهو النّبوّة محض فضلٍ من الله تعالى . قال عزّ من قائل : ﴿ **مصدّقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين** ﴾ .

إنّ درجتى النّبوّة والرّسالة أعلى مظاهر فضل الله تعالى على عبدٍ من عباده وهما فضل الله تعالى يصطفى به من يشاء من عباده . والمعروف أنّ درجة النّبوّة هى الطّريق الوحيد المؤدّى إلى درجة الرّسالة الأعلى . والملاحظ أنّ الآية الكريمة نصّت على أنّ يحيى عليه السّلام نبىٌّ من الصّالحين . والمعروف أنّ صفة الصّلاح واسعة المدى بحيث إنّها تلازم كلّ المنعم عليهم ابتداءً بالصّالحين وانتهاءً بالنّبيّين والمرسلين . وقد جمعت هذه الآية الكريمة من سورة النّساء[2] بين فئات المنعم عليهم . قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ وقد جاء عن يوسف عليه السّلام قوله تعالى[3] : ﴿ **رَبّ قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطِرَ**

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٣٢٠

(٢) الآية ٦٩

(٣) سورة يوسف ١٠١

السّماوات والأرض أنت وليّى فى الدّنيا والآخرة توفّنى مسلماً وألحقنى بالصّالحين ﴾ وجاء عن سليمان عليه السّلام قوله تعالى [1] : ﴿ فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت عليّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصّالحين ﴾ .

ولّما كان زكريّا عليه السّلام على علم تامّ بأنّ العادة ما جرت أن ينجب من كان مثله ومثل زوجته فقد كان متشوّقاً لمعرفة الكيفيّة الّتى سيتمّ بها الإنجاب مظهراً من مظاهر قدرة الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٤٠)

قال تعالى : ﴿ **قال ربّ أنّى يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء** ﴾ .

ويلاحظ أنّ لفظ الرّبّ هو الّذى يجرى على لسان زكريّا عليه السّلام لأنّ الحال خاصٌّ به وهو الفقير إلى فضل أرحم الرّاحمين . إنّه عليه السّلام ينادى ربّه جلّ وعلا سائلاً كيف ومن أين يكون لى غلام . وينبغى أن يكون للقول : «لى» كبير دورٍ فى السّياق لأنّه يعبّر عمّا سأله ربّه جلّ وعلا وعمّا فهمه من الملائكة بأنّ الذّرّيّة ستكون من صلبه . وإنّ ممّا يؤكّد هذه المعانى مجىء لفظ الغلام وليس الولد مثلاً أو الابن . وتفسير ذلك أنّ الغين واللّام والميم أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حداثةٍ وهيج شهوة . من ذلك الغُلام وهو الّذى طَرَّ شاربه أى طلع وظهر . ومن بابه : اغتلم الفحل غُلْمةً : هاج من شهوة

---

(١) سورة النّمل ١٩

الضّراب[1] وكأنّ زكريّا عليه السّلام يريد بذكر الغلام تأكيد دعائه وفهمه من الملائكة بأنّ الغلام ستكتب له الحياة بإرادة الله تعالى حتّى يغدو فى حكم الرّجال ، والمعروف أنّ سورة مريم بيّنت أنّ يحيى عليه السّلام قد آتاه الله تعالى الحكم بمعنى الحكمة حينما كان صبيّاً وأنه بارٌّ بوالديه ، وهذه بشارة أخرى بأنّ يحيى عليه السلام حينما يكون فى سنّ التكليف سيكون باراً بوالديْه اللّذين سيكونان معاً على قيد الحياة كى يكون شكرهما لله تعالى على نعمه وآلائه عليهما أكبر . إنّ كلّ هذه الملابسات قوّةٌ لمجىء لفظ الغلام بالذّات . قال تعالى[2] : ﴿ **يايحيى خذ الكتاب بقوّةٍ وآتيناه الحكم صبيّاً . وحنانا من لدنّا وزكاةً وكان تقيّا . وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصيّا . وسلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا** ﴾ .

وانظر إلى الطّريقة الّتى يعبّر فيها زكريّا عليه السّلام عن تقدّم السّنّ به وكأنّ فى ذلك تبريراً لاستبعاده من جهة العادة أن يلد من كان فى مثل سنّه وتعبيراً عن يقينه المطلق فى قدرة الفعّال لما يريد جلّ وعلا : «وقد بلغنى الكبر» إنّ قد تفيد التّحقيق . وإنّ تقديم المفعول وتأخير الفاعل ممّا يبرز الاستعارة فى صورة أوضح ويظهر مطاردة الكبر لزكريّا عليه السّلام فى حالةٍ أسرع حتّى كان من الكبر بلوغ زكريّا عليه السّلام والوصول إليه فعلاً والتّمكّن منه والاستحواذ عليه . وكأنّ هذه المطاردة تعكس الرّغبة لدى كلّ نفسٍ فى الفرار من الكبر أو فى تأجيله . وأنّى لأحدٍ شىءٌ من ذلك . وإنّ زكريّا عليه السّلام يعترف بهذا المصير ويستسلم لهذه الحقيقة . وما كان ليهتمّ بشىءٍ من ذلك لولا خوفه على الدّين ألاّ يوجد بعد وفاته من يرعى شئونه . وليس حال زكريّا عليه السّلام وحده هو المبرّر لأن يستبعد من جهة العادة الإنجاب إنّما

---

(١) معجم مقاييس اللّغة «غلم» ٣٨٧/٤ وانظر المخصّص لابن سيده ٣٦/١ ، ٣٧
(٢) سورة مريم ١٢ ـ ١٥

تشاركه فى هذه الحال زوجه الّتى كانت عاقراً بسبب تقدّمها فى السّنّ من ناحية ولأنّها عقيمٌ أصلاً من ناحيةٍ أخرى .

وردّاً على استفهام زكريّا عليه السّلام قال المَلَك[1] «كذلك الله يفعل ما يشاء» الكاف للتّشبيه وذلك إشارةٌ إلى الفعل أى مثل ذلك الفعل وهو تكوّن الولد بين الفانى والعاقر يفعل الله ما يشاء من الأفعال الغريبة[2] وفى كلّ ذلك زيادة اطمئنان لزكريّا عليه السّلام بأنّ دعوته قد استُجيبت وهو يريد استعجال البشارة الّتى تحتاج لعلامة وبالتّالى هو يريدُ هذه العلامة ويستعجلها وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٤١)

قال تعالى : ﴿ **قال ربّ اجعل لى آية . قال آيتك ألّا تكلّم النّاس ثلاثة أيّام إلّا رمزا واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشىّ والإبكار** ﴾ .

ومازلنا مع لفظ الرّبّ الدّالّ على الخصوص العابق بشذا الرّضا والامتنان . ويسأل زكريّا عليه السلام ربّه جلّ وعلا أن يجعل له آية وعلامة[3] يستدلّ بها على حمل زوجه بيحيى عليه السّلام . ويجىء الجواب على لسان الملك بأنّ العلامة الّتى أرادها زكريّا عليه السّلام دليلاً على حمل زوجه العاقر بيحيى عليه السّلام تتجلّى فى عدم قدرته على الكلام بخلاف ذكر الله تعالى إلّا رمزاً ، إيماءً وإشارةً بالشّفتين أو الحاجبين أو العينين أو الرّأس أو اليد[4] ثلاثة أيّام بلياليهنّ . إنّ زكريّا عليه السّلام ينعقد لسانه فلا يستطيع أن يكلّم النّاس هذه الأيّام الثّلاثة . أمّا ذكر الله تعالى وتسبيحه جلّ وعلا فإنّ زكريّا عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١

(٢) البحر المحيط ٣٥٠/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١ وتفسير الطّبرىّ ١٧٦/٣ والكشّاف ٣٢٢/١ وتفسير ابن عطيّة ١٠٧/٣

(٤) انظر هنا تفسير ابن كثير ٣٦٢/١ وتفسير الطّبرىّ ١٧٧/٣ والكشّاف ٣٢٢/١ وتفسير ابن عطيّة ١٠٩/٣

السّلام قادرٌ على كلّ ذلك بل إنّه مأمورٌ خلال هذه الأيّام الثّلاثة أن يكثر من ذكر الله تعالى وقول لا إلهٰ إلاّ الله ومن التسبيح وقول سبحان الله تعالى وأن يملأ بذلك كلّ الأوقات الّتى رُمِز لها بالعشىّ وهو فى اللّغة من حين تزول الشّمس إلى أن تغيب[1] وبالإبكار وهو فى اللّغة من بين مطلع الفجر إلى وقت الضّحى[2] وحينما نتبيّن أنّ ذكر الله تعالى وحده لا شريك له هو العبادة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم حدّاً لها ونهاية لسهولة الذّكر فى كلّ الأحوال على نحو ما يفهم من مثل قوله تعالى[3] : ﴿ **يأأيها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبّحوه بكرةً وأصيلا** ﴾ ومن مثل قوله تعالى[4] : ﴿ **فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا** ﴾ حينما نتبيّن ذلك نستطيع أن نتّخذ من عدم قدرة زكريّا عليه السّلام على كلام النّاس وقدرته على ذكر الله تعالى وتسبيحه جلّ وعلا وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به تعالى بل أمره بذلك ، نستطيع أن نتّخذ من هذا دليلاً على أهمّيّة الذّكر وكون الشّارع الحكيم لم يضع حدّاً لنهايته لسهولته فى كلّ الأحوال .

***

---

(١) تفسير هنا الطّبرىّ ١٧٩/٣ وتفسير ابن عطيّة ١١٠/٣

(٢) تفسير الطّبرىّ ١٧٩/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٤

(٣) سورة الأحزاب ٤١ ، ٤٢

(٤) سورة النّساء ١٠٣

(٦)
مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام عبدالله وكلمته
الآيات (٤٢ ـ ٦٣)

۞ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ
ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ
فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ
أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

* * *

إنّ مريم البتول الّتى تقبّلها ربّها بقبولٍ حسن وأنبتها إنباتاً حسناً وجعل رزقه جلّ وعلا لها بغير حساب كرامةً لها تقول لها الملائكة شفاهاً بعد ندائها باسمها تطميناً لها ورفعاً لذكّرها : إنّ الله سبحانه وتعالى قد اصطفاها بسبب إخلاصها فى العبادة وطهّرها من كلّ شائبة واصطفاها من بين نساء العالمين أمّاً لكلمته جلّ وعلا عيسى ابن مريم عليه السّلام عبدالله ورسوله . وتمشّياً مع الاصطفاء الأوّل لأجل العبادة تأمر الملائكة مريم بعد ندائها باسمها بأن تقنت لله تعالى وتخشع فى العبادة وأن تسجد لله تعالى وتركع مع الرّاكعين . وتمشّياً مع تطهير الله تعالى لها يهيّىء الله تعالى لها البيئة الصّالحة فيفوز زكريّا عليه السّلام زوج خالتها أو أختها بكفالتها بعد الاقتراع ومغالبة قلم زكريّا عليه السّلام جريان ماء نهر الأردنّ الّذى ذهب بأقلام المقترعين الآخرين . وتمشّياً مع الاصطفاء الآخر تبشّر الملائكة مريم البتول بكلمةٍ منه جلّ وعلا اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدّنيا وفى الآخرة ومن المقرّبين من الله تعالى يوم القيامة . ويكلّم عيسى عليه السّلام النّاس فى المهد تبرئةً لوالدته البتول طاهرة الذّيل العفيفة كما يكلّم النّاس كهلاً وقد أرسله الله تعالى وبعثه بالحقّ نبيّاً . ولّما كانت البتول الّتى بلغت مبلغ النّساء تعرف الطّريق الوحيد الّذى ينجب بسببه النّساء وهو الاتّصال بالرّجال بينما هى لم يمسسها بشر فإنّها تريد أن تعرف الكيفيّة الّتى يكون من جهتها الولد . ويلاحظ أنّ البتول تستعمل لفظ ولد الّذى لا يدلّ على أكثر من علاقة النّسب لأنّ الّذى تهتمّ له هو كيفيّة مجىء هذا الولد . ويكون الجواب مشيراً إلى قدرة الله تعالى المطلقة على خلق ما يشاء بقول «كن» ويستمرّ السّياق فى ذكر نعوت عيسى

عليه السّلام ومعجزاته وحقيقة رسالته . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلّم عيسى عليه السّلام الكتابة والتوراة والإنجيل ويجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل . ويتحوّل الحديث على لسان عيسى عليه السّلام الّذى بُعِثَ فعلاً وها هوذا يذكر المعجزات الّتى أكرمه الله تعالى بها والّتى يعجز عن أصغرها أمهر الأطباء فى عصره الّذى كان عصر المهارة فى الطّبّ . إنّه عليه السّلام يخلق من الطّين كهيئة الطّير فيكون طيراً بإذن الله تعالى ويبرىء من وُلِدَ أعمى ممسوح العينين ويبرىء الأبرص ويحيى الموتى بإذن الله تعالى ويخبر بنى إسرائيل بما يأكلون وما يخفون فى منازلهم وأماكنهم من طعام وغيره . كما أنّه عليه السّلام جاء بنى إسرائيل مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة وليحلّ لهم بعض الّذى حُرّم عليه فعليهم أن يتّقوا الله تعالى ويفردوه جلّ وعلا بالعبادة . وحينما أحسّ عيسىّ عليه السّلام بكفر بنى إسرائيل وسأل : «من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون . ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين» ومكر الكافرون بعيسى عليه السّلام إذ أرادوا قتله غيلة ومكر الله تعالى بهم وهو خير الماكرين إذ رُفِع عيسى عليه السّلام فى نومه إليه جل وعلا وطهّره من الذين كفروا وبشره بأنّه جاعل الذين اتّبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . والمعروف أن الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ ناسخٌ لكلّ دين فعلى أتباع عيسى وموسى عليهما السّلام اتّباع دين محمّد بن عبدالله ﷺ وعلى ذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى سيعذّب الكافرين بعيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام عذاباً شديداً فى الدّنيا والآخرة ، وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم أجرهم غير منقوص .

ويقرّر السّياق أنّ ما أوحى الله تعالى إلى المصطفى ﷺ هو الآيات البيّنات والذّكر الحكيم ، وأنّ شبه عيسى عند الله كشبه آدم . فكما لا يصحّ ادّعاء آدم عليه السّلام الّذى خلق من غير أبوين ابناً لله لا يصحّ ذلك الادّعاء

فى حقّ عيسى عليه السّلام ابن مريم الأقلّ غرابة . إنّ هذا هو الحق من الله تعالى الواحد الأحد العزيز الحكيم فإن أصرّ الغالون فى عيسى عليه السّلام على غلوّهم فباهِلْهُمْ واسأل الله تعالى أن يجعل لعنته على الكاذبين المفسدين المعرضين .

* * *

الآية رقم (٤٢)

قال تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

تبين من آيتى القسم السّابق الرّابعة والثّلاثين والخامسة والثّلاثين من السّورة الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ عليم إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّى نذرت لك ما فى بطنى محرّراً . ويصحّ أن تكون هذه الآية الكريمة الأولى معطوفة ويكون المعنى : إنّ الله سميعٌ عليمٌ إذ قالت امرأة عمران وإذ قالت الملائكة[١] ويصحّ أن يكون المقصود خطاب المصطفى ﷺ ويكون المعنى : واذكر إذ قالت الملائكة يامريم[٢] وقد رجّح ابن عطيّة هذا الرّأى الأخير يقول[٣] : «وقال كثيرٌ من النّحاة : العامل فى : إذ فى هذه الآية فعلٌ مضمر تقديره : «واذكر» وهذا هو الرّاجح لأنّ هذه الآيات كلّها إنّما هى إخبارات بغيبٍ تدلّ على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ،مقصد ذكرها هو الأظهر فى حفظٍ رونق الكلام» .

إنّ الملائكة ، وقد يراد جمعٌ من الملائكة وقد يراد جبريل عليه السّلام ومن معه من الملائكة لأنّه نقل أنّه لا ينزل لأمرٍ إلاّ ومعه جماعة من الملائكة[٤] تخاطب البتول شفاها وتناديها باسمها «يامريم» وفى ذلك تأنيسٌ لها وتوطئةٌ لما تلقيه عليها[٥] وتقول لها : إنّ الله اختارك[٦] واجتباك لطاعته وما

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ١٧٩/٣
(٢) انظر هنا الجلالين وتفسير ابن عطيّة ١١٢/٣
(٣) تفسير ابن عطيّة ١١٢/٣
(٤) انظر البحر المحيط ٤٥٥/٢
(٥) انظر البحر المحيط ٤٥٥/٢
(٦) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١

خصّك به من كرامته[1] ونستطيع أن نفهم أنّ هذا الاصطفاء ، وهو أوّل الاصطفاءين فى الآية الكريمة ، إنّما أكرمها الله تعالى به بسبب عبادتها لله تعالى وحده لا شريك له وإخلاصها وصدقها فى توجّهها إلى بارئها جلّ وعلا والإقبال عليه وابتغاء مرضاته . وكان ثمرة هذا الاصطفاء الأوّل أنّ الله سبحانه وتعالى قد طهّرها وصفّاها ونقّاها من أدنى شائبة ومن كلّ ما يصم النّساء فى خَلْقٍ أو خُلُقٍ أو دين ، قاله مجاهد وغيره[2] .

وقد أعقب هذا الاصطفاء الأوّل اصطفاءٌ أخير : «واصطفاك على نساء العالمين» ويلاحظ أنّ الاصطفاء الأول عامٌّ لأنّ العبادة عامّة يشترك فيها الجنسان وقد نجحت فيها البتول وتفوقّت بفضل الله تعالى وكان ثمرة ذلك اصطفاء الله تعالى لها وتخيّرها لطاعته جلّ وعلا[3] أمّا الاصطفاء الأخير فإنّه على نساء العالمين . ومن العلماء من نظر إلى لفظ العالمين من زاوية الخصوص ففهم أنّه يعنى نساء عالمى زمانها[4] : «يعنى اختارك على نساء العالمين فى زمانك لطاعتك إيّاه ففضّلك عليهم» ومن العلماء من نظر إلى لفظ العالمين من زاوية العموم ففهم أنّ مريم اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين قاطبةً بولادة عيسى ابن مريم عليه السّلام من غير أب[5] .

ونحن فى حقيقة الأمر أشدّ ميلاً إلى فهم لفظ العالمين بمعنى العموم لأنّ ولادة عيسى عليه السّلام من غير أب هو ما انفردت به البتول بين نساء العالمين . وإنّ الدّليل الّذى نستأنس به ذكر لفظ النّساء فى الآية الكريمة ،

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٧٩/٣

(٢) تفسير ابن عطيّة ١١٢/٣ والبحر المحيط ٤٥٥/٢

(٣) تفسير ابن عطيّة ١١٢/٣

(٤) الجلالين وتفسير الطّبرىّ ١٨٠/٣ ، ١٨١ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٤

(٥) انظر الكشّاف ٣٢٣/١ وتفسير ابن عطيّة ١١٣/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٤

وعليه فقد كرّر الاصطفاء لأنّ معنى الأوّل الاصطفاء لعبادته ومعنى الثّانى لولادة عيسى[١] .

وإنّ النّظرتين المختلفتين للاصطفاء تحقّقان ما انفردت به البتول بين نساء العالمين بولادة عيسى عليه السّلام من غير أب وما اشتركت فيه مع خير نساء العالمين . عن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد . أخرجاه فى الصّحيحين[٢] والمراد خير نساء أهل الجنّة[٣] وذهب قومٌ إلى أنّه يراد به الدّنيا[٤] وعن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد وآسية امرأة فرعون . تفرّد به التّرمذيّ وصحّحه . وعن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : خير نساء العالمين أربع ، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت رسول الله . وعن معاوية بن قرّة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء ، إلاّ ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد . وفضل عائشة على النّساء كفضل الثّريد على سائر الطّعام[٥] وعن أبى موسى الأشعريّ قال قال رسول الله ﷺ : كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلاّ مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمّد[٦] ولفظ البخاريّ : كمل من الرّجال كثير ولم يكمل من النّساء إلاّ آسية امرأة فرعون

---

(١) انظر الكشّاف ٣٢٣/١ والبحر المحيط ٤٥٥/٢ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨٠/٣

(٤) تفسير ابن عطيّة ١١٣/٣

(٥) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١

(٦) تفسير الطّبرىّ ١٨٠/٣ وانظر تخريج الحديث فى تفسير ابن كثير ٣٦٢/١

ومريم بنت عمران . وإنّ فضل عائشة على النّساء كفضل الثّريد على سائر الطّعام[1] .

أما وقد عرفنا أنّ الاصطفاء الأوّل بمعنى الاختيار بسبب إخلاص العبادة لله تعالى وأنّ الطّهارة بمعنى النّقاء من كلّ شائبة وأنّ الاصطفاء الأخير بمعنى انفراد البتول بين النّساء بولادة عيسى عليه السّلام من غير أب فإنّا نتبيّن أنّ حديث الآيات الكريمات بعد ذلك يتمشّى مع هذه المعانى الثّلاثة ونبدأ بالاصطفاء الأوّل بسبب العبادة فنتبيّن أنّ الآية الكريمة التّالية تعمّق معنى العبادة فإلى :

الآية رقم (٤٣)

قال تعالى : ﴿ **يامريم اقْنُتى لربّك واسجدى واركعى مع الرّاكعين** ﴾ .

تكرّر الملائكة نداءالبتول باسمها : «يامريم» وفى ذلك من التّأنيس والدّلالة على الجوّ الودّىّ ما فيه . وتأمر الملائكة البتول المنقطعة لعبادة الله تعالى والّتى وافق اسمها وَسْمَهَا بأن تقنت لله تعالى وتسجد وتركع مع الرّاكعين . أمّا القنوت فهو الطّاعة فى خشوع كما قال تعالى : ﴿ **وله من فى السّماوات والأرض كلٌّ له قانتون** ﴾[2] وإذا تمثّلنا البتول منقطعةً للعبادة ومالئةً كلّ أوقاتها بالإقبال على الله تعالى فمعنى هذا أنّ الكمّ غير قابلٍ للزّيادة لأنّه لا زيادة فى الوقت عند البتول ، فبقى إذن إمكان الحديث عن الكيفيّة وهنا تأمر الملائكة البتول بأن تتّسم عبادتها بالخشوع لله تعالى والخضوع له والطّمع فى ثوابه والخوف من عذابه جلّ وعلا . ولّما كانت العبادة بمعناها الضّيّق

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٢/١ وانظر بشان الاحاديث تفسير ابن عطيّة ١١٣/٣ وتفسير الطّبرىّ ١٨٠/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٥ والبحر المحيط ٤٥٦/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٣/١

ذات صورٍ مختلفة من صلاةٍ ودعاءٍ وذكرٍ وتسبيحٍ وتهليل وما إلى ذلك ، ولّما كانت الصّلاة أجمع لمظاهر العبادة من غيرها من الطّاعات ، ولّما كان العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد كما نصّ على ذلك الحديثّ(١) لكلّ ذلك كان أمر الملائكة مريم البتول بأن تسجد لله تعالى . وبهذا جمعت الآية الكريمة فى أمرها للبتول بالقنوت لربّها والسّجود بين أهمّ المقوّمات الدّاخلية للعبادة وهو الخشوع ، والخشوع محلّه القلب ، فإذا خشع خشعت الجوارح كلّها لخشوعه إذ هو ملكها(٢) وانظر إلى لفظ الرّبّ فى القول : «يامريم اقنتى لربّك» الّذى يرتبط به الخصوص وتربية الله تعالى عبده بآلائه وجوّ الرّضا والسّعادة ، وبين أهمّ المقوّمات الخارجيّة الدّالّة على إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وهو السّجود لله ربّ العالمين .

ولّما كانت صلاة المرأة فى منزلها فى الإسلام هى الأفضل . بل إنّ صلاة المرأة فى أقصى خلوة بيتها ليست أفضل من صلاة الجماعة فحسب بل إنّها تفضل ما ليس وراء مطمعٌ لمسلم ، وهو صلاة الجماعة فى المسجد النّبوّى خلف النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم(٣) ولّما كانت صلاة المرأة فى المسجد مع ضمان عدم الاختلاط أمراً مسموحاً به وخاصّةً صلاة العشاء والفجر أى صلاة اللّيل(٤) فإنّا بناءً على ذلك وقياساً عليه وبعد أمر البتول بالسّجود نستطيع أن ننظر إلى القول خطاباً لها على لسان الملائكة : «واركعى مع الرّاكعين» .

إنّ الركوع فى الصّلاة يسبق فى التّرتيب السّجود . وقد عرفنا الحكمة من اختيار القنوت والسّجود لأنّهما أهمّ المعالم الدّاخليّة والخارجيّة ، الباطنة

---

(١) انظر مثلاً البحر المحيط ٣٥٨/١

(٢) تفسير القرطبىّ ٤٤٩٥

(٣) الحجاب لأبى الأعلى المودودى ٣١٢

(٤) انظر الحجاب ٣١٤

والظّاهرة للصّلاة خاصّةً وأنّ الخطاب للبتول يشير إليها حينما تكون فى خلوتها للعبادة فهى خاشعةٌ ساجدة ، وذلك دليلٌ على تحقّق ما يقلّ عن الخشوع والسّجود . وإنّ الجزئيّة الكريمة فى أمرها البتول بالرّكوع مع الرّاكعين ، أى الصّلاة خارج المنزل فى جماعةٍ غالبا ، تشير إلى المرحلة الّتى هى فى حقّ النّساء تلى فى الفضل الصّلاة فى البيت منفردةً غالباً . إنّ الآية الكريمة حينما أرادت التّنبيه إلى الحال الأشدّ فضلاً فى حقّ البتول أشارت إلى أكثر هيئات المصلّى فضلاً وهو السّجود . وحينما أرادت التّنبيه إلى الحال الّتى تليها فضلاً أشارت إلى الهيئة الّتى تلى السّجود فضلاً وهى هيئة الرّكوع . إنّ القنوت والسّجود اقترنا بأفضل الحالين وهو صلاة المرأة فى بيتها وغالباً ما تكون منفردة . وإنّ الرّكوع اقترن بالحال الّتى تليها فضلاً وهي صلاة المرأة خارج بيتها وغالباً ما تكون غير منفردة . والله تعالى أعلم .

ولّما كانت الآية الكريمة السّابقة تتحدّث عن الاصطفاء لأجل العبادة وعن التّطهير والتّنقية وعن الاصطفاء بولادةعيسى عليه السّلام من غير أب ، ولّما كانت هذه الآية الكريمة ترتبط بالاصطفاء لأجل العبادة فإنّ الآية الكريمة التّالية ترتبط بالتّطهير والتّنقية فإلى :

الآية رقم (٤٤)

قال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ .

شاء الله سبحانه وتعالى أن يطهّر البتول ديناً وخلقاً فهيّأ لها كلّ الأسباب الّتى تؤدّى إلى هذه النّتيجة الحميدة ومنها المحيط الّذى تتقلّب فى أجوائه والبيئة الّتى تعيش فيها وقد تمثّل ذلك فى كفالة نبىّ الله تعالى زكريّا عليه السّلام لها ، وهو ما نصّت عليه الآية الكريمة .

والآية الكريمة فى تقريرها هذه الحقيقة تضيف الجديد من المعانى ، فهى فى القول : «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك» تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى علّم حبيبه المصطفى ﷺ ما لم يكن يعلم بواسطة الوحى ، جبريل عليه السّلام ، أمين الله تعالى على وحيه . والمعنى ذلك الإخبار عن امرأة عمران ومريم وزكريّا ويحيى وعيسى عليهم السّلام من الأخبار الجديدة المهمّة القادمة إليك أيّها الرّسول الكريم من عالم الغيب عن طريق الإيحاء إليك . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ قد أوتى بواسطة الوحى القرآن الكريم ومثله معه يعنى السّنّة النّبويّة المطهّرة(١) والمراد بالوحى فى الآية الكريمة القرآن الكريم . ومن البيّن أنّنا فى الجزئيّة الكريمة بصدد إضافةٍ من المعنى جديدة إذ تقرّر فى صيغة الزّمن المضارع(٢) «نوحيه» أنّ ما أوحى إليه ﷺ من القرآن فعلاً وما سوف يوحى إليه به هو من أنباء الغيب الّتى ما يعلمها المصطفى ﷺ ولا قومه قبل هذا .

ولمّا كان ثمّة كافرون لا يؤمنون بهذا الموحى به وهم وراء ذلك على يقينٍ بأنّ المصطفى ﷺ أمّىّ لا يقرأ ولا يكتُب ، وهو الملقّب بالصّادق الأمين لصدقه وأمانته ، وهو لم يلتق بالعلماء فى بلده ولم يسافر من أجلهم ، بل إنّ هذه الأنباء خافيةٌ على الأحبار والرّهبان.فكيف بسواهم ، فما بقى سوى أن يكون المصطفى ﷺ فى نظر الكافرين قدعاش بين ظَهْرانِى أولئك الّذين أخبر عنهم القرآن الكريم وهو ما لا يقول به عاقل ، لذا كان فى نفى الجزئيّة الكريمة التّالية أن يكون المصطفى ﷺ لدى أولئك ، عندهم ومعهم(٣) وبحضرتهم(٤) استهزاءٌ بالكافرين وسخريةٌ واستخفاف لأنّ بقاء المصطفى ﷺ

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ٤٨٦/٣ والإيمان لابن تيمية ٣٧ ، ٤٣

(٢) انظر هنا البحر المحيط ٤٥٨/٢

(٣) تفسير ابن عطيّة ١١٧/٣ وانظر الكشّاف ٣٢٣/١ وتفسير الطبرىّ ١٨٥/٣

(٤) البحر المحيط ٤٥٨/٢

مع كل أولئك الّذين عاشوا فى أزمنة سحيقة لا يعلمها إلاّ الله تعالى أمرٌ لا يخطر ببال عاقل ، فبقى إذن أن يكون القرآن الكريم موحًى به بواسطة مَلَكٍ من السّماء كريم هو جبريل عليه السّلام إلى نبىٍّ من البشر كريم هو محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

وهذه الجزئيّة الكريمة بشقيّها : «وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون» تقرّر فحوى الجزئيّة الكريمة السّابقة وتؤكدّه فالمصطفى ﷺ لم يكن لدى الأحبار إذ يلقون أقلامهم الّتى يكتبون بها التّوراة [1] فى نهر الأردنّ لينظروا أيّهم يكفل وليتبيّنوا ذلك ويعْلَمُوهُ [2] ولم يكن لديهم إذ يختصمون فى شأن مريم كلٌّ يريد أن يكون الكافل لها .

عن عكرمة أن امرأة عمران خرجت بمريم فى خرقها إلى بنى الكاهن بن هارون وهم يؤمئذ يلون فى بيت المقدس ما تلى الحجبة من الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النّذيرة فإنّى حرّرتها وهى أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردّها إلى بيتى فقالوا : هذه ابنة إمامنا ـ وكان عمران يؤمّهم فى الصّلاة ـ وصاحب قربانا . فقال زكريّا : ادفعوها لى فإنّ خالتها تحتى فقالوا : لا تطيب أنفسنا هى ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم الّتى يكتبون بها التّوراة فقرعهم زكريّا فكفلها . وقد ذكر عكرمة أيضاً والسّدّىّ وقتادة والرّبيع بن أنس وغير واحد ، دخل حديث بعضهم فى بعض ، أنّهم ذهبوا إلى نهر الأردنّ واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيّهم يثبت فى جِرْية الماء فهو كافلها فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلاّ قلم زكريّا فإنّه ثبت ،وكان مع ذلك كبيرهم وسيّدهم وعالمهم وإمامهم ونبيّهم صلوات الله

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٢٩ والكشّاف ١/٣٢٣ والبحر المحيط ٢/٤٥٨ وتفسير الطّبرىّ ٣/١٨٤

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/١٨٤

وسلامه عليه وعلى سائر النّبيّين[1] .

والأحسن في الإعراب أن يكون ذلك مبتدأ ومن أنباء الغيب خبره وأن يكون نوحيه جملةً مستأنفة ويكون الضّمير فى نوحيه عائداً على الغيب[2] ومعنى الإلقاء هنا الرّمى والطّرح[3] .

وَيكفُل بمعنى يُربىّ[4] ويضُمّ[5] ويحضُن[6] .

ومن البيّن أنّ الجوّ ودّىّ فالكلّ يريد أن يَشْرُف بكفالة مريم والكلّ يخاصم بحرارة فى سبيل ذلك إذ لا يرى أحداً أولى منه بذلك لأنّ عمران إمام الجميع وهم يتّفقون على القُرعة فيلقون أقلامهم ويضحّون بها وهم العلماء الكرماء الحلماء . ويشاء الله تعالى أن يجرى النّهر بكلّ الأقلام باستثناء قلم زكريّا عليه السّلام الّذى شاء الله تعالى له أن يقاوم التّيّار وأن يثبت فى موضعه .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الّتى تشير إلى الاختلاف والاختصام فى مريم تشير إلى أهمّ سببٍ أدّى بفضل الله تعالى إلى الوآم لأنّهم اتّفقوا عليه ورضوا به وهو إجراء القُرعة . وهذا الاتّفاق يذكرنا بقصّة يوسف عليه السّلام وإلى نصّ أولى الآيات الكريمات التّعقيبيّة على القصّة وهى الآيّة الكريمة الثّانية بعد المائة على الأمر الوحيد المجمع عليه بين الإخوة ، وربّما فى القصّة كلّها ، بين الأطراف المتنازعة ، وهذا الأمر هو الإجماع على وضع يوسف فى غيابة الجبّ باعتبار ذلك أخفّ الأضرار .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٦٣/١ وتفسير الطّبرىّ ١٨٤/٣

(٢) البحر المحيط ٤٥٧/٢

(٣) البحر المحيط ٤٥٨/٢

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبرىّ ١٨٤/٣

(٦) تفسير القرطبىّ ١٣٢٨

لقد عرفنا أنّ ثمّة اصطفاءً أوّلاً بسبب العبادة وقد عمّق الحديث بعد ذلك هذا المعنى ،كما أنّ ثمّة تطهيراً بعد ذلك وقد عمّق هذا التّطهير كفالة زكريّا عليه السّلام للبتول ، كما أنّ ثمّة اصطفاءً أخيراً وراء ذلك بولادة مريم البتول عيسى عليه السّلام من غير أب وإنّ الآيات الكريمات بعد ذلك تتحدّث عن هذا النّوع من الاصطفاء. وهاتان ابتداءً .

الآيتان رقم (٤٥ و٤٦)

قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابنُ مريمٍ وجيهاً فى الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين . ويكلّم النّاس فى المهد وكهلاً ومن الصّالحين ﴾ .

بشأن العامل فى إذ يقول الطّبرىّ[1] : «يعنى بقوله جلّ ثناؤه : إذ قالت الملائكة ، وما كنت لديهم إذ يختصمون وما كنت لديهم أيضاً إذ قالت الملائكة يامريم إنّ الله يبشّرك» ويصحّ قبول رأى الطّبرىّ إذا كان زمن الاختصام فى البتول هو زمن قول الملائكة لها إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه . ويبدو من السّياق أنّ قول الملائكة للبتول : إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه ، إنّما كان فى زمنٍ متأخّر وذلك حينما كانت البتول قادرةً على استيعاب الكلام ، وعلى استيعاب هذا الكلام بالذّات بمعنى أنّها قد بلغت مبلغ النّساء . وعليه يصحّ قبول الرّأى الآخر الّذى يذهب إلى أنّ المعنى : اذكر إذ قالت الملائكة[2] .

ويلاحظ أنّ الملائكة تذكر اسم مريم فى هذه المرّة كذلك : «إذ قالت الملائكة يامريم» وذلك للحكمة ذاتها وهىِ إدخال الأنس إلى نفس البتول

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨٥/٣

(٢) انظر البحر المحيط ٤٥٩/٢ والجلالين

والطّمانينة إلى قلبها لأنّ الملائكة تحمل نَبأً جللاً هو فى أبسط صوره يعنى آلام الحمل والمخاض والولادة فكيف إذا كان فى أعماقه يعنى ما انفردت به البتول بين نساء العالمين من إنجاب عيسى عليه السّلام من غير أب .

إنّ كون الملائكة هى الّتى تكلّم البتول ممّا يدخل البهجة عليها ويقوّى هذه البهجة نداؤها باسمها كما يقوّيها ذكر لفظ الجلالة الله فى القول : «إنّ الله يبشّرك بكلمةٍ منه» إنّ الله سبحانه وتعالى القادر على كلّ شىء والّذى وسعت رحمته كلّ شىء وكان حظّ عباده المؤمنين المتّقين من الرّحمة هو الأكبر هو الّذى يبشّرها بواسطة الملائكة : «والتّبشير إخبار المرء بما يسرّه من خير»[1] بحيث ينعكس ذلك على بشرته بسبب تدفّق الدّم فى الجسد بشراً وحبورا ، بهجةً وانشراحا ، فتشرق أسارير الوجه ويميل إلى الحمرة بسبب الدّم المتدفّق . وحينما يكون التّبشير من الله تعالى فذلك معناه أنّه تبشيرٌ موصول غير مقطوع ولا ممنوع ولا ينغّصه منغّص .

وبم يبشّر الله تعالى ذو الجلال والإكرام البتول ؟ : «بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم» أى بولدٍ يكون وجُوده بكلمةٍ من الله ، أى يقول له كن فيكون[2] . قال قتادة : إنّ الكلمة الّتى قال الله عزّ وجلّ بكلمةٍ منه هو قوله : كن[3] بل إنّا لنستطيع أن نذهب إلى أنّ أمر الله تعالى لأىّ شىءٍ جلّ أو هان بالكاف والنّون ليس إلاّ من قبيل تقريب المعانى لنا نحن البشر باللّغة الّتى نفهم . إنّ اللّغة عاجزةٌ بطبعها ، وإنّنا نحن البشر محدودو القدرة مقهورو الإرادة . وإنّ أقلّ ما تستطيع اللّغة أن تعبّر به عن هذا المعنى العظيم كى نعيه ونستوعبه هو الكاف والنّون . إنّ كلّ شىءٍ رهنٌ لمشيئة الله تعالى الفعّال لما

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨٥/٣

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٣/١

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨٥/٣ وتفسير ابن عطيّة ١١٨/٣

يريد القادر على كلّ شيءٍ الّذى لا يعجزه شىءٌ فى السّماء ولا فى الأرض . وانظر إلى الجارّ والمجرور «منه» فى القول : «بكلمةٍ منه» إنّها كلمةٌ منه جلّ وعلا ، فهى كلمةٌ لها شأنٌ أى شأن ، فمنها يوجد واحدٌ من أولى العزم من الرّسل من غير أب ، ذاكم هو عيسى عليه السّلام .

وهذا الموجود بكلمةٍ منه تعالى المولود من غير أب اسمه المسيح عيسى عليه السّلام ابن مريم . ويلاحظ أنّ المسيح وصفٌ له عليه السّلام باعتبار ذاته ، وأنّ عيسى هو اسمه عليه السّلام ، وأنّ ابن مريم وصفٌ آخر له عليه السّلام باعتباره جاء من غير أبٍ خلافاً لكلّ الذّكور والإناث من ذرّيّة آدم عليه السّلام .

وسمّى عليه السّلام بالمسيح ، قال بعض السّلف : لكثرة سياحته ، وقيل : لأنّه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما ، وقيل : لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوى العاهات برىء بإذن الله تعالى[1] .

وعيسى عليه السّلام هو ابن مريم . ويلاحظ تأكيد القرآن الكريم هذه الصّفة فى حقّه عليه السّلام بسبب جراءة اليهود عليهم لعائن الله تعالى على البتول الطّاهرة الذّيل العفيفة واتهامهم لها فى عفّتها . والملاحظ أنّه بالمقارنة بين عدد المرّات فى القرآن الكريم الّتى نصّ فيها على أنّ عيسى عليه السّلام هو ابن مريم وبين عدد المرّات الّتى لم ينصّ فيها على ذلك يتبيّن أنّ عدد المرّات الّتى نصّ فيها على أنّه عليه السّلام هو ابن مريم هو الأكثر .

وعيسى عليه السّلام سيكون ، وذلك من تمام البشارة لأمّه البتول ، وجيهاً فى الدّنيا والآخرة . قال ابن قتيبة : الوجيه ذو الجاه[2] والوجاهة[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٣/١ وانظر تفسير ابن عطيّة ١١٩/٣

(٢) البحر المحيط ٤٦١/٢

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٤/١

والوجه[1] أى له وجاهة ومكانة عند الله فى الدّنيا بما يوحيه الله إليه من الشّريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك ممّا منحه الله به ، وفى الدّار الآخــرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوةً بإخوانه من اولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم اجمعين[2] ويقال للرّجـل الّذى يشرف وتعظّمه الملوك والنّاس وجيه[3] .

وإذا كانت وجاهة عيسى عليه السّلام فى الدّنيا والآخرة فإنّ فى ذكر الآخرة توطئةً للقول : «ومن المقرّبين» بمعنى أنّ عيسى عليه السّلام من المقرّبين من الله تعالى[4] فى الآخرة ، يعنى أنّه ممّن يقرّبه الله يوم القيامة فيسكنه فى جواره ويدنيه منه[5] .

وينبغى أن يكون لقول الملائكة للبتول : «اسمه المسيح عيسى ابن مريم» كبير تهيئةٍ للبتول حينما يفجؤها الملك جبريل عليه السّلام فى مكان خلوتها للعبادة ويخبرها أنّه رسول ربّها جلّ وعلا ليهب لها غلاماً زكيّاً على نحو ما بيّنت سورة مريم ، وذلك عن طريق نفخه عليه السّلام فى جيب درع البتول .

وإنّه بالنّظر إلى الآية الكريمة من زاوية الصّفة الّتى يختصّ بها عيسى عليه السّلام يتبيّن أنّها صفة كونه عليه السّلام كلمة الله تعالى بأن يكون من مريم البتول من غير أب . إنّ هذه الصّفة الّتى يختصّ بها عيسى عليه السّلام نبّهت عليها الآية الكريمة التّالية حينما بيّنت ابتداءً أنّه عليه السّلام يكلّم النّاس فى المهد ، أى يكلّم النّاس طفلاً فى المهد دلالةً على براءة أمّه ممّا

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/١٨٦
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٦٤
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/١٨٦
(٤) البحر المحيط ٢/٤٦١ وتفسير ابن عطية ٣/١٢١
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣/١٨٧

قذفها به المفترون عليها وحجّةً له على نبوّته[1] والمهد موضع اضطجاع الصّبىّ وقت تربيته[2] ومضجعه فى رضاعه[3] ومقرّه . وأصله مصدر سمّى به . يقال : مهدت لنفسى بتخفيف الهاء وتشديدها أى وطّأت[4] .

وكما يكلّم عيسى عليه السّلام النّاس كلّ النّاس فى المهد تبرئةً لوالدته طاهرة الذّيل البتول فإنّه يكلّم النّاس كهلاً . واختلف النّاس فى حدّ الكهولة فقيل الكهل ابن أربعين سنة وقيل ابن خمسٍ وثلاثين وقيل ابن ثلاثٍ وثلاثين وقيل ابن اثنتين وثلاثين . وهذا حدّ أوّلها وأمّا آخرها فاثنتان وخمسون ثمّ يدخل سنّ الشّيخوخة[5] قال تعالى : ﴿ **ويكلّم النّاس فى المهد وكهلاً** ﴾ ومحتنكاً فوق الغلومة ودون الشّيخوخة . يقال منه : رجلٌ كهلٌ وامرأةٌ كهلة[6] والمراد بكلام عيسى عليه السّلام للنّاس كهلاً دعوتهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له كى يحقّقوا الهدف الّذى من أجله خلقهم الله تعالى . وهكذا يتبيّن أنّ الغاية من كلام عيسى عليه السّلام النّاس حينما كان فى المهد تختلف عن الغاية حينما صار عليه الصّلاة والسّلام كهلاً . إنّ الهدف أوّلاً تبرئة ساحة أمّه البتول الطّاهرة الذّيل العفيفة . وإنّ الهدف آخراً دعوة النّاس إلى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ رسله ومنهم عيسى عليه السّلام .

وعلى غرار القول فى آخر الآية الكريمة السّابقة : «ومن المقرّبين» يجىء فى آخر هذه الآية الكريمة القول : «ومن الصّالحين» وكماكان القرب من الله تعالى شركةً بين عيسى عليه السّلام وبين كلّ المنعم عليهم من

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨٧/٣
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٢٢/٣
(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨٧/٣
(٤) البحر المحيط ٤٦١/٢
(٥) تفسير بن عطيّة ١٢٢/٣
(٦) تفسير الطّبرىّ ١٨٧/٣

المصطفين الأخيار كانت صفة الصّلاح شركةً بينهم بل إنّها لأكثر ذيوعاً وشيوعاً لأنّها صفةمشتركة بين كلّ عباد الله تعالى المتّقين ابتداءً بالصّالحين وانتهاءً بالمرسلين مروراً بالنّبيّين والصّدّقين والشّهداء . وما أكثر المواضع فى القرآن الكريم الّتى بيّنت أنّ صفة الصّلاح مشتركة بين سائر عباد الله تعالى المتّقين . إنّ أولى العزم من الرّسل ومنهم عيسى عليه السّلام وعليهم أجمعين يأتون على رأس قائمة الصّالحين والمقرّبين من الله تعالى .

إنّ هذه المجموعة من البشائر ممّا تبتهج لها نفس البتول وإنّ منها لما يثير فى نفسها تساؤلاً كأن ينسب عيسى عليه السّلام إليها فيقال : «عيسى ابن مريم» والعادة جرت أن ينسب الولد لأبيه ، وإنّ منها لما يوحى بأنّ هذا الغلام مبارك تحفّ به المعجزات و«يكلّم النّاس فى المهد» .

ولّما كانت البتول قد بلغت مبلغ النّساء ولا تجهل الطّريقة الوحيدة الّتى يتمّ عن طريقها إنجاب الأنثى وهو الاتّصال بالفحل لذا كان من البتول الطّاهرة الذّيل العفيفة السّؤال فى هذا الشّأن وذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٤٧)

قال تعالى : ﴿ **قالت رَبّ أنّى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر . قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾ .

إنّ البتول الفقيرة إلى رحمة البرّ الرّحيم تخاطب ربّها جلّ وعلا مربيّها بنعمه وآلائه قائلةً : «ربّ» بمعنى ياربّ ، يامن أسبغت عليّ نعمك الظّاهرة والباطنة فملأت نفسى رضاً وقلبى بهجةً فوجب عليّ أن أبادل الإحسان إليّ بإحسان عبادتك وحدك لا شريك لك ، ومن هذه النّعم الّتى أسبغت عليّ البشائر بالولد الّذى باركته فمن أىّ وجهٍ يكون لى ولد[١] وكيف تلد أنثى مثلى

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨٨/٣

وأنا الّذى لم يمسسنى بشر ؟ وينبغى أن يكون القول فى الآية الكريمة السّابقة : «ويكلّم النّاس فى المهد» وفى الآية الكريمة قبل السّابقة : «عيسى ابن مريم» وهو قولٌ يوحى بأنّ الغلام مباركٌ تحفّ به المعجزات ، ينبغى أن يكون هذا القول حاصراً لمعنى سؤالها : «أنّى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر» فى وجهةٍ معيّنة مفادها : ما هى الوسيلة الّتى أنجب عن طريقها هذا الولد «أنّى يكون لى غلامٌ ولم يمسسنى بشرٌ ولم أك بغيّا» إنّه لا ثالث فى عرف البشر لهذين الطّريقين وإنّ النّصّ على كون عيسى هو ابن مريم ممّا يجعل استفهامى مارّاً على طريق التّعجّب من حدوث الولد من غير أب[1] والمسيس هنا كناية عن الجماع وهذا من آداب القرآن الكريم . وكذلك هو من أدب البتول العذراء الحيّية طاهرة الذّيل العفيفة الّتى أحصنت فرجها بنصّ القرآن الكريم . والبشر يطلق على الواحد والجمع . والمراد هنا النفى العام . وسمّى بشراً لظهور بشرته وهو جلده . وبشرت الأديم قشـرت وجهه وأبشرت الأرض أخرجت نباتها . وتباشير الصّبح أوّل ما يبدو مِن نوره[2] .

وإنّ من أقوى الأدلّة على انصراف البتول إلى الجهة الّتى يأتى منها الولد والكيفيّة الّتى يتمّ بها الحمل وليس إلى الغلام ذاته وإلى ما يحفّ به من بركةٍ ومعجزات مجىء لفظ ولد بالذّات على لسان البتول . لأنّ لفظ ولد يدلّ على المولود ويقال للواحد والجمع والصّغير والكبير[3] ولا يدلّ لفظ ولد على أكثر من العلاقة بين الولد ووالديه . إنّ البتول فى استفهامها تسأل فى براءة عن الكيفيّة الّتى يجىء بها الولد والّتى لا تستطيع أن تفهمها أو تتصوّرها على غير الوجه المعتاد ولذلك هى تأتى بلفظة «ولد» الّتى لا يتعلّق بها أيّ معنًى وراء النّسب .

---

(١) البحر المحيط ٤٦٢/٢

(٢) البحر المحيط ٤٦٢/٢

(٣) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ٥٣٢

وقد يقول قائل : ولكنّ البتول جاءت على لسانها فى سورة مريم[1] لفظة غلام ، والغلام هو الطّارّ الشّارب ، يقال : غلامٌ بيّن الغلومة والغلوميّة ، واغتلم الغلام إذا بلغ حدّ الغلومة . ولّما كان من بلغ هذا الحدّ كثيراً ما يغلب عليه الشّبق قيل للشّبق غُلْمة واغتلم الفحل[2] .

والجواب على ذلك هو أنّ البتول إنّما يجىء على لسانها لفظ الغلام تمشيا مع ما جرى على لسان جبريل عليه السّلام ، لذا فإنّ لفظ الغلام يجىء على لسان البتول اتّباعاً لا ابتداءً . وهذه هى الآيات الكريمات من سورة مريم[3] : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم إذِ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّا . فاتّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّا . قالت إنّى أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّا . قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّا . قالت أنّى يكون لى غلامٌ ولم يمسسنى بشرٌ ولم أك بغيّا . قال كذلك قال ربّكِ هو علىّ هيّنٌ ولنجعله آيةً للنّاس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضيّاً** ﴾ .

إنّ الحال الّتى فيها البتول تحملها على السّؤال عن الكيفيّة الّتى يوجد بها هذا المخلوق وإنّ الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام يتحدّث عن الكيفيّة الّتى يوجد بها هذا المخلوق وعمّا يحفّ به من خيرٍ وبركةٍ ومعجزات خاصّةً حينما يبلغ مبلغ الرّجال . إنّ لفظ الولد هو الّذى يعبّر عمّا تمتلىء به نفس البتول من اهتمامٍ بالوجه والكيفيّة وإنّ لفظ الغلام هو الّذى يعبّر عمّا يهتمّ به الرّوح الأمين من معجزاتٍ تحفّ بهذا الغلام خاصّةً حينما يبلغ مبلغ الرّجال .

ونحن بحاجةٍ إلى أن نبيّن أنّ هذا الموضع الّذى يجىء فيه لفظ ولد

---

(١) الآية ٢٠

(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ٣٦٤

(٣) الآيات ١٦ - ٢١

على لسان البتول فى الآية الكريمة هو الموضع الوحيد فى القرآن الكريم الّذى يجىء فيه لفظ ولد من بين المواضع الأخرى المشابهة فى القرآن الكريم . إنّ لفظ غلام هو الّذى يجىء فى تلك المواضع . وهكذا يكون لفظ ولد دليلاً إضافياً على براءة البتول واقتصار اهتمامها على الكيفيّة .

ويكون الجواب من ربّ العزّة على لسان الملك : «قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء» ويصحّ أن يكون التقدير : الأمر كذلك[1] ويصحّ أن يقال : إنّ الكاف للتّشبيه وذلك إشارةٌ إلى الفعل أى مثل ذلك الفعل أو الخلق يخلق الله ما يشاء[2] ويصحّ أن يكون المعنى : هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شىء[3] وهكذا يخلق الله منك ولداً لك من غير أن يمسّك بشرٌ فيجعله آيةً للنّاس وعبرةً فإنّه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد[4] .

وحينما نقارن بين جملة يفعل فى الحديث عن معجزة مجىء يحيى عليه السّلام من زكريّا عليه السّلام الشّيخ الفانى ومن زوجه العقيم وذلك فى القول : «قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء» وبين جملة يخلق الّتى تجىء هنا فى حقّ عيسى عليه السّلام وذلك فى القول : «قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء» نستطيع أن نتبيّن أنّ مجىء جملة يفعل يوحى بجعل الموجود فعلاً غير الصّالح للإنجاب صالحاً للإنجاب ، فثمة إصلاح موجود . كما نتبين أنّ مجىء جملة يخلق يُوحى بإيجاد عيسى عليه السّلام غير الموجود أساساً وخلقه من غير أب على غير مثالٍ سابق .

وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : «إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون» أنّ الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً وحكم به وأراده فإنّما يقول جلّ

---

(١) الجلالين
(٢) انظر هنا البحر المحيط ٢/٤٥٠
(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٦٤
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/١٨٨

وعلا لما أراد وجوده كُنْ فيكون . وسبق أن ألمحنا أنّ القول : «كن» بقصد تقريب المعانى لنا نحن البشر فى الّلغة الّتى نفهم . إنّنا عاجزون وإنّ الّلغة عاجزة وإنّ منتهى ما تطيقه الّلغة تعبيراً فى إيجاز ، هذان الحرفان الّلذان يدلاّن على عجز الّلغة وعجزنا فى سبيل الدّلالة على القدرة المطلقة للفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شىءُ فى الأرض ولا فى السّماء . وتستمرّ الآية الكريمة التّالية فى مخاطبة البتول وذكر بعض البشائر الأخرى الّتى ستكون من نصيب ولدها عيسى عليه السّلام فإلى :

الآية رقم (٤٨)

قال تعالى : ﴿ ويعلّمه الكتاب والحكمة والتّوراة والإنجيل ﴾ .

ومن البيّن أنّ جملة «ويعلّمه» معطوفة على جملة : «يبشّرك»[١] فمازال الكلام على لسان الملائكة وكأنّ بعض البشائر قد ذكرتها الآيتان الكريمتان الخامسة والأربعون والسّادسة والأربعون ثمّ كانت الآية الكريمة الّتى فيها استفهام البتول عن الكيفيّة الّتى يجىء بها ولدها ثمّ كانت هذه الآية الكريمة الّتى تتمّم البشائر المتعلّقة بعيسى عليه السّلام قبل ولادته . ومن هذه البشائر على لسان الملائكة أنّ الله سبحانه وتعالى سيعلّمه الكتاب ، بمعنى الكتابة[٢] والخطّ الّذى يخطّه بيده[٣] فهو مصدر كتب يكتب[٤] قاله ابن عبّاس وابن جريج وجماعة[٥] والمعروف أنّ عيسى عليه السّلام كان قارئاً كاتباً . ونستطيع أن نفهم من نصّ الآية الكريمة على تعليم الله تعالى عيسى عليه السّلام الكتابة ،

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٢٤/٣

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٤/١

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨٩/٣

(٤) تفسير ابن عطيّة ١٢٥/٣

(٥) البحر المحيط ٤٦٣/٢

والقراءة داخلةٌ فى الكتابة ضمناً ، فضل الله تعالى العظيم على من علّمه الكتابة والقراءة فعليه أن يحسن إلى عبـاد الله تعالى شكراً لله تعالى على إحسانه إليه وفضله عليه . وقد أومأت إلى ذلك آية الدَّيْن من سورة البقرة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علّمه الله** ﴾ .

وكما يعلّم الله تعالى عيسى عليه السّلام مستقبلاً القراءة والكتابة يعلّمه الحكمة والتّوراة والإنجيل . . أمّا الحكمة فهى السّنّة الّتى نوحيها إليه فى غير كتاب[1] وأمّا التّوراة فهى الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام . وأمّا الإنجيل فهو الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى مسْتقبلاً إلى عيسى عليه السّلام المصدّق للتّوراة المتمّم لها .

وإذا كانت الآيات الكريمات السّابقات قد تحدّثت عن البشارات الّتى ستتعلّق بعيسى عليه السّلام مستقبلاً فإنّ الآيات الكريمات اللاّحقات تتحوّل إلى عيسى عليه السّلام وقد بعثه الله تعالى رسولاً إلى بنى إسرائيل وها هو ذا عليه السّلام يتحدّث عمّا خصّه الله تعالى به من معجزات وأكرمه الله تعالى من فضل وأرسله إلى بنى إسرائيل بدعوة الحقّ وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له فإلى :

الآية رقم (٤٩)

قال تعالى : ﴿ **ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم . إنّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨٩/٣

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سيجعل عيسى عليه السّلام رسولاً إلى بنى إسرائيل ، فترك ذكر ونجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشّاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى   متقلّداً سَيْفاً ورمحاً[1]

أى ومعتقلاً رمحاً[2] .

ويتحوّل السّياق إلى الحديث على لسان عيسى عليه السّلام الّذى نفهم الآن أنّه بعثه الله تعالى رسولاً إلى بنى إسرائيل وها هو ذا عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له مشيراً إلى المعجزات الّتى خصّه الله تعالى بها فى العصر الّذى تفوّق فيه الطّبّ منبّهاً إلى عجز الأطبّاء عن فعل شىءٍ من تلك المعجزات دليلاً على أنّه عليه السّلام رسول ربّ العالمين وكأنّه يقول : وحجّتى على صدقى على ذلك أنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم يعنى بعلامةٍ من ربّكم[3] وقد يكون تقدير الكلام : ورسولاً إلى بنى إسرائيل بأنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم[4] .

وانظر إلى جملة جاء الّتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على القرب والوصول والانتهاء ، فها هى ذى معجزات عيسى عليه السّلام قدجاءت بنى إسرائيل ووصلت إليهم فعلاً . وإنّ لفظ الرّبّ ينبّه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب القيام بالشّكر لله تعالى عليها ، وإنّ اتصال اسم الضّمير العائد إلى بنى إسرائيل المخاطبين فى القول : «من ربّكم» ينبّه بنى إسرائيل إلى وجوب القيام بالشّكر لله تعالى ، ويتمثّل هذا الشّكر فى تصديق عيسى عليه السّلام واتّباعه .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٩٠/٣ وانظر تفسير ابن عطيّة ١٢٦/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٥

(٢) البحر المحيط ٤٦٤/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٩٠/٣

(٤) انظر تفسير ابن عطيّة ١٢٧/٣ والجلالين

وإنّ كلّ المعجزات الّتى تجرى على لسان عيسى عليه السّلام فى الآية الكريمة وعلى يديه فى الواقع يعجز الطّبّ عن علاج حالةٍ واحدةٍ منها كما يعجز بطبيعة الحال عمّا هو خارجٌ عن دائرة اختصاصه كالإنباء بما يأكل النّاس وما يدّخرون فى بيوتهم .

وهذه هى أولى معجزات عيسى عليه السّلام فى الآية الكريمة : **﴿ أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾** .

ومعنى «أخلق» أصوّر[١] وأقدّر وأهيّىء بيدى ومن ذلك قول الشّاعر وهو زهير بن أبى سلمى :

ولأنت تَفْرى ما خلقتَ وبعـ ـضُ القوم يَخْلُق ثمّ لا يَفرِى[٢]

والطّير جمع طائر[٣] فى رأى بعضهم وفى رأى البعض الآخر هو اسم جمع وليس من أبنية الجموع وإنّما البناء فى جمع طائر أطيار وجمع الجمع طيور وحكاه أبو عليّ عن أبى الحسن[٤] .

إنّ معجزة عيسى عليه السّلام هنا أن يهيّىء بيديه من الطّين على هيئة الطّير ، فينفخ فى الطّير[٥] أو فى الطّين المهيّأ أو فى المذكور[٦] أو فى ذلك الشّىء المماثل لهيئة الطّير[٧] فيكون طيراً بإذن الله تعالى ، بعلمه جلّ وعلا وتمكينه لعيسى عليه السّلام أن يفعل ذلك[٨] .

---

(١) الجلالين
(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ١٢٧/٣ ويخلق ويفرى معناه يقرّر الامر ثمّ يمضيه .
وانظر البحر المحيط ٤٦٥/٢ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٥
(٣) تفسير الطّبرىّ ١٩٠/٣
(٤) تفسير ابن عطيّة ١٢٨/٣
(٥) تفسير الطّبرىّ ١٩١/٣
(٦) انظر تفسير ابن عطيّة ١٢٨/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٦
(٧) الكشّاف ٣٢٤/١
(٨) تفسير ابن عطيّة ١٢٩/٣

ومن الطّيور الّتى يقال إنّ عيسى عليه السّلام قد نفخ فيها وكانت طيراً بإذن الله تعالى بناءً على اقتراح بنى إسرائيل طائر الخُفَّاش الأشدّ خلقاً فى نظرهم وفى الواقع فإنّما هو لحم[١] ويقول القرطبّى فى الخُفّاش[٢] : «ومن عجائبه أنّه لحم ودمٌ يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطّيور ، فيكون له الضّرع يخرج منه الّلبن ولا يبصر فى ضوء النّهار ولا فى ظلمة الّليل وإنّما يرى فى ساعتين ، بعد غروب الشّمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسْفر جدّا ، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة» .

ويلاحظ أنّه يردف ذكر هذه المعجزة الأولى بالقول : «بإذن الله» وفى ذلك نفىٌ عن عيسى عليه السّلام أىّ قدرة أو حولٍ أو طول إلّا بعلم الله تعالى وتمكينه . كما يلاحظ كذلك أنّ هذا القول ذاته يأتى مرّةً أخرى بعد ذكر المعجزة الثّالثة أهمّ المعجزات فى نسقٍ وأكبرها للحكمة ذاتها وذلك فى القول : «وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله» .

ومعنى أبرىء أشْفِى[٣] والأكْمَهْ : هو الذى يُولَد أعمى[٤] مضموم العينين[٥] ممسوحهما[٦] والبرص : بياضٌ يعترى الجلد[٧] وخصّا بالذّكر لأنّ الكمه والبرص لا علاج لهما[٨] إنّ عيسى عليه السّلام يستطيع بدعاء الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٩١/٣

(٢) تفسير القرطبىّ ١٣٣٦

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٩١/٣ والجلالين

(٤) تفسير ابن كثير ٣٦٤/١

(٥) تفسير الطّبرىّ ١٩١/٣ وتفسير ابن عطيّة ١٣٠/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٦

(٦) الكشّاف ٣٢٤/١

(٧) تفسير القرطبىّ ١٣٣٦

(٨) تفسير الطّبرىّ ١٩٢/٣

أن يشفى الأكمه والأبرص ، والكمه والبرص مرضان عجز عن علاجهما أمهر الأطبّاء فى عهد الطّبّ الّذى بعث الله تعالى فيه عيسى عليه السّلام وآتاه المعجزات الّتى عجز عنها أمهر الأطبّاء فى عصره .

وإنّ المعجزة الأكبر من المعجزتين السّابقتين إحياء عيسى عليه السّلام بإذن الله تعالى الموتى . إنّ الأطبّاء إن كانوا عاجزين عن علاج العمى والبرص فإنّهم أعجز عن إحياء الموتى . ولّما كانت هذه المعجزة أكبر من المعجزتين السّابقتين أردفت بالقول للمرّة الثّانية فى الآية الكريمة : «بإذن الله» إنّ عيسى عليه السّلام رسول الله تعالى المصطفى المختار لا يستطيع أن يعمل أىّ شيءٍ مهما كان هيّناً إلّا بعونٍ من الله تعالى وفضل فكيف بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بأن يدعوهم من قبورهم مثلاً فيلبّوا النّداء بإذن الله تعالى ويخرجوا من قبورهم أحياء .

والمعجزة الأخيرة فى الآية الكريمة على لسان عيسى عليه السّلام أنّه عليه السّلام يخبر قومه بنى إسرائيل بالطّعام الّذى أكلوه ويأكلونه والطّعام وغير الطّعام الّذى يدّخرونه في بيوتهم ويحتفظون به في حِرْزه فى منازلهم .

إنّ فى كلّ ما ذكر عيسى عليه السّلام من آيات وقام به من معجزات لآيةً لبنى إسرائيل وعلامةً لهم بأنّ عيسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين فعليهم أن يؤمنوا به ويتّبعوه إن كانوا مؤمنين بالله تعالى حقّاً وصدقاً لأنّ هذه المعجزات فوق طاقة البشر ولا يستطيع عيسى عليه السّلام أن يفعل شيئاً منها إلّا بإذن الله تعالى .

والآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بالتّشريع وبالدّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة فإلى :

الآية رقم (٥٠)

قال تعالى : ﴿ ومصدّقا لما بين يدىّ من التّوراة ولأحلّ لكم بعض الّذى حرّم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون ﴾ .

مصدّقا حالٌ معطوفة على قوله أنّى قد جئتكم بآية[١] ولذلك نصب مصدّقاً على الحال من جئتكم والتّقدير : بأنّى قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم وجئتكم مصدّقاً لما بين يدىّ من التّوراة[٢] لما بين يدىّ : لما قبلى[٣] ومعنى تصديقه للتّوراة الإيمان بها وإن كانت شريعته تخالف فى أشياء[٤] وكان عيسى عليه السّلام عاملاً بالتّوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها إلّا ما خفّف الله عن أهلها فى الإنجيل ممّا كان مشدّداً عليهم فيها[٥] عن قتادة : كان الّذى جاء به عيسى ألين ممّا جاء به موسى وكان قد حرّم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثّروب جمع الثَّرْب وهو شحمٌ رقيق يغشّى الكَرِش والأمعاء وأشياء من الطّير والحيتان[٦] أى لا مخلب له ولا شوكَة .

ويؤكّد عيسى عليه السّلام لقومه أنّه قد جاءهم بآيةٍ من ربّهم ، وقد عرفنا أنّه عليه السّلام قد جاء قومه بآياتٍ كثيرات وليس بآيةٍ واحدةٍ فقط ، وإنّما عبّر عن الآيات بصيغة المفرد لأنّ كلّ الآيات لها هدفٌ واحد عبّر عنه بالقول : فاتّقوا الله وأطيعون» والمعنى : فاتّقوا الله فى خلافى وأطيعون فى أمرى ونهيى[٧] .

وإنّ الآية الكريمة التّالية تعّمق هذا الطّلب فإلى :

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/١٣٤
(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٣/١٩٥
(٣) تفسير القرطبىّ ١٣٣٨
(٤) البحر المحيط ٢/٤٦٨
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣/١٩٥
(٦) انظر تفسير الطّبرىّ ٣/١٩٦
(٧) البحر المحيط ٢/٤٦٩

الآية رقم (٥١)

قال تعالى : ﴿ إنّ الله ربّى وربّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم ﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى خالق عيسى عليه السّلام وقومه وكلّ شيءٍ هو ربّ عيسى عليه السّلام وربّ قومه عليه السّلام فقد ربّاهم جلّ وعلا جميعاً بنعمه وآلائه فعليهم أن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له فذلك هو الصّراط المستقيم والطّريق القويم الّذى لا اعوجاج فيه .

لقد كان موقف بنى إسرائيل من دعوة عيسى عليه السّلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له واتّباعه عليه السّلام الكفر بهذه الدّعوة ، وقد خلص له عليه السّلام حواريّوه وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٥٢)

قال تعالى : ﴿ فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله . قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون ﴾ .

لقد أعرض بنو إسرائيل فى مجموعهم عن دعوة عيسى عليه السّلام إلى الله تعالى وجحدوا نبوّته وكذّبوا قوله وصدّوا سواهم عن سبيل الله تعالى . فلّما أحسّ عيسى عليه السّلام منهم الكفر ، وأدركه بحواسّه(١) واستشعر منهم التّصميم على الكفر والاستمرار على الضّلال(٢) وعلمه من جهة الحواسّ(٣) وعرفه(٤) بل وجده(٥) ولّما أدرك عيسى عليه السّلام تصميم القوم على قتله قال

(١)البحر المحيط ٤٧٠/٢

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٥/١

(٣) تفسير ابن عطيّة ١٣٦/٣ وانظر الكشّاف ٣٢٥/١ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٩

(٤) تفسير القرطبىّ ١٣٣٩

(٥) تفسير الطّبرىّ ١٩٧/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٣٩

من أنصارى إلى الله ومن أعوانى[1] ذاهباً إلى الله لأنصر دينه[2] وفى السّبيل إلى الله[3] والأنصار جمع نصير كما الأشراف جمع شريف والأشهاد جمع شهيد[4] .

إنّ حال عيسى عليه السّلام حينما : «قال من أنصارى إلى الله» يشمله مثل قوله تعالى فى سورة يوسف[5] : «حتّى إذا استيأس الرّسُل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنُجّىَ من نشاء ولا يُرَدّ بأسنا عن القوم المجرمين» لقد شاء الله تعالى أن يكون لكلّ نبىّ حواريّون وأنصار ، ومن هؤلاء عيسى عليه السّلام . وهذا هو قول الحواريّين له عليه السّلام : ﴿ **قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون** ﴾ .

إنّ هؤلاء الأنصار يقولون لعيسى عليه السّلام نحن أنصار الله تعالى الّذى بعثك بالحقّ نبيّاً وقد آمنّا بالله تعالى ربًّا لا معبود بحق سواه جل وعلا واشهد ياعيسى بأنّا مسلمون لله تعالى ربّ العالمين خاضعون له جلّ وعلا لا نعبد غيره ولا نستعين بسواه عزّ وجلّ . وإنّ إيماننا بالله تعالى يعنى إيماننا برسوله عيسى عليه السّلام وتصديقه واتّباعه .

وللعلماء آراء فى أصل معنى الحواريّين . وقد وفّق الطّبرىّ فى التّحليل والتّعليل ، يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[6] : «وأشبه الأقوال الّتى ذكرنا فى معنى الحواريّين قول من قال : سمّوا بذلك لبياض ثيابهم ولأنّهم كانوا غسّالين . وذلك أنّ الحَوَر عند العرب شدّةُ البياض ، ولذلك سمّى الحُوَّارَى

(١) تفسير الطّبرىّ ١٩٧/٣ والجلالين
(٢) الجلالين
(٣) تفسير ابن عطيّة ١٣٧/٣
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢٠٠/٣
(٥) الآية ١١٠
(٦) تفسير الطّبرىّ ٢٠٠/٣

من الطعام حُوّارَى لشدّة بياضه . ومنه قيل للرّجال الشّديد بياض مقلة العينين أحور وللمرأة حوراء . وقد يجوز أن يكون حَواريّو عيسى كانوا سمّوا بالّذى ذكرنا من تبييضهم الثّياب وأنّهم كانوا قصّارين فعرفوا بصحبة عيسى واختياره إيّاهم لنفسه أصحاباً وأنصارا ، فجرى ذلك الاسم لهم واستعمل حتّى صار كلّ خاصّةٍ للرّجل من أصحابه وأنصاره حَواريّه ، ولذلك قال النّبىّ ﷺ : إنّ لكلّ نبىٍّ حَوارىّ ، وحَوارىّ الزّبير ، يعنى خاصّته . وقد تسمّى العرب النّساء اللّواتى مساكنهنّ القرى والأمصار حَواريّات . وإنّما سمّين بذلك لغلبة البياض عليهنّ» .

ومن البيّن أنّ القول على لسان الحواريّين : «آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون» ذو علاقة بالقول فى هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿ **إنّ الدّين عند الله الإسلام** ﴾ بالمعنى العامّ للإسلام الّذى بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين .

ويعمِّق الحواريّون هذه المعانى السّامية فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٥٣)

قال تعالى : ﴿ ربّنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين ﴾ .

إنّ الحواريّين أنصار عيسى عليه السّلام ينادون ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه قائلين : ياربّنا ، يامن غَمَرَتْنا نعمك وآلاؤك ، وأرسلت إلينا رسولك عيسى ابن مريم ، وأنزلت إليه الإنجيل ، إنّا وقد آمنّا بأنّك الله تعالى الواحد المعبود لا إلهٰ إلّا أنت ، قد صدّقنا بما أنزلت على نبيّك عيسى من

---

(١) الآية ١٩

كتابك[1] وبما أنزلت على النّبيّين السّابقين من كتاب[2]واتّبعْنا رسولك عيسى عليه السّلام لأنّا على علمٍ أكيد بأنّ طاعة عبدك ورسولك عيسى عليه السّلام من طاعتك . ويلاحظ أنّ لفظة رسولٍ هى الّتى تجرى على ألسنة الحواريّين ، والمعروف أنّ مرتبة الرّسالة أرفع منزلة يصطفى الله تعالى بها واحداً من المصطَفَين المنعم عليهم ، وتليها منزلة النّبوّة الّتى تعتبر الطّريق الوحيد المؤدّى إلى منزلة الرّسالة الأرفع من كلّ منزلة .

ويدعو الحواريّون الله سبحانه وتعالى أن يكتبهم من الشّاهدين . ويلاحظ أنّ الحواريّين يستعملون الجملة المتعلّقة بالكتابة لأنّ العادة جرت بأن يلجأ البشر إلى هذه الوسيلة من أجل الضّبط . ويصحّ وراء ذلك أن يفهم من هذه الجملة : «فاكتبنا» أنّ الكتابة كانت معروفةً آنذاك وسيلةً للضّبط وبخاصّةٍ لدى هؤلاء الحواريّين أنصار عيسى عليه السّلام وخاصّة الأتقياء الحلماء الحكماء العلماء .

ويصحّ أن نفهم القول : «فاكتبنا مع الشّاهدين» بمعنى : فاكتبنا ياربّنا واجعلنا مع الشّاهدين الّذين عرفوا الحقّ فآمنوا به ودعوا إليه ونطقوا بشهادته ولم تأخذهم فى الإدلاء بشهادة الحقّ لومة لائم ابتغاء رضاك ياربّنا ؛ وأملاً فى غفران الذّنوب وستر العيوب؛ وطمعاً فى رضوانك وجنّتك الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّت للمتّقين : «ولا تجعلنا ممّن كفر بك وصدّ عن سبيلك وخالف أمرك ونهيك»[3] والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن هؤلاء الكافرين فإلى :

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٠١/٣

(٢) البحر المحيط ٤٧٢/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢٠١/٣ وانظر تفسير ابن عطيّة ١٤٠/٣ .

الآية رقم (٥٤)

قال تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

كان لبنى إسرائيل من عيسى عليه السّلام موقفان الكفر وتمثّل الأكثريّة هذا الاتّجاه والإيمان وتمثّل الأقلّيّة هذا الاتّجاه . وإنّ كفر الأكثريّة قد علم به عيسى عليه السّلام بل إنّه لشدّته قد أحسّ به عيسى عليه السّلام وكأنّه شىءٌ محسوسٌ تدركه الحواس بينما هو شىءٌ معنوىٌّ كما هو معروف . وقد ربا الكفر عند هذه الأكثريّة ونما إلى أن فاض متمثّلاً فى المكر بعيسى عليه السّلام واحتيالهم فى قتله بأن وكلوا به من يقتله عليه السّلام غيلة[١] ولّما كان المكر فى اللّغة بمعنى الاحتيال والخداع[٢] وصرف الغير عمّا يقصده بحيلة[٣] وكان قصد الكافرين بقتل عيسى عليه السّلام القضاء على دعوة الحقّ دعوة التّوحيد فذلك معناه أنّ المكر فى حقّ الكافرين على بابه .

ولّما كان الكافرون الماكرون يعتبرون أىّ عملٍ يصرفهم عن تحقيق غاياتهم الخسيسة وأهدافهم اللّئيمة وأغراضهم الدّنيئة مكراً بهم فقد عبّرت الآية الكريمة عن مجازاة الله تعالى لهم على مكرهم[٤] بالقول : «ومكر الله» وذلك من قبيل المشاكلة ومراعاة النّظير ومزاوجة الكلام[٥] فسمّى الجزاء باسم الابتداء كقوله : ﴿ قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ . وكقوله : ﴿ يخادعون الله والّذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾[٦] أمّا مَكْرُ الله بهم فإنّه فيما ذكر السّدّىّ إلقاؤه شَبَهَ عيسى على بعض أتباعه حتّى

---

(١) انظر مثلاً البحر المحيط ٤٧٢/٢

(٢) تفسير القرطبىّ ١٣٤١

(٣) مفردات الرّاغب ٤٧١

(٤) تفسير القرطبىّ ١٣٤٠

(٥) البحر المحيط ٤٧٢/٢

(٦) انظر مثلاً تفسير القرطبىّ ١٣٤٠

قتله الماكرون بعيسى وهم يحسبونه عيسى وقد رفع الله عزّ وجلّ عيسى قبل ذلك[1] .

ولّما كان هذا الجزاء من الله تعالى الّذى أريد به صرف المكر والقضاء عليه والّذى عبّر عنه بالمكر من باب المشاكلة ومراعاة النّظير والاختزال فى كلام العرب وبلاغتهم لّما كان هذا الجزاء الّذى عبّر عنه بالمكر هو الخير حقّ الخير لأنّ الخير هدفه والحقّ غايته عُبِّر فى الآية الكريمة عن هذه الحقيقة بالقول : «والله خير الماكرين» إنّ استعمال لفظ المكر هو من زاوية الشّكل والظّاهر وتفسير الماكرين كلّ خيرٍ يقضى على مكرهم مكراً بهم . وإنّ استعمال لفظ خير هو من زاوية اللبِّ والجوهر والغاية السّامية النّبيلة . إنّ هذا مكرٌ محمود لأنّه يتحرّى فعل جميل[2] ودمغ قبيح . والآية الكريمة التّالية مبيّنةٌ لهذا الخير موضّحةٌ له ويبدو ذلك من الرّبط بين الآيتين الكريمتين : ﴿ **والله خير الماكرين إذ قال الله ياعيسى**» : فإلى :

الآية رقم (٥٥)

قال تعالى : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنّى متوفّيك ورافعك إليّ ومطهرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثمّ إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ .

حينما نذهب إلى أنّ العامل فى إذ القول فى الآية الكريمة السّابقة : «ومكر الله» يكون المعنى : ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إنّى متوفّيك ورافعك إليّ[3] ومن البيّن كذلك التّرابط المتين بين الآيتين الكريمتين : «والله خير الماكرين إذ قال الله ياعيسى» .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٠٢ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٤١

(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ٤٧١

(٣) انظر تفسير الطّبرىّ ٣/٢٠٢ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٤٢ وتفسير القرطبىّ ١٣٤١ والبحر المحيط ٢/٤٧٣

إنّ كفّار بنى إسرائيل مكروا بعيسى عليه السّلام حينما أرادوا قتله عليه السّلام غيلةً ومكر الله بهم ونجّى رسوله المصطفى عيسى عليه السّلام : ﴿ **والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون** ﴾[1] وها هو ذا ربّ العزّة يخاطب المصطفى عليه السّلام : «ياعيسى إنّى متوفّيك» قال الأكثرون المراد بالوفاة ههنا النّوم كما قال تعالى : «وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل» الآية . وقال تعالى : «الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتى لم تمت فى منامها» الآية . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النّوم : الحمد لله الّذى أحيانا بعد ما أماتنا الحديث[2] والمعنى : إنّى منيمك ورافعك فى نومك[3] إليّ . والمعنى إلى سمائى ومقرّ ملائكتى[4] ومطهّرك ياعيسى من الّذين كفروا بك وهمّوا بقتلك وقالوا عن والدتك بهتاناً عظيماً فإنّهم دنسٌ ونجس ، أذىً وقذى ، وجاعل الّذين اتّبعوك من أمّتك ومن أمّة محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وسيّدالمرسلين الّذى نسخ دينه سائر الدّيانات قبله ونسخ كتابه سائر الكتب قبله فوق الّذين كفروا بالعزّة والغلبة والقهر والسّلطان إلى يوم القيامة ، وقد جاء فى تأكيد هذا المعنى قوله تعالى[5] : ﴿ **وإذ تأذن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم** ﴾ وقال تعالى[6] ﴿ **ضُرِبت عليهم الذّلّة أينما ثُقِفوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبت عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ وقد قال العلماء بعموم اللفظ فى الكافرين[7] .

---

(١) سورة يوسف ٢١

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٦/١ وانظر تفسير القرطبىّ ١٣٤٢ وتفسير الطّبرىّ ٢٠٢/٣ وتفسير ابن عطيّة ١٤٢/٣

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢٠٢/٣

(٤) البحر المحيط ٤٧٣/٢

(٥) سورة الأعراف ١٦٧

(٦) سورة آل عمران ١١٢

(٧) تفسير ابن عطيّة ١٤٤/٣

وإنّ يوم القيامة هيّأ لذكر الرّجوع جميعاً إلى الله تعالى وذلك بالبعث بعد الموت والاجتماع بين يدى أحكم الحاكمين لفصل الخطاب وليحكم بيننا جلّ وعلا فيما كنّا نختلف فيه وفى ذلك اليوم يثاب المحسن ويعاقب المسىء .

روى الشّيخان حديثاً أنّه عليه السّلام ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام ويقتل الدّجّال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية . وفى حديث مسلم أنّه يمكث سبع سنين . وفى حديثٍ عند أبى داود الطّيالِسى أربعين سنة ويتوفّى ويصلّى عليه فيحتمل أنّ المراد مجموع لبثه فى الأرض قبل الرّفع وبعده[1] وحين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة فحينئذٍ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم لأنّه يضع الجزية ولا يقبل إلّا الإسلام[2] قال رسول الله ﷺ : إنّ عيسى لم يمت وإنّه راجعٌ إليكم قبل يوم القيامة[3] .

ولّما كان للنّاس موقفان من عيسى عليه السّلام ودعوته ، الكفر ، ويمثّل هذا الاتّجاه اليهود فى المقام الأوّل ، ويلحق بهم الغالون فيه عليه السّلام ، والإيمان ، ويمثّل هذا الاتّجاه الحواريّون فى المقام الأوّل ، ويلحق بهم المعتدلون من أتباعه عليه الصّلاة والسّلام إلى أن بعث الله تعالى خاتم النّبيّين محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى نسخ دينه سائر الأديان فأصبح المؤمنون به هم المؤمنين حقّاً والكافرون به هم الكافرين حقا ، فقد تحدّثت الآيتان الكريمتان التّاليتان عن هذين الفريقين على التّوالى ، وتحدّثت الآية الكريمة الأولى عن الكافرين لأنّهم آنذاك هم أصحاب السّلطة والشّوكة ، وهاتان هما :

---

(١) الجلالين وانظر تفسير القرطبىّ ١٣٤٣

(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٦/١

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٦/١

الآيتان رقم (٥٦ و٥٧)

قال تعالى : ﴿ فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحبّ الظّالمين ﴾ .

إنّ الّذين كفروا بعيسى عليه السّلام وبمحمّد بن عبدالله ﷺ يعذبهم الله سبحانه وتعالى فى الدّنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . أمّا عذاب الدّنيا فيتمثل فى قتل الكافرين وأسرهم وسبيهم وضرب الجزية والصّغار عليهم وأمّا عذاب الآخرة فيتمثل فى الذّلّ والخزى والهوان بدخول النّار وبئس القرار . وليس لهؤلاء الكافرين من ناصرين يمنعون عنهم عذاب الله تعالى أو يصرفونه عنهم أو يحملونه عنهم .

وأمّا الّذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصّالحات بجوارحهم فأولئك يوفّيهم الله تعالى أجورهم ويعطيهم جزاء أعمالهم الصّالحة كاملاً لا يبخسون منه شيئاً ولا ينقصونه[1] .

ويلاحظ أنّ ثمّة فرقاً بين التّعبير فى الآيتين الكريمتين . بشأن الكافرين جاء القول : «فأعذّبهم عذاباً شديداً» وبشأن المؤمنين جاء القول : «فيوفّيهم أجورهم» بمعنى أنّ ثمّة التفاتاً . وقد هيّأ هذا الالتفات لالتفات الحديث مرّة أخرى إلى الكافرين وذلك فى القول : «والله لا يحبّ الظّالمين» ويلاحظ أنّنا بصدد صفةٍ جديدة لهؤلاء الكافرين وهى صفة الظّلم ، بمعنى أنّهم وضعوا العبادة فى غير موضعها وما أفحش هذا الظّلم إضافةً إلى كونهم ظلموا أنفسهم بأن انحرفوا بها إلى مهاوى الرّدى .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٠٦/٣

وحينما يكون عدم الحبّ من الله تعالى للظّالمين نصيباً للكافرين فى القول : «والله لا يحبّ الظّالمين» يكون معنى ذلك حبّ الله تعالى للمؤمنين الّذين يعملون الصّالحات الّذين يتّبعون الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل . وهذا القول معمّقٌ للقول فى الآية الكريمة الثّانية والثّلاثين من السّورة الكريمة : ﴿ **قل أطيعوا الله والرّسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين** ﴾ .

ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن هذا القرآن الكريم الموحى به المتضمّن هذه المعلومات الخفيّة عن عيسى عليه السّلام فإلى :

الآية رقم (٥٨)

قال تعالى : ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم** ﴾ .

والمعنى أنّ هذا الّذى قصصنا عليك يامحمّد فى أمر عيسى[١] نقصّه [٢] ونقرؤه عليك يامحمّد على لسان جبريل صلّى الله عليه وسلّم[٣] من الآيات البيّنات والحجج الواضحات والذّكر الحكيم والقرآن الكريم . قال ابن عبّاس : الذّكر القرآن . والحكيم الّذى قد كمل فى حكمته[٤] .

ومن البيّن أنّ آى الذّكر الحكيم آياتٌ بيّناتٌ وحججٌ واضحات ضدّ الغالين فى عيسى عليه السّلام من وفد نجران وغير وفد نجران وضدّ الكافرين به عليه السّلام من اليهود وغير اليهود .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٦٧/١

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢٠٦/٣

(٤) تفسير ابن عطيّة ١٤٧/٣

ولّما كان وفد نصارى نجران إلى المصطفى ﷺ من أسباب نزول صدرٍ من سورة آل عمران فقد تحوّل الحديث إلى عيسى عليه السّلام وتبيين أنّ ذلك الحديث هو الحقّ من الله تعالى وذلك أنّ المصطفى ﷺ لّما بعث وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم منهم العاقب والسّيّد وماسرجس وماريحز فسألوه ما يقول فى عيسى فقال : هو عبدالله وروحه وكلمته قالوا هم : لا ولكنّه هو الله نزل من ملكه فدخل فى جوف مريم ثمّ خرج منها فأرانا قدرته وأمره فهل رأيت قطّ إنساناً خلق من غير أب فأنزل الله عزّ وجلّ : إنّ مثل عيسى عند الله[1] الآية . وهاتان هما :

الآيتان رقم (٥٩ ، ٦٠)

قال تعالى : ﴿ **إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون . الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين** ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ مثل عيسى عليه السّلام عند الله تعالى وشبهه[2] وشأن عيسى عليه السّلام الغريب العجيب كمثل آدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من ترابٍ ثمّ قال له جلّ وعلا كن بشراً سويّاً فكان آدم عليه السّلام . لقد شاء الله تعالى أن يخلق آدم عليه السّلام من غير أبوين ، وأن يخلق زوجه حوّاء منه عليه السّلام أى من ذكرٍ ولا أنثى ، وأن يخلق عيسى عليه السّلام من أنثى ولا ذكر، وأن يخلق سائر الخلق من ذكرٍ وأنثى .

وإنّه بالمقارنة بين عيسى عليه السّلام وبين آدم عليه السّلام يتبيّن أنّنا بصدد تشبيه الغريب وهو حال عيسى عليه السّلام الّذى ولد من غير أب

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٠٨/٣

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢٠٧/٣

بالأغرب وهو حال آدم عليه السّلام الّذى ولد من غير أبوين[1] وكما أنّه لا يصحّ الزّعم بأنّ آدم عليه السّلام ابنٌ لله تعالى كذلك لا يصحّ الزّعم بأنّ عيسى عليه السّلام ابنٌ لله تعالى وهذا من باب الأَوْلى والأحرى لأنّ حال عيسى عليه السّلام أقلّ غرابةً من حال آدم عليه السّلام .

إنّ خلق آدم عليه السّلام وعيسى عليه السّلام احتاج من الخلّاق العليم الفعّال لما يريد الأمر كن فكان آدم وعيسى عليهما السّلام .

ولّما كانت الآية الكريمة السّابقة تبدأ بالقول : «ذلك» لذا يصحّ أن يكون التّقدير فى الآية الكريمة التّالية الّتى يظنّ أنّ مبتدأها محذوف : ذلك الحقّ من ربّك . والمعنى ذلك الّذى نتلوه عليك ونقصّه من آى الكتاب الكريم والذّكر الحكيم فى شأن عيسى ابن مريم عليه السّلام هو الحقّ من ربك يامحمّد الّذى ربّاك بنعمه وكلأك بعين رعايته وأسبغ عليك فضله العظيم ومننه الغامرة فكن مصدّقاً بما أوحيت إليك من كتاب ولا تكن من الممترين فى شأن عيسى عليه السّلام الشّاكّين لأنّ أولئك الممترين إنّما يتّبعون أهواءهم والظّنون الّتى لا تغنى من الحقّ شيئا .

أما وقد ظهر الحقّ واتّضح وزهق الباطل وافتضح فما العمل بشأن المصرّين على غلوّهم المستمسكين بكفرهم ؟ الجواب فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٦١)

قال تعالى : ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

(١) انظر هنا الكشّاف ١/٣٢٦

إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ الذى أوْحى الله تعالى اليه القصص الحق فى شأن عيسى عليه السلام قائلة : فمن حاجّك أيّها الرّسول الكريم فى عيسى عليه السّلام وجادلك(١) نازعك الحجّة(٢) وخاصمك(٣) من بعد ما جاءك من العلم ووصل إليك فعلاً من الوحى . والمعروف أنّ جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب وتحقّق الوصول ، فقل يامحمّد لأولئك الغالين فى عيسى عليه السّلام الزّاعمين أنّه إلهٌ أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ـ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ـ سواءٌ كان أولئك وفد نجران أو غير وفد نجران تعالوا وأَقْبِلوا(٤) وهلمّوا(٥) .

وحينما نتبيّن المعنى السّامى النّبيل للقول : «تعالوا» فى خطاب هؤلاء المنحرفين عن الصّراط المستقيم ندرك شيئاً من أدب الخطاب والحديث الّذى يلقيه علينا نحن المسلمين هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد حتّى فى مخاطبة الخصوم . إنّ هذه الجملة ذات علاقةٍ بالعلوّ والارتفاع و : «أصل تعال أن يقوله من المكان المرتفع لمن كان فى المكان المستوطىء ، ثمّ كثر حتّى استوت فى استعماله الأمكنة»(٦) . وصار بمعنى هلمّ حتى يُقال لمن هو فى علوّ تعال وأنت تريد اهبط(٧) .

ووراء الأدب الجمّ الّذى تفيده جملة «تعالوا» والخلق العظيم الّذى تدعو إليه هى تقول الحقّ وتهدى السّبيل لأنّ كلّ ما يدعو إليه القرآن الكريم

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٠٩/٣ وتفسير القرطبىّ ١٣٤٦ والجلالين وتفسير ابن عطيّة ١٤٩/٣

(٢) تفسير ابن عطيّة ١٤٩/٣ وانظر البحر المحيط ٤٧٩/٢

(٣) تفسير القرطبىّ ١٣٤٦

(٤) تفسير القرطبىّ ١٣٤٦

(٥) الكشّاف ٣٢٦/١

(٦) الكشّاف ٥٣٦/٢

(٧) الصّاحبىّ فى فقه اللّغة ٢١٤ وانظر تفسير ابن عطيّة ١٤٩/٣

هو الحقّ وهو الخير. والمعروف أنّ وفد نجران عدل عن قبول المباهلة إلى قبول دفع الجزية[1] .

والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يدعو وفد نجران من النّصارى الغالين فى عيسى عليه السّلام إلى المباهلة : ﴿ **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ ومعنى نبتهل نلتعن[2] ونتضرّع فى الدّعاء[3] يقال فى الكلام : ماله بهله الله أى لعنه الله وما له عليه بهلة الله يريد اللّعن[4] قال لبيد :

فى كهولٍ سادةٍ من قومه .:. نظر الدّهر إليهم فابتهل

أى اجتهد فى إهلاكهم[5] هذا هو أصل الابتهال ثمّ استعمل فى كلّ دعاءٍ يجتهد فيه وإن لم يكن التعاناً[6] .

ويقدّم السّياق فى الذّكر الأبناء بسبب منزلتهم العالية الرّفيعة عند الوالدين وقد قال عزّ من قائل[7] : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدّنيا** ﴾ ويذكر السّياق النّساء بعد الأبناء ، لأنّ منزلة النّساء فى مجال الزّينة تتأخّر فى العادة عن منزلة الأبناء ، ولأن منزلة الابناء تتأخر فى مجال الزينة كذلك عن منزلة المال . وليس الأمر كذلك بشأن الشّهوات الّتى زيّنها الله تعالى لنا فإنّ شهوة

(١) انظر مثلاً تفسير ابن كثير ١/٣٧٠

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٠٩ وتفسير ابن كثير ١/٣٦٨ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٤٩

(٣) تفسير القرطبىّ ١٣٤٦ والجلالين

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٠٩

(٥) تفسير القرطبىّ ١٣٤٦

(٦) الكشّاف ١/٣٢٦

(٧) سورة الكهف ٤٦

النّساء بنصّ القرآن الكريم تتقدّم البنين ويتقدّم البنون المال[1] هذه هى القاعدة العامّة والظّاهرة الغالبة .

أما وقد قدّم المرء فى هذا الأمر الجلل أغلى الأحباب الأبناء والنّساء فما بقى إلاّ أن يتوّج ذلك بتقديم نفسه . وهذا ما نبّه عليه السّياق : ﴿ **فقل تعالوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ والمعنى أنّا وأنتم وقد قدّمنا أحبابنا بحضورنا علينا أن نجتهد فى الدّعاء إلى الله تعالى بأن يجعل لعنته تعالى والطّرد من رحمته جلّ وعلا على الكاذبين منّا ومنكم[2] .

روى البخاريّ عن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء العاقب والسّيّد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيّاً فلاعنّاه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنّا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلاّ أمّياً فقال : لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم ياأبا عبيدة بن الجرّاح . فلمّا قام قال رسول الله ﷺ : هذا أمين هذه الأمّة . رواه البخارى ومسلم والتّرمذيّ والنّسائيّ وابن ماجه[3] ورُوِى أنّ المصطفى ﷺ غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعليّ خلفها وهو يقول : إذا أنا دعوت فأمّنوا[4] .

وكان وفودُ وفد نجران على النّبيّ ﷺ فى سنة تسع لأنّ الزّهريّ قال : كان أهل نجران أوّل من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ وآية الجزية إنّما

---

(١) الآية ١٤ من سورة آل عمران

(٢) تفسير الطّبريّ ٣/٢٠٩ وتفسير ابن كثير ١/٣٦٨

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٦٩

(٤) الكشّاف ١/٣٢٦ وانظر تفسير الطّبريّ ٣/٢١٢

أنزلت بعد الفتح وهى قوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ مِنَ الّذين أوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون** ﴾[1] .

ويعقّب على هذا القصص الحقّ عن عيسى عليه السّلام بآيتين تعقيبيّتين وهذه هى الآية الكريمة الأولى فإلى :

الآية رقم (٦٢)

قال تعالى : ﴿ **إنّ هذا لهو القصص الحقّ وما من إلهٍ إلّا الله وإنّ الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ هذا الّذى قصّه القرآن الكريم فى حقّ عيسى عليه السّلام هو القصص الحقّ والإخبار[2] الّذى لا شكّ فيه ولا امتراء من ربّ العالمين فعيسى عليه السّلام هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول وروحٌ منه جلّ وعلا وما من إلهٰ إلّا الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد العزيز فى ملكه وقدرته فلا يفوته شىء ، الحكيم فى صنعه وتدبيره فلا يغيب عن علمه وإحاطته شىء .

وهذه هى الآية الكريمة التّعقيبيّة الأخرى فإلى :

الآية رقم (٦٣)

قال تعالى :﴿ **فإن تولّوا فإنّ الله عليمٌ بالمفسدين** ﴾ .

فإن تولّى وفد نصارى نجران وغير نصارى نجران عن الحقّ وأعرضوا عن الصّواب وصدّوا غيرهم عن الصّراط المستقيم والنّور المبين فإنّ الله عليمٌ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٠/١ والآية هى التّاسعة والعشرون من سورة التّوبة
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٥٣/٣

بالمفسدين الّذين لا يُصلحون ولا يعمرون بل يفسدون ويهدمون . وإنّ التّحوّل من اسم الضّمير والعدول عنه فلا يجىء القول : فإنّ الله عليمٌ بهم ، إلى الاسم الظّاهر : بالمفسدين ، يفهم منه أنّ أولئك الّذين تولّوا وأعرضوا هم المفسدون فى الأرض الّذين يسيئون إلى أنفسهم وإلى سواهم . إنّ الله سبحانه وتعالى العليم بالمفسدين العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه سيكون أخذه للمفسدين الظّالمين أليماً شديداً ويوم القيامة يردّون إلى عذاب النّار وبئس المصير . وفى مقابل هؤلاء المفسدين هنالك المصلحون الّذين يتمسّكون بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ويترجمون ما علموا إلى عمل .

* * *

(٧)
تولى أهل الكتاب وبعض مظاهر مكرهم
الآيات (٦٤ ـ ٧٤)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآيِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞

***

بيّنت آيات القسم السّابق وجه الحقّ فى عيسى ابن مريم عليه السّلام ، والمعروف أنّ النّصارى فى مجموعهم ظلّوا مستمسكين باعتقادهم غير الصّحيح فى عيسى عليه السّلام . وتجاه هذا الإصرار على الاعتقاد الفاسد تخاطب أولى آيات القسم المصطفى ﷺ وتأمره بأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة فيها العدل والنّصفة للفريقين ودعا إليها التّوراة والإنجيل والقرآن والرّسل الكرام موسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهذه الكلمة العادلة أن يفردوه جلّ وعلا جميعاً بالعبادة وألّا يطيع مخلوقٌ مخلوقاً فى التّحريم والتّحليل فإن أعرضوا فقل لهم يامحمّد وقل لهم أيّها المسلم لله ربّ العالمين اشهدوا بأنّا مسلمون لله تعالى ربّ العالمين الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر . وتجاوز خطأ أهل الكتاب عيسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم وتخطّاه إلى إبراهيم عليه السّلام فزعم اليهود أنّه عليه السّلام كان يهوديّاً وزعم النّصارى أنّه عليه السّلام كان نصرانيّاً . ولّما كانت التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام إنّما أنزلهما الله تعالى بعد إبراهيم عليه السّلام فقد تأكّد لكل ذى لبّ أن أهل الكتاب ما قالوا ذلك عن إبراهيم عليه السّلام إلّا فى حال تعطيلهم عقولهم عن العمل . والآية الكريمة التّالية أشدّ تبكيتاً لأهل الكتاب لأنّهم إذا كان يصحّ لهم أن يجادلوا فيما لهم به علم فلا يصحّ لهم أن يجادلوا فيما ليس لهم به علم ، خاصّةً فى مجال الدّين والغيب . ويبيّن السّياق وجه الحقّ فى إبراهيم عليه السّلام الّذى ما كان يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين كاليهود الّذين قالوا عزيرٌ ابن الله والنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله . وإنّ فى ذكر الإسلام تنبيهاً إلى الرّباط الوثيق

بين حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام وحنيفيّة محمّد بن عبدالله ﷺ ، ويقوّى السّياق هذا التّنبيه فيبيّن أنّ أَوْلى النّاس بإبراهيم عليه السّلام للّذين اتّبعوه عليه السّلام والنّبىّ محمّد ﷺ الّذى يشار إليه باسم الإشارة : «هذا» الدّالّ على القرب ورفيع المنزلة عند بارئه جلّ وعلا والّذين آمنوا من أتباع محمّد ﷺ الّذين وليّهم الله تعالى . ومن البيّن أنّ ثمّة تجاوزاً لليهود والنّصارى فليست الأهمّيّة لقرب الزّمن أوحتّى النّسب ولكن لسلامة العقيدة وصحّة القصد ، فمن أتى الله تعالى بقلبٍ سليم هو الأولى بإبراهيم عليه السّلام .

ويزداد أهل الكتاب عمًى إلى عماهم فيتحوّلون من سيّىء الاعتقاد والادّعاء إلى سيّىء النّيّة والقول والعمل . إنّهم يتمنّون ضلال المؤمنين وما يضلّون فى الحقيقة إلاّ أنفسهم ، وهم فى سبيل ذلك يكفرون بآيات الله تعالى ، ويكتمون الحقّ بعد خلطه بالباطل . وهم يوصى بعضهم بعضاً أن يعلن دخوله فى الإسلام أوّل النّهار ويعلن خروجه منه آخره بقصد إثارة الشّكوك فى ضعاف المؤمنين ولكنّ الله تعالى فاضحٌ أولئك اليهود على رءوس الأشهاد ، وهم يُتْبِعون بسيّىء القول سيّىءَ الفعل .

وهم تمتلىء نفوسهم كبراً إذ يزعمون أنّ الهداية مقصورة عليهم ويقول بعضهم للبعض الآخر . لا تصدّقوا إلاّ من اتّبع دينكم وكان يهوديّاً . وهم تمتلىء نفوسهم حسداً لفضل الله تعالى على المؤمنين الّذين منّ الله تعالى عليهم فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم وأنزل عليهم أشرف كتبه . إنّ القوم يقول بعضهم للبعض الآخر : لا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجّكم أحدٌ عند ربّكم لأنّكم الأصحّ ديناً والأكرم عند الله تعالى . وقد أكذبهم الله تعالى فى كلّ ادّعاءاتهم وبيّن السّياق أنّ الفضل بيد الله تعالى الّذى يختصّ برحمته من يشاء . وقد اختصّ الله تعالى ذو الفضل العظيم خاتم النّبيّين وأمّة الإسلام بفضله العظيم وخيره العميم جلّ وعلا .

الآية رقم (٦٤)

قال تعالى : ﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون** ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأهل الكتاب ، اليهود والنّصارى . «تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم» هلمّوا وأقبلوا[١] إلى كلمةٍ سواء ، عدلٍ ونِصْفٍ نستوى نحن وأنتم فيها[٢] ولا يختلف فيها القرآن والتّوراة والإنجيل[٣] إلى كلمة عادلةٍ بيننا وبينكم[٤] فيها العدل والنّصفة[٥] لنا ولكم . ومادامت الذّات العليّة هى الآمرة بتلك الكلمة فكيف لا يكون فيها العدل والإنصاف ، وكيف لا يكون الإقبال عليها علوّاً وسموّاً ، بل كيف لا يكون النّداء إليها والدّعاء علوّاً وسمُواً على نحو ما يفهم من القول : «تعالوا» المرتبط بعلوّ المكان والمكانة .

وهذه الكلمة الّتى تطلق هنا على الجملة المفيدة[٦] هى ألّا نعبد جميعاً إلّا الله تعالى المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له جلّ وعلا ، فبهذا بعث الله تعالى أنبياءه ورسله وفى مقدّمتهم موسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولا نشرك به جلّ وعلا شيئاً من ملكٍ مقرّب أو نبىّ مرسلٍ أو أىّ مخلوقٍ من مخلوقات الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله

(١) تفسير الطّبرىّ ٢١٣/٣ ، ٢١٤
(٢) تفسير ابن كثير ٣٧١/١
(٣) الكشّاف ٣٢٧/١
(٤) البحر المحيط ٤٨٣/٢
(٥) تفسير القرطبىّ ١٣٤٨
(٦) تفسير ابن كثير ٣٧١/١

تعالى ، فلا يطيع بعضنا بعضاً فى معصية الله تعالى[1] ولا يدين بعضنا لبعضٍ بالطّاعة فيما أمر به من معاصى الله[2] وذلك على غرار اتّخاذ اليهود أحبارهم وهم العلماء واتّخاذ النّصارى رهبانهم وهم العبّاد أرباباً من دون الله تعالى بطاعتهم فيما أمروا به من الكفر والمعاصى وجعل طاعتهم شرعاً . قال تعالى[3] : ﴿ **وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنّى يؤفكون . اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون** ﴾ عن عدىّ بن حاتم ما كنّا نعبدهم يارسول الله . قال : أليس كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال هو ذاك[4] .

هذه هى مقوّمات الكلمة العادلة المنصفة لنا ولكم كما بيّنها الله سبحانه وتعالى لنا ولكم عن طريق رسله وعن طريق القرآن الكريم كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية والّذى تكفّل الله تعالى بحفظه إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها . فإن قبلتم وعملتم بما علمتم فقد اهتديتم وإن تولّيتم وأعرضتم وواصلتم مسيرة الكفر والضّلال فاشهدوا يامن ضللتم عن سواء السّبيل بأنّا مسلمون لله ربّ العالمين مخلصون له جلّ وعلا العبادة منقادون لإرادته خاضعون لمشيئته راضون بحكمه .

وامتداداً لإعراض أهل الكتاب عن الحقّ وإصرارهم على الباطل واستمراراً لكذبهم وكيدهم خوضهم فى الحديث والجدل والخصام عن إبراهيم عليه السّلام دون علم وزعم اليهود أنّه عليه السّلام كان يهوديّاً وزعم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٧١/١ وتفسير الطّبرىّ ٢١٥/٣
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢١٣/٣
(٣) سورة التّوبة ٣٠ ، ٣١
(٤) البحر المحيط ٤٨٤/٢

النّصارى أنّه عليه السّلام كان نصرانيّاً وقد بيّن القرآن الكريم وجه الحقّ فى ذلك وفيما يتعلّق بذلك ويترتّب عليه وذلك فى أربع آيات كريمات هذه هى أولاهنّ فإلى :

الآية رقم (٦٥)

قال تعالى : **﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجّون فى إبراهيم وما أُنزلت التّوراة والإنجيل ألّا من بعده أفلا تعقلون ﴾** .

سبب النّزول

عن ابن عبّاس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان إبراهيم ألّا يهوديّاً وقالت النّصارى ما كان إبراهيم إلّا نصرانيّاً فأنزل الله عزّ وجل فيهم : ياأهل الكتاب لم تحاجّون فى إبراهيم وما أنزلت التّوراة والإنجيل إلّا من بعده أفلا تعقلون . قالت النّصارى كان نصرانياً وقالت اليهود كان يهوديّاً فأخبرهم الله أنّ التّوراة والإنجيل ما أنزلا إلّا من بعده وبعده كانت اليهوديّة والنّصرانيّة[١] .

إنّ الآية الكريمة تنادى اليهود والنّصارى بأجمل صفاتهم وهى كونهم أهل كتابٍ سماوىّ ، فاليهود يتّبعون موسى عليه السّلام الّذى أنزل الله تعالى عليه التّوراة ، والنّصارى يتّبعون عيسى عليه السّلام الّذى أنزل الله تعالى عليه الإنجيل ، ومعنى اتّباع الرّسول الكريم والكتاب العظيم العمل بتعاليمهما والمحاجّة فى ضوء تلك التّعاليم فكيف يجادل اليهود والنّصارى ويخاصمون[٢]

(١) تفسير الطّبرىّ ٢١٦/٣
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢١٥/٣

فى إبراهيم عليه السّلام وكيف يزعم اليهود أنّه عليه السّلام كان يهوديّاً فى الوقت الّذى يعلمون أنّ التّوراة إنّما أنزلت من بعده عليه السّلام وأنّ اليهوديّة إنّما وجدت بعد ذلك . وكيف يزعم النّصارى أنه عليه السّلام كان نصرانيّاً فى الوقت الّذى يعلمون أنّ الإنجيل إنّما أنزل من بعده عليه السّلام بل بعد التّوراة ، وأنّ النّصرانيّة إنّما وجدت بعد ذلك .

كيف غفل القوم عن هذه المسألة البديهيّة وأين غابت عقولهم حتّى خاضوا فى هذه المسألة الّتى تقتضى استعمال العقل استعمالاً صحيحاً وإلّا تورّط أصحابها فى مثل ما تورّط فيه اليهود والنّصارى حينما عطّلوا عقولهم عن العمل : «أفلا تعقلون» .

والآية الكريمة التّالية تعّمق هذا الاستفهام الإنكارىّ فإلى :

الآية رقم (٦٦)

قال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم . والله يعْلمُ وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

ها للتّنبيه وأنتم مبتدأ وهؤلاء بمعنى ياهؤلاء وحاججتم خبر المبتدأ(١) إنّ الآيـة الكريمة تنبّه أهل الكتاب الّذين تورّطوا فى هذا الحمق وتناديهم قائلةً : ها أنتم ياهؤلاء جادلتم وخاصمتم فيما لكم به علم من أمر موسى عليه السّلام فى حقّ اليهود وأمر عيسى عليه السّلام فى حقّ النّصارى استناداً إلى ما بين أيديكم من علمٍ تطمئنّون إلى صحّته فى التّوراة والإنجيل وغيرهما فِلمَ ياأهل الكتاب تجادلون وتخاصمون فيما ليس لكم به علمٌ من أمر إبراهيم عليه

(١) انظر تفسير القرطبىّ ١٣٥٠ والكشّاف ٣٢٨/١ وتفسير ابن عطيّة ١٥٩/٣ والجلالين والبحر المحيط ٤٨٦/٢

السّلام الّذى بعثه الله تعالى قبل موسى وعيسى عليهما السّلام وأنزل عليه الصّحف قبل التّوراة والإنجيل .

إنّ الأوْلى بالعاقل ألاّ يقول بغير علم خاصّةً حينما تكون الأمور عقليّةً وتستند إلى المصادر الموثوقة كما هو الحال بشأن إبراهيم عليه السّلام . وبما أنّكم ليس لديكم العلم الصّحيح الّذى يخوّلكم الحديث فى هذا الشّأن بينما جاءكم هذا العلم الصّحيح فى هيئة الوحى الّذى أوحيت به إلى محمّد بن عبدالله ﷺ قرآناً كريماً وسنّة مطهّرة لذا وجب عليكم قبول هذا العلم والتمسّك به وإذاعته وهجر كلّ ما يتعارض معه ويصطدم به . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم وأنتم لا تعلمون ، وقد علّم الله تعالى عبده وحبيبه محمّد بن عبدالله ﷺ فعليكم اتّباع هذا الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى تجدونه مكتوباً عندكم فى التّوراة والإنجيل واستقاء العلم الصّحيح منه .

وليس بخافٍ التّدرّج فى الاستفهام فى الآيتين الكريمتين والاتّجاه نحو القوّة . إنّ فى القول : «لم تحاجّون فى إبراهيم وما أنزلت التّوراة والإنجيل إلاّ من بعده» استفهاماً إنكاريّاً أن يجادلوا فى إبراهيم عليه السّلام مع تنبيههم إلى سبب الخطأ . وإنّ فى القول : «هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم» إثباتاً لعدم علم أهل الكتاب عن إبراهيم عليه السّلام وإثباتاً لعلمهم شيئاً آخر غير هذا ، وتأكيداً للاستفهام الإنكارىّ السّابق وتحوّلاً من الإنكار مع تبيين سبب الإنكار إلى الإنكار مع تقديم الدّليل العقلىّ وقد غابت عقول القوم وفى ذلك إثباتٌ لحمق القوم تلا ذلك إثبات جهلهم وعدم علمهم .

وإنّ هذا التّدرّج حيث القوّة فى طرح الأدلّة وتقليب الأمور على وجوهها المختلفة فى الآيتين الكريمتين أكّدته الآية الكريمة التّالية الّتى بيّنت بوضوح وجه الحقّ فى المسألة وفى ذلك فضحٌ لكلّ خطأ وكشفٌ لكلّ زيف فإلى :

الآية رقم (٦٧)

قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر الحقيقة وتصدر الحكم فما كان إبراهيم عليه السّلام يهوديّاً كما يزعم اليهود ولا نصرانيّاً كما يزعم النّصارى ، وكيف يكون يهوديّاً أو نصرانيّاً وهو السّابق عليهما زمناً ولكن كان إبراهيم عليه السّلام حنيفاً مسلماً ، مائلاً بالدّين الّذى بعثه الله تعالى به دين الإسلام لله ربّ العالمين الّذى بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين ، مائلاً بهذا الدّين عن كل الأديان الباطلة والمعتقدات الفاسدة مرسياً لدعائم التّوحيد مستسلماً لله ربّ العالمين مترجماً إلى عمل ما أوحى الله تعالى به إليه من علم .

وقد توّجت هذه النّعوت بكونه عليه الصّلاة والسّلام ماكان وقتاً من الأوقات مشركاً لله ربّ العالمين فقد آتاه الله سبحانه وتعالى رشده من قبل فأفرده جلّ وعلا وحده لا شريك له بالعبادة .

وفى القول عن إبراهيم عليه السّلام : «وما كان من المشركين» تعريضٌ باليهود الّذين قالوا عزيرٌ ابن الله وبالنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله : «كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا» .

أما وقد حصل القول الفصل فى هذا الأمر وظهر لكلّ ذى عينين خطأ اليهود والنّصارى فى زعمهم أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يهوديّاً فى نظر اليهود نصرانيّاً فى نظر النّصارى فمن أولى النّاس إذن بإبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء وأحقّ باتّباعه واتّخاذه أسوة حسنة . الجواب فى الآية الكريمة التّالية . فإلى :

الآية رقم (٦٨)

قال تعالى : ﴿ إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبىّ والّذين آمنوا . والله ولىّ المؤمنين ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ أَوْلى النّاس بإبراهيم عليه السّلام وأحقّهم به[1] وبنصره وولايته[2] وقولهم إنّ لهم فيه عليه الصّلاة والسّلام أسوةً حسنة للّذين اتّبعوه عليه الصّلاة والسّلام وآمنوا به وصدّقوه وسلكوا طريقه ومنهاجه فوحّدوا الله مخلصين له الدّين وسنّوا سنّته وشرّعوا شرائعه وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به[3] وهذا النّبىّ الأمّىّ محمّد بن عبدالله ﷺ هو الّذى بعثه الله تعالى بالحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام . والمعروف أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ هو النسخة الثّانية الكاملة من الحنيفيّة السّمحة دين أبينا إبراهيم عليه السّلام . وانظر إلى اسم الإشارة الدّالّ على القرب : «وهذا النّبى» وفى ذلك دليلٌ على رفيع منزلة المصطفى ﷺ عند بارئه وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يشار إليه بما يفيد القرب ورفيع المنزلة .

ومن البيّن أنّ السّياق قدّم الّذين اتّبعوا إبراهيم عليه السّلام لأنّهم المعاصرون له عليه الصّلاة والسّلام والأقرب منه زمناً وسلوكاً . تلا ذلك الحديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين لقوّة الشّبه بين رسالة إبراهيم عليه السّلام ورسالة محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

ونصّ السّياق بعد ذلك على الّذين آمنوا ، والمراد بهم الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن الكريم دستورا . والمعروف أنّ هؤلاء الّذين آمنوا الّذين يطبّقون شريعة محمّد ﷺ

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢١٨

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٢١٨ وانظر تفسير القرطبىّ ١٣٥١ والكشّاف ١/٣٢٨

(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٢١٨

هم أقرب النّاس إلى إبراهيم عليه السّلام بسبب شدّة الشّبه بين ما جاء به إبراهيم عليه السّلام وماجاء به محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

وحينما نعلم أنّ إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء وأنّ محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم الأنبياء وبين النّبيّين الكريمين الكثير من الأبياء والأمم ومن هؤلاء موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام واليهود والنّصارى ، وحينما نتبيّن أنّ السّياق قفز من أتباع إبراهيم عليه السّلام إلى محمّد بن عبدالله ﷺ وأمّته ندرك الفضل من الله تعالى علينا نحن المسلمين أتباع محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى أحيا الله تعالى به حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام الّتى اندثرت أو كادت تندثر . وبما أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ ناسخٌ لسائر الأديان ، وبما أنّ القرآن الكريم ناسخٌ لكلّ الكتب السّماويّة الأخرى مهيمنٌ عليها ، وبما أنّ المصطفى ﷺ هو الوارث الشّرعىّ لسائر النّبيّين ، وبما أنّ رسالة محمّد بن عبدالله ﷺ للعالمين ، فذلك كلّه معناه أنّ على النّاس قاطبة ، يستوى فى ذلك أهل الكتاب وسواهم ، أن يتّبعوا الرّسول النّبىّ الأمّىّ محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى وعد الله تعالى، ووعده الحقّ، بإظهار دينه على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله شهيدا . وبذلك يكونون جميعاً من الّذين آمنوا ومِنْ أولى النّاس وأحقّهم بإبراهيم عليه السّلام أبى الانبياء الّذى جعله الله تعالى للنّاس إماما .

وتتوّج كلّ هذه البشائر بكون هؤلاء الّذين آمنوا بمحمّد ﷺ هم الّذين يتولّاهم الله تعالى ويأخذ بأيديهم وينصرهم على عدوّه جلّ وعلا وعدوّهم : «والله ولىّ المؤمنين» والله ناصر المؤمنين بمحمّد المصدّقين له فى نبوّته وفيما جاءهم به من عنده على من خالفهم من أهل الملل والأديان[1] والله سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النّصير .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢١٨/٣

وإنّ أهل الكتاب الّذين تولّوا عن دعوة الحقّ وعطّلوا عقولهم بزعمهم أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يهوديّاً عند اليهود نصرانيّاً عند النّصارى قد تجاوزوا ذلك كلّه إلى المكر بالمسلمين والكيد لهم وإنّ الآيات الكريمات التّاليات تتحدّث فى هذا المكر فإلى :

الآية رقم (٦٩)

قال تعالى : ﴿ **ودّت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلّونكم وما يضلّون إلّا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ .

بما أنّ اليهود هم الّذين كانوا يسكنون المنطقة آنذاك فلا مانع من الذّهاب إلى أنّ المراد بالطّائفة من أهل الكتاب جماعة من اليهود(١) فهذه الطّائفة من اليهود ودّت وتمنّت(٢) لو يضلّونكم أيّها المسلمون ويصرفونكم عن دينكم ويردّونكم إلى الشرّك إن لم يستطيعوا تحويلكم إلى دينهم . ويقال إنّ الآية الكريمة نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنى النّضير وقريظة وبنى قينقاع إلى دينهم(٣) ومن البيّن أنّ الباعث لليهود على العمل على صرف المسلمين عن الصراط المستقيم هو الباعث لسواهم على ذلك ألا وهو داء الحسد، فقد عزّ عليهم أن يصطفى الله تعالى خاتم النّبيّين من العرب وليس من بنى إسرائيل ، وأن يكون العرب مادّة الإسلام الأولى وليس بنى إسرائيل .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ هؤلاء الماكرين بالمسلمين الحريصين على إضلالهم ما يضلّون إلا أنفسهم لأنّ المسلمين لا يصغون إليهم بل إنّ

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ٢١٩/٣ والكشّاف ٣٢٨/١ وتفسير ابن عطيّة ١٦٣/٣ والبحر المحيط ٤٨٨/٢ وتفسير القرطبىّ ١٣٥٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢١٩/٣

(٣) تفسير القرطبىّ ١٣٥٢ والكشّاف ٣٢٨/١

المسلمين على علمٍ أكيد بأنّ القوم أعداؤهم اللّدودون الّذين يريدون لهم الشّرور ويتربّصون بهم الدّوائر ، ثمّ إنّ إثم العمل على اضلال المسلمين عائدٌ على هؤلاء الضّالّين المضلّين . ووراء هذا وذاك إنّ انشغال اليهود ومن شاكلهم بالعمل على إضلال المسلمين صارفٌ لهؤلاء عن إعادة النّظر فى موقفهم الخاطىء والعودة إلى صراط العزيز الحميد وتصديق القرآن الكريم واتّباع الرّسول العظيم واعتناق دين الإسلام القويم .

وانظر إلى القول : «وما يشعرون» الّذى يصف أولئك الضّالين ببلادة الإحساس وموت الشّعور بحيث إنّهم لقلّة فهمهم وبلادة إدراكهم فى المعنويّات بمنزلة من لا يشعر بالشّعار الّذى يرتديه ويلامس شعر جسده فى المحسوسات . وليس وراء هذه البلادة فى الإحساس بلادة .

وعلى الرّغم من هذا المكر بالمسلمين فإنّ القرآن الكريم فى طريقته الكريمة وأسلوبه العفيف ينبّه القوم إلى خطئهم وإلى عدم الشّكر لله تعالى الّذى كرّمهم بالكتاب السّماوى وذلك بكفرهم ببعض هذا الكتاب السّماوىّ فإلى :

الآية رقم (٧٠)

قال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .

إنّ القول : «ياأهل الكتاب» منبّه أهل الكتاب إلى فضل الله تعالى عليهم بإنزال التّوراة على موسى عليه السّلام وإنزال الإنجيل على عيسى عليه السّلام ، وقد أمر الله تعالى اليهود والنّصارى بإقامتهما . وممّا جاء فى كلٍّ من التّوراة والإنجيل نعت محمّد بن عبدالله ﷺ . فكيف يمكن التّوفيق بين اعتقاد

اليهود والنّصارى صحّة التّوراة والإنجيل وبين كفرهم بما فى التّوراة والإنجيل من نعت خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين .

ويُشتمُّ من هذا الاستفهام الإنكار على القوم هذا التّناقض بين الموقفين والتّوبيخ بسببه .

وبما أنّ أَنْفُسَ أهل الكتابين قد استيقنت فى أعماقها صدق الرّسول الكريم وصحّة القرآن الكريم ومع ذلك هم يكذّبون الرّسول الكريم ظلماً وعلوّاً ، ويجحدون آيات القرآن الكريم بغياً وعتوّاً ، فإنّ الكفر بآيات الله تعالى فى الآية الكريمة يصحّ أن يتّسع فيشمل القرآن الكريم الّذى يعتقد أهل الكتاب فى أعماقهم أنّه كلام ربّ العالمين موحىً به إلى محمد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين .

ويتكرّر فى الآية الكريمة التّالية الاستفهام الإنكارى ويتأكّد التّوبيخ ويزداد الإنكار شدّة والتّوبيخ حدّة فإلى :

الآية رقم (٧١)

قال تعالى : ﴿ **ياأهل الكتاب لِمَ تَلْبِسون الحقّ بالباطل وتكتمون بالحقّ وأنتم تعلمون** ﴾ .

يجىء فى الآية الكريمة على غرار الآية الكريمة السّابقة القول : «ياأهل الكتاب» كما يجىء الاستفهام الإنكارى الّذى فهمنا منه تقريع أهل الكتاب وتوبيخهم . وإنّما كان الإنكار والتّوبيخ أشدّ وأحدّ من سابقه لأنّ لبس الحقّ بالباطل ، بمعنى خلطه وتغطيته[1] وكتمان الحقّ ، يقوم بهما أهل الكتاب عن علمٍ عمـداً مع سبق إصرار .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٢٠ وتفسير القرطبىّ ١٣٥٣ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٦٤ والبحر المحيط ٢/٤٩٠ والجلالين

إنّ الآية الكريمة تنادى أهل الكتاب الّذين أكرمهم الله تعالى بهذا الكتاب السّماوىّ الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم والّذى ينبغى أن يترجم أتباعه تعاليمه إلى عمل وتنكر عليهم عملهم بعكس ما علموا وتوبّخهم على خلطهم الحقّ الّذى أوحى الله تعالى به فى التّوراة والإنجيل بباطلهم الّذى يتمثّل فى تحريف الكتابين الكريمين وتزويرهما وعلى تغطيتهم ذلك الحقّ ، ومن ذلك الحقّ نعت النّبىّ محمّد ﷺ ، بتحريفاتهم الباطلة وتأويلاتهم الفاسدة وإخفائهم ما لا يرغبون فى إعلانه وإذاعته من الكتابين الكريمين . إنّ هذا هو معنى كتمانهم الحقّ الّذى منه نعت النّبىّ الهاشمىّ القرشىّ العربىّ محمّد بن عبدالله ﷺ . وإنّ الدّاهية الكبرى والطّامّة العظمى تتمثّلان فى علم أهل الكتاب ما يأتون ويدعون وتعمّدهم وإصرارهم على تغطية الحقّ بباطلهم وكتمانهم الحقّ الّذى أوحى الله تعالى به إلى الرّسولين الكريمين موسى وعيسى عليهما صلوات الله تعالى وسلامه .

ومن البيّن التّشابه فى الصّياغة وظاهرة التّلاؤم الصّوتىّ بين الآيتين الكريمتين .

ونستطيع أن نذهب إلى أنّ الآية الكريمة الأولى ذات علاقةٍ بهذه الآية الكريمة من سورة البقرة . قال تعالى[1] : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزىٌ فى الحياة الدّنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون** ﴾ وأنّ الآية الكريمة الثّانية ذات علاقةٍ بهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام . قال تعالى[2] : ﴿ **وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شىء . قل من أنزل الكتاب الّذى جاء به موسى نوراً وهدىً للنّاس تجعلونه قراطيس**

(١) سورة البقرة ٨٥

(٢) سورة الانعام ٩١

تبدونها وتخفون كثيراً وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثمّ ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ والآية الكريمة من سورة المائدة . قال تعالى[1] : **﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين ﴾** .

ومن البيّن أنّ الخطأ الّذى ارتكبه أهل الكتاب والّذى نصّت عليه الآية الكريمة الثّانية مبنىٌّ على الخطأ الّذى ارتكبه أهل الكتاب والّذى نصّت عليه الآية الكريمة الأولى ولهذا كان الإنكار أشد والتّوبيخ أحدّ .

وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة على هاتين الآيتين الكريمتين تشير إلى ما يودّه أهل الكتاب ويتمنّونه من ضلالٍ للمؤمنين ، فإنّ الآية الكريمة التّالية لهاتين الآيتين الكريمتين تتجاوز الأمانى إلى الأقوال فإلى :

الآية رقم (٧٢)

قال تعالى : **﴿ وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب آمنوا بالّذى أُنزل على الّذين آمنوا وجه النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون ﴾** .

والمعنى أنّ هذه الطّائفة من أهل الكتاب وهذه الجماعة من اليهود الّذين كانوا يسكنون المنطقة آنذاك قال بعض أفرادها للبعض الآخر آمنوا بالّذى أنزل على الّذين آمنوا وجه النّهار وصدّقوا بالقرآن الكريم أوّل النّهار[2] وصدره[3] وصلّوا مع المسلمين صلاة الفجر خلف المصطفى ﷺ واكفروا آخر النّهار وعودوا إلى دينكم وارتدّوا إلى اليهوديّة لعلّ ضعاف الإيمان من

---

(١) سورة المائدة ١٥

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٢١ والكشّاف ١/٣٢٨ والجلالين وتفسير ابن كثير ١/٢٧٣ وتفسير ابن عطيّة ٣/١٦٨ وتفسير القرطبىّ ١٣٥٣

(٣) تفسير ابن عطيّة ٣/١٦٨

المسلمين يقولون إنّ اليهود وهم أهل الكتاب لم يرتدّوا إلى دينهم خلال نهارٍ واحدٍ إلّا لأنّهم تبيّنوا فى الإسلام عيباً واكتشفوا فيه نقصاً . لقد ظنّ اليهود أنّ هذه المؤامرة على الإسلام ورسول الإسلام والمسلمين لن يطّلع عليها مخلوق من غيرهم وقد فضحهم الله تعالى فى قرآنٍ يتلى إلى يوم الدّين وأخرج أضغانهم وأخزاهم على رءوس الأشهاد .

وسمّى أوّل النّهار وجهاً له لأنّه أحسنه وأوّل ما يواجه النّاظر فيراه منه كما يقال لأوّل الثّوب وجهه[1] تشبيهاً بوجه الإنسان ، وكذلك تقول : صدر النّهار وغرّة العام والشّهر[2] وتستمر هذه الطّائفة فى قولها الّذى بيّنته الآية الكريمة التّالية وردّت عليه فوراً ، وعن هذه الآية الكريمة قال القرطبىّ[3] : «وهذه الآية أشكل ما فى السّورة» والله تعالى المستعان فإلى :

الآية رقم (٧٣)

قال تعالى : ﴿ **ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربّكم . قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله واسعٌ عليم** ﴾ .

بين يدى دراستنا المتأملة للآية الكريمة نودّ أن نبيّن الأجزاء الّتى تتألف منها . إنّها تتألّف من ثلاثة أجزاء أو عناصر .

العنصر الأوّل هو الكلام الّذى جرى على ألسنة هذه الطّائفة من اليهود . وهذا الكلام هو : ﴿ **ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم . . . . أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم أويحاجّوكم عند ربّكم** ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٢٢ وانظر تفسير القرطبىّ ١٣٥٣
(٢) تفسير ابن عطيّة ٣/١٦٨
(٣) تفسير القرطبىّ ١٣٥٤

العنصر الثّانى الرّدّ الفوريّ فى موضعين ، وكلٌّ من الموضعين يبدأ بجملة : «قل» وبما أنّ الرّدّ الفوريّ الأوّل : «قل إنّ الهدى هدى الله» قد أعقبه تمام الكلام الّذى جرى على ألسنة الطّائفة لذا قيل عن هذا الرّدّ الفوريّ الأوّل إنّه جملة معترضة[1] ولو أنّ الرّدّ الفورى الأخير أعقبه كلامٌ لتلك الفئة لكان جملةً معترضةً أخرى ، وبما أنّه لم يعقبه كلامٌ لتلك الفئة إنّما أعقبه تذييل لذا اشتركت الجملتان اللّتان تبدآن بجملة «قل» أو الرّدّان فى تفنيد كلٍّ من الكلامين السّابقين عليهما . وهذا هو الرّدّ الأخير : «قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء» .

العنصر الثّالث التّذييل : «والله واسعٌ عليم» .

فما معنى القول : «ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم» ولا تصدّقوا إلاّ من تبع دينكم فكان يهوديّاً[2] ومن البيّن أنّ هذه الطّائفة من اليهود تعتقد أنّها هى الفئة الوحيدة المهتدية وأنّ غيرها على ضلال . وبِما أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ ناسخٌ لكلّ الدّيانات السّماويّة الأخرى ومن باب الأولى سواها ولّما كان الدّين عند الله تعالى هو دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ وأكْملَه ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا لذا كان ثمّة ردٌّ فوريّ فى الآية الكريمة على هذه الطّائفة من اليهود الّذين حصروا الهداية فى اليهوديّة وكان ثمّة دحضٌ لهذا الادّعاء وتبينٌ أنّ الهدى الحقيقيّ هو هدى الله تعالى الّذى بعث به أخيراً خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ . ومن البيّن أنّ الرّدّ يتعلّق بالهداية فيثبتها فى حقّ دين الإسلام النّاسخ لليهوديّة فلا معنى لقول هذه الطّائفة : لا تؤمنوا إلاّ لمن اتّبع دينكم[3] .

(١) انظر تفسير الطّبريّ ٣/٢٢٣ والجلالين
(٢) تفسير الطّبريّ ٣/٢٢٣ وانظر ٢٢٤
(٣) تفسير الطّبريّ ٣/٢٢٤

وبعد الرّدّ الفوريّ الأوّل الّذى يثبت الهداية الحقيقيّة لدين الإسلام والّذى قلنا إنّه جملة معترضة يستمرّ القول على لسان هذه الطّائفة : «أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربّكم» والمعنى ولا تؤمنوا ولا تصدّقوا أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم من فضل الله تعالى عليكم فإنّكم شعب الله تعالى المختار ولا تؤمنوا ولا تصدّقوا أن يجادلكم « أو أن يحاجّكم عند ربّكم أحدٌ بإيمانكم لأنّكم أكرم على الله منهم بما فضّكلم به عليهم»[1] من اصطفائكم بموسى عليه السّلام الّذى أنزل الله تعالى عليه التّوراة وبالكثير من مظاهر التّفضيل فى حياة موسى عليه السّلام وبعد موته .

ولّما كان حديث هذه الطّائفة بِشقَّيْه متعلّقاً بفضل الله تعالى على بنى إسرائيل الّذى يريدون ويتمنّون أن يكون خاصّاً بهم مقصوراً عليهم غير واصل إلى أحدٍ سواهم وبخاصّةٍ أمّة الإسلام فقد كان الرّدّ الفوريّ الآخر متعلّقاً بهذا الفضل داحضاً ادّعاءات بنى إسرائيل مخيّباً آمالهم مقرّراً أوهامهم ناعياً عليهم حسدهم لنبىّ الإسلام وأمّة الإسلام : «قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء» والمعنى قل يامحمّد لهؤلاء الّذين يحسدون المسلمين على ما آتاهم الله من فضله والّذين يريدون أن يكون فضل الله تعالى مقصوراً عليهم وحدهم دون سواهم مع أنّهم خانوا الأمانة واثبتوا أنّهم لم يعودوا أهلاً لفضل الله تعالى القديم على سلفهم الصّالح ، قل يامحمّد لهذه الفئة الحاسدة الحاقدة إنّ الفضل بيد الله تعالى وحده لا شريك له وإنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسْألون يؤتى هذا الفضل من يشاء من عباده فأكرم محمّد بن عبدالله ﷺ بنعمة ختم النّبوّة وهو الرّسول الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام بينما كلّ الأنبياء الآخرين من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، وأكرم العرب بحمل الرّسالة ابتداءً وباصطفائهم مادّة للإسلام أولى

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٢٤/٣

وباصطفائهم بالكتاب العزيز الّذى أنزله الله تعالى خاتماً للكتب السّماويّة على خاتم الأنبياء والمرسلين .

وهكذا يتبيّن أنّ كلاًّ من الرّدّين الفوريّين ينقض ما قبله من ادّعاء اهتداء وانفرادٍ به فى الأوّل ومن ادّعاء فضلٍ وانفرادٍ به فى الآخر .

ويأتى بعد ذلك التّذييل : «والله واسعٌ عليم» والمعنى والله واسع الفضل عظيمه عليمٌ بمن هو أهلٌ له ويستحقّه .

واللّطيف فى الأمر أنّ التّذييل لا ينصّ فيه على الفضل اكتفاءً بذكر الفضل فى الرّدّ الفوريّ الآخر . واللّطيف فى الأمر كذلك أنّ هذا الفضل ينصّ عليه فى تذييل الآية الكريمة التّالية لأنّها تحقّق فيها نعت السّعة الّذى أشير إليه فى هذه الآية الكريمة السّابقة ، ونعت السّعة تحقّق لأنّ فى الآية الكريمة نصّاً على الرّحمة الّتى اختصّ الله تعالى الواسع الفضل بها من يشاء من عباده ، محمّد بن عبدالله ﷺ وأمّة الإسلام فإلى .

الآية رقم (٧٤)

قال تعالى : ﴿ **يختصّ برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

إنّ من رحمة الله تعالى بعباده أن يبعث إليهم رحمته المهداة ونعمته المسداة محمّد بن عبدالله ﷺ وقد قال تعالى[1] :﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين** ﴾ وإنّ اصطفاء الله تعالى هذا الرّسول الكريم بهذه النّعمة من مظاهر فضل الله تعالى على هذا الرّسول الكريم . وقد اقترن بهذا الفضل من الله تعالى الكثير من الفضل مظهراً من مظاهر سعة رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء . فالله سبحانه وتعالى اصطفى العرب مادّة الإسلام الأولى

(١) سورة الأنبياء ١٠٧

لحمل هذه الرّسالة ابتداءً ، واصطفى المصطفى ﷺ بإنزال آخر الكتب السّماويّة وأشرفها عليه ، وقد تكفّل الله تعالى بحفظ هذا الكتاب العزيز إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، ووعد ووعده الحقّ بإظهار هذا الدّين على الدّين كلّه وكفى بالله شهيدا ، واصطفى الله سبحانه وتعالى هذه الأمّة بهذا الكتاب العزيز الّذى هو عزّها ومجدها وشرفها وسؤددها . إلى غير ذلك من مظاهر الفضل العظيم من الله تعالى ورحمته الّتى اختصّ بها نبىّ الإسلام وأمّة الإسلام . فما أعظم فضل الله تعالى على أمّة الإسلام وما أجدرها بالعضّ على هذا الدّين بالنّواجذ والقيام بأداء حق الأمانة وبواجب الشّكر لله تعالى على فضله وامتنانه ، رحمته ونعمته بتطبيق تعاليم هذا الدّين والعمل الجادّ المضنى من أجل نشره فى الخافقين .

***

(٨)
عز الأمانة وذل الخيانة وثواب الأمين وعقاب الخائن
الآيات (٧٥ ـ ٩٢)

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا
خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِالۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذۡ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ
وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ
قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَاشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيۡرَ دِينِ اللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَالۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾
قُلۡ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَالۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ
مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ الۡإِسۡلَٰمِ
دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي الۡأٓخِرَةِ مِنَ الۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيۡفَ يَهۡدِي اللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ
أَنَّ الرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ الۡبَيِّنَٰتُۚ وَاللَّهُ لَا يَهۡدِي الۡقَوۡمَ
الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ اللَّهِ
وَالۡمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ

عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾
لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

***

الأمانة فى أعزّ صورها الوفاء لله تعالى بالعهد وذلك بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وعليه فالإيمان هو الأمانة والكفر هو الخيانة ، ومن مظاهر صور الأمانة والوفاء بها أو خيانتها ما يتّصل منها بالأموال . إنّ ردّ الأمانات إلى أهلها أمانة وإنّ أكل أموال النّاس بالباطل خيانة . وإنّ آيات هذا القسم تتوزّع بين هاتين الصّورتين من الأمانة أو الخيانة .

ويبدأ الحديث بالنّصّ على أنّ مِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تأمنه بمالٍ كثيرٍ وذهبٍ وفير يؤدّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بأقلّ كميّة من المال يخون الأمانة ولا تكاد تحصل منه على حقّك إلاّ بعد استنفاد كلّ الجهود بما فى ذلك الحكومة . أمّا الباعث لأهل الكتاب فى مجموعهم على الخيانة فى مجال المال فهو قولهم إنّهم ليس عليهم أدنى لومٍ أو تثريب فى أكل أموال العرب الأمّيّين بالباطل . إنّهم يقولون على الله تعالى الكذب عن عمدٍ وسبق إصرار . ويحثّ السّياق على الوفاء بالعهد فى كلّ المجالات ويبشّر الوفىّ التّقىّ بأنّ الله سبحانه وتعالى يحبّه . أما الّذين اشتروا بآيات الله تعالى وبإيمانهم ثمناً قليلاً فأولئك لاحظّ لهم من الخير يوم القيامة ولا يكلمهم الله تعالى دليلاً على إعراضه جلّ وعلا عنهم ، ولا ينظر إليهم دليلاً على غضبه عليهم ولا يطهّرهم من ذنوبهم لذا فإنّ لهم عذاباً أليماً فى نار جهنّم . وإنّ من أهل الكتاب فريقاً آخر يلوى لسانه بالكتاب الموحى به إلى موسى وعيسى عليهما السّلام تحريفاً وتصحيفاً وزيادةً ونقصاً وليّا لأعناق النّصوص حسب أهوائهم وترنّماً بما يدسّونه فى الكتاب من تآليفهم كى يُظَنَّ أنّه من الكتاب

الموحى به من ربّ العالمين ويقولون هذا الكلام من عند الله تعالى وما هو من عند الله تعالى ويقولون على الله تعالى الكذب عن عمدٍ وسبق إصرار ، وإنّ رسول الله تعالى المبعوث إليهم برىء من هذا الافتراء .

ويتحوّل السّياق إلى المنعم عليهم المصطفين الأخيار فيقرّر أنّه لا يصح وما ينبغى لبشرٍ أكرمه الله تعالى بإنزال الكتاب عليه وإلهامه فهمه واصطفاه بالنّبوّة وبسائر النّعم ثم يجحد كلّ هذه النّعم ويقول للنّاس اعبدونى من دون الله تعالى ولكن يقول لهم كونوا ربّانيّين تريدون بأعمالكم ربّكم جلّ وعلا وبخاصّةٍ في مجال العلم الّذى يوصيهم بتدريسه وتعلّمه ، ولا يصحّ له أن يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً من دون الله تعالى لأنّ معنى هذا أنّه يأمركم الآن بالكفر بينما أمركم من قبل بالإيمان الّذى قبلتموه . وإنّ على النّاس جميعاً أن يترجموا إلى عمل الإصر الّذى أخذه منهم أنبياؤهم والميثاق المؤكّد الّذى أخذوه على أنفسهم بأنّه حينما يبعث الله تعالى أىّ نبيٍّ فإنّ عليهم أن يبادروا إلى الإيمان به ونصرته وإلاّ كانوا فاسقين لأنّهم نقضوا عهدهم مع الله تعالى وميثاقه الّذى واثقهم به . والعجيب أنّ كثيراً من النّاس يريدون غير دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ بينما أسلم له جلّ وعلا من فى السّماوات والأرض وما فى السّماوات والأرض طوعاً وكرهاً ويعلم العقلاء أنّهم إليه يرجعون يوم القيامة . وفى مقابل حثّ اليهود والنّصارى والمشركين للمسلمين على أن يرتدّوا عن دين الإسلام يذكر السّياق عدداً من المصطفين الأخيار ويأمر المصطفى ﷺ بأن يقول ويقول معه المسلمون بأنّهم آمنوا بالله تعالى وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون . هذا هو الدّين الحقّ ومن يبتغ غيره فلن يقبل الله تعالى منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . وينعى السّياق على هؤلاء الكافرين المرتدّين الّذين أعمى جلّ وعلا أبصارهم بعد أن آمنوا بالله ورسوله وكتابه . إنّ الله تعالى لا يهدى هؤلاء الظّالمين الّذين جزاؤهم لعنة الله تعالى والملائكة والنّاس

أجمعين والّذين يخلدون فى نار جهنّم . ويستثنى السّياق الّذين تابوا وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم .

أمّا الّذين آمنوا وكفروا وازدادوا كفراً فإنّ توبتهم ساعة الوفاة غير مقبولة وأولئك هم الضّالّون . وأمّا الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يقبل الله تعالى من أحدهم يوم القيامة ملء الأرض ذهباً لو أنّ أحداً يملك مثل ذلك الذّهب لأنّ مبدأ الفداء مرفوض أصلا لذلك فالنّار مصير المكذّبين . ولّما كان الوفاء مطلوباً والأمانة أمراً مرغوباً فيه ، وكانامتعلّقين بالعهد الّذى يبدأ بإفرادالله تعالى بالعبادة ويتحوّل معرّجاً على المال فإنّ آخر آيات القسم تحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وتقرّر أنّ الجنّة لا تنال إلّا بإنفاق المرء من المال الّذى يحبّ : ﴿ **لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون ، وما تنفقوا من شئٍ فإنّ الله به عليم** ﴾ .

***

الآية رقم (٧٥)

قال تعالى : ﴿ ومِنْ أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤدّه إليك إلّاما مادمت عليه قائما ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأمّيّين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

تحدّث السّياق من ذى قبل عن العديد من صفات أهل الكتاب السّيّئة . وفى هذه الآية الكريمة يكون الحديث عن أهل الكتاب من الزّاويتين الحسنة والسّيّئة فى مجال المال . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ أهل الكتاب ، والجمهور على أنّ المراد بهم هنا اليهود والنّصارى معاً[1] وبناءً على كون علاقة العرب آنذاك بيهود المنطقة أكثر من علاقتهم بالنّصارى وحديث الآيات الكريمات السّابقات عن اليهود بخاصّة ، يصحّ أن تكون الآية الكريمة منطلقةً من حادثةٍ ماليّةٍ معيّنة أو حوادث جرت فى المنطقة مرتبطةٍ باليهود على جهة الخصوص مصوّرةٍ لحال أهل الكتاب بعامّة لهذا نصّ بعضهم على أنّ المراد بأهل الكتاب هنا اليهود[2] والآية الكريمة تنصف أهل الكتاب وتمدحهم فى القول : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤدّه إليك» والقنطار فى هذه الآية مثالٌ للمال الكثير[3] وهذا المال الكثير يصحّ أن يكون قنطاراً بالتّمام والكمال ويصحّ أن يزيد أو ينقص . وفى كلّ الأحوال هو مالٌ كثير غالى الثّمن ومن معدنٍ نفيس بدليل مجىء الدّينار فى المقابل ، والدّينار من الذّهب فى العادة . ويصحّ أن يكون القنطار ذهباً أو من جنس الذّهب ويصحّ ألا يكون ذهباً ولكنّه فى كلّ الأحوال هو معدنٌ نفيس . وتنعت الآية الكريمة فى هذه الجزئيّة الكريمة بالأمانة أهل الكتاب الّذين يؤدّى الواحد منهم ما اؤتمن عليه

---

(١) انظر البحر المحيط ٤٩٨/٢

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٢٢٦/٣ وتفسير ابن كثير ٣٧٤/١

(٣) تفسير ابن عطيّة ١٧٨/٣

بنفسٍ راضية مطمئنّة سواءٌ كان المال قليلاً أو كثيرا ، رخيصاً أو غالياً ، رديئاً أو نفيسا .

والآية الكريمة وراء ذلك تصف أهل الكتاب فى مجموعهم بالخيانة فى مجال المال . فمن أهل الكتاب من إن تأمنه بدينارٍ واحد وربّما بأقلّ من الدّينار لا يؤدّه إليك ولا يردّ إليك حقّك إلاّ ما دمت عليه قائماً وعلى رأسه واقفاً ولكلّ الأبواب طارقاً ولجميع الوسائل محاولاً . إنّك مع هذا الفريق الخائن من أهل الكتاب بحاجةٍ إلى المطالبة والملازمة والإلحاح فى طلب دينارٍ واحد ، والمراد به القلّة خاصّةً بعد ذكر القنطار وما فهمناه من كونه قنطاراً من معدنٍ نفيس ، وينبغى أن يكون هذا الفريق أشدَّ مماطلةً حينما يكون المال أكثر من دينار ، فكيف إذا كان قنطاراً من معدنٍ نفيس أو أكثر من قنطار . وحينما نتبيّن أنّ من العلماء من فهم من القول : «إلاّ مادمت عليه قائماً» «جواز السّجن ، لأنّ الّذى يقوم عليه غريمه فهو يمنعه من تصرّفاته فى غير القضاء ، ولا فرق بين المنع من التّصرّفات وبين السّجن»[1] يكون معنى ذلك أنّ المطالب بحقّه قد استعان بالحكومة من بين ما استعان به من وسائل .

ومن هذا الّذى لا يؤدّى إليه حقّه إلاّ بعد الّلجوء إلى كلّ هذه الوسائل ، أهو مِن أهل الكتاب ؟ أهو يهودىّ ؟ أهو من غير هؤلاء وهؤلاء . إنّه ليس يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكنّه عربىّ ويتأكّد ذلك فى حقّ المسلم . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : ﴿ **ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأمّيّين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ إنّ السّبب فى عدم أداء أهل الكتاب لأهل الحقوق حقوقهم سواء كانت جليلةً أو حقيرة هو قولهم «**ليس** علينا فى الأمّيّين سبيل» وليس علينا فى العرب وفى أكل أموالهم بالباطل

(١) تفسير ابن عطيّة ١٧٩/٣ والبحر المحيط ٥٠٠/٢

حجّةٌ[1] ولا لوم ولا تثريب لأنّهم على غير ديننا ولأنّهم مشركون[2] وقد عبّروا عن العرب بالأمّيّين لأن العرب قبل الإسلام أمّة أمّيّة لا تقرأ ولا تكتب ، وإنّ في ذكر الأمّيّين دليلا على أنّ هذه الصفة ألصق باليهود لأنّهم هم الّذين كانوا آنذاك فى المنطقة ويتعاملون مع العرب .

وتردّ الآية فوراً على القوم وتصفهم بقول الكذب وباعتيادهم قول الكذب مع العمد وسبق الإصرار : «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» والمعروف أنّ صيغة الزّمن المضارع تفيد الاستمرار والتّجدّد ، وعلى من يقول القوم الكذب عن علم ؟ على الله تعالى الّذى أمر بالقسط . وبهذا يتبيّن أنّ أهل الكتاب بعامّة ، بنى إسرائيل بخاصّة ، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، لأنّهم فى التزام الأمانة مع أبناء جلدتهم يؤمنون ببعض الكتاب ، وفى التزام الخيانة مع الآخرين يكفرون ببعض الكتاب ، لأنّ الأمانة مبدأ فى الدّيانات السّماويّة كلّها وأداءَ الأمانة حقٌّ وحبّةٌ من حبّات عِقد الحكمة غير القابل للنّسخ فى الدّيانات السّماويّة كلّها «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزىٌ فى الحياة الدّنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون»[3] .

والآية الكريمة التّالية تُكَذِب بنى إسرائيلِ خائنى الأمانة فإلى :

الآية رقم (٧٦)

قال تعالى : ﴿ بلى من أوفى بعهده واتّقى فإنّ الله يحبّ المتقين ﴾ .

بلى على أهل الكتاب فى أكل مال الأمّيّين سبيلٌ وحرجٌ وإثم ، لأنّ فى أكل أموال النّاس بالباطل خيانةٌ للأمانة ونقصاً للعهد الّذى أخذه الله تعالى

(١) تفسير ابن عطيّة ١٨٠/٣ والبحر المحيط ٥٠٠/٢

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ٢٢٦/٣

(٣) سورة البقرة ٨٥

على بنى آدم ويدخل فى ذلك العهد حمل الأمانة والابتعاد عن الخيانة . وكى ترسّخ الآية الكريمة فى النّفوس النّفور من ذلّ الخيانة ونقض العهد تثنى على الوفاء بالعهد وتقوى الله تعالى فتقرّر أنّ من أوفى من عباد الله تعالى بعهده معه جلّ وعلا أوبعهد الله تعالى الّذى أخذه منه واتّقى الله تعالى فى السّرّ والعلن وارتقى إلى مستوى التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك فإنّ الله سبحانه وتعالى يحبّه . ويلاحظ وضع الظّاهر «المتّقين» موضع الضّمير وذلك أبلغ لأنّ فى ذكر الظّاهر تعييناً لمن يحبّه الله تعالى وهو الّذى ارتقى إلى هذه المرتبة العالية مروراً بالوفاء بالعهد فى مجال المال بخاصّة ، بينما لو جاء الضّمير لكان شركةً بين الوفاء والتّقوى وصحّت العودة إلى أحدهما . والآية الكريمة التّالية تعمّق هذا المعنى وتعيّن العقاب فإلى :

الآية رقم (٧٧)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم** ﴾ .

روى الأئمّة عن الأشعث بن قيس قال : كان بينى وبين رجلٍ من اليهود أرضٌ فجحدنى فقدّمته إلى النّبىّ ﷺ فقال لى رسول ﷺ : هل لك بيّنة . قلت لا . قال لليهودىّ : إحلف . قلت : إذاً يحلف فيذهب بمالى . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنّ الّذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً** ﴾ . إلى آخر الآية . وروى الأئمّة أيضاً عن أبى أمامة أنّ رسول الله ﷺ قال : من اقتطع حقّ امرىءٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النّار وحرّم عليه الجنّة . فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ؟ قال : وإنّ كان قضيباً من أراك[1] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٣٦١ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٤٣

تَبيّن من سبب النّزول أنّ ليهوديّ علاقةً بسبب نزولها ووراء ذلك فالعبرة كما هو مفهومٌ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين يشترون بعهد الله تعالى وايمانهم ثمناً قليلاً فلا يوفون بعهد الله تعالى الّذى أخذه منهم بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، ويلحق بهذا العهد سائر العهود بما في ذلك المتعلّقة منها بردّ الأمانات إلى أهلها ، وإنّما يفعلون ذلك من أجل الثّمن الرّخيص القليل من مال أو منصب أو جاه ، كما تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين يشترون بأيمانهم ثمناً قليلاً فيحلفون بالله تعالى العظيم كاذبين من أجل الحصول على الأغراض الخسيسة ذاتها ، إنّ هؤلاء وأولئك لا نصيب لهم من الخير فى الآخرة ولا حظّ لهم من نعيم الجنّة[1] ولا يُكَلّمهم الله تعالى بما يسرّهم لأنّه يكلّم عباده المؤمنين المتّقين[2] ولا ينظر إليهم جلّ وعلا بعين الرّضا وذلك دليلٌ على غضبه جلّ وعلا عليهم ، ولا يزكّيهم جلّ وعلا من الذّنوب ولا يطهّرهم منها . وتؤدّى كلّ هذه المظاهر لغضب الله تعالى على القوم إلى تقرير العذاب الأليم الموجع الّذى ينتظرهم .

ونستطيع أن نتبيّن التّدرّج العجيب في الآية الكريمة . ففى القول : «إنّ الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم» تحوّلٌ من الدّائرة الكبرى إلى الدّائرة الصّغرى الدّاخلة فيها أصلاً والّتى تمّ النّصّ عليها لأهمّيّتها . أمّا الدّائرة الكبرى فعهد الله تعالى المأخوذ على بنى آدم منذ أن كانوا فى عالم الذّرّ ، ويدخل فى هذه الدّائرة الكبرى الدّائرة الصّغرى دائرة الأيمان لأنّ فى الحلف الكاذب خيانةً للأمانة ونقضاً للعهد تبعاً لذلك .

كما نستطيع أن نتدبرّ ونتبيّن هذا التّدرّج العجيب فى حبّات الآية

---

(١) انظر هنا تفسير الطّبرىّ ٢٢٨/٣ وتفسير ابن كثير ٣٧٥/١ وتفسير ابن عطيّة ١٨٣/٣ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ١٨٤/٣

الكريمة بعد ذلك فالحبّة التّالية مترتّبةٌ على السّابقة ومبنيةٌ عليها . إنّ الآية الكريمة تنفى عن الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أىّ نصيب من الخير . ولّما كان رضا الله تعالى غاية المنى وكان هذا الفريق من النّاس لا نصيب له من خيرٍ أبداً ، وكان الخير يوم القيامة متوَّجاً برضا الله تعالى لذا كان فى الآية الكريمة مظهران لنفى هذا النّوع من الخير عن القوم ، كلام الله تعالى لهم والنّظر إليهم يوم القيامة . وإنّه بالمقارنة بين الكلام والنّظر من المتكلّم يتبيّن أنّ الكلام يصحّ أن يكون من وراء حجابٍ وليس كذلك النّظر ، وإنّه فى ضوء ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى فى الآخرة بالأحاديث الصّحيحة نستطيع أن نفهم أنّ النّظر إلى الله تعالى معناه زوال الحجاب فى حقّ الكلام إنّ كان ثمّة كلام . قال تعالى[1] : ﴿ **وجوهٌ يومئذٍ ناضرة . إلى ربّها ناظرة** ﴾ وهكذا يتبيّن التّدرّج العجيب فى نفى الكلام الّذى يصحّ أن يتمّ بين طرفين دون أن يرى أحدهما الآخر إلى نفى نظر الله تعالى إليهم ورضاه عنهم وإقباله جلّ وعلا عليهم ، وعليه فلا كلام من الله تعالى للقوم ولا نظر إليهم .

وتتوّج كلّ هذا المظاهر من خسران القوم بالعذاب الأليم الّذى ينتظر القوم . وإنّ العذاب الّأليم يعنى العذاب العظيم أيضاً والعياذ بالله . وإذا كان هذا الفريق من أهل الكتاب يشترى بعهد الله وأيمانه ثمناً رخيصاً فإنّ ثمّة فريقاً آخر تشير إليه الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٧٨)

قال تعالى : ﴿ **وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هُوَ من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ .

---

(١) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣

إنّ من أهل الكتاب بعامّة ، اليهود بخاصّة ، لفريقاً وجماعة ، يلوون ألسنتهم بالكتاب ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويبدّلون كلام الله تعالى بالحذف والإضافة ، بالنقصان والزّيادة ، بتأويله حسب أهوائهم والميل به عن معناه وقصده ، بتحميله ما لا يحتمل وفوق ما يحتمل ، بليّ أعناق النّصوص ليّاً ، بل بالتّرنّم بما كتبوا وتلاوته وفق تلاوة آى الكتاب ، كلّ ذلك من أَجْل أن تحسبوه أيّها المؤمنون من الكتاب الموحى به من ربّ العالمين وما هو من الكتاب ويقولون وراء ذلك إنّ ذلك الكلام المزوّر المحرّف هو من عند الله تعالى وما هو من عند الله تعالى . إنّ هذا القول من القوم معناه أنّهم كاذبون ، وهذا ما صرّحت به الجزئيّة الكريمة الأخيرة : «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» . والعجيب فى أمر القوم أنّهم يقولون الكذب ، وما أشنعه من عيب وما أكبره من ذنب ، وعلى من يقولون الكذب ؟ على الله تعالى الّذى يعلم ما توسوس به كلّ نفس فكيف بما تقول وتفعل . والأعجب من كلّ عجيب أنّهم يقولون على الله سبحانه وتعالى الكذب وهم يعلمون أنّهم يقولون على الله كذباً . فثمّة علم ، وثمّة سبق إصرار . وممّن يحدث كلّ ذلك ؟ من أهل الكتاب السّماوىّ اليهود والنّصارى . إنّ العيب أشنع من كلّ عيب . وإنّ الذّنب أكبر من كل ذنب .

والآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بليّ أهل الكتاب بألسنتهم آى الكتاب[1] فإلى :

الآية رقم (٧٩)

قال تعالى : ﴿ ماكان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنّبوّة ثمّ يقولَ للنّاس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ١٨٩/٣

سبب النّزول

عن ابن عبّاس قال : قال أبو رافع القرظىّ حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنّصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام...: أتريد يامحمّد أن نعبدك كما تعبد النّصارى عيسى ابن مريم فقال رجلٌ من أهل نجران نصرانىّ يقال له الرّئيس : أَو ذاك تريد منّا يامحمّد وإليه تدعونا . أو كما قال . فقال رسول الله ﷺ : معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره . ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى أو كما قال : فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنّبوّة الآية . إلى قوله : بعد إذ أنتم مسلمون[1] .

تبيّن الآية الكريمة أنّه ما ينبغى[2] لواحدٍ من البشر الّذين خلقهم الله تعالى وعدلهم وفى أىّ صورةٍ شاء ركّبهم ولا يصحّ لعبدٍ من عباد الله تعالى أن يؤتيه جلّ وعلا مَنّا مِنْه وفضلاً الكتاب السّماوىّ الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم والحكمة وفصل الخطاب والنّبوّة وبذلك يكون واحداً من الّذين أنعم الله تعالى عليهم بأكبر نعمة وهى نعمة النّبوّة والرّسالة ، وما ينبغى لواحدٍ إلّا أن يكون أوّل المسلمين لله ربّ العالمين فى أمّته وأكبر الشّاكرين لله تعالى على نعمه وآلائه لا أن يقول بعكس ما أمر به ويدعو إلى ما يدلّ على كفران النّعمة ووجوب حلول النّقمة فيقول للنّاس كونوا عباداً لى من دون الله تعالى ، بأن تؤمنوا بى وتكفروا بالله تعالى وبأن تعبدونى وتشركونى مع الله تعالى فى العبادة . إنّ شيئاً كهذا ما ينبغى أن يحدث ولايصحّ بحالٍ من الأحوال أن يكون فى دنيا الواقع لأنّ الله سبحانه وتعالى الخالق لكلّ شىء والعالم بكلّ شىءٍ أعلم حيث يجعل رسالته . إنّ ما يقوله أولئك المصطفون الأخيار فى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٣٢ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٤٦

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٣٢ وتفسير ابن كثير ١/٣٧٧ وتفسير القرطبىّ ١٣٦٣

دعوتهم للنّاس : اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له وآمنوا برسوله وصدّقوا كتابه الموحى به منه جلّ وعلا وتَرْجموا التّعاليم الّتى أوحى الله تعالى بها إلىّ إلى عمل وكونوا علماء فقهاء حكماء حلماء[1] تقابلون بالشّكر تربية الله تعالى لكم بنعمه وآلائه ومن مظاهر شكركم لبارئكم تربيتكم عباد الله تعالى بالعلم النّافع والكلمة الطّيّبة والموعظة الحسنة والسّياسة الحكيمة وبخفض الجناح ولين الجانب . على أنّ أهمّ ما يُعْنى به أولئك المصطفون الأخيار العلم . إنّ أهمّ العوامل الّتى تأخذ بأيدى هؤلاء الرّبّانيّين أنّهم يعلّمون الكتاب العزيز وأنّهم يدرسون . وبهذا يتبيّن أنّ المطلوب فى الرّبّانيّين بل إنّ أهمّ مقوّمات الرّبّانيّين تدريس الكتاب العزيز وتعليمه من ناحية وطلب العلم ومدارسته من ناحية أخرى . إنّ الرّبّانىّ الّذى يستحقّ هذا اللّقب أو هذه الصّفة هو الأستاذ وطالب العلم فى آنٍ واحد . ويلاحظ أنّ الآيةالكريمةتؤخّر فى السّياق طلب العلم ممّا هو دليلٌ على أنّ الأستاذ مهما كان عالماً فإنّه فى حقيقة أمره طالب علم ، فواجب النّاس بعامّة ، الرّبانيّين بخاصّة ، أن يتّسموا بهذه الصّفة ، وأن يكونوا طلّاب علمٍ أوّلاً وأخيراً كى يستحقّ الواحد منهم لقب الرّبّانىّ . والرّبّانىّ منسوبٌ إلى الرّبّ . وهو الّذى يربىّ النّاس بصغار العلم قبل كباره . وكأنّه يقتدى بالرّبّ سبحانه فى تيسير الأمور . رُوى معناه عن ابن عبّاس . والألف والنّون للمبالغة كما قالوا ريّان وعطشان ثمّ ضمّت إليها ياء النّسبة كما قيل : لحِيانىّ ورَقَبانىّ وجمّانىّ . فمعنى الربّانى العالم بدين الرب الذى يعمل بعلمه ، لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم[2] .

وكما راعنا ترتيب الآية الكريمة للتّعليم وطلب العلم فقد وقفنا على الحكمة من هذا التّرتيب البعيد المرمى للعمليّتين راعنا هذا التّرتيب : «الكتاب والحكم والنّبوّة» إنّ النّبوّة هى الطّريق الوحيد الموصل إلى الرّسالة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٧٧/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٣٣/٣

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ١٣٦٤

ومن هنا يصحّ القول إنّ الرّسالة والنّبوّة وجهان لعملةٍ واحدة . والمعروف أنّ النّبىّ لا يشترط أن يكون له كتابٌ سماوىّ خاصٌّ به فما أكثر النّبيّين الّذين ليس لهم كتابٌ سماوىّ . وحينما يجىء ذكر أىّ كتابٍ سماوىّ يفهم من ذلك الذّكر على الفور أنّ الموحى إليه ذلك الكتاب نبىٌّ مرسل ، وأنّ ذلك الكتاب فضلٌ من الله تعالى يضاف إلى فضل النّعمة بالنّبوّة . وبما أنّ الحكم بمعنى الحكمة[1] والعلم الصّائب والفهم الثّاقب والقول الفصل والتّقدير الصّحيح للأمور لكلّ ذلك كان تقديم الكتاب فى الآية الكريمة بقصد التّنبيه إلى كبرى النّعم ، تلا ذلك ذكر الحكمة لأنّ الحكمة تعنى الفهم الصّحيح لذلك الكتاب الموحى به ، تلا ذلك ذكر النّبوّة أخيراً لأنّها الشّرط الأساسىّ لإيتاء الكتاب والحكمة . والله أعلم .

وبشأن مجىء حرف العطف : «ثمّ» فى القول : «ثمّ يقول للنّاس كونوا عباداً لى من دون الله» يقول ابن عطيّة[2] : «ثمّ فى قوله تعالى : ثمّ يقول معطيةٌ تعظيم الذّنب فى القول ، بعد مهلةٍ من هذا الإنعام» .

والآية الكريمة التّاليةُ امتداد لسابقتها فإلى :

الآية رقم (٨٠)

قال تعالى : ﴿ **ولا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنّبيّين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ .

هذه الآية الكريمة مبنيّةٌ على الآية الكريمة السّابقة والتقدير : ما كان لبشر أن يؤتيه الله . . . . ولاله أن يأمركم[3] فقدّروا أن مضمرة بعد لا وتكون لا

(١) تفسير ابن عطيّة ١٨٦/٣
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٨٦/٣
(٣) تفسير ابن عطيّة ١٩٢/٣

مؤكّدة معنى النّفى السّابق[1] والمعنى وما ينبغى لبشرٍ ولا له أن يأمركم أن تتّخذوا الملائكة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والنّبيّين المنعم عليهم بنعمة النّبوّة ، أرباباً من دون الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وفى هيئة الاستفهام الإنكارىّ يطرح هذا السّؤال : «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» إنّه ممتنعٌ أصلاً أن يأمر رسولٌ كريم ونبىٌّ عظيم بعبادة غير الله تعالى ولو كان ملكاً كريماً ونبيّاً عظيما . إنّ معنى هذه الدّعوة وهذا الأمر أنّ هذا المنعم عليه بنعمة النبوّة يدعو قومه إلى الكفر وإلى الإشراك مع الله تعالى غيره بعد أن يكونوا قد أنقذوا بفضل لله تعالى ومنّه من الكفر ومن الشّرك على يديه وبعد أن تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين .

ونستطيع أن نفهم من هذا الإنكار ومن هذا النّفى المتكرّر النّعى على النّصارى فى المقام الأوّل الّذين زعموا أن عيسى عليه السّلام هو ابن الله : «كبرت كلمةً تَخرُجُ من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا» خاصّةً وأنّ صدر سورة آل عمران ومنه هذه الآيات الكريمات نزل فى وفد نصارى نجران . ويلحق بالنّصارى اليهود الّذين قالوا إنّ عزيراً ابن الله والعرب الّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله .

والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ رسول الله تعالى إلى النّاس كافّة وأنّ على أتباع كلّ الدّيانات ابتداءً باليهود والنّصارى أن يتّبعوه ، والآية الكريمة الّتى بعدها تقرّر أنّ من لم يفعل ذلك فإنّه من الفاسقين . فإلى :

---

(١) البحر المحيط ٥٠٧/٢

الآية رقم (٨١ ، ٨٢)

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لمآتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه . قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين . فمن تولىّ بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت انتباه المتأمّل لأولى الآيتين الكريمتين اشتمالها على كلٍّ من الميثاق والإصر وهما نوعان من العهد . وذلك معناه أنّا بحاجةٍ إلى أن نتبيّن الفروق الدّقيقة بين هذه الألفاظ الثّلاثة .

فما معنى العهد ؟ العهد حفظ الشّىء ومراعاته حالاً بعد حال . وعهد فلانٌ إلى فلانٍ يعهد أى ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه[١] .

وما معنى الميثاق ؟ الميثاق توكيد العهد من قولك أوثقت الشّىء إذا أحكمت شدّه[٢] فالميثاق عقدٌ مؤكّدٌ بيمين وعهد[٣] .

وما معنى الإصر ؟ إنّه بالنّظر إلى الأصل الّذى اشتقّت منه الألفاظ وتفرّعت وهو الأصر يتبّين أنّه بمعنى الحبس[٤] وتفسير ذلك أنّ العهد يقال له إصر ، والقرابة تسمّى آصرة ، وكلّ عقدٍ وقرابةٍ وعهدٍ إصر . والباب كلّه واحد[٥] والإصر العهد المؤكّد الّذى يثبّط ناقضه عن الثّواب والخيرات[٦] وسمّى إصراً لأنّه ممّا يؤصر أى يشدّ ويعقد[٧] .

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «عهد» ٣٥٠
(٢) الفروق اللّغوية لابى هلال العسكرىّ ٤٣
(٣) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «وثق» ٥١٢
(٤) انظر معجم مقاييس اللّغة «اصر» ١/١١٠ ومفردات الرّاغب الاصفهانىّ «اصر» ١٨
(٥) معجم مقاييس اللّغة «اصر» ١/١١٠
(٦) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «اصر» ١٩
(٧) الكشّاف ١/٣٣٢ والبحر المحيط ٢/٥١٣

ممّا سبق يتبيّن أن الميثاق عبارةٌ عن العهد المؤكّد بيمين . وأنّ الإصر عبارةٌ عن العهد المؤكّد الذى ينزل منه صاحبه منزلة السّجين له المحبوس من أجله بحيث إنّه لو نقضه وانفلت من ربقته لكان بسبب ما يتركه من آثام غامرة وآلام عاصرة مثبّطاً ناقِضَهُ عن الخيرات حارماً له من الثّواب . فى ضوء هذه المعانى الفريدة والمرامى البعيدة نودّ أن نتأمّل الآية الكريمة .

إنّ الآية الكريمة الأولى تخاطب المصطفى ﷺ والتّقدير : واذكر يا محمّد . ويصح أن يكون التقدير : واذكروا ياأهل الكتاب باعتبار أهل الكتاب طرفاً كبيراً فى هذه القضايا . واذكر يامحمّد إذ أخذ الله ميثاق النّبيّين . ومعروفٌ أنّ الأخذ يرتبط به القوّة والشدّة وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ **وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القُرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد** ﴾ . وهذا الّذى يأخذه الله تعالى من النّبيّين عهدٌ مؤكّد وعقدٌ محكم . وهو يؤخذ من النّبيّين أجمعين . والّذى يؤكّد هذا الشّمول فى الأخذ لفظ الجلالة : «الله» المرتبط فى القرآن الكريم بالعموم بينما يرتبط لفظ الرّبّ بالخصوص .

وهذا العهد المؤكّد الّذى يؤخذ على النّبيّين إنّما يؤخذ للنّبىّ اللاّحق عموماً ولخاتم النّبيّين خصوصاً . وتفسير ذلك أنّ هذا الميثاق يؤخذ على النّبيّين بأنّ نبيًّا بعده إذا بعث عليه أن يتّبعه هو وأمّته . ولّما كان محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين فذلك معناه أنّ أتباع كلٍّ من موسى وعيسى عليهما السّلام عليهم أن يترجموا إلى عمل الميثاق الذى أخذه كلٌّ من موسى وعيسى عليهما السّلام على اليهود والنّصارى ، وهو الميثاق الّذى أخذه الله تعالى منهما وأمرهما بأن يأخذاه من قومهما .

---

(١) سورة هود ١٠٢

إنّ الآية الكريمة تبيّن هذا الميثاق الّذى أخذه الله تعالى على النّبيّين وأممهم لمهما أعطيتكم من كتابٍ وحكمة[1] وآتيتكم من كتابٍ منزل وفهمٍ صائب لذلك الكتاب ثمّ جاءكم رسولٌ من ربّكم جلّ وعلا مصدّقٌ لما معكم من دعوةٍ إلى توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة لتؤمننّ به ولتتّبعنّه ولتنصرنّه وتؤازرنّه وتقاتلنّ معه حينما تؤمرون بالقتال فى سبيل الله تعالى . قال الله تعالى لأولئك النّبيّين الّذين تتبعهم أممهم أَأَقْرَرْتُم بذلك وقبلتم وأخذتم بقوّة على ذلكم عهدى وميثاقى وإصرى . قالوا أقررنا وقبلنا وآتيناك الميثاق المؤكّد والإصر الملزم لنا الّذى لا نستطيع أن نتخفّف منه ولا نتخلّص لأنّا بمنزلة المحبوسين له السّجناء من أجله . قال الله تعالى فاشهدوا على العهد المؤكّد الّذى أخذتم على أنفسكم والّذى أخذتموه على أممكم وأنا من الشّاهدين على كلّ ذلك .

ولّما كان من أتباع النّبيّين من هو مستعدٌّ لنقض العهد والميثاق والإصر لذا كانت الآية الكريمة من نصيب هؤلاء النّاكثين للعهود النّاقضين للمواثيق . إنّ من تولّى من بعد ذلك الميثاق المؤكّد وأعرض عن اتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ ، واتّخاذ دين الإسلام الّذى جاء به عليه الصّلاة والسّلام ديناً ، واتّخاذ القرآن الكريم دستوراً فأولئك هم الفاسقون الخارجون على الصّراط المستقيم والطّريق القويم الّذين يبتغون الطّريق عوجاً .

قال عليّ بن أبى طالب وابن عمّه ابن عبّاس رضى الله عنهما : ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمّته لئن بعث محمّد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقال طاوس والحسن البصريّ وقتادة : أخذ الله ميثاق النّبيّين أن يصدّق بعضهم بعضاً وهذا لا يضادّ ما قاله عليّ وابن عبّاس ولا ينفيه

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٧/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٣٥/٣

بل يستلزمه ويقتضيه[1] وروى الإمام أحمد أنّ عمر رضى الله عنه جاء إلى النّبىّ ﷺ فقال : يارسول الله إنّى أمرت بأخٍ يهودىّ من قريظة فكتب لى جوامع من التّوراة ألا أعرضهاعليك ؟ قال : فتغيّر وجه رسول الله ﷺ . قال عبدالله بن ثابت قلت : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ فقال عمر : رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد رسولاً . قال : فَسُرِّى عن النّبىّ ﷺ وقال : والّذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السّلام ثمّ اتّبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنّكم حظّى من الأمم وأنا حظّكم من النّبيّين[2] والآية الكريمة التالية تنكر على الّذين اتّخذوا غير دين الإسلام الّذى جاء به محمّد ﷺ ديناً . فإلى :

الآية رقم (٨٣)

قال تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السّماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرْجعون** ﴾ .

بعث الله سبحانه وتعالى جميع النّبيّين ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بمحمّد بن عبدالله ﷺ ، بدين الإسلام لله ربّ العالمين . وإنّ دين الإسلام فى الصوّرة الّتى جاء بها محمّد ﷺ ناسخٌ لكلّ الصّور السّابقة فقد أكمل الله سبحانه وتعالى لعباده الدّين وأتمّ عليهم النّعمة ورضى لهم دين الإسلام الّذى بعث محمّداً ﷺ به ديناً . قال تعالى[3] : ﴿ **اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ . وإنّ هذه الآية الكريمة لتنكر فى أسلوب الاستفهام على أولئك الّذين يبغون غير دين الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٨/١

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧٨/١

(٣) سورة المائدة ٣

تعالى الّذى بعث به محمّداً ﷺ ديناً لهم . وكيف يبغى أولئك غير دين الله تعالى وكيف لا يستسلمون له جلّ بالخضوع وينقادون له بالطّاعة وله جلّ استسلم وخضع وأذعن كلّ من فى السّماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه جلّ وعلا يرجعون يوم القيامة لفصل الخطاب .

وإنّ الإسلام لله تعالى طوعاً وكرهاً يُذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة الرعد[1] ﴿ ولله يَسجُدُ من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ وفى دراستنا المتأمّلة لسورة الرّعد سبق لنا أن درسنا الآية الكريمة[2] ونستطيع أن نستفيد من تلك الدّراسة هنا وأن نوجز القول بشأن إسلام من فى السّماوات والأرض لله تعالى طوعاً وكرهاً بأنّ الّذى يسلم لله تعالى طوعاً هو المسلم لله ربّ العالمين المؤمن الّذى يعلم علم اليقين أنّه خاضعٌ فى كلّ شىءٍ لمشيئة الله تعالى فهو مذعنٌ لهذه المشيئة خاضع مستسلم . وبناءً على ما جاء فى آية سورة الرّعد هو يترجم ذلك الاستسلام لله تعالى فى أبهى صور العبادة لله تعالى وهيئاتها وتلك الصّورة الصّلاة وتلك الهيئة السّجود . أمّا الكافر الّذى لا يعبد الله تعالى أو الّذى يشرك مع الله تعالى غيره فإنّه معترفٌ فى أعماقه قائلٌ بلسان الحال وليس المقال بأنّه خاضعٌ لمشيئة الله تعالى فى كلّ شىءٍ ولكنّه الكبر والغطرسة وعمى البصيرة . لهذا هو لا يسجد كالمؤمن لله تعالى طوعاً ولكنّه يسجد لله تعالى كرهاً بمعنى أنّه خاضعٌ فى كلّ شىءٍ لمشيئة الله تعالى رغم أنفه ، وهو إن لم يعبّر عن ذلك الخضوع بما عبّر به المسلم بالسّجود لله تعالى طوعاً فإنّه يعبّر بالسّجود لله كرهاً بمعنى أنّه لا يستطيع أن يأتى بأىّ شىءٍ فى هذا الوجود إلّا بإرادة الله تعالى الّتى يخضع لها كرهاً خضوعاً مطلقاً .

---

(١) الآية ١٥

(٢) فى الصفحات ١١٣ ـ ١١٥ وعنوان الدّراسة تأمّلات فى سورة الرّعد .

والعجيب فى أمر الضّالّين المضلّين أنّهم يريدون من المسلمين أن يرتدّوا مثلهم كفّاراً . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتلقّن المسلمين الرّدّ على أولئك الضّالين المضلّين وفيهم اليهود والنّصارى . فإلى :

الآية رقم (٨٤)

قال تعالى : ﴿ **قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون** ﴾ .

بين هذه الآية الكريمة والآية الكريمة السّادسة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة شبهٌ كبير ، وفى أثناء دراستنا المتأمّلة لسورة البقرة أشرنا إلى هذا الشّبه الواضح ، وما قيل عن نظم الآية الكريمة هنالك وإعجازها يقال هنا . وفى الإمكان أن نشير هنا إلى الفروق بين الآيتين الكريمتين وإلى موجز تأمّلها . وهذه هى الفروق .

١ ـ تبدأ الآية الكريمة هنا بالقول : «قل» والمعنى قل يامحمّد ، ووراء ذلك كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة يعنيه الخطاب ، بينما جاء فى آية سورة البقرة القول : «قولوا» والخطاب هنا للمسلمين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

٢ ـ جاء فى آية سورة آل عمران حرف الجرّ على : «وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم» بينما جاء فى آية سورة البقرة حرف الجرّ إلى : «وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم» .

٣ ـ جاء فى آية سورة آل عمران القول : «وما أوتى موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم» بينما جاء فى آية سورة البقرة : «وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم» .

وتّفق الآيتان الكريمتان وراء ذلك فى كلّ شىء .

ونستطيع أن نوجز الدّراسة المتأمّلة من زاوية آية سورة آل عمران .

١ ـ بما أنّ فى الآيات الكريمات السّابقات حثّاً لكلّ الأمم على اتّباع خاتم النّبيّين فقد ابتدأت الآية الكريمة هنا بمخاطبة المصطفى ﷺ : «قل» بقصد تلقينه عليه الصّلاة والسّلام ابتداءً القول الّذى يوجّهه إلى أولئك الّذين ابتغوا غير دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

٢ ـ تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً ، أمّته تبعاً ، بأن يقولوا للمعرضين عن سواء السَّبيل : «آمنّا بالله» إنّ الايمان بالله تعالى أوّل مظاهر الإيمان وأهمّها وها هى ذى الآية الكريمة تنبّه على ذلك بتقديمها فى الذّكر هذا النّوع من الإيمان .

٣ ـ بعد الإيمان بالله تعالى يتمّ التّحوّل إلى الإيمان بما أنزل على المصطفى ﷺ . والمراد بذلك القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة فكلاهما وحىٌ من الله تعالى . وإنّ الإيمان بما أنزل الله تعالى على محمّد ﷺ يعنى ضمناً تصديق محمّد ﷺ والإيمان بالله تعالى مرسل محمّد عليه الصّلاة والسّلام بدين الإسلام .

٤ ـ بما أنّ الشّبه وثيق بين حنيفيّة محمّد ﷺ وحنيفيّة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء بحيث إنّه يصحّ القول إنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ هو النّسخة الثّانية المزيدة الكاملة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام لكلّ ذلك جاء الحديث بعد ذلك عن إبراهيم عليه السّلام وذرّيّته وما أنزل الله عليه وعلى ذرّيّته عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين .

٥ - نصّ السّياق على إبراهيم عليه السّلام وما أوحى الله تعالى إليه من صحف ، وعلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام باعتباره الابن الأكبر وعلى إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، وعلى يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام ، وعلى الأسباط وهم الاثنا عشر ابناً ليعقوب عليه السّلام وفيهم يوسف عليه السّلام ، والسِّبط في بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل وسمّوا الأسباط من السَّبَط وهو التّتابع ، فهم جماعة متتابعون . والسِّبط الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحد[1] ويقول أبو حيّان[2] : «قالوا ولم ينزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وعطفوا على إبراهيم لأنّهم كلّفوا العمل به والدّعاء إليه ، فأضيف الإنزال إليهم كما أضيف فى قوله : وما أنزل إلينا» .

٦ - كلّ الأنبياء بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّة ابنه إسحاق عليه السّلام إلاّ محمّد بن عبدالله ﷺ فإنّه من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام .

٧ - نصّ السّياق على موسى وعيسى عليهما السلام لأنّ أتباعهما موجودون وقدّم السّياق موسى عليه السّلام باعتباره المتقدّم زمناً .

٨ - نصّ السّياق أخيراً على النّبيّين كى يدخل كلّ النّبيّين الّذين لم ينصّ عليهم السّياق ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام أوّل المرسلين .

٩ - لفظ الرّبّ فى القول : «وما أوتى موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم» يشعّ بالرّضا ويملأ الجوّ بهجةً والنّفس سرورا .

١٠ - فى القول : «لا نفرّق بين أحدٍ منهم» تعريضٌ بكلٍّ من اليهود والنّصارى . اليهود الّذين لا يؤمنون بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . والنصارى الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ .

---

(١) تفسير القرطبىّ ٥٢٥ ، ٥٢٦

(٢) البحر المحيط ٤٠٧/١

١١ - فى القول : «ونحن له مسلمون» تنبيهٌ إلى أنّ أتباع محمّد ﷺ هم الموحّدون وتعريضٌ باليهود والنّصارى وسواهم ، اليهود الّذين قالوا عزيرٌ ابن الله والنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله «كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا» .

والآية الكريمة التّالية تصدر حكمها القاطع فيمن ابتغى ديناً غير دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ . فإلى :

الآية رقم (٨٥)

قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ ربّ العزّة أخذ من النّبيّين الميثاق ليؤمننّ بخاتم النّبيّين لو بُعِث وهم أحياء وقد أخذوا بدورهم الميثاق من أممهم ، كما أنكر على الّذين يبتغون غير دين الله تعالى ديناً . وتبيّن الآية الكريمة هنا أنّ من يعتنق ديناً غير الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ فلن يقبل الله تعالى منه دينه وهو فى الآخرة من الخاسرين الهالكين . وحينما نتبيّن أنّ آية البقرة المماثلة للآية الكريمة السّابقة تردّ على اليهود والنّصارى الّذين طلبوا من المسلمين أن يكونوا يهوداً فى نظر اليهود نصارى فى نظر النّصارى كى يهتدوا حسب زعمهم وإلى ذلك أشار قوله تعالى[1] : ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ . حينما نتبيّن ذلك وندرك الشّبه بين آيتى البقرة وآل عمران على النحوّ الّذى بيّنّا بشأن الآية الكريمة السّابقة نعلم أنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعنى اليهود والنّصارى فى المقام الأوّل ومن باب الأولى سواهم . إنّ على كلّ من اليهود والنّصارى أن

---

(١) سورة البقرة ١٣٥

يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين وأن يتّبعوا محمّد بن عبدالله ﷺ النّبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل والّذى يعرفونه من نعوته عليه الصّلاة والسّلام كما يعرفون أبناءهم .

ومِنَ الّذين لن يقبل الله تعالى منهم لأنّهم ابتغوا غير الإسلام ديناً المرتدّون . وإنّ الآيات الكريمات الأربع التّاليات تتحدّث عن عذاب هؤلاء إلاّ الّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فإلى :

الآيات رقم (٨٦ - ٨٩)

قال تعالى : ﴿ **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حقٌّ وجاءهم البيّنات . والله لا يهدى القوم الظّالمين . أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنةَ الله والملائكة والنّاس أجمعين . خالدين فيها لا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنْظَرون . إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفورٌ رحيم** ﴾ .

فى أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة : «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم» ؟ والمعنى : لا يهدى الله تعالى قوماً كفروا بعد إيمانهم . ولّما كانت الهداية نوعين رئيسيّين الهداية بمعنى الإرشاد والدّعوة ، وهذا النّوع من الهداية مكّن الله سبحانه وتعالى منه عباده ، وفى مقدّمة هؤلاء المصطفون الأخيار . والهداية بمعنى التّوفيق وشرح الصّدر ، وهذا النّوع من الهداية ليس فى مقدور مخلوقٍ أن يفعله ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة الّتى تخاطب المصطفى ﷺ من سورة القصص[1] : ﴿ **إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ومن البيّن أنّ الارتداد عن الإسلام

(١) الآية ٥٦

يعنى أنّ القوم قد مرّوا بمرحلتى الهداية ، هداية الدّعوة والإرشاد وهداية التّوفيق والسّداد . بل إنّ القوم تجاوزوا فى النّوع الثّانى من الهداية والمترتّب على الأوّل مرحلة الإسلام ومرتبته إلى مرحلة الإيمان ودرجته ، بمعنى أنّهم تجاوزوا مرحلة اللّسان إلى مرحلة الاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان . وكان إيمان القوم وشهادتهم أنّه لا إلٰه إلاّ الله مقرونين بشهادتهم أنّ محمّداً عليه الصّلاة والسّلام رسول الله . وبذلك حقّق القوم قولاً واعتقاداً وعملاً أهمّ أركان الإسلام وهى الشّهادتان . وحينما يكون ثمّة تصديقٌ لمحمّد ﷺ فذلك معناه الإيمان بكلّ ما جاء به عليه الصّلاة والسّلام من ربّه جلّ وعلا ابتداءً بتمام أركان الإسلام الخمسة ، وذلك معناه أيضاً الإيمان بأنّ القرآن الكريم وهو معجزة هذا الدّين الكبرى ، كلام ربّ العالمين . وإلى هذه الحقيقة الأخيرة أشارت الآية الكريمة فى القول : «وجاءهم البيّنات» والمعروف أنّ جملة جاء تدلّ على القرب ، وهى هنا تدلّ على الوصول والانتهاء ، فآيات الله تعالى البيّنات متمثّلةً فى الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد جاءت هؤلاء الّذين عادوا إلى الكفر وارتدّوا عن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

وفى التّذييل أو الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية الكريمة : «والله لا يهدى القوم الظّالمين» تصف الآية الكريمة هؤلاء المرتدّين بأنّهم ظالمون لأنّهم وضعوا العبادة فى غير موضعها ولأنّهم ظلموا أنفسهم وظلموا دين الإسلام الّذى حُسِبوا عليه وقتاً من الأوقات . ومن البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة ، بنفيها هداية الله تعالى أولئك الظّالمين ، تؤكّد فحوى الاستفهام الإنكارى فى صدر الآية الكريمة الّذى معناه لا يهدى الله تعالى قوماً كفروا بعد إيمانهم وذَوْقهم حلاوته . ومعنى الهداية فى الموضعين واحد ، وهو الأخذ باليد والتأييد ، وتوفيق الله والتّسديد . إنّ كلّ ذلك منفىٌّ عن المرتدّين الّذين ماتوا وهم كفّار .

والآية الكريمة التّالية تبيّن جزاء القوم وعقابهم وتبدأ بالقول : «أولئك» وهو اسم إشارة يدلّ على البعد وبذلك هو مهيّئ للعن القوم وطردهم بعيداً من رحمة الله تعالى . إنّ جزاء أولئك المرتدّين وعقابهم فى الدّنيا ابتداءً ، فى الآخرة انتهاءً ، أنّ عليهم لعنة الله تعالى ولعنة ملائكته الاطهار الأبرار ولعنة النّاس أجمعين . وينبغى أن يكون للجارّ والمجرور : «عليهم» كبير الوقع وعظيم الأثر فى تصوير اللّعنات المتتابعات المتنوّعات الّتى تنزل على القوم ، وهى لعنات تزيد المرتدّين بعداً من بارئهم جلّ وعلا وطرداً من رحمته تعالى، وفى كلّ ذلك تعميقٌ لمعنى اسم الإشارة الدّالّ على البعد الّذى استعمل فى حقّ القوم : «أولئك» .

أمّا اللّعنة من الله تعالى فمعناها الطّرد من الرّحمة والإبعاد .

وأمّا اللّعنة من الملائكة الأطهار الأبرار الأخيار فمعناها الدّعاء على القوم الظّالمين بأن تلاحق القوم لعنة الله تعالى وتطاردهم .

وأمّا النّاس أجمعون فهم المؤمنون والكافرون . أمّا اللّعنة من المؤمنين فإنّها شبيهةٌ باللّعنة من الملائكة المقرّبين . وأمّا اللّعنة من الكافرين فإنّها اللّعنة المتبادلة بين الكافرين يوم القيامة ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السّلام فى سورة العنكبوت(١) : ﴿ **وقال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدّنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النّار وما لكم من ناصرين** ﴾ . وجاء فى سورة الأعراف(٢) عن هذه الأمم قوله تعالى : ﴿ **قال ادخلوا فى أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس فى النّار . كلّما دخلت أمّةٌ لعنت أختها . حتى إذا**

---

(١) الآية ٢٥

(٢) الآية ٣٨

ادّاركوا فيها جميعاً قالتْ أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار . قال لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون ﴾ .

وما الّذى يقترن باللّعنة على المرتدّين من الله تعالى والملائكة والنّاس أجمعين فى يوم القيامة ؟ دخول النّار والخلود فيها لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به جلّ وعلا سواه بينما يغفر جلّ وعلا ما دون ذلك لمن يشاء . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتجيب على السّؤال الّذى طرحنا . قال تعالى : ﴿ **خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم يُنْظَرون** » ومن البيّن أنّ الخلود يصحّ أن يعود إلى اللّعنة باعتبارها أقرب مذكور ويصحّ أن يعود إلى النّار وإن لم يأت لها ذكر . والحقيقة أنّا أشدّ ميلاً إلى كون المراد بالخلود هنا الخلود فى نار جهنّم لأنّ للقرائن دورها ووزنها فى القرآن الكريم فما أكثر المواضع فى القرآن الكريم الّتى تعود فيها الضّمائر إلى غير الموجود فى السّياق لقرينةٍ صارفةٍ المعنى إلى تلك الجهة المعيّنة . فعلى سبيل المثال بشأن الآية الكريمة الثّامنة من سورة يس . قال تعالى : ﴿ **إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون** ﴾ اختلف العلماء بشأن اسم الضمير فى القول : «فهى» فمنهم من ذهب إلى كونه يعــود إلى الأغـلال لأنها أقرب مذكور، ومنهم من ذهب إلى كونه يعود إلى اليدين أو الأيدى على الرّغم من عدم ذكر الأيدى بصريح اللّفظ ولكنّ القرينة تقتضى هذا المعنى . ونحن نرى رأى هذا الفريق الآخر فنرى أنّ اسم الضّمير يعود إلى الأيدى الّتى لم يأت لها ذكر ودليلنا على ذلك لفظة الأغلال ذاتها لأنّ الغلّ نوعٌ فريد من القيود ينفرد بجمعه اليدين إلى العنق وشدّهما إليه شدّا . وعليه فحينما يذكر الغلّ يتبادر إلى الذّهن اليدان والعنق جميعاً ، وفى ذكر أحدهما حضورٌ ضروريّ للآخر .

ويضاف إلى هذا الدّليل الّذى اعتمدناه فى كون الضّمير يعود إلى نار جهنّم وليس إلى اللّعنة دليلٌ آخر . وهو أنّ الخلود فى القرآن الكريم يقترن

دائماً بنار جهنّم ولم يقترن مرّةً من المرّات باللّعنة . وممّا يعتبر قرينةً أخرى تقوّى من الرّأى الّذى ارتأينا أنّ الآية الكريمة تقرّر أنّهم لا يخفّف عنه العذاب وإنّما يكون العذاب فى نار جهنّم ولا هم ينظرون : « مــن الإنظار أى لا يمهلون ولا يؤجّلون . أو لا ينتظرون ليعتذروا . أو لا ينظر إليهم نظر رحمة »[1] .

والآية الكريمة تستثنى من هؤلاء المرتدّين الّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا . قال تعالى : ﴿ **إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفورٌ رحيم** ﴾ إنّ الآية الكريمة تستثنى الّذين تابوا فأقلعوا عن الكفر وعادوا إلى حظيرة الإسلام وندموا على ما فرّطوا فى جنب الله تعالى وصمّموا على البقاء على دين الإسلام إلى أن يلقوا الله تعالى سائلين الله تعالى جلّت قدرته أن يثبّتهم على المحجَّةِ البيضاء إلى أن يلقوه جلّ وعلا ويتوفّاهم مسلمين لله ربّ العالمين .

وبما أنّ التّوبة حالةٌ نفسيّةٌ ومرحلةٌ إيمانيّة ودرجة يقينيّة ومسألةٌ معنويّة لذلك هى بحاجةٍ إلى الدّليل العملىّ عليها وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك بالقول : «وأصلحوا» والمراد أنّ التّائبين قد قدّموا الدّليل العملىّ على أنّ توبتهم صادقة فعملوا الصّالحات الّتى أمر بها الشّارع الحكيم وأرادوا بها وجه الله تعالى . إنّ من تاب وآمن وعمل صالحاً وظلّ على هذه الحال إلى أن لقى الله تعالى فإنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ للذّنب رحيمٌ إذْ أرشد المذنب إلى باب التّوبة المفتوح إلى يوم القيامة وأعلمه أنّ له ربّاً كريماً غفوراً رحيما يفرح بتوبة عبده المذنب ورجوعه إليه .

وبما أنّ الشّرك بالله تعالى هو الذّنب الوحيد الّذى لا يغفره الله تعالى وما أكثر المشركين فى هذا الوجود فقد عاد السّياق إلى الحديث فى هذه

---

(١) الكشّاف ١/٢٤٨

المسألة فى آيتين كريمتين من زاويتين أخريين فإلى أولى الآيتين الكريمتين .

الآية رقم (٩٠)

قال تعالى : ﴿ **إنّ الّذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضّالّون** ﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن فريقٍ من المرتدّين عن الإسلام والعياذ بالله فتقرّر أنّ الّذين كفروا بعد إيمانهم وتجاوزهم مرحلة الإسلام باللّسان إلى مرحلة الإيمان والاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان والّذين تجاوزوا درك الارتداد عن الإسلام والتّحوّل إلى الكفر بأن ازدادوا كفراً بعد كفر وضلالاً بعد ضلال وصدّاً عن سبيل الله تعالى بعد صدّ ، تقرّر الآية الكريمة أنّ هؤلاء المرتدّين لن يقبل الله سبحانه وتعالى توبتهم . وأولئك هم الضّالّون المضلّون .

ولّما كان مثل هذه الآية الكريمة إنّما ينظر إليها فى ضوء مثل قوله تعالى[1] : ﴿ **قُلْ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفُسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إنّ الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرّحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تُنْصرون . واتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون** ﴾ بمعنى أنّ التّوبة بشروطها الّتى نصّ عليها العلماء مقبولةٌ بإذن الله تعالى وبفضله جلّ وعلا ومنّه . يقول مثلاً الإمام النّووىّ فى رياض الصّالحين[2] : «قال العلماء : التّوبة واجبةٌ من كلّ ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلّق بحقّ آدمىّ فلها ثلاثة شروط : أحدها أن يقلع عن المعصية ،

(١) سورة الزّمر ٥٣ ـ ٥٥

(٢) ص ١٠ .

والثّانى أن يندم على فعلها ، والثّالث أن يَعْزِم ألاّ يعود إليها أبدا . فإن فقد أحدُ الثلاثة لم تصحّ توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمىّ فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حقّ صاحبها . .» .

كما يُنْظَر إلى الآية الكريمة فى ضوء قوله تعالى[1] : ﴿ **إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيما . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إنّى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ وبذلك تكون الآية الكريمة متعلّقة بقوله تعالى : ﴿ **وليست التّوبة للذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّى تبت الآن** ﴾ فهؤلاء الّذين كفروا بعد إيمانهم ثمّ ازدادوا كفروا نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم فلم يذكروه جلّ وعلا إلاّ حينما حضرتهم أسباب الموت ودواعيه فتابوا فلم يقبل الله تعالى توبتهم .

وبما أنّ آية سورة النّساء هذه تحدّثت عن فريقين لا يقبل الله تعالى توبتهما ، أحدهما الفريق الّذى عنته الآية الكريمة الّتى نحن بصددها وآخرهما الفريق الّذى يعنيه قوله عزّ من قائل فى الآية الكريمة ذاتها : ﴿ **ولا الّذين يموتون وهم كفّار** ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى كذلك لا يقبل توبة الّذين يموتون وهم كفّار بمعنى أنّهم لا يتوبون إلاّ حين يرون العذاب الأليم الّذى أعدّته لهم ملائكة العذاب ساعة الموت ويوم القيامة . والآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بهذه الفئة فإلى :

الآية رقم (٩١)

قال تعالى :﴿ **إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذابٌ أليم ومالهم من ناصرين** ﴾ .

---

(١) سورة النّساء ١٧ ، ١٨

كما تبيّن تشمل الآية الكريمة أولئك الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً وماتوا وهم كفّار دون أن يفكّروا فى التّوبة ، كما تشمل كذلك أولئك الّذين قضوا حياتهم كفّاراً إلى أن توفّاهم الله تعالى على الكفر والعياذ بالله . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هذا الفريق من الكفّار وذاك ظـلّ كافراً إلى أن توفّاه الله تعالى ولم يتب إلى الله تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ، لن يقبل الله تعالى من أحدهم يوم القيامة ملء الأرض ، بوهادها ونجادها مائها ويابسها ، ذهباً ولو افتدى المجرم بتلك الكمّيّة الخياليّة من الذّهب . إنّ رأس مال كلّ إنسان يوم القيامة عمله ، فلا مال يوم القيامة عند أحد ولا ذهب ، بل إنّ مبدأ الفداء مرفوضٌ يوم القيامة ، فلم يبق لأولئك الكافرين سوى العذاب الأليم فى نار الجحيم . وما لهم فى ذلك اليوم العصيب من ناصرين يصرفون عنهم ذلك الفداء أو يخفّفونه أو يتحمّلونه أو يتحمّلون شيئاً منه .

عن أنس بن مالك أنّ النّبىّ ﷺ قال : يقال للرّجل من أهل النّار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ألاّ تشرك بى شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك . رواه الإمام أحمد والبخارىّ ومسلم[1] .

وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه المثانى الّذى يتحدّث عن الشّىء وضدّه المعنى وخلافه ، وبعد الحديث عن النّار يأتى الحديث عن الجنّة وذلك فى آخر آيات هذا الجزء الثّالث فإلى :

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨٠

الآية رقم (٩٢)

قال تعالى : ﴿ **لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون . وما تنفقوا من شىءٍ فإنّ الله به عليم** ﴾ .

قال كثيرٌ من أهل التّأويل : البرّ الجنّة ، لانّ برّ الرّبّ بعبده فى الآخرة وإكرامه إيّاه بإدخاله الجنّة[1] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ المؤمنين بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً لن يدخلوا الجنّة ولن ينالوا البرّ حتّى ينفقوا فى سبيل الله تعالى ممّا يحبّون من طيّب المال وجيّده ونفيسه ، كلٌّ فى حدود طاقته بل وسعه فلا يكلّف الله تعالى نفساً إلّا وسعها . والله سبحانه وتعالى هو الغنىّ جلّ وعلا عنّا وهو الّذى أعطانا من فضله ما جعلنا مستخلفين فيه لينظر عزّ وجلّ هل نأتمر بما أمرنا به فى شأن المال وننتهى عمّا نهانا عنه أم أنّنا لا نمتثل لأوامره ونواهيه جلّ وعلا . وهل القدرة على كسب المال إلّا من فضل الله تعالى علينا الّذى أوجدنا من العدم وخلقنا فى أحسن تقويم ؟ إنّ المال الّذى ننفقه فى سبيل الله تعالى إنّما هو المال الّذى استخلفنا الله تعالى فيه وسيثيبنا جلّ وعلا يوم القيامة على ما أنفقنا فى سبيله تعالى من مالٍ آتانا جلّ وعلا إيّاه واستخلفنا فيه . والله سبحانه وتعالى عليمٌ لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ومن ذلك المال الّذى ننفق فى سبيله تعالى من أين اكتسبناه وفيم أنفقناه وما هى حقيقة نوايانا حينما ننفق ، هل نريد وجه الله تعالى أم نريد الرّياء والسّمعة . إنّ الّذين ينفقون أموالهم فىَ سبيل الله تعالى هم الفائزون حقّا .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحبّ أمواله إليه بير حاء ، وكانت مستقبلةً المسجد ،

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٢٤٦

وكان النّبىّ ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيّب . قال أنس : فلّما نزلت : لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون . قال أبو طلحة : يارسول الله : إنّ الله يقول : لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون . وإنّ أحبَّ أموالى إلىّ بير حاء وإنّها صدقةٌ لله أرجو بها برّها وذخرها عند الله تعالى فضعها يارسول الله حيث أراك الله . فقال النّبىّ ﷺ : بخٍ بخٍ ذاك مالٌ رابح وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين . فقال أبو طلحة : أَفْعَلُ يارسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمّه . أخرجاه . وفى الصّحيحين أنّ عمر قال : يارسول الله لم أصب مالاً قطّ هو أنفس عندى من سهمى الّذى هو بخيبر فما تأمرنى به ؟ قال : احبس الأصل وسبّل الثّمرة[١] .

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لصالح الأعمال وأن يتقبّلها منّا وأن يلهمنا رشدنا إنّه جلّ وعلا نعم المولى ونعم النّصير .

***

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٨١

(٩)

تصحيح أخطاء أهل الكتاب
الآيات (٩٣ ـ ٩٩)

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

استمراراً لتصحيح الآيات الكريمات العديد من أخطاء أهل الكتاب تُقرّر أولى آيات الجزء الرّابع أنّ كلّ الطّعام كان حلالاً لبنى إسرائيل إلّا ما حرّم يعقوب عليه السّلام على نفسه من لحوم الإبل وألبانها من قبل أن تنزّل التّوراة الّتى نزلت بتحريم ما حرّم يعقوب عليه السّلام على نفسه وتبعه فى ذلك بنو إسرائيل . إنّ هذه المعلومات الصّادقة فى القرآن موجودةٌ فى التّوراة فعلى بنى إسرائيل ألّا يكذبوا على الله تعالى وأن يصدّقوا القرآن الكريم وأن يتّبعوا ملّة إبراهيم عليه السّلام الّذى ما كان من المشركين ، وفى اتّباعهم ملّة إبراهيم عليه السّلام اتّباعٌ ضمنىٌّ لمحمّد بن عبدالله ﷺ الّذى بعثه الله تعالى بالنّسخة الكاملة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام الّذى أمره الله تعالى بأن يؤذّن فى النّاس الحجّ إلى أوّل بيتٍ وضعه الله تعالى فى الأرض لعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، فإنّ لله على النّاس كل الناس ، الحجّ إلى بيت الله الحرام ، وهو الرّكن الخامس من أركان الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ . إنّ على النّاس جميعاً وفيهم أهل الكتاب أن يدخلوا فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ لأنّ الدّخول فى الإسلام أهمّ شروط الحجّ إلى بيت الله تعالى . والعجيب فى أمر أهل الكتاب أنّهم يكفرون بآيات الله تعالى من توراةٍ وإنجيل وقرآن فهل يظنّون أنّ الله سبحانه وتعالى ليس شهيداً على ما يعملون . والأعجب من ذلك أنّ أهل الكتاب يتجاوزون الكفر إلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى بل إلى إغواء المؤمنين بالعمل على حملهم على الارتداد عن دين الإسلام وسبيل الله تعالى المستقيمة

وتحويلهم إلى السّبيل المعوجّة الّتى يحبّونها ، فهل يظنّون أنّ الله سبحانه وتعالى غافلٌ عمّا يعملون . إنّ السّياق فى أسلوب الاستفهام الإنكارىّ ينبّه أهل الكتاب فى لطفٍ إلى أنّهم لا يليق بهم أن يبادلوا بالكفران فضل الله تعالى عليهم باصطفائهم بالكتاب السّماوىّ .

* * *

الآية رقم (٩٣)

قال تعالى : ﴿ **كلّ الطّعام كان حِلاًّ لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة . قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ .

بيّن الله سبحانه وتعالى على لسان رسله الحلال والحرام فى كلّ شىء ومن ذلك الطّعام ، ومن هؤلاء المرسلين إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء الّذى بعثه الله تعالى بالحنيفيّة السّمحاء . وقد جعل الله سبحانه وتعالى النّبوة بعد إبراهيم عليه السّلام فى ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام وفى ذرّيّتيهما . وكلّ الأنبياء باستثناء محمّد ﷺ من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام أمّا محمّد ﷺ فإنّه النّبىّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام . وقد ولد لإسحاق عليه السّلام يعقوب عليه السّلام وهو إسرائيل . وكان ليعقوب عليه السّلام اثنا عشر ولداً ذكراً وفيهم يوسف عليه السّلام . وكلّ واحدٍ من أبناء يعقوب عليه السّلام أبو قبيلة ، وهؤلاء هم بنو إسرائيل . ومن أنبياء بنى إسرائيل موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام . وبعيسى عليه السّلام تنتهى النّبوّة فى ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام كى تتحوّل إلى ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام وتختم بأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

والآية الكريمة تقرّر أنّ كلّ الطّعام الّذى أحلّه الله تعالى للمرسلين كان حلالاً لبنى إسرائيل باستثناء الطّعام الّذى حرّمه إسرائيل ، وهو يعقوب عليه السّلام ، على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة على موسى عليه السّلام . والمعروف أنّ موسى عليه السّلام يتأخّر فى الزّمن كثيراً عن حفيد إبراهيم عليه السّلام يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام وهذا الطّعام الّذى حرّمه إسرائيل على نفسه حرّمه بنو إسرائيل بدورهم على أنفسهم اقتداءً بيعقوب

عليه السّلام . وحينما أنزل الله تعالى التّوراة على موسى عليه السّلام نزلت بتحريم ما حرّم يعقوب عليه السّلام على نفسه وبنو إسرائيل على أنفسهم ونزلت كذلك بتحريم أشياء أخر بسبب ظلم بنى إسرائيل وبغيهم ، وإلى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة النّساء[١] : ﴿ **فَبِظُلْمٍ من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيّباتٍ أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الرّبا وقد نهوا عنه وأكلهم أموالَ النّاس بالباطل . . وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما** ﴾ .

فما هو الطّعام الّذى حرّمه يعقوب عليه السّلام على نفسه ؟ عن ابن عبّاس أنّ عصابةً من اليهود حضرت رسول الله ﷺ فقالوا ياأبا القاسم أخبرنا أىّ الطّعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنشدكم[٢] بالّذى أنزل التّوراة على موسى هل تعلمون إنّ إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليُحرّمنّ أحبّ الطّعام والشّراب إليه وكان أحبّ الطّعام إليه لُحْمان الإبل وأحبّ الشّراب إليه ألبانها ؟ فقالوا اللّهمّ نعم[٣] . وعن ابن عبّاس قال : كان إسرائيل أخذه عرق النَّسا[٤] فكان يبيت وله زُقاء[٥]فجعل لله عليه إن شفاه ألّا يأكل العروق[٦] قال : فلذلك اليهود تنزع العروق من الّلحم[٧] والعروق كلُّها تبعٌ لذلك العرق[٨] .

---

(١) الآية ١٦٠ ، ١٦١

(٢) انشدكم : استحلفكم

(٣) تفسير الطّبرىّ ٤/٥

(٤) النَّسا بفتح النّون : عِرْقٌ من الوَرِك إلى الكعب .

(٥) زقاء بضمّ الزّاى : صياح

(٦) تفسير الطّبرىّ ٤/٤

(٧) تفسير الطّبرىّ ٤/٤

(٨) تفسير الطّبرىّ ٤/٤

لقد زعم اليهود أنّ الله سبحانه وتعالى حرّم عليهم فى التّوراة العروق ولحوم الإبل وألبانها والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم : جيئوا بالتّوراة فاقرأوها كى يتبيّن لكم صدق ما أوحى الله تعالى به إلىّ فإنّ كُتُبَ الله تعالى يُصدّق بعضها بعضاً . وحينما يثبت الصّدق فى جانب يثبت الكذب فى الجانب الآخر[1] ،

ولمّا كان المعنى : كلّ الطّعام كان حلالاً لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه على النّحو الّذى تبيّنّا من قبل أن تنزّل التّوراة يصحّ أن نسأل : ما هو الكذب الّذى قاله بنو إسرائيل ؟ يصحّ أن يكون الزّعم بأنّ ذلك التّحريم إنّما كان فى التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام بينما الآية الكريمة تنص على أنّ التّحريم كان من قِبَل يعقوب عليه السّلام ذاته وكان يَتَقرّب إلى الله تعالى بذلك التّحريم . وبهذا يكون القوم يفترون على الله تعالى الكذب ويهرفون بما لا يعرفون ويبيّن القرآن الكريم لهم وجه الصّواب[2] .

وحينما يكون الطّعام حلالاً لبنى إسرائيل من قبل أن تنزّل التّوراة وقد عرفنا أنّ إسرائيل هو يعقوب عليه السّلام حفيد إبراهيم عليه السّلام فذلك معناه أنّ الحلال كلّه بيّن وأنّ الحرام كلّه بيّن ، من لدن إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء الّذى آتاه الله تعالى الصّحف .

وما معنى كون الحلال بيّناً والحرام بيّناً من لدن إبراهيم عليه السّلام ؟ معنى ذلك وجوب اتّباع بنى إسرائيل محمّداً ﷺ لأنّه جاء بالصّورة الأكمل من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام الّذى أُمِر بنو إسرائيل باتّباع ملّته عليه السّلام .

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ٤/٥

(٢) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٤/٥

وحينما يحرّم يعقوب عليه السّلام من الطّعام ما يحبّه ويؤثره على سواه من الأطعمة فهل ثمّة علاقة بين هذا التّحريم للمحبوب من الطّعام وبين الحثّ فى الآية الكريمة السّابقة على الإنفاق ممّا نحبّ كى ننال البرّ ؟ نعم ثمّة علاقة لأنّ المال محبوب للنفس وينفق المرء منه تقرّبا إلى الله تعالى ولأن يعقوب عليه السّلام يحبّ لحوم الإبل وألبانها ويحرّمها على نفسه تقرُّباً إلى الله تعالى فقد كان ذلك جائزاً فى شريعته عليه السّلام .

وإذا كانت الآية الكريمة نفت عن القوم الصّدق فإنّ الآية الكريمة التّالية أثبتت للقوم الكذب فإلى :

الآية رقم (٩٤)

قال تعالى : ﴿ **فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظّالمون** ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ من افترى على الله تعالى الكذب من بنى إسرائيل أو من غيرهم من بعد ما تبيّن له الحقّ وثبت له الصدّق فأولئك هم الظّالمون الّذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم لأنّ الكذب لا يؤدّى إلى خيرٍ أبداً فكيف إذا كان افتراءً فى مجال الدّين .

وبما أنّ الآية الكريمة أمرت النّبىّ ﷺ أن يقول لبنى إسرائيل : «فأتوا بالتّوراة إن كنتم صادقين» وقد ثبت كذب القوم ، فإنّ الآية الكريمة التّالية تخاطب فى الطّريقة ذاتها المصطفى ﷺ بالقول : «قل» وتضع البديل الصّحيح ألا وهو الصدّق فإلى :

الآية رقم (٩٥)

قال تعالى : ﴿ **قل صدق الله . فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول : صدق الله . والمعنى : صدق الله تعالى فى كلّ الأقوال الّتى يقولها جلّ وعلا ومن ذلك أنّ كلّ الطّعام كان حلالاً لبنى إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه وبدافعٍ من ذاته تقرّباً إلى الله تعالى من قبل أن تنزّل التّوراة على موسى عليه السّلام . ومن البيّن أنّ الصّدق فى الأقوال هنا ذو علاقةٍ بمثل قوله تعاله فى سورة المائدة[1] : ﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّاكنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين . يهدى به الله من اتّبع رضوانه سبُل السّلام ويخرجهم من الظّلمات إلى النّور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ .

ولّما كانت كلّ الجماعات مجمعة على صحّة دين إبراهيم عليه السّلام فقد أمرت الآية الكريمة أهل الكتاب بعامّة ، بنى إسرائيل بخاصّة ، أن يتّبعوا ملّة إبراهيم عليه السّلام ودين الإسلام لله ربّ العالمين حنيفاً ومائلاً عن سائر الدّيانات إلى دين الإسلام دين الحقّ الّذى بعثه الله تعالى به والحنيفيّة السّمحاء الّتى اصطفاه الله تعالى بها . وما كان إبراهيم عليه السّلام وقتاً من الأوقات من المشركين الّذين يعبدون مع الله تعالى غيره ويشركون معه جلّ وعلا سواه فقد آتاه الله تعالى رشده من قبل . وفى نفى الشّرك عن إبراهيم عليه السّلام تعريضٌ ببنى إسرائيل الّذين عبد آباؤهم العجل والّذين قالوا إنّ عزيراً ابن الله ، وبالنّصارى الّذين قالوا المسيح ابن الله ، وبالعرب الّذين قالوا الملائكة بنات الله ، وبسائر المشركين فى كلّ زمانٍ ومكان .

ولّما كان محمّد بن عبدالله ﷺ قد بعثه الله تعالى بالنّسخة الكاملة من الحنيفيّة السّمحاء دين إبراهيم عليه السّلام فإنّ فى الأمر باتّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام أمراً ضمنيّاً باتّباع محمّد ﷺ لأنّ دين الإسلام الّذى بعثه الله تعالى

---

(١) الآية ١٥ ، ١٦

به ناسخ لسائر الأديان السّماويّة فمن باب الأولى سواها . وبهذا يكون الأمر باتّباع ملّة إبراهيم حنيفاً قوّةً للميثاق الّذى أخذه الله تعالى من النّبيّين وأخذوه بدورهم من أممهم باتّباع خاتم النّبيّين لو بعثه الله تعالى وهم أحياء .

ومن الأدلّة على أنّ الأمر باتّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام أمرٌ ضمنىٌّ باتّباع ملّة محمّدﷺ أنّ الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام الّذى أفاضت فى الحديث عنه سورة الحج والّذى نترجم نحن أتباع محمّد صلّى الله عليه وسلّم تعاليمه إلى عمل إنّما هو حديثٌ عن الحجّ على عهد إبراهيم عليه السّلام . وحينما حجّ المصطفى ﷺ سنة عشرٍ حجّة البلاغ وحجّة الوداع[١] أرى النّاس مناسكهم وأعلمهم سنن حجّهم[٢] وقال للنّاس خذوا عنّى مناسككم[٣] وعن مِرْبع الأنصارىّ قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : كونوا على مشاعركم فإنّكم على إرثٍ من إرث إبراهيم . رواه التّرمذىّ أى أنّ موقفهم موقف إبراهيم عليه السّلام ورثوه منه ولم يخطئوا فى الوقوف فيه عن سنّته[٤] والآيتان الكريمتان التّاليتان تتحدّثان عن البيت الحرام وعن الحجّ إليه فإلى :

الآية رقم (٩٦)

قال تعالى : ﴿ **إنّ أوّل بيتٍ وُضِعَ للنّاس لّلذى ببكّة مباركاً وهدىً للعالمين** ﴾ .

بيّن السّياق وجه الحقّ بشأن الطّعام الّذى كان حلالاً لبنى إسرائيل الاّ ما حرّم إسرائيل على نفسه ، والسّياق هنا يبيّن وجه الحقّ بشأن أوّل بيتٍ وضعه

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشلم حلبىّ ٤/٢٥٢

(٢) السّيرة النّبويّة ٤/٢٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ٧٨٩

(٤) فقه السّنّة ١/٦١٠

الله تعالى فى الأرض لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ردّاً على زعم أهل الكتاب أنّ قبلتهم إلى بيت المقدس أقدم من قبلة المسلمين وبالتّالى هى أفضل ، يزعم أهل الكتاب ذلك مع علمهم أنّ إبراهيم عليه السّلام يسبق زمناً كلًّا من موسى عليه السّلام وعيسى عليه السّلام وبالتّالى فإنّ قبلته وهى الكعبة البيت الحرام تسبق قبلة موسى وعيسى عليهما السّلام ومع علمهم بأنّ قبلة محمّد ﷺ هى قبلة إبراهيم عليه السّلام . فعلى سبيل المثال : «اليهود حين حوّلت القبلة إلى الكعبة طعنوا فى نبوّة رسول الله ﷺ وقالوا : بيت المقدس أفضل وأحقّ بالاستقبال لأنّه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر وقبلة جميع الأنبياء فأكذبهم الله فى ذلك بقوله : ﴿ **إنّ أول بيتٍ وُضِعَ للنّاس للّذى ببكّة** ﴾[١] روى الإمام أحمد عن أبى ذرٍ رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ، أىّ مسجدٍ وضع أوّل ؟ قال المسجد الحرام . قلت : ثمّ أىّ ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة . قلت : ثمّ أىّ ؟ قال : ثمّ حيث أدركتك الصّلاة فصلّ فكلّها مسجد . وأخرجه البخارىّ ومسلم[٢] . والعجيب فى أمر اليهود والنّصارى أنّهم يزعمون أنّهم على دين إبراهيم الخليل عليه السّلام ومنهجه ولا يحجّون إلى البيت الّذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى النّاس إلى حجّه[٣] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ أوّل بيتٍ وضعه الله تعالى فى الأرض لعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له البيت الحرام بمكّة المكرّم ، ببكّة الّتى تبكّ أعناق الجبابرة أى تدقّها ، والّتى لم يقصدها جبّارٌ إلّا قصمه الله تعالى[٤] وهذا البيت العتيق مباركٌ فمن النّاحية المعنويّة هو مباركٌ لمن قصده حاجّاً أو معتمراً وطاف

---

(١) البحر المحيط ٣/٥

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٨٣ وانظر تفسير ابن عطيّة ٣/٢٢٠ وتفسير القرطبىّ ١٣٧٩ والبحر المحيط ٣/٦

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٨٣

(٤) انظر الكشّاف ١/٣٣٦ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانىّ «بكت» ٥٧ وتفسير القرطبىّ ١٣٨٠

به وصلّى فيه واعتكف . ومن النّاحية المادّيّة هو مباركٌ يجبى إليه ثمرات كلّ شيءٍ وقد أطعم الله تعالى جيرانه من جوعٍ وآمنهم من خوف . وهذا البيت العتيق هدىً للعالمين من الضّلالة ورشادٌ لهم وفلاح لأنّ الله سبحانه وتعالى أرسل محمّداً ﷺ للنّاس كافّةً وهدىً للعالمين ورحمة . قال تعالى[1] : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين** ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون** ﴾ .

فواجب النّاس جميعاً وفيهم اليهود والنّصارى أن يتّجهوا فى صلاتهم إلى هذا البيت الحرام وأن يقصدوه حاجّين ومعتمرين وإنّما يتمّ ذلك باتّباعهم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ. والآية الكريمة التّالية مبيّنة بعض فضائل هذا البيت وحقّ الله تعالى على النّاس نحوه فإلى :

الآية رقم (٩٧)

قال تعالى : ﴿ **فيه آياتٌ بيّناتٌ مقام إبراهيم . ومن دخله كان آمنا . ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين** ﴾ .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ بيت الله تعالى الحرام هو أوّل بيتٍ وضعه الله تعالى فى الأرض لعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن أنّ هذا البيت الحرام فيه آياتٌ بيّناتٌ وعلاماتٌ للدّين واضحات ، منها مقام إبراهيم عليه السّلام . واختلف فى تعيين المقام على أقوالٍ أصحّها أنّه الحجر الّذى تعرفه النّاس اليوم الّذى يصلّون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبدالله وابن عبّاس وقتادة وغيرهم . وفى

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧

(٢) سورة سبا ٢٨

البخاريّ أنّه الحجر الّذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة الّتى كان إسماعيل يناولها إيّاه فى بناء البيت وغرقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه ، غير أنه أذهبه مَسْحُ النّاس بأيديهم[1] وقال مجاهد : أثر قدميه فى المقام آية بيّنة . وكذا روى عن عمر بن عبدالعزيز والحسن وقتادة والسّدّى ومقاتل بن حيّان وغيرهم[2] .

ومن آيات هذا البيت البيّنات أنّ من دخله كان آمنا على دمه وماله وعرضه . والقرآن الكريم فى العديد من المواضع نصّ على هذه الآية البيّنة وعلى قسيمها الإطعام من جوع ، ومن ذلك قوله تعالى[3] : ﴿ **أَوَ لَمْ نمكّن لهم حرماً آمناً يُجْبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾ . وقوله تعالى[4] : ﴿ **أو لم يَرَوْا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطّف النّاس من حولهم . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ **لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشّتاء والصّيف . فليعبدوا ربّ هذا البيت . الّذى أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف** ﴾ .

إنّ هذا البيت الّذى خصّه الله تعالى بهذه النّعوت وميّزه بهذه الفضائل قد جعل الله تعالى حقّاً له على النّاس كلّ النّاس أن يحجّوه ، وأن يقصدوه لأداء الرّكن الخامس من أركان الإسلام إذا استطاعوا لذلك سبيلاً .

واتفق الفقهاء على أنّه يشترط لوجوب الحجّ الشّروط الآتية : ١ ـ الإسلام ٢ ـ البلوغ ٣ ـ العقل ٤ ـ الحرّية ٥ ـ الاستطاعة . وتتحقق الاستطاعة بمايأتى :

---

(١) تفسير القرطبىّ ٤٩٨

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٤/١ وتفسير الطّبرىّ ٩/٤

(٣) سورة القصص ٥٧

(٤) سورة العنكبوت ٦٧

(٥) سورة قريش ١ ـ ٤

١ ـ أن يكون المكلّف صحيح البدن ٢ ـ أن تكون الطّريق آمنة بحيث يأمن الحاجّ على نفسه وماله . ٣ ، ٤ ـ أن يكون مالكاً للزّاد والرّاحلة[١] .

وحديث الزّاد والرّاحلة المرويّ عن عبدالله بن عمر والّذى فسّر به ﷺ الاستطاعة رواه الحاكم ثمّ قال : صحيحٌ على شرط مسلم ولم يخرجاه[٢] وانظر فى تفسير الطّبرىّ[٣] رأيه فى أسانيد الحديث .

وتبيّن الآية أنّ من كفر فأنكر الحجّ وجحد كونه ركناً من أركان الإسلام أو كفر بالحجّ فلم يرحجّه برّاً ولا تركه مأثماً كما قال ابن عبّاس[٤] فإنّ الله سبحانه وتعالى غنىٌّ عن العالمين ، الإنس والجن والملائكة ، لأنّ الكافر هو الخاسر ولأنّه حرم نفسه ثواب الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام ولأنّ الله سبحانه وتعالى غنىٌّ عن طاعة الطّائعين ومعصية العاصين ، فمن أطاع الله تعالى أثيب ومن عصى الله تعالى عوقب . قال ابن عبّاس ومجاهد وغير واحد : أى ومن جحد فريضة الحجّ فقد كفر والله غنيٌّ عنه[٥] عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : من ملك زاداً وراحلةً ولم يحجّ بيت الله فلا يضرّه مات يهوديّاً أو نصرانيّاً ذلك بأنّ الله قال : ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين[٦] وهذه آية وجوب الحجّ عند الجمهور[٧] وإنّما يجب على المكلّف فى العمر مرّةً واحدةً بالنّصّ والإجماع[٨] .

(١) فقه السّنّة ١/٥٣٠ ، ٥٣١
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦
(٣) ٤/١٣
(٤) تفسير الطّبرىّ ٤/١٤
(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦
(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦
(٧) تفسير ابن كثير ١/٣٨٥
(٨) تفسير ابن كثير ١/٣٨٥

وحينما يكون الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام حقّاً لله تعالى على جميع النّاس فذلك معناه أنّ على جميع النّاس أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين ، وأنّ يتّبعوا الرّسول النّبىّ الأمّىّ محمّد بن عبدالله ﷺ ، ومن هؤلاء النّاس اليهود والنّصارى كى يتحقّق فيهم أهمّ شروط الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام ، ولكنّ كثيراً من النّاس وفيهم كثيرٌ من اليهود والنّصارى لم يدخلوا فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، وإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تتحدّثان عن هذا الفريق الكافر من أهل الكتاب فإلى أولى الآيتين الكريمتين ابتداءً .

الآية رقم (٩٨)

قال تعالى : ﴿ **قل يأهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون** ﴾ .

على عادة بعض الآيات الكريمات السّابقات تبدأ الآية الكريمة بمخاطبة المصطفى ﷺ فى هيئة الأمر : «قل» إنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول لأهل الكتاب وأن يناديهم فى ألطف عبارة منبّهةٍ لهم إلى فضل الله تعالى عليهم بكونهم أهل كتابٍ سماوىّ اصطفاهم الله تعالى به فعليهم أن يترجموا تعاليم ذلك الكتاب إلى عمل ومن هذه التّعاليم الأمر باتّباع المصطفى ﷺ الّذى يجدون نعته مكتوباً عندهم فى التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام وفى الإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام . إنّ كلًّا من اليهود والنّصارى كفروا فى مجموعهم بآيات الله تعالى المتمثّلة فى التّوراة والإنجيل والقرآن . وإنّ الآية الكريمة فى أسلوب الاستفهام تستنكر على أهل الكتاب أن يكفروا بآيات الله تعالى عن عمدٍ وسابق إصرارٍ وعلم . إنّ على أهل الكتاب أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى شهيد ، هكذا فى صيغة المبالغة ، على ما يعملون، فعليهم أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً

نصوحاً . وينبغى أن يكون لحرف الجرّ «على» الدّالّ على الاستعلاء قوّةٌ لصيغة المبالغة «شهيد» فالله سبحانه وتعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً ولا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . والآية الكريمة التّالية تسير على الوتيرة ذاتها فإلى :

الآية رقم (٩٩)

قال تعالى : ﴿ **قُل ياأهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء . وما الله بغافلٍ عما تعملون** ﴾ .

على غرار الآية الكريمة السّابقة تبدأ هذه الآية الكريمة بالقول : ﴿ **قل ياأهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله** ﴾ ووراء المعانى الّتى تفهم هنا كما فهمت فى الآية الكريمة السّابقة من وصف اليهود والنّصارى بكونهم أهلَ الكتاب ومن الاستفهام الإنكارىّ نستطيع أن نتبيّن من تكرار القول ذاته قوّةً إضافيّة للمعانى النّبيلة والمرامى الجليلة لأنّ من ملابسات التّكرار فى مثل هذه المناسبة التّنبيه إلى مزيد الاهتمام بمن يعنيه الكلام . والحقيقة أنّنا بصدد درسٍ عظيمٍ من دروس القرآن الكثيرة فى الدّعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة .

وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة أنكرت على أهل الكتاب فى أسلوب القرآن الكريم السّامى النّبيل وفى هيئة الاستفهام كفرهم بآيات الله تعالى وهم يعلمون أنّ الله شهيدٌ على ما يعملون فإنّ الآية الكريمة التّالية فى استفهامها الإنكارىّ وفى تذييلها تتجاوز كلًّا من المرحلتين السّابقتين . إنّ الآية الكريمة فى القول : « لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء» تتجاوز مرحلة الكفر الّتى أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة وتتحوّل إلى مرحلة بل مراحل أخرى . إنّ أهل الكتاب تجاوزوا الكفر بآيات الله تعالى إلى

الصّدّ عن سبيل الله تعالى . بل إنّهم تجاوزوا مرحلة الصّدّ المجرّد بصرف النّاس عن الدّخول فى دين الله تعالى إلى مرحلة صدّ من آمن ودخل فى دين الإسلام وذاق حلاوته وذلك بإغرائه بكلّ الوسائل الشّيطانية كى يرتدّ عن دين الإسلام باعتبار ذلك خطوةً أوّليّة ضروريّة للمرحلة التّالية والهدف البعيد الحقيقىّ الّذى يرضى عنه وحده دون سواه بنصّ القرآن الكريم كلٌّ من اليهود والنّصارى بأن يرتدّ المسلم ـ لا سمح الله ـ يهوديّاً فذلك ما يرضى اليهود أو نصرانياً فذلك ما يرضى النّصارى .

وهؤلاء اليهود والنّصارى الّذين يعملون جاهدين من أجل حمل المسلمين على الارتداد عن دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وعلى اعتناق اليهوديّة والنّصرانيّة هم على علمٍ تامٍ بأنّ المسلمين يسيرون فى الطّريق القويم والصّراط المستقيم وأنّ طريق كلٍّ من اليهود والنصارى معوجّة ، ومع ذلك هم لا يكفّون عن العمل الجادّ من أجل تضليل المسلمين وهم يصرّون على الوصول إلى تلك الغاية الخسيسة متذرّعين بكلّ وسيلة دنيئةٍ لئيمة . وقد عبّرت الآية الكريمة عن هذه المعانى حينما قرّرت أنّ أهل الكتاب فى صدّهم من آمن عن سبيل الله تعالى يبغون الطّريق عوجاً ، ولجملة يبغون علاقة بالبغى والعدوان والطّغيان ، وحينما قرّرت أنّ أهل الكتاب شهداء ، وأنّ كلّ فردٍ منهم شهيد ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بمعنى أنّ أهل الكتاب قد أحاط كلّ واحدٍ منهم علماً حتّى نزّل منزلة الشّهيد الّذى لا يخفى عليه أدقّ أجزاء القضيّة وعلم علم اليّقين أنّ المسلمين يسيرون فى الطّريق المستقيمة وأنّ أهل الكتاب يسيرون فى الطّريق المعوجّه . إنّهم يأتون ما يأتون من منكر عن عمدٍ وعلمٍ وسبق إصرار .

وتجاه هذا الضّلال البعيد الّذى فيه أهل الكتاب والّذى تجاوز كلّ ضلال يأتى التّذييل المكافىء لهذا الدّرك البعيد من الضّلال : «وما الله بغافلٍ عمّا تعملون» إنّ أهل الكتاب أتوا ما أتوا ظنّاً منهم أنّ الله سبحانه وتعالى غافلٌ

عمّا يعملون ، لأنّ من اعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى ليس بغافلٍ عمّا يعمل لا يأتى شيئاً من هذا المنكر . إنّ الجزئيّة الكريمة تنفى السّوء الّذى سبق إلى نفوس هؤلاء الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى ، وإنّ القوم تجاوزوا الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى عن عمدٍ وسبق إصرار إلى الدّرك الّذى ظنّوا معه أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم كثيراً ممّا يعملون . وليس وراء هذه الوقاحة وقاحة . وإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة : «وما الله بغافلٍ عمّا تعملون» قد قضت على هذه الوقاحة وأثبتت علم الله تعالى المحيط بكلّ شىء فى ذات اللّحظة .

* * *

(١٠)
توجيه للمؤمنين وتحذير ، ونعوت الأمة المؤمنة وصفات الكافرين
الآيات (١٠٠ ـ ١١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ

فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞

يحذّر السياق الذين آمنوا من طاعة أهل الكتاب الّذين لا يرضيهم إلاّ أن يرتدّوا كافرين بعد إيمانهم ـ لا سمح الله ـ وينكر على أئمّة الهدى ونجوم الدّجى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن يكفروا وهم الّذين تتلى عليهم آيات الله تعالى غضّةً طريّة وفيهم المصطفى ﷺ ، ويرشدهم إلى الطّريق القويم وهو الاعتصام بالله تعالى كى يهتدوا إلى الصّراط المستقيم ، ويأمرهم بأن يتّقوا الله تعالى حقّ تقواه وأن يتمسّكوا بالإسلام حتّى يلقوا الله ربّ العالمين ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً وألاّ يتفرّقوا ، وأن يذكروا ، وبخاصّة الأوس والخزرج ، نعمة الله تعالى عليهم إذ كانوا أعداءً فألّف الله تعالى بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته جلّ وعلا إخواناً فى الإيمان وإذ كانوا على حافة هاويةٍ من نار جهنّم بسبب إشراكهم مع الله تعالى سواه فأنقذهم منها بإرسال خاتم النّبيّين بدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . وهكذا يبيّن الله تعالى لنا الآيات لعلّنا نهتدى إلى الصّراط المستقيم . وإنّ على هذه الأمّة رسالةً عظمى أن تعمل على نشر دين الإسلام فى الخافقين فينبغى أن توجد الجماعة الّتى تقوم بهذه المهمّة والّتى تتحقّق فيها أهمّ مقوّمات خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر والإيمان بالله ، وأولئك هم الفائزون النّاجحون . وينهى السّياق خير أمّةٍ أخرجت للنّاس أن يكونوا كأهل الكتاب الّذين تفرّقوا شيعاً واختلفوا مذاهب من بعد ما جاءهم البيّنات فى هيئة التّوراة والإنجيل وأولئك لهم عذابٌ عظيم فى يوم القيامة الّذى تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ فيه وجوه الكافرين . وبما أنّ الهدف من ذكر عذاب يوم القيامة حمل المنحرفين عن سواء السّبيل على العودة إلى الصّراط المستقيم كى تبيضّ وجوههم بإذن الله تعالى فقد ابتدأ السّياق بعد ذلك

بالحديث عن الّذين اسودّت وجوههم والّذين يقال لهم على سبيل التّبكيت والتّقريع «أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» و«وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون» إنّ هذه هى آيات الله تعالى تُتْلى عليه ﷺ بالحق والله سبحانه وتعالى لا يريد ظلماً للعالمين بحذف حسنة أو إضافة سيّئة لأنّه جلّ وعلا هو الغنيّ فله ما فى السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً عبيداً وإليه تعالى ترجع الأمور .

ويتحوّل السّياق إلى ذكر نعوت خير أمّةٍ أخرجت للنّاس وصفات أهل الكتاب . إنّ خير أمّةٍ أخرجت للنّاس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . ولو أنّ أهلِ الكتاب آمنوا بمحمّد ﷺ وانضموّا إلى خير أمّةٍ أخرجت للنّاس لكان خيراً لهم منهم القليل المؤمنون والكثير الفاسقون . وهؤلاء الفاسقون لا يضرّون المؤمنين إلاّ أذىً بسبب ما يسمع المؤمنون من أقوالهم البذيئة وإن يقاتلوا المؤمنين يولّوهم الأدبار ثمّ لا يُنْصَرون . وبسبب عصيان بنى إسرائيل وكفرهم بآيات الله تعالى ضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة . وبسبب عصيانهم اعتدوا على حرمات الله تعالى وقتلوا الأنبياء بغير حقّ فآبوا بغضبٍ من الله تعالى عليهم . وإنّما ترفع الذّلّة عن بنى إسرائيل استثناءً وذلك بحبلٍ من الله تعالى وحبلٍ من النّاس المؤمنين وسواهم وفى كلّ الأحوال تظلّ المسكنة ساكنةً فى أعماقهم . ولّما كانت الفترة الزّمنيّة الّتى تغطّيها الآية الكريمة طويلة بحيث إنّها تمتدّ حتّى البعثة المحمّديّة لذا كان ترتيب الصّفات السّيّئة لبنى إسرائيل هنا مخالفاً لترتيب الصّفات فى آية سورة البقرة الحادية والسّتّين . إنّه بسبب طول الفترة تغلغل غضب الله تعالى على القوم فى أثناء الحديث عن الذّلّة والمسكنة المضروبتين على القوم دليلاً على تقلّب القوم فى تلك الصّفات وغلبة بعضها على البعض الآخر باختلاف الأزمان والمناسبات . وفى كلّ الأحوال تظلّ الأعمال السّيّئة هى ذات الأعمال والصّفات السّيئة هى ذات الصّفات .

الآية رقم (١٠٠)

قال تعالى : ﴿ ياأيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

سبب النّزول

عن زيد بن أسلم قال : مرّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا[١] فى الجاهليّة عظيم الكفر شديد الضّغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلسٍ قد جمعهم يتحدّثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الّذى كان بينهم من العداوة فى الجاهليّة فقال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة[٢] بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتىً شابّاً من اليهود وكان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكّرهم يوم بُعاث[٣] وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظّفر فيه للأوس على الخزرج ففعل . فتكلّم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتّى تواثب رجلان من الحيّين على الرّكب أوس بن قيظىّ أحد بنى حارثة بن الحارث مِنَ الأوس وجبّار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ، ثمّ قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة[٤] وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا . السّلاحَ السّلاحَ موعدكم الظّاهرة . والظّاهرة الحرّة . فخرجوا إليها وتحاور النّاس فانضمّت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض

---

(١) عسا الشّيخ : كبر وتولّى .
(٢) قَيْلة ، بفتح القاف وسكون الياء اسم امّ الاوس والخزرج الّتى إليها ينتسبون .
(٣) بعاث : بالباء المضمومة والعين المهملة .
(٤) الجَذَع من البهائم الصّغير وهنا استعارة للحرب الّتى عادت جديدة .

على دعواهم الّتى كانوا عليها فى الجاهليّة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتّى جاءهم فقال : يامعشر المسلمين : الله الله . أبِدعوى الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهليّة واستنقذكم به من الكفر وألّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّارا . فعرف القوم أنّها نزغةٌ من الشّيطان وكيدٌ من عدوّهم فألقوا السّلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرّجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثمّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شاس بن قيس وما صنع ، فأنزل الله فى شاس ابن قيس وما صنع : قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لِمَ تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً . الآية . وأنزل الله عزّ وجلّ فى أوس بن قيظىّ وجبّار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الّذين صنعوا ما صنعوا مِمّا أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهليّة : ياأيها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين . إلى قوله : وأولئك لهم عذابٌ عظيم(١) .

نبّهت الآيتان الكريمتان السّابقتان فى لطفٍ أهل الكتاب بندائهما لهما بالقول : «ياأهل الكتاب» فهم أهل كتابٍ ينبغى عليهم التّمشّى بموجبه باتّباع محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، نبّهتا أهل الكتاب إلى كفرهم بآيات الله تعالى وصدّهم عن سبيل الله تعالى النّاس عموماً المؤمنين خصوصا عن سبيل الله تعالى القويم وصراطه المستقيم ، وذلك يتعارض مع ما ينتظر منهم شكراً لله تعالى على نعمه وآلائه . والآية الكريمة الأولى فى هذا القسم تحذّر الّذين آمنوا من فريقٍ من الّذين أوتوا الكتاب حريصٍ على ارتدادهم عن دين الإسلام إلى الكفر . وأوّل ما يلفت الانتباه فى مجال المقارنة بين الآية

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٦/٤ ، ١٧ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٤٩

الكريمة هنا والآيتين الكريمتين السّابقتين أنّ الإشارة فى الآيتين الكريمتين السّابقتين جاءت فى هذه الصّورة : «أهل الكتاب» وكأنّ ممّا يقوّى من لطف التّعبير تنبيه القوم إلى أنّ الله سبحانه وتعالى اصطفاهم بالكتاب السّماوىّ لأنّهم أهلٌ لذلك الاصطفاء فهم أصحاب ذلك الكتاب وأهله لذا هم يخاطبون بالقول : «قل ياأهل الكتاب» فى الموضعين الاثنين .

وحينما أصرّ أهل الكتاب على كفران نعم الله تعالى فكفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى واجتهدوا فى ردّ المسلمين بل صحابة المصطفى ﷺ عن دينهم ثبت أنّهم ليسوا أهلاً لذلك الاصطفاء وتلك الأهليّة للكتاب والصّحبة لذا كانت الإشارة إليهم فى هذه الآية الكريمة الأولى بأنّهم : «الّذين أوتوا الكتاب» وأوتوا بمعنى أعطوا ، ويرتبط بذلك الإعطاء كونه فضلاً من الله تعالى ودون تعبٍ ومشقّة . لقد خان أهل الكتاب الأمانة ونبذوا الكتاب الّذى أوتوه وراءهم ظهريّا . إنّ بنى إسرائيل مثلاً الّذين تشير إليهم الآية الكريمة قد حاولوا جاهدين أن يفسدوا بين الأوس والخزرج خطوةً أوّليّةً فى سبيل حملهم على الارتداد عن الإسلام ـ لا سمح الله ـ والآية الكريمة تنادى الّذين آمنوا وتشدّهم شدّاً بندائهم وتحذيرهم بأنّهم إن يطيعوا فريقاً من الّذين أوتوا الكتاب وهم يهود المنطقة آنذاك يردّوهم بعد إيمانهم وذوقهم حلاوته كافرين مشركين عابدين للأوثان متّبعين للشّيطان الرّجيم ـ لا سمح الله ـ .

ومن المعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السَّبب ، وأنّ يهود المنطقة آنذاك رمزٌ لهذا الفريق الضّالّ المضلّ من أهل الكتاب . وحينما لا يتورّع اليهـــود ولا يتردّدون عن محاولة حمل الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم على الارتداد عن دين الإسلام والرّسول ﷺ بين ظهرانَيْهِمْ فهل يتردّد هذا الفريق من أهل الكتاب بعد ذلك عن الإقدام على المحاولة ذاتها مع غير الصحابة ؟ بطبيعة الحال لا يترددون وهذه الحقيقة تزداد وضوحاً ورسوخاً بمرور اللّيالى والأيّام .

ولّما كانت خطوة أهل الكتاب جريئة ومحاولتهم خطيرة فقد تحوّلت الآية الكريمة التّالية من مجرّد التّنبيه والتّحذير إلى الإنكار على المؤمنين أن يصغوا ويأبهوا لأولئك الضّالين المضلّين وإلى الإرشاد إلى سفينة النّجاة وحبل الاعتصام فإلى :

الآية رقم (١٠١)

قال تعالى : ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آيات الله وفيكم رسولُه . ومن يعتصم بالله فقد هُدى إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ .

فى أسلوب الاستفهام تُنْكر الآية الكريمة على كواكب الدّجى ونجوم الهدى أصحاب المصطفى ﷺ أن يكفروا بعد إيمان ويضلّوا بعد اهتداء ويرتدّوا بعد إسلام . كيف تكفرون ؟ إنّ هذا أمرٌ فظيع وحالٌ غير معقول ومآلٌ غير مأمول . كيف تكفرون ياأئمّة الهدى ويانجوم السّرى وياغيظ العدى وكيف ترتدّون كفّاراً بعد أن ذقتم حلاوة الإيمان ، بل كيف تكفرون وأنتم تُتْلى عليكم آيات الله تعالى غضّةً طريّة على لسان خير البريّة الّذى يتقلّب بين جنبيكم ويعيش بين ظهرانيكم . إنّ الارتداد عن دين الإسلام من قِبل أىّ شخصٍ ذاق حلاوة الإيمان غير معقول ولا مقبول فكيف يرتدّ عن الإسلام قرّة عين الهدى أصحاب محمّد بن عبدالله ﷺ المجتبى . وبقدر الإنكار الشّديد على الصّحابة أن يرتدّوا بعد إيمان يكون اليقين بتمسّكهم الشّديد بدين الإسلام والسّير فى الطّريق القويم والاهتداء إلى الصّراط المستقيم . وها هى ذى الآية الكريمة ترشد إلى وسيلة الاهتداء وهى الاعتصام بدين الله تعالى والاستمساك بعرى الإسلام والعضّ بالنّواجذ على تعاليم القرآن الكريم وسنّة خير الأنام . وقد بيّن القرآن الكريم هذه الغاية وعيّن تلك النّهاية فى العديد من المواضع ومنها هذا الموضع . كما بيّن ذلك وعيّنه سنّة المصطفى ﷺ الّتى ضمنت الاهتداء إلى الصّراط المستقيم ثمرةً للاستمساك بالقرآن الكريم

وسنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . قال تعالى : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هُدِى إلى صراطٍ مستقيم** ﴾ والمعنى : ومن يتعلّق بأسباب الله ويتمسّك بدينه وطاعته فقد هدى ووفّق لطريقٍ واضحٍ ومحجّة مستقيمة غير معوجّة فيستقيم به إلى رضا الله وإلى النّجاة من عذاب الله والفوز بجنّته . وأصل العَصْم المنع ، فكلّ مانعٍ شيئاً فهو عاصمه والممتنع به معتصمٌ به[1] .

ومن البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة شاملةٌ للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ولكلّ المؤمنين ، ويستمرّ السّياق بعد ذلك فى حديثه عن الصّحابة الّذى يشمل بالضّرورة المؤمنين ، بل إنّ صفة الإيمان فى الآية الكريمة التّالية هى الصّفة الّتى يشترك فيها الجميع فإلى :

الآية رقم (١٠٢)

قال تعالى : ﴿ **ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون** ﴾ .

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا الّذين يمثّلون الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج التّربية القرآنيّة بأن يتّقوا الله تعالى حقّ التقوى: ويلفت النّظر فى الأمر شيئان اثنان . الأمر بالتّقوى وأن تكون التّقوى حقّ التّقوى ، أى التّقوى فى أرفع صورها . ويبدو المستوى الرّفيع الّذى تريد الآية الكريمة من الّذين آمنوا أن يسموا إليه حينما نتبيّن أنّ التّقوى تمثّل الوجه الآخر للإحسان كما بيّنه المصطفى ﷺ فى الحديث الّذى عرّف فيه المصطفى ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ، وعرّف الإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، بمعنى أنّ الإحسان منتهى ما يسمو إليه المسلم والمؤمن . وإذا كانت

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٨/٤

التّقوى بمنزلة الإحسان فما هى منزلة حقّ التّقوى أو حقّ التّقاة : «ياأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته» ابن الأعرابىّ : التّقاة والتّقيّة والتقوى والاتقاء كلّه واحد[1] إنّ حقّ التقوى ينبغى أن يكون التّقوى فى أبهى صورها والإحسان فى أسمى حالاته . إنّ هذا المستوى الرّفيع الّذى ليس وراءه وراء هو ما تأمر الآية الكريمة المؤمنين بأن يرتفعوا إليه بحيث إنّ عبدالله بن مسعود رضى الله عنه فسّر ذلك بالقول : أن يطاع فلا يُعْصَى ، وأن يُذكر فلا يُنْسَى ، وأن يُشكر فلا يُكْفَر[2] ولاشكّ أنّ الارتقاء إلى هذا المستوى لا يمكن أن يتحقّق إلّا بالعون الكبير من الله تعالى والفضل العظيم لمن اصطفاه الله تعالى بنعمه ، ومن أجل رفعة المستوى اختلفت آراء العلماء فى الآية الكريمة ، أهى منسوخةٌ أم أنّها غير منسوخة . يقول ابن كثير مثلاً[3] : «وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والرّبيع بن أنس وقتادة مقاتل بن حيّان وزيد بن أسلم والسّدّىّ وغيرهم إلى أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : فاتّقوا الله ما استطعتم . وقال عليّ بن أبى طلحة عن ابن عبّاس فى قوله تعالى : اتّقوا الله حقّ تقاته ، قال : لم تنسخ ولكن : حقّ تقاته ، أن يجاهدوا فى سبيله حقّ جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم» .

ونحن فى الحقيقة أشدّ ميْلا إلى الرّأى الّذى يرى أنّ الآية الكريمة منسوخة بالآية الكريمة السّادسة عشرة من سورة التّغابن بسبب صعوبة الارتقاء إلى مستوى التّقوى فكيف بحقّ التّقوى .

وبعد الأمر فى الشّقّ الأوّل من الآية الكريمة يأتى النّهى فى الشّقّ الآخر منها : «ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون» وبهذا تُوصِدُ الآية الكريمة الباب أمام

---

(١) لسان العرب : « وقى » .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٨٧/١ وتفسير الطّبرىّ ١٩/٤

(٣) تفسير ابن كثير ٣٨٨/١

أعداء الله تعالى الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى الحريصين على أن يردّوا المسلمين كفّاراً مثلهم حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبينّ لهم الحقّ وثبت وجه الصّواب ، لأنّ من توفّاه الله تعالى مسلما لله ربّ العالمين يكون بفضل الله تعالى قد أخزى أعداء الله تعالى من ناحيةٍ ونال رضا الله تعالى من ناحيةٍ أخرى . فهنيئاً لمن مات مسلماً لله ربّ العالمين . والآية الكريمة التّالية تبينّ الكيفيّة الّتى يستطيع المسلم عن طريقها بإذن الله تعالى أن يكون مسلماً إلى أن يتوفّاه الله تعالى فإلى :

الآية رقم (١٠٣)

قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها . كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون** ﴾ .

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا عموماً ، الصّحابة خصوصاً ، الأوس والخزرج بدرجةٍ أخصّ ، أن يعتصموا بحبل الله تعالى جميعا وأن يتمسكوا بالقرآن الكريم الذى جاء عن علي رضى الله عنه مرفوعا فى صفته : هو حبل الله المتين . وصراطه المستقيم[١] وأن يتمسّكوا بسنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم وقد جاء خطاباً له ﷺ قوله تعالى[٢] : ﴿ **وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون** ﴾ والآية الكريمة تأمر المؤمنين جميعا وبدون استثناء أن يعتصموا بحبل الله تعالى ، وتؤكّد هذا الاعتصام بالنّهى عن التفرّق شيعاً وأحزاباً .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٨/١

(٢) سورة النّحل ٤٤

وإنّ فى استعارة لفظ الحبل للقرآن بلاغةً رائعة لأنّ فى هذه الاستعارة إنزال المعنوى منزلة المحسوس والمتخيّل مرتبة الملموس . إنّ كلّ واحدٍ منّا على علمٍ بدور الحبل فى النّزول من أعلى وفى التّدلّى وتلك صفة القرآن الكريم الّذى نزل به من السّماء ملكٌ كريم على رسولٍ فى الأرض كريم . وإنّما يكون الإدلاء بالحبل لعملٍ عظيم وغرضٍ جليل وجلب نفع أو دفع ضرّ . فمن كان فى ورطةٍ تمّ انتشاله منها بواسطته ، ومن كان فى هاويةٍ أمكن إنقاذه منها بسببه . ومن سمات الحبل أنّه كما ينزل من أعلى ويتدلّى كى يُجْذَب به صاحب الورطة والهاوية يستطيع هذا الصّاحب أن يتجاوز التعلّق به إلى التسّلّق عليه والصّعود به . فجوانب النّفع من حبل البشر متعدّدة ومتنوّعة ، فكيف بحبل الله تعالى ؟ وكيف إذا كان هذا الحبل من الله تعالى كتاباً كريماً وقرآناً مبيناً ورسولاً عظيماً وسنّة مطهّرة ؟ لاشكّ أنّ وجوه النّفع لا يمكن أن يأتى عليها الحصر ويكفى أن يقال فى هذا الشّأن : إنّ هذا الحبل المتين والنّور المبين والصّراط المستقيم الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم ويقود إلى سبل السلام ويخرج من ظلمات الشّرك والشّكّ وأنواع الضّلال إلى نور الإيمان وبرد اليقين .

إنّ واجب المؤمنين جميعاً أن يعتصموا بحبل الله تعالى وألّا يتفرّقوا ويختلفوا فإن الخلاف شرٌّ كلّه وفيه فشلهم وضعفهم وذهاب ريحهم . وإنّ واجب المسلمين عموماً ، العرب خصوصاً ، الأوس والخزرج بدرجةٍ أخصّ ، أن يذكروا ولا ينسوا نعمة الله تعالى عليهم بالإسلام وإرسال خير الأنام وإنزال القرآن إذ كانوا فى الجاهليّة أعداءً يقتل بعضهم بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً ويسرق بعضهم بعضاً فعلى سبيل المثال استمرّت الحروب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام مائةً وعشرين سنة وابتدأت فيما يقال بحرب سُمَيْر وانتهت بحرب بُعاث قبيل هجرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم[1] .

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ٢٢/٤ ـ ٢٤ والكامل فى التّاريخ لابن الأثير ٦٥٥/١ ـ ٦٨٤

إنّ الله سبحانه وتعالى بإرسال خير الأنام ودخول القوم فى الإسلام قد ألّف بين قلوب القوم بأن ذهبت الضغائن وزالت الأحقاد وحل محلّ ذلك الصّفاء والمحبّة والوئام وجُبرت القلوب بعد انكسار واصطلحت بعد خصام وتآلفت بعد نفور فأصبح الأعداء الألدّاء بنعمة الله تعالى إخواناً بالإسلام متحابّين متعاونين متكاتفين .

وليس ذلك فحسب ، بل إنّ هنالك نعمةً أخرى أكبر من نعمة تحوّل الأعداء المتباغضين إخوةً متحابّين وتلك النّعمة الكبرى والمنحة العظمى هى إنقاذ الله سبحانه وتعالى الأوس والخزرج ، والصّحابة ، والعرب ، والنّاس أجمعين بهذا الحبل منه جلّ وعلا المتمثّل فى القرآن الكريم والنّبىّ العظيم ، إنقاذ الله سبحانه وتعالى هؤلاء جميعاً من على شفا حفرةٍ من النّار ، وطرف هاوية من نار جهنّم كاد النّاس جميعاً يهوون فيها ويتردّون إليها . ألم يكونوا مشركين بالله تعالى ؟ بلى . أليس الشّرك بالله تعالى هو الذّنب الوحيد الّذى لا يغفره الله تعالى ؟ بلى . إذن مصير أولئك المشركين معروف لكلّ ذى بصيرةٍ نيّرة ، النّار وبئس القرار . لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يُنْقِذ بمحمّد ﷺ الإنسانيّة من شفا الجرف الهار الّذى كاد ينهار بهم فى نار جهنّم ، ومن حافة الحفرة من النّار وطرف الهاوية من الجحيم اللّذين كادا يهويان بهم فى قاع الجحيم .

إنّ واجب الإنسانيّة أن تذكر ولا تنسى وأن تطيع فلا تعصى وأن تشكر لله تعالى نعمه العظيمة والاءه الجسيمة ولا تكفر . ومعروفٌ أنّ الإنقاذ من الجحيم يعنى الدّخول بفضل الله تعالى فى جنّات النّعيم الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

إنّ الله سبحانه وتعالى كما بيّن للمؤمنين أوجه الصّواب فى الأمور الّتى عرضت لها الآيات الكريمات يبيّن لنا جلّ وعلا آياته البيّنات وحججه الواضحات لعلّنا نهتدى إلى الصّراط المستقيم والنّور المبين ، إلى دين

الإسلام ، وسراجه المنير محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، وحبل الله تعالى المتين القرآن العظيم . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا رشدنا إنّه جلّ وعلا نعم المولى ونعم النّصير .

ولّما كان هذا الصّراط المستقيم الّذى تمثّل فى القرآن الكريم احتاج إلى النّور المبين محمّد بن عبدالله ﷺ كى يترجم تعاليمه إلى عمل وقد قال الله تعالى مخاطباً هذا الرّسول الكريم[1] : «إنّك ميّتٌ وإنّهم ميّتون» وذلك معناه أنّ الحاجة قائمة للجمـاعة الّتى تقوم بتبليغ هذا الكتاب العزيز ورسالة الإسلام . فإنّ الآية الكريمة التّالية قد فعلت ذلك فإلى :

الآية رقم (١٠٤)

قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

الأمّة الإسلامية لم تخرج لمصلحتها الشّخصيّة ولكنّها أخرجت لمصلحة الإنسانيّة ومن هنا كانت رسالة الإسلام منذ فجرها للنّاس كافّة . ومن أهمّ الأعمال المنوطة بهذه الأمّة من أجل تحقيق هذه الغاية السّامية أن تبلّغ رسالة ربّها فى الخافقين وألاّ تأخذها فى ذلك لومة لائم . ولّما كانت الدّعوة إلى الله تعالى والعمل على نشر دين الإسلام فى أرض الله تعالى الواسعة واحداً من الأعمال الكثيرة الّتى يجب على أمّة الإسلام أن تقوم بها ، ولّما كان للدّعوة رجالها فليس كلّ شخصٍ مهيّئاً لأن يكون داعية ، لذا كان فى الآية الكريمة تنبيهٌ إلى أنّ الدّعوة إلى الله تعالى من فروض الكفاية الّتى إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين ، أمّا إذا تخلّوا عنها جميعاً أثموا جميعاً .

---

(١) سورة الزّمر ٣٠

والآية الكريمة تأمر أمّة الإسلام بأن يكون منها جماعة[1] تدعو إلى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده[2] ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تعبّر عن الإسلام بالخير لأنّ دين الإسلام هو كلّ الخير لأنّه الدّين الّذى أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا .

وحينما ننظر إلى مقوّمات فلاحِ هذه الأمّة بمعنى النّجاح والفوز والتّوفيق نتبيّن أنّها بنصّ الآية الكريمة دعوةٌ إلى الخير وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر . والأمر خلاف النّهى والمعروف خلاف المنكر ، إذ المعروف ما أمر به الشّرع واقرّه العقل ، والمنكر ما نهى عنه الشّرع وأنكره العقل .

وحينما نقارن بين الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر نتبيّن أنّ النّهى عن المنكر باعتباره محدّد المعنى له القدرة على تبيين معنى الأمر بالمعروف ، بمعنى أن تكون هذه الأمّة من القوّة وإلزام نفسها بالمعروف قبل سواها بحيث إنّها حينما تأمر تطاع وحينما تدعو يصغى إليها ويستجاب لها لأنّها تضرب بنفسها الأسوة الحسنة والقدوة المثلى . ولهذا المعنى الأوّلىّ معنى آخر يأتى هذه المرّة بدلالة الالتزام ويأتى من اتّساع معنى المعروف وإفادته الدّعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالطّريقة الّتى هى أحسن . والحقيقة أنّ الأمر بالمعروف حتّى مع وجود القوّة والقدرة لا يستغنى بحالٍ من الأحوال عن هذا المعنى الّذى يفيده لفظ المعروف بدلالة الالتزام ، لأنّ فى البشر فئاتٍ تأسرها الدّعوة بالحسنى وتملكها الكلمة الطّيّبة . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا لين المصطفى ﷺ برحمةٍ من الله تعالى لأصحابه وخفضه جناحه لهم وقد قال تعالى[3] : **﴿ فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم**

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٢٦

(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٢٦

(٣) سورة آل عمران ١٥٩

وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكلّ على الله . إنّ الله يحبّ المتوكلين ﴾ .

وحينما نقارن كذلك بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من ناحية وبين الدّعوة إلى الخير من ناحيةٍ أخرى نتبيّن أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى أبسط أحواله قسيم الدّعوة إلى الخير بينما لو أنّا اعتبرنا الأمر بالمعروف شيئاً والنّهى عن المنكر شيئاً آخر لا نتهينا إلى أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر يشكلّ ثلثى ما أُمِرت به هذه الأمّة .

ومن البيّن وراء هذا وذاك أنّ بقاء هذه الأمّة فضلاً عن بقاء رسالتها ودعوتها رهين أمرها بالمعروف والنّهى عن المنكر. والدّليل على ذلك أنّ كلّ الأمم الّتى انهارت وتدحرجت إلى الحضيض إنّما انحطّت إلى ذلك الدّرك بسبب إهمالها هذا الجانب . لقد جاء عن بنى إسرائيل مثلاً قوله تعالى[١] : **﴿ لُعِنَ الّذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾** .

فعلى الأمّة المسلمة أن تأخذ حذرها وألّا تقصّر فى هذا الجانب ، وما أكثر الآيات القرآنيّة الكريمة والأحاديث النّبويّة الشّريفة فى هذا الشّأن . ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . وفى رواية : وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل[٢] وروى الإمام أحمد والتّرمذىّ وابن ماجة أنّ النّبىّ ﷺ قال : والّذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمّ لتدعنّه فلا يستجيب لكم[٣] .

---

(١) سورة المائدة ٧٨ ، ٧٩

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٠

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٠

وإذا كان من صفات السّياق الجمع بين الأمر والنّهى ، وكانت هذه الآية الكريمة آمرةً بمعروف فإنّ الآية الكريمة التّالية ناهيةٌ عن منكر فإلى :

الآية رقم (١٠٥)

قال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات ، وأولئك لهم عذابٌ عظيم** ﴾ .

تنهى الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يكونوا كالّذين تفرّقوا من أهل الكتاب وقد أُمِروا أن يعتصموا بحبل الله تعالى جميعاً والّذين اختلفوا وقد أمروا أن يتفّقوا فى دين الله تعالى وأن تجتمع كلمتهم وتتوحّد صفوفهم . ومتى يحدث من اليهود والنّصارى ذلك التّفرق شيعاً وأحزاباً وذلك الاختلاف سبلاً ومذاهب ؟ من بعد ما جاءهم البيّنات ووصل إليهم فعلاً التّوراة الّتى أوْحاها الله تعالى إلى موسى عليه السلام والإنجيل الذى أوْحاه الله إلى عيسى عليه السّلام . وما الّذى ينتظر هؤلاء الّذين خالفوا تعاليم الكتابين السّماويّين ؟ الجواب فى الآيتين الكريمتين : « أولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » إن أولئك الّذين تفرّقوا وكانوا شيعاً وعملوا بعكس تعاليم الكتابين السّماويّين لهم عذابٌ عظيمٌ فى الآخرة على جهة الخصوص يوم تسودّ وجوه أولئك المفترقين المختلفين .

وإذا كان هذا مصير أهل الكتابين السّماويّين الّلذين لم يتكفلّ الله تعالى بحفظهما ولهذا تعرّضا للتّحريف والتّغيير والتّبديل فما هو مصير المسلمين لو أنّهم اختلفوا ـ لا سمح الله ـ وكانوا شيعاً وأحزاباً بينما كتاب الله تعالى الّذى تكفّل بحفظه إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها أمام أعينهم ؟ لاشكّ أنّ العذاب أعظم والعقاب أشدّ . ولا يقتصر العذاب على الآخرة وحدها بل إنّه يصحّ أن ينضمّ إليه عذاب الدّنيا أيضاً ، وهل تداعى الأمم على الأمّة

الإسلاميّة كما تتداعى الأكلة على قصعتها مصداقاً للحديث النّبوىّ الشّريف إلّا نوعٌ من العذاب العظيم المعجّل وضربٌ من العقاب الأليم الشّديد . ومن البيّن أنّ الآيات الكريمات بيّنت العلاج الناجع لهذا الدّاء وهو الاعتصام بحبل الله تعالى وعدم التّفرّق والدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر .

روى الإمام أحمد أنّ معاوية بن أبى سفيان لّما قدم مكّة حاجّاً قام حين صلّى صلاة الظّهر فقال : إنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملّة ، وإنّ هذه الأمّة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين ملّة ـ يعنى الأهواء ـ كلّها فى النّار إلّا واحدة ـ وهى الجماعة ـ وإنّه سيخرج من أمّتى أقوامٌ تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلّا دخله . والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيّكم ﷺ لَغَيْرُكُمْ من النّاس أَحْرَى ألّا يقوم به[1] .

لقد نصّت الآية الكريمة على العذاب العظيم الّذى ينتظر الّذين تفرّقوا واختلفوا . وقد حدّدت الآية الكريمة التّالية وقت ذلك العذاب وهو يوم القيامة الّذى تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ فيه وجوه الكافرين ، كما تحدّثت عن الّذين اسودّت وجوههم وفيهم الّذين تفرّقوا واختلفوا بينما تحدّثت الآيةالكريمة التّالية عن الّذين ابيضّت وجوههم وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٠٦ ، ١٠٧)

قال تعالى : ﴿ **يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. فأمّا الّذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٩٠

تبيّنّا أنّ القول فى الآية الكريمة السّابقة : «وأولئك لهم عذابٌ عظيم» يعنى كافرى أهل الكتاب فى المقام الأوّل الّذين نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن أن يكونوا مثلهم متفرّقين مختلفين من بعد ما جاءهم البيّنات ، والّذين وُصِفُوا من ذى قبل بالكفر فى مثل قوله تعالى : ﴿ **قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون** ﴾ كما أنّ الّذين آمنوا نُهوا عن طاعة فريقٍ من أهل الكتاب يحرص على ردّهم بعد إيمانهم كافرين .
وتبيّنّا كذلك العلاقة المتينة بين القول فى عجز الآية الكريمة السّابقة : «وأولئك لهم عذابٌ عظيم» وبين صدر الآية الكريمة التّالية :«يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه» والمعنى : وأولئك الّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات لهم عذابٌ عظيم فى يومٍ تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين ، ألا وهو يوم القيامة .

إنّ هذا التّبيين مفيدٌ لنا فى سبيل الإجابة عن هذا السّؤال : ما هى الحكمة من تقديم الّذين ابيضّت وجوههم فى القول : يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه» وما هى الحكمة من تقديم الّذين اسودّت وجوههم بعد ذلك فى القول : «فأمّا الّذين اسودّت وجوههم . . . .» .

وللجواب على هذا السّؤال نقول : أمّا تقديم الّذين ابيضّت وجوههم فى القول : «يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه» فإنّ هذا هو التّرتيب الطّبيعىّ للفريقين أن يتقدّم المؤمنون الّذين ابيضّت وجوههم وأن يكونوا فوق الكافرين .

فإذا تحوّلنا إلى السّؤال الثّانى ورغبنا فى تبيين الحكمة من تقديم الّذين اسودّت وجوههم فى الذّكر فإنّ الجواب على ذلك هو أنّ هؤلاء الّذين اسودّت وجوههم والّذين يقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم ، هم أقرب المذكورين فى السّياق ، إنّهم الّذين نصّت عليهم الآية الكريم السّابقة وهم الّذين تفرّقوا

واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم البيّنات ووصل إليهم فعلاً كلٌّ من التّوراة والإنجيل . ويلحق بهؤلاء كلّ الّذين افترقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات ، وفى مقدّمة هؤلاء المؤمنون الّذين أكرمهم الله تعالى واصطفاهم بالقرآن الكريم والّذين حذّرهم السّياق من أن يكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا . إنّ المؤمنين حينما يتفرقون ويختلفون ، بينما القرآن الكريم الذى تكفل الله تعالى بحفظه أمام أعينهم ، يكونون من بين الّذين يُقال لهم يوم القيامة أكفرتم بعد إيمانكم . وهكذا يتبين أن ابتداء الحديث بالذين اسودّت وجوههم يفيد من ناحية وصف الّذين تفرّقوا واختلفوا من أهل الكتاب فى المقام الأول بأنهم من الّذين اسودّت وجوههم يوم القيامة ، ويفيد من ناحية أخرى انذار أهل الكتاب وتحذيرهم من التمادى فى غيِّهم ووجوب عودتهم الفوريّة إلى بارئهم كى تبيضّ وجوههم ، ويلحق بأهل الكتاب سواهم ، وفى مقدمتهم المسلمون الّذين جعلوا كتاب الله تعالى وراءهم ظهريًا ، وتفرّقوا واختلفوا . إن التّحوّل إلى الّذين اسودّت وجوههم من قبيل الضّرب على الحديد السّاخن ، لأنّ هذا الضّرب هو الّذى يفيد ويجدى ، وإنّ التحوّل السّريع إلى الّذين اسودّت وجوههم هو الّذى يفيد ويجدى . والله تعالى أعلم .

بقى علينا أن نعرف أنّ تقديم الّذين اسودّت وجوههم هنا فى مجال تفصيل الحديث عن الفريقين الّذين اسودّت وجوههم وابيضّت وجوههم يسير على غرار تقديم الّذين كفروا فى الذّكر فى مجال تفصيل الحديث عن الّذين آمنوا بعيسى عليه السّلام والّذين كفروا وذلك فى قوله تعالى[1] : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنّى متوفّيك ورافعك إلىّ ومطهّرك من الّذين كفروا وجاعل الّذين اتّبعوك فوق الّذين كفروا إلى يوم القيامة ثمّ إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأمّا الّذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدّنيا والآخرة**

---

(١) سورة آل عمران ٥٥ ـ ٥٧

وما لهم من ناصرين . وأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيوفّيهم أجورهم . والله لا يحبّ الظّالمين ﴾ .

ومعنى الآية الكريمة : وأولئك لهم عذابٌ عظيم فى يومٍ تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين . فأمّا الّذين اسودّت وجوههم فيقال لهم توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم : «أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»» أكفرتم بعد إيمانكم وأنتم فى عالم الذّرّ حينما أخذ عليكم الميثاق أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً ، أكفرتم بعد إيمانكم بالله تعالى وبالرّسول الّذى أرسلت إليكم والكتاب الّذى أمرتكم بتصديقه واتّباعه ، أكفرتم أيّها المسلمون بعد إيمانكم بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ ﷺ نبيّاً وبالقرآن الكريم دستورا . ويلاحظ تركيز الآية الكريمة على الكفر باعتباره السّبب فى سواد الوجوه ممّا هو دليلٌ على ما ذهبنا إليه من كون تقديم الّذين اسودّت وجوههم فى الذّكر بقصد حملهم على التحوّل من الكفر إلى الإيمان كى تبيضّ وجوههم وينعموا بما نصّت عليه الآية الكريمة التّالية : «وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون» .

إنّ الّذين ابيضّت وجوههم بسبب إيمانهم وتقواهم وعملهم الصّالحات واجتماعهم وعدم تفرّقهم واتّفاقهم وعدم اختلافهم فى رحمة الله تعالى ، وهى جنّته[1] هم فيها خالدون . ويلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة المتعلّقة بالّذين ابيضّت وجوههم قد نصّت على ثوابهم بينما سكتت الآية الكريمة السّابقة عن عقاب الّذين اسودّت وجوههم المفهوم ضمناً والمفهوم من هذه الآية الكريمة التّالية كذلك ، وكأنّ المعنى أنّ الكافرين فى نار الله تعالى وعذابه خالدون . وفى المقابل سكتت الآية الكريمة عمّا يقال للّذين ابيضّت وجوههم اكتفاء بما قيل للّذين اسودّت وجوههم : «أكفرتم بعد إيمانكم» ويصحّ أن

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٨/٤

يكون هذا القول من جنس قول الملائكة للمتّقين الطّيّبين ذلك القول الّذى نصّت عليه سورة النّحل فى قوله تعالى[1] : ﴿ **الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون** ﴾ .

ولّما كان حديث الآيات الكريمات متعلّقاً بالغيب وبخاصّة ما يتّصل بيوم القيامة ، ولّما كان ثمّة ثوابٌ وعقاب فقد كان حديث الآية الكريمة التّالية ذا علاقةٍ بهذين الأمرين فإلى :

الآية رقم (١٠٨)

قال تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ . وما الله يريد ظلماً للعالمين** ﴾ .

والمعنى أنّ هذه الآيات الكريمات الّتى أوحيناها إليك أيّها النّبىّ الكريم بواسطة جبريل عليه السّلام هى آيات الله تعالى الّتى نتلوها عليك بالحقّ ونقصّها عليك بالصّدق وما الله سبحانه وتعالى يريد ظلماً للعالمين بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة وإن تكن الذّرّة حسنةً يضاعفها ويؤت جلّ وعلا من لدنه أجراً عظيماً وثواباً كبيرا .

ولّما كانت هذه المعانى تشير إلى قدرته جلّ وعلا المطلقة فإنّ الآية الكريمة التّالية عمّقت هذه القدرة فإلى :

الآية رقم (١٠٩)

قال تعالى : ﴿ **ولله ما فى السّماوات وما فى الأرض وإلى الله تُرْجَع الأمور** ﴾ .

---

(١) الآية ٣٢

إنّ لله ما فى السّماوات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً يفعل بهم ما اقتضت حكمته : «لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون»[1] وإلى الله سبحانه وتعالى ترجع الأمور فى الدّنيا وفى الآخرة فى الحياة الأولى وفى يوم القيامة الّذى تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين ، فعلى العاقل الحصيف الواعى أن يعمل من أجل أن يكون من بين أولئك الّذين ابيضّت وجوههم ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . وكيف يتحقّق بفضل الله تعالى هذا الهدف الأسمى ؟ والمقصد الأسنى ؟ بتحقيق هذه الأمّة الهدف الّذى خلقها الله تعالى من أجله خير أمّةٍ أخرجت للنّاس وتحاشيها أن تكون ذات علاقةٍ بالفئات الّتى تفترق إليها هذه الأمّة تلك الفئات الّتى حذت حذو أهل الكتاب . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتفصّل الجواب فى المسألة فإلى :

الآية رقم (١١٠)

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة الأمّة الإسلاميّة الّتى تشهد بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً بأنّها كانت فى علم الله تعالى خير أمّة أخرجت للنّاس ولمصلحة الإنسانيّة ولخير البشريّة وليس لمصلحتها الشّخصيّة أو منفعتها الذّاتيّة . ولكنّ هذه الخيريّة لها شروطها الّتى ينبغى أن تتحقّق وتكاليفها الّتى ينبغى أن تدفع ، وهى الشّروط والتكاليف الّتى سبق وأن نصّت عليها الآية الكريمة السّابقة . قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**

---

(١) سورة الانبياء ٢٣

وأولئك هم المفلحون ﴾ وجاء فى هذه الآية الكريمة بشأن الشّروط والتّكاليف : «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» لقد عُبِّر عن الدّعوة إلى الخير هنالك بالإيمان بالله هنا . ومن البيّن أنّ الإيمان بالله تعالى ربّاً قاعدةُ الّدعوة إلى الخير ، إلى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده . ونستطيع أن ننظر إلى هذه الشّروط والتّكاليف فى ضوء قوله تعالى[1] : **﴿ وَعَد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾** .

وحينما نتبيّن أنّ الأمّة الإسلاميّة بعد زهاء مائة عامٍ من وفاة المصطفى ﷺ قد امتدّت دولتها دون انقطاعٍ من حدود الصّين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً يكون معنى ذلك أنّ هذه الأمّةً الإسلاميّة حقّقت شروط الخيريّة ودفعت تكاليفها وتحمّلت تبعاتها . وحينما نتبيّن أنّ هذه الأمّة ذاتها بعد ألفٍ وأربعمائة عامٍ من وفاة خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وبطل الأبطال محمّد ابن عبدالله ﷺ غدت ذيلاً للأمم يكون معنى ذلك أنّ هذه الأمّة قد خانت الأمانة وقصّرت فى تحمّل المسئوليّة وتخلّت عن رسالتها : «ولا يظلم ربّك أحدا»[2] .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الّتى تعيّن شروط الخيريّة الثّلاثة تفيد أنّ هذه الشّروط الثّلاثة هي علاج هذه الأمّة حينما تتدحرج من عليائها وتتزحزح عن القمّة الّتى أراد الله سبحانه وتعالى لها أن تتسنّمها .

ولّما كانت هذه الشّروط الثّلاثة لخيريّة هذه الأمّة كما بيّنتها هذه الآية

---

(١) سورة النّور ٥٥

(٢) سورة الكهف ٤٩

الكريمة يراد لها أن يتّصف بها كلّ النّاس لأنّ رسالة الإسلام منذ فجرها عالميّة ولأنّ المصطفى ﷺ رسول الله تعالى إلى النّاس كافّة فقد كان ثمّة اهتمامٌ بأهل الكتاب لأنّ المفروض فيهم أن يكونوا أسرع الناس دخولاً فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خاتم النّبيّين محمّدا ﷺ فبهذا أمرت التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام ، وأمر الإنجيل الذى اوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام، وفى كلٍّ منهما نعت المصطفى ﷺ بنصّ القرآن الكريم ، وفى كلّ منهما الميثاق الّذى أخذه الله تعالى على النّبيّين بنصّ القرآن الكريم كذلك والّذى أخذوه بدورهم من أممهم ، وفى مقدّمة هؤلاء النّبيّين موسى وعيسى عليهما السّلام لئن بُعِث محمّد بن عبدالله ﷺ ليؤمننّ به ولينصرنّه .

ولّما كان القليل من أهل الكتاب آمن بمحمّد بن عبدالله ﷺ ومنهم عبدالله بن سلام وأخوه وثعلبة بن سعيد وأخوه وأشباههم[1] بينما كفر الكثير من أهل الكتاب فقد قرّرت الآية الكريمة هذه الحقيقة ، حاثّةً أهل الكتاب على أن يكونوا مؤمنين كى يكونوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، مثنيةً على هؤلاء المؤمنين ، واصفةً الكافرين بأنّهم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم عن دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ والّذى لا يقبل الله تعالى من بشرٍ ديناً سواه . قال تعالى : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ .

ومن المعروف أنّ «لو» حرف امتناع لامتناع ، والمعنى هنا أنّ الخير امتنع عن أهل الكتاب لامتناع إيمانهم . ومن المعروف كذلك أنّ جملة «لو آمن» هنا تعنى أنّ أهل الكتاب لم يؤمنوا بل كفروا . ويؤيّد ذلك القول : «منهم المؤمنون» ومع ذلك فإنّ الآية الكريمة تتجاوز الكفر المفهوم ضمناً إلى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣١/٤

تقرير صفة الفسق ، وهى بمعنى الخروج عن الصّراط المستقيم : «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» لقد كان المنتظر من أهل الكتاب الّذين يؤمنون بالكتاب السّماوىّ الّذى أوْحاه الله تعالى إلى نبيّهم أن يواصلوا مسيرة الإيمان باتّباع خير الأنام ولكنّهم لم يؤمنوا وبذلك خرجوا عن خطّ الإيمان وانحرفوا عن الصّراط المستقيم وفسقوا عن أمر ربّهم فى مجموعهم . بل إنّ هذه الأكثريّة الفاسقة من أهل الكتاب لم تقف من الإسلام والمسلمين عند حدّ عدم الإيمان إنّما تجاوزوا ذلك إلى إيذاء المؤمنين. وإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى ذلك فإلى :

الآية رقم (١١١)

قال تعالى : ﴿ **لن يضرّوكم إلاّ أذىً وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا يُنْصَرون** ﴾ .

تبشّر الآية الكريمة خير أمّةٍ أخرجت للنّاس بأنّها حينما تتحقّق فيها شروط الخيريّة ويريد الفاسقون من أهل الكتاب أن يضرّوها فإنّ منتهى ما يصل المؤمنين من أهل الكتاب أذاهم بألسنتهم وما يُسْمِعون المؤمنين من افتراءات وأكاذيب تتأذّى بها آذان المؤمنين ونفوسهم كزعم اليهود أنّ عزيراً ابن الله وكزعم النّصارى أنّ المسيح ابن الله إلى غير ذلك من الأقوال والادّعاءات الّتى تتأذى بها نفوس المؤمنين وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة قوله تعالى(١) : ﴿ **لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين اشركوا أذىً كثيراً . وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور** ﴾ .

وإذا كان الأذى هو مُنْتَهى ما يصل المؤمنين من ضررٍ يحرص أهل الكتاب الفاسقون على إيصاله إلى المؤمنين فإنّ فعل فاسقى أهل الكتاب

(١) سورة آل عمران ١٨٦

لاحقٌ بقولهم . ولّما كان القتال منتهى الضّرر الفعلىّ الّذى يأتيه فاسقو أهل الكتاب ويحرصون على إلحاقه بأمّة الإيمان فإنّ الآية الكريمة تبشّر المؤمنين بأنّ النّصر حليفهم ، ماداموا خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، فى قتالهم لفاسقى أهل الكتاب ولسوى أهل الكتاب مِنْ باب الأَوْلى والأحرى : «لن يضرّوكم إلاّ أذىً . وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا ينصرون» .

ولا تقف البشارة عند هزيمة فاسقى أهل الكتاب أمام المؤمنين وتوليتهم المؤمنين الأدبار إنّما تتجاوز ذلك إلى تقرير وعد الله تعالى ووعده الحقّ بأنّ فاسقى أهل الكتاب الّذين رفضوا اتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ لن يُنْصروا بحالٍ من الأحوال فى أىّ قتالٍ مستقبلاً مع خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وحينما ينتصر أهل الكتاب وسواهم فى حروبهم الأخيرة مع المؤمنين فذلك معناه أنّ على خير أمّةٍ أخرجت للنّاس أن تراجع حسابها وتصلح من شأنها وتعود إلى بارئها جلّ وعلا .

ولا يقتصر ثواب خير أمّةٍ أخرجت للنّاس على النّصر على الأعداء فى الدّنيا إنّما يتجاوزه إلى ثواب الله تعالى الجزيل فى الآخرة . ثبت فى الصّحيحين أنّ عبدالله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أما ترضَوْنَ أن تكونوا ربع أهل الجنّة فكبّرنا . ثمّ قال : أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنّة فكبّرنا . ثمّ قال : إنّى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنّة[1] وثبت فى الصّحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ النّبىّ ﷺ قال : نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ، نحن أوّل النّاس دخولاً الجنّة ، بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحقّ . . فهذا اليوم الّذى اختلفوا فيه ، النّاس لنا فيه تبع ، غداً لليهود ، وللنّصارى بعد غد[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٥/١

(٢) تفسير ابن كثير ٣٩٦/١

ولّما كان اليهود أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا وكذلك المشركون ، وكان اليهود يسكنون آنذاك المنطقة ويحاولون أن يوصلوا ضررهم قولاً وعملاً إلى المؤمنين فقد بيّنت الآية الكريمة التّالية حقيقة الذّلّ والهوان اللّذين ضربهما الله تعالى على اليهود فإلى :

الآية رقم (١١٢)

قال تعالى : **﴿ ضُرِبَت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا إلّا بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾** .

حيث إنّ جملة ضُرَبت تكرّرت فى الآية الكريمة فى موضعين اثنين : «ضُرِبَتْ عليهم الذّلّة أينما ثُقِفُوا . . . وضُرِبَتْ عليهم المسكنة» فإنّا نودّ أن نقف على استعمالات هذه الجملة وعلى المعنى المراد بضرب الذّلّة وضرب المسكنة على القوم . الضّرب إيقاع شىء على شىء ولتصوّر اختلاف الضّرب خولف بين تفاسيرها كضرب الشّىء باليد والعصا والسّيف ونحوها . وضَرْب الدّراهم اعتباراً بضرب المِطْرقة ، وقيل له الطّبع اعتباراً بتأثير السّكة فيه ، والسّكة حديدةٌ منقوشة تضرب عليها الدّراهم . وبذلك شُبِّه السّجيّة وقيل لها الضّريبة والطّبيعة . والضّرب فى الأرض الذّهاب فيها هو ضَربها بالأرجل . وضّرب الفحل النّاقة تشبيهاً بالضّرب بالمِطْرقة كقولك : طرقها تشبيهاً بالطّرق بالمطرقة . وضَرب الخيمة بضرب أوتادها بالمطرقة وتشبيهاً بالخيمة ، قال : ضُرِبَتْ عليهم الذّلّة ، أى التحفتهم الذّلّة التحاف الخيمة بمن ضُرِبَتْ عليه وعلى هذا : وضُرِبت عليهم المسكنة . ومنه استُعير : فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . وقولُه : فَضُرِب بينهم بسور .

وضرب المثل هو من ضرب الدراهم وهو ذكر شيء أَثَرُه يظهر في غيرِه [1] .

وما معنى الذّلّة ؟ الذّلّة الفِعلة من الذّلّ [2] والذّلّ والصغـار [3] وقيل : الذّلّة كأنّها هيئةٌ من الذّلّ كالجلسة . والذّلّ : الخضوع وذهاب الصّعُوبة [4] .

وما معنى : أينما ثُقفوا ؟ حيثما لقوا وأينما كانوا من الأرض وبأىّ مكانٍ كانوا من بقاعها من بلاد المسلمين والمشركين [5] .

وما معنى الحبل ؟ السبب الَّذِى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم من عهدٍ وأمانٍ [6] عن قتادة : ضُرِبت عليهم الذّلّة أينما ثُقِفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس ، يقول : إلاّ بعهدٍ من الله وعهدٍ من النّاس [7] . وعن ابن عبّاس ، فهو عهدٌ من الله وعهدٌ من النّاس كما يقول الرّجل : ذمّةُ الله وذمّةُ رسُوله ﷺ [8] .

وما معنى : وبَاءُوا بغضبٍ من الله ؟ قال أبوجعفر : يعنى بقوله وباءوا بغضب من الله انصرفوا ورجعوا . ولا يقال باءوا إلاّ موصولا إمّا بخيرٍ وإمّا بشَرٍ يقال منه : باء فلانٌ بذنبه يبوء بوأً وبواءً . ومنه قول الله عزّ وجلّ : إنّى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام إذاً : ورجعوا منصرفين متحمّلين غضب الله قد صار عليهم من الله غضبٌ ووجب عليهم منه سخط [9] وقولك : باء فلانٌ بفلان إذا

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «ضرب» «٢٩٤» .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٣٢/٤ .
(٣) تفسير القرطبىّ ٣٦٦ .
(٤) البحر المحيط ٢٢٠/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٤٩/١ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٣٢/٤ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣٢/٤ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣٢/٤ .
(٨) تفسير الطّبرىّ ٣٢/٤ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ٢٥٠/١ .

كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته ، أى صاروا أحقّاء بغضبه[1] .

وما معنى المسكنة ؟ وأمّا المسكنة فإنّها مصدر المسكين يقال : ما فيهم أسكن من فلان وما كان مسكيناً ولقد تمسكن مسكنة . ومن العرب من يقول : تمسكن تمسكناً . والمسكنة فى هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة وهى خشوعها وذلّها[2] .

بغير حقّ : معناه أنّهم قتلوهم بغير الحقّ عندهم . فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم[3] .

ذلك بما عصوا : الباء في بما باء السّبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان خلاف الطّاعة[4] .

وإنّ أوّل ما نودّ الإشارة إليه هو وجه الشَبه الكبير بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الحادية والسّتين من سورة البقرة والّتى سبق لنا دراستها ضمن دراستنا لسورة البقرة بعنوان : تأملات فى سورة البقرة ، وينبغى أن يكون فى هذه الدّراسة بعض إفادة من الدّرَاسة هنالك ونرى لزاماً أن نبدأ بتدوين الآيتين الكريمتين لمعرفة مدى الشبه والاختلاف بين الآيتين الكريمتين .

جاء فى سورة البقرة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُم يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِج لَنَا مِمَّا تُنْبِت الأَرْض مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَاوَبَصَلِهَا ،قَال أَتَسْتَبْدِلُون الَّذِى هَوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هَوَ خَيْر ، اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنّ لَكُم مَا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذِّلّة والمَسْكَنة وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله .

(١) الكشّاف ١/٢١٩ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٥٠ .
(٣) الكشّاف ١/٢١٩ .
(٤) تفسير القرطبىّ ٣٦٨ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُوا يَكْفُرُون بَآيَاتِ الله وَيَقْتُلُون الْنَبِيِّين بغَيْرِ الْحَق . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُون﴾ .

وجاء فى سورة آل عمران قوله تعالى : **﴿ضُرِبَت عَلَيهم الذِّلّة أينما ثُقِفُوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبْل من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة . ذلكَ بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتُلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** .

ويكاد يكون الاختلاف الواضح بين الآيتين الكريمتين منحصراً فى ترتيب الذّلّة والمسكنة والغضب وفى الحبل الممدود للقوم من الله تعالى ومن النّــاس . وكى يتبيّن بوضوح شديد الزّوَايا الجديدة التي عُنِيَتْ بها آية سورة آل عمران نودّ أن نبيّن العناصر الثلاثة التى يتألف منها كلّ من سلسلتى العمل المتميّزتين .

إنّ ثمّة عصياناً من بنى إسرائيل تحوّل كفراً بآيات الله تعالى أدّى إلى ضرب الذّلّة والمسكنة على القوم . وبهذا يتبيّن أنّ الذّلّة والمسكنة وجهان لعملة واحدة وأنّ المسكنة قائمةٌ على الذّلّة ومترتبةٌ عليها . فإذا كانت الذّلّة من جنس الذّلّ والهوان والصّغار وكانت شعوراً بالنقص عميقاً فى نفس الذّليل فإنّ المسكنة ذلٌ وهوانٌ وصغار يشعر بها الذّليل فى حال المقارنة بين ذاته وبين الآخرين الّذِين يفوقونه حقّاً أو وهماً فى المال والجاه والمنصب وما إلى ذلك .

ومن متعلّقات المسكنة الّتِى يشعر بها الذّليل فى مجال المقارنة بين ذاته وبين من يفوقونه ، ومن باب أولى أن يَكُون من متعلّقَات الذّلّة ، أن هذا الفريق اللئيم من النّاس بقدر ما يذل ويستكين لمن يعلونه حقّاً أو وهماً يتعالى ويتكبّر على من يظنّ أنهم دونه مستوى . إنّ هذه قاعدة تصدق على الأفراد كما تصدق على الجماعات ، وإنّ تحقّق هاتين الصفتين ، الذّلّة والمسكنة

فى اليهود أفراداً وجماعات ، من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد .

ووراء العصيان والكفر بآيات الله تعالى فضرب الذّلّة والمسكنة على القوم ثمة اعتداءٌ على حرمات الله تعالى تحوّل قتلاً لأنبياء الله تعالى أدّى إلى غضب الله تعالى على القوم . فاليهود هم المغضوب عليهم بنص القرآن الكريم .

فإذا تحوّلنا إلى آية سورة آل عمران تبيَّنا أننا بصدد هاتين السلسلتين من أعمال القوم السّيئة وبصدد ثلاث حلقات فى كلّ سلسلة ، هى ذات الحلقات فى السّلسلتين السابقتين .

ثمة عصيان فكفرٌ بآيات الله تعالى فضرب الذّلّة والمسكنة .

وثمة اعتداءٌ على حرمات الله تعالى فقتلٌ لأنبياء الله تعالى أدّى إلى حلول غضب الله تعالى على القوم .

وبهذا تأكّد أن ثمة مسألتين رئيسيّتَيْن نحن بحاجة إلى الوقوف عندهما مليّاً . المسألة الأولى الحبل الممدود للقوم من الله تعالى ومن النّاس . والمسألة الأخرى فصل الغضب من الله تعالى على القوم بين الذّلّة والمسكنة المضروبتين على القوم .

فمع المسألة الأولى الحبل الممدود للقوم . قال تعالى : **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذّلّة أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بَحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنْ النَّاس وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله وَضُرِبَت عَلَيْهِم المَسْكَنة﴾** .

وأوّل ما يلاحظ أنّ الحبل الممدود من الله تعالى ومن النّاس إلى القوم يجىء إثر الذّلّة ولا يجىء إثْرَ المسكنة . فما معنى هذا ؟

حينما نعلمُ أنّ الذّلّة من الذّلّ عكس العزّ والعزّة وأنّ المسكنة من

الاستكانة والخضوع والخشوع للآخرين نفهم أنّ الحبل الممدود إلى القوم من الله تعالى ومن النّاس إنَّمَا يرفع الذّلّة عن القوم فيجعلها عزاً ظاهراً ولكنّه لا يرفع المسكنة ذلّ الباطن وهوانه ولؤمه . وإنّ واقع القوم لا يزيد هذه الحقيقة إلا رسوخاً ونصوعاً .

وحينما يفصل الحبل من الله تعالى بين الذّلّة والمسكنة فى آية سورة آل عمران ولا يفصل بينهما فى سورة البقرة يكون معنى ذلك أنّ آية سورة آل عمران تتحدث عن فترات استثناء كهذه الفترة التى نحياها والتى مدَّ لبَنى إسرائيل فيها الحبل من الله تعالى ومن النّاس فى هيئة قيام دولة إسرائيل الّتِي تسوم العرب والمسلمين الخسف فتحولت ذلّتهم عزّة وبقيت المسكنةُ راسخةً فى الأعماق . بينما لا تتحدث آية سورة البقرة عن فترات استثناء إنما تتحدث عن القاعدة الأساسية على القوم ذلةٌ ومسكنةٌ وغضبٌ من الله تعالى .

فما المراد بالحبل من الله تعالى وما المراد بالحبل من النَّاس ؟

إنّ الحبل من الله تعالى والحبل من الناس عبارة عن فترات استثناء ترفع فيها الذّلّة عن بنى إسرائيل إلى حين . إنّ القاعدة الأساسية أنّ الله سبحانه وتعالى قد ضرب على بنى إسرائيل الذّلّة والصَّغار والهوان أينما كانوا وحيثما حلّوا ووجدوا فى أرض الله تعالى الواسعة العريضة . وإنّ جملة «ضُرِبَتْ» تفيد قرع شىء بشىء على جهة العنف والقوة والقهر والجبروت ، ويرتبط باستعمالها قوة الوضع وعنف الأثر وشمول الضّرب وإحاطته بالمضروب إحاطة الخباء بالمضروب عليه الخباء وشمول الخيمة المبنىّ عليه الخيمة وتلك هى طبيعة الذّلّة المضروبة على القوم . إنَّهَا أشبه ما تكون بخيمة مضروبة أو خباء منصوب على القوم .

إنّ هذه الذّلّة المضروبة على القوم بإرادة الله تعالى هى القاعدة الأساسية ، وإنّ هذه القاعدة الأساسية بإرادة الله تعالى لها استثناء بل

استثناءات حينما يشاء الله تعالى إلى حين رفع هذه الذّلّة وذلك فى هيئة الحبل الممدود إلى القوم من الله تعالى والعون من المعبود ، وفى هيئة الحبل الممدود إلى القوم من النّاس كلّ النّاس ، من المؤمنين وذلك فى هيئة العهد الّذِى يناله أهل الذمة من المؤمنين فيأمنون بسببه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وفى هيئة العون الذى يناله بنو إسرائيل من أعداء الاسلام والدّعم والتّأْييد .

ونحن حينما نستثنى الحبل الممدود إلى القوم من المؤمنين وذلك فى هيئة العهد الّذى يمنحه المؤمنون لأهل الذّمة بأمر الله تعالى فإنّا نتبيّن أن الحبل الممدود للقوم من ربّ العِزّة ومن غير المؤمنين إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى فى حالة غياب خير أمةٍ أخرجت للنّاس وتخلّيها عن مسئوليّتها وتقصيرها فى أداء الواجب عليها بل خيانتها للأمانة .

إنّ ربّ العزّة وَعَدَ ووعْدهُ الحقّ بأنّ المؤمنين حينما يؤمنون حقاً ويعملون الصّالحات فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم ويُمكّن لهم دينهم الّذى ارتضى لهم ويبدّلهم من بعد خوفهم أمناً شريطة أن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، ويتوكلوا عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له، ويستعينوا به جلّ وعلا وحده لا شريك له . إنّ خير أمةٍ أخرجت للنّاس حينما خانت الأمانة سلّط الله تعالى شرار خلقه فكان الحبل من الله تعالى ، وكانت إرادة الله تعالى برفع الذّلّة عن القوم إلى حين، وكان الحبل من النّاس الكافرين ممدوداً لبنى إسرائيل فى حال غياب خير أمةٍ أخرجت للنّاس بسبب خيانتها للأمانة فكانت دولة إسرائيل هذه الأيّام التى تسوم خير أمةٍ أخرجت للنّاس سوء العذاب . إنّ كلّ ذلك يحدث بإرادة الله تعالى الّذى قال عن بنى إسرائيل فى محكم التنزيل[1] : ﴿**وإذ تأذّن ربّك**

---

(١) سورة الأعراف ١٦٧ .

لِيَبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ إنّ بعث الله تعالى على بنى إسرائيل إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب والهوان والخسف هو عبارةٌ عن الذّلّة التى ضربها الله تعالى على القوم والمسكنة .

وإنّه بالنّظر إلى آى الذكر الحكيم ووعد الله تعالى خير أمّة أخرجت للنّاس بالعزّ والتّمكين حينما تُحقِّق الشّروط الثّلاثة الأمر بالمعروف والنّهىِ عن المنكر والإيمان بالله نستطيع أن نفهم أن عزّة المسلمين هى القاعدة الأساسيّة وأن ذلّة بنى إسرائيل هى القاعدة الأساسية ، وأنّ ذلّة المسلمين هى الاستثناء ، وأنّ عزّة بنى إسرائيل هى الاستثناء ، وأنّ عزّة هذه الفئة تعنى ذلّة الفئة الأخرى ، والعكس صحيح . وبناءً على ذلك نستطيع أن نفهم أنّ المسلمين إذا أرادوا أن يعود لهم عزّهم الغابر ومجدهم التّالد ، وقطعاً هم يريدون ، فإنّ عليهم أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا وأن يجتهدوا فى تحقيق الشّروط التى يجب توافرها فى خير أمةٍ أخرجت للناس ، الأمّة الّتى وعدها الله تعالى بالعزّ والتّمكين ، بالعون والتّأييد . إنّ العودة إلى الله تعالى تعنى عودة العزّة إلى المؤمنين وعودة الذّلّة إلى بنى إسرائيل وإلى الكافرين . إنّ الأمّة الإسلاميّة بسبب خيانتها للأمانة سلبها الله تعالى النّعم الّتى أسبغها جلّ وعلا عليها . وكى تعود هذه النّعم إلى هذه الأمّة المسلمة على هذه الأمّة أن تعود إلى بارئها جلّ وعلا وقد ثبت لهذه الأمّة أن كلّ مرةٍ رغبت فى العزّة عن غير الطّريق إلى الله تعالى كان الخسران حليفها والخيبة نصيبها . قال عزّ من قائل[1] : **﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميع عليم﴾** وقال تعالى [2] : **﴿وَعَدَ الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليَسْتَخْلِفَنَّهُم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم**

---

(١) سورة الأنفال ٥٣ .

(٢) سورة النّور ٥٥ .

وَليمكّننَّ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم وليُبَدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ .

والآن مع المسألة الأخرى وهى الفصل فى الآية الكريمة بالغضب من الله تعالى على القوم بين الذّلّة والمسكنة المضروبتين على القوم .

إنّه بالنّظر إلى القول فى آية سورة البقرة : **﴿وضربت عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله﴾** يتبيّن أنّه جاء إثر الحديث عن قول بنى إسرائيل لموسى عليه السلام : **﴿لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فادع لنا ربّك يُخْرِجِ لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الـذى هو أدنى بالّذى هو خير . اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم﴾** وكأنّ بنى إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام ما لبثوا أن أخذوا ينحرفون عن الصراط المستقيم حتّى كان الانحراف حادّاً والعصيان سافراً والكفر جادّاً والاعتداء على حرمات الله تعالى أمراً معتاداً والاعتداء على النّبيّين بل قتلهم شيئاً مألوفاً فآب القوم بسبب العصيان والكفر بالذّلّة والمسكنة اللتين ضربتا عليهم ، وآبوا بسبب الاعتداء وقتل النّبيّين بغضب الله تعالى . وكأنّ غضب الله تعالى الّذى استحقّه القوم بسبب قتلهم النّبيّين بخاصة يمثل منتهى الدّرك الّذى انحطّ إليه القوم خلال فترات طالت بعد وفاة موسى عليه السّلام .

فإذا تحوّلنا إلى آية سورة آل عمران تبيّنا أنها تتحدث عن بنى إسرائيل بعامة المعاصرين للمصطفى ﷺ بخاصّة ، وهذا يعنى أنّ الفترة الزّمنيّة الّتى تغطّيها آية سورة آل عمران أطول من الفترة الزّمنية الّتى تغطيها آية سورة البقرة ، وكأنّ القوم بعد أن انتهوا إلى غضب الله تعالى الّذى استحقوه وآبوا به تقلّبوا فى مختلف الذّنوب الّتى تتفاوت شناعةً وبشاعة فتبع ذلك تفاوت الصفات السيئة الّتى اتّصف بها القوم وتفاوت العقاب الّذى أنزله الله تعالى بالقوم . فعلى سبيل المثال حرص اليهود على قتل المصطفى ﷺ ولكنّ الله

سبحانه وتعالى عصمه عليه الصّلاة والسّلام من النّاس جميعاً . وفيهم اليهود ، وبناءً على ذلك فإنّ القوم انتهوا إلى الاعتداء على ما حرّم الله تعالى مروراً بالعصيان فالكفر بآيات الله تعالى فضرب الذّلّة والمسكنة عليهم . وحينما قتل الأسلاف النّبيّين آبوا بغضب الله تعالى مروراً بالصّفات السّيّئة الأخرى . حقاً لقد كان المعاصرون من بنى إسرائيل حريصين على قتل المصطفى ﷺ وراضين عن قتل أسلافهم النّبيّين ولكنّ الله سبحانه وتعالى عصم حبيبه ﷺ منهم وبناءً على ذلك فإنّ الغضب الّذى يستحقه بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى ﷺ ليس من أجل السّبب الذى حلّ الغضب من الله تعالى على أسلافهم من أجله .

وحينما يتأخّر ذكر المسكنة فى الآية الكريمة بعد الذلة والغضب وذلك فى القول : ﴿**ضربت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبل من النّاس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة**﴾ فذلك دليلٌ على أنّ المسكنة والخنوع الدّاخلى والمرض النّفسى ملازمٌ كلُّ ذلك للقوم فى حال مد الحبل لهم من الله تعالى ومن النّاس ومن باب الأَوْلى أن يكون ملازماً للقوم فى حال ضرب الذّلّة على القوم وحلول الغضب من الله تعالى على القوم .

ونستطيع أن نوجز تأمّلنا للآية الكريمة فى القول بأنّ الله سبحانه وتعالى ضرب الذّلّة على بنى إسرائيل فهى تلفّهم وتحيط بهم وتشملهم فى أىّ مكانٍ حلّوه وأىّ موضع صودفوا فيه باستثناء الفترات التى يمدّ لهم فيها حبلٌ من الله تعالى وحبلٌ من الناس المؤمنين فى هيئة عهد الله تعالى وعهد رسوله وغير المؤمنين الّذين يشاء الله تعالى لهم أن يعينوا بنى إسرائيل على الظّلم والطّغيان ،وباءوا بغضبٍ من الله تعالى نالوه واستحقّوه وضربت عليهم المسكنة ومرض النّفس وخنوعها . لقد استحقّ القوم أن يضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة بسبب عصيانهم فكفرهم بآيات الله تعالى . واستحقّوا غضب الله

تعالى بسبب اعتدائهم على حرمات الله تعالى وقتلهم الأنبياء بغير حقّ . إنّ بنى إسرائيل لو سئلوا عن السّبب الّذى من أجله قتلوا أنبياء الله تعالى ما عرفوا لذلك جواباً ولا وجدوا سبباً . والله تعالى أعلم .

***

(١١)
نعوت مؤمنى أهل الكتاب
الآيات (١١٣ ـ ١١٥)

۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ
مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ
وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ
مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ۞

بيّن السّياق من ذى قبل أن من أهل الكتاب مؤمنين وفاسقين وعيّن أهمّ صفات الفاسقين الكافرين . وفى هذا القسم يبين أنّ أهل الكتاب ليسوا مستوين وليسوا جميعاً فاسقين ، بل إنّ منهم أمّةً قائمةً على الحقّ ثابتةً عليه مستقيمةً على الصّراط المستقيم . ويبيّن السّياق نعوت هذه الجماعة من أهل الكتاب الّتى شرح الله تعالى صدرها للإسلام واتّبعت خير الأنام فهى تتلو آيات القرآن الكريم آناء الّليل وأطراف النّهار فى الصلوات وفى غير الصّلوات . ويلاحظ اختيار السّياق صفة السّجود لأنّها أدلّ حالات خشوع العبد فى الصّلاة ولأنّ السّجود يكون فى الصّلاة وفى غير الصّلاة وبخاصّةٍ فى أثناء تلاوة القرآن الكريم . وهؤلاء المؤمنون تتحقّق فيهم شروط خير أمةٍ أخرجت للنّاس من إيمانٍ بالله تعالى وباليوم الآخر وأمر بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر ومسارعةٍ فى الخيرات فاستحقّوا صفة الصّلاح واسعة المدلول والّتى يتّصف به كلّ المنعم عليهم من ربّ العالمين ابتداءً بالمرسلين والنّبيّين وانتهاءً بالصّالحين . وينبّه السّياق إلى فضل الله تعالى العظيم وخيره العميم وإحاطته جلّ وعلا بكلّ شىءٍ علماً . إنّ ما يفعله هؤلاء المؤمنون من خير لن يكفروه ولن يجحده بل سيثابون عليه ولا يظلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . والله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه النّوايا كما لا تخفى عليه جلّ وعلا الأقوال والأعمال وسيجازى كلًّا بنيّته وعمله وسيكون ثواب المتقين كبيراً .

***

الآية رقم (١١٣)

قال تعالى : ﴿ليسوا سواءً . مِنْ أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناء الّليل وهم يسجدون﴾ .

سبب النّزول :

عن ابن عبّاس قال : لمّا أسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عبيد ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ومنحوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمّد ولا تبعه إلاّ أشرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك من قولهم : ليسوا سواءً . مِنْ أهل الكتاب أمّةٌ قائمةٌ يتلونَ آيات الله . إلى قوله : وأولئك من الصالحين [١] .

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ مِنْ أهل الكتاب مؤمنين وأنّ أكثرهم فاسقون ، وبيّن صفات الفاسقين من بنى إسرائيل على جهة الخصوص . وبهذه الآية الكريمة تبدأ نعوت مؤمنى أهل الكتاب ، ويقرّر فى صدر الآية الكريمة أنّ أهل الكتاب «ليسوا سواءً» ، بمعنى أنّهم غير مستوين فى الفسق وليسوا جميعاً كفاراً بل إنّ منهم أمّةً قائمةً على الحقّ وفيهم جماعةٌ مستقيمةٌ على النّهج القويم والصّراط المستقيم يتلون آيات الله تعالى ، المتمثّلة فى القرآن الكريم ، آناء الّليلِ وساعاته ، وهم يسجدون لله تعالى فى أثناء تجافى جنوبهم عن المضاجع ليلاً ودعائهم الله تعالى خوفاً وطمعاً وقيامهم الّليل . وهم يسجدون كذلك فى أثناء تلاوتهم القرآن الكريم فى غير الصّلاة وذلك فى مواطن السّجود فى القرآن الكريم .

والحقيقة أنّ الآية الكريمة تتحدث عن أهل الكتاب باعتبار الأصل أمّا

(١) تفسير الطّبرىّ ٣٥/٤ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٥٢ .

الآن فهم جزءٌ لا يتجزّأ من خير أمةٍ أخرجت للنّاس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً وها هى ذى مستقيمةٌ فى سلوكها قائمةٌ على الحقّ ثابتةٌ على الطّريق المستقيم والنهج القويم تتلو آيات الله تعالى فى ساعات الّليل حين تصفو نفوس الأتقياء وتغفل عيون الرّقباء وتقضى ليلها مصلّية راكعةً ساجدة داعيةً خاشعةً خاضعةً .

والمعروف أنّ السّجود من مقوّمات الصّلاة فى الإسلام وأركانها . وبهذا يتبيّن أنّ هذه الفئة من أهل الكتاب أصلاً والّتى اعتنقت دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده تسعى جاهدةً كى ترتفع إلى مستوى التّقوى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . ونستطيع أن نتبيّن فى هذه الفئة المؤمنة الّتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس بل الّتى أصبحت خير مثالٍ يدلّ على خير أمةٍ أخرجت للنّاس ويرشد إليها معانى مثل قوله عزّ من قائل [1] : ﴿إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سُجّداً وسبّحوا بِحَمْدِ ربّهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون﴾ وقوله تعالى : [2] : ﴿أقِم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق الّليل وقرآن الفجر . إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الّليل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾ وقوله تعالى [3] : ﴿الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنةِ السّيّئةَ وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا الّلغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾ .

---

(١) سورة السّجدة ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الإسراء ٧٨ ، ٧٩ .
(٣) سورة القصص ٥٢ ـ ٥٥ .

وإنّ الآيتين التّاليتين متمّمتان النّعوت لمؤمنى أهل الكتاب وبذلك يتبيّن أنّ هؤلاء المؤمنين صورةٌ مشرقةٌ لخير أمةٍ أخرجت للنّاس وهاتان هما :

الآيتان رقم (١١٤ ، ١١٥)

قال تعالى : ﴿**يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصّالحين . وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه . والله عليمٌ بالمتّقين**﴾ .

إنّا بتأمّل أولى الآيتين الكريمتين نتذكّر مثل قوله تعالى عن خير أمةٍ أخرجت للنّاس فى هذه السّورة الكريمة [١] : ﴿**كنتم خير أمةٍ أُخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ وقوله تعالى [٢] : ﴿**ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾ وقوله تعالى فى سورة الحجّ [٣] : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون**﴾ .

وقولـــه عـــزّ من قائل فى الآية الكريمة قبل الأخيرة من سورة آل عمران : ﴿**وإنّ من أهل الْكِتَابِ لمن يؤمن بالله وما أُنْزِل إليكم وما أُنزِل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً . أولئك لهم أجرهم عند ربّهم . إنّ الله سريع الحِساب**﴾ وقوله تعالى عن النّصارى وقد آمنوا فى سورة المائدة [٤] : ﴿**لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا اليهود والّذين أشركوا ، ولتجدنّ أقربهم مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ، ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أُنْزِل إلى الرّسول ترى أعينهم**

---

(١) سورة آل عمران ١١٠ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .
(٣) الآية ٧٧ .
(٤) الآيات ٨٢ ـ ٨٥ .

تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين . وما لنَا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ ونطمع أن يدخلنا ربنّا مع القوم الصّالحين . فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين﴾ .

إنّ مؤمنى أهل الكتاب يؤمنون بالله تعالى ربّاً ويعبدونه جلّ وعلا وحده لا شريك له ويؤمنون باليوم الآخر ويستعدّون لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، وبذلك صحّ لهم الأوّل والآخر ، البداية والنّهاية . وحينما تصلح البداية والنّهاية وتصحّ يصلح ما بينهما ويصحّ . ومما صحّ لهؤلاء المؤمنين الأمر بالمعروف والدّعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وإلى ما أمر به الشّرع وحسّنه العقل ، كما صحّ لهم النّهى عن المنكر وهو كلّ ما أنكره الشّرع وقبحّه العقل . وإنّ هؤلاء القائمين على الصّراط المستقيم الثّابتين على الحقّ يسارعون فى الخيرات التى دعا إليها القرآن الكريم والرسول العظيم . وهم بسبب هذه النّعوت الحسنة الّتى تدلّ على ما وراءها من نعوت من الصالحين . والمعروف أنّ صفة الصلاح واسعة المدى كثيرة الدّرجات بحيث إنّها يتّصف بها أكبر المنعم عليهم من ربّ العالمين وهم المرسلون والنبيّون ويتّصف بها عباد الله تعالى الصّالحون .

والآية الكريمة التّالية تقرّر ثواب الله الجزيل لكل من آمن وعمل صالحاً وأن ما فعله هؤلاء المؤمنون من خيرٍ فلن يكفروه ولن يجحدوه وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك الذّرّة حسنةً يضاعفها جلّ وعلا ويؤت من لدنه أجراً عظيماً .

وإنّ الجزئية الأخيرة فى الآية الكريمة : **﴿والله عليمٌ بالمتّقين﴾** تقرّر علم الله تعالى المحيط بخفايا النّفوس ودخائل القلوب . فالله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بالمتّقين الّذين قاربوا الارتقاء إلى درجة

الإحسان بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ على النّاس جميعاً أنّ يحذوا حذو هؤلاء المؤمنين المتّقين وأن يجتهدوا كى يكونوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمةٍ أخرجت للنّاس .

وإنّ هذه الآيات الكريمات لتشير إلى إحدى مظاهر عظمة دين الله تعالى الخالد الّذى بعث به محمد بن عبدالله ﷺ إذ المعروف أنّ الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خاتم النّبيّين هو الّدين الوحيد الّذى ولد عالميا فما أرسل الله تعالى محمدا ﷺ إلا رحمة للعالمين وللنّاس كافة . أمّا مظهر العظمة الّذى يتجلّى فى هذه الآيات الكريمات فهو القدرة العجيبة لهذا الّدين على تفجير طاقات الأمم الخيّرة وإيقاظ عبقرّياتها وتحويلها عناصر إيجابيّة فى بناء صرح الحضارة الإسلاميّة الّتى يصحّ أن تتدحرج عن القمّة الّتى تسنمتها والّتى أريد لها أن تتسنّمها ولكنّ هذه الحضارة لايمكن بحالٍ من الأحوال أن تختفى بإذن الله تعالى من الوجود لأنّ مبادىء هذا الّدين دائمة الحركة والحيويّة والشباب ، ولأنّ رسالة الإسلام للنّاس كافّة ، ولأنّ هذا الّدين يدخل فيه النّاس أفواجاً بفضلٍ من الله تعالى ونعمة ، وإنّ فى هؤلاء المؤمنين ، الّذين ولدوا مسلمين والّذين شرح الله صدرهم للدّخول فى دين الاسلام ، شباباً دائماً وحيويّة دافقة وإيماناً نامياً . وإنّ أهمّ علامات حياة هذه الأمّة تحقّق الشّروط الثلاثة الّتى تتحقّق بها خيريّة هذه الأمّة إيمانٌ بالله تعالى ، وأمرٌ بمعروفٍ ، ونهىٌ عن منكر . نسأل الله تعالى أنّ يلهمنا رشدنا وأن يوفّقنا للعمل من أجل نشر هذا الدِّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده فى الخافقين وأن يوفّقنا جلّ وعلا للوصول به حيث وصل الّليل والنّهار فى سبيل تحقيق وعد الله تعالى الحقّ بإظهار هذا الدّين على الدّين كلّه ولو كره المشركون وكفى بالله شهيداً . وهو نعم المولى ونعم النصير .

(١٢)

أعمال الكافرين هباء وصدهم عن السبيل حسرة
والتحذير من اتخاذهم بطانة والأمر بالصبر والتقوى
الآيات (١١٦ - ١٢٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي
صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ
وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ
بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾

من أهل الكتاب مؤمنون وفاسقون ، وقد تحدّث القسم السّابق عن مؤمنى أهل الكتاب الّذين أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من خير أمةٍ أخرجت للنّاس ، وقرر أنّ ما يفعله أهل الكتاب الّذين أسلموا ، من خيرٍ ، فلن يكفروه ولن يجحدوه وأنّ الله عليمٌ بالمتّقين وبغير المتّقين ومنهم الكَافرون . إنّ التّنبيه إلى عدم كفران الله تعالى ما يفعله مؤمنو أهل الكتاب من خير وإلى أنّ الله عليمٌ بالمتقين ويلحق بهم غير المتّقين ومنهم الكافرون رشح كلٌّ للحديث عن الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى فبيّن أنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأنّهم أصحاب النّار هم فيها خالدون وأنّ ما ينفقون للصّدّ عن سبيل الله تعالى وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً بينما هم الأخسرون أعمالاً مثله كمثل ريحٍ فيها بردٌ شديد وزمهرير أصابت زرع قومٍ ظالمين وثمره فأهلكته وذلك جزاء الظّالمين . ويحذّر السّياق المؤمنين من اتّخاذ غير المؤمنين بطانةً يطلعونهم على خباياهم ويوقفونهم على أسرارهم لأنّ غير المؤمنين لا يقصّرون فى إلحاق الفساد بالمؤمنين ولأنّهم يودّون عنت المؤمنين ومشقّتهم والدليل على ذلك فلتات ألسنتهم الّتى تفضح سرائرهم وإنّ ما تخفى صدور القوم أكبر ممّا تزلّ به ألسنتهم . فعليكم أيّها المؤمنون أن تستعملوا عقولكم استعمالاً صحيحاً فى تدبّر هذه الآيات الّتى نبيّنُها لكم . وينبّه السّياق المؤمنين إلى أنّهم يحبّون غير المؤمنين بينما غير المؤمنين لا يحبّونهم وإلى أنّهم يؤمنون بالكتب السّماويّة ، وهذا من أسباب حبّهم غير المؤمنين ، بينما غير المؤمنين لا يحبّونهم لأنّهم جميعاً يكفرون بالقرآن الكريم . وهؤلاء منافقون كافرون إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنا وإذا

خلوا إلى شياطينهم قالو إنّا معكم على الكفر وعضّوا على المؤمنين الأنامل من الغيظ . ويأمر الله تعالى رسوله الحبيب أن يقول لأولئك المنافقين موتوا بغيظم عاجلاً أو آجلاً لبقاء أسباب موتكم وهو الخير الّذى ينال المسلمين دائماً من ربّ العالمين العليم بذات الصّدور وخفاياها .

وتعطى الآية الكريمة الأخيرة فى القسم الدّليل الأخير على عداوة القوم وترشد إلى الدّواء النّاجع . . أمّا هذا الدّليل فهو أنّ المنافقين يسوؤهم أدنى مسٍّ من الخير للمسلمين بينما يفرحهم أن يصيب المسلمين كلّ شرّ .

إنّ على المسلمين أن يصبروا على هذا البلاء وأنّ يتّقوا الله حق تقاته فإنّه جلّ وعلا معهم ومولاهم وهو عزّ وجلّ نعم المولى ونعمِ النّصير وبذلك لن يضّر المسلمين كيد المنافقين الّذين أحاط الله تعالى علماً بما يعملون .

* * *

الآيــــة رقــــم (١١٦)

قال تعالى : ﴿**إنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحابُ النّار هم فيها خالدون**﴾ .

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة العاشرة فى السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿**إنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النّار**﴾ . وبعد هذه الآية الكريمة العاشرة يأتى الحديث عن فئاتٍ من الكافرين ، وكذلك الحال هنا يأتى الحديث عن أنواعٍ من الكافرين .

والآية الكريمة هنا تتحدّث عن الّذين كفروا وذلك إثر الحديث فى الآية الكريمة السّابقة عن علم الله تعالى بالمتّقين وبغير المتّقين وفيهم الكافرون وبعد النّصّ على أنّ الله سبحانه وتعالى لن يكفر ولن يجحد ما فعله المؤمنون المتّقون من خير ، فثمّة قرينةٌ لفظيّة وأخرى معنويّة رشّحتا للتحوّل إلى الكافرين بصريح اللّفظ . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين كفروا لن تغنى عنهم يوم القيامة ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . وإنّما لا تغنى الأموال والأولاد فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود لأنّ مبدأ الفداء مرفوضٌ أصلاً ، ولأنّ كلّ نفسٍ فى ذلك اليوم رهينةٌ بما كسبت وستجازى عليه ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ . وإنّما تقدم المال فى الذّكر لأنّ العادة جرت أن يكون المال أوّل مبذول وإنّما تأخّر ذكر الولد لأنّ الولد أغلى من المال .

إنّ أولئك الكافرين هم أصحاب النّار وهم فيها خالدون . إنّهم لاستحقاقهم النّار وخلودهم فيها نزّلوا منزلة أصحابها الّذين لا تفارقهم ولا يُفارقونها . وإنّ ذكر المال فى الآية الكريمة رشّح للحديث فى الآية

الكريمة التّالية عن هذا المال وعن انفاق هؤلاء الكافرين ذلك المال ليصدوا عن سبيل الله تعالى وفى ذلك خسرانهم فى الأولى والآخرة فإلى

الآيـة رقم (١١٧)

قال تعالى : ﴿مَثَل ما يُنْفقون فى هذه الحياة الدّنيا كمثل ريحٍ فيها صِرٌ أصابت حَرْث قومٍ ظلموا أنفسهم فأهلكته . وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ .

لعلّ خير وسيلة تعين بإذن الله تعالى على فهم المثل فى الآية الكريمة أن نبيّن جوانب المشبّه به ونعيّن عناصره . إنّنا بصدد قومٍ حرثوا أرضاً وبذروها وزرعوها وعنوا بها حتّى نما الحرث والنّبت وأثمر الزّرع والشّجر وكانوا كلُّهم ممتلئةً نفوسهم رضاً وبهجةً بخُضْرتها ونَضْرتها آملةً فى غذائها المفيد طامعةً فى ثمرها الّلذيذ ، ولأنّ هؤلاء القوم ظلموا أنفسهم شاء الله تعالى انتقاماً من القوم أن يرسل الله سبحانه وتعالى على ذلك الحرث ، بمعنى الزّرع والثّمار [1] ريحاً . والمعروف أنّ الرّيح بطبعها ملتئمة متماسكة ، لذلك هى الّتى تستعمل فى القرآن الكريم ، فى صيغة المفرد هذه ، مع العذاب ، إلّا إذا كانت طبيعة الرّحمة تقتضى هذا النّوع من الرّيح فى صيغة المفرد وفى هذه الحال تكون ثمّة القرينة الّتى تصرف الرّيح المفردة إلى الرّحمة وذلك كالصّفة طيّبة لريح الرّحمة فى الآية الكريمة من سورة يونس [2] : **﴿هو الّذى يسيّركم فى البرّ والبحر حتّى إذا كنتم فى الفُلْك وجرْين بهم بريحٍ طيّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كلّ مكانٍ وظنّوا أنّهم أحيط بهم دَعُوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من**

---

(١) انظر تفسير ابن عطيّة ٣/٢٨٣ .
(٢) الآية ٢٢ .

هذه لنكوننَّ من الشّاكرين﴾ والمعروف كذلك أن لفظة رياح فى صيغة الجمع هى الّتى تستعمل فى القرآن الكريم مع الرّحمة لأنّ المطر وليد رياحٍ متعدّدة وليس وليد ريحٍ واحدة .

وليست الرّيح التى سلّطها الله تعالى على حرث الظّالمين قويّةً فقط بل إنّها فيها صرّ . قال ابن عبّاس بردٌ شديد وزمهرير [1] يحرق لشدّته الزّرع حرقاً كما تحرقه النّار سواءً بسواء . وهذه الرّيح الّتى فيها ذلك البرد الشّديد والزّمهرير والّتى أرسلها الله تعالى على ذلك الحرث أصابته بإرادة الله تعالى إصابةً قاتلةً لم تقم له بعدها قائمة . وبهذا يتبيّن أنّ جهود الظّالمين قد ذهبت بشأن الحرث سدى ، وأطماعهم بشأن الأكل اللّذيذ والثّمر الشّهى قد مضت بدداً .

وما هو المشبّه فى الآية الكريمة ؟ بالنّظر إلى قوله تعالى : ﴿مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدّنيا﴾ يتبيّن أن المشبّه هو ما ينفقه الّذين كفروا . وهنا نجد أنفسنا بحاجة إلى أن نستأنس بمثل قوله تعالى فى سورة الفرقان [2] : ﴿وقَدِمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً﴾ والمعنى أنّ أعمال الكفّار وإن كانت صالحةً بمقياس الشّرع فإنّها باعتبارها لم يُرَدْ بها وجه الله تعالى قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً وغباراً مفرّقاً فى عدم جدواها ونفعها ، وأن نستأنس كذلك بمثل قوله تعالى فى سورة الأنفال [3] : ﴿إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون . والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشرون . ليميز الله الخبيث من الطّيّب ويجعل الخبيث بعضَه على بعضٍ فيركمه جميعاً فيجعَلَه فى جهنّم . أولئك هم الخاسرون﴾ وكأنّ آية سورة الفرقان تقف عند حدّ كفر القوم . وكأنّ آية

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣٩/٤ وانظر تفسير ابن كثير ٣٩٧/١ وتفسير ابن عطيّة ٢٨٢/٣ .
(٢) الآية ٢٣ .
(٣) الآية ٣٦ ، ٣٧ .

سورة الأنفال تتجاوز حدّ كفر القوم إلى الصدّ عن سبيل الله تعالى . وبذلك تكون دائرة ظلم الأخيرين أكبر لأنّهم لا يقفون عند حدّ الظّلم للعبادة بوضعها فى غير موضعها وعند حدّ ظلمهم أنفسهم . إنّما يتجاوزون إلى ظلم الآخرين بصدّهم عن سبيل الله تعالى بل إلى ظلمهم بالعمل على حملهم على الارتداد عن دين الإسلام الحقّ إلى الكفر والباطل . ومن المعروف أنّ من الوسائل الخسيسة للوصول إلى هذه الغاية الدّنيئة الإغراء بالمال وإنفاقه بسخاء فى سبيل الشّيطان الرّجيم وذلك على غرار ما يفعله هذه الأيّام المنصّرون وأشباههم من جنود إبليس وحزب الشّيطان . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تنزّل الأموال الّتى ينفقها هؤلاء الظّالمون فى سبيل الشّيطان منزلة الّحرث الّذى اجتهد أصحابه الظّالمون فى رعايته والعناية به كي يجنوا أُكُلَه ويقطفوا ثمرته فأرسل الله تعالى عليه الرّيح الصّـرّ الّتى جعلته أثراً بعد عين .

وفى سبيل تبيين جوانب المشبّه وعناصره نحن بحاجة إلى إكمال تلك العناصر من المشبّه به بحيث يبدو كلّ عنصرٍ مع الّذى يوافقه وكلّ جانب مع الّذى يوائمه . إنّ معنى المشبّه : ﴿**مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدّنيا**﴾ يصحّ أن يكون قريباً من القول : مَثَل إذهاب الله تعالى أعمالَ الكافرين الخيّرة فى الحياة الدّنيا هباءً منثوراً وجعل أموالهم الّتى ينفقونها ليصدّوا عن سبيل الله تعالى حسرةً عليهم يوم القيامة وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً كمثل ريح . . .

وينبغى أن يكون لهذا القول :﴿**فى هذه الحياة الدّنيا**﴾وعدم الاستغناء عنه مع صحّة ذلك الاستغناء معنىً بعيد ومغزىً عميق ويصحّ أن يكون ذلك هو التّنبيه إلى أنّ كلّ ما ينفق الكافرون الظّالمون للصّدّ عن سبيل الله تعالى لا يتجاوز مداه هذه الحياة الّتى توصف بأنّها دنيا لفظاً ومعنى وإلاّ لما سقى الله تعالى فيها الكافر شربة ماء .

ومن البيّن أنّ قوله تعالى : ﴿**وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ هو الّذى فهمنا منه أنّ هؤلاء الكافرين ظالمون بمعنى أنّهم تجاوزوا الكفر إلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى فحقّ فيه مثل قوله تعالى [١] : ﴿**الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم**﴾ وقوله تعالى [٢] : ﴿**الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون**﴾ ومن البيّن كذلك أنّ قوله تعالى : ﴿**وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ قوّةٌ لفحوى الآية الكريمة فى القسم السّابق : ﴿**وما يفعلوا من خيرٍ فلن يُكْفروه . والله عليمٌ بالمتّقين**﴾ .

والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن هؤلاء الكافرين من جانبٍ آخر وتحذّر منهم فإلى :

الآية رقم (١١٨)

قال تعالى : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾ .

سبب النّزول :

ذكر أنّ هذه الآية نزلت فى قومٍ من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النّفاق منهم ويصافونهم المودّة بالأسباب الّتى كانت بينهم فى جاهليّتهم قبل الإسلام ، فنهاهم الله عن ذلك وأن يستنصحوهم فى شيءٍ من أمورهم . عن ابن عبّاس قال : كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهليّة فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم

---

(١) سورة محمّد ١ .
(٢) سورة النّحل ٨٨ .

فنهاهم عن مباطنتهم . تخوّف الفتنة عليهم منهم : يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم ، إلى قوله : وتؤمنون بالكتاب كلّه [1] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ ما ينفقه الكافرون للصّد عن سبيل الله تعالى سيكون حسرةً ووبالاً عليهم يوم القيامة لأنّهم إلى النّار يحشرون . وفي هذ الآية الكريمة التّالية ينهى ربّ العزّة المؤمنين الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً عن أن يتّخذوا من دون المؤمنين ومن غير أهل دينهم بطانةً ينزّلونهم منهم منزلة البطانة الّتى تلى من الثّياب بطونهم وتتّصل مباشرةً بجلودهم يوقفونهم على أسرارهم ويطلعونهم على خفاياهم ويكشفون لهم عن عوراتهم . والبطانة من الثّياب بمنزلة الشّعار منها لأنّ النّوع الأوّل يتّصل بالبطن مباشرةً ولأنّ النّوع الثّانى يلامس شعر الجسد مباشرة . وإذا كانت البطانة من الثّياب بعكس الظّهارة من الثّياب فأوّلهما باطن وآخرهما ظاهر فإنّ الشّعار من الثّياب بعكس الدّثار منها فأوّلهما يلامس الشّعر وآخرهما بمنزلة الثّوب الّذى يُتَدَثَّر ويُتَلَفَّف به . وتستعار البطانة لمن تَختصُّه بالاطّلاع على باطن أمرك . قال عزّ وجلّ : لا تتخذوا بطانةً من دونكم ، أى مختصاً بكم يستبطن أموركم . وذلك استعارةٌ من بَطانة الثّوب بدلالة قولهم : لبست فلاناً إذا اختصصتَه وفلانٌ شِعارى ودثارى [2]

وتبيّن الآية الكريمةُ علّة النّهى عن اتّخاذ المؤمنين بطانةً لهم من غير أهل دينهم مَن النّصارى واليهود والمشركين والمنافقين . إنّهم لا يألون المؤمنين خبالاً بل يستنفدون كلّ جهدهم وينفقون كل طاقتهم فيما يورث المؤمنين الخبال وينزل بهم الفساد ويلحق بهم الأذى ويُحلُّ بهم البلاء . إنّ غير المؤمنين ما كانوا ليصلوا إلى ما انتهوا إليه لولا أنّ المؤمنين مكّنوهم من

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٤٠ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٥٣ .
(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «بطن» ٥١ .

مقتلهم . وإنّ هؤلاء الكافرين بمختِلف أنواعهم يحبّون عنت المسلمين والمشقّة عليهم والشرّ لهم وإلحاق أشدّ الضّرّ بهم . ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشقّ عليهم [(١)] ويتمنّون لكم العنت والشّرّ فى دينكم وما يسوءكم ولا يسرّكم [(٢)] .

وتعطى الآية الكريمة المؤمنين أوّل دليل وأوضح برهان وأقرب مؤشّر لا يستطيع أعداء الإسلام اخفاءه ويستطيع المؤمنون إدراكه لأنّه يزلّ على ألسنة القوم رغماً عنهم وفى غفلةٍ منهم معبّراً أصدق تعبير عن البغضاء الّتى تمتلىء بها للمؤمنين نفوسهم والعداوة الّتى تمتلىء بها صدورهم والشّحناء الّتى تمتلىء بها قلوبهم . أمّا ذلك الدّليل والبرهان والمؤشّر فهو الفلتات على ألسنتهم الّتى تعبّر أبلغ تعبير عمّا تخفيه نفوسهم وتكنّه صدورهم ، ولحنُ القول الّذى يميلون به عن وجهه وسَنَنه وتلتوى به ألسنتهم عيباً على المسلمين وطعناً فى دين الإسلام . ويلحق بفلتات الألسنة ولحن القول البغضاء الّتى تتجاوز أفواههم إلى ملامحهم المتقلّبة المنفعلة المكتئبة المصفرّة فى حال مسّ الله تعالى المؤمنين بأقلّ رحمةٍ أو نعمة .

وإنّ ما تزلّ به ألسنة القوم من سوء القول الّذى يدلّ على بغضهم للإسلام والمسلمين قليلٌ بالقياس للبغض الكبير الّذى تخفيه صدورهم وتكنّه نفوسهم وتخفيه ضمائرهم .

وتقرّر الآية الكريمة فى تذييلها : ﴿**قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾ فيما يشبه التّنبيه الشّديد والتّحذير الأكيد بأنّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن لكم أيها المؤمنون الآيات البيّنات كى تأخذوا حذركم وكى تكونوا على

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٩٨/١ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤٠/٤ .

بيّنةٍ من أمركم إن كنتم تعقلون ، تنتفعون بنعمة العقل الّتى مننت بها عليكم وميزّتكم بها وحثثتكم على حسن استخدامها استخداماً صحيحاً بعد أن هديتكم سواء السّبيل وقدمت لكم أوضح برهانٍ وأقرب دليل .

وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى تحثّ المؤمنين على اتّخاذ المؤمنين بطانتهم وتحذّرهم من اتّخاذ غير المؤمنين بطانةً وأولياء . إنّ النّهى عن اتّخاذ المؤمنين الكافرين بطانةً وأولياء نهىٌ حتمىٌّ ونهائىّ . وإنّ من أوضح الآيات الكريمات دلالةً وأكثرها تفصيلاً لعلاقة المؤمنين بغير المؤمنين قوله عزّ من قائل فى سورة الممتحنة [1] : ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة . والله قدير والله غفورٌ رحيم . لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم . إنّ الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم . ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون﴾ .

روى البخارىّ والنّسائىّ وغيرهما أنّ رسول الله ﷺ قال : ما بعث الله من نبىٍ ولا استخلف من خليفةٍ إلّا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالسّوء وتحضّه عليه . والمعصوم من عصمه الله [2] وقيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّ ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً فلو اتّخذته كاتباً فقال : قد اتّخذت اذاً بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليلٌ على أنّ أهل الذّمّة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة الّتى فيها استطالةٌ على المسلمين واطلاعٌ على دواخل أمورهم الّتى يُخْشَى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿لا يألونكم خبالاً ودّوا ماعنتّم﴾ [3] .

---

(١) الآيات ٧ ـ ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٩٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٩٨ .

والآية الكريمة التالية تواصل التّحذير وتضرب للمؤمنين مثلاً من أنفسهم كى يقارنوا بينهم وبين غير المؤمنين فإلى .

الآيــــة رقم (١١٩)

قال تعالى : ﴿ها أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا عَضّوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم . إنّ الله عليمٌ بذات الصّدور﴾ .

تنبّه الآية الكريمة بالقول : ﴿**ها أنتم**﴾ وتخاطبهم بالقول : «أولاء» والمعنى يا أولاء ويا أيّها المؤمنون أنتم تحبّون القوم بسبب القرابة والصّداقة والجوار والحلف ، فمن المنافقين أقرباؤكم وأصدقاؤكم ، ومن اليهود جيرانكم وحلفاؤكم ، والمعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب وأنّ الخطاب والتّنبيه والتّحذير للمسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان وليس مقصوراً على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . إنّهم يحبّون القوم بينما القوم لا يحبّونهم وحينما لا يكون ثمّة حبّ من القوم للمسلمين يكون ثمّة كرهٌ أو بغضٌ أو عداوة وعلى أقلّ تقدير يكون ثمّة برودٌ فى المشاعر وفتورٌ فى العلاقات . إنّ عليكم أيّها المؤمنون أن تحيا قلوبكم وأن تعمل عقولكم وأن توجّهوا حبّكم لمن يستحقّه ولمن هو أهلٌ له وأن تتفكّروا وتتدبّروا .

ولا تنسوا أيّها المؤمنون أنّكم تؤمنون بالكتب السّماوية كلّها ومنها التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام ، وإنّ هذا الإيمان بالكتب السّماوية كلّها أحد بواعث حبّكم لأهل الكتاب ولكن لا تنسوا أيضاً أنّ القوم لا يؤمنون بالكتاب كلّه . إنّ اليهود والنّصارى لا يؤمنون بالقرآن الكريم ولا بنبىّ الإسلام محمّد بن عبدالله ﷺ ولا بدين الإسلام الّذى أكملته ورضيته لكم وأَتْممتُ به نعمتى عليكم . إنّ كفر القوم بالقرآن الكريم أحد أسباب عدم الحبّ لكم فى

مقابل كون إيمانكم بكلّ الكتب السّماوية أحد أسباب حبّكم لهم . إنّكم مؤمنون بالكتب السّماوية كلّها وهم كافرون ببعض هذه الكتب ، وهم مجمعون على الكفر بالقرآن الكريم ، فمنكم إيمان ومن القوم كفر . والإيمان غير الكفر وينبغى أن يكون لكلٍّ منهما أثره ودوره فاضبطوا أيّها المؤمنون عواطفكم وحكّموا عقولكم وافعلوا ما أمرتكم به وانتهوا عمّا نهيتكم عنه واعملوا فى ضوء ما أوحِى به إلى حبيبى من قرآنٍ كريمٍ وسنّةٍ مطهّرة . وإذا كان أهل الكتاب يكفرون ببعض الكتاب فإنّ المنافقين والمشركين كافرون بكلّ الكتاب بما فى ذلك القرآن الكريم . فعليكم أيّها المؤمنون أن تعاملوا القوم وفق هذا العلم وهذه الحقائق الّتى أرشدكم إليها وأبصّركم بها .

وإنّ من هؤلاء الّذين تحبّونهم ولا يحبّونكم منافقين ، من العرب ومن أهل الكتاب . إذا لَقُوكم فى المناسبات والمجالس والطّرقات قالوا آمنّا مثلكم بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً ، وإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو إلى إخوانهم من أهل النّفاق والكفر ، أو إلى شياطينهم ورؤسائهم فى الضّلال والشّرك والكفر ، صرَّحوا بكفرهم وطمأنوا إخوانهم الضّالّين المضلّين المنافقين الكافرين بأنّهم معهم على الكفر والضّلال وأنّهم بادّعائهم الإيمان يستهزئون بالمؤمنين ويستغفلونهم من أجل أن يأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، ومن أجل بعض المكاسب الخسيسة وبعض المصالح الدنيئة وبعض المنافع الحقيرة ، ووراء اعتراف القوم بالنّفاق والكفر هم لا يملكون إخفاء ندمهم لاتحّاد كلمة المسلمين والتّفاف شملهم والتئام جمعهم ورسوخ المحبّة والرّحمة فى قلوب بعضهم لبعضهم الآخر . وربّما بلغ فرط النّدم بهم أن تحوّل غيظاً على المؤمنين واستحال حقداً امتلأت به صدورهم واكتظّت به قلوبهم وشرقت به نفوسهم فحاولوا التنفيس من كربه ، والتّقليل من شدّته وحدّته ، والحدّ من غَرْبه وغُلْوائه بعضّ الأنامل من الغيظ ، ورءوس الأصابع من الهمّ المكظوم والحقد المكتوم .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك الأعداء الّذين يظهرون فى لباس الأصدقاء ، المبغضين الّذين يبدون فى هيئة المحبين ، وإنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّدية تبعٌ له عليه الصّلاة والسّلام فى هذا الأمر ، أن يقول لهم فى هيئة الدّعاء عليهم : «موتوا بغيظكم» وإنّما يموت القوم ببقاء أسباب غيظهم باتّحاد كلمة المسلمين ولمّ شعثهم ورأب صدعهم واجتماع صفّهم . ويصحّ أن يكون موت أعداء الإسلام على الفور لعجز أرواحهم عن احتمال الغيظ لقوّة أسبابه فتغادر أجسادهم حالاً ، ويصحّ أن يكون موتهم على التّراخى لتراخى أسبابه وبقائها متمثّلة فى قيام شجرة الإسلام على ساقها عزيزة الجانب مسموعة الكلمة فتموت أعضاء الأعداء بسبب الغيظ المتنامى والحقد المكظوم عضواً فعضواً وجزءاً فجزءاً حتّى يلحقوا بإخوانهم المنافقين أعداء الإسلام فى جهنّم وبئس المهاد .

إنّ الّذى يرشد المؤمنين إلى هذه الحقائق والّذى يكشف لهم تلك الأسرار والّذى يزيل تلك الأستار هو الله سبحانه وتعالى العليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بذات الصّدور ، وحقائق القلوب ، وخفايا النّفوس ، ربّ العزّة ذو الجلال والإكرام الّذى يعلم ما توسوس به كلّ نفس والّذى لا يخفى عليه ـ سبحانه ـ شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث النبويّة الشّريفة الّتى تبصّر المؤمنين بأعدائهم وبخاصّةٍ المنافقون الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . ومن الآيات الكريمات ذوات العلاقة بالآية الكريمة هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن المنافقين فى سورة البقرة [1] : ﴿**وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون**﴾ وهذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن منافقى أهل الكتاب فى سورة البقرة [2] أيضا :

(١) الآية ١٤ .
(٢) الآية ٧٦ .

﴿وإذا لَقُوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم أفلا تعقلونَ﴾ إنّ المنافقين المغفّلين يظنّون أنّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم كثيراً مما يعملون ، وإنّ آية سورة آل عمران تتجاوز مرحلة التّنبيه إلى علم الله تعالى المحيط بما يُسِرُّ المنافقون ويعلنون إلى تحذير المؤمنين من خداعهم وشرورهم . وكذلك تفعل الآية الكريمة التّالية الأخيرة فى هذا القسم فإلى

الآيـــة رقـــم (١٢٠)

قال تعالى : **﴿إنّ تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإنّ تصبكم سيّئةٌ يفرحوا بها وإنّ تصبروا وتتّقوا لا يضُرّكم كيدهم شيئاً . إنّ الله بما يعملون محيط﴾** .

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ المنافقين تفضحهم فلتات ألسنتهم الّتى تكشف ما تخفيه صدورهم وأنّهم يظهرون للمؤمنين الإيمان ويبطنون الكفر الّذى يصّرحون به لخاصّتهم والمؤتمنين على أسرارهم . وإنّ هذه الآية الكريمة تضيف دليلاً جديداً يلحق بفلتات الألسنة فى الدّلالة على ما تخفيه صدور القوم ، وهذا الدّليل هو ما تنطق به ملامحهم وبشرتهم من سوء بسبب الحسنة الّتى تصيب المؤمنين والخير الّذى يلحق بهم ، أو من بهجة بسبب السّيّئة الّتى تصيب المؤمنين والشرّ الّذى يحيق بهم . وقد عبّرت الآية الكريمة أبلغ تعبير عن الموقفين النفسيّين المتناقضين للقوم وأرشدت إلى العلاج النّاجع والبلسم الشّافى .

إنّ الآية الكريمة تختار السّوء الّذى يصيب القوم لأدنى حسنةٍ تمسّ المسلمين وأقلّ خيرٍ يصل إليهم . إنّ السّوء وهو منتهى ما يسوء القوم ، هو الّذى يصيب القوم وليس الحزن مثلاً أو الأسى وما أشبههما ممّا يقلّ عن مستوى السّوء عمقاً وبعداً . ولماذا يصيب السّوء الّذى تلك صفته أولئك

المنافقين الكافرين ؟ لمجرّد مسّ أىّ حسنةٍ من نصر أو اتحاد كلمة أو دخول الناس في دين الله تعالى أفواجا وما إلى ذلك لمجرد مسّ أى حسنة للمسلمين مسًّا رفيقاً ولمس أدنى خيرٍ للمؤمنين لمسّاً رقيقاً . إنّ مجرّد المسّ يسوء القوم فكيف لو تمكّن الخير وتغلغلت الحسنة ؟ لماتوا بغيظهم .

وانظر فى المقابل إلى ما يحلّ بالقوم لو أنّ سيّئة أصابتهم وتمكنت منهم وحلّت بهم وأَصْمَتْهُمْ . إنّه الفرح الّذى يهجم على القوم حينما يصيب المسلمين ولا يخطئهم ابتلاءٌ من ربّهم من جدب أو نازلة أو هزيمةٍ ـ لا سمح الله ـ كهزيمة أحد .

إنّ القوم يسوؤهم مجرّد مسّ الحسنة للمسلمين وإنّهم يفرحهم إصابة السّيئة مقتل المسلمين . وإنّ القوم متطرّفون فى بغض أىّ خير للمسلمين وفى الفرح لأىّ شرّ يصيب المسلمين . وكى يتبيّن بوضوح بغى القوم على المسلمين وقلّة إنصافهم وعدم عدلهم نودّ أن نتبيّن بعض الألفاظ المستعملة فى الآية الكريمة وما يقابلها . إنّ جملة «تسؤهم» تقابلها جملة : وتسرّهم . والآية الكريمة تتجاوز مرحلة السّرور إلى مرتبة الفرح الّتى يرتبط بها طرب الأعضاء وتعبيرها الحركىّ عن ذلك . أمّا السّرور فمنتهى حدّه انفراج الأسارير واستبشار الملامح . إنّ الآية الكريمة لا يجىء فيها القول : وإن تصبكم سّيئة تسرّهم . لا بل إنّ المقارنة ، لو كان ثمّة عدلٌ من القوم وإنصاف ، تقتضى أن يجىء فى الآية الكريمة القول : وإن تمسسكم سيّئة ، لأنّ لفظة سيئة تقابل لفظة حسنة فى الجزئيّة الكريمة السّابقة ، ولأنّ جملة تصيب لا تقابل ولا تجانس جملة تمسّ .

إنّ فرط عداوة المنافقين للمؤمنين جعلت موازينهم مضطربة ومقاييسهم خاطئة وحملهم بغضهم للمؤمنين على ألّا يعدلوا .

وما هو الدّواء النّاجع الّذى تصفه الآية الكريمة للمؤمنين المتّقين

والبلسم الشّافى . الصّبر والتّقوى : ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً﴾ والمراد بالصّبر هنا الصّبر على الضّرّاء . والمراد بالتّقوى مراقبة الله تعالى فى السّرّ والعلن وابتغاء مرضاته جلّ وعلا وفعل الأوامر واجتناب النّواهى ، ومن ذلك الحبّ فى الله والبغض فى الله وطاعة أمر الله تعالى فى استعمال هذا الدّواء وتنفيذ ذلك العلاج الصّبر والتّقوى . إنّ من يصبرُ ويتقى الله سبحانه وتعالى يكون الله تعالى معه بالتأييد والنّصر وصرف البلاء وطرد الكيد وقهر العدّو والفوز بالنّعمة من الله تعالى والفضل .

وإنّ من السّيئات الّتى أصابت بإذن الله تعالى المسلمين ولم تخطئهم والّتى فرح بها أعداء الله تعالى والمسلمين هزيمة أحد ، فعلى المسلمين أن يصبروا على تلك المصيبة وأنّ يتّقوا الله تعالى فى السّرّ والعلن ، القادر وحده على جعل السّيّئة حسنة وتحويل الهزيمة نصراً مؤزّراً .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿إنّ الله بما يعملون محيط﴾ فلا يخفى على الله تعالى شىءٌ يقوم به المنافقون والكافرون وسواهم ، كما لا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وبما أنّ من أكبر المصائب الّتى حلّت بالمسلمين وجعلت أعداء الإسلام يخفّون فرحاً ويطيرون طرباً هزيمة أحد فقد تحدّثت سورة آل عمران فى أكثر الشقّ الآخر الباقى من السّورة الكريمة عن هذا الدّرس العظيم المرّ المذاق الحلو العاقبة لأنّه لم يكد يتكرّر بعد ذلك . إنّ هذا الدّرس العظيم درس أحد تمثّل فى الغزوة الّتى ابتلى الله سبحانه وتعالى المؤمنين فيها بلاءً عظيماً ومحّصهم تمحيصاً والّتى تحمل اسم هذا الجبل فى شمال المدينة المنّورة وبالقرب منها .

***

(١٣)
غـــزوة أحـــد
الآيات (١٢١ ـ ١٨٠)

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ

تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ

أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ

أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ

هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ

﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا

ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا

مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ

مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ

﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾
۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ
وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ
إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ
يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا
قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن
بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾
وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ
فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ
الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ

بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ
بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ
فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ
رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ
شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ
ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ
وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ

عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

***

غــزوة أحـــد

تحدّثت سورة آل عمران المدنيّة فى ستّين آية عن غزوة أحد الّتى كانت يوم السّبت الخامس عشر من شهر شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرة على رأس أحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة [1] والّتى كانت بين المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ وكفّار قريش بقيادة أبى سفيان . وبسبب مخالفة الرّماة أمر النّبىّ ﷺ بألا يغادروا الجبل بحالٍ من الأحوال وألّا يكشفوا ظهر جيش المسلمين بترك الجبـــل تحول النّصر أوّل المعركة بإذن الله تعالى إلى هزيمة آخر المعركة بإذن الله تعالى وفقد غنيمة وقتل سبعين ، أربعة من المهاجرين وستّة وستّين من الأنصـــار[2] وما أكثر دروس غزوة أحد وما أكثر العِبر مـن هذه الدروس :

١ - يبلو الله سبحانه وتعالى عباده بالخير والشّرّ فتنة ، فعليهم بالشّكر وبالصّبر ، والمعروف أنّ الإيمان شطران ، شطر شكر وشطرٌ صبر ، والمؤمن الشّاكر والصّابر مأجور . ولمّا كان ما حصل للمؤمنين فى غزوة أحد ابتلاءً من الله تعالى وامتحاناً فقد كان حديث الآيات الكريمات عن غزوة أحد منذ البداية مقترناً بفضل الله تعالى ونعمته على المؤمنين بنصره جلّ وعلا لهم وهم أذلّة فى بدر ومدّهم بالملائكة الّذين قاتلوا فى صفوف المسلمين ، وقد ارتفع عددهم من ألفٍ كما نصّت على ذلك سورة الأنفال ، إلى ثلاثة آلاف فخمسة آلاف . ولمّا كان المسلمون إثر الهزيمة الأليمة بمثابة المعدن الّذى يوقد عليه فى النّار ابتغاء حليةٍ أو

(١) تفسير ابن عطيّة ٣/٢٩٦ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٨٨ .

متاع فما أشدّ لينه وما أقلّ حاجته لأهون الطّرق وأقلّ الضّرب كى يتشكّل ويتلوّن ، ومن هنا كانت التّوجهات القرآنية كثيرةً كثرةً مفرطة ، بل إنّ منها ما له علاقةٌ بالرّبا والنهي عن أكله أضعافاً مضاعفة لرباط الحرب فى حقّ المؤمنين الّذين خاضوا لتوّهم حرباً ضروساً وفى حقّ الرّبا وهو الذّنب الوحيد الّذى أعلن الله تعالى الحرب على مرتكبه . يضاف إلى ذلك أنّ الإسلام كلّ لا يتجزّأ ، وإنّ فى النّهى عن أكل الرّبا تنبيهاً على حسن استعداد المسلمين لتلقّى الدّروس القرآنية النّافعة ، ما له علاقة منها بالحرب وما ليس له علاقةٌ بها .

٢ ـ على الرّغم ممّا أصاب المسلمين فى أحد وما أصاب المصطفى ﷺ من جراحٍ فى وجنته وجبهته وشفته السّفلى وكسر رَباعِيَته اليُمْنى السُّفلى [١] واستشهاد عمّه حمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه وقد وجده عليه الصّلاة والسّلام ببطن الوادى قد بُقِر بطنه عن كبده ومُثِّل به فَجُدِع أنفُه وأذناه [٢] فقال عليه الصّلاة والسّلام : لن أصاب بمثلك أبداً . ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إلىّ من هذا . وقال : لئن أظهرنِى الله على قريش فى موطنٍ من المواطن لأمثّلنّ بثلاثين رجلاً منهم [٣] على الرّغم ممّا أصاب المسلمين والمصطفى ﷺ فإنّ ربّ العزّة ينزل فى سورة النّحل [٤] قوله عزّ من قائل : **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين . واصبر وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيقٍ ممّا يمكرون﴾** فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن الـمُثْلة [٥] بل إنّ ربّ العزّة يخاطب حبيبه ﷺ فى شأن كفّار مكّة فى سورة آل

---

(١) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٨٤/٣ ، ٨٥ .
(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠١/٣ .
(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠١/٣ .
(٤) الآية ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٥) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠٢/٣ .

عمران[1] بالقول : **﴿ليس لك من الأمر شيءُ أو يتوب عليهم أو يعذّبَهم فإنّهم ظالمون﴾** ولا يقف الأمر عند القول : ليس لك يا محمّد من الأمر شيء إنّما الأمر أمرى وحدى لا شريك لى ، إنّما يتجاوزه إلى تقديم التّوبة فى حقّ الكافرين الظّالمين على العذاب ، ولا يملك المتأمّل لهذه الآية الكريمة إلاّ أن يتلو فى خشوع قوله عزّ من قائل[2] : **﴿لا يُسْأل عمّا يَفْعَل وهم يُسْألون﴾** وإنّ تحويل هذه الآيات الكريمات المصطفى ﷺ من الموقف إلى نقيضه من الأدلّة التى لا يأتى عليها الحصر بأنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين .

٣ - على الرّغم ممّا أصاب المسلمين فى أحد وما يصيبهم من ابتلاء إلى يوم الدّين فإنّهم عند الله تعالى هم الأَعْلون مكاناً ومكانةً فعلى المسلمين فى كلّ زمانٍ ألاّ يهنوا وألاّ يحزنوا وأن يكونوا على يقينٍ بأنّ العاقبة للمتّقين وأنّ الله تعالى دائماً مع المؤمنين بالنّصر والتّأييد . والملاحظ أنّ المسلمين قد خاضوا بعد ذلك آلاف المعارك ولم يكد يتكرّر درس أحد الّذى حذق المؤمنون أبعاده . وإنّما تكرّر هذا الدرس حينما كاد الزّحف الإسلامىّ يصل إلى أقصى مداه وذلك فى معركة تُور أو بلاط الشّهداء فى بواتيه بقرب نهر اللّوار فى فرنسا بقيادة القائد المسلم المظفّر عبدالرّحمن بن عبدالله الغافقىّ الّذى استشهد فى تلك المعركة رحمه الله تعالى هو وسائر الشّهداء السعداء رحمة واسعة[3] .

٤ - إنّما يداول الله تعالى الأيّام بين النّاس ليعلم جلّ وعلا علم ظهور الّذين آمنوا ويتّخذ من المجاهدين شهداء سعداء ، ويميز الخبيث من الطّيّب ، وقد تبيّن أنّ المنافقين دركات ، وأنّ المؤمنين درجات ، وقد

---

(١) الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

(٣) انظر مثلا الاعلام للزّركلى عبدالرّحمن الغافقى ت ١١٤هـ ٣/٣١٢ .

اصطفى الله سبحانه وتعالى بعض المؤمنين المجاهدين بالشّهادة . وكان فى السّورة الكريمة ثناءٌ عاطرٌ من الله تعالى على الشّهداء السّعداء بعامّة ، شهداء أحد بخاصّة ، وعلى المؤمنين الّذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح بمطاردة أبى سفيان وجيشه الّذى فكّر وقتاً من الأوقات فى الكرّة على المدينة المنوّرة واستئصال البقيّة الباقية من المسلمين والقضاء على الإسلام . وكان فى السّورة الكريمة كشفٌ للمنافقين وفضحٌ لهم وتبيينٌ لأقوالهم وأفعالهم السّيّئة فى حقّ الإسلام والمسلمين ، وفى المقابل هنالك تسليةٌ وتسريةٌ للمصطفى ﷺ وللمؤمنين . إنّ للمسلمين فى كلّ زمانٍ ومكان أسوةً حسنةً فى المصطفى ﷺ وفى المؤمنين .

٥ ـ من دروس غزوة أحد العظيمة وجوب طاعة القيادة المؤمنة الصّادقة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى . إنّ المسلمين حينما أطاعوا المصطفى ﷺ ولم يتركوا جبل الرّماة كان النّصر حليفهم وحينما عصوا المصطفى ﷺ تحوّل بإذن الله تعالى النّصر إلى هزيمة .

٦ ـ فى الآيات الكريمات الكثير من نعوت المصطفى ﷺ ومن أهمّها امتلاء قلبه ﷺ بالرّحمة للمؤمنين فهو يعفو عنهم ويستغفر الله تعالى لهم ويشاورهم فى الأمر . وإنّ درس الشّورى من أهمّ دروس غزوة أحد . فمع أنّ المصطفى ﷺ موحىً إليه من ربّ العالمين ورأى رؤيا قصّها على أصحابه وأوّلها لهم ، وكان رأيه البقاء فى المدينة والدّفاع عنها فإنه عليه الصّلاة والسّلام طبّق مبدأ الشّورى ونزل عن رأيه إلى رأى الجماعة وحوّل الرّأى إلى عزيمةٍ متوكلاً على الله تعالى . فبعد صلاة الجمعة دخل عليه الصّلاة والسّلام منزله ولبس لأمته وخرج على قومه الّذين غيّروا موقفهم واتفقوا على النّزول على رأيه ﷺ ولكنّه عليه الصلاة والسّلام ما غيّر الرّأى

الّذى تمخّضت عنه الشّورى وقال عليه الصّلاة والسّلام قولته المشهورة : «لا ينبغى لنبىّ أن يلبس لأمته فيضعها حتّى يقاتل»[1] .

وهكذا يلقى بطل الأبطال ﷺ وسيّد الرجال فى العزم المتوكّل على الله تعالى درساً على الرّجال الأبطال المغاوير الخليقين بقيادة الجيوش .

٧ - إذا كان أكثر الآيات الكريمات تتحدث عن المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين بذلوا أرواحهم رخيصةً فى سبيل الله تعالى وكان منهم من نال مرتبة الشّهادة وقضى نحبه ومنهم من ينتظر فإن آخر الآيات الكريمات تحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى ، وبذلك تكون السّورة الكريمة قد تحدّثت عن الدّعامة الثّانية للجهاد وهى بذل المال وإنفاقه فى سبيل الله تعالى . وإنّما كان الحديث عن المال فى الآيات الكريمات محدوداً لأنّ الّذين تتحّدث عنهم الآيات الكريمات قد بذلوا فعلاً ما هو أكثر من المال ألا وهى الأرواح الّتى بذلوها رخيصةً فى سبيل الله تعالى فقد عرفنا أنّ سبعين منهم قد استشهدوا فى سبيل الله هذا عدا الجراح الّتى عضّتهم فى معركة أحد .

ما أكثر الدّروس المستفادة من هذه الآيات الكريمات السّتّين الّتى تتحدّث عن غزوة أحد وعن الشّهداء السّعداء وعن المجاهدين فى سبيل الله تعالى . والآن مع أولى الآيات الكريمات فإلى

الآيــة رقــم (١٢١)

قال تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال . والله سميعٌ عليم﴾ .

(١) الكامل فى التّاريخ لابن الاثير ٢/١٥٠ .

هذه الآية الكريمة أولى الآيات الكريمات السّتّين من سورة آل عمران الّتى تتحدّث عن غزوة أحد [١] وتبدأ بخطاب النبّى ﷺ بالقول : «وإذ غدوت» والمعنى : واذكر إذ غدوْت [٢] والحقيقة أنّا بشأن هذه الآية الكريمة بحاجةٍ إلى أن نقف قليلا عند بعض الألفاظ الكاشفة عن معانى الآية الكريمة ومراميها. وأوّل ما نوّد الوقوف عنده القول : «وإذ غَدَوْتَ» من الغُدْوة بمعنى البكرة وما بين الفجر وطلوع الشّمس وبمعنى أوّل النّهار . والمعروف أنّ الاستعداد للقتال ومباشرته إنّما يكونان عادةً فى ذلك الوقت المبكّر من النّهار ، فبهذا جرى هديه عليه الصّلاة والسّلام حينما يقاتل الأعداء أوّل النّهار وهذا هو معنى القول : «وإذ غدوت من أهلك» والمعنى واذكر إذ غدوت من أهلك وتركتهم فى ذلك الوقت المبكّر من النّهار وفارقتهم .

وهذا المعنى الّذى نفهمه من القول : «وإذ غدوت من أهلك» نحن بحاجةٍ إلى أن ننظر إليه فى ضوء أحداث القصّة وسير حلقات الغزوة محاولين التّوفيق بين الرّوايات بقصد الإفضاء إلى هذا الغدوّ الّذى يراد به صبيحة يوم السّبت الخامس عشر من شهر شوّال سنة ثلاث من هجرة المصطفى ﷺ [٣] .

المعروف أنّ المشركين وصلوا إلى المدينة المنّورة ونزلوا عند جبل أحد يوم الأربعاء الثّانى عشر من شهر شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرة على رأس أحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة [٤] وأقاموا هنالك ذلك اليوم ويوم الخميس ويوم الجمعة حتّى راح رسول الله ﷺ إليهم يوم الجمعة بعدما صلّى بأصحابه الجمعة فأصبح بالشّعب من أحد يوم السّبت للنصف من شوّال [٥] وكان عليه

---

(١) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٢/٣ .
(٢) تفسير ابن عطيّة ٢٩٦/٣ .
(٣) تفسير ابن عطيّة ٢٩٦/٣ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠٦/٣ .
(٤) تفسير ابن عطيّة ٢٩٦/٣ .
(٥) تفسير الطّبرىّ ٤٦/٤ .

الصّلاة والسّلام قد جمع صبيحة يوم الجمعة وقبل الصّلاة المسلمين واستشارهم عارضاً عليهم رأيه بأن يمكث عليه الصّلاة والسّلام والمسلمون بالمدينة حتّى يملّ المشركون ويعودوا أدراجهم خائبين. وإنّ دخلوا المدينة الحصينة سهل اصطياد المشركين والقضاء عليهم . وكان رأى الأكثريّة من المسلمين الخروج إلى المشركين ومناجزتهم فنزل المصطفى ﷺ على رأى الأكثريّة المخالفة لرأيه عليه الصّلاة والسّلام . وصلّى بالمسلمين الجمعة ودخل منزله ولبس لأمته وخرج على المسلمين الّذين شعروا أنّهم أرغموا المصطفى ﷺ على الخروج للقتال فأعلنوا عن تنازلهم عن رأيهم فى الخروج للقتال إلى رأى المصطفى ﷺ بالبقاء فى المدينة وكان جواب المصطفى ﷺ بطل الأبطال : ما ينبغى لنبىٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يقاتل [1] واللّأمة الدّرع ، وقد سمىّ السّلاح كلّه لأمة . ثمّ خرج المصطفى ﷺ بالمسلمين رواحاً أى عشيّاً ، واتّجه إلى مكان المعركة حيث جبل أحد متفادياً المرور بالمشركين فى ذلك الوقت لأنّ من هديه عليه الصّلاة والسّلام ألا يقاتل فى ذلك الوقت . وواصل عليه الصّلاة والسّلام سيره حتّى قرب من معسكر المشركين وهنالك بات عليه الصّلاة والسّلام ليلته . بقى علينا أن نعرف أنّ المسافة بين المسجد النبوىّ الشّريف وجبل أحد ليست بالكبيرة ، وأنّ المصطفى ﷺ مرّ بحرّة بنى حارثة [2] والمعروف أنّ الحرّة ، وهى أرضٌ بركانية سوداء نخرة ، يصعب على أىّ جيشٍ المرور عليها واختراقها ، ومن هنا كانت الحرار والحدائق من الظواهر الطّبيعية الّتى تتحصّن بها المدينة المنوّرة من جهاتها الثّلاث الشّرقيّة والغربيّة والجنوبيّة ، ومن هنا كانت الجهة الشّمالية للمدينة المنوّرة هى الجهة الّتى تحتاج لتحصين وهى الجهة الّتى

---

(١) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ٦٨/٣ وتفسير الطّبرىّ ٤٦/٤ وتفسير ابن عطيّة ٢٩٧/٣ وتفسير ابن كثير ٤٠٠/١ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٦٩/٣ .

يأتى منها الأعداء ويعسكرون حيالها . وبقى علينا أنّ نعرف كذلك أنّ المصطفى ﷺ حينما اتجّه صباحاً إلى أحد فى ألف رجلٍ وكان بالشّوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبدالله بن أبىّ ابن سلول بثلث الناس ، أى بثلاثمائة من النّاس ، وقال أطاعهم وعصانى[1] وهذا معناه أنّ المصطفى ﷺ قضى اللّيل بين المدينة وأحد وأنّه عليه الصّلاة والسّلام حينما غدا إلى جبل أحد فى الصّباح الباكر احتاج لأقلّ الوقت وأقلّ الجهد حتّى انتهى إلى جبل أحدٍ الّذى جعله عليه الصّلاة والسّلام وراء ظهره وعليه خمسون من الرّماة بقيادة عبدالله بن جبير كى يحموا ظهر جيش المسلمين[2] .

ولعلّ ممّا سبق يتّضح أنّ المصطفى ﷺ كان تلك اللّيلة فى أهله فعلاً لأنّه لم يكن بعد قد وصل إلى ميدان المعركة وأنّه عليه الصّلاة والسّلام غدا من أهله باكراً يبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال .

وما معنى «تبوّىء» تثبّت وتعيّن . وما معنى «مقاعد» جمع مقعد وهو مكان القعود . وهذا بمنزلة قولك «مواقف» ولكنّ لفظة القعود أدلّ على الثّبوت ، ولا سيّما أنّ الرّماة إنّما كانوا قعوداً ، وكذلك صفوف المسلمين أوّلاً . والمبارزة والسّرعان[3] يجولون[4] .

والحقيقة أنّ قول ابن عطيّة فى النّصّ السّابق : «وكذلك صفوف المسلمين أوّلاً» يفيد أنّ الصّفوف المتقدمة من جيش المسلمين يقعد أصحابها على غرار قعود الرّماة لأنّ ذلك أمكن لهم من ناحية ولأنّ قعود أصحاب الصّفوف الأوى تحفّزاً للقيام فى اللّحظة الحاسمة ربمّا كان أكثر تفويتاً لفرص

---

(١) انظر السّيرة النّبويّة ٦٨/٣ وتفسير ابن عطيّة ٢٩٧/٣ .
(٢) انظر مثلاً السّيرة النّبويّة ٧٠/٣ .
(٣) السّرعان بتحريك الرّاء وتسكينها وتثليث السّين الأوائل من النّاس ومن الخيل .
(٤) تفسير ابن عطيّة ٣٠١/٣ .

الخصوم فى إصابة رماتهم مقاتلى المسلمين ، من ناحية أخرى . وإذا كان ما قاله ابن عطيّة صحيحاً فى دنيا الواقع فلا شكّ أنّ هذه معلومةٌ قيّمة تدلّ على دقّة ملاحظته رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً .

ولفظة «مقاعد» فى الآية الكريمة تدل على فضل ثباتٍ وتمكّن ، وتدلّ على اتّجاه هؤلاء الثّابتين المتمكّنين من هيئة الوقوف إلى هيئة القعود قصداً وعمداً وكأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأشاوس يقعد لخصمه كلّ مرصد ويتربّص به الدّوائر ويضع فى طريقه العِثار كى ينقضّ عليه فى اللّحظة الحاسمة ليثاً هصوراً ووحشاً كاسراً .

وبعد هذه الجولة مع بعض الألفاظ فى الآية الكريمة نستطيع أن نفهمها على النّحو التّالى : واذكر أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم إذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال وإذ تركت أهل بيتك الطّيّبين الطّاهرين فى الصّباح الباكر تنزّل المسلمين منازلهم فى ميدان المعركة وتمكنّ المؤمنين من مقاعدهم فى ساحة القتال وتكوّن منهم صدر الجيش وجناحيه ورماته وفرسانه ومشاته . ويلاحظ استعمال الآية الكريمة لفظة المؤمنين فى حقّ المقاتلين فى غزوة أحد ، من قضى نحبه منهم ومن ينتظر ، من ثبت فى المعركة ومن فرّ . وتقرّر الآية الكريمة فى التذّييل : ﴿والله سميع عليم﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى سميعٌ لكل ما يقال عليمٌ بكلّ ما يُفْعل وبنيّة كلّ إنسان وسيجزى الله تعالى كلًّا بحسب نيّته وقوله وفعله ، إنّ خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر . وكما بدأت الآية الكريمة بـ « إذ » تبدأ الآية الكريمة التالية فإلى

الآية رقم (١٢٢)

قال تعالى : ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ .

إذ هنا بدل من إذ فى الآية الكريمة السّابقة [١] والهمّ هنا بمعنى الإرادة مع عدم الفعل [٢] والهمّ : ما هممت به ، وكذلك الهمّة . والهمّ الحزن لأنّه كأنّه لشدّته يَهُمّ أى يُذيب ، إذ إنّ الهاء والميم أصلٌ صحيحٌ يدلّ على ذَوْبٍ وجَرَيان ودبيب وما أشبه ذلك ، ثمّ يقاس عليه . منه قول العرب : همّنى الشىء : أذابنى . وانهّم الشّحم : ذاب[٣] .

والطائفتان : بنوسلمة (بكسر اللّام) بن جشم بن الخزرج وبنو حارثة بن النّبيت من الأوس وهما الجناحان [٤] قال البخارىّ : حدّثنا علىّ بن عبدالله حدّثنا سفيان قال : قال عمر سمعت جابر بن عبدالله يقول : فينا نزلت : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا . الآية . قال : نحن الطّائفتان بنو حارثة وبنو سَلِمة . وما نحبّ ـ وقال سفيان مرّة ـ وما يسرّنى أنّها لم تنزل لقوله تعالى : والله وليّهما . وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وكذا قال غير واحدٍ من السّلف إنّهم بنو حارثة وبنوسلِمة [٥] عن السّدّىّ : قال : خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا . فلمّا رجع عبدالله بن أبىّ ابن سلول فى ثلاثمائة فتبعهم أبوجابر السّلمىّ يدعوهم فلمّا غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا وقال : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ، وهم بنوسَلِمة وبنو حارثة همّوا بالرّجوع حين رجع عبدالله بن أبىّ فعصمهم الله وبقى رسول الله ﷺ فى سبعمائة [٦] وجاء فى السّيرة النّبويّة لابن هشام [٧] : «قال ابن اسحاق : حتّى إذا كانوا بالشَّوْط بين

(١) تفسير ابن عطيّة ٣٠١/٣ .
(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٣٠١/٣ .
(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس «هم» ١٣/٦ .
(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٢/٣ وتفسير الطّبرىّ ٤٨/٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٠٠/١ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٤ .
(٧) ٦٨/٣ .

المدينة وأحد ، انخزل عنه عبدالله بن أبىّ ابن سلول بثلث النّاس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علامَ نَقْتُل أنفسنا ها هنا أيّها النّاس ! فرجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النّفاق والرَّيْب ، وأتْبعهم عبدالله بن عَمْرو بن حَرام ، أخو بنى سلِمة ، يقول : يا قوم ، أذكّركم الله ألّا تخذلوا قومكم ونبيّكم عندما حضر من عدوّهم ؛ فقالوا : لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنّا لا نرى أنّه يكون قتال . قال : فلمّا استعصَوْا عليه وأبَوْا إلّا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداءَ الله ، فسيُغنى الله عنكم نبيّه» .

أن تفشلا : أن تضعفا وتجبنا عن لقاء عدوّهما [١] قال ابن عبّاس : الفشل الجبن وكان همّهما الّذى همّا به من الفشل الانصراف عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبدالله بن أبىّ ابن سلول بمن معه [٢] .

والله وليّهما : ناصرهما على أعدائهما من الكفّار [٣] والمدافع عنهما ما همّتا به من فشلهما ، وذلك أنّه إنّما كان ذلك منهما عن ضَعف ووهن أصابهما غَيْرَ شكٍّ فى دينهما ، فتولّى دفع ذلك عنهما برحمته وعائدته ، حتى سلمتا من وهونهما وضعفهما ولحقتا بنبيّهما ﷺ [٤] .

وحينما تكون إذْ مبدلة من إذ فى الآية الكريمة السّابقة فذلك معناه أنّ الأحداث وقعت فى وقتٍ واحد ففى الوقت الّذى غدا فيه المصطفى ﷺ من أهله يبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال همّت هاتان الطّائفتان من الأوس والخزرج بالفشل والجبن والضّعف ، بتأثير شيخ المنافقين عبدالله بن أبىّ ابن سلول وقومه من المنافقين . وبهذا يتبيّن ويتأكّد أنّ المراد بالغدوّ بكرة يوم القتال فى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٤ ومفردات الرّاغب الاصفهانىّ «فشل» ٣٨٠ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٤ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٤٨/٤ .
(٤) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٢/٣ .

غزوة أحد وأنّ المصطفى ﷺ قضى ليلته على مشارف المدينة المنوّرة آنذاك ومشارف جبل أحد .

وحينما يكون الهمّ بمعنى الإرادة مع عدم الفعل والاستعداد للفعل مع كبح الموانع من رغبة أو رهبة واستعظامٍ لتخطّى الحواجز وتعدّى الحدود يكون معنى ذلك الصّراع العنيف الّذى كان يعتمل فى نفوس هاتين الطّائفتين من مؤمنى الأوس والخزرج خاصّة وأنّهما كانتا جناحى جيش المسلمين فى غزوة أحد . لقد كانت هاتان الطّائفتان فى صراعٍ نفسىّ مرير بين الاستجابة للاستعداد النّفسىّ لمجاراة شيخ المنافقين فى الضعـف والجـبن وبين الاستجابة لنداء الواجب والذّود عن بيضة الإسلام تحت راية خير الأنام محمّد بن عبدالله ﷺ وقد جدّ الجدّ وآن للسّيوف أن تسلّ وللرّماح أن تشرع . ولمّا كان استعداد الطّائفتين للفشل ليس وليد النّفاق وقلّة الإيمان فقد تولاّهما الله تعالى بعنايته وكلأهما بعين رعايته وهداهما جلّ وعلا إلى سبيله فثبّت أقدامهما الّتى كادت تزلّ وقلوبهما الّتى كادت تطير .

وكأنّ الآية الكريمة تأخذ بسبب من قوله تعالى [1] : ﴿**والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا ، وإنّ الله لمع المحسنين**﴾ .

والآية الكريمة فى القول : ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ تضيف شرط هذه الولاية السّماوية وتعيّن ثمن هذه الرّعاية الرّبّانيّة ، وهذا الشّرط هو أن يتوكّل المؤمنون على الله سبحانه وتعالى حقّ التّوكّل وأن يستعينوا به جلّ وعلا وحده لا شريك له . ومن البيّن أنّ صفة الإيمان فى هذه الآية الكريمة سبق لها أن جاءت فى الآية الكريمة السّابقة وبقى وراء ذلك شرط التّوكّل الجديد .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

وحينما يجىء فى الآية الكريمة السّابقة القول : «تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال» ويجىء فى هذه الآية الكريمة التّالية القول : ﴿**إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا**﴾ والمعنى منكم أيّها المؤمنون يكون معنى ذلك أنّنا بصدد أسلوب الالتفات من الغياب إلى الخطاب الأقوى درجة .

ولمّا كانت هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن همّ الطّائفتين بالفشل لولا لطف الله تعالى بمثابة التّوطئة للحديث عن نعمة النّصر فى بدر ، وهى بدورها توطئة للحديث عن درسٍ أحد الأليم بسبب فشل المؤمنين وتنازعهم وعصيانهم فإنّا نودّ أن نعقد مقارنةً بين الفشل فى الموضعين لاختلاف النّتيجة فى الموضعين . إنّ هذه الآية الكريمة إذا كانت قد قرّرت أنّ الطّائفتين من المؤمنين همّتا أن تفشلا ولكنّ الله تعالى تداركهما بلطفه فإنّ هذه الآية الكريمة الثّانية والخمسين بعد المائة قد تجاوزت الهمّ بالفشل والإرادة مع عدم الفعل إلى الفشل الفعلىّ ، ومن هنا اختلفت النّتيجة فى المناسبتين . قال تعالى : ﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون . منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم . والله ذو فضلٍ على المؤمنين**﴾ .

وبهذا يتبيّن أنّ الهمّ بالفشل قد تداركه الله تعالى بلطفه لأن الطّائفتين كانتا مؤمنتين حقّاً وقد كاد الضّعف والوهن يتمكّنان منهما بتأثيرٍ خارجيّ هو موقف عبدالله بن أبىّ والمنافقين من أتباعه ولأنّ بقيّة المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يتبوّأون مقاعدهم للقتال امتثالاً لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بطل الأبطال وقائد المسلمين . إنّ الإنقاذ من الهمّ بالفشل لطفٌ من الله تعالى بالطّائفتين وبالمؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . ويتبيّن كذلك أنّ الفشل حينما تجاوز بعد ذلك مرحلة

الهمّ إلى مرحلة الوقوع الفعلىّ تحوّل بإذن الله تعالى النّصر الّذى وعدهم الله تعالى إيّاه والّذى أحبّه المؤمنون هزيمةً أليمة قاسية .

إنّ ما ترتّب على الفشل عدلٌ من الله تعالى وإنّ ما ترتّب على الهمّ بالفشل فضلٌ من الله تعالى . وإنّ هذا الفضل من الله تعالى خير موطّىءٍ للحديث عن الفضل من الله تعالى على المؤمنين الّذى ليس وراءه فضل والّذى هو من الجنس نفسه وميدان القتال ذاته أعنى فضل الله تعالى على المؤمنين بالنّصر فى غزوة بدر يوم الفرقان وهم قلّة وأذلّة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التالية فإلى

الآية رقم (١٢٣)

قال تعالى : ﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون﴾ .

بما أنّ الّلام من «ولقد» واقعة فى جواب قسم مقدّر ، وقد حرف تحقيق فذلك معناه أنّ الأسلوب غير بسيطٍ ولا عادىّ . إنّ الآية الكريمة فى معرض المنّ على المؤمنين وتذكيرهم بفضل الله تعالى العظيم عليهم تقرّر فى خطابها للمؤمنين أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى نصرهم وحده جلّ وعلا ببدرٍ وهم أذلّة بسبب قلّة عددهم وعدّتهم . إنّ يوم بدرٍ يوم الفرقان الّذى فرق الله تعالى فيه بين الحقّ والباطل كان يوم الجمعة الموافق للسّابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة [١] وبدرٌ مكانٌ بين مكّة والمدينة وهو إلى المدينة المنوّرة أقرب إذ يبعد عنها بزهاء مائة وخمسين كيلومترا عُرِف ببئر ماء منسوبة إلى رجلٍ حفرها يسمّى بدراً [٢] وإنّما كان المسلمون بنصّ الآية الكريمة أذلّة

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٠٠ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٠١ .

جمع ذليل كما الأعزّة جمع عزيز والألبّة جمع لبيب[1] بسبب قلّة عددهم وعدّتهم بالقياس إلى عدوّ الله تعالى وعدوّهم ، فقد كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه وكان العدوّ يومئذٍ ما بين التّسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبيض والعدّة الكاملة والخيول المسوّمة والحلي الزّائد[2] .

لقد نصر الله تعالى فى يوم بدرٍ جنده القليلى العدد والعدّة فقتلوا من أعداء الله تعالى سبعين وأسروا سبعين . أما وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين فإنّ عليهم أن يتّقوا الله سبحانه وتعالى حقّ تقاته بفعل الأوامر واجتناب النّواهى لعلّهم يقومون ببعض ما يجب عليهم من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة . وأىّ فضلٍ عظيم وراء فضل الله تعالى على المؤمنين بنصرهم وهم أذلّة على عدوّ الله تعالى فى أولى المعارك بين جند الله تعالى وجند إبليس اللّعين الّتى لا تنتهى إلى يوم الدّين فى يوم بدرٍ فى يوم الفرقان والفصل بين الحقّ والباطل الإيمان والكفر الإسلام والشّرك ؟ الحقيقة أنّه لا فضل وراء هذا الفضل من الله تعالى وإنّ الآيات الكريمات التّاليات تبيّن بعض جوانب هذا الفضل العظيم . وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٢٤ ، ١٢٥)

قال تعالى : **﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين ، بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾** .

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٤٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٠٠ .

الآيتان الكريمتان ذواتا علاقة بالآية الكريمة من سورة الأنفال[1] قال تعالى : ﴿**إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين**﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفٌ أخر مثلهم[2] .

إن المؤمنين يوم بدرٍ حينما استغاثوا ربّهم أجابهم الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء بأنّى ممدّكم بألفٍ من الملائكة متتابعين يردف بعضهم بعضاً ويردفهم غيرهم ، ومن هنا ارتفع الإمداد إلى ثلاثة آلافٍ ثمّ إلى خمسة آلاف ، وإلى هذين النّوعين من الإمداد أشارت الآيتان الكريمتان من سورة آل عمران . عن قتادة : قوله : ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين ، أمدّوا بألفٍ ثمّ صاروا ثلاثة آلاف ثمّ صاروا خمسة آلاف[3] .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى نصر المؤمنين إذ يقول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لهم وقد بشّرهم بوعد الله تعالى أن ينصرهم ألن يكفيكم أيّها المؤمنون أن يمدّكم ربّكم وأنتم مع الأعداء وجهاً لوجه بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين من السماوات العُلَى وبذلك يرتفع عدد الملائكة من ألفٍ كما جاء فى سورة الأنفال إلى ثلاثة آلاف فى هذه الآية الكريمة الأولى .

والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ ذلك يكفى المؤمنين لتحقيق النّصر بإذن الله تعالى وتبيّن أنّ فضل الله تعالى ليس له حدود فها هو ذا عدد الملائكة يرتفع من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف بشروطٍ ثلاثة ، أن يصبر المؤمنون ويصابرو الأعداء ويرابطوا فى سبيل الله تعالى . وأنّ يتّقوا الله تعالى حقّ تقاته

---

(١) الآية ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠١/١ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥١/٤ .

بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . وأن يأتى أعداء الله تعالى على الفور وفى الحال . وأصل الفور شدّة الغليان ويقال ذلك فى النّار نفسها إذا هاجت وفى القِدر وفى الغضب . ويقال فعلت كذا من فورى أى فى غليان الحال وقيل سكون الأمر (١) .

وتوصف الخمسة آلاف من الملائكة بأنّهم مسوّمون ، والسِّيما العلامة ، ومسوّمون مُعْلَمون (٢) عن هشام بن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدرٍ على خيلٍ بلق عليهم عمائم صفر وكان على الزّبير يومئذٍ عمامة صفراء (٣) وعن عبّاد بن حمزة قال : نزلت الملائكة فى سيما الزّبير (٤) .

ونستطيع أن نفهم أنّ هذه البشرى امتدادٌ للبشرى بوعد الله تعالى المؤمنين على لسان المصطفى ﷺ بأنّ إحدى الطّائفتين للمؤمنين العير أو النّفير ، القافلة أو النّصر فى المعركة . وبما أنّ القافلة قد نجـت فبقى الوعد بنصر الله تعالى . وإلى الوعد بالنّصر والإمداد الابتدائىّ بألفٍ من الملائكة لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل وقطع دابر الكافرين المجرمين أشار قوله تعالى فى سورة الأنفال (٥) : **﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطّائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّى ممدكم بألفٍ من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلاّ بُشرَى ولتطمئنّ به قلوبكم وما النّصر إلاّ من عند الله . إنّ الله عزيزٌ حكيم . إذ يغشّيكم النّعاس أمنةً منه وينزّل عليكم من السّماء ماءً ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام . إذ يوحى ربّك**

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «فور» ٣٨٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٥٣/٤ .
(٢) انظر السّيرة النّبويّة لابن هشام ١١٣/٣ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٥٤/٤ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ٥٤/٤ .
(٥) الآيات ٧ ـ ١٣ .

إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان . ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب﴾ عن ابن عبّاس قال : لم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيّام سوى يوم بدرٍ وكانوا يكونون فيما سواه من الأيّام عدداً ومدداً لا يضربون [1] وعن محمّد بن إسحاق قال : حدّثنى عبدالله بن أبى بكر عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما أصيب بصره يقول : لو كنت معكم ببدرٍ الآن ومعى بصرى لأخبرتكم بالشّعب الّذى خرجت منه الملائكة لا أشكّ ولا أتمارى [2] .

ونستطيع أن نفهم كذلك ، لأنّ نصر الله تعالى للمؤمنين فى بدرٍ قد تحقّق ، أنّ المؤمنين صبروا واتّقوا الله تعالى وأنّ المشركين قد جاءوا المؤمنين من فورهم . إنّ كلّ هذه الوعود بالإمداد والبشائر بالنّصر كانت بعد أن نجت العير بقيادة أبى سفيان وبقى النّفير والقتال والنّصر بإذن الله تعالى على الأعداء . وإنّ الآية الكريمة التّالية فيها النّصّ على البشرى بالنّصر فإلى

الآيــة رقــم (١٢٦)

قال تعالى : **﴿وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به . وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم﴾** .

وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة هنا والآية الكريمة العاشرة من سورة الأنفال . قال تعالى : **﴿وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئنّ به قلوبكم وما النّصر إلاّ من عند الله . إن الله عزيزٌ حكيم﴾** والمعنى : وما جعل الله الإمداد إلاّ بشرى . والمعنىٰ بشأن آية سورة آل عمران . وما جعل الله تعالى الإمداد

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٥٠ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٥٠ .

بثلاثة آلافٍ من الملائكة هذه المرّة بل بخمسة آلاف إلاّ بشرى لكم بالتّأييد من الله تعالى لكم وبالنّصر ، ولتطمئنّ قلوبكم أيّها المؤمنون به وتهدأ نفوسكم . ويلاحظ تقديم البُشْرى فى الآية الكريمة تنبيهاً على المؤشّرات الّتى تدلّ على النّصر من الله تعالى وتشير إلى العون منه جلّ وعلا . ويلاحظ تأخير الإشارة إلى الاطمئنان تأكيداً للبُشْرى الصّادقة والوعد الحقّ ولأنّ الاطمئنان الصّادق ثمرة البشرى الصّادقة .

ولمّا كانت البشرى للمؤمنين واطمئنان قلوبهم دليلين على النّصر الّذى وعد الله تعالى المؤمنين به فقد كان التّذييل فى الآية الكريمة مصرّحاً بهذا النّصر ضمناً مؤكّداً على كون البشرى حقّاً والاطمئنان صدقاً فليس النّصر فى غزوة بدرٍ وفى غير غزوة بدرٍ إلاّ من عند الله تعالى العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه الغالب على أمره . وانظر إلى الظّرف «عند» الّذى لا تستغنى عنه الجزئيّة الكريمة تأكيداً لذلك المعنى ، وتعميقاً لذلك الفحوى . وإن الآية الكريمة التّالية تكشف عن شىء من جوانب الحكمة فى نصر الله تعالى المؤمنين وهم قلّة وأذلّة فى بدرٍ على الكافرين الكثيرى العدد والعدّة الأشرين البطرين فإلى

الآيــة رقــم (١٢٧)

قال تعالى : ﴿**ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين**﴾ .

نصر الله تعالى المؤمنين فى بدرٍ وهم أذلّة ليقطع طرفاً من الّذين كفروا ويستأصل جزءاً ويبتر قسماً منهم وذلك بقتل سادتهم وصناديدهم ورؤسائهم وأسر سراتهم ورجالهم أو يكبتهم ويخزيهم ويذلّ معاطسهم بفرار من سلم منهم من القتل والأسر فينقلبوا من حيث أتوا خائبين ويرتدّوا من حيث جاءوا منكسرين ذليلين مهينين .

إنّ هذا هو واقع المشركين فى بدرٍ فقد قُتِل منهم سبعون وأُسِرَ سبعون وانهزم الباقون شرّ هزيمة لا يَلْوون على أحد ولم تغن عنهم كثرة عددهم وعدّتهم أمام بأس الله تعالى ونصره جلّ وعلا المؤمنين وقتال الملائكة فى صفوف المؤمنين .

وهكذا يتبيّن أنّ المطلوب من المؤمنين فى كلّ الأحوال أن يتّقوا الله تعالى والمطلوب منهم قبل المعركة وفى أثنائها بخاصّة الصّبر ، والمطلوب منهم بعد النّصر وفى كلّ وقت أن يشكروا لله تعالى نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة . وإنّ قوام هذه النّعوت تقوى الله تعالى أو الارتقاء إلى مرتبة الإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

ومن البيّن أنّ السّياق بعد أن تحدّث فى آيتين كريمتين عن المراحل الأولى من غزة أحد ، والمعروف أنّ نزول الآيات الكريمات بعد انتهاء المعركة ، تحوّل إلى الحديث عن نصر الله تعالى المبين للمؤمنين فى غزوة بدر ، كى يلفت المؤمنين إلى وجوب الشّكر لله تعالى على نعمه بالنّصر فى غزوة بدر ، وكى ينبّههم إلى أنّ مرارة الهزيمة فى أحد لا ينبغى أن تُنْسيهم الشّكر لله تعالى على النصر فى بدر والصّبر فى أحد فإنّ الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر . قال تعالى : ﴿**إنّ فى ذلك لآياتٍ لكلّ صبّار شكور**﴾ وقال النّبىّ ﷺ : والّذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاءً إلّا كان خيراً له . إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له . وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له . ليس ذلك إلّا للمؤمن . فمنازل الإيمان كلّها بين الصّبر والشّكر[1] .

وانظر فى الآية الكريمة التّالية إلى أسلوب القرآن الكريم المعجز فى مجال التّربية النّافعة النّاجعة . إنّ المؤمنين فى ذروة الألم . وإنّ المصطفى ﷺ لما وقف على حمزة شهيد أحد قال : لن أصاب بمثلك أبداً .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السّعادتين ٣٤٠ .

ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إلىّ من هذا [1] وإنّ ربّ العزّة فى الآية الكريمة التّالية ليسدّد خطا المصطفى ﷺ فلا ينهاه فقط عن المثلةبل يقول له إنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس له من الأمر شىء . وإذا كان المصطفى ﷺ ليس له من الأمر شىء . فهل ثمّة من مخلوقٍ له شىء وراء المصطفى ﷺ ؟ فإلى

الآيــة رقــم (١٢٨)

قال تعالى : ﴿ليس لك من الأمر شىءُ أو يتوبَ عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون﴾ .

سبب النزول :

قال البخارىّ حدّثنا حبّان بن موسى أنبــأنا عبدالله أنبأنا معمر عن الزّهرىّ حدّثنى سالم عن أبيه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الرّكوع فى الرّكعة الثّانية من الفجر : اللّهمّ العن فلاناً وفلاناً بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنّا ولك الحمد . فأنزل الله تعالى : ليس لك من الأمر شىء . الآية . وهكذا رواه النَّسائىّ من حديث عبدالله بن المبارك . وقال الإمام أحمد حدّثنا أبوالنّضر حدّثنا أبوعقيــل قال أحمد : وهو عبدالله بن عقيل صالح الحديث ثقة ـ حدّثنا عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللّهمّ العن فلاناً وفلاناً اللّهمّ العن الحارث بن هشام ، الّهمّ العن سهيل بن عمرو ، اللّهمّ العن صفـوان بن أميّة ، فنزلت هذه الآية : ليس لك من الأمر شىءُ أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون . فتيب عليهم كلّهم [2] .

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠١/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٢/١ وانظر اسباب النّزول للواحدى ١٥٤ .

وقال البخارىّ : قال حميد وثابت عن مالك بن أنس : شجّ النّبىّ ﷺ يوم أحد فقال : كيف يُفْلِح قومٌ شجوّا نبيّهم فنزلت : ليس لك من الأمر شىء [1].

وعن قتادة قال : أصيب النّبىّ ﷺ يوم أحد وكسرت رَباعِيَتُه [2] وفِرْق حاجبه [3] فوقع وعليه درعان والدّم يسيل . فمرّ به سالم مولى أبى حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه فأفاق وهو يقول : كيف بِقَوْمٍ فعلوا هذا بنبيّهم وهو يدعوهم إلى الله . فأنزل الله تبارك وتعالى : ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنهم ظالمون [4] .

وإنّ أوّل ما نودّ أن نلفت الانتباه إليه هو أنّ فى هذا القسم من السّورة بعض الكلام المعترض . لقد لاحظنا أنّ القِسْم يبدأ بالحديث عن أولى خطوات غزوة أحد فى آيتين كريمتين نبّهت أخراهما إلى الفشل الّذى سوف يصرِّح السّياق بعد ذلك أنّه بإذن الله تعالى سبب هزيمة أحد . وما لبث السّياق أن تحوّل إلى الحديث عن غزوة بدر فى خمس آيات كريمات ابتداء بالثّالثة والعشرين بعد المائة وانتهاءً بالسّابعة والعشرين . ومعنى هذا أنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعود إلى الحديث عن غزوة أحد ، وكأنّ ذكر الهمّ بالفشل فى الآية الكريمة الثّانية فى القسم هيّأ لاستحضار الفشل الفعلىّ السّبب فى هزيمة أحد ، وكأنّ هذه الآية الكريمة الّتى تعود إلى الحديث عن غزوة أحد هى الآية الكريمة الثّالثة بعد الآيتين الكريمتين الأوليين : **﴿وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما . وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾** .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٣/١ .

(٢) الرَّباعِيَة : السّنّ الّتى بين الثّنيّة والنّاب والجمع رباعيات .

(٣) الفِرْق بكسر الفاء : القِسم من كلّ شىء . والحاجب : العظم الّذى فوق العين بلحمه وشعره .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥٧/٤ .

أما وقد عرفنا أنّ ربّ العزّة خاطب المصطفى ﷺ بأنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس له من الأمر شىءُ بشأن غزوة أحد بخاصّة وبشأن غيرها بعامّة بل الأمر كلّه لله تعالى وحده لا شريك له ، فما الّذى يلاحظه المتأمّل وراء ذلك على الآية الكريمة ؟ يلاحظ المتأمّل أنّ الآية الكريمة هنا تتحدّث فى صدرها وذلك فى هيئة جملةٍ معترضة عن بعض متعلّقات غزوة أحد بينما تتحدّث فى عجزها عن بعض متعلّقات الغزوة بطريقة أخرى ، وبهذا يكون الحديث عن غزة أحد وهى موضوع هذا القسم من السّورة الكريمة معترضا وذلك فى هيئة هذه الجملة : ﴿**ليس لك من الأمر شىء**﴾ بينما هو معطوفٌ فى القول ﴿**أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون**﴾ ومن البيّن أن الحديث هنا عن الكافرين. وإنّ العطف هنا بحاجةٍ إلى بعض تأمّل .

إنّ القول : ﴿**أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون**﴾ معطوفٌ على القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿**ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين**﴾ وحينما تكون هذه الآية الكريمة : ﴿**ليقطع طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين**﴾ متعلّقة بكفّار قريش الّذين انهزموا فى غزوة بدرٍ هزيمة منكرة يكون المعنى كما تبيّنا : ليقطع الله تعالى طرفاً من الّذين كفروا بالقتل والأسر أو يكبتهم ويذلّهم ويلحق الصّغار بالمنهزمين منهم الّذين لم ينالوا خيرا .

وحينما تتحدثّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها عن المصطفى ﷺ فى صدرها ويلحق به عليه الصّلاة والسّلام المؤمنون وتتحدّث فى عجزها عن الكافرين المنتصرين هذه المرّة فى أحد يكون المعنى : ليقطع الله تعالى بنصر المؤمنين طرفاً من الّذين كفروا أو يكبتهم ، أو يتوب الله تعالى على أولئك الكافرين الّذين انتصروا على المسلمين فى أحد بأن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ويدخلوا فى دين الإسلام ويتبعوا خير الأنام ﷺ ويتوبوا إلى الله

تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده توبةً نصوحاً أو يعذّبهم الله تعالى عذاباً أليماً إذا استمرّوا على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى واستمرءوا ظلم أنفسهم وظلم الآخرين وظلم دين الإسلام الذى بعث الله تعالى به خاتم الأنبياء والمرسلين والذى لا يقبل الله تعالى ديناً سواه من عباده جلّ وعلا .

وبهذا يتبيّن أنّ الآيات الخمس الّتى تتحدّث عن غزوة بدر معترضةٌ بين الآيات الكريمات السّابقات واللّاحقات الّتى تتحدّث عن غزوة أحد ، كما يتبيّن أنّ المراد بالاعتراض هنا : «ليس لك من الأمر شىء» يختلف عن المراد بالاعتراض فى الآيات الخمس السّابقات ، لأنّ القول : «ليس لك من الأمر شىء» . يتحوّل به الحديث عن غزوة بدر إلى غزوة أحد ، ولأنّ القول : «أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنهم ظالمون» معطوفٌ على جملتى يقطع ويكبت المنصوبتين والّلتين تتحدّثان عن الكافرين المنهزمين بينما القول : «أو يتوب عليهم أو يعذّبهم» يتحدّث عن الكافرين المنتصرين . إنّ الجملة المعترضة هنا أشبه ما نالت هذه الصّفة ، رغم كون الآية الكريمة تتحدّث عن غزوة أحد ، بسبب كونها معطوفةً بالنّصب على كلام فى الآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن الكافرين المنهزمين فى بدر .

والّذى يلفت الانتباه فى الآية الكريمة هنا : «أو يتوب عليهم أو يعذّبهم» أنّه يتحدّث فى جملتين اثنتين عن معنيين اثنين مختلفين وذلك على غرار الجملتين الاثنتين فى الآية الكريمة السّابقة الّلتين تتحدّثان كذلك عن معنيين اثنين .

وممّا يلفت النّظر كذلك بالمقارنة بين القولين فى الآيتين الكريمتين أنّ أوّل القولين فيهما هو المفضّل المرغوب فيه . إنّ قطع قسمٍ من الكافرين لم يكن مفضلاً ومرغوباً فيه فى أثناء المعركة فحسب بل كان مفضلاً ومرغوباً فيه بعد المعركة كذلك وذلك بقتل الأسرى حتّى لا تقوم للكفّار قائمة

ولا يستطيعوا أن يفعلوا بعد عامٍ واحدٍ فقط من غزوة بدرٍ ما فعلوا فى غزوة أحد . وإلى هذا الأمر المفضّل المرغوب فيه أشار قوله من سورة الأنفال (١) :
﴿ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض . تريدون عرض الدّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم . لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم . فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً واتّقوا الله إنّ الله غفور رحيم . يا أيّها النّبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخِذَ منكم ويغفر لكم والله غفورٌ رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم . والله عليم حكيم﴾
والآيات الكريمات فى عتاب المصطفى ﷺ الّذى تجاوز الفاضل بأن يثخن فى الأرض بمعنى أن يبالغ فى قتل الكفّار فى فجر الدّعوة الإسلاميّة وفيهم الأسرى إلى المفضول وهو قبول الفداء بشأن أسرى بدر .

فإذا تحوّلنا إلى هذه الآية الكريمة : «ليس لك من الأمر شىءٌ أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون» تبيّنّا تقديم الفاضل المرغوب فيه على المفضول فى هذه المناسبة الّتى نتمثّل فيها حقّاً معنى قوله عزّ من قائل فى سورة الأنبياء (٢) **﴿لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون﴾** .

إنّ ربّ العزّة مالك الملك ذا الجلال والإكرام هو وحده لا شريك له الّذى يقول لخاتم النبيّين وأشرف المرسلين الّذى لقى فى أحد من المشقّات وصادف من الآلام ما لم يصادف مثله فى أىّ غزوة أخرى كما جاء فى الآية الكريمة : «ليس لك من الأمر شىء» والمعنى أنّ الأمر كلّه لله تعالى وحده لا شريك له . وإنّ هذا الخطاب للمصطفى ﷺ الّذى يعتبر واحداً من الأدلّة الّتى لا يأتى عليها الحصر من كون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين وليس

---

(١) الآيات ٦٧ - ٧١ .
(٢) الآية ٢٣ .

كلام محمّد بن عبدالله ﷺ إذ لا يتصوّر عقلاً ونقلاً أن يكون محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى قال وقد وقف على عمّه حمزة بن عبدالمطّلب الّذى مُثّل به فى أحد : ما وقفتُ موقفاً قطّ أغيظ إلىّ من هذا [1] لا يتصّور عقلاً ونقلاً أن يكون النّبىّ الإنسان الّذى قال هذا وقال لوحشىّ بعد أن شرح له عليه الصّلاة والسّلام كيف قتل عمّه حمزة لوحشىّ رضى الله عنه : ويحك غيّب عنّى وجهك فلا أُرَينّك [2] لا يتصّور أن يجىء على لسانه عليه الصّلاة والسّلام مخاطباً ذاته الشّريفة : «ليس لك من الأمر شىء» .

وإنّ ربّ العزّة الّذى يصحّ له وحده دون سواه أن يقول للمصطفى ﷺ : «ليس لك من الأمر شىء» هو الّذى يصحّ له وحده دون سواه أن يقدّم قبول التّوبة فى حقّ الكافرين الّذين فعلوا فى أحد بالمسلمين ما فعلوا على العذاب . وإنّ فى تقديم قبول التّوبة على العذاب فى القول : «أو يتوب عليهم أو يعذّبهم» تنبيهاً إلى بعض من رحمة الله تعالى الواسعة الّتى يصحّ أن تسع هؤلاء الكافرين الظّالمين لوّ أنّهم تابوا وآمنوا وعملوا صالحا ، وحثّا لهؤلاء الكافرين على أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين . وبهذا يتبيّن أنّ قوله عزّ من قائل خطاباً له عليه الصّلاة والسّلام : «ليس لك من الأمر شىء» توطئةٌ لتقديم التّوبة على العذاب إن أصرّ كفّار مكّة على الظّلم .

وإنّ عزّة الحكيم الخبير الّتى تتجلّى فى الآية الكريمة تذكّرنا بالآية الكريمة التّالية : **﴿ولله ما فى السّماوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله غفور رحيم﴾** وبقوله تعالى فى سورة الفتح [3] : **﴿ولله ملك السّماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾** .

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠١/٣ .
(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٧٦/٣ .
(٣) الآية ١٤ .

وإنّ عزّة الحكيم الخبير الّتى تجلّت فى الآيات الكريمات الّتى تقدّم قبول التّوبة وتقدّم المغفرة على العذاب فى حقّ الكافرين حينما يتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحاً تتجلّى كذلك حينما يشاء الله تعالى تعجيل العذاب للظّالمين . إنّ السّارق والسّارقة بعد أن صدر فى حقّهما حكم الله تعالى بقطع يد كلٍ منهما ، وبعد أن بيّن السّياق فضل الله تعالى على السّارق بقبول توبته وقبول عمله الصّالح يجىء فى حق السّارق والسّارقة فى الآية الكريمة التّالية تقديم العذاب على المغفرة وذلك فى قوله تعالى[1] : **﴿ألم تعلم أنّ الله له ملك السّماوات والأرض يعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء . والله على كل شىءٍ قدير﴾** فقد جاء العذاب متقدّماً تمشياً مع تقدم الحكم بقطع يد السّارق والسّارقة ، وجاءت المغفرة متأخّرة تمشياً مع تأخر التّوبة فى الذّكر . وهذا الأمر نلاحظه فى هذه الآية الكريمة من سورة التّوبة [2] قال تعالى : **﴿وآخرون مُرْجَون لأمر الله إمّا يعذّبهم وإما يتوب عليهم . والله عليم حكيم﴾** لقد جاء ذكر العذاب متقدماً تمشياً مع تعذيب الله تعالى المنافقين مرّتين إضافة إلى عذاب الآخرة كما نصّت على ذلك آية كريمة سابقة وجاء ذكر التّوبة متأخراً تمشياً مع ذكرها المتأخّر إثر العذاب .

وكما سبق أن بيّنّا جاءت الآية الكريمة التّالية فى سورة آل عمران متمشّية مع سابقتها فإلى

الآيـــة رقـــم (١٢٩)

قال تعالى : **﴿ولله ما فى السّماوات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . والله غفورٌ رحيم﴾** .

---

(١) سورة المائدة ٤٠ .

(٢) الآية ١٠٦ .

إنّ لله سبحانه وتعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً ويدخل فى ذلك المؤمنون وإمام المؤمنين محمّد بن عبدالله ﷺ وغير المؤمنين . ولمّا كانت الآية الكريمة السّابقة قدّمت التّوبة فى الذّكر فقد قدّمت هذه الآية الكريمة المغفرة فى الذّكر وأكّدت هذا المعنى الشّريف بالقول : «والله غفور رحيم» إنّ الله سبحانه وتعالى غافر الذّنب وقابل التّوب ، وإنّ الله سبحانه وتعالى هو الرّحيم الّذى شملت رحمته المذنبين كما شملت سواهم . وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى إرشاد المذنبين إلى باب التّوبة المفتوح على مصراعيه إلى يوم الدّين والتّنبيه إلى قبول الله تعالى توبة التّائبين توبةً نصوحا .

وهكذا يتبيّن أنّ المعانى تسير فى خطٍ فريد لها بحيث إنّ فيها إرشاداً للمصطفى ﷺ وتسديدا . وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يمتنع عن المُثْلة بعد أن هدّد بالتمثيل بالمشركين مستقبلاً انتقاماً منهم لتمثيله بعمّه حمزة رضى الله عنه . ونحن فى سبيل تبيين الحكمة من هذا المنهج القرآنى التّربوىّ يصحّ أن نقول إنّ الهدف القريب منه هو إعادة التوازن للمسلمين بعد أن كادت هزيمة أحد تعصف بهم ، وفى مقابل إصعادهم بأجسادهم فى الأرض وذهاب نفوسهم بعيداً بسبب الهزيمة يتحوّل السّياق من أجل إعادة التّوازن للنّفس المؤمنة يتحوّل من هزيمة أحد إلى النّصر فى بدر ، ومن الصّبر فى أحد إلى الشكر فى بدر والمعروف أنّ الإيمان نصفٌ صبرٌ ونصف شكر ، بل إنّ النّقلة تتّخذ خطوةً أوسع حينما يقال للمصطفى ﷺ : «ليس لك من الأمر شىء» وحينما يقدّم السّياق فى الذّكر التّوبة فى حقّ المشركين على العذاب ، وهم الّذين يستحقّون أشدّ العذاب فى نظر المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان . ولكنّ هذه هى حكمة الله تعالى الّذى لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون والّذى اقتضت حكمته الذّهاب بنفوس المؤمنين فى أقصى الجهة المقابلة للجهة الّتى قذفت الهزيمة بنفوسهم فيها كى يعود التّوازن لتلك النفوس والهدوء والاستقرار . وممّا هو مقوّلهذه النّقلة إلى المقابل كون حظّ المنهزمين فى بدرٍ

من المشركين قطع الطّرف والكبت والقهر ، وكون حظّ المنتصرين فى أحدٍ من المشـــركين قبـــول توبتهـم أو تعذيبهم . واستمراراً لهذه النّقلة البعيدة الفريدة من أجل تحقيق الحكمة الّتى إليها أومأنا وهى إعادة التّوازن إلى النّفس المؤمنة تحوّل السّياق فى أثناء الحديث المبكّر السّاخن عن أحد إلى الحديث عن الرّبا المحرّم فى كلّ الشّرائع السّماوية فإلى

الآيات رقم (١٣٠ - ١٣٢)

قال تعالى : **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحون . واتّقوا النّار الّتى أعدّت للكافرين . وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم تُرْحمون﴾** .

وراء حكمة ذهاب الآيات الكريمات بالمؤمنين بعيداً فى الجهة المقابلة للجهة الّتى ذهبت بهم فيها هزيمة أحد الّتى أثّرت فى نفوسهم ثمّة حكمةٌ أخرى فى حديث الآيات الكريمات عن الرّبا بقصد إعادة النّفوس إلى توازنها أو إعادة التّوازن إلى النفوس وهذه الحكمة هى أن ثمّة تجانساً بين كبيرة الرّبا وبين حديث الآيات الكريمات عن الحرب والقتال فى غزوتى أحد وبدر ، وتفسير هذا التّجانس أنّ كبيرة الرّبا هى الذّنب الوحيد الّذى أعلن الله سبحانه وتعالى الحرب على مرتكبه وأعلن رسوله ﷺ . قال عزّ من قائل [١] : **﴿يا أيها الّذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾** وخطب رسول الله ﷺ فى حجّة الوداع فقال : ألا إنّ كلّ رباً كان فى الجاهليّة موضوع عنكم كلّه . لكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون . وأوّل رباً موضوع ربا العبّاس بن عبدالمطلب كلّه [٢] .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٣١/١ .

إنّ نفوس المؤمنين الّذين عصفت بهم الهزيمة فى أحد غايةٌ فى الّلين والطّواعية قابلةٌ لأن تتشكّل وتتلوّن بأقلّ العمل وأيسر الجهد وذلك على غرار المعادن الّتى يوقد عليها فى النار .

ووراء ما أومأنا إليه من حكمة فى حمل آيات القرآن الكريم للمؤمنين بعيداً كى يعود إليهم استقرار نفوسهم وهدوؤها هنالك الشّمول الّذى يتّسم به المنهج القرآنى التّربوىّ بحيث يغطّى شتّى مناحى الحياة ومن باب الأولى أن يتحوّل السّياق من الحديث عن الحرب إلى الذّنب الكبير الّذى يؤدّى إلى الحروب بأنواعها بين طوائف البشر والأمّة الواحدة إضافة إلى كونه الباعث على إعلان الله تعالى الحرب على مرتكبيه ألا وهو كبيرة الرّبا .

إنّ هزيمة أحد فرصةٌ مناسبة لقبول النّفوس ذلك النّهى الحاسم عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفة وإنّ ثمّة تجانساً بين ضخامة الهزيمة الّتى يؤمر فيها بالصّبر وبين ضخامة كبيرة الرّبا الّتى يكون أشدّ النّهى عن ارتكابها .

والآية الكريمة الأولى : **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾** فيها نهىٌ وأمر ، تخلٍّ وتحلٍّ . وقد تقدّم النّهى على الأمر لأنّ النّهى فى العادة أسهل . وفى الآية الكريمة نهىٌ عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفة ، والمراد النّهى عن مطلق التّعامل بالرّبا ، وعبّر عن ذلك النّهى المطلق بأهمّ موجباته وأكثر متعلّقاته وهو الأكل ، لأنّ الغالب على المال الّذى يكسب من حلالٍ وحرام أن ينفق فى الحصول على الطعام ويلحق به الشّراب . والآية الكريمة تنهى عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفة وهو النّوع من الرّبا الّذى كان يتعامل به العرب قبل الإسلام وقبل تحريم الإسلام للرّبا . فقد كانوا فى الجاهليّة يقولون إذا حلّ أجل الدّين : إمّا أن تَقْضِى وإمّا أن تُرْبى . فإن قضاه وإلّا زاده فى المدّة وزاد الآخر فى القدر ، وهكذا كلّ

عام فربّما تضاعف القليل حتّى يصير كثيراً مضاعفا [1] وفى نهى الآية الكريمة عن هذه الصّورة البشعة من صور التّعامل بالرّبا نهىٌ عن كلّ صور الرّبا الذّنب الوحيد الّذى أعلن الله تعالى الحرب على مرتكب ذنب التّعامل به .

وربما تبيّنا فى تركيز الآية الكريمة النّهى على أبشع صور الرّبا انسجاماً مع ذهاب الآيات الكريمات بالمؤمنين بعيداً إثر ذهاب هزيمة أحد بهم بعيداً سعياً وراء إعادة التّوازن إلى نفوس المؤمنين الّذين استبدّت بهم الهزيمة ، وربمّا تمشّى هذا الذّهاب بعيداً بالمؤمنين مع ما صرّحت به الآية الكريمة الثّالثة والخمسون بعد المائة من السُّورة الكريمة فى القول : **﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحدٍ والرّسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غماً بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبيرٌ بما تعملون﴾** لقد جازى الله تعالى المؤمنين غمّ ظنّهم أنّ النّبىّ ﷺ قد قتل وغمّ الهزيمة كى يدفع هذا النّوع من الغمّ غمّ الحزن على ما فاتهم من الغنيمة وعلى ما أصابهم من قتل وجرح . وإنّ من متمّمات دفع هذا الغمّ صوارم الأوامر وقوارع الزّواجر وقصىّ المرامى وفريد المعانى وفى المقدّمة قوله تعالى : **﴿ليس لك من الأمر شىءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبَهُمْ فإنّهم ظالمون﴾** .

وبعد النَّهى عن أكل الرّبا أضعافاً مضاعفةً يأتى الأمر بتقوى الله تعالى لعلّ المؤمنين يُفلحون وينجحون ويفوزون . وتبدأ تقوى الله تعالى هنا بترك الرّبا فى كلّ صوره وتأخذ التّقوى فى الاتجاه صعداً حتّى تكون الإحسان نفسه أو الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . وهكذا يتبيّن أنّنا بصدد النّهى عن الرّبا أى التخلّى عنه فى كلّ صوره وبصدد الأمر بالتّقوى أى التحلّى بها فى كلّ صورها الجميلة البهيّة الهنيّة .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٠٤ وتفسير القرطبىّ ١٤٤٤ .

والآية الكريمة التّالية : ﴿واتّقوا النّار الّتى أعدّت للكافرين﴾ فيها التأكيد لمعنى الأمر بالتّقوى فى الآية الكريمة السّابقة وفيها زيادة الجديد من المعنى ، إذ المطلوب هنا اتّقاء النّار وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة [1] قوله عزّ من قائل : «فمن زُحْزِح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز» مع تقرير الحقيقة بكون النّار قد أعدّها الله تعالى للكافرين . والملاحظ أنّ السّياق فى العديد من الآيات الكريمات يؤكّد على صفة الإيمان فى حقّ هؤلاء المسلمين المجاهدين فى سبيل الله تعالى وهم يستوون فى هذه الصّفة قبل المعركة وبعد الهزيمة ، كما يستوى فى هذه الصّفة من ثبت فى هذه المعركة ومن لم يثبت ، ومن باب الأولى أن تكون صفة الإيمان حقاً ثابتاً للشهداء السّعداء فى غزوة أحد . إنّ النّار قد أعدّها الله تعالى للكافرين وإنّ طريق هؤلاء المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى إلى الجنّة بإذن الله تعالى فعليهم متابعة المشوار ومواصلة المسيرة إلى أن يلقوا الله تعالى ويدخلوا الجنّة وذلك هو الفوز العظيم والفلاح الحقيقىّ .

والآية الكريمة الثّالثة : «وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم تُرْحَمون» ترشد إلى الكيفيّة الّتى يتمّ عن طريقها تسنّم التّقوى ودخول الجنّة بفضل الله تعالى . إنّ على المؤمنين أن يطيعوا الله تعالى طاعةً مطلقة ويطيعوا الرّسول الكريم طاعةً مطلقة لأنّه عليه الصّلاة والسّلام هو المبلّغ عن ربّه جلّ وعلا فيما يوحى إليه ﷺ من قرآن كريم وسنّة مطهرّة .

وتضيف الآية الكريمة الجديد من المعنى . إنّ المؤمنين حينما يطيعون الله تعالى طاعةً مطلقةً ويطيعون الرّسول الكريم طاعةً مطلقةً فيفعلون الأوامر ويجتنبون النّواهى هم بإذن الله تعالى سوف تشملهم رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء والّتى يفتقر إليها الخلائق فى الأولى والآخرة والّتى يستحقّها

---

(١) الآية ١٨٥ .

المؤمنون وحدهم وقد قال تعالى [1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبّحوه بكرةً وأصيلا . هو الّذى يصلّى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظّلمات إلى النور . وكان بالمؤمنين رحيما . تحيّتهم يوم يلقونه سلام . وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ . ويستمرّ السّياق فى حثّ المؤمنين على استباق الخيرات والمسارعة إلى المغفرة من ربّ الأنام كى يدخلوا الجنّة بسلام مع ذكر بعض نعوت هؤلاء المؤمنين فإلى

الآيــة رقــم (١٣٣)

قال تعالى : ﴿**وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّةٍ عرضُها السّماواتُ والأرضُ أعدّت للمتّقين**﴾ .

تأمر الآية الكريمة المؤمنين بعامّة ، الّذين أصابهم قرح أحد بخاصّة أن يسارعوا ويبادروا ويسابقوا [2] إلى مغفرة من ربّهم جلّ وعلا وإلى جنّة عرضها السّماوات والأرض أعدّها جلّ وعلا للمتّقين . وحينما يجىء فى الآية الكريمة التّالية الإشارة إلى العفو وحينما كان التّرابط وثيقاً بين العفو والغفران فإنّه يجمل التّذكير بالفرق بينهما كى يتبيّن المدى البعيد الّذى يراد للمتقين الانتهاء إليه والمستوى الرّفيع الّذى يراد الارتقاء إليه . إنّ الأصل اللّغوىّ العين والفاء والحرف المعتلّ يدلّ على التّرك . فعفو الله تعالى عن خلقه معناه تركه إيّاهم فلا يعاقبهم فضلاً منه . قال الخليل : وكلّ من استحقّ عقوبةً فتركتَه فقد عفوتَ عنه . يقال : عفا عنه يعفو عفواً . وهذا الّذى قاله الخليل صحيح[3] ويقول ابن فارس [4] بشأن الغفران : «الغين والفاء والرّاء عُظْمُ بابه

---

(١) سورة الأحزاب ٤١ ـ ٤٤ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٥٩/٤ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة «عفو» ٥٦/٤ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة «غفر» ٣٨٥/٤ .

السّتر» وقال الرّاغب : العفو إزالة الذّنب بترك عقوبته . والغفران ستر الذّنب وإظهار الإحسان بدله . فكأنّه جمع بين تغطية ذنبه وكشف الإحسان الّذى غطى به[1] .

وبهذا يتبيّن أنّ المسارعة فى الخيرات تُفْضى بإذن الله تعالى إلى المغفرة من رب العالمين ، وقد تبيّنا أنّ المغفرة تتجاوز مرحلة العفو . فإذا كان العفو يقف عند ترك العقوبة على الذّنب فليس يعنى ستره . أمّا المغفرة فإنّها تتجاوز مرحلة ترك الذّنب إلى مرحلة ستره والتغطية عليه وإخفاء قبحه وإظهار الإحسان محلّ كلّ ذلك . وحينما يكون الإسراع فى مجال المحسوسات مظنّة الارتقاء والارتفاع إلى آمادٍ بعيدة فإنّه فى المعنويّات يؤدّى بإذن الله تعالى فى مجال الخيرات إلى قممٍ أرفع وآفاقٍ أرحب إلى المغفرة من ربّ العالمين . وينبغى أن يكون للفظ الرّبّ كبير دور فى قيام لفظة «مغفرة» بدورها لأنّ لفظ الرّبّ يستعمل فى القرآن الكريم فى أجواء المحبّة والحنان من ربّ الأنام .

وتنصّ الآية الكريمة على عرض الجنّة . قال ابن عبّاس : تقرن السّماوات السّبع والأرضون السّبع كما تقرن الثّياب بعضها إلى بعض فذاك عرض الجنّة[2] وإنّ فى ذكر العرض بصريح اللّفظ تنبيهاً على الطّول. وحينما يكون عرض الجنّة بهذا الاتّساع الّذى لا يعلم مداه إلا الله تعالى فذلك معناه أنّ الاتّساع فى حقّ الطّول آكد .

ومن البيّن أنّ القول عن الجنّة : «أعدت للمتّقين» على غرار القول من ذى قبل عن النّار : «أعدّت للكافرين» .

وتأخذ الآية الكريمة التّالية فى ذكر نعوت المّتقين فإلى

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٧٠ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٦٠ .

الآيـــة رقـــم (١٣٤)

قال تعالى : ﴿**الّذين ينفقون فى السرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس ، والله يحبّ المحسنين**﴾ .

نظم هذه الآية الكريمة عجيب وتدرّج معانيها رهيب مع إضافة الجديد من المعنى تبعاً للزّيادة فى المبنى . ويبدو كلّ ذلك جلياً بتأمّل كلّ حبّة فى عقد معانى الآية الكريمة على حدة .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من صفات هؤلاء المتّقين أنّهم ينفقون فى السّرّاء والضّرّاء ، اليسر والعسر ، الرّخاء والشدّة ، الصّحّة والمرض وهكذا . والسّرّاء مصدر من قولهم : سرّنى هذا الأمر مسرّةً وسروراً . والضّرّاء مصدر من قولهم قد ضرّ فلان فهو يضرّ إذا أصابه الضرّ وذلك إذا أصابه الضّيق والجهد فى عيشه [١].

ونستطيع أن نفهم أنّ هؤلاء المتّقين ينفقون فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف المرسلين . جاء فى صفات عباد الرّحمن فى سورة الفرقان [٢] قوله تعالى : ﴿**والّذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ وجاء فى سورة الإسراء [٣] قوله تعالى : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ .

وما الّذي ينفقه المرء فى العادة ؟ المال . فهؤلاء المتّقون ينفقون الأموال فى صالح الأعمال .

ومن أين يحصل المرء الصّالح على المال الّذى ينفق منه فى الصّالحات على نفسه وعلى من يعول وفى مختلف أوجه البرّ الّذى دعا

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٦١/٤ .
(٢) الآية ٦٧ .
(٣) الآية ٢٩ .

الشّارع الحكيم النّاس للإنفاق فيها ؟ يحصل المرء فى العادة على المال كسباً أو ميراثاً ، ويغلب الكسب على المال وذلك عن طريق العمل والكدح فى سبيل لقمة العيش . وحينما نتبيّن أنّ المجاهدين فى غزوة أحد قد بذلوا فى سبيل الله تعالى النّفس والنّفيس ندرك قيمة العمل فى الإسلام وحثّ الآية الكريمة على العمل بطريق غير مباشر لأنّ المال يحتاج إلى بذل المجهود وإلى الجدّ والكدح .

وتقدّم الآية الكريمة فى الذّكر السّرّاء على الضّرّاء لأنّ ذلك هو الأصل ولأنّ السّرّاء هى القريبة من كلّ نفس الحبيبة إليها . وإنّ تأخير الضّرّاء فى الذّكر سهّل النّقلة إلى الخطوة التّالية فى القول : «والكاظمين الغيظ» لقرب الغيظ من الضّرّاء ولكونه من جنسها ، إذ الغيظ أشدّ الغضب ، وهو الحرارة الّتى يجدها الإنسان من فوران دم قلبه ، وقد دعا الله النّاس إلى إمساك النّفس عند اعتراء الغيظ . قال : والكاظمين الغيظ [1] يعنى والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه . يقال عنه : كظم فلانٌ غيظه إذا تجرّعه فحفظ نفسه من أن تُمْضِى ما هى قادرةٌ على إمضائه باستمكانها ممّن غاظها وانتصارها ممّن ظلمها . وأصل ذلك من كظم القربة يقال منه : كظمت القربة إذا ملأتها ماء وفلانٌ كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئاً غمّاً وحزناً . ومنه قول الله عزّ وجلّ : وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، يعنى ممتلىءٌ من الحزن [2] .

إنّ هؤلاء المتّقين حينما يغضبهم أشدّ الغضب من يستطيعون البطش به يكظمون غيظهم بباعث التّقوى ويتحاملون على شديد غضبهم ، الّذى امتلأت به صدورهم حتّى إنّهم يكادون ينفجرون ، ابتغاء مرضاة الله تعالى وخضوعاً لتوجيهاته وامتثالاً لأوامره جلّ وعلا .

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «كظم» ٣٦٨ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٦١/٤ .

ولمّا كان كظم الغيظ وتجرّع غصص الغضب لا يقترن بذلك بالضّرورة صفاء النّفس ونقاء الصّدر وترك المؤاخذة ، ولمّا كان ثمّة درجةٌ أرفع تتّخذ من كظم الغيظ قاعدتها الّتى تنطلق منها وترفرف فى عليائها فوقها ، وهذه الدّرجة هى العفو بمعنى ترك المؤاخذة بالذّنب فقد نبّهت الآية الكريمة على هذه الدّرجة الرّفيعة وحثّت عليها ضمناً . قال تعالى : «والعافين عن النّاس» وسبق أن وقفنا عند العفو وقارنّا بينه وبين المغفرة . وتبيّنّا أنّ العفو بمعنى ترك المؤاخذة بالذّنب ويقترن بذلك صفاء النّفس وسلامة الصّدر . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تذكر لفظة النّاس : «والعافين عن النّاس» ولا تذكر أىّ لفظةٍ ينصرف المعنى معها إلى المؤمنين بخاصّة . إنّ لفظة النّاس تشمل المؤمنين وسواهم ومن المعروف أنّ الحرّ يعفو مع المقدرة . وحينما يكون المصطفى ﷺ قد قال وقد رأى عمّه حمزة شهيد أحد وقد مُثّل به[1] : «ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلىّ من هذا» يكون معنى ذلك أنّ المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة يراد منه أن يكظم غيظه وقد فعل عليه الصّلاة والسّلام ذلك وفعل المؤمنون ، وأن يعفو عن النّاس بمعنى ترك المؤاخذة بالذّنب ومنهم كفّار مكّة الّذين فعلوا فى أحد بالمؤمنين ما فعلوا وذلك بعد أن يؤمنوا ويعملوا الصّالحات . وقد فعل المصطفى ﷺ والمؤمنون كلّ ذلك . وكأنّ هذه الجزئيّة الكريمة تأخذ بسببٍ من قوله تعالى فى سورة الممتحنة[2] : **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة . والله قدير ، والله غفورٌ رحيم﴾** .

بل إنّ الآية الكريمة لتخطو الخطوة الرفيعة الّتى ليس وراءها أرفع منها وذلك فى القول : «والله يحبّ المحسنين» ويصحّ أن نفهم الإحسان هنا فى ضوء نعوت المتّقين ودرجات سلم النّعوت الّتى تأخذ صعداً مروراً بالإنفاق فى

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠١/٣ .

(٢) الآية ٧ .

السّرّاء والضّرّاء وما يرتبط بذلك من صبرٌ على النّعماء وعلى الابتلاء وتحوّلاً إلى كظم الغيظ والعفو عن النّاس ، وانتهاءً بالإحسان إليهم . ومن البيّن أنّ الإحسان إنّما يوجّه إلى الّذين يستحقّونه وهم الّذين استحقّوا العفو بعد أن آمنوا وعملوا الصّالحات .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها الإشارة إلى الإحسان مجرّداً فلا يقال مثلا : والمحسنين . إنّما تجيء هذه الجزئيّة الكريمة : «والله يحبّ المحسنين» فثمّة إشارة إلى الإحسان وإشادة فالله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين إلى الآخرين ، وهذا الحبّ ينسحب على المتحلّين بكلّ النّعوت الّتي نصّت عليها الآية الكريمة ولكنّ نصيب المحسنين هو الأكبر وهو الموفور .

ومع أنّ الإحسان فى الآية الكريمة يحدّد معناه السّياق على النّحو الذى تبينّا فإنّ هذا المعنى وإن كان أوّليّاً هنا فإنّه يمثّل صورةً واحدةً من صور الإحسان الّتى تبدو أبهاها وأسناها فى الحديث النّبوىّ الشّريف الّذي عرّف الإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وإنّ الإحسان إلى عباد الله تعالى امتثالاً لأوامر الله تعالى إحدى صور الإحسان البهيّة الجميلة الوضيئة .

وهكذا يتبيّن التدرّج اللّطيف فى ترتيب حبّات معانى الآية الكريمة بحيث إنّه يستحيل تغيير موضع أىّ حبّة فى عقد معانيها الفريد وترتيب لآلئها النّضيد .

ونستطيع أن نتبيّن فى الإنفاق لزوم النّفقة صاحبها وتعدّيها إلى من يعولهم شرعاً ، وأن نتبين فى كظم الغيظ تفاعلاً بين ما هو خارجٌ عن الذّات أعنى الّذى أثار الحفيظة والغيظ وبين الذّات الّتى امتلأت بالغيظ ، بما فى ذلك مجارى النّفس ، ومع ذلك كان ثمة تصبّرٌ وتجلّد امتثالاً لأمر الله تعالى

وابتغاء ثوابه جلّ وعلا ومرضاته ، وأن نتبيّن فى العفو عن النّاس تنازلاً عن حقّ وتجاوزاً إلى فضل ، وأن نتبيّن فى الإحسان عن النّاس تجاوزاً لكلّ المراحل السّابقة وبلوغاً إلى المرحلة الّتى ليس وراءها مرحلة وهى مرحلة الإحسان الّتى يصحّ أن نعبّر عنها هنا بأنّها محض الفضل ومعدن النّبل .

ونود أن نرصّع تأمّلنا للآية الكريمة ببعض الأحاديث النّبويّة الشّريفة .

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبدالرّحمن حدّثنا مالك عن الزّهرىّ عن سعيد بن المسيّب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ليس الشّديد بالصّرعة ولكنّ الشّديد الّذى يملك نفسه عند الغضب . وقد رواه الشيخان من حديث مالك [(١)] . وقال الإمام أحمد : حدّثنا ابن نمير حدّثنا هشام هو ابن عروة عن أبيه عن الأحنف بن قيس عن عمّ له يقال له حارثة بن قدامة السّعدىّ أنّه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لى قولاً ينفعنى وأقْلِلْ علىّ لعلّى أعيه فقال رسول الله ﷺ : لا تغضب . فأعاد عليه حتّى أعاد عليه مراراً كلّ ذلك يقول : لا تغضب [(٢)] وقال الإمام أحمد حدّثنا إبراهيم بن خالد حدّثنا أبووائل الصّنعانى قال : كنا جلوساً عند عروة بن محمّد إذ دخل عليه رجلٌ فكلّمه بكلامٍ أغضبه فلمّا أن أغضبه قام ثمّ عاد إلينا وقد توضّأ فقال : حدّثنى أبى عن جدّى عطيّة هو ابن سعد السّعدىّ ، وكانت له صحبة ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن الغضب من الشّيطان ، وإنّ الشّيطان خُلِق من النّار ، وإنّما تطفأ النّار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضّأ . وهكذا رواه أبوداود [(٣)] . وعن أبىّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ قال : من سرّه أن يشرف له البنيان وترفع له الدّرجات فليعف عمّن ظلمه ويعط من حرمه ويصل

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٥/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٥/١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٥/١ .

من قطعه . رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه [1] .

وهؤلاء المتّقون بشر وليسوا ملائكة ويصحّ أن يأتوا اللّمم من الذّنوب بل أن يفعلوا الفواحش ويظلموا أنفسهم ولكنّ ميزتهم أنّهم يتوبون إلى الله تعالى على الفور توبةً نصوحاً، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٣٥)

قال تعالى : **﴿والّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوبَ إلاّ الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾** .

إنّ أهمّ ما يلفت النّظر حقّاً ابتداء الآية الكريمة بواو العطف وباسم الموصول «الّذين» الّذى ابتدأت به الآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن نعوت المتّقين ، إنّ القول : «والّذين» يفيد هنا تمام الانفصال ويدلّ على أنّ ثمّة صفاتٍ مقابلةً للصفّات السّابقة ومغايرةً لها يصحّ أنّ يتّصف بها المتّقون ولا تنزع عنهم صفة الإيمان وصفة التّقوى حينما يتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحا . ويبدو الدّور العظيم لاسم الموصول فى الدّلالة على المعنى الجديد المستأنف حينما نحذف نحن اسم الموصول ونقول مثلاً : وإذا فعلوا فاحشة . . . إنّ حذف اسم الموصول يفهم منه أنّ هذه الصّفات المرغوب عنها من مستلزمات النّعوت الّتى نصّت عليها الآية الكريمة السّابقة ومن متمّمات نعوت المتّقين وليس الأمر كذلك . فإذا رجعنا اسم الموصول إلى موضعه وتلونا الآية الكريمة تبيّنّا أنّ الآية الكريمة تريد أن تقول لنا إنّ هؤلاء المتّقين بشرٌ خلقوا من طين ومن ماء يصفو وقد يصيبه نوعٌ من الكدر ، وليسوا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٦/١ .

ملائكةً لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . إنّ هؤلاء المتّقين يصحّ أن تزلّ بهم النّعل وأن تكون زلّتهم عنيفة وسقطتهم شنيعة بأن يتجاوزوا لمم الذّنوب إلى القبيح من الأقوال والأفعال ، وهذه هى الفواحش ، وقد يكتفون بظلمهم أنفسهم بارتكاب الذّنوب الّتى تقلّ عن كبائر الإثم والفواحش ، ولكنّ لهؤلاء مِيزةً تجعل التّقوى لا تكاد تزايلهم والإحسان لا يكاد يفارقهم وذلك أنّهم يذكرون الله تعالى على الفور ويعلمون أنّهم قد عصوه جلّ وعلا وارتكبوا ما نهاهم عزّ وجلّ عنه وأنّهم لم يأتمروا بأمره تعالى لهذا هم يبادرون إلى الاستغفار لأنّهم على علمٍ أكيد بأنّ لهم ربّاً غفوراً يغفر الذّنب ويقبل التّوب ولا يؤجّلون الاستغفار ولا يرجئون التّوبة لأنّهم على علمٍ بأنّ الله سبحانه وتعالى شديد العقاب ذو الطّول . وهنا تأتى الجملة المعترضة : «ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله» بمعنى لا أحد يغفر الّذنوب سوى الله تعالى وحده لا شريك له . وكلّ من زعم غير ذلك فهو أفّاكٌ أثيم . وفائدة هذه الجملة المعترضة أنّها ترشد العباد إلى هذه الحقيقة ، وأنّها تدلّ على أنّ من نعوت المتقين أنّهم على علمٍ أكيدٍ بذلك . وبهذا تكون هذه الجملة المعترضة موطّئةً لعودة الحديث إلى نعوت المتّقين الّذين ذكروا الله تعالى واستغفروه جلّ وعلا لذنوبهم .

إنّ من نعوت هؤلاء المتّقين أنّهم لم يصرّوا على ما فعلوا من فاحشةٍ تجلّت فى قبيح الأقوال والأفعال ومن ظلمهم أنفسهم بارتكاب ما دون ذلك من الذّنوب والآثام بل إنّهم يبادرون إلى التّوبة إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بأن يقلعوا عن المعصية فوراً ويندموا على ارتكابها ويصمّموا على عدم ارتكابها مرّةً أخرى . وإن كان لعباد الله تعالى حقوق بادروا إلى أدائها وقد قال تعالى فى سورة النساء[1] : ﴿**إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ**

---

(١) الآية ١٧ ، ١٨ .

يتوبون من قريبٍ فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيماً . وليست التّوبة للّذين يعملون السّيّئات حتّى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إنّى تبت الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار . أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ .

إنّ هؤلاء المّتقين يعطون الدّليل العمليّ على صدق توبتهم حينما لا يصرّون على الاستمرار فى فعل الفواحش وفى ظلمهم أنفسهم وهم يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى نهى عن ارتكاب المعاصى وأوعد من أصرّ على ارتكابها ولم يتب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . وهم يعلمون كذلك علم اليقين أنّ لهم ربّاً غفوراً رحيما سريع الحساب شديد العقاب . قال تعالى [١] : **﴿وهو الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم ما تفعلون﴾** .

فى الصّحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه أنّه توضّأ لهم وضوء النّبىّ ﷺ ثمّ قال : سمعت النّبىّ ﷺ يقول : من توضّأ نحو وضوئى هذا ثمّ صلّى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدّم من ذنبه . فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمّة الأربعة الخلفاء الرّاشدين عن سيّد الأوّلين والآخرين ورسول ربّ العالمين كما دلّ عليه الكتاب المبين من أنّ الاستغفار من الذّنب ينفع العاصين [٢] .

أما وقد امتثل المتّقون أمر الله تعالى بالمسارعة إلى المغفرة من ربّهم والجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض فإنّ الآية الكريمة التّالية تنصّ على ثواب أولئك المتّقين وجزائهم الّذى وعدهم الله تعالى به وقد تحقّق فإلى

---

(١) سورة الشّورى ٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/١ .

الآيـــة رقـــم ١٣٦)

قال تعالى : ﴿**أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين**﴾ .

ومن البيّن التّشابه الكبير بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الّتى تأمر المتّقين بأن يسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّهم جلّ وعلا وجنّةٍ عرضها السّماوات والأرض . وينبغى أن يكون لاسم الإشارة الدّالّ على البعد : «أولئك» دوره فى الإفادة برفيع منزلة المتّقين الّذين عملوا الصّالحات والّذين تابوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وبمكانتهم العالية عند ربّهم جلّ وعلا ، وبعظيم جزائهم وجزيل ثوابهم . وانظر إلى مدى التّشابه بين القولين فى الآيتين الكريمتين : «وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم» «أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم» وقد عرفنا معنى المغفرة بأنّه تجاوز مرحلة ترك عقوبة الذّنب إلى سَتْرِه وإظهار الإحسان بدله . وكأنّ لفظة مغفرة تأخذ بسببٍ من قوله عزّ من قائل فى سورة الفرقان [1] : ﴿**إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ كما عرفنا جوّ الرّأفة والرّحمة والمحبّة والحنان الّذى يشيعه لفظ الرّبّ .

وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة اكتفت بذكر جنّةٍ واحدة عرضها السّماوات والأرض ، وهى فى حقيقتها جنّات ، فإنّ هذه الآية الكريمة نصّت على تلك الحقيقة وأتت بلفظة الجنّات فى صيغة الجمع وأشارت إلى أهمّ صفات الجنّة وأوّل شروطها وهو تدفّق الأنهار من تحتها وبين شجرها ، وهى أنهارٌ من ماءٍ ولبن وخمرٍ وعسل، إنّها أنهار الشّراب والطّعام والتّفكّه والدّواء . وإنّ أولئك المتّقين خالدون فى تلك الجنّات الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

---

(١) الآية ٧٠

وإذا كانت الآية الكريمة بدأت بذكر الجزاء وهو المغفرة من ربّ الأنام والجنّة الّتى عرفنا صفاتها فإنّها ختمت بذكر الأجر : ﴿ونعم أجر العاملين﴾ والأجر بمعنى الثّواب والجزاء . والمعنى : ونعم ثواب المطيعين [١] وجزاء العاملين لله الجنّات الّتى وصفها [٢] .

وحينما نتبيّن الفرق بين الجزاء والأجر ندرك مدى الفضل من الله تعالى على المتّقين . إنّ الجزاء يقال فى النّافع والضّار وقد علمنا أنّه فى النّافع هنا ، ويقال فيما كان عن عَقْدٍ وغير عَقْد . أمّا الأجر وكذلك الأُجرة فإنّه لا يقال إلاّ فى النّفع دون الضُّرّ ، كما أنّه يقال فيما كان عن عقدٍ وما يجرى مَجْرى العقد [٣] إنّ الأجر ثوابٌ من الله تعالى عظيمٌ للمتّقين وهو بسبب تأكّده وثبوت استحقاق المتّقين له بمنزلة الأَجْر الّذى يستحقّه العامل بناءً على عقدٍ واتّفاق . ما أعظم فضل الله تعالى على المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الصّابرين المحتسبين . وإذا كان الثّواب نصيب المؤمنين المتّقين فإنّ العقاب من نصيب الكافرين وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقـــم (١٣٧)

قال تعالى : ﴿قد خلت من قبلِكم سننٌ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ .

كان درس أحد أليماً للمؤمنين فقد شاء الله تعالى أن ينهزموا بعد أن تحقق لهم النّصر وأن يُقْتل منهم سبعون وأن يُجْرح كثيرون . وبقدر ألم

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٦٥ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٦٥ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «عقد» ص ١١ .

المؤمنين لمرارة الهزيمة كان فرح الكافرين لحلاوة النّصر . لقد عزّ على المؤمنين أن ينتصر عليهم المشركون لأنّ المؤمنين على حقّ وقد استقرّ فى نفوسهم أنّ الله سبحانه وتعالى ناصرهم على غرار نصره جلّ وعلا لهم فى بدر ، وحينما تحقّق غير المنتظر والمأمول وكانت الهزيمة الأليمة اضطربت نفوسهم وكانوا بحاجةٍ إلى عودة الاستقرار إلى تلك النّفوس بل الاتّزان وقد كادت تعصف بها الهزيمة غير المتوقّعة لأنّهم أوّلًا وأخيراً أهل الحقّ وأصحاب الصراط المستقيم . فكيف يهزم الباطل الحق وكيف ينتصر الضلال القديم على الصراط المستقيم . إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعمل على إعادة الاستقرار إلى النّفوس والاتّزان ، وها هى ذى تخاطب المؤمنين ، كما يصحّ أنّها تخاطب الكافرين ، وهى تقول للمؤمنين ابتداءً قد خلت وذهبت من قبلكم سننٌ وطرائق ، ومضت وانقضت أممٌ وجماعاتٌ مؤمنة وكافرة محقّةٌ ومبطلة . وكان الصّراع على أشدّه بين الحقّ والباطل الإيمان والكفر ، وربّما كانت للكفّار ، على غرار كفّار مكّة ، جولةٌ واحدة وصولة أو جولات وصولات ولكنّ الجولة الأخيرة أو الجولات الفاصلة كانت للحقّ والإيمان . وإنّ فى إمكانكم أيّها المخاطبون من مؤمنين وغير مؤمنين أن تتثبّتوا من هذه الحقيقة وتتأكّدوا من هذه النّتيجة بأن تسيروا بأنفسكم فى أرض الله تعالى الطّويلة العريضة وأن تنظروا بأعينكم الّتى فى رءوسكم إلى الأمم السّابقة المكذّبة الكافرة الّتى دمّر الله تعالى عليها تدميراً جزاء كفرها وتكذيبها رسل الله تعالى وقتالها المؤمنين . إنّ عاقبة هؤلاء جميعاً الهزيمة والخسران . وإنّ من بين هؤلاء الّذين دمّر الله تعالى عليهم بسبب تكذيبهم من لا تزال آثارهم باقية رغم توالى الدّهور والأعصار كثمود قوم صالح عليه السّلام . وجاء فى سورة الصّافّات[1] عن قوم لوطٍ عليه السّلام قوله تعالى : ﴿وإنّ لوطاً لمن

---

(١) الآيات ١٣٣ ـ ١٣٨ .

المرسلين . إذ نجيّناه وأهله أجمعين . إلاّ عجوزاً فى الغابرين . ثمّ دمّرنا الآخرين . وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين . وبالّليل أفلا تعقلون﴾ .

والسّنن جمع سنّة . والسّنّة هى المثال المتّبع والإمام المؤتمّ به . يقال منه : سنّ فلانٌ فينا سنّةً حسنة وسنّ سنّةً سيّئةً إذا عمل عملاً اتُّبعَ عليه من خيرٍ وشرّ . ومنه قول لبيد بن ربيعة :

من معشرٍ سنّت لهم آباؤهم ... ولكلّ قــومٍ ســنّةٌ وإمامها (١)

إنّ الآية الكريمة تبيّن هذه الحكمة الجليلة للمؤمنين كى تؤمن قلوبهم وتطمئنّ نفوسهم وللكافرين كى يرعوا إلى طريق الرّشد ويفطنوا إلى أنّ إمهال الله تعالى لهم ليس إهمالاً . فإذا تجاوزنا دائرة الصّراع بين المؤمنين والكافرين تبيّنا النّاس وراء ذلك بحاجةٍ إلى هذا البيان القرآنىّ كى يهجروا الكفر ويلحقوا بركب المؤمنين . وإنّ هذه المعانى قد صرّحت بها الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٣٨)

قال تعالى : ﴿هذا بيانٌ للنّاس وهدىً وموعظةٌ للمتّقين﴾ .

إنّ هذا القرآن الكريم ، فى حقّ النّاس أجمعين ، تبيينٌ للحقائق ، وتوضيح للنّواميس ، وإظهارٌ للغامض ، وكشفٌ للخفّى . وهو وراء ذلك هدىً لهم من الضّلالة ، وإنّما تكون الهداية بعد البيان ، فكأنّ المطلوب من النّاس أجمعين بعد بيان القرآن الكريم الحقائق لهم أن يتحوّلوا إلى مرحلةالهداية بل إلى المرحلة الّتى تنفع معها مواعظ القرآن الكريم وتصل إلى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٦٥ .

شغاف القلوب ، ألا وهى مرحلة التّقوى . وهكذا يتبيّن الحبّات الثّلاث لعقد الآية الكريمة حيث إنّ البيان يُفْضى إلى الهداية والهداية تفضى إلى قيام الموعظة بدورها مع مرتبة التّقوى ، كما يتبيّن اتّجاه الحبّات الثّلاث من السّعة إلى الضّيق ، الكثرة إلى القلّة ، فالمهتدون بعض النّاس ، والمتّقون بعض المهتدين ، كما يتبيّن من هذا التّدرّج حثّ الآية الكريمة النّاس والمهتدين منهم على أن يرتقوا إلى مرتبة التّقوى الّتى تنفع معها الموعظة فترقّ القلوب وتلين الأفئدة .

أما وقد تجلّت حكمة الله تعالى فى إمهال الكافرين ومدّهم فى طغيانهم يعمهون بقصد أن يفهموا الإمهال على حقيقته كى يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا وإلّا أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر فقد تحوّل السّياق إلى المؤمنين بقصد رفع روحهم المعنويّة فإلى

الآيــة رقــم (١٣٩)

قال تعالى : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ .

خاض المؤمنون فى أحد بقيادة المصطفى ﷺ حرباً ضروساً وشاء الله سبحانه وتعالى لهم أن يُهْزَموا فى نهاية المعركة بعد ذوقهم حلاوة النّصر فى أوّلها وأن يقتل منهم سبعون . والآية الكريمة تريد أن ترفع من الرّوح المعنويّة للمؤمنين ، وهى تتناول جهاد المؤمنين فتأمر المؤمنين بأن يواصلوا المسيرة وذلك بنهيهم عن الوهن عن مواصلة القتال والضّعف عن جهاد الكفّار . كما تنهاهم عن الحزن لما أصابهم فى غزوة أحد من قتلٍ للأحباب وجراحٍ وفقدانٍ للغنيمة . ويلاحظ أن الآية الكريمة تنهى عن الحزن وليس عن الهمّ مثلاً وما أشبه ذلك . وإنّما نهت الآية الكريمة عن الحزن لأنّه

الثّمرة السّريعة للتفاعل الإيجابىّ مع الأحداث وردّ الفعل الفورىّ للواقع الأليم الرّاغبة عنه النّفس الرّاغبة فى عكسه ونقيضه ممّا تهوى وتتمنّى . إنّ الآية الكريمة تنهى عن الوهن وعن الحزن فلا ضعف ولا عواطف مائعة ذاهبة مع ما فاتها كلّ مذهب . وفى المقابل هنالك التقرير للموقف الإيجابىّ المنتظر من المؤمنين والمنزلة الرّفيعة الّتى هُيِّئَتْ لهم والّتى هم أهلها وذلك فى القول : «وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» ويلاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة لا تقول للمؤمنين وأنتم العالون ولكن تقول : «وأنتم الأعلون» فليس المؤمنون عالين فقط ولكنّهم الأعلون دائماً وأبداً من كلّ الكافرين. وتقرّر الآية الكريمة الشّرط الّذى بدونه لا يتحقق ذلك العلوّ وتلك الرّفعة وذلك فى القول : «إن كنتم مؤمنين» إنّ القول : «وأنتم الأعلون» يفهم منه أنّ المؤمنين هم الأعلى من الكافرين حسًّا ومعنى لأنّ الحديث عن المؤمنين ولأنّ الحديث عن الصّراع بين المؤمنين والكافرين ولأنّ المؤمنين إخوة . وحينما تضع الآية الكريمة هذا الشّرط : «إن كنتم مؤمنين» فذلك معناه أنّ الإيمان الصّادق وحده هو الذى يهيّىء المؤمنين لتلك المنزلة الرفيعة فلا يكفى مجرّد الإسلام إذا كان فى حدود الأقوال باللّسان بل لا يكفى الإيمان إذا كان ناقصاً أو ضعيفاً . إنّ الإيمان يجب أن يكون كاملاً حتّى يشعر المؤمنون بأنّهم الأعلون حقّاً ووقتها لا مكان مطلقاً لوهن ولا لحزن . والآية الكريمة التّالية تبيّن وراء ذلك بعض حكم الله تعالى فيما حلّ بالمؤمنين من هزيمة وحاق بهم من حزن فإلى

الآيــة رقـم (١٤٠)

قال تعالى : **﴿إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثله . وتلك الأيّام نداولها بين النّاس وليعلم الله الّذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء . والله لا يحبّ الظّالمِين﴾** .

كان الاحتكام فى الآية الكريمة السّابقة إلى الإيمان وهو أمرٌ قلبىّ . وفى هذه الآية الكريمة التّالية يكون للعقل دوره ، فها هى ذى الآية الكريمة تخاطب المؤمنين بالقول : ﴿**إن يمسسكم قَرْحٌ فقد مسّ القوم قَرْحٌ مثله**﴾ والمعنى إن مسّكم أيّها المؤمنون فى أحُدٍ قرحٌ ، قتلٌ وجرح ، فقد مسَّ الكافرين فى بدرٍ قرحٌ مثله . أستشهد منكم فى أحدٍ سبعون وقُتِل من المشركين فى بدرٍ سبعون ، أصابكم فى أُحُدٍ جراح وهزيمة . وأصاب المشركين فى بدرٍ جراحٌ وهزيمة . وفوق ذلك أُسِرَ من المشركين فى بدرٍ سبعون ولم يؤسَرْ منكم بفضل الله تعالى فى أحد أىّ شخص ، وإنّ هذه الحقيقة تؤكدّ المثليّة الّتى أشارت إليها الجزئيّة الكريمة .

والآية الكريمة تنصّ على المسّ وهو يأتى من الخارج ومن ذلك مسّ السّلاح الّذى كان بسبب القرح فى كلٍّ من أحدٍ وبدرٍ . والقرح جراحٌ خارجيّة ولكنّ آثارها المعنويّة فى حال الهزيمة مدمِّرة ، وتلك الآثار هى الّتى تعمل الآيات الكريمات على إزالتها .

وإنّما شاء الله تعالى أن يمسَّ القَرْحُ الكافرين مرّة والمؤمنين أخرى لحكمة اقتضتها مشيئته جلّ وعلا وقد أشار إليها القول بعد ذلك : ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ والآية الكريمة تذكر الأيّام ،وهى تعنى أساساً الّليل والّنهار والشّهور والأعوام ، وهى تعنى كذلك ما يجرى فى تلك الأيّام من أحداث بما فى ذلك الوقائع ومن هنا قيل يوم بدرٍ ويوم أحد . وإنّما تدخل الوقائع والمعارك فى الأيّام بسبب آثارها الجسام فى تلك الأيّام وما يليها من أيّام . فإذا كانت المعارك لا تدوم فإنّ آثارها الحسنة أو السّيّئة إن لم تدم فقد تطول .

إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يداول الأيّام بين النّاس أجمعين ، مؤمنين وكافرين ، ويصرّفها بينهم ، ويديرها عليهم ، فتارةً تكون

الدّولة والغلبة لهؤلاء وتارةً تلك لأولئك ، يستوى فى ذلك المؤمنون والكافرون .

وإنّ اشتراك الكافرين مع المؤمنين فى كون الدّولة لهم كما هى للمؤمنين ، بل قد تكون لهم أكثر من جولة على المؤمنين ممّا يثير فى النّفس الرّغبة فى معرفة الحكمة من هذا الاشتراك . وإنّ القول بعد ذلك مبيّنٌ للحكمة : ﴿**وليعلم الله الّذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء**﴾ .

إنّ لله سبحانه وتعالى سنناً لا تتغيّر ولا تتبدّل وذلك بنصر المؤمنين حينما يطبّقون تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين . إنّه بقدر تطبيق المؤمنين هذه التّعاليم يكون بإذن الله تعالى المقياس الّذى يقاس به انتصارهم . وهذا المقياس يشترط الإيمان والعلم والعمل معاً . إنّ المؤمنين حينما كانت كفّة إيمانهم فى بدرٍ راجحة كافأهم الله تعالى على صدق الجهاد بالنّصر المؤزّر . وإنّ المؤمنين حينما كانت كفّة إيمانهم فى ابتداء معركة أحد راجحة كافأهم الله تعالى على صدق جهادهم بالنّصر المبين ، وحينما اضطرب الميزان فى أثناء المعركة اختلّت النّتيجة بإذن الله تعالى فوراً لأنّ الإيمان انحسر مدّه إلى حين وبقى فى الميدان القوّتان الحسّيّتان للمؤمنين والكافرين وكان من الطّبيعىّ أن ينتصر الجيش الأكثر عدداً وعدّة وقد غاب عنصر الإيمان من الميدان واختفى من الميزان أو كاد يختفى . وإلى عنصر الإيمان الثّقيل فى الميزان أشار قوله تعالى : ﴿**وليعلم الله الّذين آمنوا**﴾ والمعنى وليعلم الله تعالى علم ظهورٍ الّذين آمنوا .

ومن الطّبيعىّ أن يكون فى جيش المؤمنين من هم قمّةٌ فى الإيمان . ولمّا كانت منزلة الشّهيد رفيعةً حقّاً بحيث إنّها لا يتقدّمها سوى منزلة الصّدّيق بين درجتى النّبوّة والرّسالة وكانت منزلة الشّهيد إنّما يصطفى الله تعالى بها بعض الخيار من عباده فقد نصّت الآية الكريمة على منزلة الشّهادة بعامّة

وخصّت شهداء أحد السّعداء بالذّكر وذلك فى القول : ﴿ويتّخذ منكم شهداء﴾ .

إنّ الله سبحانه وتعالى يتخّذ من المجاهدين الصّادقى الجهاد والإيمان شهداء سعداء صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه متّى لقوا وجه ربّهم الكريم فى ميدان الرّجولة والبطولة . إنّ فى النّصّ على الشّهادة إشادةً بالشّهداء وحثّاً للأحياء على أن يصدقوا فى الجهاد فى سبيل الله تعالى فلعلّ الله عزّ وجلّ يكرمهم بالشّهادة الّتى أكرم بها المجاهدين الشّهداء السّعداء .

وما معنى الشّهادة فى أبسط معانيها ؟ أن يقتل الكافر المؤمن المجاهد فى سبيل الله تعالى . وإذا كان حظّ الشّهيد رفيعاً على النّحو الّذى تبيّن فما حظّ الكافر القاتل للمؤمن ؟ أسوأ الحظّ والنّصيب إن لم يتب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً بأن يسلم ويعمل عملاً صالحاً فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله وإنّ الحسنات يذهبن السّيّئات . وإلى حظّ الكافر النّكد أشار قوله تعالى : ﴿**والله لا يحبّ الظّالمين**﴾ .

وهذه الجزئيّة الكريمة بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عند كلّ حبّةٍ فى عقدها . إنّنا بصدد لفظ الجلالة : «الله» الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مناسبة العموم ، والجزئيّة الكريمة هنا تضع قاعدةً عامّة يندرج تحتها كلّ الكافرين .

وحينما يستعمل الواحد منّا مثل هذا القول : إنّ فلاناً لا يحبّ فلاناً ، من الجائز أن يفهم من هذا القول أنّ عدم الحبّ تتفاوت درجاته بحيث يتساوى فى إحدى الدّرجات الحبّ والكره ويخلص الحبّ فى إحدى الدّرجات الأخر كرهاً وهكذا . فما الّذى يمكن أن يقال بشأن القول : ﴿**والله لا يحب الظّالمين**﴾ ؟ .

من المعروف أنّ هؤلاء الكافرين الّذين فعلوا بالمسلمين فى أحدٍ ما فعلوا لا يرضى الله تعالى عن أفعالهم تلك ولا يحبّهم آنذاك . ولكنّ بعض

هؤلاء الكافرين من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وأبلى فى سبيل الله تعالى بلاءً حسناً كخالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . إنّ عدم حبّ الله تعالى للكافرين ما داموا كفّاراً ، فإذا أسلموا وأعطوا الدّليل على إسلامهم بعمل الصّالحات نالوا نصيبهم الموفور من حبّ الله تعالى لهم . وبهذا يتبيّن أنّ معنى القول : ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ والله لا يحبّ الظّالمين ما داموا كفّاراً وظالمين .

واللّفظة الأخيرة الّتى نودّ أن نقف عندها فى الجزئيّة الكريمة لفظة : «الظّالمين» وهى تعنى هنا الكافرين لأنّهم هم الّذين يقاتلون المؤمنين ويقتلونهم ، وهى تعنى وراء ذلك أنّ هؤلاء الكافرين ظالمون . والظّالم هو الّذى يضع الشّىء فى غير موضعه . فالكافرون ظالمون لأنّهم وضعوا العبادة فى غير موضعها بأن أشركوا مع الله تعالى سواه . ولأنّهم ظلموا المؤمنين بقتالهم لهم . والجزئيّة الكريمة وراء كلّ ذلك تجرى مجرى المثل فهى بذلك تنطبق على كلّ ظالم ، ظلم غيره أو ظلم نفسه . والآية الكريمة التّالية يكمل بها وجه الحكمة فإلى

الآيـــة رقـــم (١٤١)

قال تعالى : ﴿وليمحّص الله الّذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ .

حينما يكون ثمّة قتالٌ بين المؤمنين والكافرين يكون هنالك قتلى من الفريقين المنتصر والمنهزم على السواء ، وقد تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن الشّهداء السّعداء ، ويكون هنالك أحياء من الفريقين ومنهم الجرحى والأسرى . وحينما يكون القتال مستمرّاً والحرب سجالاً بين الفريقين تتكرّر هذه الحالات . إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن هؤلاء الأحياء من الفريقين . أمّا المؤمنون الّذين وعدهم الله تعالى ، ووعده الحقّ ،

بأن يستخلفهم فى الأرض ، وأن يمكّن لهم دينهم الّذى ارتضى لهم ، وأن يبدّلهم من بعد خوفهم أمنا ، فإنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يبتليهم بالكافرين فى أحدٍ وفى غير أحد ليمحّصهم وليخلّصهم من الشّوائب وليطهّرهم من الأرجاس وليزكّيهم من الأدران كى يكونوا إيماناً خالصاً ، ونقاء كاملاً ، وصفاءً تامّاً . وأصل المحص تخليص الشّىء ممّا فيه من عيبٍ كالفحص لكن الفحص يُقال فى إبراز شىء من أثناء ما يختلط به وهو منفصلٌ عنه ، والمَحْص يقال فى إبرازه عمّا هو متّصلٌ به . يقال : مَحَصْت الذّهب ومحّصته إذا أزلتُ عنه ما يشوبه من خَبَث . قال : وليمحّص الله الّذين آمنوا . وليمحّص ما فى قلوبكم . فالتّمحيص ههٰنا كالتّزكية والتّطهير ونحو ذلك من الألفاظ [١] .

وما الّذى يقابل هذا الفضل من الله تعالى على المؤمنين وما هو حظّ الكافرين ؟ النّقص وذهاب البركة والذّبول فالاختفاء من الوجود : «ويمحق الكافرين» المحق النّقصان ومنه المِحاق لآخر الشّهر إذا انمحق الهلال وامتحق يقال : مَحَقه إذا نَقَصه وأذهب بركته . قال : يمحق الله الرّبا ويُرْبى الصّدقات . وقال : ويمحق الكافرين [٢].

وهكذا يتبيّن أنّ وجود المؤمنين بإذن الله تعالى مضمون ، وأنّ نقصان الكفّار واضمحلالهم بإذن الله تعالى مضمون ، وإنّ أكبر دليلٍ على هذه الحقيقة الطّرفان اللّذان تحدّثت عنهما الآية الكريمة المتصارعان فى جزيرة العرب . لقد تحقّق فى الكافرين قوله عزّ من قائل [٣] : **﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الّذين عاديتم منهم مودّة . والله قدير . والله غفورٌ رحيم﴾** . لقد تحوّل الكفّار مسلمين لله ربّ العالمين ولله الحمد والمنّة .

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ٤٦٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ٤٦٤ .
(٣) سورة الممتحنة ٧ .

وإنّ هذا الكلام الشّامل فى الآية الكريمة يتلوه كلامٌ يخصّ المؤمنين فى الآيات الكريمات التّاليات فإلى

الآيــة رقـم (١٤٢)

قال تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين﴾ .

الّذين استشهدوا فى أحد أكرمهم الله تعالى بالشّهادة وبحسن الذّكر فى القرآن الكريم فقد نصّت الآية الكريمة قبل السّابقة على أنّ الله سبحانه وتعالى يتّخذ من المؤمنين شهداء . أمّا المجاهدون الّذين ينتظرون أن يقضوا نحبهم مجاهدين فى سبيل الله تعالى والّذين أصابهم القرح فى أحد فإنّهم يخاطبون فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها. إنه فى معرض السؤال المشوب بالإنكار يُقال لهؤلاء المؤمنين المجاهدين الّذين جزعوا لما أصابهم فى أحد أحسبتم وظننتم أن تدخلوا الجنّة بعد أن تلقوا وجه ربّكم الأعلى ، تلك الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى فيها مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولم يعلم الله تعالى بَعْدُ علم ظهورٍ ، كى تقوم الحجّة وتلزم المسئوليّة ، الّذين جاهدوا منكم فى سبيل الله تعالى دون أن يصيبهم الوهن والضّعف والاستكانة ، ولم يعلم الله تعالى الصّابرين المصابرين المرابطين فى سبيله جلّ وعلا .

إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول للمؤمنين عليكم بالجهاد فى سبيل الله تعالى بالنّفس والنّفيس وبالصّبر الجميل فلا قيمة لجهادٍ دون صبر ولا معنى لصبرٍ دون جهاد . وبهذا يتبيّن أنّ الصّبر المطلوب من المؤمن هو الصّبر المحفوف بالمكاره ، المقرون بالأعمال الإيجابيّة الثّقيلة الوزن الجليلة الخطر . وبهذا يتبيّن أنّ ما صادفه المؤمنون فى أحد من استشهاد وجراح ونصب هو ثمن الجنّة الّتى وعد الله تعالى المتّقين . وبما أنّ المؤمنين لهول

الصّدمة كأنّهم نسوا أنّهم هم الّذين اقترحوا على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يخرجوا من المدينة المنّورة إلى قتال المشركين فى أحد كى ينالوا ثواب المجاهدين فى بدرٍ وقد فاتهم شهوده وكى ينالوا درجة الشّهادة الّتى اصطفى الله تعالى بها عدداً من المؤمنين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا . وإنّما تعنى الشّهادة موت المجاهد فى سبيل الله تعالى فى ميادين الشّرف والرّجولة والبطولة . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتتحدّث فى هذا الشّأن فإلى

الآيــة رقــم (١٤٣)

قال تعالى : ﴿ولقد كنتم تَمنَّوْنَ الموت من قبل أن تلقَوْه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ .

حينما نتأمّل قول الشّاعر أبى العتاهية :

ألا ليت الشّبـاب يعود يـومـاً فـأخبـره بمـا فعـل المشيب

وقول الشّاعر المتنبّى :

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجرى الرّياح بما لا تشتهى السّفن

ندرك أنّ المحبوب الّذى يتمنّاه الإنسان عزيز المنال بل قد يكون مستحيلاً كاستحالة عودة الشّباب . وحينما نتأمّل جملة تمنّون فى الآية الكريمة ندرك أنّ المؤمنين وبخاصّة الشّباب الّذين استشارهم النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى شأن كفّار مكّة وحلفائهم الّذين نزلوا بسفح جبل أحد ندرك أنّهم لم يكونوا يريدون لقاء العدوّ والخروج إلى الكفّار فقط إنّما كانوا حريصين على منتهى ما يمكن أن يصيب المقاتل وهو القتل فى ميدان الشّرف والرّجولة ، بل كانوا يتمنّون أن يستشهدوا فى سبيل الله تعالى بمعنى أنّهم

كانوا يتمنّون الموت من قبل أن يلقوا الموت فى ميدان المعركة قصداً أو مصادفة ، وليس وراء الموت مطمح وليس وراء الشّهادة مطمع .

ولقد صدق هؤلاء المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى ما عاهدوا الله تعالى عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر حتّى كان النّصر أوّل المعركة. وحينما خالف الرّماة أمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتركوا مواقعهم على جبل الرّماة حرصاً على الغنيمة التفّ عليهم المشركون من خلفهم وأحاطوا بهم من كلّ جانب وتحوّل النّصر بإذن الله تعالى إلى هزيمة واستشهد سبعون وجُرح وهُزم كثيرون وثبت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فى ميدان المعركة مع أفرادٍ قليلين معدودين . إنّ الآية الكريمة تذكّر المؤمنين الّذين رأوا الموت بأمّ أعينهم فى ميدان المعركة تذكّرهم بتمنّيهم الموت من ذى قبل . فكيف عبّرت الآية الكريمة عن تجربة المؤمنين المريرة فى أحد . قال تعالى : ﴿**فقد رأيتموه وأنتم تنظرون**﴾ والمعنى فقد رأيتم الموت بأعينكم الّتى فى رءوسكم لهول الموقف وكثرة القتلى والجرحى وأنتم تنظرون بأعينكم الّتى فى رءوسكم وكأنّه شخصٌ يرى أو شىءٌ يُبْصَر .

وكى نتبيّن معنى الجزئيّة الكريمة نرى أنّ فى الإمكان الاستئناس بقوله تعالى فى سورة الأعراف[1] : ﴿**وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون**﴾ والمعنى أنّ الأصنام الّتى يعبدها المشركون ويدعونها مع الله تعالى لو أنّك أيّها الرّسول الكريم ، وإنّ كلّ فردٍ من أفراد أمّته ﷺ تبعٌ له فى ذلك ، لو أنّك دعوتها إلى الهدى ودين الإسلام فإنّها لا تسمع ، ووراء ذلك أنت ترى هذه الأصنام تنظر إليك بينما هى لا تُبْصر لأنّ العبرة ليست فى العين المبصرة وحدها إنّما فى التّعاون بين العين المبصرة وحضور القلب وحصول الإدراك .

---

(١) الآية ١٩٨ .

والّذى يلفت النّظر بشأن آية سورة الأعراف أنّ الرّؤية نسبت إلى المخاطب ، وهو هنا المصطفى ﷺ وكلّ مؤمن ومعنى الرّؤية تحويل العين المبصرة ما ينعكس عليها من ضوء نابعٍ من المرئىّ إلى صورةٍ تتمثّلها البصيرة وتحتفظ بها المخيِّلة . وبهذا يتبيّن أنّ الرّؤية كى تحقّق غرضها هى بحاجة إلى العين الّتى تنظر وبحاجةٍ كذلك إلى البصيرة الّتى تسدّد النّظر وإلى الإدراك الّذى يقيّد المنظر . إنّ هذه العوامل حينما تجتمع تتحقّق عمليّة الرّؤية أو عمليّة الإبصار . وإنّ آية سورة الأعراف الكريمة تثبت للمخاطب الرّؤية أو الإبصار بينما تثبت للأصنام النّظر دون الإبصار أو الرّؤية . بل إنّ الحديث هنا ما دام عن الأصنام الّتى لا تفقه ، معناه أنّ النّظر من الأصنام موجودٌ شكلاً لا حقيقة ومظهراً لا مخبراً . وبما أنّ النّظر لم يتحقّق فمن باب الأولى ألّا يتحقّق ما يترتّب عليه عادةً من رؤية وإبصار .

فإذا عدنا إلى آية سورة آل عمران فما الّذى يلاحظ فى مجال المقارنة بآية سورة الأعراف فى قوله تعالى : ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ يلاحظ أنّ ثمّة تخطّياً لمرحلة اللّقاء الّتى تحقّقت للمؤمنين المجاهدين وقد وصلوا إلى ميدان المعركة ومارسوا قتال أعداء الله تعالى فعلاً . كما يلاحظ أنّ المؤمنين لجدّ الموقف واشتعال المعركة وانتشار الخطر فى حكم من نظر إلى الموت ذاته وقد نظر أسبابه الّتى حضرت وفى حكم من رأى الموت فعلاً .

إنّ النّظر يكون بالعين وقد تحقّق فى آية سورة الأعراف للأصنام شكلاً لا حقيقة بينما تحقّق فى آية سورة آل عمران للمؤمنين شكلاً وحقيقة . وقد نفت آية سورة الأعراف الإبصار عن الأصنام ، وهذه نتيجةٌ طبيعيةٌ لإثبات النّظر شكلاً لا حقيقة ، بينا أثبتت آية سورة آل عمران لأعين المؤمنين النّظر كما أثبتت الرّؤية أو الإبصار . وحينما تثبت الرّؤية يثبت للعين النّظر حقيقةً ومضموناً .

إنّ المؤمنين فى أحد انتهوا إلى أعلى الدّرجات بأن رأوا الموت عياناً وهم ينظرون إليه بأعينهم المفتوحة الّتى تدعمها البصيرة النيّرة والأذن الواعية والقلب الشّهيد .

ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال : لا تتمنّوا لقاء العدوّ وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنّة تحت ظلال السّيوف (١) .

ولمّا كان من أسباب فشل المؤمنين استجابتهم فى مجموعهم لما شاع من نبأ وفاة المصطفى ﷺ فى ميدان المعركة فإنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن وجه الحقّ فى هذه المسألة فإلى

الآيــة رقــم (١٤٤)

قال تعالى : ﴿وما محمّد إلّا رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ محمّداً ﷺ رسول الله تعالى ، فهو رسول كسائر الرّسل ، وهو بشر كسائر البشر الّذين يجوز عليهم وفيهم الرّسل ، الموت أو القتل . وفى معرض الإنكار على المؤمنين الّذين كادت الإشاعة بقتل النّبىّ ﷺ فى أحد تفقدهم صوابهم وتظهر نفاقهم الّذى ذهب كأمس الدّابر ، تسأل الآية الكريمة أولئك المؤمنين : **أفإن مات محمّد** وهو ميّتٌ لا محالة **أو قتل** فى أحد أو فى غير أحد لأنّ القتل يجوز فى حقّه كما جاز فى حقّ عددٍ من النّبيّين لولا أنّ الله سبحانه وتعالى عصم خاتم النّبيّين من النّاس ، **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** وعدتم كافرين . إنّ من ينقلب منكم على عقبيه فلن يضّر الله تعالى شيئاً لأنّ الضّرر عائدٌ إلى المرتدّ وحده وفى المقابل سيجزى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٩/١ .

الله تعالى المؤمنين الصّابرين المصابرين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا .

وبعد هذا الإيجار نتبيّن أنّ كلّ جزئيّةٍ بحاجةٍ إلى شىءٍ من بسط القول مرّة أخرى . وأوّل ما يصادفنا القول : «وما محمّدٌ إلاّ رسول» ويلفت نظرنا ذكر اسم المصطفى ﷺ بصريح اللّفظ ، وقد اقتضى السّياق ذلك ، لأنّه حديثٌ عنه عليه الصّلاة والسّلام وفى ذكر اسمه عليه الصّلاة والسّلام بصريح اللّفظ قوّةٌ مؤكّدةٌ لبشريّته عليه الصّلاة والسّلام الّتى تريد الآية الكريمة لفت انتباه المؤمنين إليها . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ إنّما يخاطبه الله تعالى دون سائر النّبيّين بوصفه ، بأعظم صفتين له عليه الصّلاة والسّلام وهما صفتا النّبوّة والرّسالة . فيقال : «يا أيّها النّبىّ» «يا أيّها الرّسول» أمّا حينما لا يكون ثمّة خطابٌ مباشرٌ له عليه الصّلاة والسّلام وكان ثمّة حكمةٌ من ذكر صريح اسمه عليه الصّلاة والسّلام فإنّ اسمه ﷺ يجىء بصريح اللّفظ على غرار هذه الآية الكريمة الّتى جاء فيها الاسم «محمّد» تأكيداً لبشريّته عليه الصّلاة والسّلام وعبوديّته لربّ العالمين .

وإنّ التّأكيد لبشريّة محمّد ﷺ يقترن به فوراً رفعٌ لمستوى هذه البشريّة إلى أرفع الدّرجات الّتى يمتّن الله تعالى بها على عبدٍ من عباده جلّ وعلا وهى درجة الرّسالة تمشياً مع قوله تعالى فى سورة النساء [1] : ﴿**ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين . وحسن أولئك رفيقاً**﴾ إذ يتبيّن من الآية الكريمة أنّ المنعم عليهم يتدرّجون من الأعلى وفق هذا التّرتيب المرسلون . النّبيّون . الصّدّيقون . الشّهداء . الصّالحون . وهكذا يتبيّن أنّ الجزئيّة الكريمة ذات شقّين . الشّقّ الأوّل ويمثله الاسم «محمّد» وهو يقرّر بشريّة المصطفى ﷺ ويؤكدها . والشّقّ الثّانى «رسول» وهو يرفع هذه البشريّة إلى أعلى درجات

---

(١) الآية ٦٩ .

البشريّة المنعم عليها وهى درجة الرّسالة . وإنّ كلاًّ من الشّقّين قيدٌ يحول بين هذه البشريّة وبين أن تتجاوز قدرها إلى مقام الألوهيّة . أمّا القيد الأوّل فهو الاسم ذاته «محمّد» ويكفى دليلاً على ذلك أنّ هذا الاسم يسمّى به فى كلّ زمانٍ ومكان ما لا يكاد يأتى عليه الحصر من البشر. وأمّا القيد الآخر فهو القول : «رسول» إنّ محمّداً بشر ، وإنّ هذا البشر رسول الله تعالى إلى البشر لأنّ المرسل إليهم بشر ، والحكمة تقتضى أن يكون الرّسول من جنس المرسل إليهم .

وهكذا يتبين فى الجزئيّة الكريمة الفصل التّامّ بين مقام الرّبوبيّة ومقام العبوديّة .

ويلاحظ وراء ذلك أنّ الأسلوب ليس بسيطاً ولا عادياً فلا يقال مثلاً : «محمد رسول الله ﷺ» ، على غرار ما جاء فى سورة الفتح لأنّ التّقرير مطلوبٌ هنالك . إنّما جاءت الجزئيّة الكريمة هنا فى أسلوب القصر : ﴿وما محمّد إلا رسول﴾ والمعنى وما محمّد بن عبدالله ﷺ إلاّ رسول الله تعالى . إنّ أسلوب القصر هنا يفيد بشريّة الرّسول ﷺ ويؤكدها وهو فى القول : «وما محمّد» يبدأ بتقرير هذه البشريّة منطلقاً من نقطة الصّفر فمحمّد ﷺ بشرٌ من ترابٍ ومن نطفة ، وهو فى القول : «إلاّ رسول» ينتهى بهذه البشريّة إلى منتهى سموّها وارتفاعها وعلوّها الّذى يقف عنده ولا يتعدّاه أسمى مراتب البشريّة المنعم عليها بنعمة الرّسالة . والمعنى كما عرفنا وما محمّد إلاّ رسول الله . وحينما نعلم أنّ محمّداً ﷺ أشرف المرسلين وخاتم النّبيّين يتأكد لدينا أنّ الجزئيّة الكريمة بانطلاقها من بداية البشريّة وانتهائها إلى غاية البشريّة مروراً بما بين البداية والنّهاية قد قرّرت مقام بشريّة المصطفى ﷺ وأكّدت حدودها وعيّنت معالمها المبيّنة قدرها من مقام الرّبوبيّة الرّفيع .

وإذا فهمنا من أسلوب القصر : «وما محمّد إلا رسول» أنّ محمّداً ﷺ ليس إلّا رسولاً من ربّ العالمين وعرفنا سموّ درجة الرّسول أدركنا أنّ الجزئيّة الكريمة كما تريد تقرير بشريّة الرّسول ﷺ هى تريد تقرير أرفع الدّرجات لهذا البشر الرّسول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وهكذا يتبيّن دور أسلوب القصر المعجز فى شدّ شقّى الجملة إلى بعضهما بحيث يرتفع الشّقّ الآخر السّامق «إلّا رسول» بالشّقّ الأوّل الأرضى «وما محمّد» إلى أعلى الدّرجات وأسمى المقامات .

وهذه الجزئيّة الكريمة : **﴿قد خلت من قبله الرّسل﴾** تؤكّد بشريّة أشرف الرّسل فكيف بمن يقلّون فى الدّرجات وذلك بتقرير نهاية الرّسل من قبله ، وفى ذلك تنبيهٌ إلى أنّ ما صحّ للرّسل السّابقين من موتٍ ومضىٍّ ولحاقٍ بالرّفيق الأعلى يصحّ عليه ﷺ . ومن البيّن علاقة هذه الجزئيّة الكريمة بما شاع فى غزوة أحد من موت المصطفى ﷺ .

ولمّا كان الموت غاية كلّ حىّ وربمّا القتل ، ولمّا كانت مناسبة نزول الآية الكريمة المصيبة الّتى حلّت بالمؤمنين حينما شاع قتل المصطفى ﷺ فى أحد فإنّ الآية الكريمة فى جزئيّتها التّالية تعالج النّفوس المؤمنة من تلك المصيبة الّتى ألمّت بها فى أسلوب القرآن الكريم المعجز : **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** .

إنّ الاستفهام هنا إنكارىّ ، والجزئيّة الكريمة تنكر على المؤمنين أن يعودوا إلى الكفر سريعاً وأن ينقلبوا على أعقابهم إلى الشّرك بسبب موت المصطفى ﷺ أو قتله . إنّ ذلك الجزع وذلك الانقلاب لا ينتظر منهم ولا يتوقّع لأنّهم يعبدون الله تعالى الحىّ الّذى لا يموت ربّ محمّد وليس محمّداً البشر الرّسول الّذى يصحّ عليه الموت والقتل كما يصحّ عليه ما دونهما .

وتقدّم الآية الكريمة فى الذّكر الموت لأنّ الغالب على البشر أن يموت الواحد منهم حتف أنفه وعلى فراشه . وتؤخّر الآية الكريمة فى الذّكر القتل لتأخّر درجته فى الوقوع والحدوث بالقياس إلى الموت .

وتعبّر الجزئيّة الكريمة عن العودة السّريعة إلى الكفر بالانقلاب على الأعقاب . والأعقاب جمع العقب . والعقِب مؤخّر الرّجل . ورجع على عقبه إذا انثنى راجعاً . وانقلب على عقبيه نحو رجع على حافرته ، ونحو : ارتدّا على آثارهما قصصا ، وقولهم : رجع عودُه على بدئه . قال : ونُرَدّ على أعقابنا . انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه . ونكص على عقبيه . فكنتم على أعقابكم تنكصون [١] .

إنّنا بصدد استفهامٍ إنكاريّ أن يرتدّ المؤمنون سريعاً إلى الكفر لموت المصطفى ﷺ أو قتله فى أحد أو فى غير أحد . وبعد الحديث عن الجماعة يأتى الحديث عن الفرد وبعد اللفّ يأتى النّشر . وها نحن أولاء بصدد الحديث فى الجزئيّة الكريمة التّالية عن كلّ فردٍ على حده : ﴿**ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً**﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت النّظر فى هذه الجزئيّة الكريمة مجىء لفظة عقب فى صيغة التّثنية وليس فى صيغة المفرد على الرّغم من صحّة تعبير المفرد هنا عن المثّنى لأنّ لكلّ شخصٍ عقبين . فما هى الحكمة من مجىء صيغة التّثنية هنا وليس صيغة المفرد ؟

يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ صيغة التّثنية هنا «ومن ينقلب على عقبيه» تقوم بها وحدها الحجة على المرتدّ لأنّ العقبين حينما ينقلب عليهما المرتدّ يكون والعياذ بالله قد اتّخذ قراره بالارتداد إلى الكفر وترك الإيمان ، بمعنى أنّه

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «عقب» ٣٤٠ .

اتّخذ الخطوة الأولى إلى الكفر وتجاوزها إلى الخطوة الأخرى الّتى تعنى أنها ستتلوها هى الأخرى خطوات . ويبدو والله تعالى أعلم أنّ صيغة المفرد إنّما تمّ العدول عنها هنا لأنّ الخطوة الأولى المتقدّمة للأمام من الجائز أن تتبعها خطوة أخرى متأخرة للخلف ، وهذه الحال هى الّتى يعبّر عنها بالتّردد وبتقديم رجلٍ أو عقب وبتأخير رجلٍ أخرى أو عقب . أمّا حينما تجىء صيغة التّثنية هنا فذلك معناه أنّ المرتدّ على عقبيه قد مضى فى ارتداده قدماً وسار بقدميه إلى نهاية المطاف وغاية الشّوط دون أن يلوى على شىء والعياذ بالله .

والجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ من يرتدّ على عقبيه وينقلب كافراً فلن يضّر الله تعالى شيئاً لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنىّ ولأنّ العباد هم الفقراء إليه جلّ وعلا ، ولأنّ ضرر الارتداد عائدٌ على المرتدّ .

وبما أنّ من المؤمنين فى أحد من جاهد وصبر وصابر وصدق ما عاهد الله تعالى عليه وما بدّل تبديلاً فإنّ الآية الكريمة بعد ذمّ المرتدّ أثنت على هؤلاء المجاهدين الصّادقين الصّابرين المصابرين . لقد كان ذلك فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿**وسيجزى الله الشّاكرين**﴾ .

وأوّل ما يلفت النّظر مجىء لفظ الجلالة «الله» بصريح اللّفظ رغم مجىء اللّفظ فى الجزئيّة الكريمة السّابقة قريباً . إنّ هؤلاء المجاهدين الصّادقين من حقّهم أن ينالوا حظّهم موفوراً من هذا الاسم العظيم «الله» والجزئيّة الكريمة تعبّر عن هؤلاء المجاهدين الصّادقين بالشّاكرين . إنّهم صبروا فى البأساء والضّرّاء وحين البأس . وهم قد شكروا لله تعالى فى حال اليسر والعسر وبذلك تحقّق كمال الإيمان فى هؤلاء المجاهدين لأنّ الإيمان شطران شطرٌ صبرٌ وشطرٌ شكر . وإنّما عبّرت الجزئيّة الكريمة عن هؤلاء المؤمنين بالشّاكرين لأنّ صفة الصّبر مفهومةٌ ضمناً ولأنّ الشّكر فى هذه الحال لا يكون إلاّ عن طريق المرور بجسر الصّبر وبهذا تكون صفة الشّكر قد

أظهرت مضمر الصّبر وأضافت جديد الشّكر . إنّ الله سبحانه وتعالى سيجزى هؤلاء الشّاكرين ، وهو جلّ وعلا الشّكور ، وذلك بإدخالهم الجنّات الّتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولمّا كان الله سبحانه وتعالى قد عصم المصطفى ﷺ من أن تمتّد إليه يدُ آثمةٌ بالقتل ، ولمّا كان مصير المصطفى ﷺ الموت . وكان الموت هو الغالب على البشر فقد كان حديث الآية الكريمة منطلقاً من نقطة الموت هذه مع العلم بأنّ الموت كما يكون حتف الأنف عَبْطةً أو هَرَما يكون شهادةً وقتلاً وتتعدّد أسبابه فإلى

الآيــــة رقــم (١٤٥)

قال تعالى : **﴿وما كان لنفسٍ أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً . ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشّاكرين﴾** .

تقرّر الآية الكريمة أنّه ما كان لنفسٍ من النّفوس ولا صحّ لها سواء كانت نفس رسول أو غير رسول أن تموت حتف أنفها أو فى ميادينِ القتال والنّضال إلّا بإذن الله تعالى ، كتب الله سبحانه تعالى ذلك كتاباً مؤجّلاً وقدّره تقديراً محدّدا . والأجل : المدّة المضروبة للشىء ، ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال : دنا أجله عبارة عن دنوّ الموت . وأصله استيفاء الأجل أى مدّة الحياة [١] .

وبما أنّ الأجل محدّد ، والعمر بيد الله تعالى ، والموت بإذن الله تعالى وحده لا شريك له ، فلم الخوف من الموت ، ولم الاعتقاد بأنّ فى إمكان

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «اجل» ص ١١ .

الإنسان تحاشيه ، ولم الجزع لما يصيب الله سبحانه وتعالى به النّاس ويبتليهم من نقص الأنفس والجراح وأنواع المصائب .

ولمّا كانت الآية الكريمة تريد من النّاس ، وبخاصّة المؤمنون فى غزوة أحد ، ألاّ يفكّروا فيما أصابهم ، لأنّ لله تعالى الحكمة البالغة فى ذلك ، فإنّ الآية الكريمة ترشد النّاس إلى ما هو مطلوبٌ منهم ويستطيعون القيام به من حسن النّيّة وسلامة القصد وصلاحِ العمل وصوابه . وإنّما يكون العملِ صائباً إذا كان موافقاً للقرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ ، وإنّما يكون صالحاً مقبولاً بإذن الله تعالى إذا أريد بذلك العمل الصّالح وجه الله تعالى . وها هى ذى الآية الكريمة تبيّن أنّ من يرد بعمله الصّالح ثواب الدّنيا والجزاء العاجل عليه من عباد الله تعالى يؤته الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الدّنيا ما قسم الله تعالى له . وأنّ من يرد بعمله الصّالح وجه ربّه الأعلى وثواب الآخرة يؤته الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ما قسم الله تعالى له فى جنّات النّعيم من جزاءٍ عظيم وثوابٍ كريم ، وكذلك ما قسم الله تعالى له فى الأولى من حياةٍ طيّبة ونعيمٍ كبير .

وقد عبّرت آية سورة النّحل عن ثواب الأولى والآخرة بالحياة الطّيبة فيهما . قال تعالى [1] : **﴿من عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾** .

ولمّا كان طالب ثواب الدّنيا أقرب إلى الكفران وقد شمله القول : **﴿ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها﴾** وكان طالب ثواب الآخرة أقرب إلى الشّكران وقد شمله القول بعد ذلك : **﴿ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾** فقد كان الحديث عن الشّكور موطّئاً للقول فى ختام الآية الكريمة : ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يجزى الشّاكرين ويجزل لهم

(١) سورة النّحل ٩٧ .

المثوبة. ولعلّنا تبيّنا الفرق بين القول هنا : ﴿وسنجزى الشّاكرين﴾ وبين القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ لقد جاء لفظ الجلالة لحكمة تبيّناها من ذى قبل ، ولم يجىء لفظ الجلالة هنا لخلوص الحديث فى آخر الآية الكريمة عن الشّاكرين ، وهؤلاء لا يجزيهم إلّا الله تعالى ، فاكتفى بمجىء لفظ الجلالة : «الله» فى المرّة السّابقة .

ولمّا كان الإيمان شطرين ، شطرٌ شكر وشطرٌ صبر، وقد نال الشّكر حظّه فبقى إذن أن ينال الصّبر حظّه وقد كان ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقـم (١٤٦)

قال تعالى : ﴿وكأيّن من نبىٍّ قاتل معه ربّيّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحبّ الصّابرين﴾ .

تقرّر الآية الكريمة فى سبيل تسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين بأنّه كان هنالك الكثير من النّبيّين السّابقين الّذين قاتل معهم كثير من الرّبّانيّين الّذين ربّوا أنفسهم تربيةً إسلاميّة صحيحة وربّوا غيرهم تربيةً إسلاميّة صحيحة ، والّذين كانوا علماء حلماء حكماء أتقيَاء مجاهدين فى سبيل الله تعالى . وهؤلاء الرّبّانيّون أو الرّبّيّون ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله تعالى ولا عجزوا ، وما ضعفوا وما استكانوا ولا ذلّوا لعدوّهم . ومن البيّن أنّ الصّفة الّتى تحلّى بها القوم هى صفة الصّبر . وقد نبّهت الآية الكريمة على هذه الصّفة فى القول : ﴿والله يحبّ الصّابرين﴾ .

ويفهم من القول : «وكأيّن» كثرة الكمّ ، فما أكثر النّبيّين الّذين جاهدوا فى سبيل الله تعالى وما أكثر الرّبّيّين الّذين صبروا وصابروا ورابطوا .

والآية الكريمة تشير إلى النّبىّ : «وكأيّن من نبىّ» والمعروف أنّ لفظ نبىّ يشمل الرّسول أيضاً لأنّ النّبوّة طريقٌ ضرورىّ وخطوةٌ لازمةٌ سابقة للرّسالة

وقد خصّ الله تعالى محمّد بن عبدالله ﷺ بكونه خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين .

وفى نفي الآية الكريمة عن الرّبيّين أتباع النّبيّين السّابقين الوهن والضّعف والاستكانة تعريضٌ بأتباع المصطفى ﷺ الّذين أصابهم فى أحد الوهن والضّعف والاستكانة والّذين جزعوا ولم يصبروا .

وحينما نعلم أنّ الوهْن بمعنى الضّعفِ ، والضّعف الشّديد ، نستطيع أن نتبيّن الحكمة من الجمع بين الوهن والإصابة فى سبيل الله تعالى ، وكأنّ الوهن ضعفٌ يقترن بممارسة المهمّة ونزول المصيبة فى آنٍ واحد . إنّ الرّبيّين ما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله تعالى وكان ذلك هو المنتظر من أتباع خاتم النّبيّين فى أحد .

وتنفى الآية الكريمة عن الرّبيّين الضّعف . ونستطيع أن نفهم الضّعف هنا بأنّه الضّعف عن مواصلة الكفاح واستئناف استعداد للجولات الّلاحقات وبذل النّفس والنّفيس فى سبيل مرضاة الله تعالى بالجهاد فى سبيله جلّ وعلا . وهكذا يتبيّن الفرق بين الوهن والضّعف ، وأنّ الوهن شدّة الضّعف للمجهود الّذى يبذل وللنّازلة الّتى تحلّ بينما الضّعف يراد به مطلق الضّعف المعنويّ والمادىّ .

وإذا كان الوهن ضعفاً مرتبطاً بحالاتٍ معيّنة ، وكان الضّعف شاملاً لكلّ الحالات وراء ذلك ، فما الّذى يتولّد عن الوهن وعن الضّعف ؟ يتولّد عنهما ما نفته الآية الكريمة بعد ذلك عن الرّبّيّين ، الاستكانة بمعنى الذّلّ والخنوع والجبن والخضوع .

إنّ الآية الكريمة تريد أن تزيل عن المؤمنين الّذين أصابهم القرح فى أحد ما علق ببعضهم من شائبة الوهن والضّعف والاستكانة ، وأن يتحلّوا

بالصّبر كى يكونوا من الصّابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس الذّين يحبّهم الله تعالى ويرضى عنهم ويأخذ بأيديهم وينير لهم السّبيل .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن أفعال الرّبّيّين حين البأس وبقى الحديث عن أقوالهم وذلك ما نصّت عليه الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقـم (١٤٧)

قال تعالى : **﴿وما كان قولَهُمْ إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾** .

إنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿وما كان قولهم﴾ معطوف على القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿فما وهنوا﴾ .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الرّبّيّين ما كان قولهم حين البأس **﴿إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾** .

إنّنا بصدد دعاءٍ صادقٍ حارٍّ يتّجه به الرّبّيّون إلى ربّهم جلّ وعلا وحده لا شريك له . وإنّه بالنّظر إلى فقرات الدّعاء الأربع يتبيّن أنّ الفقرتين الأوليين تنطلقان من ذوات الرّبّيّين الفقراء إلى الله تعالى رّب المستضعفين وهم الّذين يواجهون أعداءً شرسين ، كما يتبيّن أنّ الفقرتين الأخريين تؤّديان فى حال تحقّقهما بإذن الله تعالى إلى نصر الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

إنّ الرّبّيّين فى الفقرة الأولى وفى الفقرة الثّانية كذلك ينطلقون من حقيقة معرفة أقدارهم وهم العباد غير المعصومين فيسألون الله تعالى ابتداءً وفيما يخصّ ذواتهم أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يستر عيوبهم ، وهذه الذّنوب أقرب إلى ملازمتها لذواتهم . ويسألون الله تعالى بعد ذلك أن يغفر لهم

إسرافهم فى أمورهم ، والإسراف هو تجاوز الحدّ ، وتخطّى القصد ، فى مجال المال وفى غير مجال المال ، والمراد هنا تجاوز الحدود الّتى ما ينبغى للرّبّيّين وسواهم أن يتجاوزوها ، وبهذا يتبيّن أنّ الإسراف فى الأمور أقرب إلى تعدّى ذوات الربّيّين إلى سواهم ممّن أضرّ بهم وأساء إليهم الإسراف فى الأمور وتخطّى الحدود .

أما وقد سأل الله تعالى الرّبّيون أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ممّا يعنى بإذن الله تعالى غفران الذّنوب وستر العيوب والتّخلّص من القيود فقد تحوّل الرّبّيّون إلى سؤال الله تعالى أمرين آخرين على غرار الأمرين الأوّلين . وهذان الأمران الآخران تتعدّى ثمرتهما الخيّرة الرّبّيّين لأنّ تثبيت الأقدام من الله تعالى لهم فيه خير هذا الدّين ، ولأنّ النّصر على الكافرين فيه كذلك الخير لهذا الدّين .

وإنّه بالنّظر إلى هذه الفقرات الثّلاث الّتى قلنا إنّها تتعدّى الرّبّيّين إلى سواهم وإلى خارجهم يتبيّن أنّها تتدرّج فى هذا الخروج وذلك الابتعاد . ويتّضح ذلك بمقارنة كلّ فقرة بالفقرة الأولى وهى مغفرة الذّنوب . إنّ الذّنب لاصقٌ بصاحبه ، وإنّ الإسراف فى الأمر خارجٌ بطبعه عن ذات الشّخص وإن كان هو الّذى يقوم بعمليّة الإسراف ولكنّ الأثر خارجىّ . فإذا تحوّلنا إلى تثبيت الأقدام تبيّنّا أنّه بإذن الله تعالى خطوةٌ ضروريّةٌ مفضية إلى آخر الخطوات والفقرات وهى النّصر على القوم الكافرين .

وممّا يلفت الانتباه جمع الذّنوب وإفراد الأمر وذلك فى القول : ﴿**ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا**﴾ لأنّ الذّنوب كثيرةٌ بطبعها ولا يكاد ينجو من لممها إلّا من رحم الله تعالى ، وكأنّ إفراد الأمر هنا يراد به ما له علاقةٌ بجهاد الكفّار بصفةٍ خاصّة . إنّ هؤلاء الرّبّيّين يسألون الله تعالى أن يسدّد خطاهم وأن ينير لهم السّبيل وأن يأخذ بأيديهم وألا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به . إنّ

مغفرة الله تعالى للرّبّيين إسرافهم فى أمر الجهاد وأخذ العدّة له مظنّة أن تقود إلى تثبيت الله تعالى الأقدام وإلى النّصر على القوم الكافرين .

وممّا يلفت الانتباه كذلك مجيء لفظة القوم فى القول : ﴿**وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ وعدم الاستغناء عن لفظة القوم ، وكأنّ فى ذكر لفظة القوم تأكيداً من الربّيين لضعفهم وفقرهم لربّهم جلّ وعلا الغنىّ وحاجتهم الملحّة لعون الله تعالى على قتال قومٍ من الكافرين وفئةٍ واحدةٍ منهم من بين أقوامهم الكُثْر وفئاتهم الّتى لا يكاد يأتى عليها الحصر .

وينبغى أن يكون للقول «ربّنا» والمعنى يا ربّنا عظيم الدّلالة فى جوّ الودّ والحنان والخصوص . إنّ هؤلاء الرّبّيين يسألون ربّهم جلّ وعلا غفران الذّنوب والنّصر على الأعداء . وحقّ للرّبّيين أن يسألوا ربّهم جلّ وعلا ، وإنّ من موجبات ذلك اشتراك اللفظين فى الأصل الّلغوى الواحد ، فالرّبّ الخالق المعبود وحده لا شريك له يربّ عباده بنعمه وينشّئهم بفضله وفيهم الرّبّيون الّذين أثنى عليهم القرآن الكريم ثناءً عاطراً وهم الرّبّانيّون العلماء الحلماء الحكماء الفقهاء المجاهدون فى سبيل الله تعالى بكلّ رخيصٍ وغال .

وإنّ الآية الكريمة التّالية تقرّر استجابة الله تعالى دعاء الرّبّيين المضطرّين وقد دعوا ربّهم جلّ وعلا الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء جلّ وعلا فإلى

الآيــة رقــم (١٤٨)

قال تعالى : ﴿**فآتاهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحبّ المحسنين**﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى آتى الرّبّيين ثواب الدّنيا بالنّصر والغنيمة . ومن ا لبيّن أنّ الإجابة تبدأ من حيث انتهى الدّعاء ولله تعالى

وحده لا شريك له الحمد والمنّة ، كما آتى الرّبّيّين حسن ثواب الآخرة وهى الجنّة الّتى فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومن البيّن أنّ ثواب الآخرة جاء بين يده لفظ حسن وليس بين يدى ثواب الدّنيا ، ممّا هو معمّقٌ للحقيقة من كون الآخرة خيراً من الأولى وأنّ من زُحْزِح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز .

وإنّما كان هذا الثّواب الجزيل للرّبّيّين فى الأولى والآخرة لأنّهم من الصّابرين الّذين يحبّهم الله تعالى . وقد قال عزّ من قائل [1] : ﴿**إنّما يوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب**﴾ .

ولم يقف الرّبّيّون عند درجة الصّبر وقد عرفنا أنّ الصّبر أحد شطرى الإيمان إنّما قرنوا إلى ذلك الشّطر الآخر وهو الشّكر الّذى سبق وأن تحدّثت عنه الآيات الكريمات . وبجمع الرّبّيّين بين الصّبر والشّكر كمل الإيمان وارتقوا إلى درجة الإحسان ، وها هى ذى الآية الكريمة تعبّر عن الإحسان الّذى رشّح لمجيئه لفظة حُسْن فى الآية الكريمة : ﴿**فآتاهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحبّ المحسنين**﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ الصّابرين ، ويحبّ المحسنين . والإحسان كما بيّنه المصطفى ﷺ أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ الرّبّيّين أحسنوا كلّ شىء وليس الجهاد وحده وقد آتاهم الله تعالى وأعطاهم مَنّاً مِنْه جلّ وعلا وفضلاً ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة .

إنّ فى ذلك الكثير من الدّروس الّتى ينبغى أن يعيها المؤمنون جيّداً فى كلّ زمانٍ ومكان ، فى حال اليسر فى وفى حال العسر . وإنّ من تلك الدّروس ألاّ يطيعوا الّذين كفروا وأن يسألوا الله تعالى من فضله ومن ذلك النّصر على

---

(١) سورة الزّمر ١٠ .

الأعداء الكافرين الّذين لا مولى لهم والّذين مصيرهم النّار وبئس القرار . لقد أشارت الآيات الكريمات التّاليات إلى هذه الدّروس وهذا هو أوّلها .

الآيـــة رقـم (١٤٩)

قال تعالى : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا الّذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين**﴾ .

تنهى الآية الكريمة المؤمنين بعامّة ، المجاهدين فى أحد بخاصّة وتحذّرهم من طاعة الّذين كفروا . وبما أنّ الكفر ملّةٌ واحدة كان أعداء المؤمنين الظّاهرون آنذاك كفّار مكّة واليهود وغير الظّاهرين المنافقين ، فذلك معناه أنّ ثمّة تحذيرين اثنين أحدهما للمؤمنـين آنــذاك من أعدائهم ، وآخرهما للمؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان من أعدائهم الّذين لا يألونهم خبالاً . وتنصّ الآية الكريمة على الغاية الّتى لا يرضى الكافرون بها بدلاً وهى أن يردّوا المؤمنين على أعقابهم كافرين وأن يقلبوهم خاسرين ويردّوهم نادمـين ـ لا سمح الله ـ بعد أن ذاق المؤمنون حلاوة الإيمان .

إنّ على المؤمنين أن يعصوا الكافرين وألّا يتّخذوا منهم أولياء وفى المقابل عليهم أن يتّخذوا المؤمنين أولياء وأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم . إنّ المؤمنين بأمر الله تعالى منهيّون عن طاعة الّذين كفروا وإنّهم مأمورون بأن يسألوا الله تعالى مولاهم النّصر وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآية رقم (١٥٠)

قال تعالى : ﴿**بل الله مولاكم وهو خير النّاصرين**﴾

إنّ الآية الكريمة تبدأ بحرف العطف بل الّذى يفيد الإضراب عن الكلام السّابق وجعله فى حكم المسكوت عنه ، وبهذا تضع الآية الكريمة البديل الصّحيح . فالله

سبحانه وتعالى هو مولى المؤمنين ووليّهم وناصرهم . والله سبحانه هو خير النّاصرين القادر على كلّ شيء والّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ومن ذلك نصر المؤمنين ، فعلى المؤمنين أن يطيعوا الله تعالى ولا يعصوه ، وأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة وحده لا شريك له ، وأن يستعينوا به ويتوكّلوا عليه ويسألوه النّصر على الأعداء إنّه جلّ وعلا نعم المولى ونعم النّصير وخير النّاصرين . أمّا الكافرون فإنّ مصيرهم الهزيمة والهوان لأنّهم لا مولى لهم ولأنّ الله سبحانه وتعالى سيأخذهم عاجلاً أو آجلاً أخذ عزيزٍ مقتدر ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٥١)

قال تعالى : ﴿سنلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً ومأواهم النّار وبئس مثوى الظّالمين﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سيُلْقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب وسيقذف فى صدورهم أشدّ الخوف . ونودّ أن نقف عند جملة سنلقى ، ونستطيع أن نستأنس بمثل قوله عزّ من قائل على لسان أحد إخوة يوسف عليه السّلام فى سورة يوسف [١] عليه السّلام : ﴿قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيّارة إن كنتم فاعلين﴾ إنّ هذا القائل الّذى نظنّ أنّه كبير الاخوة والّذى وضع الله تعالى فى قلبه من محبّة يوسف القدر الضّرورىّ الّذى سمح له بأن يخالف رأيه الرّأيين الآخرين اللّذين يعنيان قتلِ يوسف بطريق مباشر أو بطريقٍ غير مباشر عن طريق طرحه أرضاً مخوفةً مليئةً بالذّئاب المعروفة بغدرها فكيف بها وقد خلت بطفلٍ فى أرضٍ نائية . إنّ الأخ الكبير أو الأكبر ينهى إخوته عن قتل يوسف ويستعمل

(١) الآية ١٠ .

بعد ذلك الجملة الّتى ترقى إلى حماسة القوم وتمتصّها وهى جملة «ألقوه» الّتى يُفْهم منها آنذاك إلقاء يوسف من أعلى الجبّ إلى غيابته . إنّ آية سورة آل عمران تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سيلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب . ونستطيع أن نفهم من استعمال جملة نلقى طرد الكافرين من رحمة الله تعالى بسبب بعد قلوب الكافرين النّاجم عن بعدهم عن الله تعالى .

وما الّذى يلقيه الله تعالى فى قلوب الكافرين ؟ الرّعب . أشدّ الخوف . لا ليس ذلك فحسب . بل إنّ العلماء قد فطنوا بشأن الرّعب إلى ثلاثة معانٍ ، الخوف ، والامتلاء ، والقطع [١] وقد عبّر الأصفهانىّ [٢] عن هذه المعانى بالقول : «الرّعب الانقطاع من امتلاء الخوف . . . ولتصوّر الامتلاء منه قيل : رَعَبْتُ الحوض ملأته ، وسيلٌ راعب يملأ الوادى . وباعتبار القطع قيل : رَعَبْتُ السّنام قَطَعْتُه . وجاريةٌ رُعبوبةٌ شابّة شطبة تارّة [٣] والجمع الرّعابيب» .

ولفظة رعب هنا تستعمل فى حقِّ الكافرين ، واللّطيف فى الأمر أنّ هذه اللّفظة تأتى فى القرآن الكريم خمس مرّات ، فى إحدى المرّات تشمل كلّ النّاس وذلك فى قوله تعالى فى سورة الكهف [٤] : **﴿لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾** . أمّا فى المرّات الأربع فإنّ اللّفظة تستعمل فى حقّ الكافرين مرّتين اثنتين ، وفى حقّ اليهود مرّتين اثنتين . ولا تستعمل اللّفظة فى حقّ المؤمنين بحالٍ من الأحوال .

لقد عرفنا أنّ لفظة الرّعب جاءت فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة «رعب» ٢/ ٤١٠ .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «رغب» ١٩٧ .
(٣) التّارّة : السّمينة المسترخية .
(٤) الآية ٨ .

فى حقّ الكافرين ، وكذلك هى فى قوله تعالى من سورة الأنفال [1] : **﴿إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان﴾** والحديث هنا عن غزوة بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، المؤمنون بقيادة المصطفى ﷺ والكافرون بقيادة أبى جهل .

وهاتان هما المرّتان اللّتان تستعمل فيهما اللّفظة فى حقّ اليهود . جاء فى سورة الأحزاب فى حقّ يهود بنى قريظة النّاكثين للعهود النّاقضين للمواثيق قوله تعالى [2] : **﴿وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرُّعْبَ فريقاً تقتلون وتأسِرون فريقاً﴾** وجاء فى سورة الحشر فى حقّ يهود بنى النّضير النّاكثين للعهود النّاقضين للمواثيق كذلك قوله تعالى [3] : **﴿هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنّهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾** .

ولماذا ألقى الله سبحانه وتعالى فى قلوب كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم الرّعب وشديد الخوف ؟ بسبب إشراكهم بالله تعالى فى العبادة ما لم ينزّل الله تعالى به سلطاناً ولا حجّة ، دليلاً ولا برهاناً : **﴿سنلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً﴾** .

وبما أنّ الشّرك بالله تعالى هو الّذنب الوحيد الّذى لا يغفره الله تعالى لمن مات مشركاً فإنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ مأوى أولئك النّار وأنّ مآلهم جهنّم وبئس النّار مثوىً للظالمين ومقاماً لهم ومستقرّا .

---

(1) الآية ١٢ .
(2) الآية ٢٦ .
(3) الآية ٢ .

وبعد الحديث عن مصير الكافرين ومآلهم يتحوّل الحديث إلى أوّل المعركة ووعد الله تعالى المؤمنين بالنّصر الّذى تحقّق أوّل المعركة حتّى غيّر المؤمنون ما بأنفسهم فإلى

الآيــة رقــم (١٥٢)

قال تعالى : **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون . منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم . والله ذو فضلٍ على المؤمنين﴾** .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد صدق المؤمنين وعده بأن ينصرهم على الكافرين وها هم المؤمنون يحسّون الكافرين ويقتلونهم بإذنه جلّ وعلا ويصيبون حواسّهم بالسّيوف ويميتونهم بمختلف أنواع الأسلحة . وكان ذلك فى أوّل المعركة حينما امتثل كلّ الجيش ، فرساناً ورجالاً ورماةً أوامر المصطفى ﷺ ، ومن البيّن أنّ الأسلوب ليس عاديّاً فإنّ اللّام من «ولقد» واقعة فى جواب قَسَم مقدّر . ومعنى إذ تحسّونهم إذ تقتلونهم [١] والحسّ بمعنى القتل ، ومن ذلك الحديث : حُسُّوهم بالسّيف حسّاً . وفى الحديث فى الجراد : إذا حسّه البرد . والحسيس : القتيل [٢] والحاسّة : القوّة الّتى بها تدرك الأعراض الحسّيّة [٣] . ويقال للمشاعر الخمس الحواسّ ، وهى : اللّمس والذّوق والشّمّ والسّمع والبصر [٤] وإنّما كان معنى تحسّونهم تقتلونهم لأنّ المعنى الأصلىّ تصيبون حواسّهم ، وإصابة الحواسّ وتعطيلها معناه

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨٣/٤ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة «حس» ٩/٢ .

(٣) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «حس» ١١٦ .

(٤) معجم مقاييس اللّغة «حس» ٩/٢ .

الموت ، وذلك على غرار القول : «كبدته وفأدته . ولمّا كان ذلك قد يتولّد منه القتل عُبّر به عن القتل فقيل : حسسته أى قتلته»[1] .

لقد كان النّصر حليف المؤمنين حينما امتثلوا أمر المصطفى ﷺ ثمّ انقلب النّصر إلى هزيمة حينما فشل المؤمنون وجبنوا وضعفوا ، وحينما تنازعوا فى أمر المصطفى ﷺ واختلفوا فى أمره عليه الصّلاة والسّلام للرّماة أن يظلّوا دائماً وأبداً على الجبل مهما كانت نتيجة المعركة فقد قال المصطفى ﷺ للرّماة [2] : «فإنّا لن نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم» . وحينما عصى الرّماة أمر المصطفى ﷺ بعدم مغادرة الجبل مطلقاً فتركوا مواقعهم طمعاً فى الغنمية تمكّن المشركون بقيادة خالد بن الوليد من القضاء على العدد القليل من الرّماة الّذين امتثلوا أمر المصطفى ﷺ فلم يغادروا أماكنهم ولم يتركوا مواقعهم رضى الله عنهم وأرضاهم . وبالتفاف جيش المشركين من الخلف على جيش المسلمين وبانضمام فلول المشركين إلى كتيبة خالد تحوّل بإذن الله تعالى نصر المسلمين إلى هزيمة . وتقدير الكلام : حتّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبّون فهزمتم بإذن الله تعالى . وهذا الّذى أحبّه المؤمنون النّصر والغنمية .

إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى قد صدق المؤمنين وعده لهم بالنّصر على لسان حبيبه المصطفى ﷺ «والوعد الّذى كان وعدهم على لسانه بأحد قوله للرّماة اثبتوا مكانكم ولا تبرحوا وإن رأيتمونا قد هزمناهم فإنّا لن نزال غالبين ما ثبتّم مكانكم وكان وعدهم رسول الله ﷺ النّصر يومئذٍ إن انتهوا إلى أمره»[3] . وعن ابن عبّاس أنّ أبا سفيان أقبل فى ثلاث ليالٍ خلون

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «حس» ١١٦ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٨١ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٤/٨١ .

من شوّال حتّى نزل أحدا . وخرج رسول الله ﷺ فأذّن فى النّاس فاجتمعوا [1] ونزل الشّعب من أحد في عدوة الوادى إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : لا تقاتلوا حتّى نأمر بالقتال [2] وأمّر على الخيل الزّبير بن العوّام ومعه يومئذٍ المقداد بن الأسود الكندى . وأعطى رسول الله ﷺ اللّواء رجلا من قريش يقال له مصعب بن عمير . وخرج حمزة بن عبدالمطّلب بالحسر وبعث حمزة بين يديه . وأقبل خالد بن الوليد على خليل المشركين ومعه عكرمة بن أبى جهل . فبعث رسول الله ﷺ الزّبير وقال : استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه حتّى أؤذنك . وأمر بخيلٍ أخرى فكانوا من جانبٍ آخر فقال : لا تبرحوا حتّى أؤذنكم . وأقبل أبو سفيان يحمل اللّات والعزّى . فأرسل النّبىّ ﷺ إلى الزّبير أن يحمل فحمل على خالد بن الوليد فهزمه ومن معه كما قال : ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتّى إذا فشلم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من ما أراكم ما تحبّون [3] لقد كان المصطفى ﷺ فى سبعمائة رجل وكانت قريشٌ فى ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل . وأمّر رسول الله ﷺ على الرّماة عبدالله بن جبيرٍ أخا بنى عمرو بن عوف وهو يومئذٍ مُعْلَم بثيابٍ بيض والرّماة خمسون رجلاً وقال : انضح عنّا الخيل بالنّبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتينّ من قبلك . فلمّا التقى النّاس ودنا بعضهم من بعض واقتتلوا حتّى حميت الحرب . وقاتل أبودجانة حتّى أمعن فى النّاس ، وحمزة بن عبدالمطّلب وعلّى بن أبى طالب فى رجالٍ من المسلمين فأنزل الله عزّ وجلّ نصره وصدقهم وعده فحسّوهم بالسّيوف حتّى كشفوهم وكانت الهزيمة لا شكّ

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨٢/٤ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٨٢/٤ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٨٢/٤ .

فيها[1] قال الزّبير : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند ابنة عتبة وصواحبها مشمّرات هوازم ما دون إحداهنّ قليلٌ ولا كثير إذ مالت الرّماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النّهب وخلّوا ظهورنا للخيل فأتينا من أدبارنا وصرخ صارخٌ ألا إنّ محمّداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن هزمنا أصحاب اللّواء حتّى ما يدنو منه أحدٌ من القوم[2] .

وهكذا تحوّل النّصر بإرادة الله تعالى فى أوّل المعركة هزيمة بإرادة الله تعالى فى آخرها والسبب فى ذلك بإرادة الله تعالى عصيان الرّماة الّذين أرادوا الدّنيا والّذين أشار إليهم وإلى الشهداء السّعداء الطّائعين الصّابرين المصابرين قوله عزّ من قائل : ﴿**منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾ إنّ الّذين أرادوا الدّنيا عصوا أمر رسول الله ﷺ فتركوا أماكنهم على الجبل ونزلوا لأخذ الغنيمة . وإنّ الّذين أرادوا الآخرة أطاعوا أمر رسول الله ﷺ فثبتوا فى أماكنهم وقد اتّخذ الله سبحانه وتعالى منهم ومن غيرهم من المجاهدين شهداء سعداء . قال ابن مسعود : ما كنت أظنّ فى أصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ أحداً يريد الدّنيا حتّى قال الله ما قال[3] .

أما وقد حصل من بعض المؤمنين ما حصل من عصيان فقد صرف الله تعالى أيديهم ووجوههم عن المشركين وصرف أيدي المشركين ووجوهم إلى المؤمنين ليبتليهم جلّ وعلا ويختبرهم ويعلم عزّ وجلّ علم ظهورٍ المجاهدين والصّابرين ويميز الخبيث من الطّيّب .

وإذا كان الله تعالى قد ابتلى المؤمنين بالهزيمة وضياعِ الغنمية والقتل والجراح بسبب العصيان فإنّه جلّ وعلا قد عفا عنهم ، فضلاً منه جلّ وعلا ومنّا وإكراماً للفئة المؤمنة الطّائعة الصّابرة المجاهدة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٤/٨٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٤/٨٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٤/٨٦ .

وقد توّج العفو من الله تعالى عن المؤمنين بالفضل العظيم عليهم حيث لم يشأ جل وعلا أن يستأصل شأفتهم . وهكذا يتبيّن أنّ القول : «ولقد عفا عنكم» متعلّقٌ بعفو الله تعالى ذنب المؤمنين بسبب العصيان ، كما يتبيّن أنّ القول : «والله ذو فضلٍ على المؤمنين» متعلّقٌ بمحض فضل الله تعالى العميم على المؤمنين حينما لم يمكّن المشركين من استئصال المسلمين فى ميدان المعركة فضلاً عن المدينة المنّورة . إنّه بفضل الله تعالى ثمّ بهذه الفئة المؤمنة بقيادة المصطفى ﷺ وصل دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى حيث وصل اللّيل والنّهار . ولله الحمد والمنّة وحده لا شريك له .

ولمّا كانت الآية الكريمة قد أشارت بإجمال إلى الابتلاء والفضل من الله تعالى فإنّ الآية الكريمة التّالية قد مالت إلى شىءٍ من التّفصيل فإلى

الآيــة رقــم (١٥٣)

قال تعالى : **﴿إذْ تُصْعِدون ولا تَلْوون على أحدٍ والرّسولُ يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غمّاً بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبيرٌ بما تعملون﴾** .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى قد ابتلى المؤمنين بصرفهم عن الكافرين وصرف الكافرين إليهم ، وأنّ الله سبحانه وتعالى قد عفا عنهم ، وهذا العفو مرتبطٌ بصدر هذه الآية الكريمة ، يعنى بذلك جلّ ثناؤه : ولقد عفا عنكم أيّها المؤمنون إذ لم يستأصلكم إهلاكاً منه جمعكم بذنوبكم وهربكم إذ تُصعدون ولا تلْوُون على أحد [١] وأنّ الله سبحانه وتعالى ذو فضلٍ على المؤمنين ، وقد تحدّثت هذه الآية الكريمة والآية الكريمة التّالية لها عن هذا الفضل من الله تعالى على المؤمنين .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨٧/٤ .

فما معنى القول : إذ تُصْعدون ؟ يقول ابن فارس [١] : «الصّاد والعين والدّال أصلٌ صحيح يدل على ارتفاعٍ ومشقّة . من ذلك الصَّعود خِلاف الحَدور . ويقال صَعِد يَصْعَد . والإصعاد : مقابلة الحَدور من مكانٍ أرفع . والصَّعود : العقبة الكئود والمشقّة من الأمر . قال الله تعالى : «سأرهقه صَعودا» إنّ المعنى الأوّلي لمثل القول : تصعدون، يراعى الصّعود الحسّىّ والمشقّة . ولكنّ هذا المعنى الأوّلىّ تلاه معنىً آخر لا يرتبط بالصّعود الحسّىّ ومع ذلك يقترن به المشقّة الحسّيّة والمعنويّة . يقول الرّاغب فى هذا الشّأن [٢] : «الصُّعود : الذّهاب فى المكان العالى ، والصَّعود والحَدور لمكان الصُّعود والانحدار وهما بالذّات واحد وإنّما يختلفان بحَسَب الاعتبار بمن يمرّ فيهما ، فمتى كان المارّ صاعداً يقال لمكانه صَعود ، وإذا كان منحدراً يقال لمكانه حَدور . . . وأمّا الإصعاد فقد قيل هو الإبعاد فى الأرض سواءٌ كان ذلك فى صُعودٍ أو حُدور وأصله من الصُّعود وهو الذّهاب إلى الأمكنة المرتفعة كالخروج من البصرة إلى نجدٍ وإلى الحجاز ، ثمّ استُعْمِل فى الإبعاد وإن لم يكن فيه اعتبار الصّعود كقولهم : تعال ، فإنّه فى الأصل دعاءٌ إلى العلوّ صار أمراً بالمجىء سواء كان إلى أعلى أو إلى أسفل . قال : إذ تُصْعدون ولا تلوون على أحد» وسبق الطّبرىّ إلى التنبيه على هذه الفروق الدّقيقة بعد أن تحدّث فى القراءة . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة [٣] : «واختلفت القرّاء فى قراءة ذلك فقرأه عامّة قرّاء الحجاز والعراق والشّام سوى الحسن البصرىّ : إذ تُصْعِدون ، بضمّ التاء وكسر العين وبه القراءة عندنا لإجماع الحجّة من القرّاء على القراءة به واستنكارهم ما خالفه . وروي عن الحسن البصرىّ أنّه كان يقرؤه : إذ تَصْعَدون بفتح التّاء والعين . . . فأمّا الّذين قرأوا

(١) معجم مقاييس اللّغة «صعد» ٢٨٧/٣ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «صعد» ٢٨١ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٨٧/٤ .

تُصْعِدون بضمّ التّاء وكسر العين فإنّهم وجّهوا معنى ذلك إلى أنّ القوم حين انهزموا عن عدوّهم أخذوا فى الوادى هاربين . . . عن هارون قالوا : الهرب فى مستوى الأرض وبطون الأودية والشّعاب اصعاد لا صعود . قالوا : وإنّما يكون الصّعود على الجبال والسّلالِم والدّرج لأنّ معنى الصّعود الارتقاء والارتفاع على الشّىء علوا . قالوا : فأمّا الأخذ فى مستوى الأرض والهبوط فإنّما هو إصعاد كما يقال : أصعدنا من مكّة إذا ابتدأت فى السّفر منها والخروج . وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان بمعنى خرجنا منها سفراً إليها وابتدأنا منها الخروج إليها . قالوا : وإنّما جاء تأويل أكثر أهل التّأويل بأنّ القوم أخذوا عند انهزامهم عن عدوّهم فى بطن الوادى» .

إنّ الآية الكريمة المرتبطة بسابقتها تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد عفا عن المؤمنين إذ يُصْعِدون فى الوادى وينطلقون لا يلوون على أحدٍ ولا يعطفون عليه [١] ولا يلتفون إليه ولا يعبأون به حتّى دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصّخرة [٢] وهكذا يتبيّن أنّ الهرب إلى المدينة المنوّرة أقرب إلى كونه جرياً فى أرضٍ منبسطة ، وأنّ الهرب إلى الجبل أقرب إلى كونه صعودا . إنّ الجامع بين الجري فى كلّ أنواع الأراضى المرتفعة والمنخفضة والمستوية هو المشقّة الجسديّة والمعنويّة وكأنّ النّفس فى كل الأحوال بسبب المعاناة بمنزلة الجسد الّذى يعانى فى حال صعود العقبات . إنّ هذا هو حال المؤمنين حينما فرّوا فى أحد وانطلقوا مسرعين لا يلتفتون إلى أحد ولا يعرّجون على شىءٍ حتّى أوغل بعضهم فى الهرب إلى المدينة أو إلى جبل أحد .إنّ فى ذلك الظّرف العصيب والموقف الرّهيب الّذى يصيب فيه المؤمنون القتل والجرح والإجهاز على جرحاهم من قبل المشركين

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٨٨ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٨٧ .

ينادى المصطفى ﷺ بطل الأبطال المؤمنين فى أخراهم وفى ميدان المعركة قائلا : إلىَّ عباد الله إلىّ عباد الله [1] ارجعوا إلىّ عباد الله ارجعوا [2] .

ثبت فى الصّحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبى وقّاص عن أبيه قال : رأيت يوم أحدٍ عن يمين النّبىّ ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثيابٌ بيضٌ يقاتلان عنه أشدّ القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده . يعنى جبريل وميكائيل عليهما السّلام . وقال حمّاد بن سلمة عن علىّ بن زيد وثابت عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أفرد يوم أحدٍ فى سبعةٍ من الأنصار واثنين من قريش . فلّما أرهقوه قال : من يردّهم عنّا وله الجنّة ، أو هو رفيقى فى الجنّة . فتقدّم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتّى قتل . ثمّ أرهقوه أيضاً فقال : من يردّهم عنّا وله الجنّة . فتقدّم رجلٌ من الأنصار فقاتل حتّى قتل . فلم يزل كذلك حتّى قتل السّبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : ما أنصفنا أصحابنا . رواه مسلم [3] وعن هشام بن هشام الزّهرىّ قال : سمعت سعيد بن المسيّب يقول : سمعت سعد بن أبى وقّاص يقول : نثل لى رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : ارم فداك أبى وأمّى . وأخرجه البخارى [4] قال سعد : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولنى النّبل ويقول : ارم فداك أبى وأمّى . حتّى إنّه ليناولنى السّهم ليس له نصلٌ فأرمى به [5] .

إنّ الّذين ثبتوا مع المصطفى ﷺ قليلون وإنّ الّذين فرّوا كثيرون ولقد عفا الله سبحانه وتعالى عنهم وشملهم فضله جلّ وعلا إذ لم يستأصل شأفتهم . وإنّ الجزئيّة الكريمة التّالية من مظاهر فضل الله تعالى على

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨٧/٤ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٨٨/٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤١٥/١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤١٥/١ ونثل الكنانة : استخرج نبالها فنثرها .
(٥) تفسير ابن كثير ٤١٥/١ .

المؤمنين . قال تعالى : ﴿**فأثابكم غمّاً بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم**﴾ .

لقد حلّ بالمؤمنين غمّ الهزيمة والقتل والجراح وفقد الغنيمة ، وقد نصّت الآية الكريمة على سببين أدّيا إلى الحزن وهما ما فات المؤمنين من الغنيمة وما أصابهم من قتلٍ وجرح ، ما فاتهم من نصرٍ رأوا بشائره وما أصابهم من هزيمة . والمعروف أنّ الحزن شعورٌ بالألم لضياع مأمول وفقد محبوب قرب العهد بضياعه وفقده وقد فقد المؤمنون فى أحد الغنيمة والنّصر كما أنّهم أصابهم الحزن بسبب ما أصابهم من قتلٍ وجراح وقد كان الشّهداء فى أحد سبعين ، ستّةً وستّين من الأنصار وأربعةً من المهاجرين [1] .

والملاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل الغمّ وتستعمل الحزن ، وقد عرفنا معنى الحزن ، وبقى أن نعرف معنى الغمّ ، إنّه بمعنى ستر الشّىء ومنه الغمام لكونه ساتراً لضوء الشّمس [2] وعليه فالغمّ ما يغطّى على النّفس من همّ . ومن متعلّقات الهمّ التّعامل السّلبىّ مع الألم ، وكأنّ الحزن التّعامل الإيجابىّ معه . وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ من فضل الله تعالى على المؤمنين أن أثابهم وجازاهم [3] غمّاً بغمّ لكيلا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم . إنّ الغمّ الّذى حلّ بالمؤمنين وليد الحزن لما فاتهم من نصرٍ وغنيمة ، وما أصابهم من جراحٍ وهزيمة ، وما أصاب الشّهداء السّعداء من قتلٍ ومُثْلة ، وما عصرهم من ألمٍ وما ملأ جوانحهم من أسى . وإنّ الله سبحانه وتعالى ذا الفضل على المؤمنين أثابهم غمّاً بغمّ وطرد غمّهم الّذى عرفنا بغمٍّ آخر كى يدفع حزنهم . أمّا الغمّ الآخر الّذى دفع الغمّ الأوّل وقضى عليه وأنساهم مرارة الهزيمة وفقد

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٨٨/٤ .
(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانى «غم» ٣٦٥ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٨٨/٤ .

الغنيمة وألم القتل والجرح فهو حين قيل قُتِل محمدٌ ﷺ وحين علاهم المشركون فوق الجبل وقال النبىّ ﷺ اللّهمّ ليس لهم أن يعلونا[1] إنّ الغمّ الّذى حلّ بالمؤمنين بسبب ما ذاع من قتل النّبىّ ﷺ وما شاع من نيّة المشركين الكرّ على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين دفع الغمّ الأوّل وطرده لأنّه أكبر منه وأقوى .

وفى القول : «والله خبير بما تعملون» تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ ببواطن الأمور كظواهرها فلا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وإنّ فضل الله تعالى على المؤمنين يتجاوز كشف الغمّ إلى إنزال الأمن وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقـم (١٥٤)

قال تعالى : ﴿ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أَمَنَةً نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة يقولون هل لنا من الأمر من شىء . قل إنّ الأمر كلَّه لله . يُخْفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قُتِلنا ههُنا . قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الّذين كُتِب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم . والله عليمٌ بذات الصّدور﴾ .

من مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين كما بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى أثابهم غمّاً بغمّ فطرد الغمّ الثّانى غمّ الظّنّ بقتل النّبىّ ﷺ فى المعركة وغمّ الظّنّ بكرّ أبى سفيان على المدينة المنوّرة

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ٤/٩٠ وتفسير ابن كثير ١/٤١٧ .

لاستئصال البقيّة الباقية من المؤمنين ، فطرد الغمّ الثّانى الغمّ الأوّل غمّ الحزن لما فاتهم من النّصر والغنيمة وما أصابهم من قتلٍ وجرحٍ وهزيمة . وبهذا يتبيّن أنّ الغمّ الثّانى أكبر من الغمّ الأوّل خاصّةً وأنّه فى بعض جوانبه يتمشى مع قوله عزّ من قائل [١] : «النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وينبغى أن يكون لجملة «أثابكم» ذات العلاقة بالثّواب دورها لأنّها هى الّتى تجىء وليس جملة جازاكم مثلاً الّتى تفيد معناها . وبذلك تكون جملة «أثابكم» قوّةً لفضل الله تعالى على المؤمنين وعفوه عنهم وغفرانه ذنوبهم . أما وقد طرد الغمّ الثّانى الغمّ الأوّل ونزّل الغمّ الثّانى منزلة الثّواب المتعارف على استعماله أكثر فى الخير [٢] فإنّ فضل الله تعالى يتجاوز هذه المرحلة العالية إلى مرحلةٍ أعلى منها . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل من بعد الغمّ أمناً على المؤمنين وأماناً تجلّى فى هيئة النّعاس ، بمعنى النّوم القليل [٣] الّذى يغشى المؤمنين ويشمل طائفةً منهم ويغطّى فريقاً منهم ويستره ويكون له بمنزلة الكساء [٤] وانظر إلى حرف العطف «ثمّ» الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى . وهذا النّعاس من جنس النّعاس الّذى غشّى المؤمنين فى بدر والّذى أشار إليه قوله تعالى [٥] : ﴿**إذ يغشّيكم النّعاسَ أمنةً منه وينزّل عليكم من السّماء ماءً ليطّهركم به ويذهب عنكم رجز الشّيطان ولِيَرْبِط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام**﴾ قال عبدالله بن مسعود : النّعاس فى القتال أمنة والنّعاس فى الصّلاة من الشيطان [٦] . وقال : النّعاس فى القتال من الله وفى الصّلاة من الشيطان [٧] وروى البخارىّ عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشّاه النّعاس يوم

---

(١) سورة الأحزاب ٦ .
(٢) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «ثوب» ٨٣ .
(٣) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «نعس» ٤٩٩ .
(٤) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ « غشى » ٣٦١ .
(٥) سورة الأنفال ١١ .
(٦) تفسير الطّبرىّ ٩٣/٤ .
(٧) تفسير ابن كثير ٤١٨/١ .

أحد حتّى سقط سيفي من يدى مراراً يسـقط وآخذه ويسقط وآخذه [1] وقد رواه التّرمذيّ والنّسائيّ والحاكم عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أُحُد وجعلت أنظر وما منهم يومئذٍ أحدُ إلا يميل تحت حجفته [2] من النّعاس [3] .

إنّ من مظاهر فضل الله تعالى على هذه الطّائفة المؤمنة الصّادقة الإيمان أن أنزل الله تعالى عليها النّعاس بعد أن أذهب غمّها وما ملأ صدرها حزناً وقلبها ألما .

وبما أنّ هنالك طائفةً أخرى منافقةً اضـطرّت لإظهار الإيمان والاتّجاه إلى ميدان المعركة مع الطّائفة المؤمنة ذرّاً للرّماد في العيون كما يقولون ، فإنّ السّياق لا يترك هذه الطّائفة ، خاصّةً وأنّ هذه الطّائفة من أسباب الهزيمة بسبب سرعة تلوّنها وتقلّبها . وذلك في القول : «وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة يقولون هل لنا من الأمر من شيء» .

ويلاحظ بشأن هذه الطّائفة الأقرب إلى النّفاق أنّ السّياق يستعمل في حقّها جملة : «أهمّتهم» من الهمّ بمعنى الحزن الّذي يذيب الإنسان . يقال : هممت الشّحم فانهمّ [4] بينما سبق أن استخدم السّياق بشأن المؤمنين الغمّ المتولّد عن الحزن بما فات المؤمنين وما أصابهم . إنّ الحزن لا يد للإنسان في دفعه ، وإنّ الغمّ وليد مجموعةٍ من الأحزان ، وإنّ الهمّ تلصقه الآية الكريمة بالطّائفة المنافقة الّتي أرسلت نفسها مع هواها واستبدّت بها الأحزان والآلام واستسلمت لها فتحوّل الحزن والغمّ همّاً مطبقاً ويأساً متمكّناً وعجزاً مستقرّا . وما الّذي أهمّ هذه الطّائفة المنافقة ؟ أنفسها ولا شيء سوى أنفسها حرصاً على الحياة والمنافع الذّاتيّة ، ولا تأبه هذه الطّائفة المنافقة في قليل أو

---

(١) تفسير ابن كثير ٤١٨/١ .
(٢) الحَجَفة : التّرس من جلدٍ بلا خشب والجمع حَجَف
(٣) تفسير ابن كثير ٤١٨/١ وتفسير الطّبريّ ٩٢/٤ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني «همم» ٥٤٥ .

كثير لغير مصلحتها الذّاتيّة ، ولهذا فرّ النّوم من أعينها ، واستبدّ بها القلقُ ، وتمكّن منها الأرق ، لأنّ همومها الذّاتيّة وشواغلها الدّاخليّة أكبر من أىّ نومٍ أن يتمكن ومن أىّ نعاسٍ أن يتسلّل ، حرصاً على الحياة المهدّدة ، وخوفاً من المشركين أن يعاودوا الكرّة .

وكما ساءت نفوس المنافقين ساءت ظنونهم فها هم أولاء يظنّون بالله تعالى الظنّ غير الحقّ ظنّ الجاهليّة الجهلاء والطّائفة العمياء بأنّ الدّولة للمشركين وأنّ الإسلام لن تقوم له بعد أحدٍ قائمة .

وكما ساءت نفوس المنافقين وظنونهم تبعاً لسوء أفعالهم فإنّهم أسرع النّاس هرباً من ميدان المعركة والقتال والرّجولة والبطولة ساءت أقوالهم ، فهاهم أولاء يجىء عنهم قوله تعالى : **﴿يقولون هل لنا من الأمر من شىء﴾** والمراد النّفى . والمعنى أنّ المنافقين يقولون إنّهم ليس لهم من أمر الخروج من المدينة المنوّرة إلى أحد من شىء وليس لهم من رأى وإلّا لبقوا فى المدينة مع الخوالف ونكصوا عن ميادين الشّرف والرّجولة والبطولة وسلموا من الجراح والآلام وسلم من صدق ما عاهد الله تعالى عليه من القتل . إلى آخر المعانى السّقيمة الّتى يوحى بها القول الّذى جرى على ألسنة المنافقين .

ولا يفوتنا أن نقرّر بأنّا نتبيّن أنّ الإيمان درجات وأنّ النّفاق دركات . إنّ السّياق يتحدّث عن المؤمنين بعامّة الّذين شملهم فضل الله تعالى . وتبعاً لدرجة إيمانهم كانت استجابتهم لما أنزل الله تعالى عليهم من نعاس . إنّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل بعد المعركة على المؤمنين النّعاس وبقدر إيمانهم كان اطمئنانهم ، وبقدر اطمئنانهم كان حظّهم من النّعاس . وإنّ طائفةً من الفئة المؤمنة قد غشيها النّعاس وغطّاها ، شملها وكساها . وكلّما قلّ الإيمان قلّ النّعاس حتّى انعدم فى حقّ المنافقين بالكلّيّة لأنّ قلق نفوسهم قصىّ وهمّ صدورهم عصىّ .

وتبادر الآية الكريمة إلى الرّدّ على المنافقين فوراً : «قل إنّ الأمر كلّه لله» والمعنى قل يا محمّد لأولئك المنافقين الّذين لا يكادون يفقهون حديثاً إنّ الأمر كلّه لله تعالى وحده لاشريك له فما النصر إلاّ من عند الله تعالى وما الهزيمة إلاّ بإذنه وما الحياة إلاّ من عند الله تعالى وما الموت إلاّ بإذنه .

وبما أنّ النّفاق يقوم على إظهار خلاف الباطن ، ابتداءً بالمعتقد ، فإنّ ما بنى على الفاسد فاسد . وبما أنّ معتقد المنافقين فاسد تلته أفعالهم فقد بقى أن تظهر أقوالهم ونواياهم على حقيقتها ، وها هو ذا السّياق يقرّر إخفاء المنافقين فى أنفسهم ما لا يبدون له ﷺ ولكنّهم يبدونه لأمثالهم وفى هيئة فلتات ألسنتهم ، وهذه الفلتات مظهرٌ من مظاهر لحن القول الّذى يتّصف به المنافقون والّذى يعتبر أحد الوسائل الدقيقة للوقوف على ما تخفيه نفوسهم الخبيثة . قال تعالى : ﴿**يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك . يقولون لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قتلنا هٰهنا**﴾ .

إنّ المنافقين يخفون فى أنفسهم ويكتمون فى صدورهم ما لايبدون للمصطفى ﷺ . وهم يقولون فى أنفسهم ولخاصّتهم ولأخوانهم المنافقين أمثالهم : «لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قتلنا هٰهنا» ومن البيّن اختلاف الكلامين على ألسنة المنافقين تبعاً لاختلاف إظهار الكلام وإخفائه . لقد أظهر المنافقون إلى حدّ مّا القول : «هل لنا من الأمر من شىء» ويلفّ هذا الاستفهام غموض النّفاق فهم يتساءلون : هل لنا ؟ والمعنى ليس لنا من الأمر من شىء لأنّ لسان الحال ينطق بهذا الجواب ، بينما أخفى المنافقون هذا القول الآخر إلاّ من خاصّتهم ولهذا كان حظّه من الظّهور والوضوح فى المعنى بمقدار حظّه من الخفاء والغموض فى النّطق به والتّعبير عنه : «لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قتلنا هٰهنا» إنّهم يبدأون قولهم الّذى يهمسون به لأنفسهم

وخاصّتهم بلو الّتى تفتح عمل الشّيطان [1] ويقرّرون أنّهم لو كان لهم من الأمر شىء وفى شأن الخروج من المدينة إلى جبل أحد رأى لارتأوا عدم مغادرة المدينة المنوّرة وعدم الذّهاب إلى ميدان المعركة وساحة القتال والبطولة والشّرف والرّجولة وبالتّالى لم يقتلوا فى ميدان القتال ، وهم يعبّرون عن القتل الّذى أصاب الشّهداء السّعداء بأنّه أصابهم لأنّهم وهم الجبناء الهلوعون الجزوعون المنوعون يعتبرون ما أصابهم من نصبٍ وجراح قتلاً لهم لأنّ الجبان يرى غير شىءٍ فيظنّه رجلاً أو جبلاً ويعتبر أدنى ضرٍ مسّه أشدّ من البلاء الّذى اصطفى الله تعالى به أيّوب عليه السّلام . ولهذا يعبّر المنافقون عن القتل الّذى أصاب الشّهداء السّعداء بأنّهم هم المقتولون وحقّ لهم ذلك لأنّهم الأموات معنويّاً القتلى أدبيّاً .

وكما أجيب القوم فوراً على قولهم السّابق أجيبوا هنا . قال تعالى : **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾** .

والخطاب على غرار السّابق موجّهٌ للمصطفى ﷺ . والمعنى قل يا محمّد لأولئك الجبناء الحريصين على حياة وابدأ قولك بما بدأوا به : «لو» ردّاً عليهم وطرداً للمعانى السّقيمة الّتى انتقلت من نفوسهم إلى ألسنتهم ، قل لهم لو كنتم فى بيوتكم ، آمنين مطمئنّين مستلقين نائمين ، وكتب الله سبحانه وتعالى عليكم الموت فى ميادين القتال لبرز الّذين كتب الله تعالى عليهم القتل إلى مضاجعهم وخرج الّذين انتهت آجالهم وحانت وفاتهم إلى الأرض الّتى يضطجعون عليها ويلصقون جنوبهم بها [2] .

وانظر إلى لفظة بيوت الّتى تستعملها الآية الكريمة بالذّات وليست الدّور مثلاً أو المنازل والمساكن وما إلى ذلك . ويتبيّن لنا حكمتان وراء

---

(١) روى الحديث مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

(٢) انظر معجم مقاييس اللّغة «ضجع» ٣/٣٩٠ .

استعمال لفظة بيوت بالذّات . أولاهما أنّ لفظة بيت تستعمل للمكان الّذى يبيت به الإنسان ويأوى إليه ليلاً ، وكأنّ هذا النّوع من المساكن الّتى يخيّم عليها الظّلام هى الّتى ترتاح لها نفوس المنافقين المظلمة. وأخراهما أنّ لفظة بيوت تستعمل عادةً فى البيوت المبنيّة بينما تستعمل لفظة أبيات فى حقّ بيوت الشّعر . وكأنّ المنافقين الهلوعين الجزوعين لا تكاد تطمئنّ نفوسهم إلى غير هذه المساكن المبنيّة . يقول الرّاغب الأصفهانىّ [1] : «أصل البيت مأوى الإنسان باللّيل لأنّه يقال : بات أقام باللّيل كما يقال ظلّ بالنّهار ثمّ قد يقال للمسكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل فيه وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخصّ والأبيات بالشَّعَر» .

وانظر إلى القول : «لبرز» الّذى يرتبط بالبَراز أى بالفضاء . وإنّ فى استعمال هذه الجملة ذات العلاقة بهذا النّوع الفضاء من الأمكنة معمّقٌ للمعنى الّذى تريد الآية الكريمة إيصاله وتقويته ، فإنّ هؤلاء المنافقين الجبناء الحريصين على حياة يجدون أنفسهم بإرادة الله تعالى الّذى كتب عليهم القتل فى البَراز أمام الموت وجهاً لوجه وفى الفضاء حيث لا يوجد شىءٌ يمكن أن يفرّ إليه الجبناء من الموت ويلجأون إليه بقصد الفَوْت .

وانظر إلى استعمال الآية الكريمة لفظ المضاجع دليلاً على الأمكنة الّتى يُقْتل فيها المنافقون ويصرعون وكأنّ كلّ موضعٍ يجدّل فيه قتيل بمنزلة المضجع والمكان الّذى يضطجع فيه المرء على جنبه . وليس بخافٍ وجه الشّبه بين استعارة المضجع وهو مكان الاضطجاع على الجنب فى أثناء النّوم والرّاحة دليلاً على مكان القتل وبين المستعار من أجله وهو هيئة العاجز غير المبالى بأى شىءٍ المنافق الاتّكالىّ بجامع كون الهيئة للمضطجع على جنبه

---

(١) المفردات «بيت» ٩٤ .

وكذلك للميّت فى قبره . والسّنّة الّتى جرى عليها العلم ، أن يجعل الميّت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة [١] .

وإنّ هذا الابتلاء الّذى يصطفى الله تعالى به عباده لحكمة جليلة عبّر عنها قوله تعالى : ﴿**وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم**﴾ .

إنّ الشّهداء السّعداء قد أكرمهم الله تعالى بالشّهادة واصطفاهم عنده بهذه الكرامة وإلى جواره وها هم أولاء يقتلون فى ميدان الشّرف والرّجولة . أمّا الّذين ينتظرون دورهم فى الشّهادة والّذين يواصلون مسيرة الجهاد فإنّ السّياق يبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يريد أن يبتلى ما فى صدورهم ويختبر ما فى نفوسهم وقلوبهم وذلك بالهزيمة والجراح وفقد الغنمية وبفقد الأحباب الشّهداء السّعداء ، كما يريد جلّ وعلا أن يمحّص ما فى قلوبهم ويطهّر تلك القلوب من الشوائب ويزكّيها من العوالق ويخلّصها من الخبائث كى تعود صافيةً نقيّةً خالصةً طاهرةً زكيّة . وأصل المحص تخليص الشّىء ممّا فيه من عيبٍ كالفحص لكن الفحص يقال فى إبراز شىءٍ من أثناء ما يختلط به وهو منفصلٌ عنه . والمحص يقال فى إبرازه عمّا هو متّصل به . يقال : مَحَصت الذّهب ومحَّصته إذا أزلتُ عنه ما يشوبه من خبث . فالتّمحيص كالتّزكية والتّطهير ونحو ذلك من الألفاظ [٢] .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿**والله عليمٌ بذات الصّدور**﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بما فى صدور خلقه من خيرٍ وشر ، إيمانٍ وكفر ، وإنّ الشّدائد يميز بها سليم القلب من مريضه ، وصحيح الصّدر من سقيمه ويعلم بها علم ظهور ما يخفيه كلّ قلب ويكتمه كلّ صدر .

---

(١) فقه السّنّة ١/٤٦٠ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «محص» ٤٦٤ .

ومع أنّ الله سبحانه وتعالى قد عفا عن الّذين فرّوا يوم أحد فإنّ السّياق يبيّن للقوم السّبب الّذى من أجله حصل لهم ما حصل مع تأكيد عفو الله تعالى عنهم فعليهم أن يستفيدوا من هذا الدّرس وعليهم ألاّ يكرّروا ذات الخطأ وكان هذا فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقـم (١٥٥)

قال تعالى : **﴿إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم . إنّ الله غفورٌ حليم﴾** .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين تولّوا من المؤمنين يوم التقى الجمعان وفرّوا يوم أحدٍ يوم التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ودعاهم إلى الزّلّة والخطيئة اللّعين واستجرّهم إلى الفرار المغضوب عليه المطرود من رحمة الله تعالى بسبب ما كسب المؤمنون من ذنوب فى مقدّمتها عصيان الرّماة أوامر المصطفى ﷺ لهم بعدم مغادرة الجبل سواءٌ كانت الدّائرة للمؤمنين أو عليهم .

وهكذا يتبيّن أنّ المعاصى الّتى ترتكب خطيرةٌ جدّاً فى حقّ المؤمنين وربّما فاقت خطورتها جيوش الأعداء بل إنّها لكذلك وإنّ لدينا الدّليل فى كلٍّ من بدرٍ وأحد . إنّ النّصر فى بدرٍ استمرّ حتّى النّهاية لأنّ طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ لازمتا الجيش حتّى كان النّصر المؤزّر بإذن الله تعالى . وإنّ النّصر فى أحدٍ اقترن بطاعة الرّماة والمؤمنين أمر نبيّهم ﷺ ، وحينما عصى الرّماة أمر المصطفى ﷺ وتركوا مواقعهم على الجبل حرصاً على الغنيمة تحوّل النّصر بإذن الله تعالى وبسبب العصيان إلى هزيمة . وهكذا يتبيّن أنّ من أهمّ دروس أحد الّتى ينبغى أن يستفيدها المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى درس الطّاعة . والحقيقة أنّ ثمّة درسين ينبغى أن تلتزم بهما الجيوش

المسلمة الطّاعة والنّظام . وقد عرفنا درس الطّاعة هنا كما نعرفه من قوله تعالى في سورة محمّد [(١)] : **﴿فأولى لهم طاعةٌ وقولٌ معروف﴾** ويستفاد النظّام من مثل قوله تعالى [(٢)] : **﴿إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوص﴾** .

وتمشّياً مع فضل الله تعالى على المؤمنين وقد قال تعالى [(٣)] : **﴿ولقد عفا عنكم . والله ذو فضلٍ على المؤمنين﴾** يجيء قوله تعالى : **﴿ولقد عفا الله عنهم . إنّ الله غفورٌ حليم﴾** . وقد جاء لفظ الجلالة في القول : **﴿ولقد عفا الله عنهم﴾** كي يخلص العفو عن المؤمنين إلى الله تعالى وحده لا شريك له ولأجل هذا جاء لفظ الجلالة «الله» بصريح الّلفظ ولم يكتف بالضّمير الّذي يعود إلى الّذات العليّة لأنّه قد جاء في الجزئيّة الكريمة السابقة ذكر الشّيطان الرجيم بصريح اللفظ وفي الاكتفاء في الجزئية التّالية باسم الضّمير العائد على الذّات العليّة احتمال مظنّة قصير النّظر عودة الضّمير إلى غير الذّات العليّة .

ويلاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة هنا «ولقد عفا الله عنهم» والجزئية الكريمة السّابقة : **﴿ولقد عفا عنكم﴾** تقفان عند العفو بينما يتجاوز هذا القول بعد ذلك : **﴿إن الله غفورٌ حليم﴾** العفو إلى المغفرة . فما هي الحكمة من ذلك ؟ من المعروف أنّ ثمّة فرقاً بين العفو والمغفرة ، العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب والمغفرة تجاوز مرحلة ترك المؤاخذة على الذّنب إلى ستره وإخفائه . وحينما تتحدّث الآيات الكريمات عن غزوة أحد وملابساتها فذلك معناه أنّ ثمّة إظهاراً وإعلاناً فليس ثمّة سترٌ ولا إخفاء . وما الّذي بقي وراء ذلك ؟ ترك المؤاخذة وهو الّذي عبّر عنه بالعفو في أكثر من موضع .

---

(١) الآية ٢٠ ، ٢١ .
(٢) سورة الصّفّ ٤ .
(٣) سورة آل عمران ١٥٢ .

ولمّا كان العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب خطوةً ضروريّة فى سبيل المغفرة بمعنى الجمع بين ترك المؤاخذة على الذّنب وستره وكان فضل الله عظيماً وليس له حدود فقد كان ثمّة إشارة إلى المغفرة بعد ذلك بل إلى الحلم «إن الله غفورٌ حليم» إنّ الله سبحانه وتعالى يغفر الذّنب بستره وإخفائه فاستغفروه أيّها المؤمنون ، وإنّ الله سبحانه وتعالى حليمٌ لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يمهله ولكن لا يهمله جلّ وعلا فحذار من الظّنّ أنّ إمهال الله تعالى إهمال .

ولمّا كان النّفاق درجات وكان المنافقون مبثوثين فى صفوف المؤمنين ، بل إنّ منهم من كشفت هزيمة أحد المريرة عن رداءة معدنه وكان منهم من جاء على لسانه قوله تعالى : ﴿**لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قتلنا هٰهنا**﴾ ولمّا كان المؤمنون ينبغى عليهم أن يحذروا المنافقين من مثل هذا القول فإنّ السّياق تحوّل فى آياتٍ كريماتٍ ثلاث لتحذير المؤمنين من المنافقين ولإرشادهم فإلى

الآيـــات (١٥٦ - ١٥٨)

قال تعالى : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرةً فى قلوبهم . والله يحيى ويميت . والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو مُتْم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون . ولئن مُتّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون**﴾ .

تخاطب الآية الكريمة الأولى الّذين آمنوا ، وفيهم الّذين استزلّهم الشّيطان يوم أحدٍ ففرّوا من ميدان المعركة وقد عفا الله تعالى عنهم ، تخاطب الآية الكريمة الّذين آمنوا وتنهاهم عن أن يكونوا كالّذين كفروا . والمراد بالّذين كفروا المنافقون ، لأنّ قلوبهم كافرة وإن أظهروا الإسلام بألسنتهم

ومارسوا شعائره بجوارحهم ، تنهاهم عن أن يكونوا كالّذين نافقوا وقالوا لإخوانهم فى النّسب والدّم والقرابة حينما يضرب هؤلاء المؤمنون فى الأرض ابتغاء فضل الله تعالى وحينما يسافرون ابتغاء مرضاة الله تعالى أو حينما يكونون غزاةً مجاهدين فى سبيل الله تعالى باذلين أرواحهم رخيصةً فى سبيل الله تعالى «والغزّى جمع غاز جُمِع على فُعَّل كما يجمع شاهد شهّد وقائل قوّل» [1] إنّ هؤلاء المنافقين يقولون لإخوانهم فى النّسب الموغلين فى الأرض ابتغاء مرضاة الله تعالى وجهاداً فى سبيله جلّ وعلا فماتوا أو استشهدوا فى سبيل الله تعالى لو كان إخواننا عندنا وتحت كنفنا وفى معيّتنا فلم يضربوا فى الأرض ما ماتوا فى سفرهم وما قتلوا فى جهادهم فى سبيل الله تعالى .

والآية الكريمة على الفور تردّ على القوم وتلقمهم حجراً فتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى يجعل ، هكذا فى صيغة الزّمن المضارع الدّالّ على الاستمرار ، ذلك القول الّذى يهرف به المنافقون ، حسرةً دائمةً فى قلوبهم وحزناً مستمرّاً وغمّاً سرمديّاً لأنّهم لا يعيدون بهذا القول من ذهب إلى ربّه حتف أنفه أو شهيداً ، ولا يشفون أنفسهم ممّا تجد ، وليس لديهم الإيمان الّذى يجعلهم يستقبلون ذلك النّوع من الابتلاء صابرين محتسبين . إنّ المنافقين لا يزدادون بمثل هذا القول إلّا حسرةً وندما ، ذنباً وإثماً . وإنّ المنافقين لو سلكوا طريق الهداية لآمنوا أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الّذى يحيى ويميت . فبما أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يوجد المخلوقات من العدم وأحياها كذلك جلّ وعلا وحده لا شريك له الّذى يضع نهايةً لتلك الحياة ، ومن هؤلاء الخلائق من يموت عَبْطةً ومنهم من يموت هَرَماً ومنهم من يموت بالسّيف ، ومنهم من يموت بسواه ، لا رادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا . وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة أنّ الله سبحانه وتعالى بما

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٧ .

نعمل بصير ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وممّا يلفت الانتباه فى الآية الكريمة التّرتيب البليغ لمجموعة من الأمور وذلك فى القول : «إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى» وفى القول : «ما ماتوا وماقتلوا» وفى القول : «والله يحيى ويميت» .

فمع القول : «إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى» عرفنا أنّ الضّرب فى الأرض بمعنى السّفر والإبعاد فى السّير طلباً للرّزق والسّعى فى طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ وأنّ الغزّى هم الغزاة فى سبيل الله تعالى . ومن البيّن أنّ تقديم الفئة الأولى فى الذّكر بسبب كثرتهم بالقياس إلى الفئة الآخرة .

وفى القول : « ما ماتوا وما قتلوا» الّذى جرى على ألسنة المنافقين يقدّم المنافقون فى الذّكر الموت على القتل لأنّ الأمرين بالنّسبة لهم مرّان ولكنّ آخرهما وهو القتل أشدّ مرارة لذا هم يقدّمون فى الذّكر ضرورةً أقلّ الأمرين مرارةً وهو الموت حتف الأنف لأنّهم لا يستطيعون أن يفرّوا من الموت ولأنّهم أجبن من أن يتصدّوا لقتال أو يقتلوا فى ميدان الشّرف والبطولة .

وفى القول : «والله يحيى ويميت» تقديم الحياة لأنّها متقدّمة على الموت ولأنّ المنافقين إخوان الكافرين حريصون على حياة ، لذا فقد تقدّم فى الذّكر الأمر الحبيب إلى قلوب الحريصين على الحياة الّتى تتقدّم الموت بطبعها .

وإنّ الآية الكريمة التّالية لتنطلق من نقطة الحياة والموت . قال تعالى : **﴿ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متّم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون﴾** .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تقدّم القتل فى سبيل الله تعالى على الموت حتف الأنف لأنّها تخاطب المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين يسيرون فى الخطّ الّذى سار فيه الشّهداء السّعداء الّذين قضوا نحبهم . إنّ هؤلاء المجاهدين فى سبيل الله تعالى ينتظرون أن ينالوا حظّهم من الشّهادة فى سبيل الله تعالى والمنزلة الرّفيعة الّتى لا يتقدّمها من غير النّبيّين والمرسلين

إلّا الصّديقون . إنّ الشّهادة فى سبيل الله تعالى إذا فاتت المجاهدين فى سبيل الله تعالى وهى أقصى ما يتمنّون لذا تقدّمت فى الذّكر فإنّ الموت حتف الأنف لن يفوتهم لأنّه ليس ثمّة سوى القتل أو الموت .

وتنصّ الآية الكريمة على ثواب المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين قتلوا شهداء فى سبيله جلّ وعلا والّذين ماتوا فى طريق الجهاد فى سبيل الله تعالى فتشير على جهة الخصوص إلى المغفرة من الله تعالى وإلى الرّحمة . وسَبق أن تبيّنّا أنّ حظّ المجاهدين فى أحد الّذين تولّوا يوم التقى الجمعان إنّما وقف عند العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب . وبشأن المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين قتلوا شهداء فى سبيل الله تعالى والّذين ماتوا ينصّ السّياق على المغفرة الّتى تتجاوز العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب إلى ستره وإخفائه . وهذا من مظاهر فضل الله تعالى على المجاهدين والشّهداء السّعداء والأموات فى سبيله جلّ وعلا . بل إنّ السّياق ليتجاوز مغفرة الله تعالى إلى رحمته الّتى وسعت كلّ شىء ، وينبغى أن يكون لهؤلاء المجاهدين والشّهداء السّعداء والأموات فى سبيله جلّ وعلا أوْفَى نصيبٍ من الرّحمة . إنّ المغفرة تشمل الذّنب الّذى يُعْفى عنه ويُسْتر . وإنّ الرّحمة فضلٌ من الله تعالى على فضل .

وتقارن الآية الكريمة بين حظّ المجاهدين العظيم فى حال الحياة أو الموت ، فى حال الحياة مجاهدين فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته حتّى نيل الشّهادة أو الموت جهاداً فى سبيل الله تعالى وبين حظّ المنافقين الّذين قالوا عن إخوانهم الشّهداء السّعداء «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا» إنّ منتهى ما يحصل عليه المنافقون الجبناء حفنةٌ من حطام الدّنيا ومتاعها الزّائل . أين هذا الحظّ الضّئيل من الدّنيا بالقياس إلى الحظّ العظيم للمجاهدين فى سبيل الله تعالى والشّهداء السّعداء ، فى الأولى والآخرة على السّواء ، من حُسْنِ ذكر وعظيم أجر .

وإنّ الآية الكريمة التّالية تراعى كذلك الحياة والموت على غرار الآيتين الكريمتين السّابقتين . قال تعالى : **﴿ولئن متّم أو قتلتم لإلى الله تُحْشرون﴾** .

وإنّما قدّمت الآية الكريمة فى الذّكر الموت على القتل لأنّها تخاطب المؤمنين كافّة ولأنّ نسبة الأموات إلى القتلى كبيرة . بل إنّ الآية الكريمة ليصحّ أن يقال إنّها تخاطب النّاس كافّة . وتظلّ نسبة القتل إلى الموت هى النّسبة السّابقة . وتختم الآية الكريمة بالنّصّ على الحشر إلى الله تعالى بعد مغادرة هذه الحياة الأولى موتاً أو قتلاً فعلى النّاس جميعاً أن يستعدّوا لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود . على المؤمنين أن يواصلوا مسيرة الجهاد فلّعلهم يظفرون بالشّهادة وعلى غير المؤمنين أن يتحوّلوا فوراً مسلمين لله ربّ العالمين وأن يستعدّوا لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود الّذى يُرْجعون فيه إلى الله تعالى ويحاسبون على مثقال الذّرّة من الخير أو الشّرّ .

أما وقد نال المؤمنون على جهة الخصوص حظّهم الموفور فبقى أن ينال خير خلق الله تعالى حظّه الموفور كذلك وقد تمّ ذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقـــم (١٥٩)

قال تعالى : **﴿فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاوِرْهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله . إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾** .

بيّن السّياق من ذى قبل أنّ الّذين يستشهدون فى سبيل الله تعالى والّذين يموتون لهم مغفرةٌ من الله تعالى ورحمة وذلك خيرٌ ممّا يجمع المنافقون القاعدون عن الجهاد فى سبيل الله تعالى من حطام الدّنيا الفانى . وبذلك تنصّ الآية الكريمة على الخير الّذى سيناله المؤمن فى الآخرة من مغفرة

ورحمة . ونستطيع أن نقرن بذلك الحياة الطّيّبة فى الأولى كذلك فبهذا بشّر القرآن الكريم فى قوله عزّ من قائل [1] : **﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** وإنّ هذه الحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة من مظاهر رحمة الله تعالى بالمؤمنين . وبتأمّلنا للآية الكريمة الّتى نحن بصددها يتبيّن حظّ المصطفى ﷺ من الرّحمة . ومن لطف الله تعالى بهذا الرّسول الكريم أنّ هذه الرّحمة متعلّقة بهذه الحياة الأولى فكيف برحمة الله تعالى الخاصّة بهذا الرّسول الكريم فى الحياة الأخرى .

وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى بهذا الرّسول الكريم ثلاث صفات لين الجانب ، وطيب المعاملة ، ورقّةالقلب . وإنّ ثمرة هذه النّعوت الثّلاثة التفاف الصّحابة حول المصطفى ﷺ ولصوقهم بشخصه الكريم وبذلهم أنفسهم فداءه عليه الصّلاة والسّلام قال تعالى : **﴿فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾** ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تبيّن أهمّ مقوّمات القيادة النّاجحة وأنّ هذه النّعوت والمقوّمات من مظاهر رحمة الله تعالى بالقيادة وبالأتباع . إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّه برحمةٍ من الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شىء ، وانظر إلى لفظ الجلالة «الله» المرتبط بالعموم والمنبّه إلى سعة الرّحمة وشمولها ، . تبيّن أنّه برحمةٍ من الله تعالى لَان جانب المصطفى ﷺ للصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وانخفض جناحه عليه الصّلاة والسّلام للمؤمنين فاقتربوا منه عليه الصّلاة والسّلام ولصقوا به والتفّوا حوله ﷺ لأنّ لين الجانب هذا المتّصل بالمظهر اقترن به لطف المعاملة وعذوبة المنطق فلم يكن عليه الصّلاة والسّلام فظّاً جافياً [2] وهذا الطّيب فى التّعامل قولاً وعملاً قوّةٌ للين الجانب وخفض

---

(١) سورة النّحل ٩٧ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ٤/٩٩ .

الجناح ، كما أنّه شركةٌ بين سلامة الظّاهر المتمثّل فى لين الجانب وسلامة الباطن أعنى سلامة القلب وصفاء الصّدر ونقاء الضّمير ورقّة الخاطر . ونعوت الباطن هذه عبّر عنها بنفى غلظ القلب وذلك فى القول : «ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك» وهكذا يتبيّن تدرّج النّعوت الثّلاثة من كمال الظّاهر إلى كمال الباطن مروراً بكمال ما بينهما . وانظر إلى جملة «لانفضّوا من حولك» الّتى تبيّن الابتعاد الأكيد والتّفرّق الشّديد عن القيادة حينما تتعالى على أتباعها وتعاملها بجفاء طبع وتخاطبها بغلظ قلب . إنّ هذه الصّفات السّيّئة مرغوبٌ عنها فى الأفراد العاديّين التّابعين فكيف بها فى القيادة الّتى ينبغى أن تكون راشدة . إنه بقدر ما تكون القيادة راشدة يكون التفاف الأتباع حولها وتفانيهم فى أداء الواجبات نحوها وبذل الأرواح فداءها . وإنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ليضربون فى ذلك أروع الأمثلة ويقدّمون أعظم النماذج . وليس موقف الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم منه ﷺ حينما فرّ الّذين استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ليس موقف الصّحابة منّا ببعيد . لقد استشهد سبعةٌ من الأنصار بين يدى المصطفى ﷺ [1] وروى البخاريّ عن قيس ابن أبى حازم قال : رأيت يدطلحة شلّاء وقى بها النّبيّ ﷺ يعنى يوم أحد [2] وعن سعيد بن المسيّب أنّه سمع سعد بن أبى وقّاص يقول : نثل [3] لى رسول الله ﷺ كنانته يوم أحدٍ وقال : ارم فداك أبى وأمىّ [4] وفى المقابل ، إنّه بقدر ما تكون القيادة فاسدة يكون انفضاض النّاس من حولها .

وفى مقابل هذه النّعوت الثّلاثة المتفضّل بها من الله تعالى دليل رحمته بالمصطفى ﷺ هنالك ثلاثة واجبات مترتّبة عليها . قال تعالى : ﴿فاعف

---

(١) تفسير ابن كثير ٤١٥/١ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤١٥/١ .
(٣) نثل الكنانة استخرج نبالها فنثرها .
(٤) تفسير ابن كثير ٤١٥/١ .

عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾ . واللّطيف فى الأمر أنّ كلّ واجبٍ مجانسٌ للنّعت الّذى يحـاذيه . إنّ الواجب : «فاعف عنهم» يحاذى القول : «لنت لهم» وبذلك يكون لين جانب المصطفى ﷺ سبباً فى عفو المصطفى ﷺ . ونستطيع أن نفهم الأمر بالعفو فى القول : «فاعف عنهم» فى ضوء القول من ذى قبل : «ولقد عفا الله عنهم» : «ولقد عفا عنكم» وقد عرفنا أنّ العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب . وإذا كان عفو المصطفى ﷺ عن الصّحابة عموماً ، عن الّذين استزلّهم الشّيطان فى أحدٍ خصوصاً ، نتيجةً طبيعيّةً للين جانبه ﷺ وخفض جناحه للمؤمنين وكان العفو كما عرفنا متعلّقاً بترك المؤاخذة على الذّنب أو الظّلم فإنّ هذا العفو هو منتهى ما يطيق المصطفى ﷺ الارتقاء إليه وهو الحدّ الأخير الّذى تقف عنده قدرة أىّ عبدٍ لله تعالى .

فإذا تحوّلنا إلى الواجب الثّانى ، «واستغفر لهم» تبيّنّا أنّه الواجب الّذى يحاذى النّعت الثّانى المتعّلق بطيب المعاملة وحسن القول والّذى يفهم من القول : «ولو كنت فظّاً» ومن البيّن أنّ هذا الواجب الثّانى متعلّقٌ بالذّات العليّة أعنى سؤال المصطفى ﷺ ربّه جلّ وعلا المغفرة لأصحابه عليه الصّلاة والسّلام . وإذا كنّا تبيّنّا بشأن الواجب الأوّل المتعلّق بالعفو منتهى الحدّ الّذى يقوى العبد على السّموّ إليه ، فإنّه بالمقارنة بين الواجبين الأوّل العفو والثّانى طلب المغفرة يتبيّن ما هو خاصّ بالذّات العليّة وهو مغفرة الذّنب وقد قال تعالى [1] : **﴿ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله﴾** وقد عرفنا أنّ العفو يقف عند ترك المؤاخذة على الذّنب وان المغفرة تجمع بين ترك المؤاخذة على الذنب وستره وإخفائه . إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له العفوّ الغفور .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٥ .

ومن البيّن أنّنا بشأن هذين الواجبين بصدد تحوّلٍ من صفةٍ حسنة إلى صفةٍ أحسن وذلك على غرار التحوّل فى الصّفتين من لين الجانب وخفض الجناح إلى حسن التّعامل ولطف القول .

وإنّ ما قيل عن الصّفتين الأوليين والواجبين الأوّلين يقال عن الصّفة الثالثة المتعلّقة برقّة القلب وسلامة الصّدر وعن الواجب الثّالث المشاورة فى الأمر . إنّ المصطفى ﷺ قد عفا عمّن ظلمه وسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر ذنبه . ولمّا كان ترك المؤاخذة على الذّنب يصحّ ألاّ يقترن به الصّفح الجميل وكان المصطفى ﷺ هو المثل الكامل والأسوة الحسنة فقد قرّر السّياق بشأن نعته الثّالث عليه الصّلاة والسّلام رقّة القلب وسلامة الصّدر. وقد ترتّب على ذلك الواجبُ الثّالثُ الدّالُّ على تلك الرّقّة والسّلامة وذلك فى القول : «وشاورهم فى الأمر» والأمر لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلّها [1] وها هو ذا المصطفى ﷺ النّبىّ الموحى إليه يشاور أصحابه فى الأمر إذا حدث تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، ويوم الحديبية ، وفى حادثة الإفك [2] وقد روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر : لو اجتمعتما فى مشورةٍ ما خالفتكما . وروى ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم قال : مشاورة أهل الرّأى ثمّ أتّباعهم . وروى ابن ماجة عن أبى هريرة عن النّبىّ ﷺ قال : المستشار مؤتمن [3] .

وحينما تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يشاور أصحابه فمن باب الأَوْلى والأحرى أن تكون الشّورى دَيْدَن كلّ قيادةٍ مسلمة ، وقد جاء فى

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «امر» ٢٤ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٢٠ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/٤٢٠ .

صفات الّذين آمنوا قوله تعالى [١] : **﴿والّذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصّلاة وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون﴾** .

وما الّذى ينبغى أن يترتّب على التّشاور فى الأمر ؟ العزم المتوكّل على الله تعالى . قال تعالى : **﴿فإذا عزمت فتوكّل على الله . إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾** روى ابن مردويه عن علىّ بن أبى طالب قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم ؟ قال : مشاورة أهل الرّأى ثمّ اتّباعِهم [٢] .

إنّ ثمّة تشاوراً فى الأمر . فإذا انقضى دور التّشاور جاء دور العزم المتوكّل على الله تعالى بترجمة الرّأى الّذى ارتأته الجماعة إلى عمل، وإن كان هذا الرّأى الّذى ارتأته الجماعة مخالفاً لرأى القيادة ، وهل هنالك قيادة وراء قيادة المصطفى ﷺ النّبىّ الموحى إليه ؟ لا ليس هنالك . إنّ الجماعة حينما ارتأت فى أُحُد رأياً مخالفاً لرأى المصطفى ﷺ نزل عليه الصّلاة والسّلام على رأيها وترجمه فوراً إلى عمل وها هو ذا المصطفى ﷺ بطل الأبطال يقول [٣] : «ما ينبغى للنّبىّ ﷺ إذا لبس لأمته أن يضعها حتّى يقاتل» وذلك حينما رغبت الجماعة فى العدول عن الرأى الّذى تمخّض عنه التّشاور والنّزول على رأى المصطفى ﷺ . إنّ المصطفى ﷺ ليلقى علينا نحن المسلمين درساً فى العزم المتوكلّ على الله تعالى . لقد انتهى دور التّشاور وبقى دور العزم بتحويل ذلك الرّأى إلى عمل والتّوكّل على الله تعالى والاستعانة به جلّ وعلا والرّضا بكلّ ما قدّره الله تعالى من نتائج فإنّ لله تعالى وحده لا شريك له الأمر من قبل ومن بعد . إنّ هذا هو العزم ، وإنّ هذا هو التّوكّل على الله تعالى بمعنى الرّضا بكلّ ما قدّر الله تعالى . وإنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المتوكّلين عليه جلّ وعلا كما يحبّ الصّابرين والمحسنين .

---

(١) سورة الشّورى ٣٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٢٠ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٤٦/٤ .

إنّ على المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ومن ذلك التّشاور فى الأمر وأن يتوكلّوا على الله تعالى ويستعينوا به جلّ وعلا وحده لا شريك له فما النّصر إلاّ منه تعالى وإنّ الآية الكريمة التّالية لتعمّق هذا المعنى فإلى

الآيـــة رقــم (١٦٠)

قال تعالى : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الّذى ينصركم من بعده . وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ .

الآية الكريمة تخاطب المؤمنين بعامّة ، الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم بخاصّة ، وتقول لهم إن ينصركم الله تعالى أيّها المؤمنون كما حدث فى بدرٍ فلا غالب لكم من النّاس ، وإن يخذلكم ويمنع عنكم نصره الّذى حباكم به فى بدرٍ وأراكم طلائعه فى أحد ثمّ طواه عنكم وحجبه منكم وخذلكم فمن ذا الّذى ينصركم من بعده جلّ وعلا . والمعنى لا أحد ينصركم من بعد الله تعالى إذا خذلكم وترك نصرتكم وقد اعتقدتم أنّه ناصركم على عدوّ الله تعالى وعدوّكم . ثمّ تأمرهم الآية الكريمة بأن يتوكّلوا على الله تعالى وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسببٍ من الآية الكريمة السّابقة التى تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المتوكّلين عليه جلّ وعلا حقّ التّوكّل .

والحقيقة أنّ تعبير الآية الكريمة عن هذه المعانى عجيبٌ وفريد وبحاجةٍ منّا إلى فضل تأمّل . إنّ معنى الآية الكريمة ببساطة : إن ينصركم الله فلا هازم لكم وإن يهزمكم فلا ناصر لكم . فكيف عبّرت الآية الكريمة عن بعض هذه المعانى تعبيراً فريداً .

بما أنّ النصر غاية ما يتمنّى المؤمنون فى جهادهم عدوّ الله تعالى وعدوّهم فقد كان التّعبير عن هذه الغاية بصريح اللّفظ : «إن ينصركم الله» ولمّا كان النّصر يقابله الهزيمة وكان ثمّة عدولٌ عن الإشارة إلى الهزيمة وذلك

فى القول : «إن ينصركم الله فلا غالب لكم» فما هى الحكمة من العدول عن لفظة هازم مثلاً إلى لفظة غالب ؟ . والجواب على ذلك ، والله تعالى أعلم ، أنّ الآية الكريمة تخاطب المؤمنين الّذين يحبّهم الله تعالى ويحبّونه . ولمّا كانت لفظة هازم ، وإن كانت هى اللّفظة المقابلة هنا والملائمة بعد ذكر النّصر بين يديها ، لمّا كانت عنيفة الوقع ثقيلة الوزن ، وكان ثمّة اللّفظة الأخرى الّتى تقوم مقامها بدرجة أفضل وتغنى غناءها بصورةٍ أحسن وهى لفظة غالب الّتى تلتقى بلفظة هازم فى أسوأ صورها وأقصى معانيها ، وفى الوقت ذاته هى قابلةٌ لأن يقل سوؤها باطّراد حتّى ينتهى الأمر إلى أقلّ الدّرجات سوءاً لأنّ الغلبة لفريقٍ على آخر يصحّ أن تتحقق بعد رجوح إحدى الكفّتين بأقلّ الدّرجات بعد أن كانتا متساويتين ، لكلّ ذلك كان ثمّة القول : «فلا غالب لكم» تنبيهاً على حبّ الله تعالى للمؤمنين الّذين قد يكتب جلّ عليهم أن يُغْلَبوا بعد أن يكونوا قاب قوسين من النّصر أو أدنى كما هو الحال فى أحد وبعد أن يكون المؤمنون قد أبلوا بلاءً حسناً وآلموا عدوّهم إيلاماً شديداً . إنّ المؤمنين فى أحد مثلاً كانوا أقلّ من ربع الكافرين عدداً وعدّة فإذا انتصرت السّبعمائة على الثّلاثة الآلاف أوّل الأمر ثمّ دارت الدّائرة عليهم بعد ذلك فإنّ التّعبير الملائم أن يقال إنّ المسلمين قد غلبوا لا أن يقال إنّ المسلمين قد هزموا لأنّ الكفّتين غير متكافئتين ، ولأنّ المسلمين آلموا المشركين إيلاماً شديداً أوّل المعركة ، وكادت نتيجة المعركة تكون مشابهةً لنتيجتها فى بدرٍ لولا مخالفة الرّماة أمر المصطفى ﷺ فدارت الدائرة على المؤمنين وغُلِبوا بإذن الله تعالى . جاء فى سورة الأنفال [1] قوله تعالى : ﴿**يا أيّها النّبىّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين. يا أيّها النّبىّ حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الّذين كفروا بأنّهم قومٌ لا يفقهون . الآن حفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً .**

---

(١) **الآيات ٦٤ ـ ٦٦ .**

فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصّابرين﴾ . وهكذا يتبيّن أنّ لفظة «غالب» قادرةٌ على الإيحاء بأن المؤمنين يبذلون فى قتال عدوّ الله تعالى وعدوّهم منتهى طاقتهم مستعينين بالله تعالى متوكّلين عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له بحيث إنّ الدّائرة وإن كانت عليهم فإنّها تكون بعد بذلهم منتهى طاقتهم وغاية جهدهم وإيلامهم عدوّهم أشدّ الإيلام ، بحيث إنّه يبدو أنّ من المناسب أن يقال عنهم إنّهم غُلبوا بأكثر مِنْ أن يقال إنّهم هزموا لأنّ الهزائم منكرة وتوحى بعدم الأخذ للأمور مأخذ الجدّ وعدم بذل الجهد والطّاقة . والله أعلم .

وإنّ ما قيل عن هذه الجزئيّة الكريمة يقال عن الجزئيّة التّالية : **﴿وإن يخذلكم فمن ذا الّذى ينصركم من بعده﴾** ومن البيّن أنّ القول الّذى جئنا به فى معنى الجزئيّة الكريمة : وإن يهزمكم فلا ناصر لكم ، معدولٌ عنه للسبّب الّذى سبق أن ذكرنا ولسببٍ آخر .

إنّه يجىء فى الجزئيّة الكريمة : «وإن يخذلكم» بمعنى وإن يترك جل وعلا نصره لكم الّذى توقّعتموه وعوّدكم عليه . ولا يجىء القول الّذى يقتضيه ظاهر السّياق : وإن يهزمكم ، لأنّ الهزيمة كبيرةٌ فى حقّ المؤمنين ، ولذلك كان ثمّة عدولٌ عن ذكر المسبَّب وهو الهزيمة إلى ذكر السّبب وهو الخِذْلان . وكأنّ فى ذكر الخذلان تحذيراً للمؤمنين من ارتكاب الأسباب الّتى تؤدى إلى خذلان الله تعالى لهم وذلك على غرار الأسباب الّتى أدّت إلى خذلانهم فى أحد . إنّ الجزئيّة الكريمة تبتعد بالمؤمنين عن ذكر لفظ الهزيمة وتحملهم بعيداً كى يأخذوا حذرهم من عمل الأسباب الّتى تؤدّى إلى سبب الهزيمة وهو الخِذْلان . إنّ النّقلة البعيدة فيها فضلٌ من الله تعالى على المؤمنين ولطفٌ بهم كى يتداركوا الأسباب البعيدة المؤدّية ـ لا سمح الله ـ إلى الهزيمة . وإنّ فى طرد السّبب المؤدّى إلى الهزيمة طرداً للهزيمة ذاتها من باب الأَوْلى والأحرى .

وإنّه يجىء فى الجزئيّة الكريمة : ﴿فمن ذا الّذى ينصركم من بعده﴾ وليس القول الّذى جئنا به : فلا ناصر لكم . إنّ القول : «فمن ذا الّذى ينصركم من بعده» معناه لا أحد ينصركم من بعده ويشعر بأنّ أىّ نصرٍ لأىّ فريقٍ إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى القادر على كلّ شىءٍ الفعّال لما يريد . وإنّ القول المعدول عنه والّذى جئنا به : فلا ناصر لكم ، ينفى وجود النّاصر والمعين والمولى ، والمعروف أنّ النّاصر والمعين والمولى موجودون دائماً وأبداً . وبما أنّ وجود النّاصر والمعين والمولى لا قيمة لكلّ ذلك ما لم يكتب الله تعالى النّصر لذا كان فى الجزئيّة الكريمة هذا التّعبير : «فمن ذا الذى ينصركم من بعده» الّذى يقفز إلى الغاية وهى النّصر الّذى لا يكون إلاّ بإرادة الله تعالى. أمّا وجود النّاصر من المخلوقين فلا يعنى النّصر ما لم يرد الله تعالى ، لكلّ ذلك جاء التّعبير فى الجزئيّة الكريمة : «وإن يخذلكم فمن ذا الّذى ينصركم من بعده» .

وينبغى أن يكون للقول : «من بعده» دورٌ فى الدّلالة على عجز كلّ ما سوى الله تعالى وتأخّره وتخلّفه مكاناً ومكانة .

وإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة : «وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» ترشد المؤمنين إلى وجوب التّوكّل على الله تعالى والرّضا بما قدّره الله تعالى وتنبّه إلى أهمّ شرطٍ يؤدّى بإذن الله تعالى إلى النّصر ، بعد إعداد المؤمنين ما يستطيعون من قوّة ، وهذا الشّرط هو التّوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له والاعتماد عليه جلّ وعلا وحده دون سواه . وكأنّ فى هذا الإرشاد تنبيهاً للمؤمنين فى أحد إلى أنّ هذا الشّرط قد طرأ عليه نوعٌ من الخلل فعلى المؤمنين أن يتّقوا الله تعالى وأن يعملوا على إصلاح هذا الخلل . وحينما يجىء فى الآية الكريمة السّابقة الّتى تتحدّث عن المصطفى ﷺ القول : «إنّ الله يحبّ المتوكّلين» يكون من حظّ المصطفى ﷺ الحبّ من الله تعالى ، وحينما يجىء فى هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن المؤمنين القول :

«وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» يكون من حظّ المؤمنين الإرشاد من الله تعالى والتّسديد ، العون والتّأييد . ووراء ذلك رباطُ التّوكّل على الله تعالى فى الآيتين الكريمتين واضحٌ تمام الوضوح . وحينما يكون ثمّة توكّلٌ على الله تعالى يكون هنالك رضاً بقضاء الله تعالى واستسلامٌ لقدره جلّ وعلا ، فعلى المسلمين الّذين أصابهم قرح أحد الرّضا والاستسلام . وحينما يشير السّياق من ذى قبل إلى أنّ الّذين تولّوا يوم أحد إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ، وكان من الصّحابة من تورّط من ذى قبل فى قولٍ غير لائق ، فإنّه يصحّ اعتبار مثل هذا القول ممّا استزلّ به الشّيطان الرّجيم بعض الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم . وإلى مثل هذا القول أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقــم (١٦١)

قال تعالى : **﴿وما كان لنبىٍّ أن يَغُلّ . ومن يغلل يَأْتِ بما غلّ يوم القيامة ثمّ توفّى كلُّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾** .

سبب النّزول

عن ابن عبّاس : وما كان لنبىٍّ أن يغلّ ، قال : كان ذلك فى قطيفةٍ حمراء فقدت فى غزوة بدرٍ فقال أناس من أصحاب النّبىّ ﷺ : فلعلّ النّبىّ أخذها فأنزل الله عزّ وجلّ : وما كان لنبىّ أن يغلّ[١] .

إنّ أنبياء الله تعالى هم المصطفون الأخيار الّذين صنعهم الله جلّ وعلا على عينه. بل إنّ محمّد بن عبدالله ﷺ جاء عنه فى سورة الطّور[٢] قوله تعالى : **﴿واصبر لحكم رَبِّك فإنّك بأعيننا وسبّح بحمد ربّك حين تقوم ، ومن اللّيل فسبّحه وإدبار النّجوم﴾** وقال تعالى[٣] : **﴿الله أعلم حيث يجعل**

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٠٢/٤ وانظر اسباب النّزول للواحدى النّيسابورى ١٥٩ .

(٢) الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة الأنعام ١٢٤ .

رسالته﴾ وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه ما كان لنبيٍّ من أنبياء الله تعالى المصطفين الأخيار وما صحّ له أن يخون فى الغنيمة بأنْ يخفى لنفسه شيئاً منها يخرج من القسمة العامّة للغنيمة .

وإنّ هذه شهادة من الله تعالى لأنبياء الله تعالى ورسله بخلق هؤلاء المصطفين العظيم وسلوكهم المستقيم .

وتتحوّل الآية الكريمة إلى التّحذير من هذا الذّنب العظيم والإثم الكبير فتقرّر أنّ من يغلل ويخن فى الغنيمة ويغشّ إخوانه المسلمين ويخدعهم ويسرقهم فإنّه يوم القيامة سوف يأتى حاملاً ما سرق . وانظر إلى جملة : «يأت» الّتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على البعد وهى هنا تفيد المشقّة الّتى يكابدها الغالّ الّذى يأتى من بعيد حاملاً ما غلّ وخان من غنائم المسلمين .

وفى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود تنال كلّ نفسٍ وافياً جزاء ما كسبت من خيرٍ أو شرّ ، وهم لا يظلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

وما أكثر الأحاديث النّبويّة الشّريفة فى التّحذير من الغلول والتّبيين لعقابه الأليم . روى الأئمّة أحمد والبخاريّ ومسلم عن أبى هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره ثمّ قال : لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك ، لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك ، لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت (١) فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك (٢)

---

(١) الصّامت من المال الذّهب والفضّة والنّاطق من المال هو الحيوان .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٢/١ وتفسير الطّبرىّ ١٠٥/٤ .

وروى الإمام أحمد أنّ النّبىّ ﷺ إذا صلّى العصر ربّما ذهب إلى بنى عبدالأشهل فيتحدّث معهم حتّى ينحدر إلى المغرب . قال أبورافع : فبينما رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مرّ بالبقيع فقال : أفٍّ لك أفٍّ لك . فلزق فِيَّ درعى وتأخّرت وظننت أنّه يريدنى فقال : ما لك ؟ قلت : أحدثتُ حدثاً يا رسول الله ؟ قال : وماذاك ؟ قال : إنّك قلت لى ؟ قال : لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً على آل فلان فغلّ نمرة فدرع الآن مثلها من نـار [١]

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصّامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعـير من المغنم ثم يقول : ما لى فيه إلاّ مثل ما لأحدكم . إيّاكم والغلول فإنّ الغلول خزىٌ على صاحبه يوم القيامة ، أدّوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد ، فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنّة ، إنّه لينجى الله به من الهمّ والغمّ ، وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم [٢] .

ويلحق بالغلول ما يهدى لذى المنصب . روى الإمام أحمد أنّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له ابن اللّتيبة على الصّدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : ما بال العامل نبعثه على عملٍ فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لى . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والّذى نفس محمّد بيده لا يأتى أحدكم منها بشىءٍ إلاّ جاء به يوم القيّامة على رقبته وإنّ بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار، أوشاة تيعر [٣] ثمّ رفع يديه حتّى رأينا عفرة [٤] إبطيه ثمّ قال : اللّهمّ هل بلّغت . ثلاثاً [٥] وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه قال :

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٢/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٢/١ .
(٣) تيعَر وتيعِر : تصيح .
(٤) العفرة بضمّ العين وفتحها شعر وسط الرّاس من الإنسان والمراد هنا شعر الإبط.
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٢/١ وتفسير الطّبرىّ ١٠٥/٤ وفيه : «حتّى إنّى لأنظر إلى بياض إبطيه» .

لمّا كان يوم خيبر أقبل نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلانٌ شهيد وفلانٌ شهيد ، حتّى أتوا على رجلٍ فقالوا : فلانٌ شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : كلاّ إنّى رأيته فى النّار فى بردةٍ غلّها أو عباءة . ثمّ قال رسول الله ﷺ : اذهب فناد فى النّاس : إنّه لا يدخل الجنّة إلاّ المؤمنون . قال : فناديت : إنّه لا يدخل الجنّة إلاّ المؤمنون . وكذا رواه مسلم والتّرمذىّ من حديث عكرمة بن عمّار به . وقال التّرمذىّ : حسن صحيح [1] .

ويلحق بالغلول ما يقتطع من أرض الجار . روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشجعىّ عن النّبىّ ﷺ قال : أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرّجلين جارين فى الأرض أو فى الدّار فيقطع أحدهما من حظّ صاحبه ذراعاً فإذا قطعه طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة [2] .

أما وقد تحدّثت الآية الكريمة عن ثواب المؤمنين وعذاب الكافرين فى إجمال فإن الآية الكريمة التالية تتحدث عن ذلك في شيء من التفصيل فإلى

الآيــة رقــم (١٦٢)

قال تعالى : ﴿**أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسَخَطٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير**﴾ .

إنّ ذكر الرّضوان فى الآية الكريمة بمعنى مرضاة الله تعالى الّتى تعتبر نهاية المطاف وغاية المنى يحملنا على الاستئناس بمثل قوله تعالى [3] : ﴿**قل أؤنبّئكم بخيرٍ من ذلكم . للّذين اتّقَوْا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهّرةٌ ورضوانٌ من الله . والله بصيرٌ بالعباد**﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٣/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢١/١ .
(٣) سورة آل عمران ١٥ .

وقوله تعالى [1] : **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكنَ طيّبةً فى جنّات عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم﴾** إنّ الّذى يتوّج كلّ نعيم فى الجنّة هو رضوان الله تعالى الّذى لا سخط بعده . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تقفز فى حقّ المؤمنين إلى رضوان الله تعالى ونيل مرضاته وهى بذلك تتجاوز كثيرا من المراحل التى نستطيع أن نستدل عليها بما جاء فى حق الّذين باءوا بسخطٍ من الله تعالى ، ووراء ذلك نحن نستطيع أن نستدلّ بهذا الموجز فى حقّ المؤمنين الّذين اتّبعوا رضوان الله تعالى على المحذوف الّذى يقابله فى حقّ الفريق الآخر . ويصحّ أن يكون الكلام بعد إعادة الكلام المحذوف على النّحو التّالى :

أفمن اتّبع أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ وآب بمرضاة الله تعالى ومأواه الجنّة ونعم المصير كمن اتّبع خطوات الشّيطان الرّجيم وباء بسخطٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير . ومن البيّن أنّ ثمّة حذفاً واحداً بشأن من سخط الله تعالى عليه وقد استدللنا عليه بالجملة الأولى فى الآية الكريمة . بينما يوجد الكثير من الحذف فى هذه الجملة الأولى الّذى استدللنا عليه بما جاء فى حقّ الكافرين . ومن البيّن أنّ هذا المحذوف مفهومٌ حقّاً ، وأنّ المذكور من الكلام قد نبّه عليه وأغنى عن ذكره . ونحن حينما نذكره إنّما نريد أن نبيّن مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال البلاغة بالحذف . بقى علينا أن ننبّه إلى أنّ جملة باء تعنى أساساً المساواة والجزاء والاستحقاق . يقال : باء فلانٌ بدم فلانٍ يبوء به أى ساواه . وباء بغضبٍ من الله أى حلّ مبوأً ومعه غضب الله أى عقوبته . وأصل ذلك من البواء وهو مساواة الأجزاء فى المكان ، يقال : مكانٌ بواءٌ إذا لم يكن نابياً بنازله ، وبوّأت له مكاناً سوّيته

---

(١) سورة التّوبة ٧٢ .

فتبوّأ . واستعمال باء تنبهياً على أنّ مكانه الموافق يلزمه فيه غضب الله [1] ويتبيّن من استعمالات باء أنّه يغلب ارتباطها بالشّرور والآثام .

وإنّ الجواب على سؤال الآية الكريمة مفهوم فلا يستوى من دخل الجنّة ونال رضوان الله تعالى ومن دخل النّار وباء بغضبٍ من الله تعالى . والمعروف أنّ الجنّة درجات والنّار دركات وإلى ذلك نبّهت الآية الكريمة التّالية ، فإلى

الآيــة رقــم (١٦٣)

قال تعالى : ﴿هم درجاتٌ عند الله . والله بصيرٌ بما يعملون﴾ .

الكلام هنا على الحذف كذلك والدّليل على ذلك أنّه امتدادٌ للآية الكريمة السّابقة . وكأنّ المعنى : من اتّبع رضوان الله تعالى هم درجاتٌ فى الجنّة ، والدّرَجَة تطلق فى حال الصّعود والنّظر إلى السّلّم من أسفل إلى أعلى . ومن باء بسخط من الله تعالى هم دركات فى النار والدَّرَكَة تطلق فى حال النزول والنظر إلى السّلّم من أعلى إلى أسفل . يقول الرّاغب [2] : «الدّرْك كالدّرْج لكن الدّرْج يقال اعتباراً بالصّعود والدّرك اعتباراً بالحدور ، ولهذا قيل : درجات الجنّة ، ودركات النّار» .

وإنّما كان الحديث عن درجات الجنّة الخاصّة بالمؤمنين لأنّهم محطّ الاهتمام . إنّ المؤمنين عند الله تعالى يوم القيامة درجات فى الجنّة ، وإنّ الكافرين دركات في النّار . والله سبحانه وتعالى بصيرٌ بما يعملون جميعاً ولا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

ولمّا كان حديث الآيات الكريمات فى ضوء فضل الله العظيم على المؤمنين الّذى نبهّت عليه آية كريمةٌ سابقة وأشادت به وكان إرسال خاتم

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «بواء» ٦٩ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «درك» ١٦٧ .

النّبيّين من أكبر مظاهر فضل الله تعالى على الإنسانيّة بعامّة المؤمنين بخاصّة فقد تحوّل السّياق فى الآية الكريمة التّالية إلى الحديث عن هذا النّوع من فضل الله تعالى الكبير فإلى

الآيــة رقــم (١٦٤)

قال تعالى : ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين**﴾ .

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة وبين الآية الكريمة من سورة الجمعة [1] قال تعالى : ﴿**هو الّذى بعث فى الأمّيّن رسولاً منهم يتلو عليهم آياتــه ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين**﴾ وفرق بين الآيتين أنّ آية سورة آل عمران تنطلق من المؤمنين الثّمرة اليانعة لهذا الدّين الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ ولأنّ أولئك المؤمنين يعيشون آنذاك تجربة مريرة تتمثّل فى توليهم أمام المشركين فى غزوة أحد وفى فقدهم الغنيمة الّتى أمسكت بها أيديهم ، ومن كان يمرّ بمثل تلك التّجربة هو بمثابة الحديد الّذى أوقد عليه فى النّار لذا هو يستجيب لأهون الطّرق وأقلّ المجهود . وإنّ ممّا يعمّق الأثر لدى أولئك المؤمنين أنّ الحديث عن فضل الله تعالى عليهم بإرسال خاتم النّبيّين ينطلق من نقطة المنّ من الله تعالى والفضـل عليهم . فللّه تعالى المنّ والفضل دائماً وأبداً فى حال اليسر وفى حال العسر .

أمّا آية سورة الجمعة فإنّها تنطلق من نقطة الأمّيّن وهم عرب الجزيرة العربيّة آنذاك باعتبارهم مادّة الإسلام الأولى . ويلاحظ هنا أنّ الأسلوب

---

(١) الآيــة ٢ .

تقريرىّ وأنّ المنّ مفهومٌ ضمناً وغير مصرّح به .

وإنّ آية سورة آل عمران تبيّن ، مستعملةً اللّام الّتى تفيد التّوكيد وقد الّتى تفيد التّحقيق ، أنّ الله سبحانه وتعالى قد منّ وتفضّل ، تطوّل وتكرّم على المؤمنين ، باعتبار النّعمة الّتى تقلّبوا فيها بدخولهم فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، إذ بعث فيهم جلّ وعلا رسولاً من أنفسهم . وحينما نعلم أنّ أكبر النّعم الّتى يمتنّ الله تعالى بها على عبدٍ من عباده هى نعمة الرّسالة الّتى تعتبر مرتبة النّبوّة خطوةً ضروريّة إليها ، ندرك شيئاً من فضل الله تعالى علينا نحن المؤمنين . والآية الكريمة تبيّن مظهراً آخر من مظاهر فضله جلّ وعلا على المؤمنين بل على الإنسانيّة حينما بعث هذا الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم من أنفسهم وجعله واحداً منهم واصطفاه من البشر وليس من الملائكة مثلاً ، لأنّ الإنسان إنّما يألف الإنسان ويرتاح إليه ويأنس به ويفهم عنه ويستفيد منه ويسكن إليه . وإلى وجوب كون الرّسول من جنس قومه أشار قوله فى سورة الإسراء[1] : ﴿وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان فى الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السّماء ملكاً رسولاً﴾ . وأشارت سورة الأنعام إلى أنّ الرسول إلى البشر لو كن ملكاً كما طلب كفّار مكّة لوجب أن يكون فى شكل البشر وهيئتهم كى يألفوه ويستفيدوا منه وينتفعوا به . قال تعالى[2] : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك . ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثمّ لا يُنْظَرون . ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رجلاً وللَبَسْنا عليهم مايلبسون﴾ .

وتشير الآية الكريمة إلى أربع وظائف مهمّة لهذا الرّسول الكريم فى حقّ المؤمنين فهو : ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾

(١) الآية ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) الآية ٨ ، ٩ .

أمّا تلاوة القرآن الكريم بمعنى قراءته وترتيله ترتيلاً فإنّها تكون فى الصّلاة وفى غير الصّلاة ، وقد جاء فى سورة الإسراء [1] خطاباً للمصطفى ﷺ ، وإنّ أمّته عليه الصّلاة والسّلام تبعٌ له فى ذلك ، قوله تعالى : **﴿أقم الصّلاة لدلوك الشمس إلى غسق اللّيل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً . ومن اللّيل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً﴾** وكما يتلو المصطفى ﷺ آيات الله تعالى فى الصّلاة وفى غير الصّلاة هو عليه الصّلاة والسّلام يزكّيهم ويطهّرهم وينقّيهم من كلّ شائبة . وتكون هذه التّزكية بصالح الأعمال وفى مقدمتها بعد الشّهادتين أركان الإسلام ومنها الزّكاة والصّدقات ، وقد جاء فى سورة التّوبة [2] قوله تعالى : **﴿خذ من أموالهم صدقةً تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكنٌ لهم . والله سميعٌ عليم . ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التّوبة عن عباده ويأخذ الصّدقات وأنّ الله هو التّواب الرّحيم﴾** ولا يقف المصطفى ﷺ عند درجة العبادة إنّما يتجاوزها إلى درجة العلم ، فبعد الحديث عن التّلاوة ، وعلاقتها بالصّلاة وثيقة ، وعن التّزكية ، وعلاقتها بالزّكاة وثيقة ، ومفهومٌ أنّ الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين ، بعد الحديث عن التّلاوة والتّزكية يأتى دور العلم، وها هو ذا المصطفى ﷺ يعلّم المؤمنين بإذن الله تعالى الكتاب والحكمة ، القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطّهرة . أمّا تعليم المصطفى ﷺ المؤمنين معانى الكتاب العزيز فإنّ ذلك تبعٌ لتعليم الله تعالى إيّاه معانى الكتاب العزيز وتفهيمه مراميه . وقد جاء فى سورة القيامة [3] قوله تعالى : **﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به . إنّ علينا جمعه وقرآنه.فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه . ثم إنّ علينا بيانه﴾** وأمّا الحكمة وهى بمعنى السّنة فإنّها أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته .

---

(١) الآية ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٣) الآيات ١٦ - ١٩ .

وهذه الحكمة أو السّنّة مبيّنةٌ لمعانى الكتاب العزيز ومفصّلة لمجمله وموضّحةٌ لمتشابهه . وقد جاء فى سورة النّحل[1] قوله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون . بالبيّنات والزّبر . وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون**﴾ ويقول ابن القيّم[2] : «والحكمة هى سنّة الرّسول ﷺ وهى تتضمن العلم بالحقّ والعمل به والخبر عنه والأمر به فكلّ هذا يسمّى حكمة» . ويقول ابن تيمية[3] : «وأمّا الرّسول فينزل عليه وحى القرآن ووحىٌ آخر هو الحكمة كما قال ﷺ : إلا إنّى أوتيت الكتاب ومثله معه» وقال النّبىّ ﷺ فى الحديث المروىّ من طرق من حديث أبى رافع وأبى ثعلبة وأبى هريرة وغيرهم : لا ألفين أحدكم متّكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرّمناه ، ألا وإنّى أوتيت الكتاب ومثله معه[4] وسُئلت السّيّدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن[5] .

وفى التّذييل : «وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين» تقرّر الآية الكريمة فى أسلوب التّوكيد أنّ هؤلاء المؤمنين كانوا قبل أن يبعث الله تعالى رحمته المهداة ونعمته المسداه وينزل كتابه المبين وصراطه المستقيم كانوا فى ضلالٍ مبين ، وخروجٍ عن الصّراط المستقيم واضح ، وفى جاهليّةٍ جهلاء وفتنة عمياء . وإن هى المخففّة من الثّقيلة مهملة بدليل دخول اللّام الفارقة لام الابتداء على خبر كان . يقول السّيّد الهاشمىّ[6] : «فإذا خفّفت إنّ

---

(١) الآية ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) طريق الهجرتين وباب السّعادتين ١١٥ .
(٣) الإيمان ٣٧ .
(٤) الإيمان لابن تيمية ٤٣ .
(٥) انظر الحديث وتخريجاته فى تفسير ابن كثير للآية الرّابعة من سورة القلم .
(٦) القواعد الأساسيّة للغة العربيّة ١٦٦ وانظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢٩٨/٢ .

المكسورة الهمزة أهملت غالباً لزوال اختصاصها وتلزم لام الابتداء الخبر بعد المهملة فارقةً بينها وبين إن النّافية . فإن وليها فعلٌ كثر كونه من الأفعال النّاسخة» .

ولمّا كانت حيرة المؤمنين لانهزامهم فى غزوة أحد ما زالت قائمة وكان التّبيين من ذى قبل لطيفاً ليّنا تلفّه العناية الإلهيّة ويشمله الفضل من الله تعالى ، وكان القوم بحاجةٍ فى مقابل حيرتهم الّتى ما زالت قائمة إلى صراحةٍ أكبر هم الآن مهيّئون لتقبّلها فقد تمّ ذلك التّصريح فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٦٥)

قال تعالى : ﴿أوَلَمّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتم مِثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم . إنّ الله على كلّ شىءٍ قدير﴾ .

إنّ الآية تسأل منكرةً على المؤمنين الّذين سألوا فى إنكارٍ أنّى هذا . ومن أين جرى علينا هذا [١] ومن أىّ وجهٍ هذا ومن أين أصابنا هذا الّذى أصابنا ونحن مسلمون وهم مشركون وفينا نبىّ الله ﷺ يأتيه الوحى من السّماء وعدوّنا أهل كفر بالله وشرك [٢] إنّ الهمزة من «أولمّا أصابتكم مصيبة» للاستفهام . والواو للاستئناف . ويشتمّ من هذ الاستفهام الإنكار على المؤمين أن يسألوا هذا السّؤال . ويلفّ هذا الاستفهام الإنكارىّ الفضل من الله تعالى على المؤمنين لأنّ النّقمة الّتى هى سبب السّؤال يقترن بها النّعمة الّتى ينبغى ألاّ يغفلها المؤمنون والّتى ينبغى أن يكون لها دورها فى تهوين المصيبة وتخفيف أذاها . أمّا النّقمة فهى ما أصابهم فى أحد من استشهاد سبعين من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٤/١ .

(٢) تفسير الطّبرّى ١٠٨/٤ .

المجاهدين . وأمّا النّعمة فهى أنّ المؤمنين فى بدرٍ قتلوا سبعين من المشركين وفوق ذلك هم أسروا سبعين . وبفضل الله تعالى ومنّه لم يكن ثمّة أسيرٌ واحدٌ من المؤمنين فى أحد على الرّغم من كثرة عدد الكافرين فقد كانوا ثلاثة آلاف بينما كان المؤمنون سبعمائة شخص .

ومن الّذى قضى أن يكون القتلى فى بدر سبعين والأسرى سبعين والشّهداء فى أحد سبعين ؟ إنّه الله تعالى القادر على كلّ شىء . وإلى هذه القدرة أومأ قوله تعالى : ﴿قد أصبتم مِثْلَيْهَا﴾ وبهذه القدرة صرّح التّذييل : ﴿إنّ الله على كلّ شىءٍ قدير﴾ .

وإنّ القول : «قد أصبتم مثليها» يشمل لطفه المعنى القريب الظّاهر والمعنى البعيد الباطن . أمّا المعنى القريب الظّاهر فهو عدد القتلى والأسرى والشّهداء لأنّ المؤمنين يتذكّرون أنّ السّبعين من الشّهداء فى مقابل السّبعين من القتلى ، ويبقى وراء ذلك الأسرى من المشركين الّذين لا يقابلهم أسيرٌ واحد من المؤمنين ، وذلك محض فضلٍ من الله تعالى ، ودليلٌ على قدرته جلّ وعلا وحده لا شريك له .

ويقوّى من هذا المعنى القريب الظّاهر أنّ الآية الكريمة تجعل قتل الكافرين فى بدر وأسرهم متساويين ، بمعنى أنها تجعل أسْر الكافرين قسيما لقتلهم وأنّ مصيبة أسر سبعين من المشركين مساوية لمصيبة قتل سبعين منهم . فما الحكمة من هذه المساواة ؟ الحكمة من هذه المساواة أنّ الأسرى من المشركين كانوا فى متناول يد المسلمين إن شاءوا قتلوهم وبذلك يرتفع عدد القتلى إلى الضّعف وإن شاءوا فادوهم أو منّوا عليهم . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ قتل بعض أسرى بدر وفادى الباقين . إنّ الأسير فى الحقيقة بمنزلة القتيل . وبشأن أسرى بدرٍ نبّهت سورة الأنفال [1] إلى أنّ قتلهم كان

(١) الآيات ٦٧ - ٦٩ .

أولى من أخذ الفداء منهم لأنّ هؤلاء الأسرى لو أنّهم قتلهم المسلمون لسلم المسلمون من أذاهم فى أحد ولأنّ الإثخان فى الأرض والمبالغة فى قتل الكفّار فى فجر الدّعوة أنجع فى القضاء علـى الكفر وأنجح فى كسر شوكة الكفّار . أمّا الفداء فيصحّ أخذه من الأسرى فى مرحلة تالية . وقد عفا الله تعالى عن المؤمنين حينما تجاوزوا الفاضل وهو قتل الأسرى إلى المفضول الّذى سبق علم الله تعالى بإحلاله لهم وهو أخذ الفداء . قال تعالى [1] : ﴿**ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن فى الأرض . تريدون عرض الدّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم . لولا كتابٌ من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم . فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً واتّقوا الله . إنّ الله غفورٌ رحيم**﴾ .

وأمّا المعنى البعيد الظّاهر فهو أنّ مصيبة المشركين فى بدرٍ أكبر من مصيبة المؤمنين فى أحد وأنّ فرح المؤمنين فى بدرٍ أكبر من فرح المشركين فى أحد بسبب قلّة عدد المسلمين بالقياس إلى المشركين وقلّة عدّتهم بالقياس إلى المشركين فقد كان الواحد من المسلمين يقاتل فى بدرٍ زهاء ثلاثةٍ من المشركين بينما كان الواحد من المسلمين فى أحدٍ يقاتل زهاء الأربعة من المشركين . إنّ هذه الحقائق ممّا ينبغى أن تزيد من فرح المؤمنين فى بدرٍ وتقلّل من أساهم فى أحد ، وممّا ينبغى أن يكون لها أثرها فى نفوس المشركين الّذين كانوا على علم أكيد بقلّة عدد المسلمين وعدّتهم وعلى علمٍ أكيد بالهزيمة المريرة الّتى تلّقوها فى أحد أوّل الأمر .

إنّ كلّ ما أصاب المشركين فى بدر وما أصاب المؤمنين كان بإرادة القادر على كل شىء الفعّال لما يريد ، وإن ما أصاب المؤمنين فى أحد من

---

(١) سورة الأنفال ٦٧ ـ ٦٩ .

هزيمة وفقد غنيمة أخيراً إنّما جاءهم من عند أنفسهم لأنّهم خالفوا أمر المصطفى ﷺ بعدم ترك جبل الرّماة .

ويلاحظ أنّ سؤال المؤمنين الإنكاريّ الّذى مهّد له بسؤال إنكاريّ بين يديه قد أُمر عليه الصّلاة والسّلام أن يجيب المؤمنين عليه : «قل هو من عند أنفسكم» والمعنى أنّ الّذى أصابكم إنّما جاءكم من عند أنفسكم . إنّ السّؤال من المؤمنين يجيب عنه بأمرٍ من الله تعالى الرّسول الكريم ﷺ . وإذا كانت هذه الآية الكريمة تنبّه إلى قدرة الله تعالى وتصرّح بهذه القدرة الّتى قضت بانتصار المؤمنين فى بدر وبانتصار الكافرين فى أحد فإنّ الآية الكريمة التّالية تتجاوز مرحلة القدرة إلى مرحلة الإذن فإلى

الآيــة رقـم (١٦٦)

قال تعالى : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ما أصاب المؤمنين فى أحد ولم يخطئهم يوم التقى الجمعان ، جمع المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وجمع الكافرين بقيادة أبى سفيان إنّما كان بإذن الله تعالى . إنّ السّياق سبق أن أشار إلى القدرة المطلقة للّذات العليّة، وإنّ السّياق هنا يستخدم لفظة إذْن بالذّات وهى فى مجال الإفادة بالقدرة وبالقوة ، كما هو الحال هنا ، أبلغ فى الدّلالة من الإرادة أو العلم ، لأنّ الإذن مع القدرة يتجاوز كلاًّ من مرحلة العلم ومرحلة الإرادة . إنّ الله سبحانه وتعالى قد أذن بأن تصيب المؤمنين فى أحد مصيبة ، وإنّ من أقرب الحِكَم لهذا الإذن أن يأخذ المؤمنون فى كلّ العصور العظة والعبرة فلا محاباة فى ميزان العدل الإلهى . إنّ أصحاب محمّد بن عبدالله ﷺ حينما عصوا أمر المصطفى ﷺ فى أحد وتركوا جبل الرّماة تحوّل بإذن الله تعالى

النّصر إلى الهزيمة وفرّت من أيديهم الغنيمة ، السّبب الّذى من أجله ترك جلّ الرّماة الجبل . وإنّ النّاظر فى تاريخ المسلمين فى فجر الإسلام يتبيّن أنّ درس أحد قد استفاد منه المؤمنون أيّما فائدة بحيث إنّه فى بضعة آلافٍ من المعارك الّتى خاضها المسلمون لم يكد يتكرّر درس أُحد .

ووراء الإذن من الله تعالى بأن يصيب المسلمين ما أصابهم فى أحد ثمّة حكمةٌ أخرى عبّر عنها بالقول : «وليعلم المؤمنين» والمعنى أنّ من حكم درس أحد أن يعلم جلّ وعلا علم ظهور حقيقة المؤمنين ومدى إيمانهم وصبرهم واحتسابهم . ويلاحظ أنّ لفظ المؤمنين فى القول : «وليعلم المؤمنين» يجىء فاصلة كما يلاحظ أنّ عجز هذه الآية الكريمة مرتبطٌ بصدر الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيـــة رقـــم (١٦٧)

قال تعالى : ﴿**وليعلم الّذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم . هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون**﴾ .

إنّ الّذى يجمع بين عجز الآية الكريمة السّابقة : «وليعلم المؤمنين» وبين صدر هذه الآية الكريمة : ﴿**وليعلم الّذين نافقوا**﴾ صفة العلم . بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى شاء أن تصيب المؤمنين فى أحد مصيبة من أجل أن يعلم جلّ وعلا علم ظهور المؤمنين الصّادقى الإيمان والمنافقين الّذين يظهرون غير ما يبطنون ويعلنون خلاف ما يسرّون .

ومع اشتراك العجز والصّدر فى صفة العلم فإنّ بينهما اختلافاً نومىء إليه فيما يلى .

١ ـ جاء عن المؤمنين القول : «وليعلم المؤمنين» فصحّ مجىء لفظ المؤمنين

فاصلة بينما جاء عن المنافقين القول : «وليعلم الّذين نافقوا» ولا يجىء القول : وليعلم المنافقين ، لأنّ الحديث عن المنافقين جاء صدر آية ، ولأنّ الاختلاف فى الصّفات بين الفريقين كبير فاقتضى ذلك الاختلاف فى الصّفات الاختلاف فى التّعبير .

٢ ـ إنّ القول : «وليعلم المؤمنين» يفهم منه أنّ صفة الإيمان راسخةٌ فى قلوب المؤمنين أمّا القول : «وليعلم الّذين نافقوا» فإنّه يصحّ أن يفهم منه أنّ صفة النّفاق طارئة وزائلة . والمعروف أنّ الإيمان درجات وأنّ قليله يصحّ أن يذهب به مثل مصيبة أحد كما حدث بشأن هؤلاء الّذين نافقوا بدليل أنّ السّياق لا يقول : وليعلم المنافقين ، ممّا يفهم بسببه ممّا جاء فى الآية الكريمة أنّ النّفاق صفةٌ طارئة . وكما كان الإيمان درجات كان النّفاق دركات ، وبقدر الابتعاد عن الإيمان يكون النّفاق . وإنّ من هؤلاء المنافقين «الّذين نافقوا» فى أثناء المعركة والّذين فرّوا وأصعدوا فى الأرض وأوغلوا فى الهرب . وإنّ من هؤلاء المنافقين فريقاً أشدّ سوءاً من سابقه وقد أشار إليه قوله تعالى : ﴿**وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا**﴾ والمعنى وليعلم جلّ وعلا الّذين نافقوا وليعلم الّذين «قيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا» وانظر إلى جملة «تعالوا» اللّطيفة الوقع على النّفس الكريمة والدّالّة على لطف المسلمين فى التّعبير وفى مخاطبتهم رفقاءهم فى الدّرب بأكرم الألفاظ معنى وألطفها على القلب وقعاً . إنّ جملة تعالوا يخاطَبُ بها أساساً من كان فى مكانٍ منخفض ويطلب إليه أن يرتفع ويجىء إلى مخاطبه . حقّاً إنّ هذه اللّفظة فقدت بمرور الزّمن هذا المعنى الدّقيق وأصبح ينادى بها من كان فى منخفض من الأرض أو مرتفع أو مستو ، ومع ذلك فإنّ هذه اللّفظة تظلّ دائماً وأبداً مرتبطةً بالعلياء والرّفعة ، وهى بذلك تعكس الخلق العظيم الّذى اصطفى الله تعالى به أصحاب محمّد ﷺ .

إنّ المؤمنين يقولون لمن يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر تعالوا قاتلوا فى سبيل الله تعالى معنا وقد بدت طلائع المعركة أو ادفعوا العدوّ عنّا بتكثيركم جمعنا وسوادنا إذ يعلم العدوّ أنّنا يدٌ واحدةٌ على من عادانا [1] .

ولمّا كان المنافقون يتربصّون بالمؤمنين الدّوائر فقد كان جوابهم موافقاً لما تخفيه نفوسهم وتضمره قلوبهم من شرّ وتربّصٍ للدّوائر على المؤمنين : ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم﴾ .

إنّ المنافقين يتظاهرون بأنّهم لا يتبيّنون قتالاً سينشب بين المؤمنين والكافرين وبأنّهم لا يعلمون حرباً ستقوم ولو كانوا يتبيّنون قتالاً أو يعلمون حرباً لاتّبعوا المؤمنين «قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم» فهل يعلم المنافقون أنّ كفّار مكّة الّذين وجّهوا للمجهود الحربىّ القافلة الّتى نجت فى بدر وكرّسوا كلّ جهودهم استعداداً للمعركة الفاصلة مع المؤمنين ، هل يعلم المنافقون أنّ قريشاً بعددها وعدّتها وأحابيشها وحلفائها جاءت من أجل الفسحة واللّهو واللعب ؟ والمعروف أنّ القوافل آنذاك تقطع المسافة من مكّة إلى المدينة وبالعكس فى اثنتى عشرة ليلة .

وانظر إلى الجملة الّتى تجرى على ألسنة المنافقين الضّعيفى الهمّة الجبناء الأذلّة : «لاتّبعناكم» إنّهم فى أحسن أحوالهم حينما يضطّرون للمشاركة فى إحدى المعارك مع المسلمين أن يكونوا تبعاً وذيلاً وفضلة . فلا نامت أعين المنافقين الجبناء .

عرفنا أنّ الإيمان درجات وأنّ النّفاق دركات . وعرفنا أنّ الفئة المنافقة الّتى عبّر عنها بالقول : «الّذين نافقوا» تعتبر من أقلّ فئات المنافقين سوءاً بالقياس إلى الفئات الأخرى . وإن هذه الفئة التالية من المنافقين من أشدّهم

---

(١) انظر هنا مثلا تفسير ابن كثير ٤٢٥/١ وتفسير الطّبرىّ ١١١/٤ .

سوءاً . ولذلك قالت الآية الكريمة عنهم : **﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾** .

إنّ هؤلاء المنافقين مذبذبون بين الكفر والإيمان ، وإنّهم برفضهم مواصلة مسيرة الجهاد مع المؤمنين وقولهم بأفواههم ما ليس فى قلوبهم وقولهم ما يدلّ على جبنهم وضعف همّتهم وفرط ذلّتهم ، إنّهم الآن أقرب إلى الكفر منهم للإيمان . ولم ذلك ؟ لأنّهم بشهادة الله : «**يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم**» فهم ينطقون بألسنتهم غير الّذى فى قلوبهم وهم يعلنون خلاف ما يسرّون ويظهرون خلاف مايبطنون . وهم وراء كلّ ذلك يكتمون فى صدورهم من الحقد الدّفين على الإسلام والمسلمين ما لا يعلمه إلّا الله تعالى وما يشهد به الله تعالى : **﴿والله أعلم بما يكتمون﴾** .

روى ابن إسحاق أنّ المصطفى ﷺ : «خرج إلى أحد فى ألف رجلٍ من أصحابه ، حتّى إذا كان بالشّوط بين أحدٍ والمدينة انحاز عنه عبدالله بن أبيّ ابن سلول بثلث النّاس فقال : أطاعهم وعصانى والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيّها النّاس ، فرجع بمن اتّبعه من النّاس من قومه أهل النّفاق وأهل الرّيب . وأتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بنى سَلِمة يقول : يا قوم أذكّركم الله ألّا تخذلوا نبيّكم وقومكم عندما حضر من عدوّكم قالوا : لو نعلم أنّكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال . فلّما استعصوا عليه وأبوا إلّا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم . ومضى رسول الله ﷺ» (١) بل إنّ هؤلاء المنافقين يريدون من عبدالله بن عمرو بن حرام أن يحذو حذوهم بأن يخذل المصطفى ﷺ فقالوا له : «ما نعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعنّ معنا» (٢) بل إنّهم يريدون ذلك من بقيّة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٥/١ وتفسير الطّبرىّ ١١١/٤ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٦٨/٣ .
(٢) تفسير الطّبرىّ ١١١/٤ .

المسلمين كى يبقى المصطفى ﷺ وحده فى الميدان «فقالوا ما نعلم قتالاً ولئن أطعتمونا لترجعنّ معنا»[1] وإنّ الآية الكريمة التّالية لتتحدّث عن المنافقين من هذه الزّاوية فإلى

الآيـــة رقـــم (١٦٨)

قال تعالى : ﴿**الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾ .

تبدأ الآية الكريمة باسم الموصول «الّذين» المبدل من اسم الموصول فى الآية الكريمة السّابقة : «وليعلم الّذين نافقوا» وقد عرفنا أنّ النّفاق دركات وأنّ المنافقين أنواع . والآية الكريمة هنا تقرّر أنّ هؤلاء المنافقين الّذين خذلوا المصطفى ﷺ والمؤمنين وعادوا من منتصف الطّريق وحاولوا إغراء بقيّة المؤمنين بعامّة ، الأنصار بخاصّة كى يحذوا حذوهم قالوا لإخوانهم فى الدّم والنّسب والعشيرة لو أطاعنا أولئك الإخوان فى الدّم والنّسب وعادوا من منتصف الطّريق ما قتلوا .

وانظر إلى الجملة المعترضة : «وقعدوا» فى القول : ﴿«**الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا**﴾ وانظر إلى عمى بصيرة هؤلاء المنافقين الّذين يرون شهادة هؤلاء الشّهداء السّعداء قتلاً عاديّاً لذا هم يعبّرون عن الشّهادة بأنّها القتل المجرّد ، والّذين يرون خذلهم للمصطفى ﷺ والمؤمنين وفرارهم من المعركة كسباً ونجاحاً ، واستشهاد المجاهدين الصّادقى الإيمان فى ميدان الشّرف والبطولة خسراناً وهلاكاً .

والحقيقة أنّا نودّ أن نقف عند جملة «وقعدوا» وقفةً متأنّية . وأوّل ما يلاحظ هو أنّ السّياق لا يستغنى عن هذه الجملة المعترضة رغم استقامة

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١١١/٤ .

المعنى بدونها . ولكنّ مجيء جملة «وقعدوا» أضفى على الجزئيّة الكريمة مزيد إشراقٍ وبهجة من النّاحيتين الصّوتيّة والمعنويّة .

أمّا مزيد الإشراق والبهجة من النّاحية الصّوتيّة فإنّ ذلك يتبيّن حينما نتبيّن مجانسة «وقعدوا» لجملة : «قُتلوا» صوتيّاً ، وقد ترتّب على مجيء جملة «وقعدوا» تألّف الجزئيّة الكريمة من شقّين متجانسين صوتيّاً الأوّل : «الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا» والآخر : «لو أطاعونا ما قتلوا» وحينما تتلى الجزئيّة الكريمة كاملةً ترتاح الأذن والنّفس لانسجامها بشقّيها صوتيّاً .

وأمّا مزيد الإشراق والبهجة من النّاحية المعنويّة فللتّجانس المعنوىّ بين ما يدلّ عليه القول الّذى يجرى على ألسنة المنافقين من تأخّر وتقهقرٍ وانزواء وبين ما تدلّ عليه الجملة المعترضة «وقعدوا» بسبب قدرتها على تصوير هيئة هؤلاء الجبناء الّذين تنسجمُ حركاتُهم مع أقوالهم والّذين تترجمُ اتّجاهاتُ حركاتهم عن إقبالهم على ذلّ الحياة عن عزّها وإخلادهم إلى الكسل عن العمل والرّاحة عن الجدّ .

وإنّ كلاًّ من قول المنافقين وفعلهم اللّذين أشارت إليهما الآية الكريمة بحاجةٍ إلى أن نقف عنده قليلاً . فمع القول أوّلاً . إنّ المنافقين يقولون : «لو أطاعونا ما قتلوا» والمعنى كما عرفنا لو أنّ إخواننا فى الدّم والنّسب أطاعونا حينما طلبنا منهم أن ينضمّوا إلينا وأن يخذلوا المصطفى ﷺ والمؤمنين ما قتلوا فى ميدان الشّرف والبطولة ولكانوا اليوم بين ظَهْرانَيْنَا يتمتّعون بنعيم الحياة ويجمعون من حطام الدّنيا . وسيكون ردّ الآية الكريمة على هذا القول وعلى الفعل كذلك عنيفاً . والآن إلى الفعل الّذى تصوّره جملة : «وقعدوا» .

إنّ من مظاهر عبقريّة اللّغة العربيّة تجاوزها مستوى الأداء للمعنى بدقّة عجيبة إلى مستوى تحديد الاتّجاه فى أثناء الحركة وتعيينه . وإنّ جملة قعد

من ألطف الأدلّة على هذا المستوى الرّفيع فى أداء المعنى ، ويبدو ذلك واضحاً حينما نقارن بين جملة : «قعد» والجملة الأخرى صنوها : «جلس» .

إنّ هيئة القاعد والجالس واحدة ولكنّ جملة قعد وصفة القعود إنّما تطلقان حينما يكون اتّجاه القاعد من الأعلى إلى الأسفل من الإيجابيّة إلى السّلبيّة ، من القوّة إلى الضّعف ، من الشجاعة إلى الجبن ، فمثلاً يقال : كان قائماً فقعد ، فالاتّجاه من أعلى إلى أسفل وقد يرتبط بهذه الحركة معانٍ أخرى غير حسنةٍ ولا إيجابيّة كما بيّنّا .

أمّا جملة جلس وصفة الجلوس فإنّهما تطلقان حينما يكون اتّجاه الجالس من الأسفل إلى الأعلى ، من السّلبيّة إلى الإيجابيّة ، من الضّعف إلى القوّة ، من الجبن إلى الشّجاعة . يقال مثلاً : كان مضطجعاً فجلس ، فالاتّجاه من أسفل إلى أعلى وقد يرتبط بهذه الحركة معانٍ حميدة .

فى ضوء هذا التّبيين للفروق الدّقيقة بين جملتى قعد وجلس والملابسات الّتى توحى بها جملة قعد حسّيّاً ومعنويّا نستطيع ونحن نتلو قوله تعالى : ﴿**الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا**﴾ أن تتمثّل هؤلاء المنافقين الجبناء الأذلّة الحريصين على حياة والّذين أخذوا يهرفون عن الشّهداء بما لا يعرفون وقد قرنوا قولهم السّمج بحركة القعود الّتى هم لها آلفون ومحبّون ومؤثرون دليلاً على الاستسلام ، واستمراءً للذّلّ والهوان ، وإلفاً للجبن والعجز والكسل ، وتأكيداً لعدم الاستعداد مطلقاً للتّفكير فى مجرّد تغيير الحال بأحسن حال ، وتنبيهاً على أنّ الاتّجاه إلى القعود يتلوه الاتّجاه إلى ما دونه شكلاً ومعنىً من اضطجاعٍ واستلقاء فغفلةٍ تامّة ونومٍ مطلق بل موتٍ سرمدىّ .

لقد قرن المنافقون بين حركتهم المتّجهة من الوقوف إلى القعود وبين

القول الّذى يسير مع هذا الاتّجاه فى الحركة ويؤكّد العجز ويرسّخ اليأس : «لو أطاعونا ما قتلوا» ويفهم من القول على ألسنة المنافقين أنّ سبب قتل الشّهداء فى أحد، وقد كان من الأنصار قد استشهد ستّةٌ وستّون شهيداً، أنّهم عصوا المنافقين وواصلوا المسيرة مع المصطفى ﷺ حتّى قتلوا . ويلاحظ أنّ المنافقين الجبناء يعتبرون استشهاد المجاهدين فى أحد قتلاً عاديّاً وليس الأمر كذلك لأنّ هذا النّوع من القتل هو شهادة فى سبيل الله تعالى وبناءً على هذا الاعتبار يجىء على لسان المنافقين القتل وليس الشّهادة . وليس بخافٍ أنّ المنافقين حينما يشيرون إلى القتل إنّما يعبّرون دون أن يشعروا بحقيقة نظرتهم إلى الشّهادة فى سبيل الله تعالى وإلى الجهاد فى سبيل الله تعالى . إنّهم يرون الجهاد فى سبيل الله تعالى قتالاً عاديّاً ويرون الشّهادة فى سبيل الله تعالى قتلاً عاديّاً . وما دامت هذه هى نظرتهم إلى الجهاد وإلى الشّهادة فمن الطّبيعىّ أن يلوموا إخوانهم فى الدّم والنّسب الّذين عصوهم فقتلوا . وبطبيعة الحال لا مكان فى نفوس المنافقين لمثل قوله تعالى فى الآية الرّابعة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران : **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾** .

ولمّا كانت نهاية الإنسان فى هذه الحياة الأولى تتمّ بإرادة الله تعالى بواحدٍ من طريقين القتل أو الموت حتف الأنف ولمّا كان المنافقون قد عبّروا عن رأيهم فى الجهاد فى سبيل الله تعالى وفى الشّهادة بأن اعتبروا الأمر مجرّد قتالٍ وقتل ، ولمّا كانوا مخطئين فى أقوالهم وأفعالهم وتصوّراتهم لذا فإنّ الآية الكريمة فى سبيل تبيين خطأ المنافقين بشأن القتال فى سبيل الله تعالى والشّهادة تتحوّل إلى الطّريق الآخر المؤدّى إلى نهاية هذه الحياة والّذى سوف يضطرّ إليه حتماً أولئك المنافقون الحريصون على حياة ، أىّ حياة . وهذا الطّريق الآخر هو الموت . قال تعالى : **﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ على غرار الأمر فى آية

كريمة سابقة ؛ «قل هو من عند أنفسكم» تأمر المصطفى ﷺ أن يقول للمنافقين : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنّ الشّهداء السّعداء لو أطاعوكم ونكصوا عن الجهاد فى سبيل الله تعالى ما قتلوا فادرءوا عن أنفسكم الموت وادفعوه بعيداً عن ذواتكم . وحينما يعجز المنافقون عن دفع الموت وكشف الضّرّ عن أنفسهم فإنّهم عن دفع القتل وصرف الشّهادة عن الشّهداء السّعداء أعجز . وما زال الموت لاصقاً بالمنافقين اضطراراً وما زالت الشّهادة لاصقةً بالمؤمنين اصطفاء من الله تعالى لهم واختيارا .

وإنّ هذا الرّدّ على المنافقين تتمشّى جزئيّاته مع نفسيّة المنافقين الحريصين على حياة الذّلّ والهوان . وتفسير ذلك أنّ أصل الرّدّ : إن كنتم أيّها المنافقون صادقين فيما زعمتم فادرءوا الموت عن أنفسكم . وإنّه بالمقارنة بين أصل الرّدّ وبين الرّدّ فى الآية الكريمة يتبيّن ما قلنا من تمشّى الرّدّ مع نفسيّة المنافقين . فبما أنّ نفس المنافق أهمّ شىءٍ عنده لذا تقدّمت الإشارة إلى هذه النّفس أوّلاً وذلك فى القول : «فادرأوا عن أنفسكم» وبما أنّ الذّى يريد المنافقون دفعه عن هذه النّفس هو الموت ، وهو من جنس القتل على نحو ما تبيّن من قبل ، فإنّ السّياق يأتى بذكر الموت تالياً للأنفس الّتى تريد الفرار منه . ويأتى أخيراً القول : «إن كنتم صادقين» وإنّ المنافقين فى تدبّرهم لألفاظ هذا الرّدّ واحدةً واحدة يفهمون أنّهم لا يستطيعون أنّ يدفعوا الموت عن أنفسهم إنّما الّذى يستطيع أن يدفعه أو يجلبه هو الله تعالى . وبما أنّهم عاجزون عن دفع الضّرّ عن أنفسهم فإنّهم أشدّ عجزاً عن دفع الضّرّ عن الآخرين ، وبما أنّهم غير صادقين وغير قادرين على دفع الموت عن أنفسهم فكيف يصحّ عقلاً أن يستطيعوا دفع القتل وهو أكبر من الموت عن الآخرين وهم عاجزون عن دفع الموت عن أنفسهم . إنّهم غير صادقين مع أنفسهم فكيف يكونون صادقين مع غيرهم. إنّ المنافقين يهرفون بما لا يعرفون وإنّ الآيات الكريمات التّاليات تبيّن حقيقة الشهّداء السّعداء والشّهادة فإلى

الآيـــة رقـــم (١٦٩)

قال تعالى : ﴿ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون﴾ .

حينما استعظم المؤمنون أن يصيبهم فى أحد ما أصابهم أمر ربّ العزّة المصطفى ﷺ أن يبيّـن لهم الجواب : «قل هو من عند أنفسكم» وحينما قعد المنافقون عن الجهاد وقالوا لإخوانهم : «لو أطاعونا ما قتلوا» أمر ربّ العزّة المصطفى ﷺ أن يبيّن لهم وجه الصّواب : «قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنت صادقين» ولمّا كان أولئك المنافقون لا يكادون يفقهون حديثاً وكان المؤمنون وهم ثمرة منهج التّربية القرآنية بحاجةٍ إلى أن تبيّن لهم بعض الأبعاد وتكشف لهم بعض الأستار تمّ التّحوّل إليهم بقيادة المصطفى ﷺ فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . إنّ الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ وكلّ مؤمنٍ وراء ذلك دليلاً على الاهتمام له وفرط العناية به قائلة : لا تحسبنّ أيّها الرّسول الكريم ولا تظنّنّ أيها النّبىّ العظيم الّذين قتلوا فى سبيل الله تعالى واستشهدوا فى سبيل دين الله تعالى فى أحد وفى غير أحد ، لا تحسبنّهم أمواتاً كما يبدو لك وأنت تنظر إليهم وكما يبدو لكلّ مؤمن فضلاً عن غير المؤمن . وحينما لا يكون هؤلاء الشّهداء السّعداء أمواتاً فهل معنى هذا أنّهم أحياء باعتبار أنّ من ليس ميّتاً حىّ يرزق . والجواب نعم إنّهم أحياء : «بل أحياء» والمعروف أنّ بل حرف عطف للإضراب عن المذكور قبله وجعله فى حكم المسكوت عنه . ولكنّ المصطفى ﷺ والمؤمنين وغير المؤمنين يرون أولئك الشّهداء السّعداء أمواتاً فلا عين تطرف ولا قلب ينبض ولا جسد يتحرّك فكيف يكون هؤلاء الأموات ظاهراً لكلّ عين أحياء باطناً ؟ إنّ الرّدّ على هذا التّساؤل يتمّ فى القول : «عند ربّهم» وانظر إلى ظرف المكان عند الّذى يشير إلى منزلة هؤلاء الشّهداء السّعداء عند بارئهم جلّ وعلا الّذى اصطفاهم

واتّخذهم شهداء . وانظر إلى لفظ الرّب المتّصل به الضّمير العائد إلى أولئك الشهداء . إنّ الله سبحانه وتعالى هو ربّ الشّهداء السّعداء الّذى ربّاهم بنعمه وآلائه ومن هذه النّعم والآلاء الاصطفاء بالشّهادة ، كما أنّه جلّ وعلاّ ربّ كلّ شىءٍ ومليكه . وينبغى أن يكون للقول «عند ربّهم» لطيف الوقع وجميل الأثر لدى كلّ مؤمنٍ يقف على الثّواب العظيم الّذى أعدّه الله تعالى للشّهداء السّعداء كى تتوق نفسه للشّهادة ويعمل من أجلها . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص ، وفى مواقف البهجة والسرور، الفرح والحبور ، وحينما يراد لفت الانتباه إلى نعم الله تعالى ووجوب القيام بالشّكر لله تعالى عليها ، ومن هذه النّعم على الشّهداء الاصطفاء بالشّهادة والإثابة عليها برفيع المقام وجزيل الثّواب .

إنّ هذا القول : «عند ربّهم» بيّن المراد بحياة الشّهداء ونفي الموت عنهم . إنّهم إن كانوا فى أعيننا أموات الأجساد فإنّهم عند بارئهم جلّ وعلا أحياء الأرواح . ولمّا كان من متعلّقات الحياة الرّزق كى تستمرّ الحياة ولا تنقطع ، جاء فى الآية الكريمة فى هيئة الفاصلة القول : «يرزقون» إنّ هؤلاء الشهداء السّعداء أحياء عند ربّهم جلّ وعلا ويرزقون عند ربّهم جلّ وعلا فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وحينما تكون الحياة الأولى مقترنةً بالرّزق كى تستقيم وتصلح ، وكانت حياة الشّهيد السّعيد مقترنةً بالرّزق من الله تعالى وكانت حياة الشّهيد عند الله تعالى وليس فى هذه الحياة الأولى حياة الكدّ والتّعب ، الكدح والنّصب ، وحينما نقارن بين الحياتين نتبيّن البون الشّاسع بين حياة الشّهيد السّعيد الّذى اجتاز بفضل الله تعالى الامتحان بتفوق وبين الحياة فى الأولى الّتى يجهل كلّ إنسانٍ بم يختم الله تعالى له فيها . نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السّيل إنّه سميعٌ مجيب . ويتوّج تفوّق الشّهداء السّعداء فى النّجاح بالفرح والاستبشار فإلى

الآيــة رقــم (١٧٠)

قال تعالى : ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون﴾ .

حينما ننظر إلى استعمال القرآن الكريم لمادّة فرح نتبيّن أنّ صفة الفرح فيما يتّصل بأمور الدّنيا أمرٌ مرغوبٌ عنه، وأمّا فيما يتّصل بأمور الدّين والحياة الآخرة فإنّه أمرٌ مرغوبٌ فيه . ومن الفرح المرغوب عنه ما جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى [١] : **﴿فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحرّ . قل نار جهنّم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون﴾** وقوله تعالى [٢] : **﴿الله يَبْسُطُ الرّزق لمن يشاء ويَقْدِر . وفرحوا بالحياة الدّنيا وما الحياة الدّنيا فى الآخرة إلّا متاع﴾** وقوله تعالى [٣] : **﴿فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** وقوله تعالى [٤] : **﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوّة إذْ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين﴾** وقوله تعالى [٥] : **﴿ذلك بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون﴾** وقوله تعالى [٦] : **﴿إن تصبك حسنةٌ تسؤهم وإن تصبك مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولّوا وهم فرحون﴾** .

---

(١) سورة التّوبة ٨١ .
(٢) سورة الرّعد ٢٦ .
(٣) سورة غافر ٨٣ .
(٤) سورة القصص ٧٦ .
(٥) سورة غافر ٧٥ .
(٦) سورة التّوبة ٥٠ .

ومن الفرح المرغوب فيه ما جاءت الإشارة إليه فى قوله تعالى [(١)] : **﴿الم . غُلِبت الرّوم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سَيَغْلِبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون . بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرّحيم﴾** وقوله تعالى [(٢)] : **﴿قُلْ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون﴾** وقوله تعالى [(٣)] : **﴿والّذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنْزِل إليك . ومن الأحزاب من يُنْكِر بعضه . قل إنّما أُمِرْتُ أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب﴾** . وقوله تعالى : **﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾** .

وكى نتبيّن الحكمة من كون الفرح فيما يتّصل بالحياة الدّنيا والمتع العاجلة مرغوباً عنه وكونه فيما يتّصل بالحياة الآخرة وبشئون الدّين مرغوباً فيه نودّ أن نبيّن موجز معنى الآية الكريمة التى نحن بصددها من سورة آل عمران والفرق بين القول : «فرحين» والقول : «يستبشرون» إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الشّهداء السّعداء الأحياء عند ربّهم يرزقون فرحون بما آتاهم الله تعالى من فضله مبتهجون بما أعطاهم الله تعالى منّاً منه وفضلا ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ويسرّون بلحاق إخوانهم الشّهداء السّعداء بهم وبأنّهم هم الّذين يسيرون وراءهم فى درب الجهاد والشّهادة لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون بعد هذه الحياة الدّنيا ولا هم يحزنون على ما تركوا فى هذه الحياة الأولى من مالٍ وأهلٍ وولد لأنّ الآخرة خيرٌ من الأولى .

أمّا الفرق بين الفرح والاستبشار فى الآية الكريمة : **﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوفٌ عليهم**

---

(١) سورة الرّوم ١ ـ ٥

(٢) سورة يونس ٥٨ .

(٣) سورة الرّعد ٣٦ .

ولا هم يحزنون﴾ فإنّا نستطيع أن نفهم أنّ الفرح ابتهاجٌ داخليٌ ومن الأعماق ومن متعلّقاته المرح بمعنى الخفّة والإحساس القويّ باستعداد الجسد للضّرب فى الأرض حتّى ليكاد يخرقها ، وبالامتداد فخرًا واختيالاً حتّى ليكاد يبلغ الجبال طولا ، والشّعور العميق باستعداد النّفس كى تتيه من العجب وتحلّق من الطّرب . فهل تستحقّ الحياة الدّنيا الّتى يعيش فيها الإنسان بين أمسٍ لا يدرى ما الله تعالى قاضٍ فيه وغدٍ لا يدرى ما الله تعالى مقدّرٌ فيه ، شيئاً من الفرح الّذى يقترن به الشّعور الأكيد بالأمن والأمان ؟ قطعاً هى لا تستحقّ ، واليقظة والحذر مطلوبان أشدّ الطّلب فى هذه الحياة الدّنيا . وإنّما يصحّ الفرح والبهجة من الأعماق حينما يشعر المرء بتوفيق الله تعالى له فى مجال الّدين والعمل الصّالح فى الطّريق إلى الآخرة . إنّ الشّعور الصّحيح بالفرح إنّما يكون فى حالة الوثوق من النّجاح . وإنّما يكون ذلك فى الآخرة على غرار فرح الشّهداء السّعداء عند ربّهم وعلى غرار فرح من أوتي كتابه يوم القيامة بيمينه فتمتلىء نفسه بين جنبيه فرحاً وسروراً ، بهجةً وحبوراً ، فيقدّم كتاب حسناته لكلّ من يصادف فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود كى يطّلع معه على حسناته وكى يشاطره الفرحة ويشاركه البهجة ، وإلى ذلك أشار مثل قوله تعالى (١) : **﴿فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . إنّى ظننت أنّى ملاقٍ حسابيه . فهو فى عيشةٍ راضية . فى جنّةٍ عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية﴾** . وإنّ الشّعور الصحيح بالفرح إنما يكون كذلك وليد الشعور بالسّير الصّحيح فى الطّريق إلى الآخرة ، ومن هنا كان حديث القرآن الكريم عن الفرح فى مجال الاستحسان . أمّا الفرح فيما يتّصل بالأمور الدّنيويّة ، وبالقشور العرضيّة ، وبالنّعيم الزّائل فإنّ القرآن الكريم لا يستحسنه ، بل يسفّه صاحبه ويجهّله .

---

(١) سورة الحاقة ١٩ ـ ٢٤ .

وهكذا يتبيّن أنّ الفرح بهجةٌ أصيلةٌ فى الأعماق ينبغى أن تقتصر على ما يستحقّها من نجاحٍ سرمديّ فى الآخرة وعملٍ صالحٍ دينىّ يفضى إلى الحياة الطّيّبة فى الآخرة ، ومن هنا جاء فى حقّ الشّهداء السّعداء القول : «فرحين بما آتاهم الله من فضله» وحينما يكون ثمّة فرح وبهجةٌ من الأعماق ينبغى أن يكون للفرح والبهجة انعكاساتٌ على الملامح .ففى الأعماق فرحٌ وبهجة ، وفى الظّاهر بشرٌ وسرور .

أما وقد عرفنا معنى القول : «فرحين» فما معنى القول : «ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم» وما الفرق بين الاستبشار والفرح ؟ إنّ الاستبشار والبُشْرَى والبشارة مشتقّات من الأصل اللّغوىّ «بشر» ومنه كذلك البشرة من الإنسان والبشر الّذى يعبَّر به عن الإنسان اعتباراً بظهور جلده من الشّعر بخلاف الحيوانات الّتى عليها الصّوف أو الشّعر أو الوبر . واستوى فى لفظ البشر الواحد والجمع [١] ويقال : أَبْشَرْتُ الرّجل وبَشَرْته وبشّرته أخبرته بسارٍّ بَسَطَ بشرة وجهه ، وذلك أنّ النّفس إذا سُرَّتْ انتشر الدّم فيها انتشار الماء فى الشّجر . وبين هذه الألفاظ فروق فإنّ بَشَـرته عامّ . وأبشرته نحو أحمدته . وبشَّرته على التكثير [٢] . وهكذا يتبيّن أنّ الاستبشار والبُشْرى والبشارة ذوات علاقةٍ ببشرة الوجه بخاصّة الّتى ينعكس عليها سرور النّفس فيميل لونها إلى الحمرة بسبب تدفّق الدّم فى الجسم ونيل الوجه حظّه الموفور منه ، ويشرق المحيا دليل السّرور الّذى ابتهجت له النّفس والحبور الّذى انشرح له الصدر . وبهذا يتبيّن أنّ معنى القول : «ويستبشرون» ويطفح البشر على وجوه الشّهداء السّعداء بسبب مانما إليهم من أنباء السّائرين على دربهم جهاداً فى سبيل الله تعالى ، الّذين سوف يلحقون بهم من خلفهم بنيل الشّهادة والفوز بمرتبة

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «بشر» ٤٧ .

(٢) مفردات الرّاغب الاصفهانى «بشر» ٤٨ .

الشّهيد كى ينال أولئك الّذين سينالون الشّهادة ما نال الشّهداء السّعداء فى أحد وفى غير أحد من نعيمٍ مقيم فى جنّات النّعيم .

وهكذا يتبيّن أنّ القول «فرحين» الّذى جاء حالاً من الضّمير فى يرزقون فى الآية الكريمة السّابقة يشير إلى صفة الفرح الكامنة فى الأعماق ، لأنّ تلك صفة الفرح ، والرّاسخة فى الأعماق كذلك، لأنّ هذا هو الّذى يفهم من الحال : «فرحين» ويقوّى من الكمون والرّسوخ جملة آتى الّتى تستعمل فى القرآن الكريم فيما يتّصل بإيتاء الذّات العليّة دليلاً على كون الإعطاء محض فضلٍ منه جلّ وعلا . والأمثلة فى القرآن الكريم على هذا المعنى أكثر من أن يأتى عليها الحصر . وممّا يقوّى من هذا الفضل العظيم والخير العميم لفظ الجلالة «الله» الّذى يستعمل فى مناسبات العموم والّذى يدلّ هنا على شمول الفضل من الله تعالى . وإذا كانت القرائن السّابقة توحى بالفضل العظيم من الله تعالى فإنّ هذه القرائن تتوّج بالتّصريح بذلك الفضل من الله تعالى : ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ .

وما دام الفرح نابعاً من الأعماق بسبب الفضل من الله تعالى الّذى وصل مباشرةً إلى تلك النّفس المؤمنة المطمئنّة وما دام الاستبشار ظاهراً على البشرة ووليد السّرور الّذى أحسّت به النّفس فى أعماقها لفضلٍ من الله تعالى سيناله الشّهداء السّعداء الّذين يسيرون فى الدّرب والّذين سوف يلحقون بهم إلى يوم الدّين فذلك معناه أنّ الفرح أقوى من الاستبشار ولهذا كان أمراً مرغوباً عنه فى شئون هذه الحياة الدّنيا الفانية ومرغوباً فيه فى شئون الآخرة. أمّا الاستبشار فلكونه يمثل الاعتدال والتّوازن بين سرور الباطن وبهجة الظّاهر فقد كان فى القرآن الكريم من نصيب الحياتين الأولى والآخرة . وما أكثر الأمثلة على ذلك فى القرآن الكريم . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من الأمثلة على استعمال البشارة فى حقّ الحياة الآخرة . إنّ الشّهداء السّعداء يفرحون عند

ربهم بما خصّهم به جلّ وعلا من نعيمٍ مقيمٍ فى جنّات النّعيم ، بينما يستبشرون لما سوف يناله الشّهداء السّعداء الّذين يسيرون على دربهم يقتفون أثرهم .

وانظر إلى القول : «لم يلحقوا بهم» والّذى يوحى بأنّ المتأخّر يجتهد فى جهاده فى سبيل الله تعالى باذلاً منتهى طاقته فى سبيل اللّحاق بالمتقدّم وكأنّ ثمّة حلقة سباق فاز فيها الشّهداء السّعداء بمركز الفرس المجلّى فلا يفت المتأخّر من المجاهدين فى سبيل الله تعالى مرتبة الفرس المصلّى الّذى سمّى بهذا الاسم من الصَّلا بمعنى وسط الظّهر لأنّ العادة قد جرت بأن يكون فرسا الرّهان غير بعيدين من بعضهما وبأن يكون الفائز الثّانى وهو الفرس المصلّى عند صلا الفرس المجلّى بمعنى ظهره . وانظر إلى القول : «من خلفهم» إنّ هؤلاء الشّهداء السّعداء الذين نالوا الشهادة بعد الشهداء السعداء السابقين فى بدر واحد وما إليهما هم فى الحقيقة خلف أولئك المتقدمين من الشهداء السعداء . إنّ المتأخرّين وإن نالوا منزلة المتقدّمين فإنّهم خلف المتقدّمين فى الزّمن على أقلّ تقدير . ونتذكّر فى هذه المناسبة قوله عزّ من قائل فى سورة الواقعة [1] : ﴿والسّابقون السّابقون . أولئك المقرَّبون . فى جنّات النّعيم . ثلّةٌ من الأوّلين . وقليلٌ من الآخرِين﴾ .

ومع أنّ القول : ﴿ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ ومعناه أنّه لا خوف على الشّهداء السّعداء فيما يستقبلون بعد الموت ولا هم يحزنون على الحياة الأولى الفانية ، مع أنّ القول يشمل الفرحين من الشّهداء السّعداء السّابقين كما يشمل اللّاحقين فإنّ الفرح الّذى هو من نصيب السّابقين يشتمل على عدم الخوف وعلى عدم الحزن ، ولهذا يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ القول : «ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» أشدُّ ارتباطاً بالمنتظرى الشّهادة من

---

(١) الآيات ١٠ ـ ١٤ .

المجاهدين فى سبيل الله تعالى والّذين لمّا يلحقوا بالشّهداء السّعداء السّابقين .

وتواصل الآية الكريمة التّالية الحديث عن استبشار الشّهداء السّعداء فإلى

الآيـــة رقـــم (١٧١)

قال تعالى : ﴿يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ .

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى فرح الشّهداء المستقرّ فى الأعماق المتمكّن فى الجوانح وإلى البشْر الطّافح على القسمات البارز فى الملامح . ولّما كان البشر الّذى يتهلّل له الوجه وتشرق له القسمات صورةً لما يتسلّل إلى النّفس من بهجة ويستقرّ فى الصّدر من انشراح كان فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها عودة إلى الاستبشار بسبب النّعمة من الله تعالى وبسبب الفضل منه جلّ وعلا وبسبب أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين . وإنّ النّعمة الّتى من أجلها استبشر الشّهداء السّعداء تذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل فى سورة النساء [(١)] **﴿ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين . وحسن أولئك رفيقاً﴾** . أمّا الشّهداء السّعداء فقد تجاوزوا بفضل الله تعالى مرتبة الصّلاح إلى الشّهادة ، وأمّا الّذين ينتظرون دورهم فى الشّهادة فهم فى جهادهم بالنّفس والنّفيس قد قطعوا خطواتٍ واسعةً فى طريق الصّلاح إلى الشّهادة بإذن الله تعالى . ولا يتقدّم منزلة الشّهيد سوى منزلة الصّدّيق لأنّ مرحلتى النّبوّة والرّسالة محض فضلٍ من الله تعالى ولا دخل لاجتهاد أىّ عبدٍ صالح فى الوصول إلى أىّ منهما والحصول عليهما .

---

(١) الآية ٦٩ .

وإنّ الفضل من الله تعالى الّذى من أجله استبشر الشّهداء السّعداء كذلك نستطيع أن نتبيّن أبعاده فى الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى سوف نقتبسها بإذن الله تعالى لاحقاً،وفى مثل قوله عزّ من قائل[1] : **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة فى جنّات عدن . ورضوانٌ من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم﴾** إنّ رضوان الله تعالى على الشّهداء السّعداء الّذى لا سخط بعده أكبر مظاهر الفضل من الله تعالى على أولئك المؤمنين المجاهدين الشّهداء السّعداء .

ويتوّج استبشار الشّهداء السّعداء بعلمهم الأكيد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين بحذف حسنة أو إضافة سيّئة فلا ظلم اليوم بل هنالك العفو والغفران والرّحمة والرّضوان من الرّحيم الرّحمن . وفى النّصّ على صفة الإيمان تنبيهٌ إلى الأساس الّذى ينبغى أن يكون سليماً والقاعدة الّتى ينبغى أن تكون صحيحة . إنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى وهو الطّريق المؤدّى بإذن الله تعالى إلى الشّهادة ينبغى أن يكون ثمرة الإيمان الصّحيح والعقيدة السّليمة ، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الصّالحة إلاّ ما أريد به وجهه جلّ وعلا . وإنّما تكون الأعمال صالحة إذا كانت موافقةً لما جاء به الشّرع الحنيف . وهكذا يتبيّن أنّ صفة الإيمان هى العمود الفقرىّ لكلّ الأعمال الصّالحة الّتى تُفْضِى بإذن الله تعالى إلى الشّهادة .

أحاديث شريفة فى فضل الجهاد وثواب المجاهد والشّهيد .

روى مسلمٌ فى صحيحه أنّ عبدالله بن مسعود وقد سئل عن هذه الآية الكريمة : ولا تحسبّن الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون . فقال : أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أرواحهم

---

(١) سورة التّوبة ٧٢ .

فى جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديل معلّقة بالعرش تسرح من الجنّة حيث شاءت ثمّ تأوى إلى تلك القناديل فأطْلع [1] عليهم ربّهم إطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أىّ شىءٍ نشتهى ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات فلّما رأوا أنّهم لن يُتْركوا من أن يَسْألوا قالوا : يا رب نريد أن تردّ أرواحنا فى أجسادنا حتّى نقتل فى سبيلك مرّة أخرى . فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا [2] وروى الإمام أحمد عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرّها أن ترجع إلى الدّنيا إلاّ الشّهيد فإنّه يسرّه أن يرجع إلى الدّنيا فيقتل مرّةً أخرى ممّا يرى من فضل الشّهادة . ورواه مسلم [3] وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله قال قال لى رسول الله ﷺ : أعلمت أنّ الله أحيى أباك فقال له : تمنّ فقال له : أردّ إلى الدّنيا فأقتل فيك مرّة أخرى قال : إنّى قضيت أنّهم إليها لا يرجعون [4] . وقد ثبت فى الصّحيحين وغيرهما أنّ أبا جابر وهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى رضى الله عنه قتل يوم أحد شهيداً [5] وروى البخارىّ ومسلم والنّسائىّ عن جابر بن عبدالله قال : لمّا قُتِلَ أبى جعلت أبكى وأكشف الثّوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوننى والنّبى ﷺ لم ينه فقال النّبىّ ﷺ : لا تبكه ، أو ما تبكيه ، ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتّى رفع [6] وقال رسول الله ﷺ : الشّهداء على بارق ، نهر بباب الجنّة ، فى قبّة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنّة بكرةً وعشيّا [7] وروى أحمد وأبوداود والحاكم فى مستدركه عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله ﷺ : لمّا أصيب

---

(١) يقال فى اللّغة : أَطْلَع راسه على الشّىء : اشرف عليه ليراه .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١ والسّيرة النّبويّة لابن هشام (حلبى) ١٢٧/٣ وتفسير الطّبرىّ ١١٤/٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١ والسّيرة النّبويّة ١٢٧/٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١ والسّيرة النّبويّة ١٢٧/٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤٢٦/١ .
(٧) السّيرة النّبويّة ١٢٦/٣ وتفسير ابن كثير ٤٢٧/١ .

إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيرٍ ترد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظلّ العرش . فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلاّ يزهدوا فى الجهاد ولا ينكُلوا عن الحرب ، فقال الله عزّ وجلّ : أنا أبلّغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات . ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون . وما بعدها [١] ويقول ابن كثير [٢] رحمه الله تعالى رحمةً واسعة : «وكأنّ الشّهداء أقسام ، منهم من تسرح أرواحهم فى الجنّة ، ومنهم من يكون على هذا النّهر بباب الجنّة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النّهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح والله أعلم . وقد روينا فى مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكلّ مؤمنٍ بأنّ روحه تكون فى الجنّة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النّضرة والسّرور ، وتشاهد ما أعدّ الله لها من الكرامة . وهو بإسناد صحيحٍ عزيزٍ عظيم اجتمع فيه ثلاثةٌ من الأئمّة الأربعة أصحاب المذاهب المتّبعة ، فإنّ الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمّد بن إدريس الشّافعىّ رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحى رحمه الله عن الزّهرىّ عن عبدالرّحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : نسمة المؤمن طائرٌ يعلق فى شجر الجنّة حتّى يرجعه الله إلى جسده ويوم يبعثه . قوله يعلق ، أى يأكل . وفى هذا الحديث : إنّ روح المؤمن تكون على شكل طائرٍ فى الجنّة . وأمّا أرواح الشّهداء فكما تقدّم فى حواصل طيرٍ خضر ، فهى كالكواكب بالنّسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنّها تطير بأنفسها . فنسأل الله الكريم المنّان أن يميتنا على الإيمان» .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٧/١ والسّيرة النّبويّة لابن هشام «حلبى» ١٢٦/٣ وتفسير الطّبرىّ ١١٤/٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٧/١ .

وإذا كانت الآية الكريمة قد قرّرت أنّ الشّهداء عند ربّهم يستبشرون ويسرّون بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين بعامّة ، فإنّ الآية الكريمة التّالية تخصّ بالذّكر فريقاً خاصّاً من المؤمنين فإلى

الآيــة رقــم (١٧٢)

قال تعالى : ﴿الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح ، للّذين أحسنوا منهم واتّقوا أجرٌ عظيم﴾ .

إذا كنّا نظرنا إلى المؤمنين فى الآية الكريمة السّابقة من زاوية خصوص السّبب فإنّا نستطيع أن نذهب إلى أنّ اسم الموصول : «الّذين» نعت للمؤمنين . والمعنى أنّ الشّهداء السّعداء يستبشرون بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين المجاهدين فى أحد الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح . قال محمّد بن إسحاق : كان يوم أحد يوم السّبت النّصف من شوّال فلمّا كان لغد من يوم الأحد لستّ عشرة ليلةً مضت من شوّال أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ فى النّاس بطلب العدوّ ، وأذّن مؤذّنه ألاّ يخرجنّ معنا أحد إلاّ من حضر يومنا بالأمس . فكلّمه جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسـول الله إنّ أبـى كـان خـلّفنى عـلى أخـواتٍ لى سبع

وقـال : يا بنىّ إنّـه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هـؤلاء النّسوة لا رجـل فيهنّ ، ولست بالّذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى فتخلف على أخواتك فتخلّفت عليهن ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه . وإنّما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدوّ وليبلغهم أنّه خرج فى طلبهم ليظنّوا به قوّةً وأنّ الّذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم . قال محمّد بن إسحاق : فحدّثنى عبدالله بن خارجة بن زيد بن ثابت بن أبى السّائب مولى عائشة بنت عثمان أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبدالأشهل كان قد شهد أحداً قال :

شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخى فرجعنا جريحين ، فلمّا أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدوّ قلت لأخى ، أو قال لى : أتفوتنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابّة نركبها وما مِنّا إلاّ جريحٌ ثقيل فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جراحاً منه ، فكان إذا غُلب حملته عُقْبة [1] حتّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون [2] وقال البخارىّ : حدّثنا محمّد بن سلاّم حدّثنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها : الّذين استجابوا لله والرّسول ، الآية . قالت لعروة : يا ابن أختى كان أبوك منهم الزّبير وأبوبكر رضى الله عنهما لمّا أصاب نبىّ الله ﷺ ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال : من يرجع فى أثرهم ؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبوبكر والزّبير [3] عن ابن جريج قال : أخبرت أنّ أبا سفيان بن حربٍ لمّا راح هو وأصحابه يوم أحد قال المسلمون للنّبىّ ﷺ إنّهم عامدون إلى المدينة فقال : إن ركبوا الخيل وتركوا الأثقال [4] فإنّهم عامدون إلى المدينة وإن جلسوا على الأثقال وتركوا الخيل فقد أرعبهم الله وليسوا بعامديها فركبوا الأثقال فرعبهم الله ثمّ ندب ناساً يتبعونهم ليروا أنّ بهم قوّةً فأتبعوهم ليلتين أو ثلاثاً فنزلت : الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح [5] . عن عكرمة قال : لمّا رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمّداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ، ارجعوا . فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتّى بلغوا حمراء الأسد [6] قال ابن إسحاق : فخرج رسول الله ﷺ حتّى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من

---

(١) عُقبة : نوْبة ، من الاعتقاب فى الرّكوب .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٨/١ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠٦/٣ وتفسير الطّبرىّ ١١٧/٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٩/١ وتفسير الطّبرىّ ١١٨/٤ .
(٤) الأثقال : الإبل باعتبار ما تحمل الإبل .
(٥) تفسير الطّبرىّ ١١٨/٤ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤٢٨/١ .

المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم ، فيما قال ابن هشام .

قال ابن إسحاق : فأقام بها الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ثمّ رجع إلى المدينة [1] .

استجابوا : أجابوا [2] القرح : الجراح والكلوم [3] .

إنّ الآية الكريمة تثنى على المؤمنين الّذين استجابوا لله تعالى الّذى أمرهم فى نهاية هذه السّورة الكريمة بالصّبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله تعالى ، والّذين استجابوا للرّسول ﷺ بطل الأبطال وسيّد الرّجال الّذى أمرهم بايحاءٍ من الله تعالى أن يتتبّعوا العدوّ ويلحقوا به ويطاردوه كى يعلم أنّ القرح الّذى أصابهم بالأمس فى أُحُد لم يضعفهم والجراح الّتى ألمّت بهم لم تثن من عزائمهم والقتل الّذى ناله شهداؤهم لم يفلّ من حدّهم ولم يوهن من قوّتهم . ولا تقف الآية الكريمة عند حدّ الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ إنّما تحثّ أولئك المؤمنين المجاهدين المستجيبين على الارتقاء إلى أسمى الدّرجات وأعلى الغايات الإحسان والتّقوى . ونستطيع أن نفهم أنّ الإحسان والتّقوى وجهان لمرتبة واحدة ، أمّا الإحسان فكما بيّنه الحديث النّبوىّ الشّريف أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك [4] وأمّا التّقوى فإنّها ثمرة الإسلام بأركانه الخمسة المعروفة والإيمان بأركانه السّتّة المعروفة وترجمة تلك التّعاليم إلى عمل اتقاء النّار وابتغاء مرضاة الله تعالى والجنّة . ولا نكاد نجد فرقاً بين الإحسان والتّقوى وكأنّ الإحسان ينطلق من نقطة الإحسان فى كلّ شىء وكأنّ التّقوى تنطلق من نقطة اتّقاء النّار وابتغاء الجنّة .

---

(١) السّيرة النّبوية لابن هشام ١٠٨/٣ وانظر الكامل لابن الاثير ١٦٤/٢ .
(٢) صحيح البخارىّ ٤٨/٦ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ١١٦/٤ .
(٤) صحيح البخارىّ ٢٠/١ .

وإنّما يكون ذلك باتّباع الرّسول الكريم المطلق وفعل ما أمر عليه الصّلاة والسّلام به واجتناب ما نهى عنه عليه الصّلاة والسّلام وزجر .

إنّ المؤمنين المجاهدين المستجيبين المحسنين المتّقين لهم أجرٌ عظيم فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وإنّ حديث الآية الكريمة التّالية عن هؤلاء المستجيبين موصـول فإلى

الآيــة رقــم (١٧٣)

قال تعالى : ﴿**الّذين قال لهم النّاس إن النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ .

يصحّ أن نفهم السّياق على هذا النّحو : ويستبشرون أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المؤمنين الّذين استجابوا لله والرّسول من بعد ما أصابهم القرح والّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم .

فما المراد بالنّاس فى المرّة الأولى وفى المرّة الثّانية ؟ المراد بالنّاس فى المرّة الأولى ركب عبدالقيس والمراد بالنّاس فى المرّة الثّانية أبوسفيان وقومه .

عرفنا أنّ المصطفى ﷺ خرج يوم الأَحَد اليوم التّالى لغزوة أُحُد خلف المشركين ومعه المجاهدون الّذين أصابهم القرح بالأمس حتّى بلغ حمراء الأسد وهى على ثمانية أميالٍ من المدينة . وفى أثناء خروج المصطفى ﷺ خلف القوم فكّر أبوسفيان فى العودة إلى المدينة واستئصال الإسلام والمسلمين فثبّطه عن عزمه بإرادة الله تعالى معبد بن أبى معبد الخزاعى . وكى يأمن أبوسفيان على نفسه وقد قذف الله تعالى الرّعب فى قلبه وذلك بمنع النّبىّ ﷺ عن مطاردته أوهم أنّه يريد أن يكرّ على المدينة فعلاً ودسّ هذه النّيّة إلى ركب عبدالقيس الّذى صادفه فى الطّريق والّذى كان يريد المدينة المنوّرة فطلب أبوسفيان من ذلك الرّكب أن يخبر المصطفى ﷺ والمؤمنين بنيّة أبى

سفيان والمشركين مقابل مكافأة وعدهم بها مستقبلا ففعل الرّكب ذلك وجرى على لسان المصطفى ﷺ ما نصّت عليه الآية الكريمة. ومكث المصطفى ﷺ فى حمراء الأسد بعد يوم الخروج أيّام الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ثمّ رجع إلى المدينة ، وفى هذه الأثناء كان أبوسفيان قد قطع زهاء ثلث الطّريق إلى مكّة الّذى اعتادت القوافل أن تقطعه آنذاك فى اثنتى عشرة ليلة . «قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم فأقام بها الاثنين والثّلاثاء والأربعاء ثمّ رجع إلى المدينة . وقد مرّ به ، كما حدّثنى عبدالله بن أبى بكر ، معبد بن أبى معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصحٍ لرسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذٍ كان مشركاً فقال : يا محمّد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أنّ الله عافاك فيهم . ثمّ خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتّى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرّوحاء وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا محمّداً وأصحابه وقادتهم واشرافهم ثمّ نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرّنّ على بقيّتهم ثمّ لنفرغنّ منهم . فلمّا رأى أبوسفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمّد وأصحابه يطلبكم فى جمعٍ لم أر مثله يتحرّقون عليكم تحرّقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا فهم على الحنق عليكم بشيءٍ لم أر مثله قطّ . قال : ويلك ما تقوله ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتّى ترى نواصي الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل بقيّتهم . قال : فإنّى أنهاك عن ذلك[1] «قال فثنى ذلك أباسفيان ومن معه . ومرّ به ركبٌ من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ؟ قال : فهل أنتم مبلغون عنّى محمّداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا نعم . قال : فإذا وافيتموه

(١) تفسير ابن كثير ٤٢٩/١ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ١٠٨/٣ .

فأخبروه أنّه قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيّتهم . فمرّ الرّكب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالّذى قال أبوسفيان وأصحابه فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» [1] .

إنّ النّاس ، وهم ركب عبدالقيس ، قالوا للمصطفى ﷺ والمؤمنين وهم بحمراء الأسد ، إنّ النّاس ، وهم أبوسفيان والمشركون ، قد جمعوا لكم الجموع وحشدوا لكم الجيوش ليستأصلوا شأفتكم ويقطعوا دابركم فاخشوهم وخافوهم خوفاً مشوباً بالإعظام والإكبار ، التقدير والإجلال [2] بسبب كثرة عَدَدهم وعُدَدهم ، وبسبب جراءتهم عليكم وقد فعلوا بكم بالأمس ما فعلوا ، وبسبب شدّة عداوتهم وبغضهم لكم .

فهل هذا التّخويف والتّهويل فتّ فى عضد المسلمين وقلّل من عزمهم وأضعف من قوّتهم وحملهم على النّكوص والخضوع والاستكانة ؟ لا . إنّ شيئاً من ذلك لم يحدث بل الّذى حدث عكس ذلك تماماً . إنّهم هم المؤمنون بنصّ القرآن الكريم وإنّ هذا الإنذار الّذى يحمله الرّكب والتّخويف الّذى بعث به أبوسفيان زاد المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم وحملهم على أن يفرّوا إلى أرحم الرّاحمين وأحكم الحاكمين الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء وها هم أولاء يجيء على لسانهم القول : «حسبنا الله ونعم الوكيل» والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى هو كافينا كلّ شرّ والصّارف عنّا كلّ بلاء والدّافع عنّا كل أذى وهو جلّ وعلا نعم الوكيل لنا والمتولّى شئوننا والرّاعى مصالحنا والكفيل بنصرنا . جاء فى صحيح البخارى [3] «عن ابن عبّاس : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم عليه السّلام حين إلقي فى النّار ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٣٠ والسّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/١٠٩ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «خشي» ١٤٩ .

(٣) ٦/٤٨ .

وقالها محمّد ﷺ حين قالوا إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن ثواب المجاهدين المتوكّلين على الله تعالى فإلى

الآيــة رقــم (١٧٤)

قال تعالى : **﴿فانقبلوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتّبعوا رضوان الله. والله ذو فضلٍ عظيم﴾** .

إنّ انقلاب المحسنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى المتوكّلين عليه جلّ وعلا بنعمةٍ من الله تعالى وفضل يذكّرنا بالانقلاب غير المحمود الّذى أشارت إليه الآية الكريمة الرّابعة والأربعون بعد المائة . قال تعالى : **﴿وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل . أفإن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشّاكرين﴾** . وإنّ النّعمة والفضل اللّذين انقلب بهما المتوكّلون على الله تعالى يذكراننا بالنّعمة والفضل فى الآية الكريمة الحادية والسّبعين بعد المائة فى قوله تعالى : **﴿يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾** وإنّ القول :**﴿واتّبعوا رضوان الله﴾**يذكّرنا بالآية الكريمة الثّانية والسّتّين بعد المائة فى قوله تعالى : **﴿أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾** .

ولمّا كانت النّعمة بمعنى الحالة الحسنة (١) وكان الفضل بمعنى الزّيادة والتّفضّل ، وكان فى الآية الكريمة نفىٌ لمسّ أدنى سوءٍ أولئك المجاهدين المتوكّلين على الله تعالى ، وليس وراء لطف المسّ فى مجال الاحتكاك

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «نعم» ٤٩٩ .

وراء ، وكنّا بصدد أربعة أنواعٍ من المعانى ، النّعمة من الله تعالى والكرامة ، والفضل من الله تعالى وزيادة الفضل والكرامة والإنعام ، وهذان أمران معنويان ، ونفى مساس أى سوءٍ لأولئك المجاهدين المتوكلين على الله تعالى ، فلا قتل ولاقرح ، بل ليس ثمّة قتالٌ أصلاً ، وهذا أمرٌ حسىّ ، واتّباع رضوان الله ، وهذا المستوى الرّفيع ثمرة طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ اللّتين تؤدّيان إلى مرضاة الله تعالى ، لمّا كنّا بصدد أربعةٍ من المعانى فإنّا نستطيع أن نربط بين هذه المعانى وبين المعانى الّتى تقابلها فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿**الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشَوْهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ إنّا بشأن هذه الآية الكريمة نستطيع أن نذهب إلى أنّ المعنى الأوّل طلب الخشية فى القول : «فاخشوهم» وإلى أنّ المعنى الثّانى زيادة إيمان المؤمنين فى القول : «فزادهم إيماناً» وإلى أنّ المعنى الثّالث لجوء المؤمنين إلى الله تعالى فى قولهم : «حسبنا الله» وإلى أنّ المعنى الرّابع قول المؤمنين : «ونعم الوكيل» .

وإنّا بناء على ما سبق يصحّ أن نذهب إلى أنّ انقلاب المؤمنين بنعمة من الله تعالى يقابل طلب النّاس من المؤمنين أن يخشوا الكافرين ، وأن نذهب إلى أنّ انقلاب المؤمنين بفضلٍ من الله تعالى والفضل هنا بمعنى زيادة النّعمة يقابل زيادة الإيمان وثمرته . ومن البيّن اشتراك الموضعين فى صفة الزّيادة من الخير ، وأن نذهب إلى أنّ عدم مسّ أدنى السّوء للمؤمنين يقابل قولهم : «حسبنا الله» بمعنى يكفينا الله تعالى شرور المشركين الّذين جمعوا لنا الجموع وحشدوا السّلاح ، ومن البيّن الترابط المعنوىّ بين الموضعين ، وأن نذهب إلى أنّ اتّباع الرّضوان من الله تعالى يقابل قولهم : «ونعم الوكيل» ومن البيّن أنّ كلًّا من الصّفتين تبيّن الغاية فى بابها والنّهاية فى ميدانها . . إنّ التّوكّل على الله تعالى يكون من المؤمنين فيما يصادفون آنذاك من صعاب وفيما يستقبلون فى حياتهم حتّى تنتهى آجالهم ، وإنّ اتّباع رضوان الله تعالى

يكون من المؤمنين فيا يقومون فيه طوال حياتهم من اتّباع لله تعالى ولرسوله ﷺ حتّى ينالوا مرضاة الله تعالى الّذى توكّلوا عليه فى القول : «ونعم الوكيل» والّذى استعانوا به من قبل وذلك فى القول : «حسبنا الله» .

وعلى عادة القرآن الكريم فى إضافة الجديد من المعانى دائماً وأبداً ، فإنّ هذه الآية الكريمة الّتى تبينّا ارتباط معانيها بمعانى الآية الكريمة السّابقة تضيف الجديد فى التّذييل : «والله ذو فضلٍ عظيم» ومن البيّن أنّ هذا التّذييل بمثابة الثّمرة النّاضجة اليانعة للمعانى السّابقة فى الآية الكريمة ، أو بمثابة الضّوء الّذى يسلّط على العناصر الّتى يوحى بها التّذييل ، والفضل من الله تعالى الّذى يوصف فى التّذييل بأنّه «عظيم» إنّ الفضل العظيم يتجاوز مستوى الفضل مجرّداً بل يصحّ أن يتجاوز مستوى الفضل الكبير ، لأنّ الكبير بالقياس إلى غيره يصحّ ألّا يكون عظيماً ، ولأنّ الفضل العظيم ينبغى أن يكون كبيرا . وهكذا يتبيّن التّرابط بين التّذييل وصدر الآية الكريمة وإضافة التّذييل الجديد من المعانى المبنىّ على معنى الصّدر ومرماه . ومن مظاهر فضل الله تعالى على الرّسول الكريم والمؤمنين الدّروس القرآنية فى الآيات الكريمات التاليات فإلى أوّل هذه الدّروس .

الآيــة رقــم (١٧٥)

قال تعالى : **﴿إنّما ذلكم الشّيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** .

عرفنا أنّ أبا سفيان قائد المشركين فى أحد قد كلّف ركب عبدالقيس الّذين كانوا يريدون المدينة المنوّرة بأنّ يخبروا المصطفى ﷺ بأنّ أبا سفيان والمشركين قد أجمعوا المسير إلى المدينة المنوّرة والعودة إليها من أجل استئصال البقيّة الباقية من المسلمين وكان جواب المصطفى ﷺ والمؤمنين كما جاء فى آية كريمة : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

إنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر أنّ أبا سفيان والمشركين عموماً هم أولياء الشّيطان الرّجيم الّذى يتولّى أمورهم ويرعى شئونهم ويزيّن لهم الباطل ويحبّب إليهم الكفر والفسوق والعصيان . ومعنى الكلام : إنّما ذلكم الشّيطان يخوّفكم أولياءه . فالمفعول الأوّل محذوف لدلالة المذكور عليه . والخطاب هنا للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . ومع أنّ ثمّة مناسبةً خاصّةً نزلت فيها الآية الكريمة فالعبرة كما هو معروف بعموم الّلفظ لا بخصوص السّبب . ومن هنا كان الحديث فى الآية الكريمة متّجهاً إلى المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . إنّ الآية الكريمة تقول للمؤمنين : إنّما ذلكم الشّيطان الرّجيم عدوّكم وعدوّ أولياء الله تعالى . يخوّفكم أيّها المؤمنون المتّقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى أولياءه وحزبه . فلا تخافوا أيّها المؤمنون أولياء الشّيطان الرّجيم ولا تخافوا الشّيطان الرّجيم وقد قال تعالى [١] : **﴿ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ وقال تعالى** [٢] : **﴿إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفا﴾** .

وفى مقابل نهى الآية الكريمة المؤمنين عن الخوف من الشّيطان الرّجيم وأوليائه هى تأمرهم بأن يخافوا الله تعالى وحده لا شريك له إن كانوا مؤمنين بالله تعالى حقّاً وبمحمّد ﷺ وبالقرآن الكريم صدقا .

وبهذا يتبيّن أنّ الخوف من الله تعالى ومقدار هذا الخوف هو المقياس الدّقيق للإيمان الّذى نستطيع أن نتّخذ من الآية الكريمة دليلاً من الأدلّة القرآنيّة الكثيرة على أنّ الإيمان يزيد وينقص ، كما يتبيّن أنّنا بصدد دليل آخر على عميق إيمان المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ الّذين أمرهم النّاس بأن يخشوا أبا سفيان والمشركين فزادهم ذلك الأمر إيماناً إلى إيمانهم .

---

(١) سورة المجادلة ١٩ .
(٢) سورة النّساء ٧٦ .

ويلاحظ أن الآية الكريمة تتحدّث عن الخوف وذلك فى القول : **﴿إنّما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه﴾** بينما يأمر النّاس المؤمنين بأن يخشوا المشركين وذلك فى القول : **﴿الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾** والمعروف أنّ الخشية خوفٌ مقرونٌ برهبة . إنّ المشركين يريدون من المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أن يكون شعورهم تجاه المشركين مزيجاً من الخوف والرّهبة ، وفى المقابل تنهى الآية الكريمة المؤمنين عن الخوف مجرّدا . وتأمرهم بأن يخافوا الله تعالى وحده لا شريك له فهو جلّ وعلا النّافع والضّارّ ، المحيى والمميت بيده الخير جلّ وعلا وحده لا شريك له .

وإذا كانت الآية الكريمة نصيحةً عامّة للمؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ بأن يخافوا الله تعالى وحده لا شريك له وكانت ثمّة فئةٌ منافقة قد سارعت فى الكفر كما تبيّنّا وقد أحزن ذلك المصطفى ﷺ فإنّ الآية الكريمة التّالية يتعلّق درسها بهؤلاء فإلى

الآيــة رقــم (١٧٦)

قال تعالى : **﴿ولا يَحْزُنك الّذين يسارعون فى الكفر ، إنّهم لن يضرّوا الله شيئاً ، يريد الله ألّا يجعل لهم حظّاً فى الآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾** .

عرفنا أنّ المنافقين دركات وأنّ من المنافقين من أسرع به نفاقه إلى الكفر . وإذا كان المصطفى ﷺ كاد يقتل نفسه حزناً لعدم دخول الكثير من كفّار مكّة فى الإسلام فمن الطّبيعىّ أن يكون لدى المصطفى ﷺ الحزن ذاته تجاه من ذاق حلاوة الإيمان وقتاً من الأوقات ثمّ ارتدّ إلى الكفر . وإذا كان ربّ العزّة قد نهى المصطفى ﷺ عن أن يقتل نفسه حزناً بسبب إعراض قومه

عن دعوة الحقّ فى مثل قوله تعالى [1] : **﴿فلعلّك باخعٌ نَفْسَكَ على آثارهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾** وفى مثل قوله تعالى [2] : **﴿لعلّك باخعٌ نفسك ألّا يكونوا مؤمنين﴾** فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تنهى النّبىّ ﷺ عن مجرّد الحزن لإسراع فريقٍ من المنافقين فى الكفر . ونستطيع أن نفهم القول : «ولا يحزنك الّذين يسارعون فى الكفر» بأنّه يعنى الّذين يسارعون متّجهين إلى الكفر والّذين يسارعون فى الكفر ذاته وقد تلبّسوا به وخاضوا فى حمأته . فقد عرفنا أنّ المنافقين دركات . وفى كلّ الأحوال يظلّ لحرف الجرّ «فى» قوّة الدّلالة على أنّ من كان من المنافقين قد دخل فى الكفر قد انتهى منه إلى أعمق أعماقه ، وأنّ من كان من المنافقين قد سارع إلى الكفر هو فى حكم من قد سارع فى أعماق ذلك الكفر دليلاً على الإقبال على الكفر والإدبار عن الإسلام والعياذ بالله .

وإنّ من أهمّ ما يلفت الانتباه فى الآية الكريمة جمال الفصل والوصل وجلالهما . إنّ الفصل نتبيّنه فى القول : **﴿ولا يحزنك الّذين يسارعون فى الكفر . إنّهم لن يضرّوا الله شيئا . يريد الله ألّا يجعل لهم حظّاً فى الآخرة﴾** .

إنّ الجزئيّة الكريمة الأولى : «ولا يحزنك الّذين يسارعون فى الكفر» تنهى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عن مجرّد الحزن على هؤلاء الّذين يسارعون فى الكفر . وإنّ الجزئيّة الكريمة التّالية : «إنّهم لن يضرّوا الله شيئا» تبيّن السّبب فى ذلك النّهى وتريد أن تقول إنّ ضرر مسارعة الكافرين فى الكفر عائد إلى الكافرين وحدهم ، فبما أنّ الكافرين أهون شأناً ، وبما أنّ أذى هؤلاء الّذين انضّموا إلى جيش الكفر كبيرٌ فى نظر المسلمين فى حقّ

---

(١) سورة الكهف ٦ .

(٢) سورة الشّعراء ٣ .

الإسلام ، وبما أنّ لله تعالى فى فضح أولئك المنافقين الحكمة البالغة فإنّ الجزئيّة الكريمة تنفى أيّ ضررٍ ينال الذّات العليّة من جرّاء مسارعة المنافقين فى الكفر . وهذا النّفى للضّرر معناه أنّ أىّ ضررٍ منفىٌّ عن الإسلام والمسلمين تبعاً لنفيه عن الذّات العليّة . وحينما يُنْفى أىّ ضرّر وشرّ يكون معنى ذلك حلول النّفع محلّ الضّرر ، والخير محلّ الشّرّ ، وبذلك تأخذ الجزئيّة بسببٍ من مثلِ قوله تعالى [1] : **﴿إنّ الّذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم . لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خيرٌ لكم . لكلّ امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم . والّذى تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾** أمّا الحكمة البالغة من فضح الله تعالى المنافقين فإنّها نتبيّنها فى قوله تعالى [2] : **﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم . والله عليمٌ بالظّالمين﴾** .

ولمّا كانت مسارعة المنافقين فى الكفر قد أحبطت أعمالهم الصّالحة الّتى قاموا بها قبل إسلامهم وبعد إسلامهم لأنّ الله سبحانه وتعالى : **﴿لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** [3] وذلك معناه أنّهم لا ثواب لهم على تلك الأعمال الصّالحة وقد ماتوا على الكفر ، فقد كانت الجزئيّة التّالية مبينةً هذا المعنى مقرّرةً هذه الحقيقة : **﴿يريد الله ألّا يجعل لهم حظّاً فى الآخرة﴾** .

لقد عُبّر عن انحصار الضّرر فى المسارعين فى الكفر بالقول : «إنّهم لن يضرّوا الله شيئاً» وكانت هذه الجزئيّة الكريمة توطئةً للتّعبير عن عمى البصيرة الّذى تورّط فيه المسارعون فى الكفر وزادهم الله تعالى عمىً إلى

(١) سورة النّور ١١ .
(٢) سورة التّوبة ٤٧ .
(٣) سورة النّساء ٤٨ .

عماهم فى الجزئيّة الكريمة التّالية بالقول : **﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً فى الآخرة﴾** .

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى ليس للزّمن علاقةٌ بعلمه جلّ وعلا مطلقاً والّذى لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء قد سبق إلى علمه جلّ وعلا مسارعة أولئك المنافقين فى الكفر وذهاب أعمالهم الصّالحة الّتى ما أرادوا بها وجه الله تعالى هباءً منثوراً . ولمّا كان ربّ العزّة لا يؤاخذ عباده بسابق علمه ولكن بأعمالهم وكان المنافقون قد سارعوا فى الكفر فأحبط الله تعالى أعمالهم وزادهم عمىً إلى عماهم فقد عبّرت الجزئيّة الكريمة عن هذه المعانى العميقة والمرامى البعيدة : «يريد الله ألاّيجعل لهم حظّاً فى الآخرة» والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى لم يرد أن يجعل لأولئك المسارعين فى الكفر نصيباً فى الجنّة يوم القيامة .

ويلاحظ أنّ الجزئيّتين الكريمتين ترفرفان فى عليائهما . فالذّات العليّة هى محورهما ولفظ الجلالة «الله» يجىء فى كلّ من الجزئيّتين الكريمتين أمّا المسارعون فى الكفر فإنّهم أهون شأناً لذا كان من حظّهم أقلّ الإشارات الضّروريّة ، فى الجزئيّة الأولى كلّ حظّهم : «إنّهم» وفى الجزئيّة الأخرى : «لهم» .

وإذا كانت هذه الجزئيّة الكريمة : **﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظّاً فى الآخرة﴾** ينتهى بها الفصل فإنّها يبدأ بها الوصل :﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظّاً فى الآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾ لقد نفت الجزئيّة الكريمة الأولى الثّواب صراحةً عن المسارعين فى الكفر وأثبتت لهم العذاب ضمناً : «يُريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً فى الآخرة» فى المقابل أثبتت الجزئيّة الكريمة الأخيرة العذاب صراحةً ونفت الثّواب ضمناً : «ولهم عذاب عظيم» .

إنّ فى كلٍّ من الجزئيّتين الكريمتين إثباتاً ونفياً وإنّ من تمام الجلال والجمال أن يؤدّى الإثبات والنّفى غرضاً واحداً ، وأن يكون فى الجزئيّة الأولى نفياً ظاهراً وإثباتاً مفهوماً ، وفى الجزئيّة الأخيرة إثباتاً ظاهراً ونفياً مفهوماً ، وأن يكون التّقابل معنويّاً بين الحظّ بمعنى الثّواب والنّصيب وبين العذاب ، لأنّ الثّواب مندرجٌ فى الحظّ الّذى قد يكون كبيراً . وقد يكون قليلاً ، وفى نفى كلّ الحظّ الّذى يفهم من مجىء «حظّاً» نكرة نفىٌ لكلّ ثواب ، ووراء ذلك تظلّ لفظةٍ حظّ مرتبطة بسبب حرف الظّاء بلفظة «عظيم» صفةً للعذاب . إنّ لفظة «حظّاً» تنفى كلّ ثواب وإنّ لفظة «عظيم» تثبت كلّ عذاب . ما أجمل أن يتبع انجذاب اللّفظين إلى بعضهما بسبب حرف الظّاء ابتعادٌ فنفور فتقابلٌ فى الصّفات المعمقة لاختلاف النّفى والإثباب فى الجزئيّتين الكريمتين . والله أعلم .

وإذا كان الدّرس فى الآية الكريمة شاملاً لمن سارع متّجهاً إلى الكفر وسارع فى أعماق الكفر فعلاً فإنّ الدّرس فى الآية الكريمة التّالية متعلّقٌ بمن شرح بالكفر ـ والعياذ بالله ـ صدراً فإلى

الآيــة رقــم (١٧٧)

قال تعالى : **﴿إنّ الّذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذابٌ أليم﴾** .

إنّ الآية الكريمة فى معرض تسلية المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة تقرّر أنّ الذين استبدلوا الكفر بالإيمان فعلاً ودفعوا الإيمان بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً ثمناً للكفر والعياذ بالله لن يضرّوا الله سبحانه وتعالى شيئاً لأنّ الضرّر عائدٌ إليهم وحدهم ولهم عذابٌ أليم .

ومن البيّن النّفى والإثبات فى القول : **﴿لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذابٌ أليم﴾** وذلك على غرار النّفى والإثبات فى الآية الكريمة السّابقة :

﴿يريد الله ألّا يجعل لهم حظّاً فى الآخرة ولهم عذابٌ عظيم﴾ ومن البيّن كذلك أنّ الجزئيّة الأولى هنا : «لن يضرّوا الله شيئاً» هى ذات القول الّذى جاء فى الآية الكريمة السّابقة بين يدى الجزئيّة الأولى جزئيّة الإثبات : «يريد الله ألّا يجعل لهم حظّاً فى الآخرة» وكأنّنا فى هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها بصدد تجاوزٍ لإحدى الجزئيّات فى الآية الكريمة السّابقة اكتفاءً بالجزئيّة الكريمة المتعلّقة بالذّات العليّة بدرجة أكبر : «لن يضرّوا الله شيئاً» ويعتبر هذا التّجاوز تعميقاً لما أومأنا إليه من ذى قبل من كون هؤلاء الّذين اشتروا الكفر بالإيمان أهون شأناً لذا كان الحديث عنهم هيّناً محدوداً منصرفاً عنهم ما أمكن الانصراف والتّحوّل إلى سواهم .

ولم يُفْلت كفّار مكّة من الدّرس البليغ والتّهديد بالعذاب المهين وذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٧٨)

قال تعالى : ﴿ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهين﴾ .

تتحدّث الآية الكريمة عن كفّار مكّة ومن شدّ على أيديهم فى أحد فتقول : لا يحسبنّ الّذين كفروا من أهل مكّة ومن لفّ لفّهم من المشركين الّذين أطال الله تعالى لهم فى العمر ونسأ لهم فى الأجل فهذا هو معنى الإملاء ومنه قيل : عشت طويلاً وتملّيت حيناً [١] ولا يحسبنّ أهل الباطل الّذين كانت لهم الجولة على الحقّ فى غزوة أحدٍ بإذن الله تعالى ولا يَظُنُّنَّ أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما نصرهم على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ فى أحد لأنّهم أهلٌ لأن ينصرهم على المؤمنين ولا يُظُنُّنَّ هذا النّصر خيرًا لهم على المدى

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٢٣ .

البعيد بل القريب ولكنّه استدراجٌ من الله تعالى لهم ومكرٌ بهم وإقامةٌ للحجّة عليهم إن لم يتدبّروا أمرهم ويروا رأيهم ويهجروا الذّنوب الّتى يرتكبون ويتركوا الكفر الّذى يعتنقون ويدخلوا فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبدالله ﷺ ورضيه لهم وأتمّ به النّعمة عليهم .

إنّ إمهال الكافرين إن لم يستفيدوا منه معناه ازديادهم فى ارتكاب الذّنوب وإتيان الفواحش ، هذا إلى ارتكابهم الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى ألا وهو الإشراك مع الله تعالى غيره ، وبناءً على كلّ ذلك هم يستحقّون أعظم العذاب وآلمه وأسوأه وهو ما عَبَّرَتْ عنه الآية الكريمة بأنّه العذاب المهين .

وبقى الدّرس المتعلّق بالمؤمنين الّذين قالوا حينما أصابهم قرح أحد كيف حدث لنا هذا ؟ وهذا الدّرس فى الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٧٩)

قال تعالى : ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيّب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله . وإنّ تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجرٌ عظيم**﴾ .

إنّ لله سبحانه وتعالى سنناً لا تتخلّف . وإنّ لله سبحانه وتعالى الحجّة البالغة والحكمة التّامّة . ومن هذه السّنن والحكم أن يكون الصّراع بين الحقّ والباطل ، الإيمان والكفر قائماً إلى قيام السّاعة ، وقد يكون للباطل والكفر جولةٌ بل جولات فيطفو الباطل على السّطح ويعلو الكفر وقتاً من الأوقات ولكنّ النّصر فى النّهاية للحق والظفر فى الخاتمة للإيمان ولا يكون ذلك إلّا بإذن الله تعالى حينما ينزل رجال الحقّ إلى الميدان وحينما يقارع رجال الإيمان أعداء الله تعالى بالقلم واللّسان وبالسّيف والسّنان . ومن الطّبيعىّ أن يندسّ فى صفوف المؤمنين منافقون هم من جنس المصفّقين لكلّ صارخ

التّابعين لكلّ ناعق . وإنّ هذا الفريق من المنافقين الموجود فى كلّ زمانٍ ومكان كان قادراً على أن يندسّ فى صفوف المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ .

ولمّا كان ربّ العزّة جلّ وعلا لم يشأ أن يفضح هؤلاء المنافقين على رءوس الأشهاد وأمام العباد فى السّنوات المبكّرة من تاريخ الإسلام وبعد الهجرة وحتّى نزول سورة براءة الفاضحة للمنافقين ولم يشأ أن يكشف عورات المنافقين على أمل أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وإلى ذلك أشار مثل قوله عزّ من قائلٍ فى سورة محمّد ﷺ [1] : ﴿**ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم**﴾ ولمّا كان ربّ العزّة سبحانه وتعالى لم يشأ أن يُرِي المصطفى ﷺ المنافقين ومن باب أولى غير المصطفى ﷺ فقد شاء الله تعالى أن يمهل المنافقين وأن ينذرهم المرّة تلو المرّة ، أحيانا بأقوالهم على نحو لحن القول وهو عبارةٌ عن فلتات ألسنتهم وما يقولونه بأفواههم دون وعيٍ منهم أو تعمّد ، وأحياناً بأفعالهم الّتى تكشف عن سوء نيّاتهم تجاه الإسلام ونبىّ الإسلام والمسلمين . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث فى هذا الشّأن .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليذر المؤمنين على ما هم عليه من اندساس المنافقين فى صفوفهم ، وما كان ليترك المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ على ما هم عليه من اعتصام المنافقين الّذين يبطنون الكفر بإظهار الإيمان وإعلان الشّهادتين وأدائهم ظاهراً أركان الإسلام . إنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليترك المؤمنين على ما هم عليه من غشّ المنافقين لهم وتربّص الدّوائر بهم . وانظر إلى أسلوب الالتفات حينما يتحوّل السّياق من الحديث عن المؤمنين إلى مخاطبة المؤمنين فى القول : «على ما أنتم عليه» وليس على ما هم عليه دليلاً على فرط الاهتمام بهؤلاء المؤمنين المتّقين

---

(١) الآية ٣٠ .

المجاهدين فى سبيل الله تعالى . وإذا كان أسلوب الالتفات بليغاً فى ذاته فكيف به إذا كان تحوّلا من ضمير الغائب إلى المخاطب وكأنّ المؤمنين الّذين يتحوّل إليهم الحديث يخاطبون مباشرةً وقد حَضَروا بالقول : «على ما أنتم عليه» .

إنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليذر المؤمنين على ما هم عليه حتّى يميز الخبيث من الطيب ويفصل النّفاق والكفر عن الإيمان والإسلام : **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيّب﴾** .

ولمّا كان ربّ العزّة لم يشأ أن يطلع المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ على الغيب ستراً للمنافقين وأملاً فى ارعوائهم إلى الهدى ، ولمّا كانت الآية الكريمة تتعلّق بالفعل الّذى اقتضته حكمته جلّ وعلا كى يُعْرَف المنافقون أو يشكّ فى أمرهم فيحذرهم المؤمنون أو يستفيد منه المنافقون أنفسهم فيتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فقد نصّت الآية الكريمة على الفعل الّذى تجسّده تجربة أحد المريرة أيّما تجسيد : **﴿ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء﴾** .

إنّ هذه هى حكمة الله تعالى ، أن يجتبى من رسله من يشاء ويصطفى من أنبيائه من يريد ومن هؤلاء خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ وأن يكون الصّراع مريراً بين الحقّ والباطل وقد تكون للباطل جولة أو أكثر من جولة كتجربة أحد المريرة وعلى محكّ هذه التّجربة تبدو عورات المنافقين وتنكشف سوءاتهم ويفتضحون على رءوس الأشهاد . وهذا هو عين ما حصل فى غزوة أحد وهذا هو عين ما يحصل فى كلّ مناسبةٍ مماثلة ، بل إنّ هذا هو ما حصل لكلّ أنبياء الله تعالى ورسله السّابقين على محمّد بن عبدالله ﷺ .

ولمّا كان الابتلاء سنّةً لا تتبدّل والامتحان حكمةً لا تتخلّف وكان حظّ أنبياء الله تعالى ورسله من كل ذلك هو الأكبر لأنّ الحظّ الأكبر من البلاء نصيب الأمثل من عباد الله تعالى فالأمثل ابتداءً بالنّبيّين والمرسلين عليهم

صلوات الله تعالى وسلامه كما جاء فى الحديث النّبوىّ الشّريف [1] فقد كان فى الآية الكريمة أمرٌ بالإيمان بالله تعالى وبرسله لأنّ الإسلام رسالة كلّ المرسلين ولأنّ سنن الله تعالى وحكمه البالغة لا تتغيّر ولا تتبدّل : «فآمنوا بالله ورسله» .

ولمّا كان دين الإسلام يريد من المسلم لله ربّ العالمين أن يرقى إلى أرفع الدّرجات ويصل إلى أعلى الغايات فقد كان فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة حثٌّ على الإيمان والتقوى كى ينال المؤمن المتّقى الأجر العظيم . أمّا الإيمان فلأنّه الأساس الذى بدونه لا يتمّ شىء ولا يُبْنَى شىء . وأمّا التّقوى فلأنّها المرحلة الأخيرة التى يفضى إليها كلٌّ من الإسلام والإيمان ولأنّها تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان كما بيّنه المصطفى ﷺ بأن تعبد الله تعالى كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك [2] : «وإن تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجرٌ عظيم» .

ولمّا كان الجهاد فى سبيل الله تعالى يقوم على دعامتين اثنتين ، الجهاد فى سبيل الله تعالى بالنّفس وكانت الدّروس السّابقة ذوات علاقةٍ بهذه الدّعامة ، والجهاد بالمال والنّفيس فقد كان الدّرس التّالى فى آخر آيات القسم ذا علاقة بهذه الدّعامة فإلى

الآية رقم (١٨٠)

قال تعالى : **﴿ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السّماوات والأرض . والله بما تعملون خبير﴾** .

---

(١) انظر مثلاً هنا طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيّم ٣٤٣ .
(٢) صحيح البخارىّ ١/ ٢٠ .

لا يكاد يوجد موضعٌ فى القرآن الكريم تحدّث عن الجهاد فى سبيل الله تعالى إلّا وتحدّث عن هاتين الدّعامتين ، الجهاد بالنّفس والجهاد بالنّفيس أى بالمال . وبعد حديث الآيات الكريمات عن المنافقين الّذين بخلوا فى معركة أحد بنفوسهم يأتى الحديث عن الّذين بخلوا فى سبيل الله تعالى بأموالهم ، ممّا يصحّ أن يفهم منه أنّ من المؤمنين من بخل بماله فى هذه المعركة .

إن الآية الكريمة تقول : لا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فضله ويمتنعون عن أداء الزّكاة لأصحابها الّذين جعل الله تعالى لهم حقّاً فى أموال الأغنياء الّذين آتاهم الله تعالى تلك الأموال ، ويشحّون عن إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم من المال الّذى جعلهم الله تعالى مستخلفين فيه ، لا يحسبنّ هؤلاء وأولئك ولا يَظُنُّنَّ البخل هو خيراً لهم ونعمة ، بل هو شرٌّ لهم ونقمةٌ عليهم لأنّهم سيطوّقون فى أعناقهم بالمال الّذى بخلوا به يوم القيامة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم . روى البخارىّ فى صحيحه [1] «عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوَّقُه يوم القيامة يأخذ بِلِهْزِمته يعنى بِشِدْقيه يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثمّ تلا هذه الآية : ﴿**ولا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله**﴾ ، إلى آخر الآية . قال تعالى [2] : ﴿**والّذين يكنزون الذّهب والفضّة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم . يوم يُحْمَى عليها فى نار جهنّم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾ وقال تعالى [3] : ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه فالّذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم**

---

(١) صحيح البخارىّ ٦/٤٩ وانظر فتح البارى لابن حجر ٨/٢٣٠ والشّجاع : الحيّة الذّكر . والأقرع الّذى تمرّط جلد رأسه لكثرة سمّه وطول عمره . والزّبيبتان : النكتتان السّوداوان فوق عينيه وهو أوحش ما يكون من الحيّات وأخبثه .

(٢) سورة التّوبة ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) سورة الحديد ٧ .

أجرٌ كبير﴾ وقال تعالى [1] : **﴿والّذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الّذى آتاكم﴾** وقال تعالى [2] : **﴿قل إنّ ربّى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِر له . وما أنفقتم من شىءٍ فهو يُخْلِفُه وهو خير الرّازقين﴾** .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ميراث السّماوات والأرض فكلّ من على الأرض فان ولا يبقى أخيراً مخلوقٌ واحدٌ وارث ، ولا يبقى إلّا وجه الله تعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر والملك . قال تعالى [3] : **﴿كلّ من عليها فان . ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾** وقال تعالى [4] : **﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء . لمن الملك اليوم . لله الواحد القهّار﴾** .

وروي أنّ النّبىّ ﷺ قال للأنصار : من سيّدكم ؟ قالوا الجدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه . فقال ﷺ : وأىّ داءٍ أَدْوَى [5] من البُخْل ؟ [6] .

وخرّج مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النّبىّ ﷺ : لا يتصدّق أحدٌ بتمرةٍ من كسبٍ طيّبٍ إلّا أخذها الله بيمينه فيربّيها كما يربّى أحدكم فِلْوه [7] أو فصيله حتّى تكونَ مثل الجبل أو أعظم . خرّجه الموطّأ أيضاً [8] .

---

(١) سورة النّور ٣٣ .
(٢) سورة سبأ ٣٩ .
(٣) سورة الرّحمن ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) سورة غافر ١٦ .
(٥) اى اىّ عيب اقبح منه .
(٦) تفسير القرطبىّ ١٥٣٤ .
(٧) الفلو : بضّم الفاء وفتحها مع ضمّ الّلام . وبكسرها مع سكون الّلام . المهر الصّغير . وقيل : هو العظيم من أولاد ذات الحافر .
(٨) تفسير القرطبى ١١٢٥ .

وما أكثر الآيات الكريمات والأحاديث النّبويّة الشّريفة فى الحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿والله بما تعملون خبير﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى خبير ، هكذا فى صيغة المبالغة ببواطن الأمور كظواهرها ويعلم ما توسوس به كلّ نفس ولا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وبهذه الآية الكريمة تكون الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن غزوة أحد ستّين آية وفق رأى ابن إسحاق[1] رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

وقد جاء فى تفسير القرطبّى[2] بشأن القول : «سيطوّقون» : «والسّين فى : سيطوَّقون ، سين الوعيد ، أى سوف يطوّقون ، قاله المبّرد» .

* * *

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام (حلبى) ١١٢/٣ .
(٢) ١٥٣٣ .

(١٤)
تعنت أهل الكتاب وخيانتهم للأمانة
الآيات (١٨١ ـ ١٨٩)

۞ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ

وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

***

تحدّثت آخر آيات القسم السّابق عن الدّعامة الأخرى للجهاد فى سبيل الله تعالى وهى المال ونعت على الّذين يبخلون عن إنفاقه فى سبيل الله تعالى ، وقد تحدّثت أولى آيات هذا القسم التّالى عن المال وعن جراءة اليهود عليهم لعائن الله تعالى «الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء» إنّ الآية الكريمة تهدّدهم بأنّ الملائكة الموكلة بالكتابة ستكتب ما قالوا وستكتب قتلهم الأنبياء بغير حقّ كزكريّا ويحيى عليهما السّلام وسيدخلون النّار وستقول لهم ملائكة العذاب ذوقوا عذاب الحريق بسبب ما قدّمت أيديكم وما فعلتم من سوء ولا يظلم الله تعالى أحداً من خلقه . لقد سمع الله تعالى من فوق سبع سماواتٍ قول الّذين قالوا عن الذّات العليّة ما قالوا والذّين قالوا إنّ الله عَهِدَ إلينا ألاّ نؤمن لرسول يبعثه إلينا حتّى يأتينا بقُرْبانٍ من نعَمٍ أو سواها فتأتي نارٌ من السّماء تحرقه وتأكله دليلاً على قبول الله تعالى له وعلى صدق الرّسول . ولمّا كان اليهود المعاصرون للمصطفى ﷺ راضين عن سوء صنيع آبائهم وأجدادهم الّذين طلبوا من رسل الله تعالى إليهم القربان ورغم ذلك كذّبوهم بل قتلـوا بعضهم كزكريّا ويحيى عليهما السّلام فقد خوطب المعاصرون بالقول : «قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فَلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين» .

ويسلّى المصطفى ﷺ ويسرَّى عنه بأنّ ما يصادفه من تكذيب صادفه المرسلون السّابقون فعلى عباد الله تعالى أن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا وأن يعملوا الصّالحات فلعلّ الله تعالى أن يتقبّلها وأن يزحزحوا عن النّار ويدخلوا الجنّة وذلك الفوز العظيم . وامتداداً للتسلية والتّسرية يخاطَبُ المؤمنون بقيادة

المصطفى ﷺ وفى كلّ زمانٍ ومكانٍ بأنّهم سوف يبلون فى أموالهم وأنفسهم وسوف يسمعون من أهل الكتاب ومن الّذين أشركوا أذىً كثيراً فعليهم بالصّبر وبتقوى الله تعالى . إنّ ما يقوله أهل الكتاب امتدادٌ لنبذهم وراء ظهورهم الميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم بأن يبيّنوا للنّاس معنى التّوراة والإنجيل وألّا يكتموا من ذلك شيئاً بما فى ذلك نعت المصطفى ﷺ فى التّوراة والإنجيل . وامتداداً لنبذ أهل الكتاب الميثاق وراء ظهورهم ندمهم ندم أشرٍ وبطر بما أَتَوْا من كذبٍ فى القول ومنكرٍ فى الفعل وحبّهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا من خير . لقد كان الأولى بأهل الكتاب أن يأسوا على أنفسهم بسبب ما قدّمت أيديهم من فعلٍ سيّىء ، وتفوّهت ألسنتهم من قولٍ سيّىء ومن كذب . إنّ لهم عذاباً بسبب الفرح على ما أتوا من سيّىء القول والفعل ، وإنّ لهم عذاباً فوق العذاب بسبب حبّهم أن يُحْمَدُوا على ذلك الّذى أتوه من سوء .

وتختم آيات القسم بالآية الكريمة الأخيرة الّتى تقرّر أنّ لله سبحانه وتعالى ملك السّماوات والأرض ومن ذلك اليهود وما يملكون وأنّ الله على كلّ شىءٍ قديرٌ فلا يعجزه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

***

الآيـــة رقـــم (١٨١)

قال تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء . ستكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ .

سبب النّزول .

قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : لمّا نزل قوله تعالى : من ذا الّذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعِفَه له أضعافاً كثيرة . قالت اليهود : يا محمّد ، افتقر ربّك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء . الآية [1] .

آخر آيات القسم السّابق كانت ذات علاقةٍ بالمال وبخل بعض المسلمين عن إنفاقه فى وجوه البرّ وفى سبيل الله تعالى . وإنّ أولى آيات هذا القسم التّالى تنطلق من المال ذاته وتشير إلى بعض ما جرى على ألسنة اليهود عليهم لعائن الله تعالى من جراءةٍ على الله تعالى بزعمهم أنّ الله تعالى فقير ـ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولوا إلاّ كذبا ـ وتشير إلى شيءٍ من أسوأ أفعالهم عليهم لعائن الله تعالى وذلك بقتلهم أنبياء الله تعالى دون وجه حقّ ، كما تبيّن الآية الكريمة عقابهم الشّديد وعذابهم الأليم .

إنّ الآية الكريمة فى أسلوب التّوكيد تقرّر : **﴿لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء﴾** إنّ ربّ العزّة الّذى لا تختلط عليه الأصوات ولا تصعب الّلغات قد سمع من فوق سبع سماوات قول اليهود إنّ الله سبحانه وتعالى فقيرٌ حينما يسأل عباده القرض وإنّهم هم الأغنياء . لقد نسى اليهود أنّ كلّ ما لدى عباد الله تعالى من مال إنّما هو من مال الله تعالى الّذى آتاهم الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٣/١ وانظر أسباب النّزول للواحدى ١٦٦ .

تعالى ليبتليهم ويعلم جلّ وعلا علم ظهور أيشكر هؤلاء العباد أم يكفرون ؟ أيصبر هؤلاء العباد أم يجزعون ؟

إنّ هؤلاء اليهود الّذين بلغت بهم الجراءة على الله تعالى بل الوقاحة إلى هذا الدّرك يظّنون أنّ ما تحصّلوا عليه من أموالٍ ويتحصّلون عائدٌ إلى عبقريّاتهم وكفاءاتهم ومهاراتهم فى مجال الاقتصاد ، وكأنّهم نسوا أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلقهم وأنّ ما بهم من فضلٍ فمن الله تعالى .

ومن البيّن أنّ جراءة اليهود على الله تعالى هى فى ميدان المال أو الاقتصاد الّذى هم متفوّقون فيه . لقد كان المنتظر من هؤلاء القوم لو أنّ الله سبحانه وتعالى لم يعم بصائرهم أن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه ومن تلك النّعم والآلاء توفيقه جلّ وعلا لهم فى مجال المال وأن يسخّروا ذلك المال لتنفيذ ما أمرهم الله تعالى به . إنّ عقول القوم الملتوية ونفوسهم المضطربة وفطرهم المعوجّة انحرفت بهم عن سواء السّبيل قولاً حتّى انتهوا إلى درك الجراءة على الله تعالى وعملاً ، حتّى انتهوا إلى قتل النّبيّين .

ولمّا كانت هذه الحياة الأولى داراً للعمل وكانت الآخرة داراً للجزاء ، الثّواب أو العقاب ، وقد استحقّ القوم بسبب قولهم أشدّ العذاب فقد جاء فى الآية الكريمة القول : «سنكتب ما قالوا» ونستطيع أن نوافق المبّرد الّذى ذهب إلى أنّ السّين فى مثل هذا السّياق هى سين الوعيد [1] والمعنى أنّ الملائكة الموكلة بكتابة ما يقوله عباد الله تعالى ويفعلونه ستكتب هذا الكلام الخطير الّذى تفوّه به اليهود عليهم لعائن الله تعالى فى حقّ الذّات العليّة ، لأنّ هذه الحياة الأولى حياة العمل ولا جزاء أمّا الحياة الأخرى فإنّها حياة الجزاء ولا عمل ، وفى تلك الدّار الآخرة سيعاقب أولئك القائلون أشدّ العقاب إن لم يتوبوا إلى الله تعالى ويستغفروه ويعملوا صالحاً .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١٥٣٣ .

وكما تكتب الملائكة أقوال اليهود السّيّئة تكتب أفعالهم السّيّئة . ويلاحظ أنّ اليهود يقفون اضطراراً عند قولهم السّيّء فى حقّ الذّات العليّة ، أمّا فى حقّ أنبياء الله تعالى كزكريّا ويحيى عليهما السّلام فإنّهم يتجاوزون كلّ قولٍ سيّء وفعلٍ سيّء إلى منتهى ما يستطيع أن يأتيه أشدّ الخلق إجراماً ألا وهو قتل هؤلاء النّبيّين . إنّ الملائكة الموكلة بالكتابة كما تكتب أسوأ ما جرى على ألسنة اليهود من قول تكتب أسوأ ما جرى على أيدى اليهود من فعل : «سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ» .

إنّ كلّ نفس تُقْتَل ظلماً إنّما تُقْتَل بغير وجه حقّ فكيف تجرّأ هؤلاء اليهود على قتل أنبياء الله تعالى وهم الّذين لو سئلوا لماذا قتلتم هؤلاء النّبيّين لأجابوا : قتلناهم بغير حقّ ! وليس وراء هذا الطّغيان وراء . إنّ هؤلاء اليهود بسبب أقوالهم السّيّئة وأفعالهم السّيّئة قد ضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة ورجعوا بغضبٍ من الله تعالى وسلّط الله تعالى عليهم ويسلّط إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ويذيقهم شديد العقاب ويوم القيامة يدخلون النّار وبئس القرار ويقال لهم على ألسنة ملائكة العذاب ذوقوا عذاب الحريق وادخلوا النّار الّتى وقودها أنتم وأمثالكم من الظّالمين المشركين مع الله تعالى غيره والحجارة المعبودة من دون الله تعالى .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة أشارت إلى العذاب الّذى ينتظر هؤلاء المعتدين فإنّ الآية الكريمة التّالية تبيّن القول الّذى يقال لهم على ألسنة الملائكة فإلى

الآيــة رقــم (١٨٢)

قال تعالى : ﴿ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلّامٍ للعبيد﴾ .

إنّ ذلك العذاب الشّديد الّذى هو من نصيب المعتدين من بنى إسرائيل على الذّات العليّة قولاً وعلى أنبياء الله تعالى عملاً تقول لهم ملائكة العذاب

وقد زَجّتّ بهم فى قعر الجحيم إنّ ذلك العذاب الشّديد الّذى تذوقون آلامه والعقاب الأليم الّذى تتجرّعون غصصه بسبب ما قدّمت أيديكم من أعمال سيّئة وجوارحكم ، وما حصدت ألسنتكم من أقوال سيّئة جريئة وقحة على الله تعالى وعلى عباد الله تعالى . وقد أسندت الأفعال إلى الأيدى لأنّ أكثر الأعمال تزاول بها .

إنّ العذاب الشّديد والعقاب الأليم الّذى يناله يوم القيامة هؤلاء السّفهاء من بنى إسرائيل هو بسبب ما قدمت أيديهم من سيّىء الفعل وألسنتهم من سيّىء القول ولا يظلم الله سبحانه وتعالى واحداً من العبيد ، من بنى إسرائيل ومن غير بنى إسرائيل ، بحذف حسنة أو إضافة سيّئة ، ولكنّها الموازين القسط والجزاء العادل ثواباً أو عقاباً .

وإذا كان بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى ﷺ قد قالوا على الّذات العليّة ما قالوا ولكنّهم لم يستطيعوا أن يمدّوا أيديهم بسوءٍ إلى المصطفى ﷺ مباشرةً فقد عصمه الله تعالى من النّاس فإنّ رضا المعاصرين من بنى إسرائيل للمصطفى ﷺ عن جرائم آبائهم وأجدادهم القوليّة والفعليّة ومنها قتلهم الأنبياء مسوّغٌ لمخاطبة الملائكة لهم يوم القيامة وهم فى جهنّم يتعذّبون وفيهم قاتلو النّبيّين كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿**ذلك بما قدّمت أيديكم**﴾ ووراء ذلك فإنّ اليهود المعاصرين للمصطفى ﷺ هم «الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء» وهم الّذين قالوا ما نصّت عليه الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٨٣)

قال تعالى : ﴿**الّذين قالوا إنّ الله عَهِدَ إلينا ألاّ نؤمن لرسولٍ حتّى يأتينا بقربانٍ تأكله النّار . قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فَلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين**﴾ .

أشارت الآية الكريمة قبل السّابقة إلى بنى إسرائيل السّيّـئى القول فى حقّ الذّات العليّة باسم الموصول «الّذين» وذلك فى القول : ﴿**لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء**﴾ وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تبدأ باسم الموصول الّذين نعتاً لاسم الموصول السّابق أو بدلاً منه وذلك فى القول : «الّذين قالوا إنّ الله عَهِدَ إلينا . . .» وكأنّ المعنى : لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقيرٌ ونحن أغنياء الّذين قالوا . والمعروف أنّ القولين صادران من بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ إضافةً إلى احتمال صدورهما من السّابقين بسبب التّشابه فى الخصال والضّلال .

إنّ بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ هم الّذين رأوه رأى العين وخاطبوه ودعاهم إلى الدّخول فى دين الإسلام وأصغوا إلى ما يسيل بين شفتى المصطفى ﷺ من قرآنٍ كريم وسنّة مطهّرة والّذين كانوا يملكون ناصية اللّغة العربيّة فلا يخفى عليهم إعجاز القرآن الكريم وجوامع كلم المصطفى ﷺ .

إنّ بنى إسرائيل أولئك هم الّذين قالوا للمصطفى ﷺ ولكلّ من فاتحهم فى شأن دين الإسلام إنّ الله سبحانه وتعالى قد عهد إلينا فى كتبه وأوصانا على ألسن أنبيائه ورسله ألاّ نؤمن لرسولٍ يقول إنّه مرسلٌ من عند الله تعالى وألاّ نصدّق نبيّاً يقول إنّ الله تعالى قد اصطفاه بنعمة النّبوّة مهما يكن لدى هذا الرّسول أو ذاك النّبىّ من آياتٍ بيّناتٍ ومعجزاتٍ باهرات ولو كانت قرآناً يُتْلَى حتّى يأتينا ذلك الرّسول ويكون أمام أعيننا ذلك النّبىّ ويتقرّب إلى الله تعالى بقُربان من النَّعَم أوْ من سواها بنيّة أن يؤيّده الله تعالى ويصدّق ادّعاءه بأنّه مصطفىً من الله تعالى بالنّبوّة ورسول ربّ العالمين . ويكون ذلك التّأييد والتّصديق كالمعتاد مع المرسلين السّابقين أن تنزل من السّماء نارٌ ، وصفها بعضهم بأنّها بيضاء ، تأكل ذلك القربان دليلاً على صدق الرّسول فيما ادّعاه والنّبىّ فيما دعا إليه .

وما معنى أن يطلب بنو إسرائيل من المصطفى ﷺ أن يأتيهم بقربانٍ تنزل من السّماء نارٌ تحرقه ؟ معنى ذلك أنّ هذه المعجزة الحسّيّة المحدودة الزّمان والمكان والنّاس الّذين شاهدوها أكبر من معجزة القرآن الكريم الخالدة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها والّتى تحدّى الله سبحانه وتعالى بها الإنس والجنّ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم أو بمثل عشر سور أو سورةٍ واحدة .

كان المعاصرون للمصطفى ﷺ من بنى إسرائيل شبيهين بآبائهم وأجدادهم فى الخصال والّضلال ، بدليل أنّهم راضون عن كلّ منكرٍ أتوه حريصون على اتّباع خطواتهم فى ضلالهم وتعنّتهم . وكان هؤلاء المعاصرون من بنى إسرائيل ينقصهم العدل والإنصاف وليس وضوحَ المعجزة وقوّة البيّنة ، وكان لآبائهم وأجدادهم الّذين أشبهوهم فى الخصال وحذوا حذوهم فى الفعال الموقف نفسه من أنبياء الله تعالى السّابقين. وحينما تحقّقت المعجزات الحسّيّة الّتى اقترحوا نكصوا على أدبارهم لأنّ طلبهم المعجزة الحسّيّة بباعث العناد والاستكبار ، بل تجاوزوا تكذيب النّبيّين إلى قتلهم ظلماً وعدواناً لأنّهم يقولون : ربّنا الله ويدعونهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.لكلّ ذلك كان فى الآية الكريمة تحوّلٌ إلى الحديث عن تجربة أولئك النّبيّين مع بنى إسرائيل المتعنّتين ، ولكن فى هيئة مخاطبة المعاصرين للمصطفى ﷺ من بنى إسرائيل لتشابه الّلاحقين بالسّابقين فى سوء الخصال والأفعال . قال تعالى : **﴿قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾** .

والمعنى قل يا محمّد لهؤلاء الّذين يطلبون منك أن تأتيهم بقربانٍ تأكله النّار : قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات ، والمراد أنّ المرسلين السّابقين جاءوا بنى إسرائيل السّابقين بالبيّنات كما جاء محمّد بن عبدالله ﷺ الّلاحقين

بالبيّنات . وإنّما خوطب الّلاحقون بما فعل السّابقون لرضاهم عن أفعالهم ولاستعدادهم للقيام بالموقف نفسه الّذى وقفه السّابقون . قل يا محمّد قد جاءكم فعلاً رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالمعجزات الّتى قلتم والآيات الّتى طلبتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين أنّ طلبكم القربان بقصد المزيد من الاطمئنان إلى أنّ تلك الآيات من الرّحمن وأنّ الرّسول مبعوثٌ من ربّ الأنام .

الحقيقة أنّ السّابقين ـ وكذلك الّلاحقون ـ لا ينقصهم حجّةٌ ولا برهان ، وأنّ طلبهم القربان والمعجزات الحسّيّة ضربٌ من التّعنّت والعناد بدليل أنّ المعجزات حينما تحقّقت ازدادوا استكباراً وعتوّاً فقتلوا أنبياء الله تعالى كما فعلوا بزكريّا ويحيى عليهما الصّلاة والسّلام . إنّ الّلاحقين الرّاضين عن سوء أعمال الآباء والأجداد مستعدّون للقيام بالعمل ذاته فى حقّ المصطفى ﷺ فيما لو تحقّق طلبهم من المعجزات . إنّهم سيصرّون على التّكذيب وسيستمرّون فى محاولة النّيل من المصطفى ﷺ ولكنّ الله تعالى قد عصم حبيبه المصطفى ﷺ من النّاس .

وممّا يلفت الانتباه فى الآية الكريمة مجىء جملتى أتى وجاء فى الآية الكريمة ممّا يعتبر دليلاً جديداً على ما تمّ التّوصّل إليه بفضلٍ من الله تعالى ونعمة من كون جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانىّ أو المكانىّ أو المعنوىّ وكوْن جملة جاء لا تستعمل إلا دليلا على القرب الزّمانى أو المكانى أو المعنوى . إنّ بنى إسرائيل يستبعدون تحقّق طلبهم بشأن القربان أو المعجزة لذا جاءت جملة «حتّى تأتينا» وبما أنّ المعجزة الحسّيّة قد تحقّقت بفضل الله تعالى وحدثت بالفعل لذا جاءت جملة جاء فى القول «قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم» .

وممّا يلفت الانتباه كذلك تقديم البيّنات على ما طلب بنو إسرائيل وقالوا وذلك فى القول : «قل قد جاءكم رسلٌ من قبلى بالبيّنات وبالّذى قلتم» إنّ

البيّنات من الله سبحانه وتعالى ، فالله تعالى الّذى يصطفى من عباده رسلاً يختار لهم الآيات البيّنات الّتى يؤمن على مثلها أقوامهم الحريصون على البحث عن الحقيقة واعتناقها ، ومن هؤلاء المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى كانت معجزته آياتٍ بيّنات وآيته بيانيّة لأنّ سكّان الجزيرة العربيّة آنذاك وفيهم بنو إسرائيل في تلك المنطقة أئمّة البيان وفرسان الفصاحة . إنّ تلك الآيات البيِّنات كفيلةٌ بإذن الله تعالى أن يهتدى بها الّذين يريدون الحقّ والحقيقة ، ولهذا تقدّمت فى الذّكر الإشارة إلى تلك الآيات البيّنات . أمّا الّذين يريدون العناد والتّعنّت فإنّهم لا يؤمنون بتلك الآيات ولا يؤمنون بالمعجزة أو المعجزات الحسّيّة الّتى طلبوا ، لأنّ هؤلاء إن لم يؤمنوا بالآيات البيّنات أكبر المعجزات فكيف يؤمنون بما يقلّ عنها ؟ والدّليل على ذلك إصرار المعاندين على عدم الإيمان والتّصديق رغم مجىء الأنبياء بما طلبوا من معجزات . ولمّا كان قد سبق فى علم الله تعالى أنّ القوم لن يؤمنوا لو تحقّق ما طلبوا من معجزات على غرار ما سبق إليه علمه جلّ وعلا فى حقّ كفّار مكّة وكافرى العرب ، ولمّا كانت سنّة الله تعالى قد اقتضت استئصال شأفة الّذين لا يؤمنون بعد مجىء ما طلبوا من معجزات ، ولمّا كان الله تعالى لم يشأ استئصال شأفة القوم لذا كان حظّ القوم الإعراض عن طلبهم لأنّهم أناسٌ متعنّتون عنيدون لاهون عابثون .

وإنّ إصرار القوم على التّكذيب ، رغم تحقّق ما طلبوا من معجزات ، ذلك بالإصرار الّذى يُفْهم من الآية الكريمة قد نطقت وصرّحت به الآية الكريمة التالية فإلى

الآيـــة رقـــم (١٨٤)

قال تعالى : **﴿فإن كذّبوك فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك جاءوا بالبيّنات والزّبر والكتاب المنير﴾** .

الآية الكريمة فى معرض التّسرية عن النّبى صل الله عليه وسلّم والتّسلية . والمعنى فإن كذّبك أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم بنو إسرائيل فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك جاءوا أقوامهم بالبيّنات ، وهى الآيات الواضحات والحجج البيّنات ، كما جاءوا أقْوامهم بالزّبُر ، جمع زبور ، وهو الكتاب الغليظ الكتابة والّذى كُتِب كتابةً عظيمة [1] وكلّ كتاب فهو زبور ، ومنه قول امرىء القيس :

لمن طللٌ أبصـــرته فشـــجانى كخطّ زبــورٍ فى عســيب يمانى [2]

كما جاءوا أقوامهم بالكتاب السّماوىّ الموحى به من ربّ العالمين المنير الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم وينير السَّبيل . والمعروف أن داود عليه السّلام قد آتاه الله تعالى الزّبور جاء فى سورة الإسراء [3] قوله تعالى : **﴿وآتينا داود زبورا﴾** .

والمعروف كذلك أنّ المصطفى ﷺ قد آتاه الله تعالى الآيات البيّنات والمعجزات القاهرات ، وآتاه الكتاب العظيم والنّور المبين ، كما آتاه السّنّة المطّهرة والحكمة البالغة .

وحينما يصرّ بنو إسرائيل وغير بنى إسرائيل على تكذيب المصطفى ﷺ والإعراض عن سواء السّبيل والصّدّ عن سبيل الله تعالى فذلك معناه الاستهانة بالحياة الآخرة وعدم الاستعداد لها والعمل من أجلها ولهذا نتبيّن أنّ الآية الكريمة التّالية تتحوّل إلى تلك الحياة الآخرة كى يجتهد النّاس فى عمل الصّالحات بهذه الحياة الأولى استعداداً ليوم القيامة المجموع له النّاس المشهود فإلى

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «زبر» ٢١١ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١٣٢/٤ .

(٣) الآية ٥٥ وكذلك سورة النساء ١٦٣ .

الآيــة رقــم (١٨٥)

قال تعالى : ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت . وإنّما تُوفَّوْن أجوركم يوم القيامة . فمن زُحْزِح عن النّار وأُدخل الجنّة فقد فاز . وما الحياة الدّنيا إلاّ متاع الغرور﴾ .

تقرّر الآية الكريمة حقيقةً لا يمارى فيها أحد وذلك فى القول : «كلّ نفسٍ ذائقة الموت» وهذه الحقيقة كما ثبتت حتّى يوم النّاس هذا ، هى ثابتةٌ إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وهذا مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال الإنباء بالغيب وبالمستقبل . والمعروف أنّ القرآن الكريم كلّه معجز . وهو معجزٌ بما يُعْطى وبما يمنع ، بما يبقى وبما يمنح . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت ولا تُسْتثنى نفسٌ واحدة من هذه القاعدة ، فعلى الإنسانيّة كلّها أن تعي هذه الحقيقة وأن تتمشّى وفق هذه القاعدة راضية قبل أن تتمشّى وفق هذه القاعدة راغمة .

ولمّا كانت هذه الحياة الأولى حياة العمل ولا جزاء وكانت الحياة الآخرة حياة الجزاء ولا عمل ، وكان فى تلك الحياة الآخرة الحساب ، الثّواب ، وجزاؤه الجنّة ، أو العقاب ، وجزاؤه النّار ، وكان ربّ العزّة قد أرسل رُسله وأوحى إليهم كتبه ، وعلى رأسهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى أوحى الله تعالى إليه بالقرآن الكريم ، كى يرشدوا العباد إلى ربّ العباد وإلى الصّراط المستقيم ، فمن أطاع نجا وفاز ، ومن عصى هلك وخسر ، لكلّ ذلك كان فى الآية الكريمة تقريرٌ لإحصاء الملائكة الموكلين بكتابة الأقوال والأعمال ، الصّالحة والسّيّئة تقرير لإحصاء الملائكة كلّ ذلك كي يقرأ كلّ واحدٍ يوم القيامة كتاب أعماله كاملاً غير منقوص : **﴿وإنّما تُوفَّوْن أجوركم يوم القيامة﴾** .

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع عمل عاملٍ من ذكرٍ أو أنثى ولا يظلم

جلّ وعلا أحداً من خلقه ، ويوم القيامة يوفّى كلّ واحدٍ جزاء أعماله . فإن كانت الأعمال صالحةً كان الجزاء من الله تعالى ثواباً جزيلاً وخيراً عميماً . وإن كانت الأعمال سيّئةً كان الجزاء من الله تعالى عذاباً أليماً وشرّاً مستطيراً . والله سبحانه وتعالى حينما يقبل الحسنات ويثيب عليها ويعفو عن السّيّئات ويبدّلها حسناتٍ لمن شاء من خلقه ممّن تاب وآمن وعمل صالحاً فبفضله جلّ وعلا . وحينما يعاقب جلّ وعلا على السيّئات فَبِعَدْلِه جلّ وعلا . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يشملنا جميعاً بفضله إنّه سميعٌ قريب .

وحينما يتقدّم ذكر النّار ويتأخّر ذكر الجنّة ، وحينما يكون التّزحزح من النّار إلى الجنّة وذلك فى القول : «فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز» فذلك معناه أنّ النّار ـ والعياذ بالله ـ هى الأصل وهى الأساس ، وكما تقرّر الآية الكريمة أنّ من زحزح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز .

وإنّ ممّا يلفت الانتباه فى الآية الكريمة جملة «زحزِح» الّتى يبـــدو التّعاون بين معناها الدّال على الثّقل واللّصوق والرّسوخ والضّخامة وبين مبناها المؤلّف من أربعة أحرف يتكرّر فيها كلّ من حرف الزّاى وحرف الحاء فى نسق . ويبدو ذلك التّعاون العجيب بين المعنى والمبنى حينما ننطق هذه الجملة وكأنّها جملتان اثنتان ، وكأنّ كلاً من الحرفين الأوّل والثانى ، والثالث والرّابع ، أهلٌ لأَنْ ينطقا وحدهما ، وكأنّ طبيعة نطق كلّ حرفين معاً مقوّ لهذه الأهليّة ، فكيف وهذه الحروف الأربعة بحاجةٍ إلى أن تنطق معاً لأنَّ منها تتألّف الجملة الواحدة .

وإنّ ممّا يلفت النّظر كذلك مجىء حرف الجرّ عن وليس مِنْ وذلك فى القول : «فمن زُحْزح عن النّار» إنّ حرف الجرّ مِنْ لو جاء لفهمنا أنّ الحديث متّجه إلى الذين يدخلون النّار فعلاً ثم يزحزحون بإرادة الله تعالى منها . إنّ حرف الجرّ من لا يجىء إنّما الّذى يجىء حرف الجرّ عن : «فمن زحزحَ عن

النّار» وكأنّ المعنى فمن زحزح عن الطّريق المؤدّى إلى النّار فقد فاز بإذن الله تعالى . وبهذا يتحقّق للجزئيّة الكريمة صفة الشّمول لكلّ عباد الله تعالى ، وبعث الأمل والرّجاء فى نفوس عباد الله تعالى وقلوبهم بأن يزحزحوا عن طريق النار،وحثّ عباد الله تعالى على عمل الصالحات كى يدخلوا بفضل الله تعالى جنّات النّعيم بعد أن زُحْزِحوا بفضل الله تعالى عن النّار وعن الطّريق المؤدّى إليها .

ولمّا كانت هذه الحياة الأولى حياة العمل ولا جزاء وكانت الآخرة حياة الجزاء ولا عمل وكان المطلوب من عباد الله تعالى أن يجتهدوا فى عمل الصّالحات وأن يحذروا فتنة هذه الحياة الدّنيا ومتاعها الزّائل لذلك ختمت الآية الكريمة بالقول فى أسلوب القصر : ﴿**وما الحياة الدّنيا إلاّ متاع الغرور**﴾ .

إنّ هذه الحياة الأولى ليست إلاّ متاع الغررو . فهى توصف بأنّها دنيا ، بمعنى أنّها متأخّرةٌ رتبةً منحطّةٌ مقاما . وهى ليست سوى متاع . والمتاع ذو علاقة بقولهم متع النّهار ومتع النّبات إذا ارتفع فى أوّل النّهار وأوّل النّبات [1] وليست هذه الفترة الزّمنيّة بالدّائمة ، بل إنّها ليست بالطّويلة إنّما هى فترةٌ زمنيّة قصيرة سرعان ما تتلاشى وتزول والدّنيا وراء هذا وذاك هى متاع الغرور والغشّ والخداع . فالغرور بضمّ الغين ما يخدع الإنسان على حين غفلةٍ منه ، وليست هذه الحياة الدّنيا سوى متاع الغرور والأوهام والتّفاهات ، فعلى كلّ إنسانٍ أن يهتبل الفرصة مستعيناً بالله تعالى متوكّلاً عليه جلّ وعلا متّخذاً هذه الحياة الأولى مطيّةً حسنةً بإذن الله تعالى للحياة الآخرة . والغَرور بفتح الغين هو الشّيطان الرّجيم [2] وجاء فى سورة فاطر [3] قوله تعالى : ﴿**يا أيّها النّاس إنّ**

---

(١) بتصّرف من مفردات الرّاغب الأصفهانى «متع» ٤٦١ وجاء فى معجم مقاييس اللّغة «متع» ٢٩٤/٥ «والمتاع : الانتفاع بما فيه لذّةٌ عاجلة» .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «غرر» ٣٥٩ وتفسير الطّبرىّ ١٣٣/٤ .

(٣) الآية ٥ ، ٦ .

وعد الله حقٌّ فلا تغرّنكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغَرور . إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوّاً . إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير﴾ .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يزحزحنا جميعاً عن النّار وعن الطّريق المؤدّى إليها وأن يدخلنا الجنّة مع الأبرار إنّه نعم المولى ونعم النّصير .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : موضع سوطٍ فى الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها . اقرءوا إن شئتم : «فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنّة فقد فاز» . هذا حديثٌ ثابتٌ فى الصّحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزّيادة . وقد رواه بهذه الزّيادة أبوحاتم وابن حبّان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه (١) وروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : من أحبّ أن يزحزح عن النّار ويدخل الجنّة فلتدركه منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى النّاس بما يحبّ أن يؤتى إليه (٢) .

ولمّا كان المؤمنون فى أحد قد ابتلوا فى المال وفى النّفوس ، فقد قُتل منهم سبعون وفقدوا الكثير من السّلاح وهو ضربٌ من المال وفقدوا الغنيمة بعد أن وصلت أوّل المعركة إلى أيديهم ، ولمّا كان المؤمنون يسمعون من أهل الكتاب ومن المشركين من الأقوال الّتى تؤذيهم : **﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾** (٣) وقال مشركو العرب : الملائكة بنات الله ، وجرى على لسان أبى سفيان القول بعد انهزام المسلمين فى أحد : اعل هُبَل ، والقول : لنا العُزَّى ولا عزّى لكم (٤) فقد كانت الآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بهذا النّوع من الابتلاء فإلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٥/١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٥/١ .

(٣) سورة التّوبة ٣٠ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٨٩/٤ وتفسير ابن كثير ٤١٥/١ والسّيرة النّبوية لابن هشام ٩٩/٣ .

الآيــة رقــم (١٨٦)

قال تعالى : ﴿لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعنّ من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذىً كثيرا . وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور﴾ .

الآية امتدادٌ لتسلية المصطفى ﷺ والمؤمنين فتبيّن أنّ المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان سيبتليهم الله تعالى ويختبرهم فى أموالهم بالجوائح الّتى تصيبهم وفى أنفسهم بالأمراض الّتى تنال منهم وبالموت الّذى يخترمهم ، كما تبيّن أنّ المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان سوف يسمعون من الّذين أوتوا الكتاب من اليهود والنّصارى ومن الّذين أشركوا أذىً كثيراً وشرّاً مستطيرا . وإنّ الّذى نسمعه نحن المسلمين من أهل الكتاب ومن المشركين حتّى يوم النّاس هذا وإلى ما شاء الله تعالى يعتبر مظهراً من مظاهر إنباء القرآن الكريم بالغيب وامتداداً لما سمعه المصطفى ﷺ والمؤمنون قبل وقعة بدرٍ من أذى من أهل الكتاب والمشركين ، وقد أمروا آنذاك بالصّبر والصّفح والعفو حتّى يقضى الله تعالى أمراً كان مفعولاً [١] وقد روى البخاريّ [٢] فى أثناء تفسير الآية الكريمة حديثاً : «حدّثنا أبواليمان أخبرنا شعيب عن الزّهريّ قال : أخبرنى عروة بن الزّبير أنّ أسامة بن زيد رضى الله عنهما أخبره أنّ رسول الله ﷺ ركب على حمار ، على قطيفة فَدَكيّة ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال حتّى مرّ بمجلس فيه عبدالله بن أبى ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أُبَىّ فإذا فى المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة . فلّما غشيت المجلسَ عَجاجةُ الدّابّة خمّر عبدالله بن أُبَىّ

---

(١) انظر هنا تفسير ابن كثير ١/٤٣٥ .

(٢) صحيح البخارىّ ٦/٤٩ .

أنفه بردائه ثمّ قال : لا تغبّروا علينا . فَسَلّم رسول الله ﷺ عليهم ثمّ وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبدالله بن أبىّ ابن سلول : أيّها المرء إنّه لا أَحْسَن ممّا تقول ، إن كان حقّاً ، فلاتؤذنا به فى مجلسنا . ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبدالله بن رواحة بلى يا رسول الله ، فاغْشَنا به فى مجالسنا ، فإنّا نحبّ ذلك . فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتّى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النّبىّ ﷺ يخفّضهم حتّى سكنوا . ثمّ ركب النّبىّ ﷺ دابّته فسار حتّى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النّبىّ ﷺ : يا سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُباب . يريد عبدالله بن أبىّ . قال كذا وكذا . قال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، اعف عنه ، واصفح عنه ، فوالّذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحقّ الّذى أنزل عليك . لقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة [1] على أن يتوّجوه فيعصّبوه بالعِصابة . فلمّا أبى الله ذلك بالحقّ الّذى أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان النّبىّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ولتسمعنّ من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذىً كثيراً﴾ ، الآية . وقال الله : ﴿ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ ، إلى آخر الآية . وكان النّبىّ ﷺ يتأوّل فى العفو ما أمره الله به ، حتّى أذن الله فيهم» .

وتحثّ الآية الكريمة المؤمنين على الصّبر وعلى تقوى الله تعالى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك وتقرّر أنّ الصّبر والتّقوى ممّا عزم الله عليه وأمركم به [2] .

---

(١) البحيرة تصغير البحرة وهى البلدة المنخفضة والرّوضة العظيمة .

(٢) تفسير الطّبرى ٤/١٤٣ .

ولمّا كان الأذى الّذى يسمعه المؤمنون من جهة اليهود والنّصارى ، كإخفائهم نعت المصطفى ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل ، ممّا يصطدم مع العهد الّذى أخذه الله تعالى عليهم بتبيين العلم وعدم كتمانه فقد كانت الآية الكريمة التّالية ذات علاقةٍ بذلك العهد فإلى

الآيــة رقــم (١٨٧)

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ .

تقول الآية الكريمة : واذكر يا محمّد إذ أخذ الله تعالى ميثاق الّذين أوتوا الكتاب ، والعهد المؤكّد على كلٍّ من اليهود والنّصارى ، لتبيّننّ للنّاس معنى كلٍّ من التّوراة والإنجيل ولا تكتمون من الكتابين السّماويّين شيئاً ، بما فى ذلك نعت المصطفى ﷺ محمّد بن عبدالله ، خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين «الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم»(١) .

وما موقف أهل الكتاب بعامّة ، بنى إسرائيل بخاصّة ، من هذا العهد المؤكّد الّذى أخذه الله تعالى عليهم وعلى لسان النّبيّين الكريمين والرّسولين العظيمين موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام على نحو ما أشار إلى ذلك قوله عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة(٢) : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) الآية ٨١ ، ٨٢ .

وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ .

موقف أهلِ الكتاب بعامّة ، بنى إسرائيل بخاصّة ، أنهم نبذوا العهد وراءهم ظهريّاً ، وابتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق ألّا يكتموه من أمر نبوّتك عوضاً منه خسيساً قليلاً من عرض الدّنيا[1] .

وانظر إلى جملة : «فنبذوه» والنّبذ إلقاء الشّىء وطرحه لقلّة الاعتداد به[2] ولا يقف الأمر عند مجرّد النّبذ وإلقاء الشّىء وطرحه كيفما اتّفق ولكنّ هذا النّبذ «وراء ظهورهم» تخيّل شخصاً يأكل التّمر وينبذ النّوى كيفما اتّفق . إنّ مجرّد النّبذ للنّوى دليلٌ على هوان النّوى فى عين النّابذ فكيف وهو على علمٍ بأنّ النّوى أصل النّخل مصدر التّمر . وكيف بهذا النّابذ إذا تعمّد أن يلقى بالنّوى ويطرحه وينبذه وراء ظهره تباعاً وباستمرار ، وعلى ماذا يدلّ هذا الإصرار على نبذ كلّ النّوى وراء ظهره ؟ ذلك يدلّ على قطع النّابذ كلّ ما بينه وبين النّوى المنبوذ من علاقة فلا رغبة فى الالتفات إليه ولا أمل فى العطف عليه . إنّ هذا النّبذ وراء الظّهور هو عين ما فعل بنو إسرائيل بخاصّة بالعهد الموثّق المؤكّد الّذى أخذه الله تعالى عليهم بأن يبيّنوا معنى الكتاب السّماوىّ الّذى أوحاه الله تعالى إلى موسى عليه السّلام وألّا يكتموا منه شيئاً .

وما هو الثّمن الّذى أخذه بنو إسرائيل مقابل نبذهم الميثاق الّذى أخذه الله تعالى عليهم ؟ إنّ الثّمن الّذى أخذوه يؤكّد عمى البصيرة الّذى اتّسموا به والّذى زاده الله تعالى عمى وطمس بصيرة . إنّه ثمنٌ قليلٌ بخس ، من دراهم معدودة ، أو منصبٍ متحوّل ، أو مجدٍ زائل . إنّ الثّمن مهما كان غالياً فإنّه بخس مقابل عدم الوفاء بعهد الله تعالى ونقض الميثاق . فكيف إذا كان الثّمن بخساً فعلاً . إنّه يستحقّ أن يقال عنه كما جاء فى الآية الكريمة : «فبئس

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٤/١٣٤ .

(٢) مفردات الراغب الأصفهانىّ «نبذ» ٤٨٠ .

ما يشترون» بئس ما أخذ بنو إسرائيل من ثمن مقابل نبذهم عهد الله تعالى وراء ظهورهم وعدم تبيينهم معنى التّوراة وكتمانهم نعت المصطفى محمّد بن عبدالله ﷺ .

وإلى موقف بنى إسرائيل من الرّسول العظيم أشارت الآية الكريمة من سورة البقرة [1] قال تعالى : ﴿**ولمّا جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون**﴾ .

وإلى موقف بنى إسرائيل وتكذيبهم للقرآن الكريم المصدّق لما معهم من التّوراة المصدّق لخاتم النّبيّين الّذى كان ينتظره بنو إسرائيل ظنّاً منهم أنّه سوف يبعث فيهم فلمّا بُعِث فى العرب الأميّين كفروا به وأنكروا معجزته أشارت الآيات الكريمات من سورة البقرة [2] : ﴿**ولمّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلّما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ على غضب ، وللكافرين عذابٌ مهين . وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقاً لما معهم ، قل فَلِم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ .

ورد فى الحديث المروىّ من طرقٍ متعدّدةٍ عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار [3] .

وامتداداً لعدم تبيين بنى إسرائيل معنى التّوراة وكتمانهم العلم فرحهم

---

(١) الآية ١٠١ .

(٢) الآيات ٨٩ ـ ٩١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ .

بما أتوا من منكر ومن أمور شنيعة . ومنها كتمانهم ما سألهم الرّسول ﷺ عن شىء وفرحهم بما أدلوا به من معلوماتٍ غير صحيحة وحبّهم أن يحمدوا على ذلك وإلى هذا أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٨٨)

قال تعالى : ﴿**لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتَوْا ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذابٌ أليم**﴾ .

الآية الكريمة تتحدّث عن اليهود ابتداءً ، المنافقين تبعاً ووراء ذلك العبرة كما هو معروفٌ بعموم الّلفظ لا بخصوص السّبب .

روى الإمام أحمد أنّ مروان بن الحكم وهو أميرٌ على المدينة قال لبوّابه رافع اذهب إلى ابن عبّاس فقل : لئن كان كلّ امرىءٍ منّا فرح بما أتى وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّباً لنعذّبنّ أجمعين . فقال ابن عبّاس : ما لكم وهذه ، إنّما أنزلت هذه فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عبّاس : وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . الآية . وقال ابن عبّاس : سألهم النّبىّ ﷺ عن شىءٍ فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا [١] من كتمانهم ما سألهم عنه . وهكذا رواه البخارىّ فى التّفسير ومسلم ، والتّرمذىّ والنّسائىّ فى تفسيريهما ، وابن أبى حاتم وابن خزيمة ، والحاكم فى مستدركه ، وابن مردويه [٢] وقال البخارىّ [٣] : «حدّثنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا محمّد بن

---

(١) الرّواية الاخرى فى صحيح البخارىّ ٥١/٦ «أتَوْا» .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ و٤٣٧ .
(٣) صحيح البخارىّ ٥٠/٦ .

جعفر قال حدّثني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنّ رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ . فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبّوا أن يُحْمدوا بما لم يفعلوا فنزلت : لا يحسبنّ الّذين يفرحون . الآية . كذا رواه مسلم من حديث ابن أبي مريم بنحوه [1] .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً . كلّ مسلم لله ربّ العالمين تبعاً قائلة : لا تحسبنّ أيّها الرّسول الكريم ولا تظنّنّ أيّها النّبىّ العظيم الّذين يفرحون فرح أشرٍ وبطرٍ بما أتوا من كذب ، وكتموا من صدق ، وأخفوا من علمٍ نافع ، وارتكبوا من فواحش ، والمعروف أنّ جملة أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، وهى هنا تدلّ على بعد مكان ما تناوله اليهود ومن سار على نهجهم وتجشّموا له الصّعاب واكتسبوا من أجله الآثام ، لا تحسبنّ الّذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا من خير ولم يقولوا من صدق ولم يأتوا من معروف ، لا تحسبنّ أيّها الرّسول الكريم القوم بمنجاةٍ من العذاب بسبب فرحهم فرح أشرٍ وبطرٍ ونزغةٍ من الشّيطان الرّجيم . إنّ لهم عذاباً بسبب فرحهم لما ارتكبوا من آثامٍ كان ينبغى عليهم أن يأسوا لأجلها ويحزنوا لا أن يفرحوا ، كما أنّ لهم عذاباً أليماً فوق العذاب الأوّل بسبب حبّهم أن يحمدوا بما لم يفعلوا من خير أوهموا أنّهم فاعلوه بينما هم فاعلو كلّ شرّ ومرتكبو كلّ منكر .

ولمّا كان منطلق الحديث عن اليهود المال ، فقد زعموا عليهم لعائن الله تعالى أنّ الله سبحانه وتعالى فقيرٌ وأنّهم أغنياء ـ كبرت كلمةً تخرج من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٧/١ .

أفواههم إن يقولون إلّا كذبا ـ كان ختام الحديث من جهة ملك الله تعالى كلّ شئٍ ردّاً على اليهود وسواهم فإلى

الآيــة رقــم (١٨٩)

قال تعالى : ﴿ولله ملك السّماوات والأرض والله على كلّ شئٍ قدير﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ لله سبحانه وتعالى ملك السّماوات والأرض ومن فيهنّ ومنهم اليهود الّذين يزعمون أنّ الله فقيرٌ وأنّهم أغنياء ، وما فيهن ومن ذلك المال الّذى فرح به اليهود فرح أشرٍ وبطر حتّى انتهوا إلى الجراءة على الله تعالي . إنّ الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء بيده جلّ وعلا الخير «والله على كلّ شئٍ قدير» هكذا فى صيغة المبالغة ، فالله سبحانه وتعالى قديرٌ على كلّ شئٍ ولا يعجزه جلّ وعلا شئٌ فى الأرض ولا فى السّماء فليتأدّب عباد الله تعالى مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ وليتّقوا الله تعالى وليقولوا قولاً سديداً وإلّا كان العذاب شديداً والأخذ أليماً .

* * *

(١٥)
خواتيم سورة آل عمران
الآيات (١٩٠ ـ ٢٠٠)

﴿ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ
ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا
قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ
وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠

* * *

قررّت آخر آيات القسم السّابق أنّ لله تعالى ملك السّماوات والأرض وأنّ الله على كلّ شيءً قدير . وإنّ أولى آيات هذا القسم التّالى ذات علاقةٍ بالملك والقدرة . إنّ فى خلق السّماوات والأرض وإبداعهما على غير مثالٍ سابق واختلاف اللّيل والنّهار طولاً وقصراً ولوناً وتعاقبهما لآيات لأولى العقول الخالصة والحلوم الرّاجحة . وتتحدّث الآيات عن نعوت أولى الألباب الّذين يجمعون بين القلب السّليم والعقل السّليم . إنّهم يذكرون الله تعالى فى كلّ الأحوال والأوقات دليلاً على امتلاء قلوبهم بخشية الله تعالى ، وهم يتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض الّتى لا يرون فيها من تفاوت ولا اختلال فتنفجر ألسنتهم هاتفةً بالقول : «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار» إنّ أولى الألباب يجمعون بين الخوف والحذر وعدم الغفلة وبين الطمع فى فضل الله تعالى والأمل فى عفوه والرّجاء فى رحمته جلّ وعلا الّتى وسعت كلّ شىء . أمّا جانب الخوف والحذر وعدم الغفلة فيتجلّى فى معرفتهم الأكيدة بأنّ من يُدْخِلُه الله تعالى النّار فقد أخزاه وما للظّالمين من أنصار ، وقد عبّرت عن هذا المعنى آيةٌ كريمة ، كما عبّرت آيةٌ أخرى كريمة على لسان أولى الألباب وقد نادوا ربّهم جلّ وعلا بأنّهم سمعوا المصطفى ﷺ مباشرةً أو عن طريق القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة يدعو إلى الإيمان فآمنوا . وهم يسألون الله تعالى أن يتفضّل بستر ذنوبهم وتغطية سيّئات أعمالهم وأن يتوفّاهم جلّ وعلا مع الأبرار الأتقياء .

وفى آيةٍ كريمة تالية يتجلّى طمعهم فى أن يدخلهم ربّهم الجنّة وألاّ يخزيهم بدخول النّار إنّه جلّ وعلا لا يخلف الميعاد . وهكذا يتبيّن أنّ الطّمع يقترن به الحذر وأنّ الرّجاء يتجاذبه الخوف .

ويستجيب الله تعالى دعاء أولى الألباب ويقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع عمل عاملٍ من ذكر أو أنثى فكما أنّ بعضهم من بعض وهم سواء فى أصل التكليف كذلك هم سواء فى الجزاء . ويخصّ السّياق بالذّكر المهاجرين الّذين أخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيله جلّ وعلا وقاتلوا وقتلوا . إنّ الله سبحانه وتعالى سيكفّر عنهم سيّئاتهم وسيدخلهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله تعالى الّذى عنده دون سواه حسن الثّواب .

وينال كفّار مكّة حظّهم فى آيتين كريمتين فلا ينبغى للمصطفى ﷺ ولا لأىّ فردٍ من أفراد هذه الأمّة أن يغرّه تقلّب الّذين كفروا فى البلاد وضربهم فى الأرض ومدّ الله تعالى لهم فى الأجل والأمل والرّزق . إنّ هذا مكرٌ من الله تعالى بهم وكيدٌ لهم فهو ليس أكثر من متاعٍ قليلٍ ومتعةٍ عابرة ثمّ مأواهم جهنّم وبئس المهاد .

وإذا كان السّياق قد أرشد أولى الألباب من قبل إلى فضل الهجرة والجهاد فى سبيل الله تعالى ونيل الشّهادة فإنّه ما لبث أن عاد إلى أولى الألباب هؤلاء واصفاً إيّاهم بتقوى الله تعالى مقرّراً ثوابهم الّذى سيكون فى هيئة الجنّات الّتى تجرى من تحتها الأنهار والّتى يدخلها أولو الألباب ويخلدون فيها نزلاً من عند الله وكأنّهم ضيوف ربّ العباد ، وإنّ ما عند الله تعالى خيرٌ من ذلك كلّه للأبرار .

وإذا كانت السّورة الكريمة فى أوّلها وفى أثنائها قد تحدّثت عن أهل الكتاب من زاوية الإساءة الكثيرة والإحسان القليل فإنّ السّياق عاد فى الآية الكريمة قبل الأخيرة من السّورة إلى مؤمنى أهل الكتاب الّذين اتّبعوا محمّد بن عبدالله ﷺ النّبىّ الأمىّ «الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم» إنّ هذا الفريق

المؤمن من أهل الكتاب يؤمن بالله وبالقرآن الكريم وبالتّوراة والإنجيل فلهم أجر الإيمان بمحمّد ﷺ وبرسول الله تعالى إليهم وهم يخشعون لله تعالى فى الصّلاة وفى الدّعاء وفى كلّ الأحوال ولا يكتمون العلم ولا يخونون الأمانة ولا يكتمون نعت المصطفى ﷺ ولا يشترون بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً . إنّ لهؤلاء أجرهم عند ربهم أسرع الحاسبين جلّ وعلا .

وتختم الآيات الكريمات بإرشاد أولى الألباب إلى مجموعةٍ من النّعوت هى أن يصبروا ويصابروا الكفّار الأعداء ويرابطوا فى الثّغور والحدود ويتّقوا الله تعالى لعلّهم يفلحون .

وإنّ لخواتيم سورة آل عمران مكانةً خاصّةً ومنزلة فريدة .

«عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشّاعر :

زر غبّـــاً تزدد حبّـــا

فقال ابن عمر : ذرنا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ ، فبكت وقالت : كلّ أمره كان عجبا . أتانى فى ليلةٍ حتّى مسّ جلده جلدى ثمّ قال : ذرينى أتعبّد لربّى عزّ وجلّ . قالت : فقلت والله إنّى لأحبّ قربك وإنّى أحبّ أن تعبد ربّك ، فقام إلى القربة فتوضّأ ولم يُكْثِر صبّ الماء ثمّ قام يصلّى فبكى حتّى بلّ لحيته ثمّ سجد فبكى حتّى بلّ الأرض ثمّ اضطجع على جنبه فبكى حتّى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصّبح قالت : فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال : ويحك يا بلال ، وما يمنعنى أن أبكي وقد أنزل الله علي فى هذه اللّيلة : إنّ فى خلق

السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب . ثمّ قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها» [١] .

وفى رواية : «فقال يا بلال ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وما لى لا أبكى وقد نزل علىّ اللّيلة . . . . » [٢] .

«وقد ثبت أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر [٣] من آخر آل عمران إذا قام من اللّيل لتهجّده فقال البخاريّ رحمه الله [٤] . . . . عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : بتّ عند خالتى ميمونة فتحدّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثمّ رقد ؛ فلمّا كان ثلث اللّيل الآخر قَعَد فنظر إلى السّماء فقال : إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب . . . . الآيات ، ثمّ قام فتوضّأ واستنّ ، ثمّ صلّى إحدى عشرة ركعة ، ثمّ أذّن بلال فصلّى ركعتين ثمّ خرج فصّلى بالنّاس الصّبح . وهكذا رواه مسلم . . . ثمّ رواه البخاريّ . . . . أنّ ابن عبّاس . . . . بات عند ميمونة زوج النّبىّ ﷺ وهى خالته قال : فاضطجعت فى عَرْض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله فى طولها فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ من منامه ، فجعل يمسح النّوم عن وجهه بيده ، ثمّ قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثمّ قام إلى شنّ [٥] معلّقة فتوضّأ منها فأحسن وضوءه ثمّ قام يصلّى . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : فقمت فصنعت مثل ما صنع ثمّ ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى اليمنى ففتلها

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٤١ .

(٣) هنّ إحدى عشرة آية .

(٤) صحيح البخارىّ ٦/ ٥١ ـ ٥٣ .

(٥) الشّنّ : القربة الخَلَق الصّغيرة .

فصلّى ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ ركعتين ثمّ أوتر[1] ثمّ اضطجع حتّى جاءه المؤذّن ، فقام فصلّى ركعتين خفيفتين ، ثمّ خرج فصلّى الصّبح . وهكذا أخرجه بقيّة الجماعة من طرق .... ورواه مسلم أيضاً وأبوداوود . . »[2] .

* * *

(١) المجموع ثلاث عشرة ركعة . وانظر صحيح البخاريّ ٥٢/٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٩/١ .

الآيــة رقــم (١٩٠)

قال تعالى : ﴿إنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف الّليل والنّهار لآياتٍ لأولى الألباب﴾ .

بعد أن قرّرت الآية الكريمة الأخيرة فى القسم السّابق أنّ لله تعالى ملك السماوات والأرض وأنّ الله تعالى على كلّ شىءٍ قدير ، بيّنت آيات هذا القسم بعض مظاهر الخلق فى السّماوات والأرض وبعض مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة . وإنّ الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن خلق السّماوات والأرض واختلاف الّليل والنّهار فتقرّر أنّ فى خلق السّماوات والأرض ، وما فى السّماوات من نجوم وكواكب وشموس ومجرّات،وما إلى ذلك ، وما فى الأرض من ماءٍ ويابس وجبالٍ وأنهارٍ وهضابٍ وأوديةٍ وسهولٍ وصحارى،وما إلى ذلك ، وما فى السّماوات والأرض من مخلوقاتٍ لا يعلمها إلّا الله تعالى ، وتقرّر أنّ فى اختلاف الّليل والنّهار بالمجىء والذّهاب ، الزّيادة والنّقصان ، البياض والسّواد ، الطّول والقصر ، المعاش والسّبات ، الضّجيج والسّكون،وما إلى ذلك ، تقرّر أنّ فى خلق السّماوات والأرض واختلاف الّليل والنّهار لآياتٍ بيّناتٍ ودلائل واضحات على الإلهٰ الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لأولى الألباب الخالصة والعقول النقيّة من كلّ شائبة والحلوم الرّاجحة . والآية الكريمة التّالية تبيّن بعض نعوت أولى الألباب فإلى

الآيــة رقــم (١٩١)

قال تعالى : ﴿الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار﴾ .

الآية الكريمة فى نعتها أولى الألباب تتعامل مع قلوب أولى الألباب وعقولهم ، وبهذا يتجلّى بوضوح التّوازن بين القلب والعقل، العاطفة والتّفكّر ، ذلك التّوازن المطلوب توافره فى كلّ نفس إنسانيّة سويّة . أمّا حظّ القلب والعاطفة أو الوجدان ففى القول : «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» وأمّا حظّ العقل والتّفكّر أو التّدبّر ففى القول : «ويتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذات النّار» بل إنّا لنستطيع أن نذهب إلى أنّ انفجار أولى الألباب بالدّعاء فى الآية الكريمة : ﴿**ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار**﴾ إنّما هو ثمرة التّوازن بين عمل القلب وعمل العقل والانسجام بين هذين العضوين والتّكامل بينهما وسيرهما معاً فى الطّريق القويم والصّراط المستقيم ، حتّى وصلا معاً ، يداً بيد ، إلى شاطىء السّلامة وبرّ الأمان والنّتيجة السّليمة والغاية الحميدة .

إنّ حظّ القلب فى القول : ﴿**الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**﴾ يبدأ باسم الموصول «الّذين» الواقع نعتاً لأولى فى الآية الكريمة السّابقة وذلك فى القول : «لآيات لأولى الألباب» وتبدأ الآية بخطّ القلب لأنّ القلب أسبق عملاً وأسرع استجابة . وتنصّ من بين أعمال القلب على الذّكر الّذى يكون بالقلب وحده ويكون بالقلب واللّسان معاً مع حضور الذّهن وحضور العقل فى الأحوال كلّها ، لسهولة ذكر الله تعالى من بين سائر العبادات ولهذا لم يضع الشّارع الحكيم حدّاً للذّكر ولم يعيّن له نهايةً وآخرا . جاء مثلاً فى سورة الأحزاب[1] قوله تعالى : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبّحوه بكرةً وأصيلا**﴾ وكما يكون الذّكر فى الصّلاة يكون فى غير الصّلاة . جاء فى سورة النّساء[2] قوله تعالى : ﴿**فإذا قضيتم الصّلاة**

---

(١) الآية ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الآية ١٠٣ .

فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ .

وإنّه بتأمّل هيئات الذّاكرين الله تعالى فى القول : **﴿الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾** يتبيّن أنّ هذه هى الهيئات الرئيسيّة الّتى يكون عليها الإنسان فى حال الذّكر وحضور القلب والعقل بحيث إنّ ما يبقى من أحوالٍ وهيئات يدخل فيها كالاستلقاء الّذى يدخل فى الحالة الثّالثة . وحينما يكون ذكر الله تعالى فى الصّلاة نتبيّن أنّ هذه الهيئات الثّلاث تشمل كلّ الهيئات الّتى يكون عليها المصلّى فى حال الصّحّة وفى حال المرض . إنّ ذكر الله تعالى فى الصّلاة بالنّسبة للصّحيح يكون مع هيئتى القيام والقعود وما بينهما من ركوعٍ وسجود . وإنّ ذكر الله تعالى فى الصّلاة بالنسبة للمريض يكون مع هيئة الاضطّجاع على جنب لأن الصلاة لا تسقط عن المكلّف بحالٍ من الأحوال فى حالي الصّحّة والمرض بحيث إنّ المريض يحقّ له أن يتيمّم وأن يؤدّى الصّلاة ولو إيماءً إلى أن يلقى الله تعالى .

وإنّه بتأمل هذه الهيئات الثّلاث القيام والقعود وعلى الجنب يتبيّن كذلك الاتّجاه المطّرد من حال القوّة إلى التّوسّط بين القوّة والضّعف إلى الضّعف ، وينبغى أن يكون لهيئة القعود هنا الّتى تدلّ على الاتّجاه من أعلى إلى أسفل والّتى جاءت هنا بالّذات وليس هيئة الجلوس الّتى تدلّ على الاتّجاه من أسفل إلى أعلى والّتى لم تأت هنا ، ينبغى أن يكون لهيئة القعود هنا دورها فى تقوية اتّجاه الهيئات الثّلاث من أعلى إلى أسفل ، وفى التّنبيه إلى الضّعف الّذى يتمكن بإرادة الله تعالى من الإنسان بعد قوّة وقد قال تعالى [1] : **﴿الله الّذى خلقكم من ضعفٍ ثمّ جعل من بعد ضعفٍ قوّةً ثمّ جعل من بعد قوّةٍ ضعفاً وشيبةً ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾** كما أنّ اتّجاه الهيئات الثّلاث

---

(١) سورة الرّوم ٥٤ .

المطّرد نحو الضّعف يؤيّد سهولة ذكر الله تعالى فى كلّ حال ، فعلى عباد الله تعالى أن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً فى الصّلاة وفى غير الصّلاة .

فإذا تحوّلنا إلى حظّ العقل خالصاً فى القول : **﴿ويتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض﴾** تبيّنّا أنّ الكلام يبدأ على غرار سابقة بجملةٍ فعليّة مضارعة. والمعروف أنّ الفعل المضارع يدلّ على التّجدّد والاستمرار ، فهو بذلك قوّةٌ لدوام الذّكر والتّفكّر . وحينما ينال العقل هذا الحظّ فى الآية الكريمة فلأنّ هذا العقل نعمةٌ من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان ، فبسبب العقل كان مكلّفاً وكان خليقاً بحمل الأمانة ، وهذا الموضـع فى القرآن الكريم الّذى يشار فيه إلى العقل ويشاد فيه بالتّفكّر واحدٌ ممّا يزيد على الأربعين موضعاً كان فيها الثّناء على العقل الّذى أحسن صاحبه استعماله فتفكّر وتدبّر وتأمّل وخاض بالعقل غمار الميادين الّتى يستطيع أن يعمل فيها ، وهى ميادين المحسوسات أو المادّيّات ، ولم يزجّ بالعقل فى الميادين الّتى لا يستطيع أن يعمل فيها ممّا ينبغى أن يفسح المجال فيه للرّوح .

إنّ الآية الكريمة فى حديثها عن العقل خالصاً : **﴿ويتفكّرون فى خلق السّماوات والأرض﴾** تحثّ على التّفكّر فى السّماوات والأرض وفى ملكوت الله تعالى . إنّ الإنسان حينما يتأمّل فى ملكوت الله تعالى ويتفكّر ويتدبّر فى السّماوات الّتى لا يعلم مداها إلّا الله تعالى وفى الأرض الّتى لا نعرف عنها إلّا القليل فكيف بالسّماوات . وما لنا نذهب إلى السّماوات والأرض ونحن لا نعرف من أنفسنا إلّا القليل ، إنّ الإنسان حينما يفعل ذلك يجد عزاءه فى مثل قوله عزّ من قائل [1] : **﴿تبارك الّذى بيده الملك وهو على كلّ شىءٍ قدير . الّذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الّذى خلق سبع سماواتٍ طباقاً ما ترى فى خلق الرّحمٰن من تفاوت**

---

(١) سورة الملك ١ ـ ٥ .

فارجع البصر هل ترى من فطور . ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشّياطين وأعتدنا لهم عذاب السّعير﴾ وفى مثل قوله تعالى [1] : **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ . أوَلم يكف بربّك أنّه على كلّ شىءٍ شهيد . ألا إنّهم فى مِرْيةٍ من لقاء ربّهم . ألا إنّه بكلّ شىءٍ محيط﴾** .

فإذا تحوّلنا إلى ثمرة التّعاون بين القلب السّليم والعقل السّليم وذلك فى القول : **﴿ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار﴾** استطعنا أن نقف عند القول : «ربّنا» والمعنى يا ربّنا . وإنّ لفظ الرّبّ الّذى يجرى على ألسنة أولى الألباب ينبّه إلى عميق شعور الامتنان الّذى يملأ نفوس أولى الألباب لنعم الله تعالى عليهم وآلائه الّتى لا تُحصى والّتى أسبغها جلّ وعلا عليهم وربّاهم بها .

وإنّ أولى الألباب يجرى على لسانهم جملة : «خلقت» الّتى تذكّرنا بعمليّة خلق السّماوات والأرض الّتى أشارت إليها الآية الكريمة الأولى ، ويدخل فى عمليّة الخلق جعل الظّلمات ليلاً والنّور نهاراً . إنّ أولى الألباب ينفجر على لسانهم هذا القول : «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً» ثمرةً يانعةً للتّعاون التّامّ بين القلب السّليم والعقل السّليم ، والمعنى : يا ربّنا ما خلقت هذا الكون الكبير والملكوت العظيم باطلاً وعبثا ، لهواً ولعباً ، ولكن لحكمةٍ جليلةٍ ، وغايةٍ نبيلة ، وقد قلت فى محكم كتابك [2] : **﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرْجَعون . فتعالى الله الملكُ الحقّ لا إله إلاّ هو ربّ العرش الكريم﴾** .

---

(1) سورة فصّلت ٥٣ ، ٥٤ .
(2) سورة المؤمنون ١١٥ ، ١١٦ .

وإنّ لفظة «باطلاً» بالمعنى الّذى تبيّنّا تنبّه إلى المبطلين ذوى الأحاسيس البليدة ، والأكباد الغليظة ، والنّفوس الصّدئة ، والقلوب المريضة ، والعقول السقيمة ، الّذين ما أثّر فى نفوسهم هذا الكون العظيم ، ولا هزّ أوتار قلوبهم ، ولا قدح زناد أفكارهم ، كتاب الله تعالى الكريم ، وسنّة حبيبه المصطفى ﷺ سيّد الأوّلين والآخرين . لقد أشرك المبطلون مع الله تعالى غيره بل ربّما هوى بهم عمى البصيرة إلى درك الوجوديين الّذين يعبَّر عنهم قديماً بالدَّهريّين . وقد أشارت إلى هؤلاء الدَّهريين سورة الجاثية[1] : ﴿وقالوا ما هى إلاّ حياتُنا الدّنيا نموت ونحيا وما يُهْلِكنا إلاّ الدّهرُ وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلاّ يظنّون﴾ .

وطرداً للمبطلين وتفاهاتهم وإثباتاً للذّات العليّة ما يليق بها من تمجيدٍ وتقديس وتنزيه يجىء على الفور القول : «ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك» والمعنى تنزيهاً لك ممّا افتراه المبطلون وادّعاه الكافرون فأنت الله لا إله إلاّ أنت سبحانك تنزهت عن كلّ ما أرجف به المرجفون وافتراه الكافرون تقدّست أسماؤك وتعالى جدّك ولا إله غيرك .

ولمّا كان أولئك المبطلون المفترون على الله تعالى الكذب بادّعاء الصّاحبة والولد والشّريك خليقين بدخول النّار ونيل أشدّ العذاب ، ولمّا كان من سمات أولى الألباب اليقظة والحذر وعدم الغفلة فهم على علمٍ بأنّ دخولهم الجنّة بفضل الله تعالى الّذى إذا شاء قبل تلك الأعمال الصّالحة فى نظر الشّارع الحكيم إذا أريد بها وجه الله تعالى ، لكلّ ذلك كان هذا الدّعاء على ألسنة أولى الألباب : «فقنا عذاب النّار» والمعنى فوفّقنا يا ربّنا لأن نعمل صالحاً ترضاه يكون وقايةً لنا من عذاب النّار الّتى يدخلها المبطلون المفترون على الله تعالى الكذب .

والآية الكريمة التّالية تتحدّث صراحةً عن أصحاب النّار فإلى

(١) الآية ٢٤ .

الآيــة رقــم (١٩٢)

قال تعالى : **﴿ربّنا إنّك من تدخل النّار فقد أخزيته وما للظّالمين من أنصار﴾** .

إنّ المبطلين الّذين أشركوا مع الله تعالى سواه حتّى توفّاهم الله تعالى والظّالمين الّذين صرفوا العبادة إلى غير مستحقّها جلّ وعلا لن يغفر الله تعالى لهم بنصّ القرآن الكريم وذلك معناه أنّهم سيدخلون النّار وبئس القرار . وإنّ أولى الألباب اليقظين الحذرين يدعون ربّهم جلّ وعلا قائلين : «ربّنا» والمعنى يا ربّنا يا من ربّيتنا بنعمك وآلائك إنّك من تدخل النّار من الّذين يستحقّون دخولها بعدلك فقد أخزيته على رءوس العباد وأهنته يوم يقوم الأشهاد.وإنّ القول فى ختام الآية الكريمة : **﴿وما للظّالمين من أنصار﴾** الّذى يذكر فيه الظّالمون بصريح اللّفظ بدلاً من الإضمار يبيّن السّبب فى الخزى الّذى حلّ بالظّالمين وقد قال تعالى [1] : **﴿إنّ الشّرك لظلم عظيم﴾** كما يبيّن عجز كل من المشركين الظالمين والمعبودين من دون الله تعالى الرّاضين عن عبادة متبعويهم لهم . إنّ من باب الأولى والأحرى أن يخذلهم غير الرّاضين عن عبادتهم لهم . ومن البيّن أنّ حديث أولى الألباب هنا امتدادٌ لحديثهم السّابق الدّالّ على عدم غفلتهم بل على حذرهم ويقظتهم .

أما وقد طرد أولو الألباب الشّرك فقد اعتنقوا الإيمان وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــة رقــم (١٩٣)

قال تعالى : **﴿ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا . ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾** .

---

(١) سورة لقمان ١٣ .

للمرّة الثّالثة من خمس مرّات ينادى أولو الألباب ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم إنّما يستعمل فى مواقف الخصوص ، والتّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب الشّكر للمنعم جلّ وعلا ، وفى مواقف التّعبير عن البِشْر والحبور والرّضا والامتنان . إنّ أولى الألباب فى ندائهم ربّهم جلّ وعلا القريب من عباده الّذى يجيب دعوة الدّاعى إذا دعاه جلّ وعلا إنّما يترجمون فى النّداء بهجة نفوسهم وسرور قلوبهم وجَيَشان مشاعرهم وحرارة إيمانهم ورضا أعماقهم وكأنّ بعيد النّداء مقياس ما فى ذواتهم من أبعادٍ وأعماق .

وفى أسلوب التّوكيد يقول أولو الألباب : ﴿**ربّنا إنّنا سمعنا مناديا**﴾ والمراد بالسّماع السّماع الواعى المتدبّر وهو ثمرة السّماع المجرّد وغايته . والمنادى هو الدّاعى ، والمراد به محمّد بن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وسيّد الأوّلين والآخرين . لقد سمع أولو العقول الخالصة الصّافية الرّاجحة : «منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربّكم» وداعياً يدعو للإيمان والدّخول فى دين الإسلام الّذى أكمله الله تعالى ورضيه لعباده وأتّم به النّعمة عليهم «أن آمنوا بربّكم» .

وانظر إلى مرتبة الإيمان الّتى يدعو إليها المصطفى ﷺ ونستطيع أن نفهم دخول مرتبة الإسلام تحتها باعتبار الإسلام بمعنى الاستسلام لله تعالى بالخضوع والإنقياد له جلّ وعلا بالطّاعة والخلوص من الشّرك ، ويتجلّى ذلك ابتداءً فى النّطق بالشّهادتين . أمّا مرتبة الإيمان فإنّها تتجاوز مرتبة النّطق باللّسان إلى ترجمة ما يعتقده الجنان إلى عملٍ تتجلّى فيه أركان الإسلام الخمسة ، وأركان الإيمان السّتّة وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه . وحينما يحقّق المؤمن كلّ ذلك لن يكون بعيداً بإذن الله تعالى من مرتبة الإحسان العليا والأخيرة وهي أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

ونستطيع أن نفهم موقف أولى الألباب من نداء خير خلق الله تعالى كلّهم إلى الإيمان وهو الاستجابة الفوريّة للنّداء : **﴿ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا﴾** .

ولمّا كان الحذر واليقظة وعدم الغفلة من سمات أولى الألباب كما تبين من ذى قبل فإنّا نتبيّن أنّ هذه هى سمات أولى الألباب بعد الإيمان وربّما بعد بلوغ مرتبة الإحسان لعلمهم الأكيد بأنّ دخولهم الجنّة ليس بأعمالهم الصّالحة فقط إنّما بتفضّل الله تعالى بقبول تلك الأعمال الصّالحة شريطة أن تكون خالصةً لوجهه جلّ وعلا الكريم . وإنّ تتمّة الآية الكريمة يتجلّى فيها كلّ هذه النّعوت . قال تعالى : **﴿ربّنا فاغفر لنا ذنوبَنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾** .

إنّنا فى هذه الآية الكريمة للمرّة الثّانية أمام هذا الدّعاء الحبيب لقلوب أولى الألباب : «ربّنا» ومن البيّن أنّ أولى الألباب يتحدّثون عن ذنوبهم الّتى يسألون الله تعالى أن يغفرها ، وعن سيّئاتهم الّتى يسألون الله تعالى أن يكفّرها ، كما يدعون الله تعالى أن يستمرّ غفران الذّنوب وتكفير السّيّئات حتّى يلقوا الله عزّ وجلّ الّذى يسألونه أن يتوفّاهم مع الأبرار ، «وتوفّنا مع الأبرار ، يعنى بذلك واقبضنا إليك إذا قبضتنا إليك فى عداد الأبرار واحشرنا محشرهم ومعهم . والأبرار جمع برّ وهم الّذين برّوا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إيّاه وخدمتهم له حتّى أرضوه فرضي عنهم»[(1)] .

وبشأن القول على لسان أولى الألباب : «ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار» نلاحظ أنّ أولى الألباب إنّما ترتاح نفوسهم وتسعد بتكرار القول : «ربّنا» رغم استقامة الآية الكريمة بدونه فى هذه المرّة الثّانية

---

(١) تفسير الطّبرى ٤/١٤٢ .

بالذّات . ولكنّ أولى الألباب هم الّذين يستشعرون فى أعماقهم دائماً فضل الله تعالى عليهم لذا فإنّ لفظ الرّبّ الحبيب إلى قلوبهم قريب من ألسنتهم . كما نلاحظ أنّ دعاء أولى الألباب بين يدى الثّمرة والغاية الحميدة فى القول : «وتوفّنا مع الأبرار» يتعلّق بالتّخلية والتخلّص من الذّنوب وسيّىء الأعمال بفضل الله تعالى وعفوه .

إنّ أولى الألباب الّذين يعلمون أنّ الفضل كلّه بيد الله تعالى يدعون الله تعالى قائلين : «ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيّئاتنا» فما معنى «فاغفر» و«كفّر» وما معنى الذّنوب والسّيّئات ؟ .

أوّل ما يلاحظ بشأن جملتى «فاغفر» و«كفّر» أنّ بينهما معنىً مشتركاً هو السَتر بشأن الغفران والمغفرة ومنه المِغْفر بيضة الحديد[1] والغُفْران والغَفْر بمعنىً[2] وبشأن الكفر بفتح الكاف وضمّها ، يقال : كَفَرَت الشّمسُ النجوم سترتها ويقال الكافر للسحاب الذى يغطى الشمس واللّيل . والكفّارة ما يغطّى الإثم ومنه كفّارة اليمين وكفّارة غيره من الآثام ككفّارة القتل والظِّهار . والتّكفير ستره وتغطيته حتّى يصير بمنزلة ما لم يُعْمَل[3] .

وما معنى الذّنوب ؟ الذّنب فى الأصل الأخذ بذَنَب الشّىء ، يقال : ذَنَبتُه أصبت ذَنَبه . ويُسْتَعْمَل فى كلّ فعلٍ يُسْتَوْخَمُ عُقباه اعتباراً بذَنب الشّىء ، ولهذا يسمّى الذّنْبُ تَبِعةً اعتباراً لما يحصل مِنْ عاقبته ، وجمع الذّنْب ذنوب[4] .

وما معنى السّيّئات ؟ السّيّئات جمع السّيّئة . والسّيّئة الفِعلة القبيحة

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «غفر» ٣٦٢ ومعجم مقاييس اللّغة «غفر» ٤/٣٨٥ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة «غفر» ٣٨٥ .

(٣) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «كفر» ٤٣٣ ـ ٤٣٦ .

(٤) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «ذنب» ١٨١ .

وهى ضدّ الحسنة[1] والسّين والواو والهمزة من باب القُبْح ، ولذلك سمّيت السّيِّئة سيّئة[2] والسّوء كلّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمور الدُّنيويّة والأُخرويّة ومن الأحوال النّفسيّة والبدنيّة والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفَقْدِ حميم[3] ويُفْهم من استعمالات القرآن الكريم ارتباط السّيّئات وكذلك الصّالحات بالأعمال ، السّيّئة فى الأولى والحسنةِ فى الآخرة وذلك فى مثل قوله تعالى[4] : ﴿والّذين عملوا السّيّئات ثمّ تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿والّذين كسبوا السّيّئات جزاءُ سيّئةٍ بمثلها وترهقهم ذلّة﴾ وقوله تعالى[6] : ﴿فأصابهم سيّئاتُ ما عَمِلوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وقوله تعالى[7] : ﴿أم حسب الّذين يعملون السّيّئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ وقوله تعالى[8] : ﴿أم حسب الّذين اجترحوا السّيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ وقوله تعالى[9] : ﴿الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم.والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمّدٍ وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم﴾ .

ونستطيع أن نفهم أنّ الذّنب واسع الدّلالة على كلّ ما يقترفه الإنسان من قولٍ أو فعلٍ وما إليهما أمّا السّيّئة فإنّها أشدّ ارتباطاً بالعمل السّيّء . إنّ أولى الألباب العلماء الحلماء يدعون الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم بأن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «سوا» ٢٥٣ .
(٢) معجم مقاييس اللّغة «سوء» ٣/١١٣ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «سوا» ٢٥٢ .
(٤) سورة الأعراف ١٥٣ .
(٥) سورة يونس ٢٧ .
(٦) سورة النّحل ٣٤ .
(٧) سورة العنكبوت ٤ .
(٨) سورة الجاثية ٢١ .
(٩) سورة محمّد ١ ، ٢ .

يسترها ولايفضحهم يوم يقوم الأشهاد أمام العباد ، وأن يكفّر عنهم سيّئات أعمالهم وأن يسترها جلّ وعلا ويغطّيها فإنّه جلّ وعلا أهل التّقوى وأهل المغفرة ، وأن يظلّ ذلك الفضل مستمرّاً حتّى يلقوا وجه ربهم الأعلى ويكونوا مع الأبرار الصّالحين بمنّ الله تعالى وفضله . وبعد تخلّص أولى الألباب من الذّنوب والسّيّئات وبعد أن انتهى دور التّخلية وهو الأساس يأتى دور التّحلية بسؤال الله تعالى ما وعد على ألسنة الرسل فإلى

الآيــة رقــم (١٩٤)

قال تعالى : ﴿ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد﴾ .

للمرّة الخامسة والأخيرة يجىء فى هذه الآية الكريمة الأخيرة فى آيات الدّعاء على ألسنة أولى الألباب : «ربّنا» ومع أنّ الدّعاء هنا متعلّق برجاء الثّواب فإنّه ممزوجٌ برجاء طرد العقاب وإبعاد العذاب . إنّ أولى الألباب يدعون الله سبحانه وتعالى أن يؤتيهم فضلاً منه جل وعلا ونعمةً وأن يعطيهم هبةً منه تعالى ومنّةً ما وعدهم عزّ وجلّ على ألسنة رسله الكرام ، وفى مقدّمتهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ ، بأنّ ثواب المؤمنين المتّقين جنّات عدنٍ خالدين فيها أبدا . وإنّ يقظة أولى الألباب وعدم غفلتهم وحذرهم ، كلّ ذلك يجعل تمام دعائهم المشوب بالحذر من دخول جهنّم امتداداً لرجائهم الكبير فى عفو الله تعالى وطمعهم العظيم فى فضل الله تعالى ، وتفسير ذلك أنّ القول على ألسنة أولى الألباب : «ولا تخزنا يوم القيامة» مزيجٌ من الحذر والطمع ، الخوف والرّجاء ، ولكنّ الطّمع والرّجاء هما الأكبر ، لأنّ معنى هذا القول : «ولا تخزنا يوم القيامة» ولا تخزنا يا ربّنا يوم القيامة على رءوس الأشهاد بدخول جهنّم بين يدى دخولنا بفضلك الجنّة . إنّ أولى الألباب يدعون الله تعالى أن يكون دخولهم الجنّة مباشرةً

ودون أن يسبقه دخولٌ فى النّار وتعريجٌ عليها . ومع علمهم بأنّ ما ينالون من عذابٍ هو عدلٌ من الله تعالى ولكنهم يطمعون أن يطغى الفضل على العدل بدخول الجنّة مباشرةً .

ويؤكّد أولو الألباب طمعهم فى تحقّق الوعد بالقول : «إنّك لا تخلف الميعاد» .

وقد كان ربّ العزّة عند حسن ظنّ عباده الأبرار به جلّ وعلا وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى

الآيــــة رقــــم (١٩٦)

قال تعالى : ﴿فاستجاب لهم ربّهم أنّى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض . فالّذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولأدخلنّهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله . والله عنده حسن الثّواب﴾ .

سـبب النّزول

عن مجاهد قال : قالت أمّ سلمة يا رسول الله تُذْكَر الرّجال فى الهجرة ولا نُذْكر فنزلت : أَنّى لا أضيع **عمل عاملٍ** منكم من ذكرٍ أو أنثى» الآية [١] وعن سلمة رجلٍ من آل أمّ سلمة قال قالت أمّ سلمة : يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النّساء فى الهجرة بشىءٍ فأنزل الله تعالى : فاستجاب لهم ربّهم أنّى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى ، إلى آخر الآية . وقالت الأنصار هى أوّل ظعينة [٢] قدمت علينا [٣] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٤٣/٤ .
(٢) الظّعينة : المرأة فى الهودج .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٤١/١ .

من المعروف أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، فمع أنّ الآية الكريمة نزلت فى مناسبةٍ خاصّةٍ إلّا أنّ السّياق ذاته يقتضى هذه الآية الكريمة لأنّها عبارةٌ عن استجابة الله تعالى دعاء أولى الألباب خاصّةً وأنّها بدأت بحرف الفاء الّذى يصحّ أن يفهم منه هنا التّرتيب مع التّعقيب والاستجابة الفوريّة .

إنّ الآية الكريمة تبدأ بالقول : **﴿فاستجاب لهم ربّهم أنّى لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى﴾** ومع أنّ معنى فاستجاب لهم فأجابهم كما قال الشّاعر :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النّدا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

بمعنى فلم يجبه عند ذاك مجيب [1] إلّا أنّا يصحّ أن نفهم من القول : «فاستجاب لهم ربّهم» استجابة الله تعالى دعاء أولى الألباب النّابع من أعماق قلوبهم إضافةً إلى إفادة الاستجابة معنى الإجابة ، وعليه نكون أمام الإجابة المطلوبة واستجابة الدّعاء . والمعروف أنّ الآيات الكريمات السّابقات تبيّن إفاضة أولى الألباب فى الدّعاء الّذى نبع من أعماق قلوبهم والّذى هتفت به حناجرهم والّذى رفعته ألسنتهم .

وإذا كان قد جاء فى قول الشّاعر : «فلم يستجبه» فإنّه قد جاء فى الآية الكريمة : «فاستجاب لهم» بزيادة حرف الجرّ اللّام ممّا يصحّ أن يفهم منه أنّ القول : «فاستجاب لهم» يتضّمن معنى الإصغاء لأولى الألباب وقبول دعائهم والاستجابة الفوريّة لهم . وانظر إلى القول : «ربّهم» إنّ لفظ الرّبّ الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الرّضا والامتنان ، البشر والحبور ، هو الّذى يستعمل هنا وقد عرفنا أنّه هو اللّفظ الحبيب إلى قلوب أولى الألباب

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤٤/٤ .

والّذى جرى على ألسنتهم خمس مرّاتٍ فى هيئة الدّعاء : «ربّنا» فى أربع آياتٍ كريمات . إنّ ربّ أولى الألباب هو الّذى يستجيب لهم على الفور امتداداً لفضله جلّ وعلا على عباده الّذين ربّاهم بنعمه وآلائه جلّ وعلا .

إنّ الآية الكريمة تبيّن لأمّ سلمة وغير أمّ سلمة ، لكلّ مهاجر ومهاجرة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع ثواب عمل أىّ عاملٍ للصّالحات من ذكرٍ وأنثى . إنّ الذّكور من الإناث والإناث من الذّكور ، وبما أنّهم فى أساس التّكليف سواء كذلك هم فى الأجر سواء رغم اختلاف اختصاص الجنسين . إنّ ثواب الجنسين فى الأعمال الصّالحة المشتركة سواء كالهجرة من مكّة إلى المدينة فى فجر الإسلام وكالهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فى كلّ زمانٍ ومكان .

ولمّا كان سبب النّزول سؤال أمّ سلمة رضى الله عنها المصطفى ﷺ عن ذكر الرّجال فى الهجرة وليس النّساء إضافةً إلى ما يقتضيه السّياق من إجابة أولى الألباب أو الاستجابة لدعائهم ولمّا كانت الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام من أعظم الأعمال وأجلّ القربات وأكبر التّضحيات ، وقد قال عزّ من قائل (١) : ﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ وقال تعالى (٢) : ﴿إنّ الّذين توفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيرا . إلاّ المستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوّاً غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله

---

(١) سورة النّساء ٦٦ - ٦٨ .

(٢) سورة النّساء ٩٧ - ١٠٠ .

يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً﴾ لكل ذلك كان فى الآية الكريمة حديثٌ خاصّ عن المهاجرين بقيادة المصطفى ﷺ وقد كان المهاجرون والأنصار عماد مجتمع المدينة المنوّرة آنذاك .

إنّ الآية الكريمة تثنى على الّذين هاجروا ، والمراد بهم أساساً الّذين هاجروا إلى الحبشة مرّتين اثنتين وفى المرّة الثّالثة إلى المدينة المنوّرة ، وعلى الّذين أخرجوا من ديارهم ، والمعروف أنّ الهجرة بمعناها البسيط تعنى الخروج من الدّيار ، والتّضحية بالدّور والمصالح والأموال فى سبيل عقيدة التّوحيد ، وما أرخص ما يُبْذَل مهما كان غالياً فى سبيل دين الإسلام الّذى أكمله الله ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا . والمعروف أنّ كفّار مكّة آنسوا فى أنفسهم القدرة على إخراج المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ ، وتمشّياً مع هذا الإيناس وإحساس كفّار مكّة بالقدرة والقوّة على إخراج المؤمنين جاء فى الآية الكريمة القول : «وأخرجوا من ديارهم» كما جاء فى سورة محمّد ﷺ [1] فى قوله تعالى : **﴿وكأيّن من قريةٍ هى أشدّ قوّةً من قريتك الّتى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾** والمعروف أنّ هجرة المرسلين لا تتمّ إلاّ بإذن الله تعالى الّذى يصادف هوى الكافرين ويوافق رغبتهم فى الإخراج وإحساسهم بالقدرة عليه ، ولو أنّ الكافرين هم الّذين أخرجوا رسول الله تعالى إليهم لأخرجهم الله تعالى خلفه ، تلك سنّة الله تعالى . وإلى هذه الحقائق أشار قوله تعالى فى سورة الإسراء [2] : **﴿وإن كادوا لَيستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلاّ قليلا . سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلا﴾** .

---

(١) الآية ١٣ .
(٢) الآية ٧٦ ، ٧٧ .

إنّ الأجر على قدر المشقّة . وإنّ الهجرة مشقّة . وإنّ الإخراج من الدّيار مشقّة أخرى . وإنّ الإيذاء فى سبيل الله تعالى مشقّة ثالثة . وما أشدّ معاناة أمّ سلمة مثلاً من أذى قريش ، وما أشدّ معاناة المسلمين حتّى أذن الله تعالى لهم بالهجرة إلى الحبشة مرّةً ومرّة وإلى المدينة المنوّرة مرّة أخيرة .

وتتوّج تلك المشقّات بالقتال فى سبيل الله تعالى وذلك ببذل الرّوح والنّفس بعد بذل المال والنّفيس . وتتوّج تلك الكرامات ويتوّج ذلك الفضل من الله تعالى بالاستشهاد فى سبيل الله تعالى والظفر بالشّهادة ، والمعروف أنّ مرتبة الشّهيد لا تتقدّمها إلاّ درجة الصّديق بين يدى درجتى النّبوّة والرّسالة وهما محض فضلٍ من الله تعالى . وإلى هذه السّلسلة من المشّاقّ والتّضحيات الّتى توّجت بكرامة الشّهادة فى سبيل الله تعالى أشارت الآية الكريمة : **﴿فالّذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا﴾** ومن البيّن أنّ الكلام يبدأ بالفاءالاستئنافيّة وذلك فى القول : «فالّذين هاجروا . . .» وكأنّ فى هذا الاستئناف إرشاداً لأولى الألباب إلى أجلّ الأعمال وأعظمها كالهجرة والجهاد والشّهادة إضافةً إلى جليل الأعمال الأخرى الّتى قام بها أولو الألباب . إنّ ربّ العزّة استجاب دعاء أولى الألباب ، وإنّ ربّ العزّة تفضّل على هؤلاء المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين قضى بعضهم نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا بتكفير السيّئات وإدخال الجنّة . فإذا عرفنا أنّ المهاجرين والأنصار هم عصب جيش الإيمان فى أحد وغير أحد أدركنا فضل كلٍّ من الهجرة والجهاد فى سبيل الله تعالى والّذين رزقوا الشّهادة فى سبيل الله تعالى وفى مقدّمة هؤلاء شهداء أحد ، كما أدركنا منزلة المهاجرين الّذين يتقدّمون فى الذّكر على الأنصار فى كلٍّ من القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين .

وأين جواب المبتدأ «فالّذين هاجروا . . .» جواب المبتدأ فى القول :

﴿لأكفرّنّ عنهم سيّئاتهم ولأدخلّنهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ وحينما نقارن بين الدّعاء على لسان أولى الألباب : **﴿ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾** وبين الثّواب من الله تعالى هنا : **﴿لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولأدخلنّهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار﴾** نتبيّن أنّ الثّواب في القول : «لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم» تجاوز مغفرة الذّنوب ممّا يصحّ أن يفهم أنّ الذّنوب عموماً أصغر من السّيّئات عموماً.وحينما كان تكفيرٌ من الله تعالى لسيّئات الأعمال وسترٌ لها وتغطيةٌ عليها دخل فى ذلك ضمناً مغفرة الذّنوب . وكأنّ القول من ذى قبل على لسان أولى الألباب قد تدرّج من الذّنوب إلى السّيّئات من الصّغار إلى الكبار . إنّ فى القول على لسان ربّ العزّة : **﴿لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم﴾** تجاوزاً للذّنوب وغفراناً ، وإنّ تكفير السّيّئات توطئةٌ لإدخال الله تعالى أولئك العباد جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار . وكما كان تكفير السّيّئات عن الأبرار استجابةً لدعائهم غفران الذّنب وتكفير السّيّئة كان إدخالهم الجنّة استجابةً لدعائهم : «وتوفّنا مع الأبرار» .

والملاحظ فى المناسبتين مجىء حرف الجرّ عن وذلك فى القولِ : «وكفّر عنّا سيّئاتنا» وفى القول : «لأكفّرنّ عنهم سيّئاتهم» وكأنّ الجملة تضمّنت حطّ الوزر عنهم إضافةً إلى ستره وتغطيته .

وينصّ السّياق على أنّ إدخال الله تعالى أولى الألباب الجنّة محض ثوابٍ من الله تعالى ، ففى الجنّة ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وتختم الآية الكريمة بالقول : **﴿والله عنده حسن الثّواب﴾** ومن البيّن أنّ فى هذه الجزئيّة الكريمة معنى جديداً وهو وصف الثّواب بأنّه حسن . إنّ عند الله تعالى وحده لا شريك له حسن الثّواب ، وعظيم الجزاء ، وجزيل العطاء .

وقد نال كفّار مكّة حظّهم من الحديث ونصيبهم من التّهديد والوعيد وذلك فى الآيتين الكريمتين التّاليتين وهما

الآيتان رقم (١٩٦ و١٩٧)

قال تعالى : ﴿**لا يغرّنّك تقلّب الّذين كفروا فى البلاد . متاعٌ قليلٌ ثمّ مأواهم جهنّم وبئس المهاد**﴾ .

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون لكفّار مكّة فى غزوة أحد الظّفر على المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ وأن تكون الدّولة للمشركين على المؤمنين كما شاء الله سبحانه وتعالى أن ينسأ للمشركين فى الأجل ويطيل لهم فى العمر ويبسط لهم فى الرّزق ويُهيّىء لهم سبل الضّرب فى الأرض والتّقلّب فى البلاد . فهل كلّ ذلك ثوابٌ من الله تعالى وهم المشركون الصّادّون عن سبيل الله تعالى أم أنّ ذلك مكرٌ من الله تعالى بهم واستدراجٌ لهم ؟ لا شكّ أنّ ذلك مكرٌ من الله تعالى بهم واستدراجٌ لهم وإقامةٌ للحجّة عليهم إن لم يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ويتوبوا إليه تعالى توبةً نصوحا .

إنّ الآية الكريمة الأولى فى خطابها للمصطفى ﷺ ابتداءً ، وكلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة تبعاً ، تقول له : لا يغرّنّك تقلّب الّذين كفروا فى البلاد ، ولا تأخذك الغِرّة وهى الغفلة فى اليقظة [1] ولا يصرفك عن حقيقة كيدى للكافرين ومكرى بهم ما يظهر للعين ويبدو فى الظّاهر من إمهالى للقوم واستدراجى لهم حتّى آخذهم وأنا العزيز المقتدر بأليم عذابى وشديد عقابى إن لم يفهموا الإمهال على حقيقته وأنّه ليس إهمالاً لهم .

إنّ كلّ ما فيه الكافرون من رزقٍ واسع ، وسفرٍ قاصد [2] وعمرٍ مديد ،

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ «غرر» ٣٥٨ .

(٢) سفرٌ قاصد : وسط .

وجاهٍ عريض ليس سوى متاع الدّنيا القليل ونعيمها اليسير ثمّ مأواهم جهنّم ومصيرهم النّار وبئس المهاد والقرار ، وبئس الفِراش والمضجع .

وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه المثانى الّذى يتمّ فيه التّحوّل من الشّىء إلى ضدّه ، المعنى إلى خلافه يتحوّل السّياق للحديث عن المؤمنين . والحقيقة أنّ الآيات الثّلاث الأخيرات من السّورة الكريمة فيها توجيهٌ للمؤمنين ، كى يكونوا بفضل الله تعالى متّقين أبرارا وذلك فى الآية الكريمة الأولى ، وتوجيهٌ لأهل الكتاب كى يتحوّلوا مسلمين أخيارا وذلك فى الآية الكريمة الثّانية ، وتوجيهٌ للمؤمنين كى يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتّقوا الله تعالى لعلّهم يفلحون وذلك فى الآية الكريمة الثّالثة والأخيرة من السّورة فمع المتّقين الأبرار أوّلاً فإلى

الآيــة رقــم (١٩٨)

قال تعالى : **﴿لكن الّذين اتّقوا ربّهم لهم جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله . وما عند الله خيرٌ للأبرار﴾** .

تتحدّث الآية الكريمة عن المؤمنين وتصفهم بأنّهم الّذين اتّقوا ربّهم . إنّ التّقوى عبارةٌ عن الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، وبذلك تتجاوز الآية الكريمة مرحلتى الإسلام والإيمان . ويجىء فى الآية لفظ الرّبّ الّذى لحق به الضّمير العائد إلى المتّقين وقد عرفنا أنّ هذا اللّفظ حبيبٌ إلى قلوب أولى الألباب قريبٌ من ألسنتهم . وإذا كانت الآية الكريمة الّتى تحدّثت من قبل عن المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى قد وقفت عند الجنّات الّتى تجرى من تحتها الأنهار فإنّ الآية الكريمة هنا الّتى تتحدّث عن المتّقين تتجاوز ذلك إلى تقرير الخلود فى جنّات النّعيم : «خالدين فيها» وإذا كانت آية المهاجرين المجاهدين نصّت على

الثّواب من عند الله تعالى وعلى أنّ الله سبحانه وتعالى عنده حسن الثّواب فإنّ الآية الكريمة هنا تجاوزت ذلك إلى تقرير أنّ الخلود في جنّات النّعيم بمثابة النّزل من عند الله تعالى ومن فضله جلّ وعلا . والنُّزل ما يُعَدّ للنّازل من الزّاد [١] وكأنّ هؤلاء المتّقين ضيوف الرّحمن يوم القيامة فى الجنّة الّتى فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وتختم الآية الكريمة بالقول : «وما عند الله خيرٌ للأبرار» وحينما نعلم أنّ خير أصلها أخير ولكثرة الاستعمال سقطت الهمزة ندرك أنّ ما أعدّ الله تعالى للأبرار أكبر ممّا نصّت عليه الآية الكريمة . وحينا نصادف هنا لفظة أبرار ، ويجىء من قبل على لسان أولى الألباب القول : «وتوفّنا مع الأبرار» وحينما يكون هنالك حديثٌ عن المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين لهم عند الله تعالى حسن الثّواب ، وحينما يرقى الثّواب إلى الخلود فى الجنّة ، ويرقى عباد الله تعالى إلى مرتبة التّقوى وإلى مرتبة الأبرار ، وحينما يرقى الثّواب من عند الله تعالى إلى مرتبة النّزل من عند الله تعالى وإلى ما هو خيرٌ للأبرار عند الله تعالى من مرتبة النّزل ، فإنّا بناءً على كلّ ذلك نستطيع أن نفهم أنّ المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى الّذين ينتظرون الشّهادة ويعملون من أجلها يظلّون يرقون فى درجات الخير حتّى يصلوا إلى مرتبة الأبرار ومرتبة التقوى والإحسان . إنّ فى كلّ ذلك حثّاً للمؤمنين على أن يفعلوا الخير وأن يستبقوا الخيرات حتّى يلقوا وجه ربّهم جلّ وعلا .

وكما نال المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله تعالى والّذين أكرمهم الله تعالى بالشّهادة فى أحد وفى غير أحد حظّهم كاملاً غير منقوص نال مؤمنو أهل الكتاب حظّهم كاملاً غير منقوص وذلك فى الآية الكريمة التّالية فإلى

---

(١) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ «نزل» ٤٨٩ .

الآيــة رقــم (١٩٩)

قال تعالى : ﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرهم عند ربّهم ، إنّ الله سريع الحساب﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ من أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى ، من يؤمن بالله تعالى ويشهد أنّه لا إله إلاّ هو ويؤمن بما أنزل إلى المؤمنين من قرآنٍ مجيد أوحى به الله تعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ فى أسمى طرق الوحي ويؤمن بما أنزل إليهم من توراةٍ أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام وإنجيلٍ أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام . وهؤلاء يخشعون لله تعالى فى أثناء عبادتهم له جلّ وعلا ، ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً فلا يخفون شيئاً من معانى الكتابين السّماويّين ولايخفون شيئاً من نعت المصطفى ﷺ فى كلٍّ من التّوراة والإنجيل ، ولا يأخذون فى مقابل كتم العلم أىّ ثمن من مالٍ أو منصبٍ أو جاه لأنّ ذلك مهما غلا ثمنه فهو ثمنٌ قليل فى مقابل كتم العلم وخيانة الأمانة . إنّ أهل الكتاب هؤلاء الّذين تلك نعوتهم لهم أجرهم العظيم عند ربّهم جلّ وعلا وثوابهم الكبير . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سريع الحساب ، فبما أنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت وأنّ من مات قامت قيامته ،وفى يوم القيامة يكون الحساب ، الثّواب أو العقاب ، وأنّ ربّ العزّة هو أسرع الحاسبين ، لكلّ ذلك كان النّصّ على أن الله سبحانه وتعالى أسرع الحاسبين كى يأخذ كلٌّ من دنياه لآخرته ومن حياته لموته ، ففى يوم القيامة تبيضّ وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين .

وإذا كان أهل الكتاب جميعاً يشتركون فى هذه الصّفات وفى الإيمان برسول الله تعالى إليهم وبمحمّد ﷺ فإنّ النّصارى يتقدّمون اليهود عادةً فى

هذه النّعوت فالمعروف أن عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصّحبة يبلغ تسعةً وثلاثين رجلاً فقط[1] وقد قال تعالى[2] : **﴿لتجدنّ أشدّ النّاس عداوةً للّذين آمنوا اليهود والّذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أُنْزِل إلى الرّسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقّ ونطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصّالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء المحسنين . والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾** .

والّذى يلفت الانتباه حقّاً فى الآية الكريمة هو تقديم إيمان أهل الكتاب بما أنزل على محمّد ﷺ وهو القرآن الكريم وتأخير إيمان أهل الكتاب بما أنزل على رسول الله تعالى إليهم وهى التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام . إنّ تقديم الرّسول ﷺ والقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى إليه فى القول : «وما أنزل إليكم» يعنى أنّ القرآن الكريم هو الكتاب السّماوىّ الأخير المهيمن على الكتاب قبله ، وأنّ دين الإسلام ناسخ للدّيانات السّماويّة قبله ومن باب الأولى غير السّماويّة ، وأنّ محمّد بن عبدالله ﷺ هو النّبىّ الخاتم الّذى ينبغى الإيمان به واتّباع النّور الّذى أنزل معه وهو القرآن الكريم . وبهذا يتبيّن أنّ أهل الكتاب موضع الثّناء فى الآية الكريمة هم الّذين تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين وأصبحوا مسلمين بالأصالة بعد أن كانوا يهوداً أو نصارى يؤمنون بالتّوراة والإنجيل وحدهما . والمعروف أنّ من أركان الإيمان الإيمان بكلّ الكتب السّماويّة .

---

(١) السّيرة النّبويّة لأبى الحسن النّدوىّ ص ١٦١ هامش (١) .
(٢) سورة المائدة ٨٢ ـ ٨٦ .

ولمّا كان من أركان الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع الرّسل ابتداءً بمحمّد بن عبدالله ﷺ ومروراً بموسى وعيسى عليهما السّلام فقد جاء فى الآية الكريمة النّصّ على إيمان أهل الكتاب بما أُنْزِل إليهم وعلى خشوعهم فى أداء الصّلاة وقد أصبحوا مسلمين لله ربّ العالمين وجزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس .

وما أكثر الآيات القرآنيّة الكريمة والأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتى أثنت على أهل الكتاب الّذين تركوا اليهوديّة والنّصرانيّة وأصبحوا مسلمين لله ربّ العالمين وصحّ لهم بذلك أجران ، أجر الإيمان برسول الله تعالى إليهم وأجر الإيمان بنبىّ الإسلام محمّد بن عبدالله ﷺ . جاء فى سورة القصص [1] قوله تعالى : ﴿**الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا مِنْ قبله مسلمين . أولئك يؤتَوْن أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين**﴾ وجاء فى سورة العنكبوت [2] قوله تعالى : ﴿**وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومِنْ هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون**﴾ وجاء فى سورة الأنعام [3] قوله تعالى : ﴿**أفغير الله أبتغى حكماً وهو الّذى أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً . والّذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزَّلٌ من ربّك بالحقّ فلا تكوننّ من الممترين**﴾ وجاء فى سورة الرّعد [4] قوله تعالى : ﴿**والّذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل إنّما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب**﴾ إلى غير ذلك من آياتٍ كريمات .

---

(١) الآيات ٥٢ ـ ٥٥ .
(٢) الآية ٤٧ .
(٣) الآية ١١٤ .
(٤) الآية ٣٦ .

وقد ثبت فى الصّحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثةٌ يؤتون أجرهم مرّتين فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بى[1] .

والملاحظ أنّ السّورة الكريمة تتحدّث فى أوّلها عن هذه الكتب السّماويّة فثمّة نوعٌ من رباط بين أوّل السّورة وآخرها عماده الحديث عن هذه الكتب السّماويّة .

ولمّا كان المؤمنون المتّقون الثّمرة اليانعة النّاضجة لمنهج التّربية القرآنية وكان الجهاد فى سبيل الله تعالى الموضوع الرّئيسىّ لسورة آل عمران المدنيّة فقد كانت آخر آيات السّورة الكريمة ذا علاقـــة بالمؤمنين ثمرة هذا المنهج وذات علاقة ببعض الدّروس الّتى تأخذ بأيدى هؤلاء المؤمنين المجاهدين الأبرار المتّقين إلى مدارج العلا وذرى الفخار فإلى

الآيـــة رقـــم (٢٠٠)

قال تعالى : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾ .

تخاطب آخر آيات السّورة الكريمة المؤمنين وتصفهم بأحسن صفاتهم وأهمّ صفاتهم ألا وهى صفة الإيمان وتأمرهم بأربعة أمور لعلّهم ينتهون بعد ذلك إلى النّتيجة الباهرة والفلاح العظيم .

الأمر الأوّل هو الصّبر : «يا أيّها الذين آمنوا اصبروا» والمعروف أنّ الصّبر عماد الأمور كلّها فبقدر الصّبر بعون الله تعالى يكون التّوفيق بفضل الله تعالى . والمعروف أنّ الصّبر ثلاثة أنواع . صبرٌ على البلاء على نحو ما

(١) تفسير ابن كثير ٤٤٤/١ .

حدث للمسلمين فى غزوة أحد من قتل وجراح وهزيمة وفقد غنيمة ، وصبرٌ عن المعاصى وصبرٌ على الطّاعات . إنّ المؤمنين مطلوبٌ منهم كلّ أنواع الصّبر والمعروف أنّ الإيمان شطران شطرٌ صبرٌ وشطرٌ شكر .

والأمر الثّانى هو المصابرة : **﴿يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا﴾** فالمطلوب من المؤمنين أن يصابروا أعداء الله تعالى وأن يكونوا أشدّ مصابرةً من أعداء الله تعالى وأطول نَفَساً وأكثر جَلَدَاً وقد قال تعالى [1] : **﴿ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم﴾** .

وأكثر ما تتجلّى مصابرة أعداء الله تعالى فى ميدان القتال وفى مجال الصّراع بين الحقّ والباطل.والمعروف أنّ الصّراع بين الحقّ والباطل أزلىّ وقد يكون للباطل جولةٌ أو جولاتٌ ، ولكنّ النّصر بإذن الله تعالى للحقّ فى النّهاية والعاقبة للمتّقين. وهذا معناه أنّ الصّبر والمصابرة لازمان للمؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان .

والأمر الثّالث المرابطة على الثّغور دفاعاً عن بيضة الإسلامة ودفعاً لأذى أعداء الله تعالى ومنعاً له من أن يتسلّل من أىّ ثُغْرة . وحينما تكون المصابرة شاملةً كلّ ميادين الصّراع مع أعداء الله تعالى بما فى ذلك ميدان القتال تكون المرابطة فى ميدان القتال بخاصّة ، وهذا دليلٌ على أهمّيّة الرّباط فى سبيل الله تعالى والجهاد فى سبيل الله تعالى . روى البخارىّ فى صحيحه عن سهل بن سعد السّاعدىّ أنّ رسول الله ﷺ قال : رباط يومٍ فى سبيل الله خيرٌ من الدّنيا وما عليها [2] وما أكثر الأحاديث النّبويّة الشّريفة فى فضل الرّباط فى سبيل الله قال تعالى : **﴿يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾** .

---

(١) سورة محمّد ١١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٤/١ .

والأمر الرّابع تقوى الله تعالى : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله**﴾ وتقوى الله تعالى مراقبته جلّ وعلا فى السّرّ والعلن بفعل الأوامر واجتناب النّواهى واتّخاذ ذلك وقايةً من عذاب الله تعالى . والتّقوى هى الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . ودرجة الإحسان أرفع من درجتى الإسلام بأركانه الخمسة والإيمان بأركانه السّتّة .

أمّا النّتيجة الباهرة لفعل كلّ هذه الأمور الأربعة فهو النّجاح فى يوم الامتحان الأكبر والفلاح يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم [(١)] : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون**﴾ والمعروف أنّ لعلّ تفيد ترجّى المحبوب وتختصّ بالممكن الّذى لا وثوق بحصوله . فعلى المؤمنين الّذين يفعلون ما أمرهم الله تعالى به ويجتنبون ما نهاهم الله تعالى عنه أن يسألوا الله تعالى من أعماقهم أن يوفّقهم كى تكون أعمالهم الصّالحة الّتى يقومون بها خالصةً لوجهه الكريم لأنّ الله تعالى لا يقبل من الأعمال الصّالحة إلّا ما أريد به وجهه الكريم جلّ وعلا .
وهذا درسٌ أخيرٌ فى السّورة الكريمة فى وجوب الحذر وعدم الغفلة وعدم الاغترار وفى وجوب العلم بأنّ دخول العباد الجنّة بفضل الله تعالى أوّلاً وأخيراً وبرحمته الّتى وسعت كلّ شىء . وإنّ هذا الدّرس فى الحذر وعدم الغفلة والّلجوء الدّائم إلى الله تعالى والتّضرّع المستمرّ إلى الله تعالى يذكّرنا بالدّرس الّذى تلقيه سورة المؤمنون فى وجوب إشفاق المؤمنين ألّا يتقبّل الله سبحانه وتعالى أعمالهم الصّالحة . قال تعالى [(٢)] : ﴿**إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون . والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون . والّذين هم بربّهم لا يشركون .**

(١) انظر هنا التّفسير القيّم لابن القيّم ٢١٧ و٢١٨ .
(٢) سورة المؤمنون ٥٧ ـ ٦٢ .

والّذين يؤتــون مـا آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . ولا نكلّف نفساً إلاّ وسعها ولدينا كتابٌ ينطق بالحقّ وهم لا يُظْلمون﴾ .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعاً من الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه . وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

* * *

الخاتمـــة

بفضل الله تعالى درسنا فى الصّفحات السّابقة سورة آل عمران المدنية دراسةً متأمّلة . تحت عنوان : القرآن الكريم والمؤمنون به والكافرون ، درسنا الثّلاث عشرة آيةً الأولى ، وتبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقّطعة الّتى يصحّ أن تكون امتداداً للتّحدّى بالقرآن الكريم الّذى تتألّف كلماته من جنس هذه الحروف ولكنّ النّظم فريد بابه ونسيج وحده ، وعلى عادة سورة القرآن الكريم الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة فى حديثها عن القرآن الكريم تتحدّث السّورة الكريمة عن القرآن الكريم وعن الكتب السّماويّة السّابقة وبخاصّةٍ التّوراة والإنجيل . ويغلب على الآيات الكريمات الحديث عن علم الله تعالى وقدرته فلا يخفى عليه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء وهو الّذى يصوّرنا فى الأرحام كيف يشاء . وهو الّذى أنزل القرآن الكريم منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب والمعتمد فى الأحكام وأخر متشابهات . فأمّا الّذين فى قلوبهم زيغٌ عن الحقّ فيتّبعون المتشابه من القرآن الكريم ابتغاء فتنة الآخرين وابتغاء تأويله وفق أهوائهم وأمّا الرّاسخون فى العلم فيؤمنون بالقرآن الكريم كلّه المنزل من ربّهم جلّ وعلا . ولا يعلم تأويل المتشابه إلاّ الله تعالى لذا يرشد السّياق أولى الألباب للدّعاء الّذى لا تزيغ به قلوبهم . وبهذا يتبيّن سلامة عقول هؤلاء العلماء وقلوبهم وهم أولو الألباب الّذين تثنى عليهم السّورة فى خواتيم آياتها وتذكر بعض نعوتهم . ويتحوّل الحديث إلى الكافرين ، ويستوى فى ذلك كافرو العرب وأهل الكتاب وآل فرعون وسواهم . إنّهم جميعاً وقود النّار . وإنّ كافرى يهود سيلحقون بكفّار مكّة

الّذين هزموا فى بدر وحُشِروا إلى جهنّم وبئس المهاد . ولمّا كانت سورة آل عمران تتحدّث فى ستّين آية عن غزوة أحد ومرارة الهزيمة والدّروس المستفادة ووجوب الصّبر وكان الإيمان شطرين ، شطرٌ صبر وشطرٌ شكر ، فقد كان ثمّة تنبيه على وجوب الشّكر لله تعالى الّذى نصر المؤمنين القلّة الأذلّة فى بدر .

وتحت عنوان : متاع الدّنيا زائل ونعيم الآخرة مقيم درسنا الآيات ١٤ ـ ١٧ . إنّه لمّا كان محور الآيات الكريمات الأخيرات فى القسم السّابق هم الكافرين الّذين يعتبرون الحياة الدّنيا غاية المنى وشهواتها منتهى الطّلب فقد بدأت أولى آيات هذا القسم بالحديث عن الشّهوات الّتى زيّنها الله تعالى للنّاس . والفرق بين المؤمن والكافر أنّ المؤمن يأكل ليعيش ولا ينسى حظّه من الدّنيا أمّا الكافر فإنّه يعيش ليأكل ولينال أكبر حظٍّ من الشّهوات . وكان ترتيب الآية الكريمة الشّهوات عجيباً ومعجزاً بحيث إنّه يصحّ القول إنّ ضابط ترتيب الشّهوات مقدار حبّ النّاس لها وإمكان تحقيقها لذا تقدّم ذكر النّساء لفرط الميل إليهن تلا ذلك ذكر البنين ثمرة الاتّصال بالنّساء وذكر المال لأنّ المال والبنين زينة الحياة الدّنيا . وقد تقدّم ذكر الذّهب على الفضّة لنفاسة الذّهب وتقدّم ذكر الخيل على الأنعام لحظّ الخيل الموفور من الجمال والزّينة ، وتأخّر ذكر الحرث بمعنى الزّرع على الأنعام لمنزلة الأنعام الرّفيعة لدى سكّان الجزيرة العربيّة الّذين يغلب عليهم الرّعى بأكثر من الزّراعة . وينصّ السّياق على أنّ تقوى الله تعالى خيرٌ من ذلك كلّه لأنّ جزاء التّقوى الجنّة الّتى فيها النّعيم المقيم الّذى يتوّج برضوان الله تعالى . وفى آيتين كريمتين يتمّ الحديث عن أقوال عباد الرّحمن وأفعالهم . أمّا أقوالهم فَتَنم على اليقظة والحذر فهم يسألون ربّهم جلّ وعلا أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النّار . وأمّا أفعالهم فإنّ منها اللّازم ومنها المتعدّى إلى عباد الله تعالى ومنها المتّجه إلى الله تعالى مباشرة . إنّهم صابرون صادقون قانتون منفقون

مستغفرون بالأسحار . وهكذا يتبيّن أنّ أقوال العباد وأفعالهم دليلٌ على قلوبهم وعقولهم السّليمة .

وتحت عنوان مسلمون لله تعالى مالك الملك وكافرون وجزاؤهم درسنا الآيات ١٨ ـ ٢٧ . إنّ ربّ العزّة يشهد أنّه لا إله إلاّ هو وإنّ الملائكة تشهد وكذلك أولو العلم . وبهذا يتبيّن منزلة العلم والعلماء فى الإسلام ، وسبق أن كان فى السّورة الكريمة ثناءٌ على الرّاسخين فى العلم الّذين يؤمنون بالقرآن الكريم كلّه . وكما شهد الله تعالى أنّه لا إله هو شهد جلّ وعلا أنّ الدّين عند الله تعالى هو الإسلام الّذى بعث به محمّداً ﷺ والعجيب من أمر أهل الكتاب أنّهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم الصّحيح واقتتلوا بسبب البغى بينهم ، إن على المصطفى ﷺ أن يقول بأنه أسلم وجهه لله تعالى وأن يأمر أهل الكتاب والأمّيين بأن يدخلوا فى دين الإسلام الّذى بعثه الله تعالى به فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن أعرضوا فإنّ عليه ﷺ البلاغَ وحده . وإنّ ربّ العزّة يبشّر بعذابٍ أليم وبذهاب أعمالهم الصّالحة هباءً أولئك الّذين يكفرون بآيات الله تعالى ويقتلون النّبيّين بغير حقٍّ وبدون أىّ سببٍ ويقتلون الّذين يأمرون بالعدل من النّاس . ويدعو السّياق إلى العجب من أهل الكتاب الّذين يدعون إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم ثمّ ينصرف فريقٌ منهم وهم معرضون وذلك لأنّهم كذبوا على الله تعالى وقالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أربعين يوماً هى عدد الأيّام الّتى عبد فيها بنو إسرائيل العجل حينما ذهب موسى عليه السّلام لميقات ربّه جلّ وعلا . ويحذّر السّياق من يوم القيامة يوم الجزاء العادل . ويلقّن السّياق المؤمنين بأن يدعوا الله تعالى مالك الملك الّذى يؤتى الملك من يشاء إيتاءه وينزع الملك ممّن يشاء نزعه ويعزّ من يشاء عزّه ويذلّ من يشاء ذلّه فإنّه بيده الخير جلّ وعلا وهو على كلّ شىءٍ قدير . والله سبحانه وتعالى يولّج اللّيل فى النّهار ويولج النّهار فى اللّيل ويخرج الحىّ من الميّت ويخرج الميّت من الحىّ ويرزق جلّ وعلا من يشاء بغير حساب .

وتحت عنوان : تحذير المؤمنين من اتّخاذ الكافرين أولياء وكيفيّة حبّ الله تعالى درسنا الآيات ٢٨ ـ ٣٢ تبيّن فى آيات القسم السّابق أنّ الله سبحانه القادر على كلّ شىء الخالق ، وإنّا فى هذا القسم نتبيّن أنّ الأمر كلّه لله تعالى . إنّ أولى الآيات الكريمات تنهى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلّا أن يتّقوا منهم تقاةً وإلّا تعرّضواالغضب الله تعالى . ولمّا كانت مسألة التّقيّة مظنّة أن يسىء بعض المسلمين استعمالها فيستمرىء الكفر والعياذ بالله زاعماً أنّه يعلنه ويلعنه فإنّ الآية الكريمة التّالية جاءت معترضة مبيّنة إحاطة الله سبحانه وتعالى بكلّ شىءٍ علماً : **﴿قل إنّ تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السّماوات وما فى الأرض والله على كلّ شىءٍ قدير﴾** وبناءً على ذلك يكون التّرابط واضحاً بين الآية الكريمة السّابقة على المعترضة واللّاحقة والتّقدير فيما يبدو والله تعالى أعلم : **﴿وإلى الله المصير يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذّركم الله نفسه . والله رءوفٌ بالعباد﴾** . وقد نبّهنا إلى ما فى الآية الكريمة من بلاغةٍ بالحذف ، وإلى مجىء القول : «ويحذّركم الله نفسه» مرّتين يفصل بينهما آيةٌ كريمةٌ معترضة ، وكأنّ التّحذير فى المرّتين موصول ، وإلى جانب الرّأفة والرّحمة الّذى يغلب جانب الغضب ويسبقه . وفى سبيل إرشاد العباد إلى الطّريق الصّحيح للحبّ تأمر الآية الكريمة التّالية العباد بأن يتّبعوا المصطفى ﷺ كَىْ يحبّهم الله تعالى ويغفر لهم ذنوبهم ، وأن يطيعوا الله تعالى والرّسول الكريم طاعةً مطلقةً فإن تولّوا فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الكافرين .

وتحت عنوان : آل عمران وزكريّا عليه السّلام درسنا الآيات ٣٣ ـ ٤١ . ويلاحظ بشأن آدم ونوح عليهما السّلام الاكتفاء باسمهما ممّا يصحّ منه أن يفهم أنّ ذرّيّتهما سريعة التفرّق فى السّبل المتفرّقة كما يلاحظ بشأن إبراهيم عليه السّلام وعمران مجىء لفظ الآل فى حقّهما ممّا يصحّ منه أن

يفهم أنّ ذرّيّتهما سيستمرّ بقاؤهما وامتدادهما حسّاً ومعنى . والمعروف أنّ كلّ الأنبياء بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّته فهو أبو الأنبياء . إنّ كلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام . وإنّ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام . إنّ هؤلاء المصطفيْن الأخيار ذرّيّةٌ بعضها من بعض ، والله سبحانه وتعالى سميعٌ عليم إذ قالت إمرأة عمران ربّ إنّى نذرت لك ما فى بطنى خالصاً لك ولخدمة بيت المقدس فتقبّل منّى . وكانت امرأة عمران تتمنّى الولد الذّكر لقدرته على الخدمة وشاء الله تعالى أن تضع امرأة عمران مريم البتول واستجاب الله تعالى دعاءها فأعاذ مريم وعيسى عليه السّلام ابنها من الشّيطان الرّجيم وتقبّلها بقبولٍ حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها جل وعلا زكريّا عليه السّلام الّذى كان يجد عند مريم البتول رزقاً كلّما دخل عليها المحراب وحينما يسألها عن مصدر الرّزق تقول له إنّه من عند الله تعالى . ولمّا كان رزق البتول من الله تعالى كرامةً للبتول وكان زكريّا عليه السّلام يتمنّى الولد الّذى يقوم على شئون الدّين بعده وكان كبير السنّ حقا وكانت امرأته عاقرا فإن الكرامة التى خصّ الله تعالى بها البتول أغرته بأن يدعو ربّه جلّ وعلا وأن يصطفيه هو الآخر بكرامةٍ منه جلّ وعلا وقد اصطفاه الله تعالى بالنّعمة العظمى نعمة النّبوّة . ويستجيب الله تعالى دعاءه وتبشّره الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب وهو مكان الإمام فى مكان العبادة بأنّ الله سبحانه وتعالى سيكرمه بيحيى عليه السّلام . ويسرد السّياق عدداً من نعوت هذا الولد الّذى سوف يحيا بإذن الله تعال حسّاً فيبلغ مبلغ الرّجال ومعنىً إذ يصطفيه الله تعالى بنعمة النّبوّة . ويستعجل زكريّا عليه السّلام الآية الدّالة على مجىء الولد بفضل الله تعالى ويكون الجواب بأنّ الآية أن ينعقد لسانه عن الكلام بخلاف ذكر الله تعالى ثلاثة أيّام بلياليهنّ . وهذا دليلٌ آخر على سهولة الذّكر ولهذا لم يضع الشّارع الحكيم له حدّا .

وقد لفت النّظر في هذا القسم هذا التّعبير : «فتقبّلها ربّها بقبولٍ حسن» وليس فتقبّلها ربّها تقبّلاً حسنا ، وقد فُهِم من هذا العدول من مصدرٍ إلى مصدر أنّ المصدر الجديد ومجيء حرف الباء ، أفاد معنى الرّضا إضافة إلى التّقبل . ولمّا كان الرّضا يسبق القبول فكأنّ هذا الرّضا يحفّه القبول من بين يديه بينما يحفّه الحسن من خلفه . كما لفت النّظر هذا التّعبير : «وأنبتها نباتاً حسنا» وليس وأنبتها إنباتاً حسنا ، وفائدة العدول إلى الاسم الّذى يقوم مقام المصدر إضافة الإفادة بأنّ البتول بمثابة النّبتة التّامّة النّماء الكاملة الخلق الفائقة الحسن . كما لفت النّظر كذلك مجيء لفظ الغلام على لسان زكريّا عليه السّلام وليس أيّ لفظ آخر لأنّ لفظ الغلام يفيد الوصول إلى مرحلة الرّجولة ، وهذه المرحلة هى الّتى يستطيع معها الإنسان أن يستقلّ بذاته ويقوم بواجباته . وإنّ القيام على شئون الدّين هو ما يحرص عليه زكريّا عليه السّلام لذا جاء على لسانه لفظ الغلام وليس أيّ لفظٍ آخر .

وتحت عنوان : مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام عبدالله وكلمته درسنا الآيات ٤٢ - ٦٣ يصحّ أن تكون أولى الآيات الكريمات معطوفة والتّقدير : والله سميعٌ عليمٌ إذ قالت امرأة عمران وإذ قالت الملائكة ، ويصحّ أن يكون المعنى : واذكر يا محمّد . وتنصّ الآية الكريمة على اصطفاء البتول لانقطاعها لعبادة الله تعالى ، وعلى تطهير الله تعالى لها ، وعلى اصطفاء الله تعالى لها بولادة عيسى عليه السّلام من غير أب . والّلطيف فى الأمر أنّ الآيات الكريمات التّاليات تسير وفق هذه المعانى الثّلاثة . أمّا الاصطفاء لأجل العبادة فيقوّى بأمر البتول بأنّ تقنت لربّها جلّ وعلا وأن تسجد وتركع مع الرّاكعين . وأمّا تطهير الله تعالى فيُقوّى باصطفاء الله تعالى زكريّا عليه السّلام كافلاً للبتول . وأمّا الاصطفاء بولادة عيسى عليه السّلام فيقوّى بمخاطبة البتول فى شأن عيسى عليه السّلام ومعجزاته وولادته من غير أب واستمرار سرد المعجزات على لسان عيسى عليه السّلام ودعوته عليه الصّلاة والسّلام قومه

إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وانقسام قومه إلى كافرين ومؤمنين ومكر بنى إسرائيل به عليه الصّلاة والسّلام ورفع الله تعالى له ووعد الله تعالى بجعل المؤمنين بعيسى عليه السّلام فوق الكافرين إلى يوم القيامة . والمعروف أنّ دين الإسلام ناسخٌ لكلّ دينٍ سواه ، وإرشاد الغالين فيه عليه الصّلاة والسّلام إلى وجه الحقّ والصّواب فيه وأمره ﷺ بأن يدعو وفد نجران الغالين فيه وغير وفد نجران إلى المباهلة وإخلاص الدّعاء لله تعالى بإنزال لعنته على الكاذبين المفسدين المصرّين على غلّوهم وكفرهم .

وممّا لفت الانتباه فى هذا القسم مجىء لفظ الولد على لسان البتول فى هذا الموضع من القرآن الكريم : ﴿**قالت ربِّ أنَّى يكون لى ولدٌ ولم يمسسنى بشر**﴾ وقد حاولنا أن نبيّن الحكمة من استعمال لفظ الولد بالذّات فقلنا ـ والله تعالى أعلم ـ إنّ أهمّ ما تفكّر فيه البتول هو مجرّد ولادة عيسى عليه السّلام الّذى تعرف أنّه لا يتمّ ـ فى نظرها وفى نظر كلّ مخلوق ـ إلاّ من طريقٍ واحدٍ هو اتّصال الرّجال بالنّساء .

وممّا لفت الانتباه كذلك مجىء هذا القول : «بإذن الله» مرّتين اثنتين على لسان عيسى عليه السّلام وذلك بعد ذكر المعجزتين الخارقتين اللّتين إنّما تتمّان بعلم الله تعالى وإذنه وهى النّفخ فى الطّائر من الطّين فيكون طائراً حيّاً بإذن الله تعالى وإحياء الموتى من قبورهم بإذن الله تعالى .

وتحت عنوان : تولّى أهل الكتاب وبعض مظاهر مكرهم درسنا الآيات ٦٤ ـ ٧٤ وهى تبدأ بنداء أهل الكتاب ودعوتهم إلى كلمةٍ سواء وهذه الكلمة هى إفراد الله تعالى بالعبادة . وإذا كان السّياق قد سمح لأهل الكتاب أن يجادلوا فيما لهم به علمٌ فإنّه أنكر عليهم أن يُجادِلُوا فيما ليس لهم به علم من أمر إبراهيم عليه السّلام الّذى يزعم اليهود أنّه كان يهوديّاً ويزعم النّصارى أنه كان نصرانيّاً بينما هو سابقٌ زمناً كليهماويقرّر السّياق حنيفيّة

إبراهيم عليه السّلام وأنّ أولى النّاس به عليه السّلام أتباعه والنّبىّ محمّد ﷺ وأتباعه وليس اليهود والنّصارى . ويقرّر السّياق حرص أهل الكتاب على إضْلال المسلمين وينكر عليهم ذلك كما ينكر عليهم كفرهم وخلطهم الحقّ بالباطل وكتمهم الحقّ . وينصّ السّياق على جهة الخصوص على أقوال اليهود السّيّئة وأفعالهم ضدّ نبىّ الإسلام وأمّة الإسلام فهم يتواصَوْن بأن يعلنوا إسلامهم أوّل النّهار وكفرهم آخره كى يرتدّ المسلمون عن دينهم . وهم يقول بعضهم لبعض لا تؤمنوا إلّا لمن كان يهوديّاً ويدحض السّياق على الفور افتراءهم : «قل إنّ الهدى هدى الله» ويستمرّون فى القول : ولا تؤمنوا أن يُؤْتَى أحدٌ مثلما أوتيتم فأنتم شعب الله المختار ولا تصدّقوا أن يحاجّكم أحدٌ عند ربّهم لأنكم أفضل من غيركم وأرفع منزلة ! ويدحض السّياق على الفور مرّةً أخرى افتراءهم : **﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم . يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾** .

وتحت عنوان : عزّ الأمانة وذلّ الخيانة وثواب الأمين وعقاب الخائن درسنا الآيات ٧٥ ـ ٩٢ وقد تحدّثت أولى الآيات الكريمات عن أمانة بعض أهل الكتاب وعن خيانة بعضهم الآخر الّذى يستحلّ مال الأمّيّين عن عمدٍ وسبق إصرار وكذبٍ على الله تعالى الّذى يحبّ المتّقين . ومن مقوّمات التّقوى الأمانة ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية بينما أشارت الآية الكريمة بعد ذلك إلى غضب الله تعالى على هؤلاء الّذين يشترون بعهد الله تعالى وأيمانهم ثمناً قليلاً . وتنصّ الآية الكريمة الرّابعة على تحريف القوم لكتابهم السّماوىّ وزعمهم أنّ تحريفاتهم الّتى عملوا هى من عند الله تعالى . ويتحوّل السّياق إلى أنبياء الله تعالى فيقرّر أنّ هؤلاء المصطفين الأخيار لا يدعون إلّا إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فلا يُدْعَوْن إلى عبادتهم ولا إلى عبادة الملائكة والنّبيّين ، كما يقرّر أنّ الله تعالى قد أخذ على هؤلاء

النّبيّين الميثاق لئن بُعِث خاتم النّبيّين وهم أحياء ليؤمننّ به ، وإنّ أتباعهم داخلون فى ذلك الميثاق ومن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . ويدعو السّياق إلى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ وسبق أن بعث جلّ وعلا به كلّ النّبيّين ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام . ولفت انتباهنا وجه الشّبه الكبير بين الآية الكريمة الرّابعة والثّمانين وبين الآية السّادسة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة . وإذا كان السّياق قد نصّ على أنّ من يبتغى غير الإسلام ديناً لن يقبل منه فقد تحدّث كثيراً عن المرتدّين والعياذ بالله الّذين مصيرهم النّار وبئس القرار . وختم الجزء الثّالث بالآية الكريمة الّتى تدعو إلى الإنفاق ممّا نحبّ كى ننال البرّ وندخل الجنّة بإذن الله تعالى وفضله .

وتحت عنوان تصحيح أخطاء أهل الكتاب درسنا الآيات ٩٣ ـ ٩٩ . لقد حثّت الآية الكريمة الأخيرة فى القسم السّابق على إنفاق المال وهو محبوب ، وإنّ أولى آيات هذا القسم تقرّ أنّ كلّ الطّعام كان حلّاً لبنى إسرائيل إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه تقرّباً إلى الله تعالى فقد نذر إن شفاه الله من مرض عِرْق النّسا أن يحرّم على نفسه أحبّ طعام وهو لحم الإبل وأحبّ شراب وهو ألبانها ، وقد حرّم بنو إسرائيل على أنفسهم ما حرّم يعقوب عليه السّلام على نفسه وقد نزلت التوراة بتحريم ما حرّم يعقوب على نفسه وتحريم أشياء أخر بسبب بغي بنى إسرائيل . لقد صحّح القرآن الكريم خطأ بنى إسرائيل فى هذه المسألة وخطأهم الآخر حينما بيّن لهم أنّ أوّل بيتٍ وضعه الله تعالى فى الأرض لعبادته هو المسجد الحرام وليس المسجد الأقصى كما زعموا ، فعلى أهل الكتاب أن يتّبعوا ملّة إبراهيم عليه السّلام الّتى بعث الله تعالى بها محمّداً ﷺ وأن يحُجُّوا إلى أوّل بيت وأن يمتنعوا عن الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى والعمل على ارتداد المسلمين عن دينهم .

وتحت عنوان : توجيهٌ للمؤمنين وتحذير ، ونعوت الأمّة المؤمنة وصفات الكافرين درسنا الآيات : ١٠٠ ـ ١١٢ وفى الآيات الكريمات تحذيرٌ

للمؤمنين من طاعة أهل الكتاب الّذين يحرصون على ردّ المؤمنين كافرين ، وأمرٌ للمؤمنين بتقوى الله تعالى حقّ تقاته والاعتصام بحبل الله تعالى والشكر لله تعالى الّذى جعلهم إخوة متحابّين وأنقذهم من شفا حفرةٍ من النّار كادوا يتردّون فيها . ويبيّن السّياق واجب هذه الأمّة وهو الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ويبيّن أهم مقوّمات خيرية هذه الأمة وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . ويحذّر السّياق المؤمنين أن يحذواحذو كافرى أهل الكتاب ففى يوم القيامة تبيضّ وجوه المؤمنين وتسودّ وجوه الكافرين . ويصف السّياق أكثر أهل الكتاب بالفسق ويبشّر المؤمنين بأنّ النّصر بإذن الله تعالى حليفهم ما داموا يحملون مقوّمات الخيريّة ، ويقرّر أنّ منتهى ما ينالهم من أهل الكتاب هو أذى ألسنتهم .

وممّا لفت انتباهنا وجه الشّبه الكبير بين آخر آيات القسم وبين الآية الكريمة الحادية والسّتّين من سورة البقرة وتتّفق الآيتان الكريمتان فى بيان أنّ بنى إسرائيل استحقّوا أن يضرب الله تعالى عليهم الذّلّة والمسكنة بسبب عصيانهم فكفرهم بآيات الله تعالى . واستحقّوا غضب الله تعالى بسبب اعتدائهم على حرمات الله تعالى وقتلهم الأنبياء بغير حقّ . وإنّما اختلف ترتيب الصّفات السّيّئة للقوم فى الآيتين الكريمتين لأنّ كلًّا منهما ترتبط بفترة زمنيّة معينة كانت صفات القوم السّيّئة البارزة وفق ترتيبها فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين .

وتحت عنوان : نعوت مؤمنى أهل الكتاب درسنا الآيات ١١٣ ـ ١١٥ فى هذه الآيات الكريمات تبدو نعوت مؤمنى أهل الكتاب الّذين اعتنقوا دين الإسلام وأصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . إنّهم مستقيمون على المحجّة البيضاء ويتلون آيات القرآن الكريم فى الصّلاة وفى غير الصّلاة ويؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر ويسارعون فى الخيرات ويعملون صالح الأعمال الّتى سيثيبهم الله جلّ وعلا عليها .

وتحت عنوان : أعمال الكافرين هباء وصدّهم عن السّبيل حسرة والتّحذير من اتّخاذهم بطانة والأمر بالصّبر والتّقوى درسنا الآيات ١١٦ ـ ١٢٠ يتحدّث هذا القسم عن الكافرين الّذين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم والّذين ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله تعالى وستكون هذه النّفقات حسرةً عليهم يوم القيامة ، وإنّ مَثَل إذهاب الله تعالى أعمال الكافرين الخيّرة فى الحياة الدّنيا هباءً منثوراً وجعل أموالهم الّتى ينفقونها ليصدّوا عن سبيل الله حسرةً عليهم يوم القيامة كمثل ريح أصابت زرع قومٍ فأهلكته . وينهى السّياق عن اتّخاذ غير المؤمنين بطانة لأنّ الكافرين لا يقصّرون فى إلحاق أشدّ الضّرر بالمؤمنين وإنّ ما يجرى على ألسنتهم من فلتات من أبلغ الأدلّة على ما تخفيه صدورهم من بغضاء . وإذا كان المؤمنون يحبّون غير المؤمنين لأنّهم يؤمنون بالكتب السماوية كلّها ، فإنّ غير المؤمنين لا يحبّونهم لأنّهم لا يؤمنون بالكتاب كلّه وهم وراء ذلك منافقون يظهرون لكم خلاف ما يبطنون وإن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيّئةٌ يفرحوا بها،وهذا من الأدلّة على البغضاء الّتى تخفيها صدورهم لكم فعليكم أيها المؤمنون بالصّبر وبتقوى الله تعالى . وإنّ ممّا أصاب المسلمين وفرح له أعداء الله تعالى هزيمة أُحد الّتى يتحوّل إليها السّياق ويتحدّث عنها بأكثر من أىّ موضوعٍ آخر وذلك فى ستّين آية .

وتحت عنوان : غزوة أحد درسنا الآيات ١٢١ ـ ١٨٠ وهذا القسم أكبر الأقسام ويتحدّث عن غزوة أحد والدّروس الكثيرة الّتى تستفاد من الهزيمة كما يتحدّث عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين والمنافقين والكافرين وعن الشّهداء السّعداء .

وإنّ من أهمّ ما لفت الانتباه فى هذا القسم الخطّة العسكريّة النّاجحة الّتى وضعها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فى أحد بعد أن نزل عليه الصّلاة والسّلام على رأى الأغلبيّة بعد درس الشّورى وتحويل الرّأى إلى عزمٍ متوكّلٍ على الله تعالى ، والدّليل على نجاح الخطّة العسكريّة انتصار المسلمين حتّى خالف الرّماة أمر النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم وتركوا الجبل . وقد كان رأي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وخطّته الأساسيّة النّاجحة هى الأخرى،بدليل نجاحها فى غزوة الأحزاب،أن يبقى فى المدينة ولا يخرج إلى المشركين . وإنّ نزول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الموحى إليه من ربّ العالمين على الرّأى الّذى أفضت إليه الشّورى أكبر درسٍ للمسلمين فى الأخذ بمبدأ الشّورى .

وإنّ ممّا لفت الانتباه فى هذا القسم التّرتيب المعجز لمجموعة من المعانى والبناء عليها العدد المساوى لها من المعانى المترتّبة عليها . ومن ذلك وصف المصطفى ﷺ باللّين للمؤمنين ونفى الفظاظة وغلظ القلب عنه ﷺ وقد ترتّب على كلٍّ نعتٍ نعتٌ مبنىٌّ عليه ، وقد تمثّل ذلك فى العفو عن المؤمنين واستغفار الله تعالى لهم ومشاورتهم فى الأمر . قال تعالى : ﴿**فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله . إنّ الله يحبّ المتوكّلين**﴾ ومن ذلك أمر النّاس المؤمنين بأن يخشوا الكافرين ، والنّصّ على زيادة إيمان المؤمنين واستعانتهم بالله تعالى وتوكّلهم عليه جلّ وعلا . قال تعالى : ﴿**الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ قد ترتب على هذه المعانى الأربعة نتائج أربع توّجت بالإشارة إلى فضل الله العظيم . قال تعالى : ﴿**فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتّبعوا رضوان الله . والله ذو فضلٍ عظيم**﴾ .

وتحت عنوان : تعنّت أهل الكتاب وخيانتهم للأمانة درسنا الآيات ١٨١ ـ ١٨٩ ويصحّ أن يقال إنّ المحور الّذى تدور حوله الآيات الكريمات هو تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ، فليس قول بنى إسرائيل الجرىء على الله تعالى بأنّه جلّ وعلا فقيرٌ وأنّهم هم الأغنياء وليس طلبهم ناراً من السّماء تحرق القربان الّذى يقدّمه صلّى الله عليه وسلّم دليلاً على أنّه رسول ربّ العالمين إلاّ تعنّتاً . وليس تكذيب القوم للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلاّ امتداداً للمكذّبين السّابقين ويوم القيامة يحاسب الجميع بين يدي أحكم الحاكمين . وإنّ من مظاهر تعنّت أهل الكتاب ما يسمعه المؤمنون من أذىً كثير منهم ومن الذين أشركوا ، وكتمهم العلم ومن ذلك نعت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم المكتوب فى التّوراة والإنجيل . وتبلغ وقاحة أهل الكتاب شأواً بعيداً حينما يفرحون من سيّىء الأقوال والأفعال وحينما يحبّون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا . إنّ لهم عذاباً أليماً بسبب الفرح وبسبب الحبّ المعكوسين . وإنّ لله تعالى القادر على كلّ شىء ملك السّماوات والأرض .

وتحت عنوان : خواتيم سورة آل عمران درسنا الآيات ١٩٠ ـ ٢٠٠ وهى الإحدى عشرة آيةً الأخيرة فى السّورة الكريمة . وإنّ محور هذه الآيات الكريمات أولو الألباب الّذين يجمعون بين سلامة القلب وسلامة العقل وقد تجلّت ثمرة تلك السّلامة فى ذكر الله تعالى والتّفكّر فى خلق السّماوات والأرض ودعاء الله تعالى وتكرار لفظ الرّبّ الحبيب إلى قلوبهم فى دعائهم .

وقد استجاب الله تعالى دعاء أولى الألباب وأرشدهم إلى المزيد من جليل الأعمال من هجرة وجهادٍ فى سبيل الله وحصولٍ على درجة الشّهادة بفضل الله تعالى ومنّه . ولما كانت السّورة الكريمة تتحدّث عن المؤمنين والكافرين ويدخل فى هؤلاء كافرو أهل الكتاب والمنافقون وقد نال المهاجرون حظّهم فقد تحوّل السّياق إلى الحديث عن الكافرين وفى مقدّمتهم كفّار مكّة . إنّ

على الكافرين أن يستفيدوا من إمهال الله تعالى لهم وألّا يظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً .

ويتحدّث السّياق عن نعوتِ مؤمنى أهل الكتاب الّذين تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين وفى ذلك حثٌّ لكلّ أهل الكتاب كى يحذوا حذوهم .

ولما كان الجهاد فى سبيل الله تعالى كبير موضوعات السّورة الكريمة فقد ختمت السّورة الكريمة بأمر المسلمين بالصّبر ومصابرة الأعداء والمرابطة فى الثّغور وعلى الحدود وبتقوى الله لعلّهم يفلحون . إنّ هذه الأعمال الصّالحة بحاجةٍ إلى أن يكون الباعث عليها تقوى الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا وحده لا شريك له .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

فهرســت الموضــوعات

***

فهرست المصادر والمراجع

القــرآن الكريم

ابن الأثير : عزّ الدّين أبوالحسن على بن أبى الكرم ، الكامل فى التّاريخ . بيروت ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م .

ابن تيمية : أحمد ، الإيمان ، الطّبعة الثّالثة ١٣٩٩ هـ من مطبوعات المكتب الإسلامىّ ، دمشق وبيروت .

ابن حجر : الحافظ أحمد بن علىّ ، فتح البارى بشرح صحيح البخارىّ ، عناية عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، محمّد فؤاد عبدالباقى ، محبّ الدّين الخطيب . المكتبة السّلفيّة بالمدينة المنّورة .

ابن دريد : أبوبكر محمّد بن الحسن ، الاشتقاق ، تحقيق وشرح عبدالسّلام محمّد هارون ، مصر ١٣٧٨ ـ ١٩٥٨ م .

ابن سيده : أبــوالحسن على بن إسمــاعيــل الأنــدلسىّ ، المخصّص ، تصوير بيروت . بدون تاريخ .

ابن عطيّة : أبومحمّد عبدالحقّ بن عطيّة الأندلسىّ ، المحرّر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . تحقيق وتعليق الرّحالى الفاروقى ، عبدالله بن إبراهيم الأنصارى ، السّيّد عبدالعال السّيّد إبراهيم ، محمّد الشّافعى صادق العناتى ، الطّبعة الأولى . قطر ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٧ م .

ابن فارس : أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريّا ، الصّاحبى فى فقه اللّغة . تحقيق السّيّد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٧٧م مقاييس اللّغة ، تحقيق وضبط عبدالسّلام محمّد هارون ، الطّبعة الثّانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م القاهرة .

ابن القيم : شمس الدّين محمّد بن أبى بكر ، التّفسير القيّم ، جمعه محمّد أويس النّدوى . حقّقه محمّد حامد الفقى . دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م طريق الهجرتين وباب السّعادتين ، دار الكتاب العربىّ بيروت بدون تاريخ .

ابن كثير : عماد الدّين أبوالفدا إسماعيل بن كثير ، تفسير ابن كثير ، دار إحياء التّراث العربىّ بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩م .

ابن منظور : جمال الدّين محمّد بن مكرم . لسان العرب بيروت ، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥م .

ابن هشام : أبومحمّد عبدالملك ، السّيرة النّبويّة ، تحقيق مصطفى السّقّا ، إبراهيم الابيارى ، عبدالحفيظ شلبى ، دار إحياء التّراث العربىّ ، تصوير بيروت ، لبنان . ١٩٨٥م وتحقيق محمّد محيى الدّين عبدالحميد ، دار الفكر . بدون تاريخ .

أبوحيّان : محمّد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيّان ، البحر المحيط ، بيروت . أوفست .

الأصبهانى : أبومحمّد عبدالله بن محمّد بن جعفر ، كتاب الأمثال فى الحديث النّبوىّ . تحقيق د. عبدالعلىّ

عبدالحميد . سلسلة مطبوعات الدّار السّلفيّة رقم ٤٣ بومباى الهند ، الطّبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

الأصفهانى : أبوالقاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب . المفردات فى غريب القرآن ، تحقيق محمّد سيّد الكيلانى ، دار المعرفة ، بيروت لبنان بدون تاريخ .

باجودة : حسن محمّد ، تأمّلات فى سورة الأحزاب ، مكّة المكرّمة ١٤٠٣هـ تأمّلات فى سورة الإسراء ، دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٨م تأمّلات فى سورة الرّعد ، دار الاعتصام القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

البخارى : أبوعبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم ، كتاب الصّحيح . كتاب الشّعب ١٣٧٨ هـ .

الثّعالبى : أبومنصور عبدالملك بن محمّد بن إسماعيل . فقه اللّغة وسرّ العربيّة . تحقيق مصطفى السّقّا ، إبراهيم الأبيارى عبدالحفيظ شلبى . القاهرة ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

الخضرى : محمّد ، نوراليقين فى سيرة سيّد المرسلين ، الطّبعة الثّانية ، دار المعارف للطّباعة ، بدون تاريخ .

الزِّركلى : خير الدّين ، الأعلام . الطّبعة الخامسة بيروت ١٩٨٠م .

الزّمخشرى : أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشرى الخوارزمى ، الكشّاف ، مصر ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م .

سابق : السّيّد ، فقه السّنّة ، الطّبعة الأولى بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م .

السّقا : مصطفى ، مختار الشّعر الجاهلىّ ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨م .

السّيوطى : جلال الدّين عبدالرّحمن ، الإتقان فى علوم القرآن ، تحقيق محمّد أبوالفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤م .

الجلالين : جلال الدين المحلّى وجلال الدين السيوطى .

صافى : محمود ، الجدول فى إعراب القرآن وصرفه . تصنيف محمود صافى مراجعة لينه الحمصى طبع على نفقة إدارة إحياء التّراث الإسلامىّ دولة قطر ١٤٠٦/١٩٨٦م .

الطّبرىّ : أبوجعفر محمّد بن جرير ، جامع البيان فى تفسير القرآن ، الطّبعة الأولى بولاق ١٣٢٩هـ ودار المعارف بمصر ١٩٦٠م تحقيق محمود محمّد شاكر ، تراث الإسلام .

العسكرىّ : أبوهلال ، الفروق اللّغويّة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

الفيروزآبادى : مجدالدّين محمّد بن يعقوب ، القاموس المحيط .

القرطبىّ : أبوعبدالله محمّد بن أحمد الأنصارى ، تفسير القرطبىّ ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشّعب . القاهرة بدون تاريخ .

المودودى : أبوالأعلى ، الحجاب ، القاهرة ١٩٧٧م .

النّدوى : أبوالحسن على الحسنى النّدوى . السّيرة النّبويّة الطّبعة الأولى ، دار الشّروق ، جدّه ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

النّووى : يحيى بن شرف ، رياض الصّالحين . تصوير بيروت ، بدون تاريخ .

النّيسابورى : نظام الدّين الحسن بن محمّد بن حسين ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، مطبوع بهامش تفسير الطّبرى ، بولاق ١٣٢٩ هـ .

الواحدى : أبوالحسن على بن أحمد الواحدى النّيسابورى ، أسباب النّزول ، تحقيق السّيّد أحمد صقر الطّبعة الثّالثة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م دار القبلة جدّه مؤسّسة علوم القرآن سوريا دمشق . بيروت .

الهاشمى : السّيّد أحمد . القواعد الأساسيّة للّغة العربيّة . دار الكتب العلميّة . بيروت . لبنان . بدون تاريخ .

* * *

اصدارات النادى الأدبى الثقافى بجدة

● الاصدارات التى صدرت من ١٣٩٥ إلى ١٣٩٩هـ :

١ ـ قمم الألمب « شعر » للأستاذ محمد حسن عواد (نفد) ١٣٩٥هـ .

٢ ـ الساحر العظيم « ملحمة شعرية » للأستاذ محمد حسن عواد (نفد) ١٣٩٥هـ .

٣ ـ عكاظ الجديدة « شعر » للأستاذ محمد حسن عواد (نفد) ١٣٩٦هـ .

٤ ـ الشاطىء والسراة « شعر » للأستاذ محمود عارف ، ضم الى مجموعته الكاملة ١٣٩٦هـ .

٥ ـ عالم البحار « الأسماك والطيور والجزر فى البحر الأحمر » العقيد متقاعد صالح بن مشيلح (نفد) ١٣٩٦هـ .

٦ ـ من شعر الثورة الفلسطينية « شعر » للأستاذ أحمد يوسف الريماوى (نفد) ١٣٩٦هـ .

٧ ـ أنين وحنين « شعر شعبى » للأستاذ الشريف منصور بن سلطان ١٣٩٧هـ .

٨ ـ محرر الرقيق « سليمان بن عبدالملك » للأستاذ محمد حسن عواد (نفد) ١٣٩٧هـ .

٩ ـ من وحى الرسالة الخالدة « مقالات اسلامية » للأستاذ محمد على قدس (نفد) ١٣٩٩هـ .
١٠ ـ طبيب العائلة ، د . حسن يوسف نصيف (نفد) ١٣٩٩هـ .
١١ ـ المنتجع الفسيح « حلم عربى » للأستاذ محمد حسن عواد (نفد) ١٣٩٩هـ .
١٢ ـ مذكرات طالب ، ط ٣ ، للدكتور حسن يوسف نصيف (نفد) ١٣٩٩هـ .

● **الكتب التى صدرت من عام ١٤٠٠هـ :**

١ ـ ورد وشوك ، ط ٢ « مطالعات أدبية » للأستاذ حسن عبدالله القرشى ١٤٠٠هـ .
٢ ـ شمعة على الدرب « مقالات أدبية » للدكتور عارف قياسة ١٤٠١هـ .
٣ ـ فى معترك الحياة « مقالات ونقد » للأستاذ عبدالفتاح أبومدين ١٤٠٢هـ .
٤ ـ أطياف العذارى « شعر » للأستاذ مطلق مخلد الذيابى ١٤٠٢هـ .
٥ ـ كبوات اليراع « الجزء الأول ، تصويبات لغوية » للشيخ أبى تراب الظاهرى ١٤٠٢هـ .
٦ ـ الوجيز فى المبادى السياسية فى الإسلام ، للأستاذ سعدى أبوجيب ١٤٠٢هـ .

٧ ـ أوهام الكتاب « تصويبات لغوية » للشيـخ أبي تراب الظاهري ١٤٠٣هـ .
٨ ـ علي أحمد باكثير ، حياته وشعره الوطني والإسلامي للدكتور أحمد السومحي ١٤٠٣هـ .
٩ ـ عندما يورق الصخر « شعر » للأستاذ ياسر فتوى ١٤٠٣هـ .
١٠ ـ الكلب والحضارة « قصص قصيرة » للأستاذ عاشق الهذال ١٤٠٣هـ .
١١ ـ اغتيال القمر الفلسطيني « شعر » للأستاذ أحمد مفلح ١٤٠٣هـ .
١٢ ـ شعر أبي تمام « دراسة أدبية متميزة » للأستاذ سعيد مصلح السريحي ١٤٠٤هـ .
١٣ ـ حروف على أفق الأصيل « شعر » للأستاذ حمد الزيد ١٤٠٤هـ .
١٤ ـ شواهد القرآن ـ الجزء الأول ـ للشيخ أبي تراب الظاهري ١٤٠٤هـ .
١٥ ـ أريد عمراً رائعاً « شعر » للأستاذ عبدالله محمد جبر ١٤٠٤هـ .
١٦ ـ المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر محمد ابراهيم جدع ١٤٠٤هـ .
١٧ ـ الذيابي تاريخ وذكريات ـ اعداد الشريف منصور بن سلطان ١٤٠٤هـ .

١٨ ـ بقايا عبير ورماد « شعر » للأستاذ محمد هاشم رشيد ١٤٠٤هـ .
١٩ ـ محاضرات النادى ـ الجزء الأول ـ ١٤٠٤هـ .
٢٠ ـ من أدب جنوب الجزيرة « دراسة » للأستاذ محمد بن أحمد العقيلى ١٤٠٤هـ .
٢١ ـ غناء الشادى « شعر » للأستاذ مطلق مخلد الذيابى ١٤٠٤هـ .
٢٢ ـ التشكيل الصوتى فى اللغة العربية ـ للدكتور سلمان العانى ١٤٠٤هـ .
٢٣ ـ ترانيم الليل « المجموعة الشعرية الكاملة » للشاعر محمود عارف (جزءان) .
٢٤ ـ المتنبى شاعر مكارم الأخلاق ـ للأستاذ محمد بن أحمد الشامى ١٤٠٤هـ .
٢٥ ـ هموم صغيرة « أقاصيص » للأستاذ محمد على قدس ١٤٠٤هـ .
٢٦ ـ نغم وألم « شعر » للأستاذ الشريف منصور بن سلطان ١٤٠٥هـ .
٢٧ ـ الخطيئة والتكفير من البنيوية الى التشريحية « دراسة متميزة » للدكتور عبدالله الغذامى ١٤٠٥هـ .
٢٨ ـ أحبك رغم أحزانى « شعر » للدكتور فوزى سعد عيسى ١٤٠٥هـ .
٢٩ ـ أمواج وأثباج ـ ط ٢ « مقالات أدبية » للأستاذ عبدالفتاح أبومدين ١٤٠٥هـ .

٢٩ (مكرر) ـ أحاديث « مقالات ثقافية » للدكتور محمد سعيد العوضى ١٤٠٥هـ .

٣٠ ـ محاضرات النادى « الجزء الثانى » ١٤٠٦هـ .

٣١ ـ التراث الثقافى للأجناس البشرية فى أفريقيا « دراسة علمية » للدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر ١٤٠٦هـ .

٣٢ ـ فلسفة المجاز « دراسة لغوية » ط ٢ ـ للدكتور لطفى عبدالبديع ١٤٠٦هـ .

٣٣ ـ بكيتك نوارة الفال ، سجيتك جسد الوجد « شعر » عبدالله عبدالرحمن الزيد ١٤٠٦هـ .

٣٤ ـ عبقرية العربية « دراسة لغوية » ط ٢ ـ للدكتور لطفى عبدالبديع ١٤٠٦هـ .

٣٥ ـ التجديد فى الشعر الحديث « دراسة أدبية » للدكتور يوسف عزالدين ١٤٠٦هـ .

٣٦ ـ مصادر الأدب النسائى « مشروع دليل للأديبة العربية » للدكتور جوزيف زيدان ١٤٠٦هـ .

٣٧ ـ محاضرات النادى ـ **الجزء الثالث** ١٤٠٧هـ .

٣٨ ـ دليل كتاب النادى ـ « رصد بيلوجرافى لاصدارات النادى حتى عام ١٤٠٥هـ » ١٤٠٧هـ .

٣٩ ـ التضاريس « شعر » للأستاذ محمد عواض الثبيتى ١٤٠٧هـ .

٤٠ ـ ٤ صفر « رواية » للأستاذة رجاء عالم ١٤٠٧هـ .

٤١ ـ علم اجتماع اللغة ـ للدكتور أبى بكر باقادر ١٤٠٧هـ .

٤٢ ـ ديوان على دمر ـ المجموعة الشعرية الكاملة ١٤٠٧هـ .

٤٣ ـ أقضية وقضاة فى الإسلام ـ للدكتور كمال محمد عيسى ١٤٠٧هـ .
٤٤ ـ أحبك ولكن « قصص قصيرة » للأستاذة مريم محمد الغامدى ١٤٠٨هـ .
٤٥ ـ وداعا هالى « دراسة علمية عن مذنب هالى » للدكتور محمد عبده يمانى ١٤٠٨هـ .
٤٦ ـ علم الأسلوب « دراسة نقدية » للدكتور صلاح فضل ١٤٠٨هـ .
٤٧ ـ مدخل إلى الشعر الحديث « دراسة نقدية » للدكتور نذير العظمة ١٤٠٨هـ .
٤٨ ـ محاضرات النادى ـ الجزء الرابع ١٤٠٨هـ .
٤٩ ـ محاضرات النادى ـ الجزء الخامس ١٤٠٩هـ .
٥٠ ـ محاضرات النادى ـ الجزء السادس ١٤٠٩هـ .
٥١ ـ جزر فرسان ـ للعقيد متقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربى ١٤٠٩هـ ، « طبعة ثانية » .
٥٢ ـ محاضرات النادى ـ الجزء السابع ١٤٠٩هـ .
٥٣ ـ اللغة بين البلاغة والأسلوبية « دراسة نقدية » للدكتور مصطفى ناصف ١٤٠٩هـ .
٥٤ ـ شواهد القرآن ـ الجزء الثانى ـ للشيخ أبي تراب الظاهرى ١٤٠٩هـ .
٥٥ ـ الفكر السيكيولوجى « دراسة أدبية » للدكتور حمد المرزوقى ١٤٠٩هـ .

٥٦ ـ مورفولوجيا الحكاية الخرافية « ترجمة » للدكتور أبي بكر باقادر والدكتور أحمد نصر ١٤٠٩هـ .

٥٧ ـ طه حسين والتراث « مقالات أدبية » للدكتور مصطفى ناصف ١٤١٠هـ .

٥٨ ـ ذاكرة لأسئلة النوارس « شعر » للأستاذ عبدالله الخشرمي ١٤١٠هـ .

٥٩ ـ قراءة جديدة لتراثنا النقدي « بحوث نقدية لعدد من النقاد » جزءان ١٤١١هـ .

٦٠ ـ حديث القلم « مقالات أدبية » للدكتور محمد رجب البيومي ١٤١١هـ .

٦١ ـ محاضرات النادي ـ الجزء الثامن ١٤١١هـ .

٦٢ ـ الوحوش للاصمعي ، تحقيق الأستاذ أيمن محمد على ميدان (كنوز التراث) ١٤١١هـ .

٦٣ ـ في مفهوم الأدب لتردوروف « ترجمة » الدكتور منذر عياشي ١٤١١هـ .

٦٤ ـ في نظرية الأدب عند العرب ـ للدكتور حمادى صمود ١٤١١هـ .

٦٥ ـ في النص الأدبي « دراسة أسلوبية احصائية » للدكتور سعد مصلوح ١٤١١هـ .

٦٦ ـ شعر حسين سرحان « دراسة نقدية » للأستاذ أحمد عبدالله صالح المحسن ١٤١١هـ .

٦٧ ـ محاضرات النادي ـ الجزء التاسع ١٤١١هـ .

٦٨ ـ محاضرات النادي ـ الجزء العاشر ١٤١١هـ .

٦٩ ـ حكم الله فى الصيد وطعام أهـل الكتاب ـ ط ٢ ـ للأستاذ مختار أحمد العيساوى ١٤١١هـ .

٧٠ ـ خصام مع النقاد « مقالات فى النقد والأدب » للدكتور مصطفى ناصف ١٤١١هـ .

٧١ ـ لم السفر ، نبوءة الخيول « شعر » للأستاذ حسين عجيان العروى ١٤١٢هـ .

٧٢ ـ ثقافة الأسئلة « مقالات فى النقد والابداع » للدكتور عبدالله الغذامى ١٤١٢هـ .

٧٣ ـ أدبنا فى آثار الدارسين « بحوث فى القصـة والشعر والنقد » للدكاترة منصور الحازمى ، محمد العيد الخطراوى ، عبدالله المعطانى ١٤١٢هـ .

٧٤ ـ تهذيب اللسان وتقويم البنان « تصـويبات لغـوية » للأستاذ مختار أحمد العيساوى ١٤١٢هـ .

٧٥ ـ قطرات المداد « مقالات فى الأدب » للدكتور محمد رجب البيومى ١٤١٢هـ .

٧٦ ـ ديوان «عمرو بن كلثوم» ـ، تحقيق الدكتور أيمن محمد على ميدان (طبع) .

٧٧ ـ كتابة القصة القصيرة ، « ترجمة » ، للدكتور مانـع الجهنى (طبع) ـ ١٤١٣هـ .

٧٨ ـ تجربتى الشعرية ، للأستاذ فاروق شوشة (طبـع) ـ ١٤١٢هـ .

٧٩ ـ علامات استفهام فى النقد والأدب ، للدكتور على شلش (طبع) ـ ١٤١٢هـ .

٨٠ ـ منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق ، للدكتور أحمد عمر هاشم (طبع) ـ ١٤١٣هـ .

٨١ ـ محاضرات النادى ، الجزء (١١) ، (طبع) ـ ١٤١٣هـ .

٨٢ ـ مفاهيم إيمانية ، للدكتور كمال عيسى (طبع) ـ ١٤١٣هـ .

٨٣ ـ أدب الأطفال ، للأستاذ عبدالتواب يوسف ، طبع ١٤١٣هـ .

٨٤ ـ السكر المر ، رواية قصيرة ، الدكتور عصام خوقير ، طبع ١٤١٣هـ .

٨٥ ـ القلب الفاضح ، قصص عالمية ، ترجمة خالد العوض ، طبع ١٤١٣هـ .

٨٦ ـ محاضرات النادى الجزء (١٢) طبع ١٤١٣هـ .

٨٧ ـ تأملات فى سورة (آل عمران) للدكتور حسن باجودة ـ طبع ١٤١٣هـ .

● **كتب متخصصة :**

سلسلة إسلاميات « محاضرات فى العقيدة والدين والثقافة الإسلامية » ـ خمس كتب ١٤١٠هـ .

● **علامات « كتاب دورى فى النقد الأدبى » :**

١ ـ الجزء الأول ـ المجلد الأول ـ ذو القعدة ١٤١١هـ .

٢ ـ الجزء الثانى ـ المجلد الأول ـ جمادى الآخرة ١٤١٢هـ .

٣ ـ الجزء الثالث ـ المجلد الأول ـ شعبان ١٤١٢هـ .

٤ ـ الجزء الرابع ـ المجلد الأول ـ ذو الحجة ١٤١٢ .

٥ ـ الجزء الخامس ـ المجلد الثانى ـ ربيع الأول ١٤١٣هـ

● **تحت الطبع :**

- ميناء جدة فى القرن الثالث عشر ، للدكتور مبارك المعبدى .
- المعجم المفسر لألفاظ النبات فى القرآن الكريم ، للأستاذ مختار فوزى .
- بين الأدب والسياسة للدكتور عبدالله مناع .
- مرافىء الامل ، للدكتور محمد العبد الخطراوى .

دار البلاد للطباعة والنشر
جـــدة